

النظام الاجتماعي في القصيدة

المأزق الاجتماعي للثقافة
كلام في فلسفة الشعر

إبراهيم أبو عواد

مقدمة

إن هذا الكتاب بأركانه الثلاثة عبارة عن محاولة شخصية لكشف البنى الاجتماعية _ بكل تفاصيلها _ في القصيدة والثقافة ، واكتشاف الأنساق اللغوية المعتمدة على التجريد والتعريف ، والذهاب إلى ما وراء النص بُغية الحصول على صيغة معرفية متكاملة . والأفكار الموجودة في هذا الكتاب هي أفكار ذاتية وخواطر شخصية ، دون العودة إلى أي مرجع أو مصدر . وهذه الأفكار عبارة عن بذرة تنتظر من يأتي ليسقيها ويُنمّيها. وهذه هي متعة التراكم المعرفي . وكما هو معلوم ، ليس شرطاً أن يكون الزارع هو الحاصد. والعلم هو تراكمات مستمرة تتحرك في الأزمنة المختلفة، والأمكنة المتغيرة . وليس يُوسّع أحد بمفرده تشكيل علم قائم بذاته . ففي أحسن الأحوال ، يستطيع المبدع وضع الأصول ، أو الفروع ، أو إيجاد روابط بين الفروع والأصول . وقد حاولت _ في هذا الكتاب _ تأصيل القضية الشعرية، ووضع الأسس المعرفية للنظام الاجتماعي في القصيدة، وترسيخ جذور علم اجتماع القصيدة ، وإظهار العلاقات المتشابكة في المأزق الاجتماعي للثقافة ، وإبراز معالم فلسفة الشعر . وكل هذه المحاولات الحثيثة هي شرارة معرفية ، أو عملية رمي حجر في الماء الراكد .

ولا يخفى أن الإيمان بالقضايا الكبرى هو المنطلق الحقيقي لأنسنة السلوك الاجتماعي، وتوضيح القيم العاطفية الثورية . وقد آن الأوان لإرجاع الأدب إلى إنسانية المجتمع المتحرك في مادية عمياء شرسة . ويمكن القول إن الأدب هو القوة الفاعلة في حياة الفرد ، والمحرك الحقيقي للجماعة . فهو المعبر عن الطموحات الكبرى، والآمال العريضة، والتاريخ الحضاري. وإن إقصاءه من الحياة العامة من شأنه توسيع الفجوة بين الإنسان وإنسانيته ، وقتل الهوية الجماعية للحضارة البشرية ، وتحويل الإنسان إلى وحش .

ومن خلال هذا المنظور الكلي ، يبرز النظام الاجتماعي في القصيدة كحالة معرفية شاملة ، وتبرز _ كذلك _ القوة الضاربة لهذا النظام، ألا وهي " علم اجتماع القصيدة " . فالنظام الاجتماعي في القصيدة بمثابة حاسة البصر، وعلم اجتماع القصيدة بمثابة عملية النظر. وبالتالي ، فهما كيان واحد متكامل لا مكان فيه للانفصال أو التعارض. و"علم اجتماع القصيدة" هو العلم الذي يدرس القصيدة على أنها مجتمع متحرك ذهنياً وواقعياً، ويقوم بتشريحه إلى أنويته الأساسية انطلاقاً من فكرة الانبعاث المتجدد ، ويحدد قيم الاندماج والتمايز والحقيقة والمجاز في بؤرة الحلم الشعري.

و"عِلْمُ اجتماع القصيدة " إذا لم تُرافقه نزعة إنسانية تضع يدها على أحاسيس الكائنات الحية، فسَوْفَ يغدو عِلْماً فلسفياً غارقاً في التنظير والتجريد والغمق والملل . والتعويل في هذا السياق إنما هو على اللغة الشعرية، والرّهان الحقيقي يكون على فلسفة اللغة. فاللغة تؤسس عِلْمَ اقتصاد خاصاً بها ، حيث يتمُّ وَضْعُ الألفاظ في ذاكرة المعاني، وَوَضْعُ المعاني في فضاء الألفاظ ، وَوَضْعُ الألفاظ والمعاني في أقصى مدى ممكن. ويمكن القول إن اللغة هي اقتصاد الوعي ، واختزال الذهن . وهذان المفهومان يَضَعان الذاكرة الإنسانية في أقصى مداها الشعري .

وكلُّ الفلسفات الذهنية التشويرية كامنةٌ في اللغة ، فاللغة هي العوالم الملموسة ، والعوالم المتخيّلة في آنٍ معاً. ونحن _ عندما نتعامل مع رمزية اللغة _ لا نهرب من واقعية الأنساق الواقعية، ولا نخترع لحظات صدام بين اللفظ والمعنى ، وإنما نقذف ذاتنا في فوهة الكلمة من أجل تشكيل المشاعر الإنسانية والعناصر الطبيعية على صورة ثورات معرفية مستمرة. وهذا التشوير المتواصل يَحْقِنُ القصيدة بالحراك الاجتماعي وانفجارات الأبحدية . ومهما يكن من أمر ، فالكتابة الشعرية ستنظّل واقعية الوجود البشري الذي يتحرك باتجاه حلم لا تأكله إحباطات السياسة ، وانهارات العناصر الاجتماعية ، ومُزورث الوهم ، وميراث القمع . وسَوْفَ تظل اللغة نداءً غريزة البقاء في تضاريس الحلم الاجتماعي الكُلّي . وفي ظل هذا الزخم الفكري ، سيصبح جسد القصيدة تجسيداً للمعرفة الإنسانية، وصورة حيّة للمعنى المتمركز في مدارات الوجود الحالم. وهذا يَمنع نشوء عداوة بين الشاعر ولغته .

والقصيدة هي الثورة الذهنية الواقعية الأكثر قدرة على استشراف الواقع المتخيّل، ذلك الواقع المعجون بالطموح الإنساني الواعي . وحرّيّ بنا أن ندرس القصيدة بوصفها كائناً حيّاً يَسْتَشْرِفُ أحلام المستقبل، ويحوّلها إلى مسارٍ فكري وطريقة معرفية لفهم تحولات الذات الإنسانية ، والغوص في أعماقها الشعرية . والقصيدة كَيُونُهُ شعورية قائمة بذاتها، تَجْمَعُ قِيَمَ الموت والحياة ، وليست معنيةً بتاريخ الوقائع الاجتماعية. فهذه مهمة المؤرّخ لا الشاعر . فالشاعر يسعى _ بكل ما أُوتي من مهارة وثقافة _ إلى إعادة تشكيل الواقع وفق منظورٍ سحري ، وصناعة القصيدة (السبّكة الوجودية المتميّزة) باعتبارها ظاهرة شمولية تعتمد على صياغة الأبعاد المعرفية في قوالب كاسرة للقوالب والتقليدية . وهكذا ، يُوضَع النصُّ الشعري في أقصى مداه الإنساني ، فيُصبح من الصعب اجتثاث الطموح الفردي أو اقتلاع الحلم الجماعي . ولا بُدَّ من كسر الحواجز التي تُوضَع بين الشاعر وجنينه الشعري ، وبين الشاعر والمتلقي ، وبين الجنين الشعري والمتلقي . وهذا لا

يتأتى إلا بالعمل الجاد من أجل صناعة منظور فكري يستلهم الأبعاد الرمزية للحضارة واللغة .
والقصيدة هي ثورة المجتمع المثالي العابرة لحدود الزمكان (الزمان _ المكان) . وحين يتم بناء
الفلسفة الشعرية على رمزية اللغة، فإن النص سوف يسيطر على مفاسل المجتمع شعورياً وواقعياً.
وهذا ليس غريباً ، فالشعر كيمياء خاصة . والفلسفة الشعرية قائمة على اللغة ، واللغة هي المرجعية
الفلسفية للشعر .

إن القصيدة تحفظ شباب اللغة ، وتؤسس مجتمعاً كلماتياً خاصاً بها . وهذا المجتمع يمثل
فعلاً اجتماعياً يزواج بين الرمز اللغوي والتاريخ الحضاري للإنسان . والقصيدة تموت في ولادة
الشاعر، وتولد من مؤتها كي تحيا حاملة معها حياة العناصر . كما أن الكتابة الشعرية مؤت متتابع
لكي يولد المعنى . أمّا العاطفة الشعرية فهي حفلة زواج بين الزمان والمكان . وفي ظل هذه
المعطيات ، تظهر حقائق أساسية تتعلق بمسار القصيدة ومصيرها ، من أبرزها : القصيدة هي
الوعاء الإنساني الأكثر قدرة على تجسيد براعة اللغة ولمعانها الصاعق . والقصيدة هي انتقام
الضحية من العالم ، وهي تعويض معنوي للمظلومين في عالم ظالم . والقصيدة وطن من لا وطن له
 . وكما هو معلوم ، لا توجد معركة من أجل المعركة ، وكذلك، لا توجد قصيدة من أجل القصيدة .

إن الأدب حياة إنسانية شديدة التكثيف تندفق في فضاءات الروح والمادة ، وأساس رُوحِي
للنهضة والاندفاع، وخلفية حضارية للوجود الإنساني . وللأسف ، فهناك أدباء كثيرون لم يستوعبوا
هذا المعنى السامي . فمنهم من يتاجر بجسد المرأة تحت راية الدفاع عن حقوق المرأة . ومنهم
من يتاجر باسم الوطن والمنافي ، وهو يقضي وقته في الفنادق الفخمة . ومنهم من يتخذ من
الإلحاد فلسفةً ومنهجاً ، ويروجه على أنه الحداثة والتجديد في دنيا الشعر . وهو ليس بأكثر من
مقلد ناسخ مُصاب بعقدة الخواجة ، وغارق في جدلية " المغلوب مُولع بتقليد الغالب " . وهذا
النسخ الأعمى أبعد ما يكون عن الإبداع . فلا يمكن للبيغاء الأعمى أن ينتج أدباً راقياً ، وفلسفةً
ساميةً ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، ولا يمكن جني العنب من الشوك .

والحداثة في الأدب لا تعني نسخ الأدب الغربي ، وتقديمه للقارئ العربي بعد تغليفه بوهم
التجديد . وللأسف، فهذا ما يفعله المتغربون من أبناء جلدتنا الذين خلعوا جلدتهم ، لأنهم
مهزومون نفسياً، ومصابون بعقدة الخواجة . فالحداثة الحقيقية في السياق العربي إنما تنبع من قيم
الحضارة العربية الإسلامية . والطريق إلى الفضاء الخارجي إنما ينبع من الغوص في الذات ،
والطريق إلى العالمية يبدأ من الحارة الشعبية، ولا يبدأ من نسخ التجارب الشاذة عن المسار

الحضاري ، والتي نالت الشهرة والمجد الوهمي بسبب التكريس الإعلامي، وقوة الآلة الدّعائية لا قوة المنطق الذاتي . والجدير بالذكر أن التاريخ لا تكتبه الأرصدة البنكية والقصور والسيارات ، وإنما يكتبه المثقفون الذين هم نُخبة المجتمع ، وخرّاسُ مَوروثه الحضاري ، وصنّاعُ أحلامه . وهذه الرؤية المصيرية ينبغي اعتمادها في كل المؤسسات بسبب حجم المسؤولية الهائل. ولا يخفى أن الجهد المؤسسي الضخم يحتاج إلى تضافر الطاقات، ولا يمكن للفرد مهما علا كعبه أن يقوم به وحيداً.

إن البعض يعتقد أن تطور المجتمعات الإنسانية يستند إلى نهضة تكنولوجية مادية مُجرّدة من الآداب والفنون. وهذا اعتقاد وهمي. فالأمم المتقدّمة تكنولوجياً لا بُد أن تكون متقدمة أدبياً وفنياً، والعكس غير صحيح . فعلى سبيل المثال ، نجد أن الأمة العربية تعيش أزمة معرفية شديدة الوطأة ، وهي مُحاصرة بأشباح التخلف التقني، لكن هذا لا يعني أنها متخلفة حضارياً أو أدبياً . إنها تعجّ بالمبدعين والعلماء والفلاسفة والأدباء الذين يستطيعون مُقارعة أكبر المبدعين في العالم ، والتفوق عليهم بسهولة . لكنّ المشكلة الأساسية أن الأنظمة السياسية في العالم العربي منهارة ، وبالتالي لا تستطيع حماية إنجازات المبدعين ، أو إيصالهم إلى العالمية . وهذا يُساهم في إقصاء المبدع العربي ، وتصنيفه كدرجة ثانية أو ثالثة بسبب انتمائه إلى العالم الثالث . وللأسف ، يُصبح المعيار الحاكم هو قوّة النظام السياسي لا قوة النصّ الإبداعي. إذن، فالمبدع العربي يدفع ثمن الانكسار السياسي للنظام الذي يحكمه . وعندما نقول _ مثلاً _ : مُبدع أمريكي أو بريطاني أو فرنسي .. إلخ ، ندرك أنه ينتمي إلى دولة قوية قادرة على تقديمه للعالم . وهذا ما ينقص المبدع العربي . لقد فشَلنا في صناعة السيارات والطائرات، أي فشَلنا في النواحي المادية المحضة، لكننا ما زلنا نصنع مجدداً أدبياً لافتاً . ومن الخطأ تصنيف أمتنا في الآداب والفنون كأمة مُتخلفة ، لأننا متخلفون في مجال التكنولوجيا . فلا توجد مُعادلة علمية تقضي بأنّ الذي لا يُتقن صنْع الحديد لا يُتقن صنْع الإنسان . وهذا يدفعنا إلى العمل بجِد لتشكيل حالة من التوازن بين الناحيتين المعنوية والمادية. فالمجتمع الذي يُنجب فلاسفة بارزين وأدباء متمكنين وعلماء أفاضاً ، لا بد أن يشحذ همته من أجل صناعة السيارة والطائرة .. إلخ .

وأخيراً وليس آخراً ، إن هذا الكتاب يربط البنية الاجتماعية بالكيان الشعري ، ويُنبّ عن العلاقات الاجتماعية في بُنية القصيدة وبُنية الثقافة . وهذا الأمر ليس ترفاً أو إضاعة للوقت ، فالفكر حياة للفرد وإحياء للجماعة . وليس بالخبز وَحده يحيا الإنسان .

أولاً :

النظام الاجتماعي في القصيدة

تمهيد

إنَّ ولادة الكلمات الثَّورية في النص القصائدي ، تتم بواسطة زرع ثورة اللفظة والمعنى في أرجاء النص عن طريق بناء تكوينات فلسفية مُبتكرة ومُدهشة وصادمة للمألوف ، وهذا يتحقق في نفسية الشاعر الثَّوري أولاً ، ثم يهبط على النتاج الأدبي الشَّعري .

وهذه الولادة المتفجرة لها تشكيلان :

الأول _ تشكيلٌ بصري فاقع لا متلاكه عناصر الرؤية الفنية التي تُختصر في صدمة الصورة المتخيَّلة التي تهز الواقع هزاً ، وتُفرغه من محتواه السلبي لصالح الصورة الفنية الساطعة التي تملأ نفسية الصانع والمتلقي على السواء .

والثاني _ تكوين سمعي يهز أركان المتلقي من أجل حشده بالقيم النبيلة المطلقة . فالعنصر السمعي موسيقى داخلية تنبع بالأساس من الصورة المتفردة ، ولا ضير أن تنبع من الأوزان الشَّعرية، لكن الأولوية للصورة المتدفقة التي يجب أن تأخذ مسارها الماحي الهادر دون حواجز لغوية أو أوزان قد تعيق التصوير الصادم ذا المعاني المبتكرة . فالموسيقى تهز الإنسان حتى لو لم يفهمها ، فرققة العصافير _ على سبيل المثال _ تثير الخيال ، وتهز الأحلام ، وتحركُ ثوريةً عاطفة ، دون أن يفهمها المتلقي ، وقد تصل القصيدة _ أحياناً _ إلى هذا الطَّور .

والولادة الشَّعرية إنما تأتي بعد مخاض عسير بالغ التعقيد ، لأن الشَّعر صوتٌ لا صدى ، والكلام مجتمعٌ قائم بذاته له أركانه الاستقلالية الانقلابية . الاستقلالية هي شرعية النص الشاسع الثائر، والانقلابية قدرةٌ مخيالية (خيالية مُكثَّفة ومُكثَّفة) على قلب الواقع المادي ، وتحويله إلى معانٍ مطلقة جمالية بُغية عَقْلنة المعنى (جعله عقلاً واضحاً في أساليب تشريح البنية الزمكانية [الزمانية _ المكانية])، ووَقْعنة الخيال (جعله واقعياً مُرادِفاً للوجود النظري لعوالم الإنسان غير المنظور) .

ولا بد أن يكون الشَّعرُ نبيلاً شريفاً طاهراً لا يُهادن ولا يُساوم ، ومع هذا فالقصيدة ليست خطبة الجمعة أو نصاً دينياً مقدساً ، بل هي إسهام بشري يلهث وراء الكمال ، وفي طريقه يستلهم الجمال ، ويهز المجتمع البشري بصورة متوازنة بلا إفراط ولا تفريط ، فلا تشاؤم موغل في اليأس والعدمية والسوداوية، ولا تفاؤل مخدَّر يخدع الإنسانَ العائش في المكان الصعب والزمان الصعب والظروف النفسية الصعبة .

ووظيفة الشعر هي العثور على الربيع داخل تفاصيل الخريف ، لأن الكلمات أقوى مجتمع قد يصل إليه إدراكات العقل البشري المادية والمعنوية . وللحصول على استقلالية انقلابية معقولة ينبغي أن يتحلى النص الشعري بحكم ذاتي لا يخضع للابتزاز أو السمسرة ، وإنما يستند إلى شرعية الرؤية المتفردة ، وسياسة المنحى الشعري ، وإمكانية تحصيل إبداع فذ في أكثر الأماكن حصاراً وفقرًا من الناحية الجمالية .

إن الانطباع المنحوت في رئة التشكيل البصمي (البصري _ السمعي) يكون حقيقياً إذا وُظف ضد أيديولوجية الخوف والانهيال القيمي ، والسبب في ذلك يعود إلى تفرد العاطفة الجياشة المعقّنة (المحسوبة بعقلانية) في مسارها نحو نظرية اجتماعية مبنية على النص الخلاق . وهذا البناء يقودنا إلى ابتكار نظام لغوي قائم على الوجود الإنساني . والفعل الاجتماعي اللفظي هو ذاتية الطبيعة الكيانية للمعنى اللفظي ، وبنائية الوجود المعرفي للتصادم الفكري الخلاق .

والشعر ليس مهنة ، وإنما هو حياة مصنوعة بعناية فائقة ، تقوم على ردم الهوية السحيقة بين التجمعات الخيالية . وهذه العملية مهمة جداً لمنع السالب المعرفي من الزحف باتجاه الموجب الشعري ، ومنع بناء الخيال اللغوي من أجل الخيال . وهكذا تنهار فرضية "الأدب من أجل الأدب" . وهذه الفرضية الواهية لا تناسب العصور البدائية ، فما بالك بعصرنا الذي بلغ أقصى درجات التعقيد والتركيب ؟!

وسوسيولوجيا القصيدة تركيب ذهني منقوع في ماء الثورة ، لأن الثورة النصية قادرة على وضع الكلمة في أقصى مداها ، وبالتالي الحصول على تراكيب وقيم من أجل رحيق استثنائي مُسيّس داخل البنيان الشعري . وبذلك يكون الشعر موقفاً سياسياً انقلابياً مستقلاً بذاته .

إننا أمام دراسة حدائث رمزية ، يكون فيها النص شكلاً للتمرد والرفض . التمرد على المعطيات الجاهزة التي يخترعها عرابو سلطة الهيمنة المصلحية ، ورفض القوالب الخائفة للتححرر الذهني والتحرير الجسدي . والتمرد والرفض وجهان لعملة واحدة اسمها القصيدة ، لا تُصَرَف إلا في المعركة الذهنية الواقعية ، لأن الكلمات سيوف ، إما أن تشعلك حماساً ، وإما أن تقتلك . صحيح أن القصيدة قد تقتل لكنها تعيدك إلى عوالم الحياة المحلقة فوق حواجز الوهم والخديعة والخيانة.

إن القصيدة تؤسس لنزعة العنفوان الشعري الصّدامي من أجل تسهيل مهمة الأبجدية في القيام

بعملية تطهير كوني شامل . فالتجمعات الذهنية الموعلة في التشوير (حقن العناصر بالثورة) ، ما هي إلا بنية فلسفية أحادية تستمد شرعيتها من الجماعة، من الأحلام المسروقة والآمال البعيدة . والجدير بالذكر أن فلسفة المنظور الشعري تؤسس وعياً وتُلغي آخر . تؤسس الوعي الذي يمتلك رحيق استمراريته ، وتُلغي الوعي السلبي اللاجئ إلى عزلة الظلال غير المنظورة .

والمجتمعات المتمركزة في قلب الطبيعة العقلانية للكلمة المنطلقة هي حالة ماورائية ، أي إنها تتركز في ما وراء الرؤية ذات الخصائص الرمزية . كما أن علاقات صناعة الشعر متصارعة ومتضادة في آن معاً ، بسبب قوة الحسم الذهني ، وتأجيج الصور الفنية .

وتتجذر الفلسفة الشعرية كبقع ضوئية تحفر جلد الشاعر لتجعل منه مجتمعاً قائماً بذاته في مواجهة مجتمعه البشري. وهذه المواجهة لا تتضمن بالضرورة ازدياء الآخر الذي يعيش في تكوينك الداخلي ، لأن الآخر في مجتمعك الجواني هو أنت .

ومن أجل تجنب كل هلامية مغرقة في جسمها الأحادي، نقذف أنفسنا مباشرة في تأييد التشوير المنطقي العقلاني المؤمن بالقضية الشعرية كمدخل لفهم القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فالحالة المعاشة في الصفة الوراثية للكلمة تقودنا إلى الاعتراف بحتمية التغيير الشامل ضمن نظام غير عبثي يناوئ سوسولوجيا الفراغ .

للرؤية دورٌ يلعبه كل القاطنين في تفاصيلها. فالإسهام الخلاق في تجذير المحتوى الواعي لحالات الإحساس المتدفق ، ما هو إلا مدى آخر لرؤية منضبطة واعية تجمع بين المحتوى المعنوي واللفظة المعبرة عنه . وهذه الديناميكية الحركية الثورية تصب في خانة الإحساس بالوعي الملتصق بمقدماته ومبرراته .

وتباين الممارسات الواعية ضمن إطار الكل هو الذي يُشرعن أهمية الجزء وجدواه ، أي يُعطيه الشرعية والوجود الرسمي . فالنص يُشرعن جنسه المبتكر ويعطيه المصداقية والغطاء الفلسفي والأخلاقي، لأن الكلمة الشعرية تمرد على الأحكام الجاهزة ، والفرضيات المعلّبة ، والمسلمات المحنطة في قارورة التقليد .

إن تعويم المصطلحات الفكرية في بُنية السبك الشعري يتعارض جملة وتفصيلاً مع شيوع نظريات الأنا الشخصية الجمعية . علينا أن نضرب في العمق ، عمق الرؤية المنطوية على مشروع يتجاوز الصور الفنية التقليدية التي تم استهلاكها بصورة مثيرة للغثيان . ومن هنا تنبثق فكرة التكيف مع فكرة برهنة المعقولات الخيالية ، لأن الضرب في سطوح المعرفة دون الغوص في

صياغة خطاب فلسفي حداثي رمزي ذي رؤية كونية شاملة ، يؤدي حتماً إلى حالة اللاوعي السلبي ، ويضع القصيدة التي هي بالأساس صورة ماورائية الملموس في اتجاه معاكس للقيم الجمالية المطلقة.

لكن سؤالاً قد يبرز في الأفق يثيرنا بحماس وهو : كيف يمكن صناعة مخيال وظيفي قائم على امتداد رؤية الشاعر ؟ . إن هذا السؤال المركّب ليس سهلاً على الإطلاق ، فالشاعر رؤية . وهنا يظهر سؤال ولید غاية في الأهمية : كيف يمكن للرؤية الشعرية أن تصدر عن الشاعر الرؤية ؟

فنقول باختصار إن التحولات التي تضيء للشاعر طريقه الأدبي المتفرد هي ذاتها التي توفر له مناخاتٍ من العمل الدؤوب بُغية توليد معطيات شعورية واعية . وتكمن أهمية هذه العملية في قدرتها على تشخيص نماذج محسوسة فعالة تتيح تحويل الذهن إلى واقع . وهكذا يتم الربط بين الحياة الذهنية والخيال الواقعي المتشكّل على صورة رؤى تحفر جغرافية القصيدة في صوت الزمكان (الزمان _ المكان) .

وفي مقابل التحولات الجذرية ، تظهر تضاريس جديدة للحالة الشعرية بعيدة عن التميّط والأدلجة التي تحقن النص بفلسفات وافدة ومناهج دخيلة . وهذه الأنماط السلبية لا تعيق النمو الطبيعي للمشروع الأدبي البؤري فحسب ، بل تُسرطنه تمهيداً لوأده التدريجي المأساوي . إن التشوير الأفقي هو البنية التحتية للقصيدة (الحلم والمعنى) ، أما التشوير العمودي فهو البنية الفوقية (الثورة وقلب أنظمة الحكم الاجتماعية الركيكة) . وهاتان البنيتان إنما تكونان داخل المنظور السيكلوجي للأداء الكلامي الصاعق . وتميز المعايير الاجتماعية بتكوينات نظامية تزوج بين المدلول (الهدف) والدلالة (الوسيلة) .

والسلطة التقليدية التي يتبنّاها الناسخون المقلّدون ، والنابعة من سلطة الموروث الشاذ عن مسار المنهجية العلمية ، ليست بأكثر من سلطة وهمية قائمة على نفى نفسها ، إذ إنها تؤسس مشروعها اللامشروع على أنقاض مشروعها ، وهكذا فهي تدور في حلقة مفرغة قائمة تناوى القدرة العقلانية على البحث والتجريب والتمحيص .

وهؤلاء المقلّدون يفترضون نظاماً هلامياً يتمتع بالدوام والاستمرارية ظناً منهم أن فيه قوة مركزية تمدّه بالطاقة اللازمة لحركته وامتداده ، وهذا وهم شرس لأن الأنظمة التّصية متغيرة تبعاً لقوة الروح التي تحدد شكل المادة في المجتمعات الشعرية ، وهذه النقطة مسمار عميق في نعش

الفكر المحجوب عن التشوير والتنوير ، والمستند إلى أيديولوجية إقصائية للقيم المطلقة تنفي نفسها بصورة مثيرة للسخرية والضحك ، إذ إن اعتماد الفكر على الجدلية الآلية يقتل روح الشاعر، فيصبح الشَّعْرُ مجرد خطاب أيديولوجي ركيك بمثابة منشور حزبي فاقد المشروع والمشروعية والشرعية لأنه يقتل الروح قتلاً متواصلاً ، والشاعر هو روحٌ تُسير المادة ، ورؤية تضع الأرضية الصلبة والأساس المتين للجملة الشعريّة الثورية الانقلابية .

والثقافة القائمة على تدعيم كَيَنونة المعنى الانقلابي يجب أن تتحلى بليونة صارمة تزواج بين أقلمة النظرية مع المشروعية ، وبين تحليل المماثلة البؤرية للمشروع (1) .

والقدرة على تحويل النص إلى حياة خارج نطاق الحياة الواقعية لا تتأتى إلا بتكوين خطاب واضح المعالم والخصائص عن الحالة الذهنية المعاشة في القصيدة. ونحن لا نريد الانصياع لمسلّمات افتراضية لا توجد إلا في الأذهان المرتبكة . فالحالة الطبيعية المؤسسة على شرعنة احتلال الكلمة للكلمة هالة رخامية ينبغي صقلها بالغضب الثوري والحزن الموصل إلى الفرح ، لأن الحزن المنهجي جزء من سعادة المنحى الثوري في سوسيولوجيا النظرة الأدبية .

وإذا لم نُجَدِّر المشهد الثقافي في بؤرة الحدث الاجتماعي المكوّن من إنتاجية الدلالة وتوجيه المدلول ، فلن نحصل على ظروف ملائمة لولادة تشكيل بصري سمعي هادر، يهز المجتمع الإنسان هزاً يوفق بين الرفق والعنف. فترسيخُ الصعق كثقافة لا يعني الكراهية ، بل هو محاولة حيثة لإعادة الأنساق الميتة إلى الحياة .

ولا بد من البحث عن استدلالات قصائدية تقوم بعملية تجزئة الكم إلى أنواع متشظية ، وتعامل مع النوع ككتلة كمّية تستشرف المستقبل بكل أبعاده ، ليس بوصفه سلعة ، وإنما بوصفه شكلاً لشرعية الاستمرارية خارج هيمنة الأيديولوجيات المنحرفة ، والتي تفتقد إلى الحد الأدنى من المصادقية والصحة .

(١) لا بد من صناعة مسار التأقلم (الأقلمة) بين عناصر الفكر الشعري (النظرية المعرفية للفكر القصائدي . شرعية وجود القصيدة كحل وجودي . مشروعية التغيير المجتمعي المستند إلى المعرفة لا الارتجال) ، لأن هذا التأقلم يتيح الفرصة للتشابك المصيري مع تحليل المماثلة البؤرية للمشروع (تحليل مراكز البؤر الفكرية المتقابلة والمتوازية والمتقاطعة داخل رحم المشروع الفكري الخلاصي) .

والذين يتبنون فلسفات الوهم نتاجٌ طبيعي للتخلف الشامل . والوهم المؤذِلُ نتيجةٌ حتمية لتجاهل رمزية الحضارة المعرفية ، واللهات وراء سراب حضارات وأد الإبداع ، وتحويل الإنسانية إلى صيغة كمّية سلّعية .

إننا نقوم بدعم النظام الشرعي في كيان القصيدة من أجل تسييس المعطى الواعي ، وترسيخ التحليلات السلطوية ذات الامتدادات المعرفية المتفجرة . ومن غير السهل إنضاج المعرفية المكانية بدون الاستناد إلى معرفة زمانية وثابة . فالطرائق الجديدة المستعملة في صياغة سياسة الشعر هي ذاتها المستعملة في تشكيل الممارسة الثقافية الهادفة إلى عسكرة الكلام لغوياً . فالقصيدة _ أولاً وأخيراً _ هي انقلاب عسكري رمزي .

الشاعرُ صرخةُ الأزمنة . حين ينزل من بطن أمه تتلقفه الحياة وليس الدنيا . حليبُ أمه مرحلة لاكتشاف الآخر الحميم . يختلط توهجه بالانطفاء ، وجرحه بالسُّكّر المبتسم . إنه لهبُ الشمعة لا الشمعة . لأنك قد تستبدل شمعةً بشمعة ، أما الشاعر فلا يمكن استبداله بأي شاعرٍ آخر .

هل نحتاج إلى صرخةٍ تستفز عَصْرَنَا ؟ . نعم ، ولكن الضجيج لا يجدي . علينا أن نفهم الصرخة كمحاولة رفضٍ للخطأ والخطيئة . وبالتالي فهناك صامتون يجسدون الصراخ أكثر ممن يرفعون أصواتهم بالشعارات التي لا تجاوز حناجرهم . الصمت والنطق مهمان . أن تصمت يعني أنك تتأمل ، بل تبحث عن الكلمة المناسبة ، عن موعد التفجير . أمّا الصمتُ المنبثق من التخاذل والجبن فهو مرفوض _ جملةً وتفصيلاً _ .

والشعر قوةٌ غائبةٌ حتى عن نفسية الشاعر ووجدانه . فمن يقرأ شعراً يظنه حروفاً وكلماتٍ متناسقة فقط ، لذلك تتحقق المتعة وتنتهي سريعاً . لا بد من تحويل المنظومة الشعرية إلى صاعقة ، بدون استعراض العضلات الأدبية ، وإشعار القارئ بأنه خصمٌ أمام عملاق لغوي متبحر .

كتابةُ قصيدة عن القصيدة ، تلك المملكة المتنافس عليها ، والتي تظل محتفظةً بنفوذها رغم غياب فرسانها . تلك الخصوبة تسكن المدى حيناً . الكتابة محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . على ذواتنا أن تنمو ذهنياً مثلما تنمو القصائد وتنضج ، فتغدو مفعمةً بالمعاني عابقة بالتحليق في أجواءٍ رحبة .

شعراءُ كُثُر يكتبون ظناً منهم أن الكتابة هدف ، ولكنها ليست كذلك . هي وسيلة لإنقاذ الإنسان من الشعوذة الفكرية ، تأخذه من الشك إلى اليقين ، من الحيرة إلى الطمأنينة ، من العثية

إلى الالتزام. الشاعر الحقيقي يُخَوِّف القارئ حتى يلقي الأمن، يفتح له أبواب الحرية التي أغلقها السُّلطة السياسية خدمةً لمصالحها .

إن الكتابة للخاصة تدل على محدودية الكاتب الذي زرع في عقله نطاقاً يحجب سلاسة التدفق، ومنعة الانسياب الذهني. فالكتابة المحصورة نخبوياً تشير _ بشكل ضمني _ إلى عدم اعتراف بالعامية. وهذه العملية تشبه مَنْ يُحوّلون مجرى النهر ، لا لشيء غير أنهم يريدون تحقيق إنجاز شخصي ومسار مختلف بأن يفرضوا رؤيتهم على الأشياء . أمّا الكتابة للعامية فتعني اختفاء البصمة الشخصية ، وعدم التمكن من إبراز صورة الكاتب الذاتية في الحروف . فهي ذوبان في قالب زحمة الجماهير ، وموت في الحياة بلا بصمة . وبذلك تصبح الحياة مروراً عابراً بلا بوصلة أو إنجاز ، وتغدو الأحلام الإنسانية جزءاً من أرشيف الغبار .

والحل السحري _ للخروج من إشكاليات العامة والخاصة _ كامن في عدم التقمص . بمعنى أن يكون الكاتبُ الرائي نَفْسَه ، وأن يكتب لنفسه . وسيبحث عنه مَنْ يريد . فلا معنى للعيش في الوهم، أو قضاء الوقت في تقمص الشخصيات الأخرى. فالتقمص هو قتل منهجي للأنا ، وتذويب للشخصية الاعتبارية الذاتية . وهذا يتنافى مع ماهية الحياة بكل أبعادها . فالإنسان كائن حي ، والقصيدة كائن حي ، ولا مفر من تحقيق شروط الحياة لضمان الاستمرارية .

في الجنين الشعري حُلْمٌ ولاداة متكررة ، وحيوات متعاقبة تزوّدنا بالإحساس القادر على الحركة في ظروف الحصار . والإحساس خطوة مهمة للعمل ، لأنه يشير _ ببساطة _ إلى أن الفرد إنسان لا حَجَر . وبالتالي فالقصيدة تأخذ سماتها الإنسانية من مشاعر البشر وأعصابهم ، فتتكاثف الكلمات لصناعة أبجدية جديدة . ولا يمكن المشي في الدرب دون الشعور به. وإن لم يلمس ضوء الشمس جلد الكائن الحي فلن يشعر بالحرارة . وهنا تكمن قيمة الإحساس الذهني والواقعي.

وللأسف فإن تفشي ظاهرة شعراء البلاط المادحين في ثقافتنا قد أسس نموذج المتاجرة بالكلمة،

وأنشأ مفهوم " الشاعر الممسحة " الملقى على أبواب الولاة ينتظرُ إذناً بالدخول من أجل بيع المديح لقاء الأعطيات . ذلك التكوين النسقي الحطامي تسرّب إلى علماء السلاطين عبر العصور ، فصار لدينا تجارٌ متخصصون في سلخ الاحترام عن الكلمة ، وفصل المعنى عن العبارة .

وفي طفولة الآدميين تكون كلماتهم ردة فعلٍ لشخصهم، وفي حالة تقدمهم تصير الشخصوصُ صدىً لصوت الكلام. مما يدل على نفوذ الكلمة التي تنتشر في الفضاءات وصاحبها جالسٌ في مكانه . والكلمة ليست أساساً نظرياً للفعل فَحَسْب ، بل هي فعلٌ مكتمل الأركان ، وقائمٌ بذاته . لقد انتهى زمنُ استخدام الألفاظِ الجزلة والفخمة في الشُّعر . ففي السابق كانت السطوة لاندفاع اللفظة، والآن غدت الصورة أبلغ. والصورة تركيبٌ يحتضن الكلمات في منظومة تجميعية. وهكذا تكاثفت الألفاظُ ودعمت الواحدة الأخرى لمصلحة الصورة الشُّعرية ، فحصلنا على ما يشبه فريق عمل ليست البطولة فيه للبعض (المفردة) بل للكُل (الصورة) .

لقد خرجنا من بناء اللفظة الفخمة إلى بناء الصورة المدهشة . أضف إلى هذا تحول نفسية الأديب إلى نفسية جمعية ، بمعنى أنها تختزل مشاعر القادة المنتصرين والمهزومين ، وطموح الأغنياء والفقراء ، وانكسارات الدول الواقعة تحت الاحتلال ، وارتعاشة الفتيات المغتصبات ... إلخ .

لذلك ، كل أديب يكتب حياته بدمه قبل أن يتعلم مسك القلم ، ويظل كذلك حتى اللحظة الأخيرة . وعلى الرغم من حضور مشاهد الدم في العالم الأدبي ، إلا أن الممارس لهذا النوع من الإبداع يحاول تنظيف عالمه بحيث يصبح أبعد ما يكون عن الدموية . ولكن الطفل لن يأتي إلا مع الدم . كذلك الجنين الشُّعري لن ينتصب طفلاً طبيعياً إلا مع الدم ضمن رؤية كُونية واسعة .

إن الكتابات الخالدة تشريحية لأوصال المجتمع الكينوني البشري (المجتمع صاحب الكيان المستقل الفاعل) . وقد تبدو الأفعال الكتابية متشائمة أو موغلة في الحزن . لكنَّ وحدة الرمز الهادر ضد التشاؤم والحزن العبي . فالقصيدة الكُونية صورة لخيالات الواقع المؤلم الذي يتم فيه اضطهاد الإنسان كإنسان. والشُّعر نقدٌ لواقعٍ يُقتل فيه البشر في كل الجهات. حتى إن الهوية البشرية صارت _ بحد ذاتها _ تهمةً . ومن الهذيان رؤية المشانق منصوبةً في الميادين العامة ، ثم توجيه الشُّعر للتغزل بعيون فتاة تائهة . فلا مفر من تصوير المعاناة التي يحيها البشر، حيث يتم تحطيمهم باسم الحضارة . وهكذا يقوم الشُّعر بحقن الإنسان بالأمل الثوري العاصف ليشعر بحتمية الوقوف وجدوى الاستمرارية. فالشُّعر هو جسدُ التاريخ، وذاكرةُ الوجود. ولا مفر من انقلاب الشُّعر على الشُّعر ، وقيام القصيدة بتطهير نفسها .

وحين تُبنى الفكرة من خلال نسق لغوي مُفصّل عنها ، فإنها تحمل دلالاتٍ محدّدة . والذين يكتبون بلا ضوابط، يظنون أنهم يكتشفون طريق الحرية ، وأن كلماتهم صارت درياً مستقلاً له

خصائصه المنسلخة عن الضوابط العامة، ولكنهم في حقيقة الأمر يسقطون في غرورهم، ويضيعون في مسارات متشعبة، ثم ينظرون إلى نتائجهم فلا يرون إلا صُورهم منعكسةً، وعندها يكونون قد نسخوا أنفسهم على الورق، فمثلهم كمثل الناظر إلى المرأة وهو يظن أن ما يراه هو العالم الخارجي. لقد أحاطوا أنفسهم بشرنقةٍ متينة، وبالتالي نظروا إلى ذواتهم على أنها المحور والركيزة، وهذا قمة الضياع. وكما أسلفنا، إن أية قصيدة هي في الواقع قصيدتان مختلطتان: القصيدة البصرية، والقصيدة السمعية. يحدث بينهما مزجٌ يعمل على إشاعة التكامل والوحدة كي يتماسك النصُّ الشعري ويكتسب عنصرَ الانتقال من نقطة إلى أخرى.

ولو جئنا إلى القصيدة البصرية لوجدناها مجموعة المشاهد والرؤى القادرة على الرسمِ وغرس المشهد غير العادي في مخيلة المتلقي. وأريد القول هنا إن جميع الناس الذين يقرؤون نصاً شعرياً لأول مرة بحاجة إلى وقتٍ كي يستوعبوه، وبعد القراءة الأولى يبرز النقاد والمثقفون والأقل ثقافةً وهكذا، ونرى التمايز والتفاوت في الفهم والتحليل.

ولكن متى تظهر أصناف المتلقين؟ إنها لا تظهر إلا بعد وقتٍ من القراءة. فالقصيدة — للوهلة الأولى — يتلقاها أستاذ النقد الأدبي في الجامعة كما يتلقاها طالبُ المدرسة، لأن الصور الشعرية البصرية غير العادية، والتي لم يتعود الإنسان على رؤيتها في حياته المعاشة تكون جديدةً بالنسبة للجميع. وبعد هذه المرحلة يأتي التباين الواضح والاختلاف بين مستويات المثقفين، وظهور قدرات المتلقين، كلاً حسب إمكانياته وقدراته وأدواته المؤثرة في تفكيك النص الأدبي وتركيبه.

القصيدة السمعية هي الصوتُ المنتشر في الصورة، والإيقاعُ المتولد من تتابع الصور الشعرية المنسقة والتي تأخذ كل منها بيد الأخرى. في كثير من الأحيان تشعر بأن صوتاً ما من الأعماق يأتي بدون موعد مسبق، صوتاً ينقل لك أحاسيس تفهمها — بالإجمال —، ولكنك لا تملك التعبير عنها بسبب شفافية الصورة، وتخشى إن تكلمت عنها أن تخدشها فتصل مشوهةً منقوصة الجمال.

والشعور له اعتبارٌ في تشكيل الرؤية الشعرية، واختيار المفردات، وصياغة العبارة، والبناء الجمالي الظاهري في الجزئي، والجوهري في الكلي، وجعل الكلمات منظومة غير متنافرة، وإقناع المتلقي. وللأسف، فبعض الكتاب يدخلون مكاتبهم المكيفة صيفاً، والمزودة بالتدفئة

شتاءً ، ويجلسون على كرسي وثير وحولهم أثاثٌ فخم ، ويبدأون الكتابة عن الفقراء والمشرّدين . هؤلاء فقدوا الإحساسَ فترى كلامهم لا يجاوز حناجرهم ، وهم أنفسهم غير مقتنعين بما يفعلون . فالشبعان لا يمتلك نفس ذهنية الجائع ، واليقظان لا يستطيع أن يعلم بماذا يحلم النائم . إنني غير قادر على الدخول في أحاسيسك لكنني أستطيع أن أستنبط بعض المشاعر من خلال اكتشافاتٍ شعرية تعمل على جعل المتلقي يعترف أو يحس أن هناك من يشاركه همومه ومشاغله، فقيمة التوحد بين أنا والآخر بشكل معرفي منضبط قادرةٌ على توسيع الزوايا الضيقة في ثقافة الرؤية .

ومن الأهمية بمكان معرفة أن النظام الثوري في الشعر يعتمد على خروج الشاعر من نفسه ثم النظر إليها عن بُعد، ورصد الثغرات وردمها ثم العودة للاندماج بالذاتِ الشاعرة . فالتأثير المعنوي والمادي للقصيدة يعتمد على سيل أفكار غير متوقَّع . ومن هنا تنبع قوة القصيدة . فالقدرة على مباغته المتلقي هي التي تستنزف قواه الذهنية وتزلزله ، مما يؤدي إلى حالة ذهنية متقدمة ، ومواجهة صاخبة بين النص والمتلقي . أي بين أشعة الكلام ومرايا صاحب أدوات الاكتشاف . والقصيدة وهجٌ قادم من عروق التاريخ البشري ، وتنقيبٌ متواصل عن الربيع داخل الخريف . والقصيدة معركةٌ لا بد من خوضها من أجل وضع النقاط على الحروف ، ورسم حدود الوجود تمهيداً لإزالة الحدود بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان ومجتمعه ، وبين اللغة والشاعر .

ومن الضروري الانتباه إلى أن القصيدة كالسَّابح ، كلاهما إذا ارتبك غرقَ . وبما أننا في عالم القصيدة ، فلا بد أن نتحدث عن " موت القصيدة " ، فنقول إن هذه العملية مرحلة مؤقتة مثل استراحة المحارب . وهذا " الموت " أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة . وفي ضوء هذه المعطيات ، ينبغي اعتبار موت القصيدة صفةً مجازية . فالقصيدة تولد من موتها ، وتموت في ولادة الشاعر الرائي لكي تحيا حاملةً معها خلودَ صانعها . وهذا الانبعاث المتجدد يجعل القصيدة _ في حقيقة الأمر _ لا تموت .

والشاعر الحقيقي يرمي القارئ في فوهة البركان اللغوي مباشرةً بلا مقدّمات، ويُلغِي القواسمَ المشتركة بين قصائده. وكلما تعذّب الشاعر ارتفع مستوى إنتاجه، وبالتالي استمتع القراء أكثر ! . وهذا الموت اللذيد يُعتبر تنويجاً لفلسفة الاستمتاع بالعذاب . والشاعر ليس وحيداً في مملكته (القصيدة) لأن عناصر الطبيعة تشترك معه في صياغة النص الشعري ، كما أن الجماهير تساهم في كتابة النص بقدر ما يساهم صاحبه. وهذا التلاحم التلقائي يمنع تحوّل الشعر إلى شظايا مُعدّلة

وراثياً . والشاعر لا يموت ولا يمكن قتلُه لأنه فكرة يَحْمِلُها الناسُ ، هذا هو الوضع الطبيعي . أمّا الوضع الخاص ، فإن الشاعر يموت حين يَفْقِدُ القدرةَ على الإدهاش. وفي هذا السياق الأدبي، تبرز نقطتان تبعثان على الأسى والأسف . الأولى _ كلما ازدادَ تسليطُ الأضواء على الشاعر ازدادَ التعلق بشخصه لا بِشعره. والثانية _ بعض النقاد يمارسون النقدَ الأدبي بعقلية رجل الأمن .

لماذا نكتب ؟! . هذا سؤال يشبه إلى حد بعيد أسئلة من قبيل : لماذا نأكل ؟ لماذا نشرب ؟ لماذا نتنفس ؟. فالقصيدة نسقٌ فكري وغريزة بيولوجية في آنٍ معاً. والظاهرة الشعرية مبنية على الشعور المتبادل بين عناصر الطبيعة وقلب الشاعر. الحلمُ يتكرر ، لكنَّ القلبَ واحدٌ . وهذا القلب بكل شظاياه يُصوِّر لنا حياةً جديدةً نحياها في الخيال ، ويحياها الخيالُ فينا واقعاً ملموساً . إن أدق تعريف للشعر هو الشعر. إنه كتلة لغوية جبارة متكونة من الألفاظ والمعاني ، لا يمكن تأطيرها ضمن حدود معينة بسبب طاقة الكلمات المشعة في كل الاتجاهات ، والمحلقة فوق الأزمنة والأمكنة . كما أن هذه الكتلة (الشعر) لا يمكن تجنيسها لأنها لا تعيش بين الجدران ، أو خلف الأسوار. فالشعر كاسرٌ للأسوار ولا يعترف بالجدران. وقد ظهرَ لكي يلجِم الفلسفة المادية الفجّة، ويصبغها بطابع إنساني معنوي . وفي الختام ، نقول إن النثرَ ممارسةً أفقية كقطف الأزهار ، أمّا الشعر فتجربة عمودية مثل الغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ .

1

الرؤية الثورية في السياق القصائدي

إن النضال من أجل حركة تراكمية مقاومة للوهم في المنظور الشعري مستمر حتى آخر لحظة. وكل التحليلات تصب في خانة إسقاط الجمود والتبعية والتخلف في القصيدة ، ثم تنويرها عن طريق حشدها بعناصر الرمزية الحضارية .

وتظهر للعيان أهمية تعميق جذور خصوبة المشروع المستقبلي الذي يستشرف الحلم القادم من وراء الكلمة الملتزمة بالقضايا المقدسة ، وهذه الماورائية بُنية متحركة مندمجة بالكامل مع سياسة الرؤية ، وخاضعة للعقل الهادم الباني ، حيث يهدم الأنساق العشوائية الضبابية غير الثورية ، ويبني الرؤى المادية والمعنوية التي تمهد لمرحلة الانفجار الشامل في تفاصيل اللغة الهادرة .

وهكذا نجد أن الشَّعر يُورخ لمرحلة جديدة تستلهم تاريخاً جديداً يطرح الأسئلة على التراث ،
ويُحاكِم الأشياء المعلَّبة التي تم تقديمها كمسلَّمات جاهزة .

إن الشَّعرية هي سوسولوجيا الوحدة المكانية للنَّص ، والبُنية القصائدية هي سياسة نقية ضد
السياسة القمعية، ضد مجتمع الكراهية والحقْد والتخلف . وهنا يندمج البناء الكمي مع السلوك
النوعي فينتج ما يمكن تسميته بالجمعة القصائدية، حيث يذوب الجزء في الكل، وتحل أبجديَّة
الثورة مكان أبجديَّة الاستجداء ، ويقوم التأصيل البُوري الماحي بمقاومة أيديولوجية الرغبة
الشهوانية العشية، وسحق ثقافة الرعب ، وإلغاء تكريس الصمت القاتل في النَّص الشَّعري والنَّص
المجتمعي .

وهكذا نجد أن المحتوى الذهني لامتدادات الأفق الشَّعري يأخذ شكلاً بنائياً مميزاً، وهذا
الشكل ما هو إلا انعكاس خلاق للطبيعة الكلامية المفتوحة على كل احتمالات التسييس النوعي
المنضبط بظاهرة التكوير التَّسقي (جمع الأنساق بعضها إلى بعض) . واعتماداً على هذه الرؤية ،
فإن البُنية النَّصية المكثَّفة ستتكشف عندما تواجه بُنى ثقافية أكثر ثورية وجمالية ، فالضعفُ خاضعٌ
للقوي ، وضوءُ الشمعة يفقد معناه عندما يُواجه نورُ الشمس .

وهذا الأمرُ يَنبغي أن يقودنا إلى رفض القرارات الأحادية التي تؤخذ بمعزل عن المسارات
التاريخية والاجتماعية والاقتصادية للعمل الأدبي . فالأدب سوسولوجيا رمزية لتاريخ اقتصادي
كلامي يبحث في المخيال الواقعي . ومع هذا فالأدب ليس تاريخاً للأحداث بقدر ما هو تأريخ
للمخيال القادم كالطوفان إلى أرض الواقع .

وإذا فهمنا أشكال العلاقات الذهنية في وظيفة الرؤى المتمردة ، استنتجنا حتمية الصدام بين
الثنائيات المشكَّلة للقصيد . وهذه الثنائيات تتَّوَل إلى صراع طبقي من نوع جديد في البنية
الشَّعرية، صراع لا دخل للفقراء والأغنياء به . والجدير بالذكر أن ثقافة الصراع الاجتماعي _ في
كثير من الأحيان _ تضرب على السطح دون الغوص إلى الأعماق بعكس ثقافة مجتمع القصيدة .
إنه صراع طبقات اللغة بين مستويات الكتابة الإبداعية ، ينقسم إلى صراع داخلي وصراع
خارجي. الداخلي يقوم بالتجريد والتعرية المستدامة للانهايار الحضاري الذي أصاب الإنسان
المادي، والخارجي يقوم بالتجرد من تبعات هيمنة إسهامات البشر المحتشدة في اللغة .
فالتراكمات البشرية اللغوية ليست هي اللغة ، لأن اللغة أوسع وأعمق وأكثر شِعرية من رُوح
الإنسان وطينيته .

وبالتالي تكون اللغة حُجَّةً على المتكلمين بها ، والعكس غير صحيح بالمرة. وبالتالي ينبغي تنقية الفردانية (الشخصية) المتعالية من رواسب إنتاجات اللاوعي المطلقة . أضف إلى هذا أن عوامل زلزلة أساسات المجتمع الشعري الخاضع للسلطة الاجتماعية ذات المنظور السلبي ، لا بد أن تظهر في النتاج الفلسفي على جميع المستويات الأدبية ، تمهيداً لصناعة أصعدة جديدة حاملة تهدم الكيانات المعزولة عن مشكلات المجتمع الإنساني .

فالشاعر الذي يكتب قصيدة لا تخدم قضية مقدسة إنما هو يكتب ضد الكتابة ، فتقف القصيدة رغماً عنها في مواجهة القصيدة ، وهذه هي حالة التلاشي التدريجي لعملية عقلنة مساحات اللاوعي الشعرية (2). وينبغي توجيه الانتباه إلى الاستعارات الوظيفية المقابلة لحالات توهج المعلومة المدهشة، فالشعر عقل الدهشة وقلبها النابض ، وهو يوصل معلومات محددة موعلة في الرمزية والتوهج والدهشة ، وبالتالي فهو يختلف عن الكتابة الصحفية أو كتابة الدراسات العلمية المنهجية .

واختزال البنى السياسية الشعرية في نص مكثف عملية غاية في الصعوبة ، لأنك تُعبر عما يعتمل في نفسك من محيطات ذهنية وواقعية مترامية الأطراف بكلمات معدودة ، وهذا بحد ذاته أداء نسقي يطحن روابط التجمعات البدائية داخل الاشتعال العاطفي المتراص .

ولسنا بحاجة إلى دمج الحدود الفاصلة بين طبقات القصيدة فَحَسَب ، بل تكسيروها أيضاً وإقامة مملكة مفتوحة على كل تشكيلات الوعي المطلق بقضايا الإنسان وعناصر الطبيعة . وهكذا تزداد عناصر الحالة الماورائية التي تحدّد مسار التأصيل المعرفي للموروث الشعري الملزم بالرؤية الكونية الشاملة، والقضايا الكبرى، والنظر للإنسان كإنسان، مع ضرورة التفتيش في الذات الجوانية قبل إصلاح الأطر الخارجية . فلا يُعقل أن يُصلح الإنسان باب جاره وينسى أن بابه مخلوع . إنها عبثية اللامعنى ، بل هي وأد المعنى لصالح توتر العلاقات بين الأفكار المركزية . وهنا تظهر أهمية النزعات المتضادة لتنسيق الفكرة الشعرية الخلاقة التي تكسر قالبها ، لتظل مُحلقة في فضاءات

(٢) عملية العقلنة في سياقات العلوم الإنسانية تعني جعل مسار الطبيعة الأبجدية للمعنى البشري الثقافي عقلانياً ، ومحسوباً بعناية فائقة ، بعيداً عن الارتجال العاطفي ، وفورة الحماس الشعراقي المفرغ من معناه . فالمشروع الثقافي هو منهاج حيائي ذو مسار واضح ، تكون فيه البداية والنهاية والطبيعة عناصر مكشوفة لا غموض فيها .

أكثر رحابة وأكثر ثورية . وإذا أغفلنا هذه النقطة فستصل حتماً إلى وضعية التنافر الأحادي والجمعي ، تنافر المفردة مع أختها المفردة ، وانهيار المدلول في فوضى المصطلحات الوافدة العابثة .

لقد كان تقزيمُ مُسَلَّماتِ العمل الوظيفي الموجَّه لمسار البنية الاجتماعية الوجدانية هدفاً يعتنقه الكثيرون من الذين سلَّعوا الإنسانَ وفلسفَةَ وجوده ، فتاجروا بالاثنين معاً من أجل خلق أنظمة عبثية تعتمد على الفوضى الخلاقة ، فظهر الأمر كنزوة متنازع عليها . وإن استيراد الوقائع الاجتماعية ومحاولة إسقاطها على وُجْهة المدلول الشعري، أدى إلى توتير التمييز الهش بين السمات التي تُثَوِّر النَّصَّ .

كُلُّ ثقافةٍ سلبية فراغٌ في قلب النسخ الإنساني المتكور في دائرة الصمت . ولا بد من بناء الثقافة وفق شكل منطقي وإيجابي، ثم إحالتها إلى قيمةٍ رفضٍ قائم على توظيف المدلول السيכולوجي في الدلالة المعرفية ذات الأبعاد الملزمة بمناهج سياسة الشعر . وهكذا نعيد اكتشاف كينونة البناء الذهني على أساس الفعل لا رد الفعل .

فالشاعر ليس صحفياً أو مراسلاً حربياً ينقل الأحداث كما هي . إنه رؤيُّه الضمير الواعي للأحداث الإنسانية الكونية. أمّا أولئك الذين يسخون ثقافات الوهم الصابوني (الهلامي) ثم يحاولون إسقاطها على الواقع الفكري ، فلا بد أن يسقطوا في فخاخ الحضارة الشاذة، والخديعة الشاملة التي يُروِّجها المصابون بالعقد النفسية، وعلى رأسها عُقدة النقص. كما أن عُقدة " المغلوب مَوْلَعٌ بتقليد الغالب " من شأنها خلط الأوراق الثقافية بشكل مضطرب يؤدي _حتماً _ إلى عدم التمييز بين الموجب والسالب . وهذا السقوط المريع يركز إلى سياسة الإقصاء، إقصاء المتزمن بالنهج الإنساني التثويري لِمَا فيه مصلحة المرغبات الوجدانية التي تسمو بالإنسان ، وتقوده إلى حالة الامتلاء الروحي تأسيساً لمرحلة إعطاء المادة أبعاداً روحية شعرية .

لا بد من صناعة نظام وجداني يحقن الشعرَ بعوامل التمرد على صورة المنظور الأدبي المعلَّب الجاهز ، ويُغْرِيل القصيدةَ بشكل فعَّال . وإن لم تنجح عملية الغريزة فلا بد من هدم القصيدة ثم بنائها من جديد حتى يتسنى لنا جسر الهوية بين المعطيات الواعية وشرعية الفكرة التي لا تخضع لسيف السُّلطة _ مهما تعددت أشكالها _ .

وإذا فهمنا هذه النقطة فهما قيمة الرفض ، والمنحى المتناسك في مسار التكوين الفلسفي للنص الشعري غير الملوّث بأيدولوجية الأنظمة الشمولية القائمة للإبداع تحت غطاء تشجيع الإبداع ! .

وإننا لنجد أن تشكيلات ثقافة الرعب التي تركزها المؤسسات الحاكمة باسم الخديعة، تتصل بصورة أو بأخرى بالمدلول الواسع للثقافة الثورية المختزلة في الشعر ، باعتباره الشكل الرمزي الفلسفي الأعلى في هرم العمل السياسي الأدبي المتسلسل. وبتطبيق هذه الأفكار على مسار الصفات التي تُعلّل جدوى التفرع المجتمعي في النسق الوجداني ، تتضح لنا التكوينات غير النمطية للنظام الاجتماعي التاريخي الرمزي ، حيث يصير تاريخ القصيدة رمزاً لتاريخ لم يُكتب بعد .

وفضلاً عن ذلك ، فإن التاريخ الذي يُؤرّخ في القصيدة بشكل مكثّف ورمزي وحداني يُعتبر عضواً في جسد الحلم الذي لا يتبخّر، الحلم المتجسد في جزئيات العمل التعبيري للصيغة الأدبية التي لا تتعب من طرح الأسئلة، ليس من أجل الحصول على أسئلة جديدة فحسب، بل أيضاً لصناعة إجابات منطقية تعطي الإنسان بعداً جديداً ممزوجاً بقيم الاكتشاف والبحث والتجريب .

وهكذا نجد أن الشعر صار حكومة قائمة بحد ذاتها ، أو حزباً سياسياً يمتلك بُنيّتين متماسكتين (تحتية وفوقية) . ولا بد من التوفيق بين هذين المستويين كخطوة ابتدائية في طريق حياة خيوط التناغم الخلاق بين طبقات الشعر .

ولإنشاء هذا التناغم علينا تفعيل تسييس الثقافة في أزمنة النص اللامكاني . وهذا لا يعني عدم تحدّث النص الأدبي عن مكان محدّد ، وإنما يعني أن المكان يتسع ليشمل أمكنة كثيرة ، فليس المكان إلا رمزاً كبيراً لكل الأمكنة. وقياساً على هذا يصير الإنسان رمزاً لأخيه الإنسان في تطلعاته وآماله وانطلاقه نحو مجد إنساني وإع لمجريات التداعي المنطقي في الذات القصائدية. وعندئذ يشعر الإنسان بالجمال من حوله ، ويراه بعيونه ، وليس بعيون الآخرين .

إن الروح الفلسفية المبنية على التبادل الحر بين المفردات والمعاني ، تفقدنا إلى صياغة محيط متآلف يحتوي على عناصر الاتزان والحركة والرؤية . فالحدود التي تفصل بين طبقات القصيدة هي حواجز وهمية ووقائع اجتماعية لا تاريخ لها سوى الوهم الجاهز . ولا يمكن للقصيدة أن تنطلق إلا إذا أزال الحدود بينها وبين نفسها .

وبالتأكيد فإن مفهوم الدلالات الواعية يخترق مفهوم الحدود الوهمية التي تنتشر بفعل تقصيرنا في إتمام عملية البناء السوسولوجي للعامل الأدبي . وكلما نمت تاريخية التطابق الذهني العاصف ، اتسعت جغرافية مناطق المستحيل المعرفي⁽³⁾ . الأمر الذي يقود إلى المعرفة المستحيلة التي هي نتاج طبيعي للتوغل غير المحسوب في التأملات التاريخية ، وعزلها عن مسار الحضارة .

والبنائية الشعرية المصبوغة بالحلم الفلسفي تحمي الشاعر من فخ التظُّلُ (حيث يصير الإنسان ظلاً باهتاً ، وشيئاً يُباع ويُشترى ضمن جدلية ميكانيكية ، وتصبح المشاعر الإنسانية في زاوية العُرض والطلب والبيع والشراء) . والتظُّلُ يقضي على الشعرية ، ويُجهز عليها بشكل نهائي ومرعب . ولا يملك الشاعر إلا أن يكسر خرافات الجدلية المادية الآلية ، لأنه أعرف الناس بامتداد المشاعر ، والتأملات الروحية المحلقة .

ويرافق مع عملية نقض التكريس المادي الميكانيكي تحطيم الخيال المكسّر للخيال . فالخيال الواعي لا بد أن يكون خطوة في طريق العمل الواقعي الفعال ، وهكذا نكتشف أن الخيال هو اجتماعية الواقع ، اجتماعية المنظور المعرفي الملموس الطامح إلى جمهرة الشعر ، أي إبداعه في أحضان الجماهير ، وجعله خبزاً يومياً للإنسان العادي . وهذا الأمر لا يعني إلغاء البنى الشعرية النخبوية ، فهذه البنى لها سياقها الخاص البعيد عن الجماهير ، والمتمصف بالرمزية الكاسرة للأحكام الاجتماعية المعلبة . وهذه الرمزية الثائرة هي النواة الملتهبة التي تذوّب الفروقات بين الشعر والنثر . ففي بركان الحرارة العاطفية الجياشة تغيب الفروقات بين المدلول الشعري والدلالة النثرية ضمن ثنائية واعية وليست عدمية أو عبثية . وإذا أدركنا هذا المنحى جيداً ، أدركنا قدرة القصيدة على فرض شروطها على المتلقي كما تفرض الذاكرة شروطها على النسيان .

(3) إن سوسولوجيا الإبداع تتجلى في الاختلاف التكاملي لا التطابق التماثلي . فالذكر يجد نصفه الآخر مع الأنثى لا الذكر ، من أجل تكوين منظومة التكاملية التجاذبية لا التنافرية . فلا بد من النظر إلى ماهية التطابق كإجراء تكاملي مع الاختلاف ، لا كإجراء تماثل متنافر . فمن شأن التنافر إضاعة الوقت في اختراع ثنائيات افتراضية لا تلتقي ، مما يؤدي إلى تغشي ظاهرة المستحيل . وعندئذ تصبح التكاملية شعراً بلا معنى ، ومضيعة للوقت ، وحالة عدمية مستحيلة الحدوث على أرض الواقع .

وفي كل الحالات ، سوف يستمر الدعم الذي تقدمه الصورة الشعرية لعناصر الشرعية البورية في سياق الكلام . وهذه العناصر تساهم في خلق متوالية تكاثرية تصنع قانونها الخاص بها ، انطلاقاً من حركات معرفية دائمة البحث عن معنى .

والشاعر هو مَلِكٌ لا ينفك يبحث عن عرشه المفقود ، وهذا هو القلق اللذيذ . إنه قلقٌ ينقل الأبدية العقلية من نمذجة المصطلح الجاهز إلى صناعة مصطلحات دائمة الاكتشاف . وهذا يعني الانتقال من صناعة النمذجة (تشكيل النماذج الجاهزة على صور مسلمات) إلى صناعة تعابير مسكونة بهاجس التنقيب عن مواطن الإبداع . والجدير بالذكر أن صانع النص الإبداعي يكتشف ذاته في مشروعه الأدبي من أجل أن يكتشف هذا المشروع ملامح وجه الشاعر واتجاهاته

ويمكن اكتشاف الذات الإنسانية الجوانية عن طريق اكتشاف ذوات الآخرين ، لأن الكلمة تخرج من الفرد الذاتي ، وتعيش في كيانات إنسانية متعددة ، وهكذا نفهم عملية التقمص التلقائي المتبادل بين الشاعر والمتلقي . وهنا تتعدد الأنا الواحدة لتشمل ذوات الآخرين .

فالشعر صوتٌ ، والمجتمع الكلامي صدى لهذا الصوت الصاعق . ولو اتجهنا إلى علاقات النصوص المتقابلة داخل النص الشعري المكثف ، لأدركنا حتمية الصدام بين مكونات القصيدة ، وهذا الصدام ينقل الرؤية التعبيرية من خط الموازنة مع الذات إلى دائرة مُعَادلة الذات .

وفي حقيقة الأمر ، إن الكلام هو الذي يُقولنا ولا نقوله . والشعر لا يُعطيك إحدى مفرداته إلا إذا أعطيته كُلُّكَ . وبالتأكيد فهذا لا يعني أن يتوقع الشاعر على نفسه ويتعد عن باقي العلوم والمعارف . لكن المقصود هو أن تهب نفسك للشعر في لحظة التقاء عينيك بجيش الحروف الذي يهاجمك بلا إنذار مسبق . وتُشبه الحروف في هذا السياق الثوري نوابض مغناطيسية تلسعك لأنها تحبك وتريدك قريباً منها .

ويجب أن نلاحظ الأدوار التعبيرية التي تجسّد طموحات سياسة الشعر في تكوين جيل مؤمن بالحقيقة رافض للأوهام المتكاثرة ، لأن الإيمان لا ينفصل عن الثورة بأية حال من الأحوال . ولا يخفى أن تسييس المدرسة الشعرية لا يستلزم بالضرورة تقييد حرية حركة الصور الفنية والتعابير الرمزية ، لأن القضية الحقيقية تُحضّر معها خيالها الخاص عندما تزورك أو تفرض نفسها عليك .

وفي هذا المضمار تبرز حتمية التحويل الجغرافي في بنائية التاريخ الشعري ، أي تحول المكان إلى زمان، وتحول القصيدة إلى تاريخ جديد ، وجزء من رواية عجائية لا تعتمد على السرد ، بل تعتمد على التقاط اللحظة ، وتثويرها ، وإحاطتها بهالة رمزية ذات هدف واضح .

وفي زحمة الاشتعالات الرمزية ، تتجذر القيم الشعرية من أجل قلب نظم حكم القصيدة ، وتكوين نظام جديد نابع من صيرورة المتحوّلات البنائية العامة والخاصة . وبعبارة أخرى ، إن الشعرية تنقلب على الشعرية من أجل نيل شرعية النظام القصائدي المتمتع بالثورية والديمومة والشباب الدائم . الأمر الذي يقود إلى حقن المركبات الاجتماعية بالمعاني الإنسانية ، وتأجيج عنف اللغة ذهنياً . واستناداً إلى هذا الحراك الفكري ، فإن كثيراً من النماذج الاجتماعية سوف تنشأ من الوعي المعرفي ، وتسيطر على النسق الشعري . وهذا الأمر يمثل ركيزة أساسية في مجال تشكيل الوعي الموجب ، وتعبئته ضد الوعي السلطوي المفروض على النص من خارج النص .

والمقصود بهذا الكلام هو ألا تخضع القصيدة لابتزاز خارجي متمثل في إفرازات السلطات القمعية الأبوية التي تصيغ الثقافة والحياة وفق منظور يُرسخ سيادة الوهم البوليسي . وهكذا ، يجب أن يقف الشعرُ موقفاً مناوئاً لأيديولوجية الثقافة القامعة المقموعة المتعارضة مع المبادئ العامة لحرية الفكر والتعبير .

إن إدارة موارد الصيغة الكلامية ينبغي أن تتمتع باستقلالية بؤرية لكي تصير موقفاً سياسياً مناصراً للمعاني الإنسانية . وبالتالي ، فليس غريباً أن تكون القصيدة موقفاً سياسياً ملتزماً . ولا نغني بالالتزام هنا أن يتحجر الشخص ولا يُغيّر أفكاره إذا ظهر له الحق على الجانب الآخر ، بل نغني الالتزام بقضايا الحق والعدل ، وأن تقف القصيدة وصانعها إلى جانب الحق بغض النظر عن مصدره . فالحق أحق أن يُتبع ، وهو بحد ذاته قيمة مستقلة عن الابتزاز السياسي ، والابتدال المتغطي بالأدب المخصّص لمديح الجلال ، والارتقاء على أعتاب السلاطين من أجل استجداء المال أو المنصب .

ومهما يكن من أمر ، فلا مفر من استخراج الوعي الكامن في القصيدة الخلاقة . فالشعر _ أولاً وأخيراً _ هو رسالة كُونية واعية تستلّ طموحها من كومة الأنقاض الإنسانية . وهذا الأمر يُسلط الضوء على مبادئ تكريس المشروع الشعري ، وأسس المشروع الفكرية الواعية . مما يؤدي إلى حفظ التوازن بين طبقات النص المتأجج .

إن الشَّعرَ بوصفه جسداً تكشيفياً يشتمل على منظوماتٍ مركزية، وسياساتٍ قصائدية بؤرية. وهذه النُبْيَةُ المتماسكة تجسّد قوّة الشَّعرِ الواضحة الغامضة في أبهى صُورها . وكلما تكرّست قوّة الشَّعر في المجتمع ، ازدادت فاعليّة اللغة في نطاق الوجود الإنساني . الأمر الذي يقود إلى استقرار الثورة في قاع العنصر الشَّعري ، والقبض على الإيقاعات الحداثيّة الرّمزية . وبالطبع ، فلا يمكن تصوّرُ حدثيّةٍ شَّعريةٍ بدون الثورة (التثوير) ، والرّمز (الرّمزية) .

حشدُ المعنى باللفظ الرّمزي الثائر ، وحشدُ اللفظ بالمعاني التكريسية المتفجرة ، هما الطريقتان الفاعلتان لإعادة صياغة الأشكال الأولى لمجتمع الكلمات التي تُحارب على كل الجبهات الواقعية والخيالية .

إذن ، نحن أمام خياراتٍ مصيرية لا مفر منها تؤدي إلى تأملاتٍ تشريحية للمجتمع ، وتكريسيةٍ للنظريات كخطوة أولى في درب بلّورة الفكر الذي يُعالج المعطيات الاجتماعية ، ويردّد العلاقات بين النصوص اللغوية المتفجرة إلى مادتها الخام البدائية ، وهي الثورة . ولا تستلزم المعالجة تنظيم الدلالات التكوينية لأسس اللغة فحسب ، بل أيضاً تستلزم تحكيم الخيال في الواقع تمهيداً لوقعة المخيال الوظيفي المنتمي ، وتخيل الواقع المرير تمهيداً لصهره في بوتقة الملاحظات المؤرّخة بظهور المجتمع الواعي لمساره ومصيره ، لا مجتمع الأغنام المستسلمة للذبح القادم من كل الجهات (4) .

وهذه التركيبة الرّمزية الثورية التي نسعى إلى ترسيخها ، والرافضة للتركيبة المغلقة بالوهم، هي مجتمع مُكثّف صاعد نحو استقلالية المعرفة الجمعيّة التي هي سُلطة ذهنية غير متوارثة . مما يؤدي إلى تسهيل مرور العنصر البشري في جسد الدولة الشَّعرية .

(٤) وَقَعْنَةُ المَخِيَالِ : جعل الخيال الطبقي المكثّف واقعياً ضمن شروط ذهنية خاصة تعتمد على التصور وابتكار نماذج المحاكاة الافتراضية . أما تَخْيِيلُ الواقع : إحالة العناصر الواقعية المحسوسة إلى مساحات للخيال والتخيّل من أجل تغيير العناصر ذات التماس المباشر مع حياة الفرد ، وإعادة تركيب أجزاء الصورة الإنسانية المجتمعية . وهذان القطبان (الوقعة / التخييل) ضروريان من أجل إعادة تقييم سلوك المجتمع تجاه إفرازاته ، ومعرفة نقاط القوة والضعف ، والوقوف على مدى صلاحية الدرب للسير فيه .

وفي الشَّعر تتحول الأمكنة إلى أزمنة والعكس صحيح. والسبب في ذلك يعود إلى الطاقة الهائلة المحتشدة في كيان الكلمة التي صارت قبلة موقوتة تُفَجَّر عن بُعد . وموعدُ التفجير يحدِّده النسقُ الفكري الذي لم يتلوث بإفرازات الكيانات السُّلطوية غير الشرعية .

وللإحاطة بطبيعة الصياغة الاجتماعية للمُسلَّمات المتجانسة في النَّص ، ينبغي ترسيخ حالة الشك المنهجي في أدوات الشاعر وألفاظه وصوره الفنية المدهشة ، كحالة اعتراف بينه وبين نفسه لا بد منها إذا أراد الوصول إلى عالمية المشروع ، ومشروعية التشكيل البؤري للرؤية غير المقنَّعة . ويجب أن تخضع أبعادُ المشروع الشَّعري للرُّوح الإنسانية التي تربط ماضي القصيدة بحاضرها ومستقبلها ، وصولاً إلى صورة مجتمعية غير نمطية تتغلب على احتضارات لغة الشَّاعر ، وشيخوخة كلماته الذاهبة إلى الموت _ إذا لم يتم تدارك الأمر عاجلاً _ . والكتابة ضد موت القصيدة عملية مرَّغبة بالغة التعقيد . وهي تستند إلى تصعيد لهجة المخيال الواقعي في مواجهة تيارات نفي الكائن الحي ، وسلخ الهوية المعرفية عن الهوية البشرية .

إن الشَّعرية الكونية كامنّة في الحدود المشتركة بين البنى اللغوية التأصيلية ، والصيغ الاجتماعية النابعة من قلب الثقافة. ولا تعني الكونية ألا تكتب عن حارتك الصغيرة وسكان منطقتك المحدودة، بل تعني أن تكتب عن نفسك بصيغة الجماعة المتواجدة على رقعة الذهن المتجسّد حُلماً وتاريخاً لمن لا تاريخ لهم ، وتكتب عن حُلْمك باعتباره رمزاً لكل الأحلام الإنسانية . وهذه هي فلسفة الحداثة المناوئة لحضارات الإبادة ، وثقافات الكراهية ، ومجتمعات الرعب ، واغتصاب المعنى .

فالحداثة هي تطوير شامل في آليات المعرفة وأدوات الشاعر وأساليبه ، نابعة من اتصال الشاعر بماضيه وحاضره ومستقبله . ولا تعني الحداثة تحويل الإنسان من كائن حي إلى كيان ميت . فهذا الهدف المتهالكي (زراعة الكائن الحي في قلب الانتحار) ، هو مرحلة مأزومة في انهيارات الوعي نابعة من النتاج الأيديولوجي لاحتراف الانحراف . وإذا تفشّت التيارات المأزومة في سياق الوعي الفكري للكائن الحي ، فإن ذلك سيؤدي _ حتماً _ إلى تحول فكرة الحياة إلى قتلٍ منهجي للمعنى ، فيسقط معنى الحياة في الأضداد المتذبذبة .

وكلُّ محاولة لجذير الثقافة في السياقات الإنسانية ، هي منظومة اجتماعية متكاملة ترمي إلى التعبير عن طموحات الكائن المكبوت جنسياً والمقموع سياسياً . كما أن القصيدة هي المعادل

الثوري المضاد للكبث الجنسي ، بسبب احتوائها على جنسويّة التعبير الإنساني عن غرائز الحلم النقي المحلّق خارج ذاكرة الاستحواذ المجاني على مفردات عناصر المجتمع⁽⁵⁾ .

وليست الغاية من تجذير الثقافة الوصول إلى مناصب حكومية أو ما شابه ، بل الهدف فحص مستوى الدلالات اللفظية الحياتية ، وصهرها في بؤتقة الانفعال الكوني الحالم ، وتمكين اقتصاديات القصيدة من الوقوف في وجه الخديعة الاجتماعية التي تغيّر أسماءها وأقنعتها .

والقصيدة حالة مُقاومة شاملة وكونية تستلهم العناصر الإنسانية بُغية تحرير الإنسان من عبادة الإنسان ، وكسر الأصنام التي يصنعها تجار الأيديولوجيات ، وأمراء الحروب ، لتحقيق أعلى ربح ممكن . فكثير من أدعياء الثقافة يصنعون أصنامهم من تمر ، ثم يأكلونها عندما يجوعون .

إنّ حفريات اللغة وأحافير الرائي هما الإشارتان الواضحتان في طريق الشّعْر الرمزي الثوري . أضف إلى هذا أن الشّعْر يؤلّد من موت الشاعر الذي يصير موته أحد أشكال الحياة الفاضلة . وبالانطلاق إلى سياسات الأبنية الشعريّة التحطيمية ، نكتشف أسلوباً تكثيفياً يحضن الأبعاد الرمزية لأبجدية المجتمع البشري المتمرد على التراث الفكري للأنظمة البوليسية . وفي هذا السياق ، تبرز القصيدة كمجتمع متمرد لا يخضع للسلطات القمعية ، وأيضاً تبرز القصيدة كمنظومة لعسكرة الكلام، وتوليد عناصر جديدة ترفض قوالب الصُور الفنية المستهلكة التي ييسر من كثرة التكرار .

إذن ، تركّض البنية الشعريّة باتجاه طرح الأسئلة المصيرية الحاسمة . وهذه الأسئلة تتكاثر لتصير مجتمعاً كلماتياً واعٍ لمصيره ومساره . وعندئذ يصبح الشك المنهجي في الأساليب الشعريّة عملية مُثاقفة استقطابية تشرّحية غير عديمة⁽⁶⁾ . ويجب أن تكون أدوات التشرّح الفكري نابعة من مضامين التعبير القصائدي الرافض لهيمنة الصُور الفنية التقليدية . وإذا كان التعبير القصائدي عاجزاً عن الوصول إلى ذروة الحدث الاجتماعي ، فإن الصورة تخسر مفرداتها الواعية ، مما يؤدي إلى تفشي الأمراض في جسد الكلمة ثم موت القصيدة . وموت القصيدة قد يأخذ شكلاً حياتياً

(5) جنسويّة التعبير : طبيعة الفكر الإنساني التعبيري المحدّدة وفق جنسية اللفظ ، وجنس المعنى .

(6) هذا يعني أن الشك المنهجي المبني وفق خطوات منطقية عقلانية ساعية إلى اكتشاف الحقيقة كما هي ، عبارة عن منظومة أسئلة مطروحة على بنية السياق الشعري الاجتماعي ، وهذه الأسئلة تحال إلى تبادل ثقافي تكريسي (مُثاقفة) ذي قدرة على جذب العناصر الفكرية للمجتمع البشري ، وتحليل أجزائه النسغ الحياتي المعاش اعتماداً على قوة الحياة (الانبعاث) لا إغراء العدم (الانتحار) .

مُقَنَّعاً لا ينمو إلا في ظل حُكم السُّلطات الأبوية التي تقدّم نَفْسَهَا كوصيّة على الإنسان والفكر والطبيعة.

ويتّضح المشروع الشعري كحالة نفسية تحليلية مستندة إلى تنويعات سياسية جمعية . وبالمقابل فإن تداول القيم الاجتماعية في مُخرجات النظام القصائدي ، يقودنا إلى التوازن الخلاق بين الثقافة والمثاقفة من جهة، وبين النصّ والأبجدية الداخلية (النصوص الجوانية المتشابكة) من جهة أخرى .

وتحميل الدلالات اللغوية طاقة عاطفية متراصة، لا بد أن يندمج مع الحفريات الدائمة في جسد اللغة الحرة غير التابعة للخديعة السياسية أو الوهم الاجتماعي. وهذه الحفريات تُضفي على النثر شرعية الصيغة الشعرية .

وكلما ارتفعت حرارة التعبير ذابت الفروقات بين النثر والشعر ، واختفى الفرق بين الشاعر والقصيدة ، وتجذّر الاندماج بين الرائي والرؤية .

ويمكن استيعاب الأبعاد الميكانيكية للولادة الشعرية من خلال تشريح ميكانيكا الجنس بين الزوجين . فذروة الالتحام الجنسي الشهواني بين الزوجين تلغي الذكورة والأنوثة في تلك اللحظة التي يتحد فيها الجسدان في كتلة لحمية واحدة منفصلة عن نطاق الجاذبية الأرضية ، ليأتي إلى هذه الأرض اليباب مخلوق يُفترض أن يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

ويمكننا تعميم النظرة الفلسفية في هذا السياق على القصيدة باعتبارها العملية المولدة للجنين المجتمعي الثوري المعبر عن الحلم الشعري الذي يتحد فيه الشعر والنثر في جسد واحد هو نتاج حرارة التعبير الصاعق ، مثلما تتحد الذكورة والأنوثة في ذروة التشطي الشهواني . وفي حالة الاصطدام لا يمكن تمييز الأضداد، وفي حالة الالتحام بين الجيشين لا يُعرف الصديق من العدو، كما أنه يتم تحييد الغطاء الجوي . وهذه الرؤية الرمزية تجسّد عناصر النواة الفلسفية للقصيدة الصاعقة.

ومن خلال التداخيلات الشعرية تظهر قضية غاية في الأهمية ، وهي الأوزان الشعرية . فمن غير المقبول أن تكون الأوزان الشعرية هي الحكم الذي يُقرّر الشعري من النثري . وهذا لا يعني الطعن في علم العروض . وإنما يعني رفض تقديس الأوزان الشعرية، وعدم القبول بها كسلطة مهيمنة على الرؤية الشعرية التنويرية العاصفة . وهكذا تنبثق القصيدة كمشروع كوني يرمز إلى وجود الذات الإنسانية ، وكمشروعية مستقاة من حرارة التعبير واتساع الرؤية .

ومن غير المنطقي أن ندفن الصُّورَ الفنيةَ المبتكرةَ الخارجةَ على الوزن ، فقط لأنها غير موزونة . فالوزنُ الحقيقي هو وزن الصورة الخلاقة غير التقليدية . وهكذا ، فإن القصيدة تصنع علمَ عروض خصوصياً قائماً على المزوجة بين الخيال التجريدي للتعبير المبتكرة ، والدلالة اللغوية التي تعيد اكتشاف اللغة .

والقصيدةُ يجب أن تتحلى بصُّورَ فنية مدهشة وعنيفة ، وهذه الصُّورُ تعطي القصيدةَ وزنها الخاص ، والموسيقى الذاتية الهائلة ، وجرعة الثورة المتدفقة . فمن أراد أن يكتب قصيدة موزونة فله ذلك ، ولكن لا يحق له أن يطعن في الصور الفنية المذهلة بذريعة عدم خضوعها للأوزان الشعرية المعروفة . الصورةُ هي مَنْ تعطي الوزنَ وجوده وشرعيته ، أمّا الوزنُ فلا يُعطي الصُّورَ الناقصةَ أيَّ وجودٍ أو مشروعية .

وكلما تكثفت الحفريات في منجم اللغة ، تجاوزَ النصُّ الشعريُّ الواقعَ الخيالي إلى مناطق الإحساس المتدفق. مما يدفع النسقَ القصائدي إلى طرح أسئلة إضافية على اتجاه البصيرة العاطفية الكامنة في لهب الشعر. وللإجابة على كافة الأسئلة المصيرية التي تحفر في عنفوان الحياة الاجتماعية، ينبغي صناعة مجتمع جديد ينتسب إلى ثقافة الأسئلة والأجوبة دون ضغط من أية جهة . وهذا لا يتأتى إلا بدمج الشعر في مشكلات الإنسان والمجتمع. ولا يخفى أن الشعر يفقد شرعيته إذا خرج من القيمة الإنسانية للإنسان ، وصار يحفر في محيطات الرُّبْد والغدمية .

والحل الأكثر نجاعةً لإعادة الشعر إلى الحياة العامة هو بث القيم الجمالية في النص ، وتحويل الكلمات إلى جيوش جرارة تدافع عن إنسانية الإنسان من منظور كوني شامل ، وتوجيه دفة الكلمة_ أية كلمة_ باتجاه مناقشة قضايا الإنسان التي تمس وجوده . فمثلاً إذا أدخلنا ملعقة السكر في قصيدة فيجب أن تحمل مدلولات غلاء الأسعار، والظلم الاجتماعي ، والشطط الطبقي ، ولهات الإنسان وراء قوتِ يَوْمه . وهذا المثال ينسحب على كُل العناصر المراد إدخالها في نسيج القصيدة.

وبالتالي نحصل على سبيكة لغوية متينة تلمس جروح الكائنات الحية عموماً ، والإنسان خصوصاً. وإذا لم نفعل ذلك فسوف يظل الشعرُ (والأدب عموماً) في وادٍ ، والإنسان في وادٍ .

والقصيدةُ حِزْبٌ قائم بذاته . وهذا الحِزْبُ يجب أن يعمل جاهداً لصناعة مجتمع ثوري خال من الأغنام البشرية . وهذا لا يتأتى إلا بالاعتناء بمحوري الفكر الشعري : الرؤية الثاقبة ، وميكانيكا الصُّور الفنية . الأمر الذي يدفع باتجاه تطهير الأنساق الاجتماعية ، وأنسنة الطبيعة

المادية للتاريخ والجغرافيا (إضفاء صفات الإنسان عليهما). فالطبيعة صُنُو الإنسان . وبما أن الشاعر تجسيداً للإنسانية المقطرة ، كان الأجدَر بحمل عبء أنسنة العناصر ، واستنطاق قيم الجمال المتفجرة ، وتحويل الظواهر الاجتماعية إلى أنظمة شعرية متفردة. وهذه الفاعلية الفكرية المركزة مهمة للغاية ، لأنها تتركس الأنثروبولوجيا الشعرية (عِلْم الإنسان من منظور شعري) كحالة كُونية قائمة على نفي التعارض بين الدلالات المتجذرة في الجسد القصائدي .

والجدير بالذكر أن الطريق إلى اجتماعيات النظام الشعري الكلامي ليس سهلاً البتة . فهذا الطريق يعتمد بالدرجة الأولى_ على كسر أيديولوجية الرعبِ والولاء للصؤولجان . وهذه الغاية لا بد أن يسبقها التقاء المنتج السياسي مع البنية الاجتماعية تحت مظلة الفكر القصائدي . فالصورة الشعرية هي التغيير السياسي الحر، والفكر الخلاصي الذي يُحرر الروح من ثقل العناصر المجتمعية. كما أن الصورة الشعرية هي تأريخ للمعرفة الكاسرة للقولبة الميكانيكية (صُنْع القوالب المحدودة).

ومن خلال تحليل السُلطوية الشعرية ، نجد أن القصيدة اقتصاد قائم بذاته ، اقتصاد من نوع مختلف ، يتضمن تنوعات إنسانية عابرة للأنساق اللغوية. وهنا تبرز ملاحظة أساسية ، وهي : ليس كل تنوع قائم على تأريخ رُوح الفلسفة المنتشية باللغة الشعرية يلائم نموّ كيان القصيدة .

وهذه الملاحظة تؤسس وعياً بؤرياً يشير إلى حقيقتين ، الأولى _ إن التأريخ يختلف عن التاريخ. فالتاريخ هو وعاء ، والتأريخ هو عملية الاغتراف من هذا الوعاء . والثانية _ إن فلسفة الشعر هي الابنة الشرعية والوحيدة للحالة الوجدانية العارمة .

وعلى الرغم من هذا التأصيل الشعري ذي الأبعاد الاجتماعية ، إلا أن من الخطأ رؤية العالم من منظار الشعر فقط ، لأن المجتمع القصائدي والمجتمع الإنساني موعلان في التعقيد والترابعية الشرسة . والإشكالية الصادمة في هذا السياق أن الكثيرين يعتقدون أن الشعر هو نظرة رومانسية ساذجة، وسابحة في الخيال العدمي، ولا علاقة لها بالواقع من قريب أو بعيد . وبصراحة ، إن هذا الانطباع لم يأت من الهواء ، وإن له أساساً في أرض الواقع . فالجزء الأكبر من المنتج الشعري غارق في الفراغ والعدم ، وهذا شَوْه الشعر برُمته ، وجعل الكثيرين ينفرون منه باعتباره إضاعة للوقت والجهد . لذلك ينبغي إعادة الشعر إلى الشعر قبل التفكير في إعادته إلى المجتمع الإنساني .

وأيضاً، فإن المجتمع الإنساني يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية بسبب غرقه في تكريس العناصر المادية الاستهلاكية كحالة فكرية شاملة . ومن هنا ، تتضح أهمية بناء المجتمع الشعري والمجتمع الإنساني على قاعدة الخيال الواقعي ، من أجل ضمان تكريس الوعي المنفتح على الأنظمة الفكرية النقدية التي تكسر القوالب الجاهزة ، وتطرح الأسئلة على المسلّمات الاجتماعية المعلّبة .

إن الثقافة النقدية لا التبريرية ، هي الكفيلة بحماية المجتمع (الشعري / الإنساني) من غروره . أمّا ثقافة الهروب فهي تخبط اجتماعي مبني على وهم موظف بعناية فائقة من أجل خنق العقل في مهده ، ومحاصرة القيم المطلقة بالأطر الضيقة . وبالإضافة إلى هذا ، فإن فهم الأنساق المجتمعية يجب أن يتم من خلال اعتبار المنهج الشعري ظاهرة مستقلة تتمتع بقيمة الرفض ، رفض المناحي السلبية في الواقع المعاش .

وهذا الرفض النابع من ثنائية (النقد / النقض) يقود إلى استبدال السلوكيات الاجتماعية التي تفقد القدرة على الإدهاش ، وتولّد أنظمة إنسانية مشتملة على المعاني المدهشة . وفي هذا السياق، تظهر حقيقة أساسية مفادها أن القيم المدهشة لا تشكّل عبئاً على كاهل المنظومة الثقافية ، لأن هذه القيم تمتلك في داخلها بذور الاستمرارية والتألق .

ومن الجدير بالذكر أن هيمنة القطاعات اللغوية التقليدية على الأدوات الشعرية ، ستؤدي إلى توليد رؤية مشوّشة تعيق نموّ الجنين الشعري . وهذه الإعاقة ستزيد الضغوطات الذهنية على الجسد الاجتماعي فيغيّب الواقع الواعي لأهمية الخيال، وتتركس هالهُ الانتحار الإنساني التدريجي. وللخروج من هذا المستنقع العميق ، لا بد من تثوير سياسة الشعر ، وتوجيهها نحو صناعة مجتمع الكلمات الحر ، الذي هو سيّد نفسه ، وصانع مساره ومصيره . وهذا الاستقلال الذاتي قادرٌ على بناء اللغويات الوجدانية ، والسيطرة على انفجارات الألفاظ والمعاني داخل كيان القصيدة . وهذان البعدان (البناء / السيطرة) كفيّلان بخلق أجوبة منطقية للأسئلة الاجتماعية المتولّدة في تقاطعات النظام الشعري الكلامي، وخلق أنظمة سياسية قادرة على التعامل مع الزخم الفكري المحتقن . وهذا النشاط المعرفي في كل الجهات ، يُنتج أبعاداً وجدانية للتجربة الشعرية تشرّح الجوهر وتتعامل مع اللب ، ولا تكتفي بالضرب على السطح أو التعامل مع القشور .

ولا شك أن وظيفة التجربة الشعرية هي صناعة التوازن بين مضامين الحياة البشرية المتناقضة ، وإيجاد أرضية مشتركة للأضداد من أجل الوصول إلى حلول وسط، تحفظ تماسك المجتمع

الشّعري، وتحمي المجتمع البشري من التمزق والتناحر. وفي أحيان كثيرة، لا تكون المقارنة بين الثور والظلام، وإنما تكون بين الظلام والظلام للوصول إلى أهون الشرين، وأقل الضررين. وفي هذا السياق المؤلم، تبرز القدرات الحقيقية للقصيد، وتظهر حقيقة المجتمع البشري.

واللغة الاجتماعية هي الصيغة الأكثر حداثة للتعبير عن سياسة الشعر التي تهدف إلى الوصول إلى أقاصي الإحساس البشري المتداخل مع عناصر الطبيعة. ونحن في أمس الحاجة إلى صناعة قصيدة منتمية إلى إنسانية الكائن الحي، تناقش مشكلات الفرد والجماعة بعيداً عن الأنا العليا الوعظية المترقعة، وتتناول مشكلات الكائنات الحية باعتبارها صوراً بصرية وسمعية في نظام طبيعي قاسٍ.

وكل نظام طبيعي – سواء كان شعرياً أم واقعياً – لا بد أن يرافقه نظام اقتصادي. والطبيعة الروحية والمادية للعناصر لها بُعد اقتصادي لا يمكن تجاهله. وفي عالم القصيدة، تُفاس القدرة الاقتصادية بمقدار الثروة الموضوعة داخل الكلمة. وهذا لا يعني تحوّل الكلام إلى بورصة أو سوق يشمل خيارى العرض والطلب. فالقصيدة لا تدخل في نطاق التسلع (التحول إلى سلعة)، كما أنها لا تدخل في مجال التطلو (التحول إلى ظل). فالقصيدة هي المتحدثة الرسمية باسم الروح والمادة معاً، ولا يمكن حشرها في خانة السلع والأشياء. وهنا تبرز قاعدة عامة تقتضي التفريق بين الكتاب باعتباره سلعة تُباع وتُشتري، وبين الفكر الذي لا يُباع ولا يُشتري. والقصيدة الحية متصالحة تماماً مع الطبيعة الفطرية للإنسان الثوري الذي لم تقدر السلطة السياسية على تدجينه. وفي الواقع، لا يوجد فرق بين القصيدة والثورة، لأن القصيدة ثقافة عسكرية بامتياز، وليست كلماتها سوى رصاصات. كما أن القصيدة هي فعل المقاومة لا مقاومة الفعل.

إن الشرعية الاجتماعية لعسكرة الشعر المجازية تستمد تألقها من حرارة اللغة الانقلابية ذات الطابع الثوري. ووفق هذه الرؤية، فلا توجد كتابة من أجل الكتابة، ولا يوجد إنسان يدخل مؤسسة الزواج دون التطلع إلى إنجاب الأبناء. وهكذا فعل الكتابة. فالكتابة تتزوج قضايا المجتمع لكي تُنجب ثورةً زمكانية (زمانية – مكانية)، تمهيداً لعسكرة المجتمع الكلامي مجازياً، وخنق حضارات الخرافة حتى الموت.

وتعميق الجذور الشعرية في جسد الحلم الإنساني، لن يتم إلا بواسطة تكوين أنوية معرفية تسدّ الفجوات بين المدلولات السياسية للثورة الكلامية. وليس صحيحاً أن القصيدة تفقد قيمتها الجمالية الرمزية إذا حُشدت فيها الظواهر الاجتماعية الانقلابية. فالمحك الحقيقي هو قدرة

الشاعر على الإبداع وصنع الدهشة . وهذه القدرة هي التي تتحكم بمستوى النص الشعري من الناحية الفنية . وقد نجد قصيدة جميلة عن القبح ، ونجد قصيدة قبيحة عن الجمال ، مما يشير إلى أن العبرة بالأسلوب الفني لا الموضوع المطروح . فالأسلوب هو الذي يحدد المسار والمصير . والقصيدة عنصر محايد تماماً ، والتعويل إنما يكون على السبك اللغوي والصياغة الشعرية . وبالتالي نخلص إلى أن القلب القصائدي غير متعلق بالوجود والغد أو النفي والإثبات ، لأن هذا القلب مجرد وعاء ، والعبرة بمحتويات الوعاء . وإذا كانت هذه المحتويات مضامين رمزية ذات صبغة اجتماعية إنسانية ، فإن هذا سيمنع تحول القصيدة إلى دؤلة بوليسية ذات أحكام عرقية ودستور همجي يتبدل حسب مزاج القامعين . فالشعر هو المعادل المعرفي لحقيقة الإنسان الذي لم يتم تدجينه .

للفكر الشعري هدفان في هذا الوجود، انتشال الحضارة الإنسانية من مستنقع الصراع الطبقي القاتل ، وتدوير مخلّقات الوعي السليبي في المجتمع ، وذلك من أجل الحصول على ثقافات إنسانية رافضة للتناحر ، ومناوئة لماهية التناقض ، وداعمة للتكاملية والبناء الاجتماعي ذي المنحى الإنساني غير المتوحش . وكلما ازداد تماسك البناء الاجتماعي ، ازدادت سيطرة ثقافة الشعر على انبعاثات الوعي المتشظي . وإذا قمنا بتحليل الطرق المتشعبة للمنحى القصائدي العقلاني ، وجدنا أشكالاً جديدة لتمرد الظواهر الشعرية على الصيغ المجتمعية السلبية . وهذا التمرد المحمود انعكاس لطبيعة منظومة استعمار الخيال (إعمار الخيال لا احتلاله) . وهذه المنظومة تؤلف قيماً إنسانية تساهم بشكل كبير في الحراك الاجتماعي ذي الشرعية القصائدية . وبما أن الشاعر حزب سياسي قائم بذاته ، ومستقل عن الطبيعة الاستبدادية للعناصر الاجتماعية ، فلا بد أن يضطلع بدور أساسي في تشكيل هذه المنظومة ، وصهر أبعادها في تفاصيل المجتمع الإنساني .

وفي زحمة هذا الحراك الفكري، يبرز سؤال محوري: أيُّهما سابق على الآخر، الخيال أم الواقع

؟

إن الخيال والواقع متكاملان ، يُولدان معاً ويموتان معاً ، وكلاهما يؤثر في الآخر بصورة تبادلية منطقية . وتعدُّ الثورة أبرز مثال على هذا التكامل . فأيديولوجية القهر التي تعتنقها السلطات الحاكمة في الدول البوليسية تجسّد واقعاً مؤلماً ينتظر التغيير . وهذا الواقع المؤلم يصاحبه حلم خيالي بالتغيير (الثورة) . وهكذا ، نجد أن الخيال والواقع اندمجا معاً من أجل التغيير ضمن

صيغة تكاملية تزامنية لا تعاقبية . وبالتالي ، ستتكرر أمواج الدولة البوليسية على صخرة القصيدة التي تحترم كينونة الإنسان وحياله الواقعي .

وتشكل القصيدة الواعية المادة الخام (النواة / الجنين) للأحداث الاجتماعية ذات العناصر الجمالية المدهشة. وأيضاً ، إن الأفق الشعري دائم البحث والتنقيب عن عناصر الجمال المختبئة في زوايا الأشياء البسيطة، والتي يظنها الكثيرون هامشية وتافهة . والإبداع الشعري يجعل من الأشياء _ التي تُسمى هامشية _ موضوعاً شديد الأهمية ، لأن القصيدة هي العدسة التي تُكبر الأشياء ، وتسلط الضوء عليها .

إن الحضارة الإنسانية تكتشف ذاتها في الجنين الشعري غير الملوّث بإفرازات الوهم . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الشعر ليس قيمة استهلاكية ، أو وسيلة للتسلية والمتعة المجردة. الشعر هو شرعية الانقلابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والمدنية، إنه نظام ثقافي متكامل ، ومُعادلٌ للحياة الإنسانية الحرة في عالم ظالم ، وغارق في عبودية الإنسان للإنسان . وهذا ما ينبغي القضاء عليه في أسرع وقت .

ومنذ تحويل التوهجات المعنوية إلى معادلات سيكولوجية كلامية ، ونحن نكتشف حتمية الصدام بين شرعية طبقات القصيدة من جهة ، وبين المجتمع الخارجي المدجن الذي يستسلم للنخبة الحاكمة بالحديد والنار .

والنظام القمعي المؤدلج ينفي شرعيته المزعومة _ بشكل غير مقصود _ أثناء بحثه عن شرعيته المفترضة . فهو لا يدري أن نفي الآخر هو نفي الذات ، وبالتالي زوال النافي والمنفي معاً . وكلما شَرَحْنَا أيديولوجية القهر والكبت ، ومتواليات الانهيار الاجتماعي المتكرر ، وجدنا أن القصيدة تجسّد وحدة الوجود الإنساني الذهني العاصف . وليست القصيدة في هذا الفضاء الملتهب إلا تمرداً على الخديعة بكل أشكالها وتحولاتها . وستظل القصيدة _ شئنا أم أبينا _ هي المعركة الذهنية الواقعية النهائية الحاسمة .

٢

المضمون الاجتماعي لسياسة الشعر

إن المضامين الإنسانية هي وجوه الحياة السياسية المتعددة داخل النسغ القصائدي المنظم . واستناداً إلى الإيقاع المعرفي المنسق ، يتم تحديد أبعاد صدمة القصيدة . وهذا لا يعني إحداث صدمة من أجل الصدمة ، وإنما يعني صناعة صدمة شعرية من أجل إعادة الحياة إلى الإنسان الميت الغارق في توثين الذوات (جعلها أوثاناً)، وتأليه الحاكم، وتقديس المجتمع المريض، وعدم الاعتراف بأمراضه.

والأمر بالغ الخطورة ، خصوصاً إذا تعلق بالإستراتيجية الحدائية في الأدب، والتي تنبع من قيمة الإبداع كمفردة حياتية مرجعية ، ولا تنبع من سرقة أفكار الآخرين _ كما يفعل البعض _ ، والذين ينسخون الآخر بحثاً عن ذواتهم الهامشية ، فتضيع ذواتهم في زحمة الأسماء العبثية ، ويضيع الآخر في فوضى التعبيرات الركيكة ، وإحاطة الفرضيات الواهمة بمكياب المنهج العلمي والخرافات الفكرية التي تُصبغ بالقداسة ، ويتم تقديمها كمسلّمات ، مع أنها تفتقد إلى الفكر المنهجي المتناسك (7) .

(٧) إن خارطة الثقافة العالمية غارقة في العُقد النفسية ، والإشكاليات السياسية والحضارية الضاغطة على صياغة النصوص الثقافية. فُعقدة " المركز والأطراف " تضرب _ بشراسة _ العمود الفقري للجسد الثقافي الإنساني . فحائزة نوبل العالمية هي جائزة غربية _ في حقيقتها _ ، وخاضعة لاعتبارات سياسية بامتياز ، ومسيطر عليها من قبل الدول الغربية المتنفذة (أمريكا ، بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا) . فالغالبية الساحقة من الحاصلين على نوبل في كل المجالات ينتمون إلى هذه الدول الأربع ، لأنها هي المركز السياسي العالمي ، مما يجعلها المركز الثقافي العالمي ، وباقي الدول أطراف . وحينما يحصل على الجائزة شخص من خارج هذه الدول ، فهو يحصل عليها لأسباب سياسية _ بالدرجة الأولى _ ، ومن أجل تصوير الجائزة كأنها جائزة عالمية كُونية . وهناك عُقد نفسية أخرى تصيب الأمم المهزومة مثل " المغلوب مُولع بتقليد الغالب " ، وعُقدة " الخواجة " . وهاتان الإشكاليتان منتشرتان بقوة في الأمة العربية باعتبارها أُمَّةً منهارة خارج سياق التاريخ، وخارج الإطار الطبيعي للحضارة. فغالبيتُ المثقفين العرب هم مهزومون داخلياً، لذلك يرمون أنفسهم في حضارات الوهم ذات القوة المادية ، ويديرون ظهورهم للحضارة العربية الإسلامية التي نشرت الحضارة في العالم طيلة ألف سنة . وهؤلاء المصابون بعقدة النقص ينسخون الآخر، ويقومون بتضليل الرأي العام الشعري، وإبعاد الناس عن رُوح الشعر، = وتغييب مرجعية هوية المعنى ، وتحويل القصيدة إلى غشاء وعدمية ضد المسار الحضاري للإنسان الطبيعي. فقد حوّلوا الشعر إلى مشروع

استثماري لزيادة أرسدتهم البنكية، متاجرين بالقضايا الإنسانية والقومية ، ودماء الفقراء ، وأحلام الشعوب المكتوبة. ولم تكن شهرتهم إلا لأسباب سياسية واجتماعية لا علاقة لها بالإبداع أو الكفاءة اللغوية الخلاقة . فأشهر الشعراء العرب يستمدون شهرتهم من الفوضى الخلاقة لا إبداعهم الكوني العالمي ، فهم أصلاً كُتاب محدودون ، يكتبون ضمن بيئة مغلقة ، ولا وزن لهم على الصعيد العالمي مُطلقاً . فنزار قباني هو أكثر شاعر عربي مقروء . لكن هذا الأمر لا يعود إلى عبقرية الشعرية ، أو نصوصه الإبداعية الخارقة . وإنما يعود إلى المواضيع الجنسية التي يقذفها بين كلماته ، فيجذب بذلك الجمهور العربي المقموع سياسياً والمكبوت جنسياً. خاصة أن أغلب قراء قباني هم من المراهقين والمراهقات الغارقين في العطش الجنسي . ولو ظهر نزار قباني في الغرب لما قرأه أحد ، لأن الكبت الجنسي مشكلة عربية لا غربية . والمضحك المبكي أن الكثيرين يعتبرون قباني شاعر المرأة ، وهذا خطأ منهجي فادح ، فهو شاعر جسد المرأة الذي حوّل المرأة إلى سلعة تجارية ، وماركة مُسجّلة في أسواق النخاسة ، من أجل استمتاع النخاسين ، والمتاجرين بالرقيق الأبيض بالألفاظ والمعاني . وهذا الانخراط الاجتماعي الاضمحالي يقودنا إلى أن المرأة الضائعة في كل زمان ومكان تعشق مغتصبها وجلادها وقتلها ومُحتقرها . وهذا ما يحصل مع اللواتي يعشقن شعر نزار قباني المناوئ لحقوق المرأة . أما محمود درويش فقد استمد شهرته من الحزب الشيوعي الذي كان الرافعة لنشر إسهامات أنصاف المثقفين، كما رفع عبد الوهاب البياتي _ رغم ضلالتة وعدم قدرته على الخروج من عباءة السّياب _ . وعندما نال درويش الشهرة اللازمة صار متاجراً بالقضية الفلسطينية ، ويتغنى بالمقاومة لتحقيق أرباح مادية إضافية تمكنه من تناول الخمر في الفنادق الفخمة التي لا يدخلها إلا الأثرياء . فحبذا لو تبرع درويش بثمن زجاجة شمبانيا أو ويسكي لفقراء المخيمات والأرامل واللاجئين . فعن أي وطن يتحدث محمود درويش ؟ . عن المخصّصات المالية التي يقبضها من سلطة أوسلو نظير خدماته الجليلة في التطبيل والتزمير للأصنام البشرية ؟ . والأدهى من هذا أنه كان يُقدّم نفسه كمعارض لاتفاقية أوسلو . فأبي تناقض في هذا المشهد الكوميدي البائس ؟ . وأدونيس ليس أحسن حالاً، فقد تم تلميعه من قبل جهات غربية لإعطائه جائزة نوبل نظير خدماته الجليلة في مهاجمة العروبة والإسلام دون دليل منطقي واحد . وهو على استعداد لبيع كل شيء من أجل جائزة نوبل . فهو لاء الشعراء العرب هم مجرد دُمي في مسرح للعرائس ، قضوا حياتهم مقلّدين لشعراء الغرب ، ولم يتمكنوا أن يثبتوا أقدامهم في الساحة العالمية لأنهم نائمون في عباءة ت.إس. إيليوت ونيرودا ولوركا وعزرا باوند ... إلخ، فالمغلوب مَوْع = = بتقليد الغالب ، وعُقدة الخواجة تلعب لعبتها القديمة الجديدة . والقائمة التي ذكرناها آنفاً لا تحوي شعراء في الحقيقة ، بل تحوي أنصاف مثقفين ، وهم بالأساس رجال أعمال

يتاجرون بالشُّعر مثلما تاجروا بأحلام شعوبهم ، وطموحات أمتهم التي خلعوها من قاموس شِعْرهم الناتج بفعل عملية النسخ والتقليد والتبعية .

وتزداد صعوبة الحصول على جائزة نوبل إذا كان الشخص عربياً أو مُسْلِماً . وذلك بسبب وجود الكيان الصهيوني في أرض عربية إسلامية . فنحيب محفوظ مثلاً لم يحصل عليها إلا بعد أن قدّم تنازلاتٍ مرعبة تنسجم مع التوجهات الغربية بشكل مضاد للهوية العربية الإسلامية الحضارية . وعلى الرغم من كَوْن نجيب محفوظ كاتباً تقليدياً ذا أسلوب متحجر غير انسيابي ، إلا أنه حصل عليها لأسباب سياسية بعد تقديم مواقف مخجلة وتنازلاتٍ حمة نالت استحسان لجنة الجائزة ، مع العلم أن هناك من يتفوق عليه بالأسلوب والقيمة الأدبية ، ولكن جائزة نوبل ميسّسة ذات أغراض خفية وأجندات مشبوهة . ولم تُمنح لكاتب مصري إلا بعد اتفاقية كامب ديفيد . وبعبارة أخرى ، إن فَوْز نجيب محفوظ بنوبل مكافأة لمصر بسبب استسلامها المخزي في كامب ديفيد . وعلى الجانب الآخر نجد أن الروائي التركي أورهان باموك ليس ذا مكانة رفيعة في المشهد الروائي العالمي ، بل هو كاتب مهزوز ذو إنتاج بسيط ، ولكن بعد انتقاده لما سَمَّاه مذابح الأرمن علانية ارتفعت أسهمه بشكل كبير ، ومُنِح الجائزة لأغراض سياسية بحتة . فلو انتقد مذابح الفرنسيين في الجزائر أو مذابح الأمريكيين في العراق وأفغانستان ، فهل سيحصل على نوبل ؟ . بالطبع لا ، إذن ، أدرك الكاتب الوسيلة التي تحمله إلى الشهرة عبر السير في المنهجية الغربية تماماً ، وتبني المنظور الغربي بحذايره . حتى أدونيس (علي أحمد سعيد) الذي انضم لعرب الخدمات الفرنسية الذين يُقدّمون خدماتهم للقادرين على الدفع والتلميع ومنح الجوائز الدولية ، قدّم كل التنازلات الممكنة ، ونقّذ كل الأجندات الغربية ضد الإسلام والعروبة ، وأجرى كل الاتصالات الممكنة ، وقدّم الولاء والانتماء للقادرين على منحه جائزة نوبل ، وقدّم كل الخدمات الممكنة للصهيونية السياسية والثقافية على أمل أن يحصل على الجائزة ، ومع هذا أدركت اللجنة أن مستواه ضعيف لا يؤهله للحصول عليها . وعلى فرض أنه حصل عليها فهذا يعود بالطبع إلى خدماته الجليلة التي قدّمها للمؤسسات الغربية الحاضنة له التي وجّهته ضد الإسلام والعروبة بشكل ذي أغراض مسبقة . مع العلم أن جائزة نوبل للآداب تختلف عن باقي فروع الجائزة . فالأدب هو كلام ، والكلام يحمل فكراً واتجاهاتٍ دينية وسياسية قد تلقى القبول أو الرفض حسب المتلقي . أمّا جوائز نوبل في مجال العلوم كالفيزياء والكيمياء ، فهي قيمة علمية دون النظر إلى الإسلام أو النصرانية أو اليهودية = أو الإلحاد . فالمسلم واليهودي — مثلاً — يتوصلان إلى نفس النتيجة العلمية في العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء إذا استندا إلى منهج علمي متماسك ، أمّا في

العقيدة والفكر والكلام فيظهر الفرق واضحاً ، وهذا ما يجعل جائزة نوبل للآداب أكثر عرضة للتسييس والشبهات .

والغرب يلعب مع الأدباء العرب نفس اللعبة التي لعبها مع المنشقين في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، أي إن الغرب يحتضن كل كاتب عربي مناهض للإسلام والعروبة ، ويقوم بترجمة أعماله والاحتفاء بها ، ومنحه الجوائز ، وترتيب اللقاءات الصحفية والتلفزيونية معه لشرح آرائه ونشرها . وكل كاتب عربي تُترجم أعماله إلى لغات عديدة هو شخص مُدان حتى يثبت العكس ، لأن الغرب ينظر إلى الأمة العربية باعتبارها أمة بدوية بدائية متخلفة لا حضارة لها ، ولن يهتم بأي شيء ذي صفة عربية إلا إذا وجد فيه ما يدعم وجهة النظر الغربية ، ويناهض وجهة النظر العربية . لذلك تتم ترجمة الكتب العربية التي تطعن في الإسلام ، وتنتقد الحضارة العربية ، وتُقدّم المرأة المسلمة مُضطهدة خلف الحجاب ، ومقهورة نتيجة تعدد الزوجات . وهذه هي المواضيع التي تهم الغرب الذي لديه موقف مسبق ضد العرب والمسلمين بغض النظر عن أفعالهم .

أمّا النقاد العرب فليسوا أحسن حالاً من الشعراء . فالنقد العربي الحديث لا يملك أية نظرية خاصة به ، فهو يعيش في ظل " النظريات " الغربية . فطه حسين _ مثلاً _ بنى أفكاره على آراء المستشرقين وأساتذته الفرنسيين ، ولم يكن لديه أية نظرية خاصة به مصنوعة بيديه . حتى مشاهير النقاد العرب كجابر عصفور ، وفيصل درّاج ، والغدامي ، وإحسان عباس ، ليس لديهم أي نظرية خاصة ، بل إنهم يأكلون فئات بنوية كلود ليفي شتراوس ، وتفكيكية جاك دريدا ، وإسهامات رولان بارت وجوليا كريستيفا وغيرهم . وهذا يعكس حالة تخلف الثقافة العربية العائشة على التسول الفكري ونسخ الآخرين .

وتظهر في الأنساق الثقافية العربية نظرية " الحامل والمحمول " ، أي إن الكتاب العرب لا يمكن أن يصلوا إلى مستويات رفيعة إلا بركوب موجة ما ، وهي التي تحملهم إلى مجدهم الأدبي الوهمي . فالكتاب في الخليج العربي هم نتاج ثقافة رعاة الأغنام والبدو الرحّل . فهم تجسّد لأدب البترول القادر على تقديم الجوائز ذات القيمة المادية العالية ، وتلميع أنصاف الكتاب . والشعراء الفلسطينيون ركبوا موجة الثورة الفلسطينية لكي يصلوا إلى شاطئ الشهرة والجوائز . وعندما ماتت الثورة غاب صوت كتاب فلسطين ، ولم يقدروا على الوصول إلى شهرة محمود درويش وسميح القاسم اللذين تاجرا بقضية فلسطين عن طريق ركوب موجة الثورة ، والالتصاق بمشاهير القادة السياسيين أصحاب السلطة = = والنفوذ كياسر عرفات وجورج حبش وغيرهم . وقد كانت القضية الفلسطينية هي الرافعة التي أوصلت الكثيرين من الساسة والأدباء إلى الشهرة والنفوذ الهائل رغم ضحالة إنتاجهم ، وذلك لأن الأضواء كانت مُسلطة على

وتقاس قوة العناصر المكوّنة للثقافة الملتزمة سياسياً ، بمدى قدرتها على ضخ دم جديد في جسد النص الذي أنهكه التنظير العدمي فيما لا طائل منه . وإن انعكاسات ثقافة السوسيولوجيا (الثقافات المتلاحمة في اجتماعيات الحياة الإنسانية) على مرآة الكلام ، تقودنا إلى التفتيش بحماس وشغف عن القيم الاجتماعية المعبرة عن مسائل الحداثة الثورية وتفرعاتها . وينبغي _ لتحقيق مستوى عالٍ من أنسنة البناءات الكلامية _ تدوين كامل أنظمة السوسيولوجيا في قلب المعرفة السياسية للمجتمع ، اعتماداً على الحقيقة الثابتة التي مفادها أن الإنسان كائن سياسي، وأن السياسة هي اللبنة الأولى في بنيان الاتجاهات المعرفية التطبيقية للإنسان الطامح إلى التغيير،

هذه القضية وما يفتن بها . وعلى سبيل المثال ، لو ظهر شاعرٌ لتنظيم القاعدة أو داعش ، لصار أكثر شعراء العالم شهرةً ونفوذاً ومبيعاً ، ليس بسبب القوة اللغوية والعبقريّة الشعريّة ، ولكن لأن العالم بأسره يُسلّط الضوء على القاعدة وداعش وما يرتبط بهما . وهكذا تتضح فكرة الاقتراح والقوة الحاملة للمشروع الأدبي . أمّا أدباء مصر فقد استغلوا مكانة مصر (مركز الوطن العربي) لتحقيق مكاسب شخصية عبر ركوب موجة نفوذ مصر _ عربياً _ . ورغم هذا فلم يظهر أي شاعر مصري حقيقي بعد أحمد شوقي . أمّا في المغرب العربي فكثيرٌ من الكتاب ركبوا موجة الفرنكوفونية ، وراحوا يكتبون بالفرنسية لتحقيق شهرة ومكانة ، وهذا جعلهم يقدمون تنازلاتٍ مرعبة ضد حضارتهم مقابل بعض الصداقات من هنا وهناك على شكل جوائز وتكريمات ولقاءات صحفية . وبشكل عام ، إن كثيراً من الأدباء استغلوا إشرافهم على الملاحق الثقافية في الجرائد لتلميع صورتهم ، وصناعة شهرة ونفوذ عبر استغلال الوظيفة . ونسبة كبيرة من الكاتبات العربيات ركبن موجة الجنس المبتذل وكتابة الجسد لزيادة عدد القراء ، ومن أجل أن تصبح كتبهن في قائمة الأكثر مبيعاً . وهؤلاء مُصابات بعقد نفسية جنسية عبر مراحل حياتهن ، ويفتقدن إلى الإشباع الجنسي ، فيلجأن إلى الثورة على التقاليد في محاولة لإيجاد الذات بعد انكسارها وتشظيها . وهنّ مجرد زوجات فاشلات في حياتهن الزوجية، يتاجرن بحقوق المرأة، ويتصنعن التمرد والاستقلالية ، أو هنّ مجرد عوانس يلهثن وراء ظل رجل ، وكما يُقال : ظل رجل ولا ظل حائط . وهكذا تتعزز عُقدة خضوع الجارية للنحاس ، واستسلام المرأة المغتصبة (معنوياً) لجلادها. لذلك فالثقافة في الوطن العربي هي عصبية قَبَلية بدون فعل حقيقي، ومجرد كلام في الهواء منقول من الحضارات الأخرى ، وأفكارٌ فَوْضوية شعاراتية موضوعة على هامش المجتمع بلا تأثير . فالدولة منهارة ، والمتقف عاجز ، والثقافة مُعيبة . والشعوب تلهث وراء رغيف الخبز .

لذلك فإن السياسة لَيْست عنصراً دخيلاً على الكينونة البشرية، بل هي إحدى مكوناتها الأساسية. وهنا ، تبرز حقيقة شبه غائبة عن المجتمع ، وهي أن السياسة لفظٌ عام يشمل الحياة الاجتماعية والحياة الثقافية ، وليس محصوراً في نظام الدولة السياسي ، أو المناصب الحكومية .

إن سياسة الشعر تكمن قوتها في قدرتها على فض الاشتباك بين تطورات الوعي السياسي ، ومسارات الأنثروبولوجيا الوجدانية الحية . وهذه القدرة تكشف عن الرؤية المنظورة وغير المنظورة في الجسد القصائدي ، مما يُساهم في إحلال الفكر الاجتماعي التنويري محل البنى السيكولوجية البدائية، وهكذا نحصل على فهم شامل للطبيعة المعرفية في النسق المجتمعي والنظام الثقافي . وهذه الطبيعة المعرفية مندمجة مع المعطى التاريخي المتمثل في الأنساق الحياتية المعاشة ، ولا يمكن لهذه الأنساق أن تخرج من دائرة الرؤيتين الوظيفي إلا بالثورة على نفسها ، وإثبات نفسها من خلال نفي الوهم المقابل . فإثبات الذات لا يكون إلا بالإبقاء على الخط الرئيسي ، ونفي كل الخطوط المتوازية . فالموجب واحد لا يتعدد ، والسالب عوالم متعددة متناحرة .

وفي هذا المقام ينبغي القول إن كل الانبعاثات الفكرية المتأججة في جسد القصيدة ، تتحرك باتجاه تكوين سوسولوجيا الوُضْعة الشعرية وتجذيرها في بُنية المجتمع الإنساني الاستهلاكي . وهذا الأمر مهم للغاية ، لأنه يؤدي _ عاجلاً أو آجلاً _ إلى نسف الأساطير التي كرسها سلطة الموروث السياسي في الخيال ، وعلى أرض الواقع . وفي هذا المناخ ، ليس غريباً أن يصبح النصُّ الشعري مُرشداً اجتماعياً ، يقف في وجه الهيمنة السلطوية القمعية في مجتمع الخوف والكراهية ، ويكرس نظرية استعمار الخيال (إعمارهِ لا احتلالهِ) ، ويُفسّر طبيعة التحولات الإنسانية المحصورة بين القمع السياسي والكبت الجنسي ، ويُواجه أيديولوجيات السلطة السياسية التي توظف مقومات الثقافة لشرعنة الاستبداد ، وإيجاد غطاء أخلاقي لحالة الانهيار المجتمعي على كافة الأصعدة . ومن أجل التحرر من ضغط العناصر السلبية ، لا بد من صهر الأضداد في بؤتقة واحدة للحصول على سبيكة معرفية متجانسة ، وتأريخ حالة الوعي الثوري القامع للقمع . وإذا شخّصنا الحالة الفكرية المتشظية في أوصال القصيدة، أدركنا حتمية تنوير الشعر ، وسلخه عن الاستهلاكية السلبية ، ليصير جزءاً من وجود الإنسان ، ومُعادِلاً لكينونته البشرية المستلهمة من الأحلام الجماعية .

والشعرُ صدمةُ المعرفة غير المدجّنة، وصدّامُ أفكارٍ لا ينتهي، وصوتٌ من لا صوت له . وهذا يستلزم _ بالضرورة _ تحوُّل تضاريس القصيدة إلى تاريخ لروح الشاعر ، وتحوُّل الأبجدية الشعرية

إلى أحلام جديدة للبشر المسحوقين . وبالتالي ، نصل إلى ثنائية التجرد والتجريد . التجرد من الهوامش والتركيز في المتن ، وتجريد المجتمع البشري من غروره الكامن واستعلائه الوهمي . فلا بُدَّ أن يعرف المجتمع عَوْرَاته ليعرف كيفية سَتْرَها ، ولا بد أن يدرك نقاطَ ضَعْفه ليعرف كيفية إِزالتها ، ولا بد أن يدرك نقاطَ قُوَّته ليعرف كيفية تعزيزها . ووفق هذه الرؤية ، يمكن القول إن الشَّعر طائرٌ له جناحان : التجرد والتجريد. ولا يمكنه الطيران بجناح واحد. وبالإضافة إلى هذا ، فإن الشَّعر هو كسر الحواجز النَّفسية ، وتحطيمُ العُقد المعرفية في الجسد الإنساني ، من أجل تحرير الإنسان من نَفْسه ، وتحريره من الوطن والمنفى معاً . فالإنسانية _ أولاً وأخيراً _ هي التحليق .

إن مركزَ صنع القرار في القصيدة يتشكل على صُور متعددة من شأنها تجديد قوالب اللغة ، وتغيير زوايا الرؤية. ممَّا يجعل القصيدة جِسْماً مشحوناً قادراً على إفراز الوعي ، وتأطير النمو الاجتماعي للأبجدية . وهذا إنجاز _ بحد ذاته _ ، لأنه خُروج على سُلطة الفوضى الأبوية البوليسية التي تتحكم في مسار المجتمع البشري . وكلُّ تمرد على البنية البوليسية للمجتمع ، لا بد أن يُفرز تياراتَ معرفيةً مشتملة على الوعي القُصدي (الوعي الذي يعرف نقطتي البداية والنهاية) ، والمعرفة الماورائية التي تستشرف مستقبل الوجود الإنساني روحياً ومادياً. وفي هذا الخضم ، تتجذر حقيقة كَوْن القصيدة موقفاً من الحياة بكل تفاصيلها ، وليست موقفاً سياسياً فَحَسْب . كما تتجذر حقيقة أن الإنسان غير الاستهلاكي يعيش في مجتمعين في نفس الوقت : المجتمع البشري ، والمجتمع الفكري . وبعبارة أخرى ، إن النِّسق الإبداعي يصنع مجتمعين : مجتمع داخلي يعيش في الإنسان ، ومجتمع خارجي يعيش فيه الإنسان .

وهذا الحراك (الاجتماعي _ الفكري) لا بد أن يُصاحبه نقد دائم للصِّغ الأدبية ، والقوالب الشَّعرية . فلا يوجد قالب نهائي وحاسم في الصِّغة الأدبية ، فالأدب يُغيَّر جِلْدَه باستمرار ، أي إنه يُغيَّر آلياتِ بناء النَّص . وهذه الرؤية المركزية تنبع من كَوْن الكلمة اختصاراً للُبِّية التاريخية ، والبناء الحضاري . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الكلمة نظرية متجانسة عن الطبيعة المادية للعناصر .

وإذا تركزت الكلمة كمشروع للوجود والخلاص ، فإن القصيدة ستتحول إلى خريطة للجينات اللغوية الحاملة لتراث الواقع وميراث الخيال . ولا يمكن إيجاد علاقة متوازنة بين الواقع والخيال ، إلا عن طريق صناعة رموز لغوية تُرسِّخ الوجود الشَّعري ، وتعيد ترسيم حُدود الفكر المعرفي ، وتُساهم في إعادة رسم خارطة اللغة . وهذه القضايا لا بد أن تندمج مع نقد الذات ، وبناء الوعي بالأنا والآخر ضمن منظومة تزامنية لا تعاقبية .

وعلى الرغم من حتمية المواجهة بين أشكال الرؤية اللغوية ، إلا أننا ندرك تماماً أن اللغة هي الكائن الحي المفكر ، وأن الشعر هو فلسفة اللغة الثورية ، وبالتالي ، فسوف يجد الشعر نفسه _ شاء أم أبى _ في مواجهة المجتمع التقليدي الخرافي الذي صنعتها السلطة السياسية القمعية . وهذه المواجهة الشاملة نتيجة منطقية للنظام الثوري في اللغة الكامنة في عناصر الطبيعة . والجدير بالذكر أن هذه المواجهة ترمي إلى هدم المسلمات المفروضة بالقوة العسكرية أو إغراء المال ، الأمر الذي يؤدي إلى تحويل العواطف إلى أنساق ثورية ، مع احتفاظ العواطف بالسمو المعنوي . والإشكالية الكبرى في العالم الشعري تتمحور حول تحرك القصيدة في مجتمع منهار يقرأ جسده ، ولا يفكر أن يقرأ روحه . وهذا الانهيار الشامل يضغط على أعصاب القصيدة ، ويُعيق تقدّمها في طريق البناء الحضاري ، كما أنه يساهم في تدمير الجسد الثقافي العام . ومع هذا ، ستظل المرجعية الفكرية للخلاص الشعري كامنة في الذوات البشرية القابلة للاكتشاف . فالكيان البشري هو الحاضن للانفعالات اللغوية الجوهرية التي تصنع الخصائص الوظيفية للعنصر الأدبي المجتمعي ، وهذه خطوة أولى في طريق نقل المعنى من مجتمع الجبر إلى مجتمع اللحم والدم . وبعبارة أخرى ، نقل المعرفة التنويرية من الكتب إلى الواقع المعاش .

والمجتمع البشري بحاجة إلى عمليات جراحية تُعيده إلى الفضاء المعرفي . ولا يخفى أن الضرب على السطح دون الغوص في العمق ، من شأنه وضع صياغة سلبية للفعل الاجتماعي . كما أن الدوران حول الفكرة دون اقتحام الجوهر القصائدي وتشريحه ، سيؤدي إلى فوضى عارمة في بنية اللفظ وفلسفة المعنى . إذن ، لا بد من المضي قدماً نحو اكتشاف لغويات ذاتية جديدة تحترم اللغة الأم ، وتؤسس أبجديةً خيالية موازية للأبجدية الواقعية ، وتطرح الأسئلة المصيرية على المنهجية الاجتماعية للنظام الشعري . وبالتأكيد ، إن فلسفة الأسئلة لا تقل أهمية عن فلسفة الشعر . فالسؤال نظام متكامل يحفظ التوازن بين الوعي اللغوي والتوعية الشعرية ، ويُسيطر على أبعاد الصدام بين القصيدة (النص اللغوي) والمجتمع (النص البشري) .

والجدير بالذكر أن أهمية اللغة الكامنة في نظامها الرمزي الداخلي . فهذا النظام يُمثّل عاطفةً يوميةً متماهية مع وقوف الإنسان ضد ذاته . فالإنسان وذاته ضدّان لا يجتمعان . وبالتالي ، فلا بد من الصدام بين الإنسان وذاته . وهذا الصدام خطوة أساسية لتشكيل حالات الاندلاع الشعوري للفكرة ، وترجمة الأحاسيس الاجتماعية إلى لغة مرئية تفهمها عناصر الطبيعة ، وجعل أشكال المادة تابعة للروح . وبدون الصدام بين الإنسان وذاته ، فإن الروح ستتحول إلى شكل مادي فج ،

أو ستصبح الرُّوحُ تابعةً للمادة في كل أطوارها . وهذا الأمر غاية في الخطورة ، إذ إن انكسار الرُّوح سَيَقُودُ المجتمعَ البشري إلى استثمار انهياره وتكريس تخلفه بحثاً عن الأمل والحياة ! . وكما قيل : إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشُّوْكَ الْعِنَبَ .

وانسجماً مع المنظور المنطقي للطبيعة القصائدية ، تُوضَعُ الإشاراتُ الرمزية ذات الخلفية الاجتماعية في بؤرة الفاعلية اللفظية والمعنوية . ممّا يدفع باتجاه تحليل الظواهر الشعّرية ، وإيجاد روابط منطقية بين عواطف الإنسان، والأبجدية المتحرّرة من سَطْوَةِ الصُّور الفنية المستهلكة . وكلّما حَدَدْنَا المصادرَ المعرفية للمجتمع، اكتشفنا تفاصيلَ الرمزية المغرقة في الواقع الملموس . وطبعاً ، هذه الرمزية ملتصقة بالأداء الفلسفي الديناميكي الذي يتصدى لعمليات وأد الشعور الإنساني .

ولا يمكن _ بأية حال من الأحوال _ اعتبارُ الشعور مسألةً هامشية ، أو تحصيل حاصل ، أو نوعاً من الرفاهية . فالشُّعُورُ هو الأساس الفكري العميق لحركة التحولات اللغوية . وإذا غاب ، فإن المجتمعَ البشري سَيَفْقِدُ بوصلته ، وَسَيَفْقِدُ المجتمعُ الشعري سيطرته على ذاته ، ويدخل في طَوْر الانكماش وصولاً إلى التلاشي .

وفي ظل هذه التحديات الجسيمة، لا مفر من الالتحام بين طبقات النص الشعري، وذلك لكي يتحول النص إلى نظام تواصلي مبني على إفرات اللغة المتجددة . وبالتالي تؤول القيمُ المعرفية إلى عناصر مركزية في سياسة الشعر المتداخلة مع التأمل الذهني والتشوير الواقعي . إن التفاعل الاجتماعي المزروع في أقاصي اللغة قادرٌ على تحليل الأطوار العاطفية للإنسان ، والتعبير عن كُُلّ المشاعر الجياشة داخل رُوح القصيدة . وهذا مؤشّر واضح على أن اللغة هي الثورة العظمى المكتفية بذاتها ، وأن نظام اللغة الاجتماعي هو الوريث الشرعي للظواهر البنائية القائمة على فلسفة الشعر (الواضحة والغامضة) .

ومن خلال هذا السياق ، تبرز ضرورة التشخيص المبكر للحالة الفلسفية ذات الأبعاد اللغوية . فهذا التشخيص هو الخطوة الأولى من أجل ربط الجسم اللغوي بتأثيراته العابرة لحدوده ، وربط الكيان الاجتماعي بالتأثير المعرفي الرمزي . وفي كل الأحوال ، ستبقى اللغة هي الأرض الخصبة ، وستبقى القصيدة هي الوشم الدائم على جسد الأبجدية ، وستظل الأسئلة المحورية هي القاعدة التي

يقوم عليها العقل الجمعي بكل تطبيقاته .

وفي ظل هذا الزخم المعرفي الشامل، لا بد من تحدي ظلال اللغة بجوهر اللغة ، وإعادة تشكيل الأبجديات الاجتماعية الرمزية بما يتوافق مع الاتجاهات الثورية للثقافة العَصِيَّة على التدجين ، وغير المسيطر عليها من قِبَل مُثَقَّفِي السُّلْطَة الاستبدادية . وبالقطع ، لا معنى لكل هذا الكلام إن خَلَّتْ اللغة من عنصر التحدي، وفكرة التفوق على ذاتها. وكلُّ تَفُوقٍ على الذات هو تَفُوقٌ على الآخر.

وفي ذات السياق ، ينبغي إدماج فلسفة القصيدة بالمسار العام للتاريخ الذي يُعاد اكتشافه من جديد ، وذلك من أجل إحداث توازن بين تفاصيل الأبجدية المتجانسة ، ومصادر الخيال الوظيفي . مما يُساهم في إيجاد قواعد تفسيرية للإشارات الشَّعْرِيَّة والاجتماعية على حَدِّ سواء . وبالتأكيد ، إن كُلَّ فرد هو مجتمعٌ قائم بذاته، وكامل الملامح والخصائص. لذا فالمجتمع الفردي يحيا في قلب المجتمع العام ، وهذه الحياة (الجزئية _ الكُلِّيَّة) ذات الفاعلية الفلسفية تُعيد بناء التيارات اللغوية في مركز الشُّعُور القصائدي على شكل واقعية أقل تَوْحُّشاً ، وأكثر إنسانيةً .

ومهما يكن من أمر ، فلا بد من ربط البواعث الشُّعُورية بالتفسيرات التاريخية ذات الصَّبْغة الاجتماعية . وليس المقصود بهذا الكلام إخضاع النَّفْس البشرية بكل تعقيداتها للجدلية المادية المضادة للفطرة ومنطق الأشياء. بل المقصود هو تأريخ المشاعر الإنسانية ، وكشف علاقتها بالواقع إثباتاً ونفيّاً، تمهيداً لصناعة فلسفة لغوية شَّعْرِيَّة لا تَسْقُط ضحيةً للأضدادِ وصراعِ الأنساق المعرفية. وفي هذا النسق تبرز حقيقةٌ أساسية ، وهي أن كُلَّ لغة شَّعْرِيَّة لا تَنبَع من قوتها الذاتية ، مصيرها الفشل المؤكَّد .

إن التمرکز في هامش التفسيرات المادية الجدلية للتاريخ، سوف يقود إلى سلخ الفرد عن القيم الشُّعُورية الإنسانية . وهكذا، تَظهر الجدلية المادية عاجزةً عن إيجاد تفسير إنساني للتاريخ البشري . فهي جدلية عبثية قابضة في زوايا الانحسار المعرفي ، ومُغرِقة في الدلالات المنهارة، وعاجزة عن تكوين فهم حقيقي لطبيعة التاريخ، وحقيقة اللغة ، وبنية الثقافة . وهذه الانتكاسة المعرفية لا بد أن يُقابلها فكرٌ لغوي متماسك ، فاللغة تُرفض الفراغ ، ولا تقبل بأنصاف الحلول .

ومن أجل ملء الفراغ ، تقوم القصيدة بتأسيس تاريخها الاجتماعي الشخصي خارج نفوذ الأساطير المصبوغة _ زُوراً _ بالمنهجية العلمية . فالقصيدة هي إعادة بناء العقل الحضاري الكُوني عبر مواجهة العقل البشري الميكانيكي المستند إلى ثقافة الوهم . وكلما تعمَّقت البُنى الاجتماعية في القصيدة ، اكتشفنا مزيداً من العوالم الذهنية التي تعمل جاهدةً على إعادة تشكيل

الإنسان والمجتمع وفق رؤية إنسانية وعملية . وهذه الرؤية اليقينية تمنع الأشكال الميثولوجية من قتل نزعة الأنسنة في الجسد الشعري . وبالتالي ، تتم حماية التجانس في العوالم الشعرية ، وتوليد عناصر اجتماعية قادرة على اكتشاف مستويات الخيال الواقعي داخل اللغة الحية، وتكثير البنى الثقافية (الفوقية والتحتية) ذات الإشارات الرمزية التي تُحدّد اتجاه النص ودرجة فاعليته ، وصناعة تاريخ خصوصي للنص ، ورسم تفاصيل جغرافيته المميّزة . وهذه الأمور مجتمعة تُشكّل مصادر القوة الثورية للشعر .

وإذا تركزت الاتجاهات المعرفية في مركز القصيدة وبؤرة المنظور الوجداني ، فإن الطاقة الشعرية ستحرر من ضغط العناصر الاجتماعية المادية . وعندئذ يرتبط السلوك الفكري _ الذي تصنعه الطبيعة اللغوية _ بالمسار السياسي لتاريخ المجتمع الإنساني، وبُنية المجتمع الشعري . وفي هذا السياق ، لا مفر من القول إن السُلطة السياسية المجتمعية انعكاسٌ لمدى تقدم المجتمع الإنساني أو تخلفه. وهذه الفكرة لا تنطبق على القصيدة بأية حال من الأحوال. فالقصيدة مجتمع رمزي، تتحرك فيه الأبجدية الشاملة (الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية) ضمن متواليات تكاثرية ، وهذه القوة الرمزية قادرة على إعادة تشكيل الذات الإنسانية والذات القصائدية، داخلياً وخارجياً.

ومهما يكن من أمر ، فلا بد من إعادة رسم خارطة العالم داخل القصيدة (الجسد اللغوي المحتوي على عوامل الهدم وأنوية البناء) . وهذه القضية الحيوية تمهيدٌ للسيطرة على التراكيب المعرفية الواقعية ذات التشظي الخيالي . فالخيال _ أولاً وأخيراً _ هو واقعٌ جديد ، وبُنية اجتماعية متحررة من صيغ الوهم ، وصياغة المنظور الاستهلاكي .

إن القصيدة تصنع تاريخها الخصوصي المتكامل. وهذا يعني أن المضامين التفسيرية لجسد المجتمع تبدأ من اللغة الشعرية، وتنتهي إليها . وهذه الفاعلية المعرفية تنطلق من فلسفة إثبات الكل عن طريق إثبات الجزء ، وتكريس الجزء كخطوة لشرعنة الكل. في حين أن الأوهام الاجتماعية _ التي تُكرّسها السُلطة القمعية للسيطرة على الناس _ تُثبت الكل عن طريق نفي الجزء . وبالتالي ينهار الجزء والكل معاً . فالسلطات القمعية في كل زمان ومكان ، تحرص على بناء صورة وهمية براقّة دون الخوض في التفاصيل ، لأن التفاصيل قادرة على فضح ألاعيب هذه السلطات الاستبدادية . وكما قيل : الشيطان كامنٌ في التفاصيل .

والجدير بالذكر أن عقل القصيدة هو عقلٌ ثوريٌّ معنيٌّ بالأجزاء والكُل ، أمّا عقلُ الخرافة فهو عقلٌ كُلّيٌّ وهمي لا يرى الأجزاء. وهذا الأمرُ يُشكّل خطراً هائلاً على مسار المجتمعات . وإذا أردنا صناعةً مجتمعات متقدمة روحياً ومادياً ، فلا بُد من رؤية الغابة المختبئة خلف الشجرة ، ولا بد من رؤية الجزء غير الظاهر من جبل الجليد . وهذا لا يتأتى إلا بتطبيق الرؤية الشعريّة على الرؤية المجتمعية . وينبغي القول إن الرؤية الشعريّة هي وحدة اجتماعية لها خصائصها المتفرّدة ، وتمتلك مستوى بنائياً عملياً يُعبّر عن طبيعة النظم المعرفية للمضمون الجوهرية الذي يتخذ من القصيدة وسيلةً لأنسنة التجمعات البشرية الموعلة في النوحش . فالقصيدة تاريخٌ إنساني يُحدّد العناصر الاجتماعية المتمردة على التّطلّؤ الذي يُحوّل الكينونة البشرية إلى ظل، ويَحُبس العلاقات الإنسانية في جدلية ميكانيكية خالية من المشاعر والقيم المطلقة . وبشكل عام ، إن خطورة التّطلّؤ تكمن في تجريد الأنساق المعرفية من الحس الوجداني، وتعرية الذات الإنسانية من الشعريّة الثقافية .

وإذا أردنا الحصول على شعور جمعي قادر على أنسنة عناصر الطبيعة ، فلا بد من صياغة الدلالات الاجتماعية وفق مِخيال القصيدة. وهذا الأمرُ من شأنه تحليلُ مضامين المجتمع العائش فينا، وتشريحُ أنوية المجتمع الذي نعيش فيه . ومهما يكن من أمر ، فإن الرّوح القصائدية ستمضي في درّبها باعتبارها مبادئ اجتماعية ذاتية تترع في الرؤية العاطفية أبجدية السّلطة الكلمائية .

ومع بروز تيارات الوعي الثوري في أنساق الهدم والبناء التابعة للأبجدية الشعريّة، تبرز حتمية التفسيرات الاجتماعية للتاريخ الثقافي القادر على تنقية التجربة الشعريّة من إفرازات الدلالات الوهمية . ولو أنعمنا النظر في لغويات القصيدة واجتماعيات الأبجدية ، لوجدنا أن معاني الوجود الشعري تُشكّل _ بمجموعها _ فلسفة حرارة التعبير ، وكيّونة انسياب المعاني. وكلما زادت حرارة التجربة ذابت الفروق بين الشعر والنثر. فالشعرُ لا تحدّده الأوزان الشعريّة بقدر ما يُحدّده المِخيال الواقعي الصاعق والمدهش .

وفلسفة الدّهشة ترمي إلى كسر الرّؤى السلبية ، وتشبيدِ الذهن على أرضية الصّعقة اللغوية المذهلة ، وزراعة اللغة الحرة في قلب العاصفة الشعريّة ، ووضع عناصر الطبيعة في منظومة التفاعل بين الكلمة والإنسان. وهذه التفاصيل الدقيقة من شأنها توحيد الشعور النصّي في القصيدة، وتوليد المعرفة الرمزية التي تربط المتواليات العاطفية بالطبيعة اللغوية الثورية. وبشكل عام ، إن اللغة هي أم الطبيعة . وكلما اقتحمت عوالمنا اللغة ، اقتحمتنا المستويات المعرفية بواسطة الأبجدية المِخيالية المتكاثرة التي لا تخلع الأبجدية الأم .

وكثرة الولادات في صياغات المجتمع الثوري ، تُكسّر دلالاتِ النصّ الشعري الذي سَيَقُود
الانقلابَ الشاملَ في طبيعة فهمنا للأبجدية، وعوالم اللغة اللامنظورة . فالشعرُ هو حركةٌ انقلابية
غير فَوْضُوية ، يمكن تفسيرها اعتماداً على العناصر الجمالية . كما أن الشعرَ محاولةٌ حثيثة
لاستنطاق الواقع المخيالي المندمج مع إنتاجات النفس البشرية ، وخصائص التجربة الروحية .

وإذا تجذر الشعرُ في التجانس الاجتماعي ، فإن المفهوم الرمزي للتشوير الكلامي سيتجذر في
تاريخ الذهن وتاريخ الواقع ، مما يؤدي إلى شرعنة لغويات التعبير عن الأحلام الإنسانية المقموعة
أو المؤجلة ، وبناءً تصورات زمكانية تتفاعل مع الإنتاجات المعرفية للنص المتحرك ضمن ثقافة
استعمار الخيال الممزوج بالدلالات الفلسفية ذات الصبغة الاجتماعية .

إن القصيدة ليست مادةً استهلاكية لقضاء وقت الفراغ ، أو حبةً مُهدئٍ يتناولها الإنسان ثم
يغطس في نوم عميق. فالقصيدة شُعلةُ الثورة الممتدة من جسد الشاعر المتحد بعناصر الطبيعة
حتى جسد اللغة المتحدة بذاكرة الحضارة وتاريخ الإنسان . إذن ، نحن أمام حالة معرفية تتسم
بالبناءات الديناميكية التي تهدف إلى تشكيل هوية المجتمع الشعري، وتكوين شخصية المجتمع
الإنساني . وهذه الثنائية المركزية (الهوية / الشخصية) قادرة على تحليل مُكوّنات التاريخ بكل
عناصره الروحية والمادية . والتاريخُ هو جغرافيةُ الأسئلة المتواصلة ، والوجود المتفاعل مع الرؤية
النصية ، والبحث الدؤوب عن معمارية المعرفة .

والقصيدة لا تكفُّ عن طرح الأسئلة التنويرية التي تُفتّش عن الذات بين الذوات، وعن الذات
في قلب المجتمعات ، وعن المجتمعات في تفكير الذات . وهذا الحراك الفلسفي الشامل يؤدي
إلى تشكيل مدلولات ثقافية اجتماعية تنسف الأيديولوجية القمعية التي تتجلى في الإفرازات
الاجتماعية والأطر السياسية . وهذا من شأنه إنتاج صياغات جديدة للعلاقة اللغوية بين الثقافة
الذهنية والواقع المعاش . وفي هذا الخضم ، ينبغي تذكُّر أن الأشكال اللغوية للتاريخ الشعري
تعمل على إحداث ثورة فكرية في أبجدية المجتمع الواقعية والمتخيّلة، وإعادة صياغة الفكر
الإنساني بشكل يتلاءم مع اتجاهات القصيدة . فالقصيدة هي السُلطة الشرعية في التاريخ
الوجداني ، والحاكمة على الأنساق المعرفية ، والقادرة على تفسير العلاقات المجتمعية . وهذا
غير مستغرب ، فالقصيدة هي الشيفرة الوراثة التي تحمّل جينات الوعي الثقافي ، وخصائص
الكيانات الاجتماعية .

ومن خلال هذا الرّخم المعرفي ، تتحول العلاقة بين التاريخية الشعريّة والجغرافية الوجدانية إلى أبجديات رمزية مفتوحة على كافة النّظم الاجتماعية. وبالإضافة إلى هذا، فإن الطاقة الذاتية للأبجدية تصنع فضاءات ثقافية قادرة على بلورة الأحاسيس الإنسانية ، وتشكيل مجتمعات المعرفة .

*

٣

أنسنة هوية الصناعة الشعريّة

تُمثّل الصناعة الشعريّة محاولةً للخلاص من اضطهاد المجتمعات البشرية الذي يؤدي إلى صناعة أجيال غير قادرة على الإبداع والبناء الثقافي. وهكذا، يتولّد الخلاص الشعري (خط الدفاع الأول عن هوية المعنى وأبجدية الحضارة). وهذا التولّد من شأنه تفعيل الثقافة المستقلة عن سياسة " العَصَا والجَزْرة"، والوصول إلى أشكال التلاقي بين البنى الفلسفية للقصيدة التي تُعتبر قوميةً أدبيةً مستقلة، وجسداً مُتمتعاً بالسيادة الذاتية . وهذان البُعدان (الاستقلال / السيادة) يُوجدان في القصيدة بشكل نسبي وغير مستقل بالكامل عن الصياغة العامة للمسار الاجتماعي ، لأن الاستقلال الكامل يعني الانسلاخ عن الهوية الحضارية المتفردة .

إن الثقافة المعرفية تنسلخ عن الجدليات السُّلطوية الحاكمة باسم الوهم ، والتي تتخذ من وأد هوية المعنى شعاراً لها في كل الأطوار . وهذا الأمر يدفع الأبجدية الخيالية لتجسيد قوة الواقع في أقصى درجات تمرده وتدفقه وانفعاله . وهذه العناصر (التمرد ، التدفق ، الانفعال) لا يمكن تجذيرها إلا عن طريق تجذير الهوية الثقافية للفرد الجمعي ، وتوحيد زوايا الرؤية ضمن منظومة تكاملية لا متعاكسة . وبالتالي ، ستتكوّن تجارب شعريّة مضادة للاستهلاكية . فالشعر لم يأت من أجل التسلية أو ملء وقت الفراغ، وإنما جاء ليتكسر كمرجعية منطقية وجودية صادمة ، ومتمردة على الواقع . والصدمة والتمرد ليسا مقصودين لذاتهما ، فهما وسيلتان لا غايتان ، وتهدفان إلى إيقاظ الناس من مؤنهم، وبثّ روح المعاني في هاوية العدم الإنساني ، وزرع القيم الثورية في مفاصل الحياة الاجتماعية . وهذا سيؤدي _ حتماً _ إلى ظهور أنساق معرفية كاسرة للتميط الذي يقتل القصيدة باسم القصيدة .

والقصيدةُ تصنعُ مَنطقتها الخاصَّ ونظامها العقلاني المتمرد من تشكيلات العاطفة . والعاطفةُ هي بُنيةٌ فلسفية متجانسة قادرة على الوصول إلى أعماق القوى الذهنية ، ومجتمع رمزي يتكون من أبجديات خاصة شديدة التعقيد. وإذا تجذرت العاطفةُ في قلب المجتمع الإنساني ، فإن ثقافة الحفريات في اللغة ستغدو نظاماً حياتياً يدفع باتجاه توليد تجارب شعيرية متماهية مع التفسير الثوري للأدب .

واللغةُ الشعيريةُ الخصوصيةُ هي فضاء رمزي يُسيطر على العوالم الكلاماتية السحرية ، ويُجبر جسدَ القصيدة على العيش في مركز الشرارة الأبجدية . وهذه الشرارةُ _ التي تحرق أبجديات السياسة القمعية _ هي القدرة على إفشال مخطط إلغاء الوجود الثوري للإنسان ، وتهميش الحضارة المعرفية ذات الطابع الشعيري. وهذا الحراك التنويري ينقل الرمز الشعيري من حالة الجمود إلى حالة الاشتعال . وبالتأكيد ، إن هذا الاشتعال يستمد قوةً تأججه من ذاته ، وذلك بسبب كَوْن الشعر نظاماً قائماً بذاته ومُكتفياً بها . فالشعرُ ليس صَفقة تجارية بحاجة إلى مستثمرين ، وليس منظومةً من المضاربات في البورصة تحتاج إلى قوانين تنظيمية . إن الشعرُ يُنظّم نفسه بنفسه ، كما أن الرمزية الإشارتية في الجسد الشعيري تُنظّم عوالمها الثائرة ، وتوفّق بين الأفكار المتصارعة وبين العقلانية المتمردة على قانون النطلو (التحول إلى ظلال خرساء) .

وإذا قُمنا بتشكيل العاطفة اعتماداً على الأبجدية المتمردة في رُوح القصيدة ، فإن الأبعاد السيكلوجية التي تقود النصَّ سوف تتجذر كحقيقة اجتماعية مُعاشة . وهذا يُشير إلى العلاقة الوثيقة بين الأبعاد النفسية والأبعاد الاجتماعية ، ويُشير _ في نفس الوقت _ إلى أهمية القصيدة في تكريس تلك العلاقة والحفاظ عليها في ظل المتغيرات الصاعقة. وفي ضوء هذا الانبعث الوجداني ، فإن التفاصيل الاجتماعية ستتم ترجمتها إلى رموز شعيرية تمتاز بالرسوخ بسبب ارتكازها إلى المرجعية الشعورية، وتقنيات البناء الروحي لثورة اللغة. مما يؤدي إلى تشييد جغرافيا القصيدة، تلك الجغرافيا المؤرّخة بتواريخ الغضب المنتقل من طُور الكَبْت إلى طُور التشطي المجتمعي .

والجدير بالذكر أن القصيدة تبتكر نظامها الوراثي الخاص، وتخترع علاقاتها التعبيرية ، بشكل متزامن مع ولادة الأبجديات الذهنية المناهضة للقمع السياسي المركّب . ولا يتوقف دورُ القصيدة عند هذا الحد ، فالقصيدة _ أيضاً _ تعمل على تحويل المجتمع الإنساني المقموع إلى مجتمع حر ، وذلك عبر توظيف الرموز اللغوية التي توازن بين السلوك الشعيري والسلوك البشري . وهذا

الأمر يُنتج خصائص معرفية معيارية، تتحول _ مع الوقت _ إلى وحدات أولية للمادة الفكرية، وهكذا ، تتجلى حيوية التجانس في داخل القصيدة ، وداخل الإنسان .

إن القصيدة الحقيقية تكمن وراء القصيدة ، وهذه الفكرة تُمثّل الأساس الفكري لفلسفة اللغة الشعريّة (فلسفة ما بعد القصيدة) . وهكذا ، يتجذر مبدأ التجاوز كبنية شعورية كامنة في تفاصيل المجتمع المادية. ولا معنى للنص الشعري إذا خلا من التحدي والتجاوز وصهر المراحل . فهذه القيم هي التجسيد اللغوي المنطقي للطبيعة التي تُحيط بنا ، ونُحيط بها . وينبغي القول إن النص الشعري ليس كتلة أسمنتية خرساء ، بل هو شخصية اعتبارية قائمة بذاتها ، وهوية منهجية تُوازن بين أحلام الفرد وأحلام الجماعة، وجسدٌ اختزالي قادر على تلخيص الرموز اللغوية والرموز الاجتماعية ، وأبجديةٌ توفيقية لا تلفيقية ، تجمع بين الأبجدية الجزئية (الفردية) والأبجدية الكلية (الجماعية). وهاتان الأبجديتان تستثمران جسد اللغة الحي في الدّم ، والشاعر الحقيقي يكتب بدمه القاطع كالسيف، ولا يكتب بالجبر المستورد من الحضارات الشاذة عن المسار الإنساني .

والقصيدة _ شاءت أم أبت _ ستجد نفسها في معارك كثيرة ، وهذا عائدٌ إلى حتمية الصدام بين النص الشعري والمجتمعات المتخلفة . وحيث يكون الداء يظهر الدواء ، وحيث تكون الجيف تظهر النسور . وهذا الصراع الوجودي القاسي سوف يُعمّق دلالات الوعي الكاشف لأطوار المجتمع الداخلي الذي يعيش فينا على شكل أفكار وقصائد وتجارب فلسفية ، وهذه المنظومة تأخذ بأيدينا نحو الضفة الأخرى للحلم ، حيث يُقيم الرفض العقلاني مملكته الكبرى على أنقاض الوهم الاجتماعي .

والرفض هو وجه اللغة الشعريّة، وليس قناعاً زائلاً . وهذه القيمة الراسخة (الرفض) تدفع القصيدة إلى القتال على جميع الجبهات . مما يؤدي إلى تفجير الإمكانات اللغوية الوظيفية ، ودمج التأثير الشعري في أنساق المجتمع ، وكشف الرموز التاريخية الحضارية للمعطى الثقافي ، وتفسير السلوكيات الذهنية الواقعية ذات الصبغة الفكرية. وهكذا يتضح دور القصيدة في إنقاذ التجمعات البشرية المنهارة جزئياً أو كلياً .

وفي هذا السياق تبرز أهمية زراعة الذات الإنسانية في نطاق الذات اللغوية . وهذا من شأنه بعث الروح الرمزية في وظائف القصيدة، وصهر الأبجدية في المجتمع الإنساني المدرك لطبيعة التحدي الذي تواجهه اللغة في صراعها الأبدى مع التخلف والاستهلاكية. وهنا، تتجلى حقيقة عدم وجود قصيدة من أجل القصيدة . فالقصيدة هي نسقٌ معرفي انقلابي مُكرّس لتحطيم ظل

الهزيمة الجاثم على صدور البشر ، والذي صار كالوشم اللانهاي على أجساد المسحوقين الذين يسرون في هذه الحياة غير عابئين إلا بانتحارهم المتكرر كالحزن المرسوم على الوجوه الذابلة .
والقصيدة أملٌ جديد لحياة تُؤرية قادرة على إنتاج مجتمع متحرر من المأزق الوجودي . وهذا التحرر هو الانتقال الفلسفية من طُور التبعية إلى طُور الحلم الذاتي والتصنيع المتواصل ، تصنيع الإنسان وعواطفه بما يتلاءم مع رؤية الهوية الحضارية ، وتصنيع المادة التي تُسهّل الحياة الكريمة للبشر المذبذبين بين الحلم المكسور والمستقبل المخيالي الماضوي (الماضي التكريسي) .
وهذا يقودنا إلى مُسلمة عابرة للزمان والمكان ، وهي : إن انقلاب الذات على الذات هو الوجود الحقيقي للذات .

ومن الواجب دراسة النشاط الحيوي للقصيدة باعتبارها كائناً حياً قائماً بذاته . وهذا الأمر سيكشف المضامين الشعريّة التي تُبثُّ الأحاسيس الجديدة في المجتمع . فلا بُد من إلقاء حَجَر فلسفي في ماء العلاقات الاجتماعية الراكدة ، من أجل دمج العناصر الرمزية بالتاريخ القصائدي لئلا يُصبح المجتمع جزءاً ماضوياً يرتدي قناع المستقبل . وكلما اقتحمت القصيدة تفاصيل الحضارة أفقياً وعمودياً ، اتّضحت القيمة الرمزية الماورائية للزمان والمكان . والجدير بالذكر أن البعد الأفقي يُعطي للوجود المخيالي ماهيةً واقعيةً شديدة التماس مع الحاجات الإنسانية ، أمّا البعد العمودي فيُعطي للثقافة زخماً حضارياً متفاعلاً مع الإنسانيات المتمردة .

إن اللغة القصائدية هي تاريخُ الثورة ، وجغرافيا الأحلام التي تطرح الأسئلة المصيرية على حضارة الشك . وهذا التفاعل يقودُ إلى إحلال الوعي الشعري في الأبعاد الاجتماعية للأبجدية الذهنية العائشة في الواقع الخشن ، مما يؤدي إلى تحويل النسق الاجتماعي من مجتمع استهلاكي مُغلّق وفاقد الثقة بنفسه إلى مجتمع تثويري ذي هوية معرفية تملك تصوّراً للعالم مُطلقاً من مركزية المعنى . وبالتالي ، تتوّل الأنساق الفكرية إلى مدلولات وظيفية قادرة على تنقية التفاعلات الاجتماعية ، والمزاوجة بين النقد التطبيقي والشك المنهجي ، وصناعة حالة التوازن في البنية الرمزية بحيث لا تصل إلى حد الطلاسم المغلقة . وهذا لا يتعارض مع كَوْن القصيدة نظاماً مُشقّراً ، يجب فكُّ شيفرته الخاصة من أجل الحصول على لذة النص . ومن هَتَك الحجاب وصل إلى المحجوب .

والقصيدة تعمل جامدة لإبراز العناصر الحيوية في مجتمع النص ، وتفعيل التجربة الوجدانية ذات الامتداد اللغوي في جسد المجتمع الإنساني . وفي هذا السياق تتجلى حقيقة أن التنوع

الرمزي المختلط بالجينات الوراثية للقصيدية يؤدي إلى أنسنة الحالة المعرفية ، وصياغتها وفق أشكال بعيدة عن التسميط والاستهلاكية. وبالطبع ، إن التسميط والاستهلاكية هما إفرازات مُخلخلّة لا تاريخ لها سوى اللاتاريخية . وهنا يتّضح الدور الحيوي للقصيدية باعتبارها صَعَقَةً كهربائية تُحيي ولا تقتل . فالقصيدية تُعيد المجتمع الإنساني للتاريخ، وتُعيد التاريخ للتاريخ . وبالتالي ، تتحول المفردات اليومية للإنسان إلى منظومات شعرية خالية من التعقيد والابتدال ، فتتكسر القوالب الجاهزة ، وتُدرِك القصيدية قيمة حياتها الذاتية. ويجب أن يكون هدفُ القصيدية هو تكريس حياة العناصر الاجتماعية، وليس إحياء الأنظمة الاجتماعية التي ثَبَتَ فشلها. فلا فائدة من محاولة إحياء الميت ، أو البحث عن ديناصور حي . إذن ، ينبغي التعويلُ على حياة العناصر التي تتحرك في مجتمع القصيدية ، ومجتمع الإنسان . فالحياءُ هي القيمة الجوهرية للإبداع .

ترتبطُ العلاقاتُ السيِّكولوجية بالبوّة المركزية للمجتمع القصائدي، فبنية الأحاسيس لا تتجزأ سواءً كانت موجودة في الكيان الإنساني أو الكيان الثقافي . وينبغي القول إن الأحاسيس جزءٌ من اللغة الشعرية (القاسم المشترك بين الفرد وامتداده الذهني) . واللغة الشعرية هي أنوية متفجرة على الدوام ، ودائمة البحث عن معنى ، ودائمة التشظي من أجل عَقْلنة الهستيريا الوحشية التي ترتع فيها مجتمعات كثيرة لا حُلم لها سوى إيجاد قبر رخامي يحفظ هَيْبَتها أمام وسائل الإعلام . وهكذا تنكسر اللغة الشعرية فلسفةً حياتيةً ضد الجنون بكل أشكاله ، وضد التوحش في العلاقات الإنسانية ، وضد الهلوسة المجتمعية التي يُغذّيها الفقر والبطالة والكبت والتطرف ، وهذه العناصر المدمّرة هي نتيجة طبيعية لسياسة الأنظمة البوليسية ، وسياسة المثقفين المرتزقة .

ومما لا شك فيه ، أن التفاعلات بين اللغة الشعرية والفكر الاجتماعي تهدف إلى خنق الأساطير في مهدها، هذه الأساطير التي تحتل رُوح المجتمعات البشرية، وتشلُّ حركة تفكيرها. وهكذا ، تغدو الثقافة حياةً جديدةً ضد الميثولوجيا النّفعية التي تُروّجها السُّلطات القمعية من أجل إدخال الناس في حالة ذهنية تجريدية منقطعة عن الواقع ، الأمر الذي يؤدي — حتماً — إلى صناعة بشر مُدَجّنين لا يقدرون على الاعتراض ، حتى لو أرادوا ذلك .

إن سياسة القصيدية عبارة عن بُنية ثورية مُعارضة ، وهذه الحقيقة تستمد شرعية وجودها وديمومتها من كَوْن النصّ الشعري حزباً سياسياً مُعارضاً وقائماً بذاته . وهذا الالتصاق المصيري بين الشعر والسياسة — بمعناها الكوني الواسع — يُحدّد الأشكال الرمزية لجسد الثقافة ، ويُحدّد — كذلك — التقاطعات المفصلية في هوية المنظور الشعري ذي الخلفية الفلسفية الرمزية. وهذا الأمر

مهم للغاية ، خصوصاً إذا عرفنا أن الفلسفة هي التي تحفظ شباب القصيدة ، وأن الرمز الشعري هو الذي يصنع البعد الروحي للحضارة .

وإذا أدركنا حقيقة الرمز الشعري ، فسوف نرفض الأنماط الفلسفية المستوردة التي تمثل أساطير جدلية متناقضة مع ذاتها، حيث يوضع الجزء في مواجهة الكل، وينهار الكل بسبب اعتماده على جزء غير قادر على حمل المدلول الزمكاني للفكرة . واستناداً إلى هذه الثنائية التدويرية ينهار الفكر المعرفي الإنساني بكل أبعاده الذهنية . لذلك ، لا بد من توسيع الدلالات المركزية التي تصقل فلسفة الجسد القصائدي ، وذلك من أجل تفادي الانهيار الصاعق . وإذا زال خطر الانهيار ، فإن الثقافة الشعرية ستحرر من الضغوطات، وتنطلق نحو توليد منظور فلسفي كوني يزاوج بين هوية الإنسان وعوالمه الداخلية. وهذا الفكر الكوني قادر على تشريح البنية الفوقية والتحتية معاً، وتحليل الطبقات الاجتماعية من رأس الهرم حتى القاعدة ، وتفجير المستويات العاطفية للكائنات الحية ، وتحرير مشاعر العناصر المحيطة بالذات الإنسانية ، سواء كانت عناصر مخيالية أو واقعية .

إن التزام الأدب بهوية الكون الداخلي في ذاتنا لا يعني — بأية حال من الأحوال — أن نتفوق على ذاتنا . وإنما يعني الانطلاق من الكون الداخلي إلى الكون الخارجي ، والتحلي برؤية كونية عالمية ، لأن الأدب عالمي وإنساني بالدرجة الأولى (8) .

وعندما تتحد العالمية والإنسانية معاً في القصيدة، فإن التزعة الرمزية ستفجر في النص الصادم. وهذا التفجر هو الأساس الفكري للثقافة . وفي هذا السياق لا بد من الإيمان بأن الأدب صراع في الإنسان، وصراع على الإنسان، وصراع من أجل الإنسان. وهذه المستويات الثلاثة

(8) ومن هنا أتخفظ على مصطلح " الأدب الإسلامي " . فأنا أعرف أن هناك إسلاميات أدبية تتناول أموراً محددة في الديانة الإسلامية ، وهذه الإسلاميات الأدبية ينبغي أن تتحلى بمستوى فني راق بعيد عن إلقاء المواعظ والإرشادات المباشرة . وهناك أدبيات تتناول أموراً ليست نابعة من العقيدة الإسلامية وفروعها. كمن يكتب قصيدة — مثلاً — عن امرأة ضائعة تخون زوجها في الشرق أو الغرب، فهل هذه القصيدة من الأدب الإسلامي أم النصراني أم اليهودي أم الاشتراكي أم الإلحادي ... إلخ ؟! . وبالتأكيد لا يمكن لنا إلا أن نعترف بأن الأدب أساساً هو عالمي إنساني يشمل كل البشر بلا استثناء، ولكن الضابط هو أن المعالجة ينبغي أن تكون نابعة من هوية المشترك الإنساني الأخلاقي التثويري .

تُحدّد أشكال التمرد في طبيعة الحياة الفكرية داخل المجتمع المغلق، والمحاصر بالسياسات القمعية .

ولا بد من القول إن الكتابة الشعرية دفاع عن الحضارة ، وتكريس لأحلام الكيان الإنساني وشريعته ، ودعم لصمود المعنى في وجه الهمجية . إذن ، فالكتابة الشعرية ليست حالة ترف ، بل هي مشروع وجودي يُوازن بين حضارة الأبجدية والفضاء الفلسفي الاجتماعي . ولترسيخ هذا الأداء المصيري ، لا مفر من إلغاء الخرافات الاجتماعية التي تدعمها السلطات القمعية للسيطرة على العقول وتطويعها من أجل ترسيخ الشرعية الوهمية للنخبة الحاكمة . وهكذا يتحقق معنى الثورة الأدبية التي تُمهّد لإعادة صناعة الحلم الإنساني .

وللأسف، فالكثيرون ينظرون إلى القصيدة كرفاهية وترف . وهؤلاء لا يدركون أن القصيدة مشروع كوني لإسقاط المنظومة الحضارية العشوائية المضادة لوجود الكائن الحي. والقصيدة هي التي تحمي الإنسان من جنونه ، وتحوّل البشر من أغنام إلى كائنات مُفكّرة قادرة على النقد والنقض .

والكتابة الشعرية محاولة مستمرة لرفع مستوى الذهنية الانقلاية المكرّسة للواقعية الخيالية . والصور اللغوية المتفجرة هي دلالات نفسية جمعية تعكس الانزياح الوجداني في الذات الشاعرة ، وثبّت الطبيعة المتفردة للأبجدية المحلّقة خارج الأطر المعرفية الناقصة التي ترتع في الجمود المتكرر .

ولا شك أن المدلول اللغوي (الحامل للفكرة والناقل للتحليل النفسي المجتمعي) ينمو وفق أطوار بنائية متغيّرة بتغيّر الأشخاص والزمان . وهذا يجعل اللغة الشعرية اتصالاً منطقيّاً مع العناصر الطبيعية المتوجّهة إلى الجمال الروحي والمادي . وكلّ تعبير عن عناصر الطبيعة الكامنة في الإنسان ، هو امتداد فلسفي في جسد القصيدة . وكلما تنوّعت البنى الفلسفية الملتصقة بالوجود الإنساني ، تنوّعت المصادر الفكرية للقصيدة . وهذا يؤدي إلى تكوين صيغة ثقافية حاسمة تستند إلى أنساق اللغة الحية ، ثم تنطلق إلى فضاءات اجتماعية أقل وحشية . الأمر الذي يقود إلى تدفق المعنى الإنساني _ رُوحاً وشكلاً _ ، وازدياد شعور الفرد بالجماعة، وازدياد اهتمام الجماعة بالفرد . وهذا من شأنه توسيع المنظور اللغوي ، وترسيخ الهوية المجتمعية ، وتعميق الانتماء إلى فلسفة المجتمع العميقة . وهكذا يتولد خلُم التغيير نحو الأفضل . وهذا الحلم

بالتغيير عبارة عن ثقافة ذهنية توازن بين تفسيرات الحياة الديناميكية للمجتمع الإنساني ، ويين الواقع الاستهلاكي المعقّد .

إن الرموز الشعريّة أرضيّة خصبة للتّظير لمرحلة ماوراء القصيدة (ماوراء الحُلُم الاجتماعي) . وهذه " الماورائية " تساهم بشكل فعّال في توليد أبجديات معنوية ومادية ، وتحديد المستويات الوجودية للمعنى ، واستنباط كينونة الثقافة الملتصقة بمسار التاريخ . ومهما حاول الإيقاع الشعري الرمزي أن يبدو دبلوماسياً ، فلا مفر من حتمية الاصطدام بين القصيدة (المجتمع الرمزي) والمجتمع الواقعي ، ولا مهرب من حتمية الصراع بين النصّ اللغوي (القصيدة) والنصّ البشري (المجتمع) . فالصراع هو المعنى الحقيقي للوجود الإنساني ، وهو الماركة المسجّلة لمعنى القصيدة التي لا تُساوم .

والجدير بالذكر أن التحولات الفلسفية في عوالم القصيدة هي الضمانة الأكيدة لصناعة الانسجام بين التشكيلات الرمزية وجزئيات اللغة المتأججة . وهذا الانسجام ضروري من أجل بناء تصور ذهني متماسك حول ماهية المعنى وهوية اللفظ ، وبالتالي تأسيس منظومة الوعي المتكاملة ، الوعي بالذات والوعي بالعناصر المحيطة بالذات . وهذا الوعي يتطلب وجود نسق معرفي في تقاطعات الحياة الاجتماعية للفرد ، من أجل تشييد العاطفة الإنسانية في قلب التوحش الحياتي ، ومواصلة طرح الأسئلة المصيرية ، ومنع غرق المشروع الفكري في جدليات النفي والتّفي المضاد . ولا شك أن هذه الأفكار تستحق التواجد على خريطة الفكر الثقافي والفكر الاجتماعي في آني معاً .

ومهما يكن من أمر ، فلا مفر من طرح الأسئلة ، لأنها الكيان الفلسفي القادر على كشف تفاصيل العلاقات البشرية ، وتمحيص الدلالات المعرفية ، وتحديد معالم الكلمة ذات الجذور الاجتماعية المتمردة على القوالب الجاهزة التي تُروّجها أيديولوجيات القمع السياسي في المجتمعات المتخلفة . كما أن الأسئلة هي الحالة الفكرية التي تُكرّس الكتابة الشعريّة كقوة ناقدة . ومع مرور الوقت ، تصبح الكتابة قوة نقد النّقد . إنها القوة القادرة على تحليل المصير الإنساني ، لأنها تتعامل مع الإنسان بوصفه شكلاً للأحلام القديمة ، والذكريات البعيدة ، والأمنيات المكسورة .

والتحدي الأساسي في هذا السياق ، يتجلى في حتمية اصطدام الأسئلة المصيرية بالسلطة البوليسية التي تُرغم الشعب على الرقص وفق إيقاع واحد . وهذا التّحدي يُجبر القصيدة على

توليد زخم فكري حاضن للرؤى اللغوية والأحلام البشرية. وينبغي ألا ينحصر هذا الزخم في دائرة ردة الفعل ، بل ينبغي نقله إلى مفاصل الحياة الاجتماعية ، وتكوينات الحياة الرمزية في اللغة . وإذا امتزجت الحياة الاجتماعية بالحياة الرمزية ، فإن المجتمع سيصبح قادراً على تصدير الثورة المعرفية التي تنحت في القصيدة رؤية المعنى وآفاق اللفظة .

إن الفلسفة الكامنة في بؤرة الشعر دليل على قدرة الأسئلة المصرية على توليد حيوات جديدة ومتجددة. وعلى الضفة الأخرى ، إن موت الشاعر المتكرر والمؤقت يعطي حياة جديدة لقصيدته . وهذه الفلسفة المركزية تجسد القيمة الزمنية للمكان ، كما تجسد القيمة الجغرافية للزمان . مع العلم أن القصيدة تعتبر الزمان والمكان كياناً واحداً ، وكأننا حياً واحداً .

ولا بد من توظيف الأبعاد الاجتماعية في روح النص ، من أجل فهم طبيعة الزمكان وعلاقته بالقصيدة التي يصير فيها الزمان مكاناً والمكان زماناً . فالقصيدة وعاء ضخم يتفجر فيه الزمان أو يقف ليحبس أنفاسه ، ويتحرك فيه المكان ليلاّمس طبيعة الإشارات الفلسفية لقوة الرمز المعبر عن كينونة الإنسان وأحلامه الواقعية والخيالية . وكل طبيعة للنص الشعري نسق ناقذ للانهيار المجتمعي الذي تعززه هيمنة المفاهيم السلطوية النابعة من أيديولوجية القهر الحاكم. وفلسفة النص تتجلى في تحرير الفرد من الخوف المتكاثر داخل الإنسان. وفي هذا السياق ، ينبغي القول إن هناك قناعة في دوائر صنع القرار في المجتمعات المتخلفة بأن العقل المفكر يُشكّل خطراً على نظام الحكم ، وبالتالي يجب محاربة الإبداع بالتلويح بالسيف والمال . ولا أكون مُبالغاً إذا قلت إن من مصلحة الحاكم في المجتمعات المسحوقة أن يظل الشعب مسطولاً أو ميتاً، ويُفضّل لو كان ميتاً لتغيب المعارضة والمحاسبة والمساءلة بشكل كامل، وهكذا ترتاح الأنظمة الأبوية البوليسية، وتفعّل ما بدا لها دون أي اعتراض.

ولن يصل المجتمع إلى حالة التوازن العاطفي ، والتطور الشامل في كل المجالات ، والنهضة المعرفية المتفجرة ، وتوليد أنساق الرموز القصائدية المنعكسة على وقائع الحياة الاجتماعية ، إلا إذا تحرّر الفرد من الخوف، وتحرّرت الجماعة من الذل ، وتحرّرت الأنظمة الحاكمة من سياسة البطش والقهر . وفي هذا المناخ الممتلئ بالتحديات ، تصبح القصيدة هي الحاكم والحكومة والمحكوم ، وتصبح تفاصيل النص الشعري هي الأساس الفكري المخيالي، والتأسيس المعرفي الشمولي ، ويتحول الفكر الشعري إلى امتداد فلسفي في قلب الوجود الإنساني . وهذه

الخصائص تُسهّل على القصيدة مهمة قيادة المنظور الاجتماعي الديناميكي، وانتشال المجتمع من مستنقع التخلف والتبعية، وزرعه في فضاءات الحرية والتنمية المستدامة بكل أشكالها .
والقصيدة حين تُشرّح دلالات التجريد اللغوي ، فإنها تولّد مُعارضةً شرسة لكل المواقف السلبية التي تعيش على هامش الحلم غير الشرعي. وبالتالي، يتلاحم الخيال والواقع من أجل هدف واحد ، ولا يحدث انفصام في شخصية القصيدة. فالقصيدة هي انقلاب اللغة على اللغة، وانقلاب المعنى على المجتمع ، وانقلاب الألفاظ على الاستهلاكية . وهذه النزعة الشعريّة الثورية تُخرج الأفكار من صفحات الكتب إلى الواقع المعاش من أجل فكّ شيفرة هذا الواقع المعقّد ، وتكريس الدلالة اللغوية كمنظومة اجتماعية مُكثّفة ، وتفعيل التطبيقات الرمزية الصادمة في اللغة المتشظية .

وتنبع قوّة الأبجدية الشعرية من اشتغالها على البؤرة الاجتماعية المركزية . هذه البؤرة المندمجة مع القصيدة المُولودة من ذاتها ، والمتكاثرة بفعل انقسامات أنويتها الداخلية . وفي ظل هذا التلاحم بين الشعري والاجتماعي، تنكسر اللغة حياةً مُوازيةً للحياة الإنسانية ، ومُعادلةً للمستقبل الجامح. وهكذا تصبح العلاقة بين الشعر والتاريخ علاقةً تكاملية .

ومع أن القصيدة منظومةً حياتية سابقة لعصرها ، ومتقدّمة على الحياة الواقعية ، إلا أنها _ أي القصيدة _ قادرة على تقديم أفكار مُعاصرة تصعق المجتمع النائم ، ليس من أجل قتله ، وإنما من أجل إيقاظه. وهذه الیقظة باهظة الثمن، ولكن يجب دفعه من أجل نقل المجتمع من الموت إلى الحياة. وهذا يُشير _ بوضوح _ إلى أن القصيدة ليست مادةً للمتعة الاستهلاكية. وإنما هي كينونة الانقلاب الشامل ، والقوّة المعرفية للبناء الإنساني ، والتاريخ الحقيقي الكامن في مرحلة ما بعد التاريخ .

إن الشعر شكلٌ لعسكرة المعنى ، ومنظومةً اجتماعية لتوليد المعاني ، وفلسفة للصراع العقلائي لا القوضوي . وأدوات هذا الصراع هم البشر أنفسهم . وفي هذا الزخم ، لا بد من القول إن انتحارات الشاعر اليومية هي وقود قطار الإبداع. فالشاعر يكتب تاريخ الحضارة بدمائه وعذاباته. وهذا ليس شعاراً رومانسياً ، أو كلاماً خيالياً حالماً للاستهلاك . إنه تشخيص دقيق للواقع بلا زيادة أو نقصان . كما أن موت الشاعر يُشكّل عملية توحيدٍ لأنساق القصيدة ، لأن روح الشاعر سوف تستقر في جسده اللغوي (القصيدة) إلى الأبد . وإذا لم تُوحّد حياة الشاعر الأنساق الاجتماعية ، فإن مؤثته سيُوحدّها .

والقصيدة كُتلة اجتماعية رمزية ، لها مركز وأطراف . والقدرة المعرفية للبؤرة الأدبية تتكون في مركز القصيدة ، أما القوة الحركية فتكمن في أطراف القصيدة . وبعبارة أخرى ، إن العقل المدبر للأبجدية الشعرية موجود في مركز القصيدة ، أما أطراف القصيدة فهي القوة الضاربة والعضلات المتحركة . وهذه الحركة المفعمة بالمعنى الثقافي تؤدي _ بالضرورة _ إلى توليد أبجديات جديدة نابعة من الأبجدية الأم . وهكذا تغدو الأبجديات لغة جديدة ذات طبقات مُتراكية بعضها فوق بعض ، وبالتالي، يتكون لدينا مجتمع ذهني يُوازي المجتمع المادي الحياتي ، وتصبح القصيدة مجتمعات متعددة ومتجانسة . وفي هذا الرّحم الملتهب ، ينبغي القول إن الدال والمدلول قد يتطابقان في بعض مراحل التأجج العاطفي (ارتفاع حرارة التعبير الشعري) . وعندئذ ، ينهار الجدار الفاصل بين الشعر والنثر ، وتتركس القصيدة كآنية شرعية للحدثة ذات الآليات المتجددة ، والصّور الفنية المدهشة .

وينبغي إخراج المنظومات العاطفية من دائرة التسلع والاستهلاك الفجّة ، وتحويلها إلى بُنى إنسانية قادرة على منح الكائن الحي شعوراً متأججاً بالحياة في قلب المجتمع الميت، ومنحه _ أيضاً _ شعوراً بالأمان في قلب الرعب . ولا مفر من القول إن الحياة في تفاصيل الطبيعة _ بمعناها الفلسفي والجغرافي _ هي شكل آخر للقصيدة . وكلما ارتفعت حرارة التعبير وازداد منسوب صدق العاطفة، تعددت أشكال القصيدة معنوياً ومادياً . وإن هذا التعدد سوف يُحدد طبيعة الدلالات المعرفية ، وطبيعة البناء الاجتماعي . وبالإضافة إلى هذا ، فإن نقل الأشكال البنائية للقصيدة من دائرة التناقضات الاجتماعية إلى آفاق التجريب والتجريد ، يؤدي إلى خلق أدوات ثقافية جديدة تُزلزل المجتمع البشري بغية إيقاظه من موته المتكرر . وهنا تبرز حقيقتان لا يمكن تجاهلهما : الأولى _ إن الشاعر يتقمص رُوح القصيدة ، كما أن القصيدة تحتل رُوح الشاعر . والثانية _ إن الشاعر حين يكتب القصيدة فهو يتنحّر لكي يحمي نفسه من الانتحار .

ولا بد من إجراء حفريات عميقة في جسد القصيدة الحامل لجينات التاريخ والحضارة . وهذه الخطوة ضرورية لغزلة التراث الشعري ، وكشف تفاصيل الخزين الروحي والمادي . والقصيدة هي غزيلة التراث الأدبي ، وجوهر الحوارات مع البنى العنصرية للطبيعة بمفهومها المادي ومفهومها الفلسفي ، على حدّ سواء .

إن تجذير الوعي الثقافي والتنمية الاجتماعية في المجتمعات المتخلفة ، يظل هاجساً ضاعطاً على جسد القصيدة وروحها ، ولا يتركها بأية حال من الأحوال . لذلك ، لا مفر من تحديد

تقاطعات النص الشعري مع الأنا الأخرى ، حيث تتم إعادة تشكيل خارطة المجتمع الإنساني على شكل قصيدة ، تختزل توارخ المشاعر الحياتية ، ومعالَم وجوه البشر، ونبْية الزمان، وجسم المكان .

والحفَرُ في جسد القصيدة دون فهم طبيعة حركة جذورها ، يُعدُّ ضَرْباً من إضاعة الوقت والجهد . فالقصيدة (مملكة اختزال المعاني الإنسانية) لها جانبان : تحتي وفوقي . وهذان الجانبان يَهْزَان الحلم القصائدي بكل قوة لكي تتولد أنساقٌ جديدة ، تنفرع على شكل أمكنة شعرية ، وأزمنة حاملة . والقصيدة ليس من وظيفتها إعادة نسخ الواقع المادي المعاش على الورق ، أو حَشْر المشاعر الإنسانية في قوالب الكلمات ، أو صناعة بَشَرٍ من حَبْرٍ يتحركون في مدارات الوهم . إن وظيفتها هي الثورة على الواقع ، وصناعة عالم جديد موازٍ للواقع المحصور في الأضداد والانكسارات . وهذه الوظيفة القصائدية المركزية مُتَشَبِّهة ومُستَمَدَّة من كَوْن الشاعر ناطقاً باسم كائنات الطبيعة المحيطة (الإنسان ، الحيوان ، النبات ، الجماد) ، مع الانتباه إلى أنه لا يوجد جماد حقيقي . فكل شيء له مشاعر ، وعوالم خاصة به . لذلك ، فلفظة " الجماد " مَجَازِيَّة

ويدون شك ، إن غياب الجمادات عن عالمنا يُساهم في أنسنة العناصر المحيطة بنا ، وتكريس الرمزية في الأفق القصائدي . والهدف من الرمزية هو تطويع ميكانيكا الكلمات المجردة ، وتحويل هذه الميكانيكا الغارقة في التطلُّو والتسلُّع إلى مُتَنَفِّس إنساني راقٍ ، ينتشل الكائن الحي من لهائه وراء رغيغ الخبز . وهكذا تتحول الفرضية الناقصة في رُوح القصيدة إلى نظرية متكاملة قادرة على صَهر المراحل ، وايضاً تتكاثر المعاني في الجسد القصائدي ، وتتحوّل القصيدة من نمط استهلاكي فُج إلى نظام معرفي شمولي غير بُوليَسي .

وفي هذا الرَّحْم الفكري ، يجب القَوْل إن الحرية هي بداية نشأة الزمكان في القصيدة ، حيث تتكاثر القِيَم الإنسانية في أبجدية الخيال النصي ، وتنوِّع أساليب الكتابة الشعرية ضمن عالم الحفريات اللغوية المستمدة من سعي الإنسان إلى ولادات جديدة تمسُّ ذواته ، وتمسُّ مجتمعه الداخلي والخارجي . وهذه التحركات الفكرية تمنع تحوُّل الدلالات الشعرية إلى قوالب محدودة . وبعبارة أخرى ، إن الدلالات الشعرية ستظل عَصِيَّة على التَّدجين ، وهي التي ستَقود حركة النقد الاجتماعي . وهكذا ، تصيرُ القصيدة مجتمعاً سياسياً لا يُساوَم ، ولا يتهرب من المواجهة .

إن القوانين الشعريّة — التي يُعاد اكتشافها في الأنساق اللغوية — ترميزٌ للقدرة الذهنية على صناعة القصائد. وبالتأكيد ، إن أعلى درجات الدلالة اللغوية الخيالية هي أنسنة الواقع ، واستنباط الأحلام الاجتماعية من الأطوار المعرفية . الأمر الذي يُقود إلى اكتشاف تجارب وجدانية شديدة التماس مع حياة الفرد العادي ، حيث تتقاطع تفاصيل عُمره مع أحلامه المقموعة ، وحاضره المُستَلَب ، ومُستقبله المصادِر .

وكلما ازدادت قُدرة القصيدة على اكتشاف حَيَوات جديدة في موت العناصر ، ازدادت الإشارات الرمزية الهادفة إلى صناعة مجتمع جديد حُر ، ومُناهض للمجتمع التقليدي المدجّن والمحكوم عليه بالضياح من قِبَل الأنظمة البوليسية . وهنا ، تبرز حتمية الإيمان بأن القصيدة هي الحِمض النووي الذي يَحْمِل خصائص الكيان الثقافي ، والملامح الإنسانية للحضارة . كما تبرز ضرورة حَمْل الموروث الذهني للشعر ، تاريخاً وجغرافياً . وهذا الزخم الفكري سيُحدث انقلاباً جذرياً في طريقة تفكير الفرد المقموع التي تَمَث أدلجتها بشكل سالي ، وحقنها بالأيديولوجيات السُلطوية الجبرية ، بحيث يتلاشى انحصارُ تفكير الفرد في رغيغ الخبز ، وينتقل الفكرُ الإنساني إلى عوالم الإبداع ، والقيَم الحضارية ، والبصمة التاريخية . وهذا لا يتأتى إلا إذا رَفَضَ الفرد تصنيفه كأداةٍ سَلَعِيّةٍ مندورة للحاجات البيولوجية ثم الموت (الانطفاء الأبدي) . وعلى القصيدة أن تتخذ موقفاً حاسماً ونهائياً تجاه صياغة الحلم الإنساني فلسفياً وواقعياً . فهذا الأمر لا يَحْتَمِل أنصاف الحلول ، ولا يَحْتَمِل التأجيل .

وإذا أردنا تجذير هندسة الخيال في تفاصيل القصيدة ، فلا بُد من صياغة المعاني اللغوية بأسلوب ثوري ، وإعادة ترميم الإنسان بعد أن تَهَدَّمت أجزاء كبيرة من كَيَنُونته بِفِعْل ضَغْط الأيديولوجيات البوليسية الحاكمة على أكوام الجماجم . والجدير بالذكر أن هندسة الخيال سَتَقُود إلى هندسة المجتمع البشري . وهذا الترابط المصيري ليس صُدْفَةً ، بل هو طَوْرٌ واقعي إلى درجة التماهي مع الموروث الذهني للواقعية القصائدية . وهكذا يُعاد اكتشاف الدلالة اللغوية للحياة الجديدة داخل نطاق القصيدة المتحرّكة على المستوى الرمزي والمستوى الاجتماعي في آنٍ معاً .

وكلما ازدادت قُدرة المعايير اللغوية على تجريد المجتمع من هالة تقديس الحاكمية البوليسية ، ازدادت قدرة الإنسان على الإبداع ، وابتكار أبجديات نائرة ضد السُلطوية الحاكمة باسم السَّيف والقبر . ولا يخفى أن الأنظمة المتخلفة تستغل الدِّينَ لخدمة مصالحها، وتشبث نظامها الأمني القمعي. حتى إن التأويل الدِّيني — الذي يَحْتكره عُلماء السلاطين — يأخذ اتجاهاً سياسياً

هدفه صناعة شرعية وهمية للأنظمة البوليسية، ولّوي أعناق النصوص بحيث تنسجم مع تثبيت الأمر الواقع القمعي . وهكذا يُستخدَم الدِّين كْمُخَدَّرٍ للشعوب (9) .

وفي ظل هذا الواقع الاجتماعي الكارثي ، تتولد القصيدة لستنزع وجودها من قلب المأساة الإنسانية ، وتستلّ شرعية كيانها من رُوح العاصفة . والقصيدة هي حركة تحريرية تنويرية في أرجاء المجتمع الإنساني العالمي. وقوتها الضاربة تنبع من قُدرتها على تحديد مواطن الخلل في الكيان الإنساني، واكتشاف نقاط الضعف في المنظومة الاجتماعية . إذن ، نحن أمام حركة شعْرية تصحيحية للمسار الإنساني على المستويين التّحتي والفُوقي داخل البنية الاجتماعية للإنسان باعتباره الأبجدية الرمزية العليا . وهذه الحركة المعرفية لها كيانها الاستقلالي ، ودلالاتها الواعية ، وسلطانها الاعتبارية . ممّا يجعل القصيدة قادرةً على انتشال الفرد الضّحية من المستنقع دُون المتاجرة بعذاباته وضياعه .

وينبغي القول إنّ صياغة الخيال المحتوي على الأبعاد الشعْرية ، من شأنه رفع مستوى التشكيل البصري للاجتماعيات المؤرّخة بتاريخ القصيدة . كما أن صياغة الواقع بأسلوب فلسفي

(٩) إن المقولة الشهيرة " الدِّين أفيون الشعوب " يمكن فهمها من الجانب الآخر ، حيث إن الدِّين يُستعمل من قِبَل عُلماء السلاطين _ الذين يملكون السُّلطة الإعلامية _ لتخدير الناس وحقنهم بالنوم والاستسلام والرضوخ والقبول بالمهانة . فمثلاً عندما يجد الشعب أن حكومته تسرقه يتدخل علماء السلطان باستخدام نصوص دينية، وهي كلام حق يُراد به باطل. فيقولون إن الله أمر بطاعة وِلِّي الأمر، وإن هذا أمر الله ، ولا أحد يملك الاعتراض على مشيئته . وعندما يجد الفقراء أنفسهم خاضعين لاستغلال الأغنياء ، يتدخل عُلماء السلاطين، فيقولون إن هذا أمر الله ، والناس طبقات، هكذا أرادهم الله تعالى. وهنيئاً للفقراء فهم يَدْخلون الجنة بلا حساب، وإن الأنبياء كانوا فقراء ، وهكذا دَوْلَيْكَ . فهم يتحايلون على شرع الله تعالى لتحقيق مصالحهم ، وتثبيت الأنظمة الفاسدة القائمة على أجساد الشحاذين الممدّدة على الأرصفة القذرة ، وعلى جماجم الشعوب التي منعها جوعها من الاعتراض أو حتى رفع الصوت عالياً . وحتى هذا الصوت قد اختفى بسبب الجوع والعطش. وهكذا نجد أن التأويلات الدينية ذات الأهداف السياسية تهدف إلى مدّ النظام الحاكم الذي يَقْبَع في غرفة العناية المركزة بالأكسجين مهما كان الثمن . حتى لو كان الثمن إبادة الشعب عن بكرة أبيه .

تؤدي إلى صناعة فردٍ جمعي قادر على تحرير ذاته من الوهم الاجتماعي الكلي ، وخلقٍ معارف لفظية للمعنى المتمرد .

إن القصيدة لها رُكنان : التقاطُ الملاحظة واصطياذُ اللحظة . وهذان الرُكنان يَعمَلمان على تجسيم البُور الذهنية ، وتجسيدها واقعاً ملموساً في أبجدية شعرية تعتمد على الموروث التاريخي المتخيل، ولا تعتمد على التجريد المتشطي في الذاتية السلبية. وهكذا، تهدم القصيدة نفسها، وتُعيد البناء من جديد ، لتصل إلى ذروة العقلانية المتماهية مع الواقعية المتصورة. وفي أحيان كثيرة ، تقوم القصيدة بشرعنة وجودها عن طريق إلغاء أجزاء منها ، وهذه العملية يمكن تسميتها " الإلغاء الداخلي الجزئي " . وقد ينبثق سؤال حوّل مغزى هذه العملية، فنقول إن القصيدة عبء على القصيدة ، وهذا العبء يجب التخلص منه بغية تخفيف الوزن المعنوي حتى تسيّر القصيدة ، تماماً كالقارب الذي يسيّر في البحر ، ويحمل أشخاصاً كثيرين ، فقد يجبرون على التخلص من أحدهم لئلا يغرقوا ويفقدوا الجميع، وهكذا تنشأ في عوالم القصيدة فكرة " التضحية بالجزء من أجل الكل "، أو فكرة " بتر عضو في جسم القصيدة للحفاظ على حياة القصيدة " .

وهذا الحراك الشعري يساهم في زراعة القضايا الكبرى في رُوح القصيدة ، وبالتالي يسيّر مركب الشعر إلى شاطئ الأمان بعيداً عن الغرق في العدمية والعيشة والفوضى . وللأسف ، فإن كثيراً من أنصاف الشعراء يكتبون ويكتبون ، لكنهم لا يفهمون معنى كتاباتهم ، حيث إنهم يستسلمون لأحاسيس غامضة من اللاوعي السالبي غير المسيطر عليه . وهم _ بعملهم هذا _ يُبعدون المتلقي عن دُنيا الشعر . لذلك ، ليس غريباً أن تسحب الرواية البساط من تحت الشعر بسبب عدمية أنصاف الشعراء ، وهروبهم إلى زوايا الطريق المسدود .

وفي هذا الخضم ، لا بد من القول إن الشعر ليس تجارة ، أو سلعة في مَوضع البيع والشراء . إنه توهجُ الحلم في داخل الإعصار الذي يجتاح المجتمع ، ويكسر الوهم الإنساني الذي نقل المجتمع من إنتاجية المعنى إلى استهلاكية الجسد المحاصر بالخرافات الاجتماعية الرامية إلى تكريس سياسة الخراب التي ترتدي أقنعة الحضارة . وبالإضافة إلى هذا ، فإن التصاق الحلم البشري بالبنية المعرفية للمرجعية الشعرية هو محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . كما أن الطبيعة الاجتماعية للقصيدة _ بوصفها ثورة الفُشور واللباب _ تنوالى على شكل أمواج معرفية تعمل جاهدة على إخراج المجتمع الإنساني من حالة الشلل المعنوي والملل الوظيفي ، وإنهاء حالة التشقق في رُوح الأشياء . وإذا لم تتخذ القصيدة خطوات ملموسة لإنقاذ الفرد والجماعة

والمجتمع ، فإن انهياراتِ الواقع ستتحول إلى سُرخ في ذاكرة الفرد الذي صار مُعلّقاً بين الأضداد ، وبالتالي فقد القدرة على الإبداع ، وفقدَ البُوصلة . وبالطبع ، لن يذهب بعيداً مَنْ لا يَعْرِف إلى أين هو ذاهب. وهذه المتاهة التي يَغرق فيها الفردُ ، ستُجبره على الهروب من نفسه وتاريخه الشخصي . وهذا يعني دُخولَ الفرد في حالة الانفصام ، والانسلاخ عن الذهنية الواقعية . وهكذا تبتعد الذاكرة الإنسانية عن مركزية الأسئلة الحياتية الكبرى .

وهذا التّحدي الخطيرُ يَدفع القصيدة إلى تجريد الأبعاد الاجتماعية من العُزلة ، وإقحامها في تفاصيل الحياة السياسية. والقصيدة لا تمارس السياسة من أجل السياسة ، بل تمارسها بُغية الوصول إلى حالة معرفية راقية . إذن ، فالسياسة وسيلة لا غاية ، والقصيدة وسيلة لا غاية . والطُّورُ الشعري للحالة اللغوية هو مرحلة انتقالية تتم فيها بلورة قيمة المدلولات اللغوية على شكل أبجديات سياسية ، من أجل صناعة لغة خيالية جديدة قادرة على استلهام تفاصيل الأبجدية الواقعية الأُم ، مع الانتباه إلى ضرورة حماية الأبجديات المتوازية من الضياع بين عوالم الخيال والواقع .

إنّ التعابير المركزية في الحالة المعرفية للولادة الشعرية ، تتمحور بشكل كُلي حَوْلَ بُوصلة الاستعداد الذاتي للانقلاب على الأنماط السياسية المستهلّكة إلى درجة التماهي مع الفراغ . وهذه المرحلة الفراغية التي تُوظف المحاورَ الساذجة في عوالم الواقع السياسي المختلط بالعبثية والفوضى الخلاقة ، إنما هي مرحلة ناتجة عن ابتعاد القصيدة عن النبض اليومي ، والهروب من مواجهة الحاضر الصادم عن طريق استخدام رموز فلسفية موهلة في التجريد القاتل . فالكثيرون هَرَبوا إلى أنماط قصائدية مُوازية للعَدَم ، بل هي العَدَم بذاته . وهذه الأنماط العابثة هي ارتداد لحالة الانكسار الرُّوحي ، حيث انتشرتْ شريعة الغاب بكل مُكوناتها ، وصار الإنسانُ مشروعاً استثمارياً متوحّشاً يجني أرباحه عَليّة القوم العائشون على ظُهور الشُعوب الضائعة في الدُّول المنقرضة .

ولا شكّ أن القصيدة الهلامية العابثة هي محاولة مكشوفة للهروب من الواقع الصّادم ، وعدم مواجهة الاستحقاقات الحياتية الفاعلة . لذلك ، لا بُد من نقل القصيدة من العَدَم الفلسفي إلى الأنوية السياسية التي ترجُ المجتمع رجاً . وإنّ بناء الوعي السياسي الاجتماعي داخل أنسجة القصيدة هو طَوْق النّجاة للفرد والجماعة ، وآخِرُ معاقل الحُلم المؤمن بالقضايا المصرية . وكلّما التصقَ الإيقاعُ الشعري بالدلالة السياسية، ضَبَطَ الفضاء الاجتماعي حركة الاشتغالات الإنسانية ،

وهذا يُساهم في صناعة الإنسان الحيّ. وللأسف، فإن كثيرين من الموتى الذين يسرون بين ظهرانينا ما زالوا يَحْمَلون لقب " أحياء " ، وهم أبعد ما يكونون عن الحياة . فينبغي صَقْفُهم بكهرباء الشَّعر من أجل إحيائهم . وإن إحياء هؤلاء الموتى من شأنه أن ينعكس على طبيعة القصيدة ، حيث إنها سَتَعْدُو حُلماً ثورياً نافياً لسرابِ حضارة قَتَل الحضارة .

إن الشَّعر يكشف أسرارَ اللغة ، وبالتالي يُسهِّل عملية الاستنباط ، ويفتح الطريقَ أمام قواعد الاستدلال اللغوي . والرؤية الشعرية للعوالم هي امتدادٌ للوجود البشري خارج أنطقة الاستغلال والتهميش. كما أن العقل القصائدي يَنحِت في الجوهر الإنساني صورةَ الأمل الثوري النابع من قوة المنطق لا منطق القوة، وهذا يُمهِّد الطريقَ أمام التَّزَاج بين الدلالات الفلسفية والإشارات الشعرية. ومع أن هذا التزَاج عالمٌ متكامل من التكثيف اللغوي المعرفي ، إلا أنه لا يَقْدِر _ لَوَحْدَه _ على إنتاج نسغ قصائدي متماسك . لذلك ، لا بد من تجميع العوامل الاجتماعية المتشعبة من أجل نقل القصيدة من حالة الأنا التجريدية العقيمة إلى طُور الجماعة التي تُعرِّف تاريخها ومصيرها .

ونحن عندما نستوعب البُورَ الشعرية في عوالم الكلمة ، ندرك أن الشَّعر أزمَنُ لأمكنةٍ مُوازية تُولد فينا وتُولد فيها. وهكذا يتم التواصل الإنساني مع الطبيعة المتشظية أحلاماً. وكلُّ الأحلام التي يَخْتَرعها الشَّعر ، تتشابه مع رغباتنا المكبوتة ، وتختلط بمناطق اللاوعي المسيطرَ عليها من قِبَل النُظم الأخلاقية للزَمكان الداخلي (وَحْدَةُ الزمان والمكان اللذين يَخْرُجان من أعماقنا) .

وعندما تكتبنا القصيدة ، فإننا نهزُّ العالمَ ولا نُحْدِرُه لِيَسْهَلَ ذبحه واستغلاله مِن قِبَل تجار السياسة . إننا أمام ثقافة الأسئلة المصيرية . وعملية توليد الأسئلة والإجابة عنها ، ليست وظيفة القصيدة فَحَسْب، بل وظيفة كُلِّ الذين التقوا بإنسانيتهم . والقصيدة قادرةٌ على عَقْد لقاء بين الإنسان وإنسانيته ، كما أنها قادرة على توليد أنساق إشارتية حاسمة تكتشف المعنى الشعري في المجتمع في ظِلِّ أصعب الظروف وتحت الضغط ، وهذا يعني إنتاجَ قِيَم لغوية دلالية مناوئة للعلاقات الإنسانية الميكانيكية ، وتوليد مفاهيم جديدة خاصة بحياة الإنسان خارج الإنسان .

ولا بُد أن تَنبُع تقاطعاتُ العقلِ القصائدي من حتمية الصِّدام بين المتوازيات الزمكانية ذات الأبعاد الخياعية (الخيالية _ الواقعية) . ويجب أن تكون القصيدة شَوْكَةً في حَلْق الحضارة الشاذة ، فالقصيدة كُنْلةٌ معرفية لا تُساوِم ، ولا تَعْقِد الصفقات . وذلك لأن الأنساق اللغوية الإشارتية

داخل الأبداعية الثورية هي صدامٌ رؤى ، وصراعٌ حضاراتٍ لا نهائي ، وصيغةٌ معرفيةٌ تُواجه العقل بالعقل ، والبندقيّة بالبندقيّة (10).

إن قُدرة القصيدة على صناعة خطاب خيالي مندمج مع الواقع حتى الرّمق الأخير ، ستَقوُدُ الأنساق اللغوية إلى طرح أسئلة ذاتية غير ميكانيكية حول تقنيات بناء الخيال الواقعي ، وعندئذٍ ستَطرح الذات أسئلة على الذات ، مما يؤدي إلى ترسيخ علمية المعنى ، وعالمية المنظور الشعري التأصيلي ، ورمزية المحيط الإنساني ، والبنية العلاقتية بين الإنسان والظواهر الاجتماعية للقصيدة

وعندما نضع النصّ الشعري في مواجهة الأطوار الاجتماعية السالبة ، فإننا نضع الفرد في مواجهة المجتمع ، وذلك من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وليس من أجل تمزيق النظام الاجتماعي . وعملية الإنقاذ سوف تُوفّق بين دلالات النصّ (الجزئية والكلية) وحاجة الفرد إلى العقل الجمعي . وهكذا تبرز قوة الحقيقة الشعرية كغريزة معرفية تُفكّك المجتمع القصائدي إلى كينونات بشرية . وهذا يعني انتقال القصيدة من الورق إلى أرض الواقع ، وانتقال الأفكار من الهامش إلى المتن ، وانتقال اللغة من الجبر إلى الدم ، وانتقال الحلم من الومضة إلى الغريزة ، وانتقال الحب من الشهوة إلى الرومانسية . وهذا الحراك المصيري يُعيد تشكيل طبيعة الشعر ، ويخمي روح اللغة ، ويمنع تحوّلها إلى شظايا متصارعة . ومع هذا ، فإن الصدام بين طبقات القصيدة حتمي وصحي

(١٠) القصيدة المجردة لا تواجه بُندقيّة . وما يُواجه البندقيّة هو قصيدة تُعبّد الطريق أمام قُدوم البنادق . وفي نهاية المطاف لا بُد من قصيدة تُخلّد اللحظة التاريخية للزمان الملحمي الذي كتبه الكلمات المنبثقة من أبجدية الدم والبارود . وهكذا يتم الوصول إلى حالة صدامية مع خديعة هوية الوهم على كافة =الأصعدة . وبالتالي ، نفهم دور القصيدة في تكوين النسيج الاجتماعي للسلام والحرب . إذن ، فالمطلوب قصيدة خارجة من رَحم أبجدية الدم والنار . فالحبُّ يتحول إلى حرب ، والخيانة الزوجية تتحول إلى حرب ، والظلم الطبقي يتحول إلى حرب .. إلخ . وإن المفردات الشاعرية والعلاقات الإنسانية تتحول كلها إلى حروب . وما على القصيدة إلا رسم شكل الحروب ومدتها وأهدافها ، وبعد ذلك يقوم النصّ بإيجاد الأساس الأخلاقي لهذه الحروب المشروعة . ولا يهدفُ هذا التحليل إلى تمزيق المجتمع عبر عسكرة المنظومات الروحية ، وإنما يرمي إلى تحذير ماهيات المقاومة المضادة للعناصر السلبية مع التمييز بين فلسفة الحرب ، وواقعية الحرب .

، وَسَوْفَ يُفَرِّزُ أَنْسَاقاً مَجْتَمَعِيَةً مُتَصَالِحَةً مَعَ الذَّاتِ الشَّاعِرَةِ وَالنَّصِّ الشَّعْرِيِّ ، وَيَبْنِي نِظَاماً سِيَاسِيّاً يَحْرُسُ شَرْعِيَّةَ النَّصِّ .

وللأسف ، فإن تعريف السياسة محصورٌ _ في أذهان الكثيرين _ بالدولة والحكومة ، وهذا أمرٌ غير صحيح . فالسياسةُ هي كيفية التعامل مع الأشياء سواءً كانت اجتماعية أو اقتصادية أو أدبية أو سياسية . إنها طريقة للتعامل مع فلسفة الأشياء والجدليات والدلالات . وبالتالي ، ليس غريباً أن يصنع الأدبُ سياسته ، وتَصنع القصيدةُ سياستها .

٤

القصيدةُ سُلْطَةٌ سِيَاسِيَّةٌ

إن القصيدةَ سُلْطَةٌ سِيَاسِيَّةٌ معرفية تقوم بتوظيف العنف المعنوي في أبجدياتٍ شعرية . وهذه السُلْطَةُ تستمد شرعيتها وعنفوانها من كَوْنِهَا قُوَّةً اجتماعية ذات فاعلية جمعية توازن بين الصَّيْغِ الجمالية للكلمة . وبالإضافة إلى هذا ، فإن تَكُونُ الظواهر الشعرية في أنساق المجتمع ، يستند إلى كَوْنُ القصيدة نصّاً سياسياً وُجِدَ لتثوير المتعة لا المتعة المجردة ، ونظاماً شاملاً لعلاقات الإنسان في كل المجالات . وهذه التركيبة العضوية المركزية هي أساس الأنظمة اللغوية المعرفية التي تُعطي لروح المجتمع فرصةً للالتقاء مع ذاتها ضمن المُنتَجِ الشعري الرمزي .

والمشاعرُ المتأججة في جسد القصيدة تنبثقُ من حتمية الصراع بين الأضداد . هذا الصراعُ الذي تُنظِّمُهُ اللغةُ الشعريَّةُ للحفاظ على كَيِّنُونَتِهَا ، وحماية النسيج الفكري من التفكك ، وترسيخ الأبعاد الرمزية للمعنى الإنساني . وهذا يقودنا إلى ضرورة عَسْكَرة القصيدة (حَشْدُهَا بِالْقِيَمِ الثَّوْرِيَةِ الماحية) ، وجعلها خط الدفاع الأول عن المجتمع . ومع مرور الوقت ، ستؤدي عسكرة القصيدة إلى تكثير الأسئلة المصيرية في الحياة اليومية من أجل إشاعة فكرة الحوار ، وتوليد الزخم الفكري ، وإثارة العصف الذهني . وهذه هي الخطوات التمهيدية لحشد الأبجديات الثائرة في البنية النصية للقصيدة . وهذا الحشدُ هو التكييفُ الدلالي ، والمعرفةُ الاجتماعية المركزة ، والانفجارُ الشعري الذي يُلغي الفروقات بين الجزء والكل . واعتماداً على هذه الرؤية الشمولية غير القمعية ، ينال الشاعرُ شرعيته بوصفه فلسفة الذات المنطقية في عوالم غير منطقية .

ولا مفر من سكب الطبيعة الوظيفية للتطور الاجتماعي في أبجدياتٍ شعرية بعيدة عن التسُّلَع . فهذه العمليةُ تساهم في دراسة جغرافيا القصيدة ، ومعرفة تضاريس المعنى ، واكتشاف أنسجة

المدلول الزمكاني للمحتوى الشعري . مما يؤدي إلى أنسنة الطبيعة المادية للأشياء بصورة مُنصّفة غير جدلية وغير عدمية ، وشرّعة الوجود القصائدي الانقلابي ، وتجميع المنظومات اللغوية على شكل صُور فنية غير نمطية . ويمكن القول إن القصيدة تنتزع شرعيتها من خلال التصدي للأنظمة الاجتماعية الفوضوية ، ومواجهة العوالم السياسية الميّنة في مهدها . وبالطبع ، لا يمكن أن تقف القصيدة موقف المتفرّج ، أو تقف على الحياد . فالطبيعة الثورية للأبجدية الشعرية ذات خصائص ديناميكية تعيد هندسة الكائن الحي ، وتعيد صياغة المجتمع الاستهلاكي المادي العبثي وفق صُور ثورية جديدة غير مُسيطر عليها من قِبَل التيارات الاستغلالية . وأيُّ مجتمع مدني هو _ بالأساس _ مجتمع عسكري ، لأن السّلام لا يُؤلّد إلا من رّحم الحرب ، والكلمة الشعرية الرمزية لا تُؤلّد إلا من رّحم البندقية . ولا يخفى أن الجنين الوديع لا يأتي إلا مع الدم الهادر .

إن القصيدة هي المؤسسة العسكرية والمجتمع المدني في آنٍ معاً ، وهنا تكمن قوة الشعر . وكلما ازدادت قوة الشعر ، تجذّر عقل النّصّ بين الزمكان ودلالات الرّمز . وهذا يعني تحوّل الأبجدية الشعرية إلى جسد حي ، وتحوّل الكلمات إلى عمود فقري قادر على حمل هذا الجسد . وهذه البنية التحوّلية تمنع الفراغ من العيش بين طبقات اللغة . وهذا إنجازٌ بحد ذاته ، لأن الفراغ إذا وُجد له مكاناً بين طبقات اللغة ، فسيقضي على السلسلة المعنوية في القصيدة ، ويحيل الكيان القصائدي المعرفي إلى سيرك للتلاعب بالكلمات . وعندئذٍ تُصبح القصيدة كومةً من الطلاسم العبثية .

ومن أجل حماية الفاعلية القصائدية من اللامعنى ، ينبغي أن تقوم اللغة الشعرية على مركزية القيم الإنسانية الجمالية ، ومركزية معنى الكتابة الذي يتجلى في صناعة حالة الوعي المعرفي . ولا بُد من تحول الأبجدية الشعرية إلى رّفص ، لأن الرّفص هو قوة المتخيّل ، وذهنية المجتمع الثوري . ولا معنى لكل هذا الكلام إذا لم يتم بناء الأفق الشعري بصورة تكاملية تُعبّر عن آلام الإنسان في كل زمان ومكان . فالآلام الإنسانية هي القوة المحركة للتاريخ والحضارة .

ومن القضايا الأساسية في عوالم البناء الشعري ، تجديد الخطاب اللغوي بعيداً عن وهم الصراع بين الروح والمادة ، فكلُّ جانب يُكمل الجانب الآخر . فالرّوح والمادة تَعْمَلان معاً على صياغة القيمة العقلانية للإنتاج القصائدي من أجل تثوير المجتمع ، والوصول إلى حالة معرفية متوهّجة . وهذان الهدفان لا يمكن تحقيقهما إلا بتطهير الأنساق الإنسانية من الكبت ، وتحرير البنية الفكرية من المآزق الوجودية للفرد والجماعة . وهنا ، تتجلى أهمية السياسة اللغوية في ضبط

التدفقات الاجتماعية التي تنتخب قوة المعنى وَوَحْدَةَ اللفظة ، فتغدو الألفاظ جسداً واحداً يُعبّر عن تفاصيل الانتخاب الطبيعي ⁽¹¹⁾ الذي يحدث في القصيدة رَغْم أنف القصيدة . وكلّ الانقلابات في العوالم الشعريّة ، سَتُجبر القصيدة على غَرْبلة نَفْسها ، وتنظيف كيانها ، وتطهير رُوحها . والقصيدة الحيّة في المجتمع الحي تُعد خارطةً للتاريخ المفتوح على مُصراعَيْه ، حيث يتحول الماضي والحاضر والمستقبل إلى شيء واحد . وهذا النسق الزماني الموحد يتخذ من القصيدة مكاناً مكثفاً يُلخّص الوجود البشري برُمته . وينبغي القول إن القصيدة ليست متحفاً يرتاده القادرون على الدفع فقط ، وإنما هي عالم سحري منطقي محكوم بالانضباط المشاعري ، والطبيعة الثورية المتماسكة . وإذا أردنا الحصول على النواة السحرية للقصيدة ، لا بُد من الغوص في أعماق الأبجدية . فكما أن الدرر كامنة في قاع البحر ، فكذلك المعاني المدهشة كامنة في الأعماق السحيقة للأبجدية . وإذا تمّ تعميم هذه الرؤية، فإن القصيدة ستصبح خطّ الدفاع الأول عن القيم الحضارية . ومع هذا ، فلا ينبغي التخذق في القصيدة _ بأية حال من الأحوال _ ، بل يجب فتح القصيدة على كلّ الاحتمالات الاجتماعية والتحوّلات اللغوية . وهذا من شأنه توليد أبجديات جديدة داخل الأبجدية الأم . ووفقاً لهذه الدلالة البنائية ، يمكن استيعاب فكرة "التوازي والتقاطع" في عوالم اللغة .

إن الشعر فنّ اللامتوقع . كما أن القصيدة صعقة كهربائية وصدمة حضارية في آنٍ معاً . وفي ظل هذه المعطيات، يتكرس الخيال كواقعٍ مُعاشٍ قائم بذاته، وهذه الشائنة المحورية (الخيال/ الواقع) تُعيد ترتيب البيت الداخلي للقصيدة ، وتعمل على ابتكار تقنيات شعرية قادرة على الموازنة بين المدلول اللغوي والمدلول الاجتماعي . وكلما اقترب النص من الحياة الاجتماعية ، اقتربت اللغة من العوالم المادية للفرد ، وهذا يؤدي _ حتماً _ إلى توليد منظور ثقافي جمعي ، وتجيش الأبعاد الشعرية للنص ، وتجدير القصيدة في النسق الإنساني كقومية خاصة لها مكوّناتها المستقلة .

(١١) الانتخاب الطبيعي في عالم القصيدة هو أن تقوم القصيدة بتطهير نفسها من نقاط ضعفها ، وردم كافة الثغرات في الجسد اللغوي . مما يؤدي إلى إنتاج عناصر شعرية راقية ومميّزة ، أي : إنتاج معانٍ مدهشة، وألفاظ متفجرة . فالبقاء للأقوى (الأصلح) . ولا مكان في عالم القصيدة لأنصاف الحلول أو المجاملات .

والقصيدة هي المخزون الإستراتيجي للحلم الإنساني ، والعقل الجمعي للإحساس الاجتماعي ، والكلمة الوجودية في قلب التاريخ وروح الحضارة . وبما أن القصيدة هي العنصر الأكثر فاعلية في تشكيل الوعي المصري ، لم يكن من المستغرب أن تضطلع بمهمة إيصال انفجارات اللغة إلى الفرد العادي .

وفي ظل هذا الزخم ، تتحول نزعات قومية القصيدة إلى عوامل اجتماعية تُنقي رموز اللغة من الأضداد . وهذا التشابك المعرفي ضروري لفهم التكثيف اللغوي داخل فلسفة النص . وفي هذا السياق ، يجب القول إن فلسفة النص تُقاتل على ثلاث جبهات : الجبهة الأولى _ علاقة السلطة الشعرية بالسلطة الاجتماعية أفقياً وعمودياً ، والجبهة الثانية _ قوة الاستعداد الذهني الذي يتعامل مع اللغة على أنها كائن حي متكامل ، وليس أداة توصيل فقط . والجبهة الثالثة _ قدرة الأبداعية

على إنتاج أبجديات موازية تمس الصيغة المتخيلة للمعنى ضمن نظرية استعمار الخيال (إيماره)

ومع مرور الوقت ، تترسخ الأبعاد الأفقية والعمودية في عوالم القصيدة وفق مبادئ التثوير الذاتي، أي إن القصيدة تُنقي نفسها بنفسها، والفكر الشعري يُغزل ذاته بذاته. وهذا يدل بشكل واضح _ على قدرة الشعر على تصحيح مساره بشكل تلقائي، وعدم حاجته إلى الحلول المستوردة من الأنساق المعرفية الأخرى . وهذه الحركة التصحيحية كفيلة بوضع الإفرازات الاجتماعية على المسار الصحيح ، ووضع اللغة في أقصى مداها. وهذه الشرعية الثورية المتحركة اجتماعياً ولغوياً قادرة على مقاومة الانهيار في روح الإنسان ، وإعادة ترميم الذاكرة الوجودية للألفاظ والمعاني ، وتأسيس تاريخ جديد يُزاوج بين ماضي القصيدة ومستقبلها في اللحظة الآنية .

وكل هذه الإشرافات ترمي إلى تكوين مجتمع جديد خالٍ من القمع والقمع المضاد . لكن الإشكالية المؤلمة هي أن القصيدة _ وحدها _ لا تقدر على تقليص نفوذ المؤسسات القمعية في المجتمعات المقهورة التي استمرت الاستبداد، بحيث صارت شعوباً مدججة رافضة للخلاص والحرية. لذلك ، لا بُد من تضافر كافة الأنساق المعرفية في المجتمع ، وتلاحم البنية القوقية والبنية التحتية في النسق الحياتي ، من أجل إيصال الفرد والجماعة والمنجزات الحضارية إلى بر الأمان .

إن النَّصَّ الشَّعْرِيَّ نواةً مركزيَّةً في جَسَدِ التاريخِ وجِسْمِ الحضارة، وهذه الطبيعةُ المركزيَّةُ المميَّزةُ تُقْجِمُ عناصرَ المجتمعِ في عملية كتابة القصيدة . والقصيدةُ الحقيقيَّةُ هي التي يكتبها المجتمعُ الإنساني بأسره ، بُغْيَةً تجذير هُويَّةِ الحُلُمِ الثَّوْرِيِّ العُمومي ، وجَمْعٍ شطايا الأنا المُوغلة في العناصر المحيطة بالذاكرة الإنسانية ، وتكوينِ أنساق معرفية ذات طبيعة شعريَّة قادرة على تحويل الزمان إلى مكان، والمكان إلى زمان . وهذه التفاصيلُ تتوافق تماماً مَعَ كَوْنِ الشَّعْرِ مُحاولَةً للغُوص في الذات من أجل اكتشاف أبعادها السَّريَّة . والقصيدةُ تَمْنَحُ الوجودَ البشري فُرصةً ذهبيَّةً لاختصار الأبجديات في كلمات محدودة . وهذا هو التَّكثيفُ بعَيْنِهِ . لذلك لَيْسَ غريباً أن تنسكب الأبجديَّةُ كاملةً في عبارة شعريَّة رمزيَّة . والهدفُ من التَّكثيفِ هو وَضْعُ المجتمع الإنساني في أقصى مداه ، وتحويلُ القِيَمِ الحيَّاتيَّةِ المحدودة إلى رموز لا محدودة تُظْهِرُ الأنساقَ الاجتماعيَّةَ الخارجة من أيديولوجية الكراهية البوليسية ، وكسرُ العزلة الاستهلاكية المفروضة على الدَّهنِ البشري . وهذه المفاهيمُ المركزيَّةُ تُعمِّقُ الثقافةَ الشَّعْريَّةَ في المحيط الاجتماعي .

وبالتأكيد ، لَيْسَ هناك وصفة سحرية لانتشال المجتمع من مأزقه الوجودي . ومع هذا ، فلا ينبغي الاستسلام لليأس والقنوط . وكلُّ ما علينا فِعْله هو نقل المجتمع المادي العُنصري _ أي المتفوقِ حول عُنصر الأيديولوجية السياسية القمعية _ إلى عالمِ القصيدة . وهكذا تصير القصيدةُ مُجتمَعاً مُوازياً للحالة المجتمعية الإنسانية . وتتحوَّلُ القصيدةُ إلى مُختَبَرٍ يَحْتَضِنُ قِيَمَ التجريب والحركة والبحث ، ثم يَنْقُلُها إلى المجتمع المادي الموحش والمتوحَّش . وضمن هذه الثنائية التقابلية تتم إعادة هَندسة المجتمع ، وولادةُ الجنين الإنساني مرة أخرى .

والفكرُ الشَّعْري يَنْبَغُ من طبيعة اللغة الخصوصية . وهذه الحقيقةُ تجعلُ القصائدَ أبجدياتٍ جديدةة تؤمِّنُ بالأبجدية الأم ، وتتفاعلُ مع التحولات الاجتماعية المستندة إلى إرادة الإنسان الذي يصنع التطورات التاريخية ، ويُناضل من أجل الوصول إلى قُدَّرات زمكانية فاعلة .

والسلوكياتُ القصائدية لا تَخضع للتطورات التاريخية بِقَدَرٍ ما تَخضع للتطور المعرفي للشاعر الذي يفرض على التاريخ وَجْهَةً نَظَرَهُ، ويفرض على المنهجية العلمية مَنَهْجَهُ المتفَرِّدَ . وهكذا، يندمج النشاطُ البشري مع مِعمارية القصيدة ، وتتمُّ هندسةُ الأفكار الإنسانية، وإعادة بناء مستوى الوعي على صعيد البنية التحتية للأبجدية ، والبنية الفُوقية اللغوية . وبما أن الحياةَ الاجتماعية نظامٌ شعري خاص ، كان لزاماً دمجُ المعطيات اللغوية مع السِّياق الإنساني ، ونقلُ الشُّعور من مرحلة الفكر الفردي إلى مرحلة العقل الجمعي . وهذه العمليةُ بحاجة إلى جسر قصائدي يربط بين

المرحلتين. وكلما تمركز النظام الشعري في تفاصيل النظام الاجتماعي، انتشرت ثقافته الأسئلة المصيرية، وتكرست عملية فحص المسلمات المجتمعية. وهذا يؤدي _ بالضرورة _ إلى تنقية رموز الذاكرة الإنسانية من شطايا الحلم، وكشف الاجتماعيات الرمزية التي تظهر على شكل جُرعات لغوية تنتشر في الأفق القصائدي، وتوضح أهمية " الرمز " باعتباره صورة المعنى وجوهره، وبوصفه الاختزال العضوي الشرعي لمراحل الحياة الاجتماعية بكل تعقيداتها. وهذه التفاصيل تدفع باتجاه إنشاء نظريات خاصة تتوازي مع أبعاد التعرية المستدامة للإطار الفكري للأنا الكلية الشاملة لتقاطعات وحدة الرمز الاجتماعي المسكوب في فضاءات كسر القولية (12).

إن التنظير اللغوي في عوالم القصيدة ينطلق من حتمية تلاقح المكونات الفلسفية بين طبقات النص المختلفة. وهذا التلاقح يجعل القصيدة قادرة على تكوين تاريخ شعري للحلم البشري عن طريق استنباط الملامح الجمالية من أكوام الانقراض المجتمعية، وهكذا يصبح الوجود البشري فرصة لبناء قصيدة ضد الانتحار والتلاشي. ولا يخفى أن القصيدة وعاء يحضن أحلام الأجيال،

(١٢) إن المشكلة الفكرية المنهجية في السياق الاجتماعي هي وجود كثيرين يُسمون أنفسهم فلاسفة وعلماء اجتماع، يُقحمون في فرضياتهم خدعاً بصرية وسمعية ولغوية تتضمن العيش في عوالم واهمة، والإغراق الكارثي في تحليل أنساق تاريخ وهمي فاقد لوحدة العناصر واجتماعيات المركبات. وهكذا تتكرس الفلسفة كتلاعب بالكلمات من أجل إخفاء الأزمت الوجودية الخائفة، وحالات الخواء الفظيع، والفراغ الكاسح، والانهيار الشامل. وتصبح المناهج العلمية عملية صف للكلمات، وتجميع = = لفظي مأخوذ من كتب السابقين من أجل الظهور بمظهر المفكرين العالميين " المعصومين "، وهذه خرافة ساقطة. فما يُسمى بالفلاسفة في الغرب، أفكارهم عبارة عن تجميع لفظي، وخليط فكري من السابقين والمعاصرين. فعلى سبيل المثال نجد أن بنيوية كلود ليفي شتراوس (الفرنسي)، وتفكيكية جاك دريدا (الفرنسي)، وتواصلية هابرماس (الألماني)، والنحو التوليدي عند تشومسكي (الأمريكي)، نالت حظها من الشهرة الفكرية العالمية بسبب الآلة الإعلامية الجبارة، وقوة البلاذ التي ينتمي إليها هؤلاء المفكرون " على الصعيد العالمي. لكنهم _ في حقيقة الأمر _ مجرد حملة أفكار من هنا وهناك، لكن عملية التلميع هي التي جعلت منهم فلاسفة يُشار إليهم بالبنان، رغم ضعفهم الشديد في مجال التحليل العقلاني الواعي، وعجزهم عن ربط المسارات التاريخية بقيمة الهوية الإنسانية، وعدم قدرتهم على توليد أساس منطقي للفعل المجتمعي العمومي.

ويحتوي على تاريخ الأمم والشعوب ، ويختزل تجارب الناس . ويمكن القول إن القصيدة حيوات متعددة في نسق مُميز يَصْغُل البناء الداخلي للعواطف الإنسانية . وهذه الرؤية هي مَنبَع الرمزية التي تُجَدِّر الوجودَ الإنساني خارج أطر التهميش والإقصاء والعَدَم ، وتُشْرَعُنُهُ بشكل واضح لا لَبَس فيه .

ولا بد للأبجدية الشعْرية من وجود ذهني يكفل لها تخطي العقبات المادية ، ولا بد لها من وجود مادي واقعي يكفل لها حق التغيير للأفضل ، وإعادة هندسة الإنسان شعْرياً ليصير نموذجاً راقياً على تماس وثيق بالكائنات الحية والعناصر الطبيعية الجمالية . وبالتالي تصبح المزايا الجوهرية لعوالم الشعْر ذاكرةً للطبيعة الحية التي تحضن الأحلام البشرية ، ويخرج الإنسان من دائرة الميكانيكا الآلية التي حوَّلته إلى شيء مادي يَحْت تمهيداً لعزله عن الوجود الكلي والجزئي ، وإغراقه في مستنقع التطلُّو ، حيث يَغْدُو الإنسان ظلاً باهتاً وشيئاً ميكانيكياً ، وتصير عواطفه عبارة عن ارتدادات مادية فاقدة لِوَحدة الشعور وتكاملية الإحساس .

والقصيدة لا تبني المستوى الشعوري للإنسان فَحَسْب ، بل أيضاً تبني التصورات المعرفية للعناصر الوجودية التي تعيد بناء المجتمع الغارق في الكراهية وردّة الفعل وفُورَة الغضب . وهذه العملية البنائية تصنع زماناً جديداً قائماً على الثورية الأخلاقية ، وتُنشئ مكاناً جديداً قائماً على رفض سياسة الإملاءات . وفي كُل الأحوال ، ستظل القصيدة قابضةً على جمرة التاريخ البشري ، من أجل تحويل الحالة الانهيارية للمجتمع إلى أنوية بنائية تُساهم في صناعة غد أفضل . وهذا الحراك المصيري لا يمكن أن يظل حبيس النظريات الفلسفية ، بل يجب نقله إلى حيِّز الوجود البشري ، والتطبيقات اليومية الواعية .

ولا يمكن تشريح السلوك العاطفي للفرد والجماعة إلا بتفعيل دور القصيدة في المجتمع ، وتنقية الأنساق الإنسانية من الشروط الاستباقية التي تضع العربة أمام الحصان ، وكسر ثقافة التميّط والقَوْلبة التي تقتل رُوح اللغة الثقافية ، وتقضي على فاعلية اللغة الاجتماعية . والتحدي الكبير الذي يُواجه القصيدة هو أن المجتمعات البشرية تعشق تقديس ما ليس مُقدَّساً، مثل الذوات البشرية المتنقّذة ، والعادات والتقاليد المتوارثة . وهذا يعني أن القصيدة تتحرك في مجتمع غير عقلائي ، يَخْتَرع المسلّمات بصورة غير منطقية ، ولا يَمْتَلِك ثقافة الأسئلة ، ولا يُدرك أهمية النقد والنقض .

وهنا ، تبرز أهمية حل المشكلات الاجتماعية شعرياً . فالتعامل مع البنية الدلالية للمأزق الوجودي المجتمعي ينبغي أن ينطلق من الفلسفة الرمزية في مجتمع القصيدة . فمجتمع القصيدة كياناً اختزالي تكثيفي قادر على استشراف الآتي، وتقديم الحلول الجذرية الفعالة . وفي هذا السياق، تصير الأبجدية المتشظية المسيطرة على عمليات الترميز والتشفير القصائدي فرصة حيوية لالتقاء التنظير الفلسفي مع العقل الجمعي الذي يقود المجتمعات البشرية نحو الحرية والتحرر .

وهكذا نجد أن القصيدة _ باعتبارها نسقاً ثورياً _ تنتشل الفرد من الانهيار الجزئي والكلي ، لتضعه في مواجهة العالم . وعندئذ تصبح القصيدة مُحدثاً رسمياً باسم الإنسان في مواجهة نفوذ الخرافة وسطوة المسلّمات الافتراضية . إذن ، فالكتابة الشعرية ليست تسلية أو مُتعة اختزالية ، بل هي ثورة شاملة نابعة من حقيقة الصدام وحتمية الصراع . وهذه الثنائية (الصدام / الصراع) تنجذر في القصيدة بصورة تلقائية ، لأن الشعر قتالٌ على كل الجبهات .

والشعر ليس لعبة الألغاز كما يظن البعض . ووجود الألغاز في الجسد الشعري أمرٌ خطير ، لأنها تُغرق المعنى في فراغ الهوامش التاريخية ، وتحوّل طبيعة النصّ إلى كومة أنقاض . والقصيدة الحقيقية هي تاريخ الانطلاقة المعرفية ذات المقومات القادرة على مُجابهة التحديات الكونية . وينبغي القول إن القصيدة التي نكتبها وتكتبنا يجب أن تُعبّر عن الأفق الثقافي وعناصره بلغة شعرية عصرية تلغي الفرضيات الفوضوية ذات النزعة الفلسفية الشاذة عن المسار الحضاري .

وبشكل عام، إن القصيدة قادرة على التوفيق بين الرؤية العصرية المدنية للأدب، وبين عسكرة الهوية العنيفة للأبجدية . وهذه العملية التوفيقية لا التلفيقية ، تتم عن طريق كتابة نص واثق من أدواته ، وقادر على الصمود في وجه التحديات . والقصيدة غير مُعنية بوضع وصفاً سحرية لطريقة الكتابة مثل وصفات الطبخ، فكلُّ مُبدع عليه أن يعرف حجم قدراته وثقافته ونقاط قوته ونقاط ضعفه ، ويتحرك في ضوء هذه المنظومة الفكرية . ولا أحد يستطيع أن يُعطي وصفات جاهزة ومحاضرات في كيفية الكتابة ، فهذه مهمة الكاتب الرائي الذي يُوازن بين عناصر النص ليصل إلى حلمه الإبداعي بنفسه . ومن حماقة أن يترك الإنسان الآخرين يَحلمون نبأه عنه ، ثم يكتفي بالتصفيق لهم . فالطريق هو الكاتب ، والكاتب وحده هو الذي سيمشي في الطريق .

إن العقل الرمزي المسيطر على المشاعر الاجتماعية يستمد شرعية وجوده من كينونة اللغة . واللغة تتحول _ مع نضج التجربة الإبداعية _ إلى نظريات اجتماعية تُفسّر الأداء الوظيفي للإنسان الذي يرى الحاضر بعيون المستقبل . وهذا من شأنه تقوية العلاقة بين الشعور الجمعي والأبجدية

الموازاة للأبجدية الأم ، وتكريس الفكر الثقافي كمشروع وجودي ماورائي يستشرف مستقبل الكلمات ومداه الطبيعي ، وكشف التحولات النسقية في طبيعة اللغة التي تُثَوِّر المجتمع المكبوت . وهكذا ، تتحول الأبجدية الرمزية إلى فضاء (مُتَنَفَّس) ، وتتحول اللغة من وسيلة للتخاطب إلى بناء ذهني حالم يُحلّل بؤرة الوجود البشري . ووفق هذه الرؤية ، يتم تنوير الأبجدية الرائية .

والقصيدة هي المحرّك الرئيسي للأبجدية الذهنية المتمردة على قوالب الواقعية . وهذه الحقيقة تجعل الكلمة أفقاً جديداً ، وتجعل للكلمة مدى قادراً على اكتشاف البعد الماورائي للعلاقات الاجتماعية ، وتحليل الروابط الشعرية المتخيّلة ، وتشرح سلوك الإنسان لغوياً واجتماعياً . ومهما يكن من أمر ، فإن التزاوج بين السياسة اللغوية والسياسة الاجتماعية هو روح الحداثة الشعرية .

والحداثة الشعرية تُشيد فلسفتها على قواعد الوعي اللغوي الذي يُجسّد الهوية الشاعرة بذاتها، والمدركة للعناصر حولها . وهذا الشعور المدرك للذات والبيئة المحيطة هو الأساس الفكري للفاعلية الشعرية التي لا يمكن أن تتحقق على أرض الواقع إلا بتكريس وعي الأنا بالذات والجماعة، وتجدير وعي الجماعة بالعقل الفردي . شيئاً فشيئاً ، ستؤول الفاعلية الشعرية إلى سلطة رمزية تساهم في بناء جسد اللغة، وتجميع أجزاء الوعي الإنساني ، وتشكيل منطق فلسفي يُراقب الجسم القصائدي.

إن العلاقة الاجتماعية بين اللفظة والمعنى عبارة عن أرشيف يضم تفاصيل التاريخ الوجداني للشاعر القصيدة . وهذا التزاوج البنائي (التمازج المصيري) يُشكّل نظاماً ثقافياً يُعيد هندسة المجتمع لينقله من طور الممات إلى أطوار الحياة المخيالية الواقعية ، ويُعيد تشكيل الأطوار الشعرية لتُصبح مراحل تأسيسية للحلم الإنساني والطموح المجتمعي . والجدير بالذكر أن كلّ تفاصيل العالم الشعري مُندمجة بالكلية مع روح الشاعر ، وجسده المنتشر في جسد الكلمات التي تصعق مجتمع الانتحار التدريجي . وفي هذا السياق يظهر سؤال محوري : كيف ينتقل المجتمع من عملية صناعة النماذج القديمة إلى عملية بناء القدرات المعنوية للعنصر المادي دون حدوث فراغ داخل الأبجدية الشعرية ؟ .

والجواب يكمن في طبيعة عملية الانتقال . إذ إنها تتم عن طريق صهر المراحل واختصار الأزمنة وحرق المسافات والقفز دون المشي . وهذه العملية ستنتقل معها كلّ الفراغات المعرفية

التي سيتم رَدُّها بسبب سرعة الانتقال وقوة الصَّعق الشَّعري . كما أن المادة الشَّعرية المجتمعية ستتحول إلى طاقة تُغطِّي كُلَّ الفراغات الناشئة بفعل هذه العملية الجراحية في رُوح المجتمع الشَّعري ، وجسد المجتمع البشري. والقصيدة سَوْفَ تملأ كُلَّ فراغ اجتماعي ، وتساهم في تنشئة جيل قادر على ملء الأمكنة باشتعالات الأزمنة ، ورَدِّمَ فجوات الأزمنة القصائدية بالحضور المكاني المتأجَّج ، مع الانتباه للجانب الميكانيكي في القصيدة ، والذي يلعب دوراً مركزياً في خلق التوازن بين الطبيعة المادية والطبيعة الإنسانية . ولا مَفَرَّ من القول إن تكريس القصيدة فلسفياً يمرُّ بأطوار قواعدية تُعَقِّلن تدفقات اللاشعور (تجعلها عقلانية) ، وتبثُّ المسؤولية الأخلاقية الواعية في عوالم اللاوعي، فيصير اللاشعور واللاوعي نظاماً ثقافياً مُوحَّداً ، وقابلاً للتطبيق على أرض القصيدة وأرض الواقع في آنٍ معاً .

وقوة القصيدة تتجلى في هدم الأصنام البشرية ، وتحطيم ثقافة تصنيف الدوات ، واستئصال القمع السياسي والكبت الجنسي . ولا يمكن حدوث نهضة من أيِّ نوع في ظل وجود هذه العناصر القتالة . وبالتالي ، فالقصيدة تُسدي خدمةً جليلة للحضارة الإنسانية ، إذ إنها تُطهِّرها من القيم المسمومة والمسلمات الخبيثة . وبشكل عام ، إن دور القصيدة هو التصدي لكل النماذج المنحرفة في المجتمع بلا تمييز . ومن الضروري معرفة كيفية تفكير الفئات الشاذة عن المسار الحضاري ، ليتم بناء القصيدة وفق مراحل تطويرية لغوية ذات شعور واقعي ، ووعي إستراتيجي سوسيولوجي .

وللأسف ، فإن التحديات التي تعترض طريق القصيدة هائلة ومُربكة ، لكن القصيدة يجب أن تتصدى للمخططات الاجتماعية الفوضوية بكل جرأة وإقدام ، حتى لو وجدت القصيدة نفسها وحيدة في الطريق .

٥

تعدد عوالم النص المنظورة ونخير المنظورة

إن النُّظَم اللغوية الرمزية في القصيدة سَوْفَ تعاد صياغتها من أجل السماح للشرعية الأبجدية بصياغة أطوار ماورائية النص . وهذه الصَّياغة المزدوجة تجعل تاريخ فلسفة القصيدة كياناً ثورياً مُتعدِّد العوالم . ولا شك أن رمزية العوالم الشَّعرية ذات الصَّبغة الثورية تعتمد على صعق المجتمع

الإنساني ، ليس من أجل قتلِهِ ، وإنما من أجل إيقاظِهِ . تماماً كما يفعل الطبيب الذي يستعمل الصَّدَمَات الكهربائية بحقِّ مَرَضاه، فهو لا يفعل ذلك لأنه يكرههم، بل لأنه يُحبُّهم، ويُريد إنقاذهم. والقصيدة _ باعتبارها قُومِيَّةً مَخَيَالِيَّةً واقعيَّةً _ تهدف إلى توسيع دائرة مصطلحات التشوير الواعي. كما أن صناعة اللغة الشعريَّة تهدف إلى تحقيق التنمية القصائدية على كافة الأصعدة . ومن هنا ينبثق دَوْرُ النَّصِّ الشعري في التَّصدي للأضدادِ والهوياتِ السَّالبةِ ، عن طريق حَقْنِ الأبجدية القصائدية بعناصر الرفض من أجل تعرية الحطام الاجتماعي، وتجريد المسلَّمات الوهمية من سُلطات الهيمنة والنفوذ والتكريس .

ولا شك أن الخصائص الاجتماعية المحفورة في جسد الأبجدية ، تجعل القصيدة وطناً قومياً لكل الصُّور الفنية الراقية المناوئة للاستهلاكية والابتذال . وهذه الحقيقة تُقود العقلَ الإنساني الجمعي إلى ابتكار تفاسير شعريَّة من أجل إنقاذ المجتمعات المنهارة _ حقيقةً _ ، والتمسكة أمام وسائل الإعلام _ ظاهرياً _ .

ومع مرور الوقت ، تصبح الإنتاجات الشعريَّة الرمزيَّة أبجديَّةً جديدةً تتدفق بين توهج اللفظة ومركزيَّة المعنى . واللفظة والمعنى هما بُؤرتان تعتمدان على المنظور المعرفي للزمان الشعري ، وتُكتلتان مضغوطتان تُلخِّصان تاريخَ الأجنحة المتصارعة في القصيدة ، وتاريخَ التَّوجُّهات المتصارعة على القصيدة . وهذا التلخيص الوجودي الحاسم يضمن استمرارية العلاقة بين أقطاب النص ضمن الجسد اللغوي الواحد . أمَّا قوَّةُ الفعلِ النابع من سياسة القصيدة فهي إشارات اجتماعية تعيد صياغة إفراسات العقل الشعري التي تؤثر على التنظيم المركزي للدلالات الإنسانية، وتؤثر أيضاً _ على المفاهيم المسلَّطة على وَحدة الشعور المجتمعي . وعلى أية حال ، فالرمزيَّة هي المجال الحيوي لتطبيقات الثورة الشعريَّة ، والوعاء الحاضن للعلاقة المصيرية بين تضاريس القصيدة وتاريخ حُلْمِ الشَّاعر .

والتَّحدي الأساسي في عوالم القصيدة هو كيفية تحويل الفرد من الاعتيادية إلى التشويرية ، وذلك من أجل إضفاء المعنى على حياة الفرد وأحلامه . وهنا ، تُظهر ضرورة تحويل القصيدة إلى جسر معرفي يربط بين العوامل السيِّكولوجية للكيانات البشرية. وإذا صار هذا الأمر واقعاً ملموساً، فإن خلايا القصيدة ستصبح أنويَّة اجتماعيَّةً حيَّةً ، تنمو وفق قانون الانتخاب الطبيعي الذي يسري على الأبجدية الشعريَّة ، حيث البقاء للأصلح ، فالكلمةُ الثائرة هي سيِّدة المنحى الفلسفي للنص

الذي نكتبه بالقلم ويكتبنا بالسيف، نكتبه بالحبر ويكتبنا بالدم . وهذه الشائئة الملحمية ستعيد الحياة للمجتمع اللاهث وراء رغبة الخبز .

وينبغي القول إن كل الإفراقات الاجتماعية التي تُشكّل الوعي الإنساني ليست سوى موسيقى داخلية تسري في جسد القصيدة . وبعبارة أخرى ، إن تفاصيل المنظومة الاجتماعية تصير أوزاناً شعرية لا علاقة لها بعلم العروض . وهذه الأوزان المميزة تسمح بتدفق حرارة المعنى بلا أية عوائق. كما أن تعقيدات الحياة اليومية للفرد والجماعة تصير سياسةً شعرية خالصة وقائمة بذاتها . وهذا ليس غريباً ، فالقصيدة حكومةٌ مُواليةٌ للمعنى ، تتفاعل فيها كل الأبيديات السكونية والديناميكية. وهذا التفاعل يُشكّل خطوةً أولى في درب التحرير المعنوي، أي تحرير المعنى من ثقل الألفاظ . وهذا لا يتأتى إلا بحشد المعاني الصارخة في اللفظة للوصول إلى مرحلة تنوير اللفظة ، تمهيداً لتنوير المعنى.

وكل الأفكار الاجتماعية هي نتيجة طبيعية لثورة اللغة ، ثورة اللغة على ذاتها ، وثورة اللغة على الأنظمة الأبوية الاستهلاكية . وإذا تجذرت اللغة في تفاصيل الشعور الاجتماعي ، فإن الموقع الإستراتيجي للأبجدية على خريطة المعنى سوف تزداد أهميته ، وبالتالي ، تزداد أهمية مركزية الكلمة في النظام الاجتماعي برُمته. ممّا ينعكس إيجاباً على النظرية الشعرية التي ترمي إلى فهم طبيعة التاريخ المتحرك في النفس البشرية، والمتحرك في النطاق الحضاري. والقيمة التاريخية شديدة الأهمية في النظرية الشعرية ، فالتاريخ هو الخلفية الذهنية للألفاظ والمعاني ، والحاجز الفكري الذي يمنع وصول الألفاظ المكررة والمعاني المستهلكة إلى روح القصيدة وجسمها، كما أن التاريخ هو العنصر المعرفي القادر على تطهير أبجدية الشعر من نفوذ الخدع اللغوية ، وتطهير المسار الإنساني من حضارات الخرافة. وهكذا يتحد المجتمعان : الشعري والإنساني ، ويصبحان جبهة متقدمة ، وخندقاً أمامياً في ذروة المواجهة بين المعنى واللامعنى . وفي هذا السياق ، لا بد من القول إن وظيفة الكتابة الشعرية هي إعلان الحرب بين المعنى واللامعنى ، وإحياء الأمل الإنساني ، وترميم الذاكرة البشرية المشروخة ، وإعادة صيغة الحلم للمكان والزمان .

إن الشعر نظامٌ لغوي قائم على المزاوجة بين الفلسفة والرمز ، وهذا النظام النقي لا بُد أن يصطدم مع الواقع غير النقي ، بسبب استحالة اجتماع الصّدين ، فالماء والنار لا يجتمعان . وهذه الرؤية العميقة تمنح النصّ الشعري فرصةً للتأمل في طبيعة المسار الاجتماعي . وهذا التأمل منظومة عملية ، وليست افتراضاتٍ نظرية تجريدية . كما أن هذا التأمل يكشف لنا أمرين : الأول

— الأبعاد الشعريّة المتّحدة في بؤرة النّص هي الوجود البشري الحقيقي ، والثاني — النّص هو الابن الشرعي للعلاقة بين الأضداد المعرفية .

والجدير بالذكر أن الصّيغة القصائدية هي حركة تاريخية دائرية مُغلقة ومعزولة ، وقد قام الرّمز الفلسفي داخل النّص الشعري بفكّ هذه الغُزلة ، ودمج الخيال مع الواقع . لذلك ليس غريباً أن يحلّ الرّمز الشعري محلّ الأوزان الشعريّة . صحيح أن للأوزان الشعريّة مكانتها المعتبرة ، ولكن من غير المقبول أن تُمنح هذه الأوزان قداسةً مجانيةً ، وتصبح هي الفيصل بين الشعر والنثر . ففوّة المخيلة وحرارة التجربة تُدوّيان كلّ الفوارق بين الشعري والنثري . وهنا تنشأ موسيقى قصائدية داخلية جديدة نابعة من الخيال المتفرّد غير المستهلك . وبالتالي ، تولّد ذاكرة الشعر الصاعقة التي تُمثّل نظاماً إنسانياً متكاملًا ، ومنظومة اجتماعية عصيّة على التدجين أو التهميش .

وعلى الرغم من التزاوج الشرعي بين الشعر والنثر ، إلا أن العامل المميّز بينهما هو تكثيف الصّور الفنية . فالشعر نظامٌ تكثيفي رأسي ، والنثر نظامٌ انسيابي أفقي . والأداء التكثيفي الشعري هو الذي سيأخذ على عاتقه تحليل الظواهر السياسية والاجتماعية في القصيدة ، استناداً إلى كُون القصيدة حزباً سياسياً قائماً بذاته ، ومُجتمعاً ذا هوية مستقلة . وهذه الثنائية المعرفية الحاسمة قادرة على تأسيس صيغة تعايش بين الأبنية المعنوية والموسيقى الداخلية في كيان القصيدة .

ولا بُد من القول إن موسيقى الشعر التي تتجلى في قوة الرّمز والصّور الفنية المدهشة ، يُعاد اكتشافها بشكل تسلسلي تعاقبي . أي إن كلّ قراءة للنّص الشعري بمثابة كتابة جديدة لهذا النّص . وهذا يدل بكل وضوح على أن النّص الشعري دائم الشباب والحيوية ، ولا يمكن أن يُصاب بالشيخوخة أو الموت .

إن المستوى الشعري التّوعّي يُحدّد طبيعة الكمّ الفكري ، لكنّ الكمّ الفكري لا يمكن أن يؤسس شعراً نوعياً . وفي ظل هذه الصّيغة ، تولّد القصيدة الموهلة في قضايا الناس بعيداً عن الرمزية الفوضوية العابثة والضبابية العمياء التي تجعل من الشاعر حفار قبور لكلماته البائسة التي لا يفهم معناها ، وبالتالي ليس غريباً ألا يفهمها المتلقّي .

والقصيدة الحقيقية تخرج من رغيّف الخبز ، من ذكريات الناس ، من الأشياء البسيطة والمعقّدة على حدّ سواء . فالشعر ليس علماً نظرياً محصوراً في الكتب على الرفوف المغبرة ، وإنما هو خلاصة التجارب الإنسانية، وذاكرة الوجود البشري التي تقوم على أنقاض فوضى النّص .

وإذا التصق الشَّعرُ بالظواهر الاجتماعية ، فإن مفهوم التَّورية الأخلاقية سيتكسر في المجتمع . وهذا يُشير إلى الترابط المصيري بين حياة الشَّعر غير المألوفة ، وحياة الأفراد المألوفة . ويمكن القول إن الشَّعر هو المزج المدهش بين اللاعادي والعادي ، والنظام اللغوي القادر على جعل اللاعادي عادياً . وإذا تَمَّت شَعْرَةُ العناصر الحياتية (صَبَغَ القِيم الاجتماعية بالثقافة الشعريّة) ، فإن الحصارَ المفروض على الشَّعر سينكسر ، وستنتهي الغربة التي يعيشها في المحيط الإنساني . وبالتالي ، يخرج الفرد من عزلته ، ويخرج المجتمع من فكرة التَّقوُّع على الذات بِحُجَّة المحافظة على الهوية ، ويخرج النَّصُّ الشعري من الشَّعوذة الذهنية .

إن الشَّعر عالمٌ متكامل قائم بذاته ، تتبع قوته من قدرته على توظيف البنى الاجتماعية في الحراك الذهني الديناميكي ، واختزال المبادئ الإنسانية في مدارات اللغة ، وحشد المعاني الصارخة في اللفظة الواحدة . وهذه الأفكار التأسيسية ترمي إلى نقل الفرد من طَوَّر اللامبالاة إلى مرحلة الوعي بالعناصر الداخلية في الذات الإنسانية ، والعناصر الخارجة عن حدود الذات الإنسانية . وبالتالي ، يبنى الفرد والجماعة عالماً خاصاً بعيداً عن عبودية لُقمة العيش ، ورقِّ الراتب الشهري .

وفي هذا السياق ، يجب القول إن الشَّعر هو الطريق الثوري الذي يقود إلى فهم حركة التغيرات الاجتماعية المسيَّسة وغير المسيَّسة . وبالتالي ، فمن الطبيعي أن تكون الكتابة الشعرية منذورة للمخيال الواقعي المتمرد على سياسة تصنيف الذوات ، واختراع المسلّمات الافتراضية . ومن الطبيعي أيضاً أن تكون العلاقة بين المعنى الاجتماعي والمعنى الذهني عالماً من عوالم الشَّعر المتمردة . وهذه الأفكار الكلية ستزداد وضوحاً في أنساق المجتمع الإنساني ، إذا أدركنا أهمية الوحدة اللغوية النابتة في نخاع الخيال المتناسك ، وأدركنا أيضاً أهمية الخيال باعتباره الصيغة الوظيفية القادرة على تحليل نمو الحراك الإنساني في قلب اللغة الحية .

ولا يمكن للشَّعر أن يقود حركة التصحيح الاجتماعية ، إلا إذا تَمَّ تجديد الخطاب القصائدي ، وجعله قادراً على تحليل المحتوى الفلسفي للحلم الإنساني ، وتوليد أنساق ثقافية قادرة على إزالة أي ارتباك لغوي قد يَظهر أثناء ثورة بركان الأبدية . وفي ظل هذه المعطيات ، يمكن استيعاب التغيرات الاجتماعية المرتبطة بخصائص القصيدة . ومن أبرز هذه التغيرات ، تحوُّل الفرد من الدفاع إلى الهجوم ، ومن رَدَّة الفعل إلى الفعل ، وانتقال المجتمع من الاستهلاك إلى الإنتاج ، سواء كان إنتاجاً مادياً أم فكرياً . وهذا الأمر ليس غريباً ، فالشَّعر يدفع الآخرين إلى التفكير ، ولا

يُفَكِّرُ نيابةً عنهم . وبالتالي ، يصبح الأفراد مُفَكِّرين قادرين على صياغة فلسفتهم الخاصة بكل حرية ، وتصبح الأفكار إبداعيةً خارجةً على قانون التنميط . والهدف من هذا الحراك (الفردي / المعرفي) هو إعادة صناعة الإنسان والمجتمع على حدٍّ سواء. ولا يمكن أن يصير هذا الهدف واقعاً ملموساً إلا عن طريق توليد الأسئلة المعنوية لا العدمية . وأهمية هذه الأسئلة تكمن في قُدرتها على ابتكار عوامل تاريخية تُشَرِّح جغرافيا القصيدة وأبعادها الماورائية. ومهما يكن من أمر ، فلا بُد أن تخرج القصيدة إلى حَيِّز الوجود عن طريق إثبات وجودها، وهذا لا يتأتى إلا حينما تُثَبِّت القصيدة الوجودَ العاطفي للإنسان ومستقبله الحالم .

وينبغي القول إن الكلمات الفخمة لا فائدة منها في عالم القصيدة ، إذا كانت القصيدة تخلو من الرمز الإنساني والفلسفة الحياتية . فالرمز والفلسفة هما جناحا القصيدة، اللذان يمنعان اللغة الشعرية من التحول إلى خدعة بصرية سمعية . ولا بد من تواجد الرمز والفلسفة معاً ، ولا يُقبل أحدهما دون الآخر . فغياب الرمز يعني تحوُّل القصيدة إلى وهم ، وغياب الفلسفة يعني تحوُّل اللغة الشعرية إلى جيفة . لذلك ، ينبغي تنوير كل تفاصيل اللغة ، لكي تتأقلم مع الوضع الجديد للذات الإنسانية المتمردة على المسلّمات الافتراضية . وفي ذات السياق ، يجب حقن القصيدة بالمتفجرات اللغوية ، وتفجير اللغة الشعرية لكي تصبح الشظايا عالماً من الأحلام والذكريات والثورة .

وفي هذا السياق تظهر حقيقتان لا بُد من ذكرهما : الأولى _ الكلمات المولودة في القصيدة هي تركيب وجودي استثنائي مرتبط بالنمو العاطفي للإنسان . والثانية _ القلب والعقل هما اللذان يكتبان القصيدة ، مع ضرورة الانتباه إلى أن القوة العاقلة موجودة في القلب وليس في الدماغ على وجه التحقيق . وليس القلب تلك المضخة المادية التي تضخ الدم ، بل هو لطيفة ربّانية ، وسِر إلهي موضوع في صدر الإنسان . ولكي يجد الإنسان نفسه ينبغي أن يخوض حرباً داخل ذاته وخارجها ضد كل إفرازات السراب الفكري . وهذه الحرب الشاملة هي الفلسفة الأساسية للقصيدة التي نكتبها وتكتبنا .

لقد أثبتت القصيدة قُدرتها الفائقة على صياغة العاطفة البشرية . وهذا ليس غريباً ، فالنظام الشعري يُعيد بناء نظام المشاعر في الإنسان ، لتصبح الظروف ملائمة لاتحاد النظامين معاً . وهذا التمازج هو الفرصة الذهبية لإعادة الشعر إلى الجمهور ، وإعادة الجمهور إلى الشعر . والمؤسف أن لفظة " العاطفة " قد اقترنت بالضعف والاستسلام . وهذا اقتران واهٍ لا دليل عليه . فالعواطف

(المشاعر) التي يزرعها النظام الشعري في المنظومة البشرية تمتاز بعمقها العقدي ، وقوتها اللغوية النظامية المتمركزة حول جوهر الإنسان، ومركزية وجوده على هذه الأرض . والمنظومة العاطفية المتحركة في عوالم الفرد ومدارات الشعر ليست عرضاً، لأن العرض زائل. إنما هي جوهر، والجوهر ثابت. والعرض لا يدوم زمانين، أما الجوهر فيدوم . ومن هنا تنبع القوة الفكرية الفلسفية عموماً ، والقوة الشعرية خصوصاً .

ومن أجل توفير بيئة خصبة لنمو فلسفة القوة الشعرية ، لا بد من تحليل أنساق اللغة الرمزية ، وتحويل إشارات الأبجدية إلى أنوية اجتماعية ذات صبغة سياسية ، مع العلم أن الفكر اللغوي ليس منشوراً سياسياً ، وإنما هو إسهام فلسفي يدخل إلى المجتمع البشري من باب السياسة ، السياسة بمعناها الكلي لا الجزئي. وهذا الحراك المعرفي دليل على أن الكتابة الشعرية ليست ترفاً اجتماعياً ، أو هواية لملء وقت الفراغ، بل هي تجديز للدلالات اللغوية التي تحافظ على هوية المعنى بكل أبعاده بغية مكافحة النسيان والطمس . وبعبارة موجزة ، إن الكتابة الشعرية هي الوجود الإنساني الحيوي المضاد للنسيان . وهذه الحقيقة الموجزة تتبع من كون القصيدة هي الحامل للخلم الإنساني المحصور في الواقع القاسي .

وكل التطبيقات الإنسانية في الحياة الواقعية تمثل قصيدة قائمة بذاتها، وعالمها له أبعاده الخاصة. ومع هذا ، فالقصيدة ليست نصاً مراوفاً ، لأن المراوغة صفة مذمومة تؤثر سلباً على التوافقات البنائية داخل حركة القصيدة الملزمة بمنهجية الوعي التطبيقي (الوعي بمركزية الذات ، والوعي بأهمية العناصر المحيطة) . وهنا ، تبرز الحاجة إلى وعي تسلسلي زمكاني من أجل التعبير عن إفرازات السلطة الرمزية في نظام اللغة الشعرية . وهذه خطوة أساسية لإقحام المجتمع البشري في ثورية القصيدة ضمن عالم رمزي واع لا عبثي . والبنية الرمزية الواعية في النص تقود إلى فتح باب الوعي ، والإطلاقة على العالم النقي المتمرد على قانون القطيع وتعاليم الحضيرة . وهذه البنية توجه الشعور الإنساني البنائي نحو مستقبل أكثر إشراقاً وثورية .

إذن ، فالرمزية ركيزة أساسية في بناء الهوية الشعرية . وتتجلى أهمية الرمزية في قدرتها على الفصل بين السياق الشعري والسياق اللغوي رغم التشابك بينهما ، والتمييز بين البناء المعنوي والبناء اللغوي رغم اختلاطهما . ولا بد من ذكر هذه الحقيقة لفهم مبادئ علم اقتصاد اللغة . فالكلام يتمتع باستقلالية اقتصادية خاصة، حيث توضع الأبجديات المناسبة داخل اللفظة الواحدة، مما يؤدي إلى تطبيق ثلاثة أمور معاً : الحشد المعنوي الرمزي المكثف ، والوضوح

الرمزي الغامض الواعي ، وتطوير مستويات اللغة الشعريّة . وبذلك ، تكون اللغة قد وصلت إلى مرحلة الكونية ، وكرست سياستها الخاصة في المجتمع القصائدي الداخلي الذي يُعدّ نموذجاً للمجتمع البشري الخارجي. وهنا، لا بُد من التحذير من الفلسفات اللغوية المعقّدة التي تُدّمر المستوى الشعري لعوالم اللغة ، وتقضي على فضاءات الإبداع اللغوي . وهذه الفلسفات تؤدي إلى هشاشة الواقعية الذهنية ، الأمر الذي يشلّ القصيدة ، ويمنع أنويتها من الدوران في أفلاك المجتمع الإنساني .

وإذا عزلنا العزلة المفروضة على القيمة الاجتماعية للوجود الرمزي المكثف ، وجدنا الأفق الفلسفي للكثافة اللغوية الشاعرة. وهذه الكثافة دلالة أحادية تُثبت نفسها عن طريق شرعية وجود المكوّنات القصائدية ، وإعادة هيكلة التعابير الرمزية ، والتنقيب المتواصل في منجم اللغة .

وإذا أردنا تكوين صورة دقيقة عن المسار الشعري في الحياة الواقعية ، فلا بُد من استحضار القاعدتين الصالحتين لكل زمان ومكان: القاعدة الأولى _ ليس بالضرورة أن يكون واضع النظرية أفضل من يطبقها ، والقاعدة الثانية _ ليس بالضرورة أن يكون الزارع هو الحاصد .

وهذا الرّحم الفكري يحقن القصيدة بعنصر المفاجأة وثقافة المواجهة ، ويحمل القصيدة مسؤولية قيادة الأنساق الفكرية في المجتمع . وهذا أمر في غاية الخطورة ، لأن أنساق المجتمع تزداد تعقيداً وتوحشاً . والمفروض أن تقود القصيدة المجتمع نحو الحياة الفضلى الخالية من التعقيد . ومن أجل تحقيق هذه الحلم ، ينبغي منح الجسد القصائدي بُعداً تنويرياً حاسماً وصادماً في آن معاً ، مع ضرورة الانتباه إلى أن ولادة القصيدة ليست عملية عفوية ، بل هي مجموعة أطوار بنائية ناشئة من قوة العلاقة الذهنية مع العناصر المادية . وكلما ازدادت هذه العلاقة رُسوخاً ، تجذّرت في الرّوح الشعريّة ثنائية (الرؤية / التجربة) . والقصيدة _ أولاً وأخيراً _ هي رؤية متجددة وتجريب متواصل . وهذا يُحوّل الأبجدية اللغوية إلى أسلوب حياة كاسر للتنميط ، ويُحرّر الرّوح الإنسانية من القلب الطّيني المادي. وكلّ رؤية شعرية هي نظام لغوي متكامل، يدرس الوقائع الإنسانية باعتبارها قصائد لم تُكتب بعد ، ووظيفته الرؤية الشعريّة هي كتابة هذه القصائد ، لتصير اللغة كائناً حياً يعيش معنا نحاوره ويُحاورنا . ومن أجل تكريس هذه المعطيات واقعاً ملموساً ، لا بُد من ابتكار منهج لغوي مصبوغ بالشّعريّة والشاعرية ، وبناء تصوّر ثقافي ديناميكي ومتكامل . وهذا لا يتأتّى إلا من خلال تشريح مُكوّنات الجنين الشعري ، وتركيب حضارة لغوية جديدة تقوم على النص ، ولا تقوم على تصنيف الفرد (اتخاذه صنماً) ، أو توثيق الجماعة (اتخاذاها وثناً) .

إن الإنسان الذي في داخل الإنسان قد قُتل عن سبق الإصرار والترصد ، ومفهوم الوطن قد قَتَلَهُ سِماسرة الوحدة الوطنية . وبالتالي فإن القصيدة وَجَدَتْ أمامها عالماً من الموتى ، وعليها أن تُحييهم جميعاً عن طريق الصَّعْق بكهرباء الكلمة . والصَّعْقُ الذي نريده هو الذي يُعِش ولا يقتل . وقُدْرَةُ القصيدة على الصَّعْق هي التي تُحدِّد ماهية الصَّدَام في النَّص ، وهذا ليس غريباً . فالقصيدة _ أولاً وأخيراً _ هي كَيُنُونَةُ الصَّدَام ، وَفاعليَّةُ التحدي .

وفي هذا السِّياق تبرز أَرْبَعُ حقائق لا مفرَّ منها : الحقيقة الأولى _ القصيدة لا تتدرَّج في تناول الفكرة، لأن النَّصَّ الشَّعْرِيَّ كَوْنٌ زمكاني عابر للتجسس الزمني ، وعابر لتضاريس المكان . وكلُّ أجزاء القصيدة (البداية ، الوسط ، النهاية) قوية ومتماسكة، وتمتلك الطاقة نَفْسَهَا . فالتدرُّج صِفَةٌ تقتل رُوحَ القصيدة ، وتُحوِّلُها إلى موعظة . والحقيقة الثانية _ القصيدة لا تنازل أبداً ، فهي تُقاتِلُ على كُلِّ الجبهات دون أن يُصيها الإعياء . إنها لا تتعب ولا ترتاح بسبب طاقتها الرمزية المستمدة من العقل الجمعي للطبيعة الكونية . والحقيقة الثالثة _ وظيفة الصُّور الفنية (العمود الفقري للنَّصَّ الشَّعْرِيَّ) هي حَفْنُ الفرد بالإنسانية التنويرية ذات الصَّبْغَةِ الثَّورِيَّة لِيُظَلَّ عَصِيّاً على التدجين ، وسَدّاً منيعاً أمام مُحاولات قتل الإنسان في الإنسان . والحقيقة الرابعة _ الأساس الفكري للقصيدة قائم على فكرة إحدَث ثَوْرَةٍ في الذوات الإنسانية الميته (الثورة الداخلية) ، ثُمَّ إحدَث ثَوْرَةٍ جَذْرِيَّة في العالم كُلِّهِ (الثورة الخارجية) . ولا توجد ثَوْرَةٌ تنفصل عن ثَوْرَةٍ أُخرى . وبالتأكيد ، فهذه الأفكار مُجتمعة هي ما تُميِّز المجتمع الشَّعْرِيَّ عن المجتمع البشري .

والقصيدة _ بِوصفها عَقْلاً جَمْعِيّاً _ ترفض الوقوف على الحياد والغرق في التجريد الفَج . والمسؤولية الأدبية التي تضطلع بها الكلمة (الصَّدْمَةُ الكهربائية) ، تُجبر الأبديات الرمزية على الخروج من دائرة الاستقطاب الوجداني السلبي ، والدخول في مشكلات الحضارة الإنسانية ، وأزمات المجتمع ، وقلق الفرد . والنَّصُّ الشَّعْرِيَّ _ بِوصفه فعلاً وفاعلياً _ يَضْبِطُ العناصر المتغيرة في المجتمع ، من أجل تعزيز نفوذ الكلمة ، حتى تُصير امتداداً لوجود الإنسان ، وتعبيراً فلسفياً عن الزمان والمكان ، وتليخيصاً لمشاعر الحضارة أفقياً وعمودياً .

ومهما يكن من أمر ، فإن اللغة الشَّعْرِيَّة التي نكتبها وتكتبنا ، وتنتزع شرعية الاستمرارية، هي الرؤية القادرة على التجرد والتجريد، ووَضْعُ الكثافة اللغوية في أقاصي المعاني الاجتماعية، وعندئذٍ تُصبح القصيدة سياسةً كُونية قائمة بذاتها ، وشاملة لكل مناحي الحياة . الأمر الذي يُعيد الفرد إلى حالة الوعي الاجتماعي ، ويُعيد المجتمع إلى حالة الوعي الكوني .

إن المجتمع الإنساني تَمَّ حَقْنُهُ بالمخدرات السياسية التي تُروِّجها الإفراغاتُ الأسطورية التي تُصنَّف كَمُسَلِّمات. وهذا التخديرُ الممنهجُ أفقدَ الفردَ معنى الانتماء للمنظومة الإنسانية . لذلك ، فإن الفرد في عَصْرنا لا يعيش في أَمْنٍ ورغد ، بل يعيش في سُبَاتٍ عميق ، وينبغي صَعْقُهُ كي يستيقظ. وهذه المهمةُ (الصعق) تضطلع بها القصيدة بكل ثقة بسبب امتلاكها الفلسفة الكاشفة لِلْمَابَعْد ، وَالْمَأَوْرَاء .

وتقنياتُ القصيدة اللغوية التي ننشدها ، تتعامل مع كَيْنُونَةِ الفرد على أنه انقلاب متجسّد دائم الحركة والانتشار. وهكذا، يتم وَضْعُ الفرد في حالة مُوَاجَهَةٍ شاملة مع كافة المتغيّرات السلبية . والمشكلةُ التي تُواجهُ النسقَ الشعري الذي يُشرِّح المجتمعَ البشري ، هي سيطرةُ الفوضى الخلاقية على القيم البشرية السلوكية . فصار للمركب أكثر من دَفَّة ، وأكثر من رُبَّان . لذلك ضاعت بُوصلة المجتمع (الشعري / الاجتماعي) . وفي هذا المناخ المؤبوء ، لن تكون مهمةُ القصيدة سهلةً في إعادة بَلُورَةِ الوعي العام ، وتجذيرِ القيمة الإنسانية للمعنى . لكنَّ القصيدة لا تَمْلِكُ إلا القتال حتى الرمق الأخير ، وبذل أقصى جهد ممكن من أجل إقحام المجتمع البشري في مرحلة التنوير ، وإحياء الفرد عن طريق صَعْقِهِ بكهرباء الكلمة لِيُظَلَّ مُتَيَقِّظاً، ومُدْرِكاً لأبعادِ كيانه ، وأبعادِ العناصر المحيطة به . ولا بُدَّ من طَرَحِ الأسئلة المصيرية على المجتمع البشري المذبوح ، من أجل إحيائه، ووَضْعِهِ أمام مسؤولياته الجسيمة ، والتي تتمثل في تحرير الأبدية من الأمراض الاجتماعية ، وتحرير النَّص من أيديولوجيات القهر ، وتحرير الإنسان من عبادة الإنسان ، وتحرير الجسد من الكبت . وهذه العناوين الرئيسية ترمي إلى زراعة الإنسان في الحياة التي لم يَعِشْهَا .

وإذا وصلَ الإنسانُ إلى معنى الحياة ، فإنه سيكتشف حُرِيَّتَهُ الجزئيةَ ضمن حرية المجتمع الكلية ، وعندئذٍ ، يُصبح الجزءُ نظاماً كُلياً ، وتتكسّر ماهيةُ الحرية كثقافةٍ شعيرية تُنتَزَع ولا تُمنَح ، لأن الحرية تُنتَزَع ولا تُمنَح ، والشعرُ هو قلب الحرية النابض . وبالتالي ، فالذي يستجدي الحرية يكون قد أضاع وقته بلا طائل. فالمطلوبُ هو تنوير المجتمع، وصَبْغُ الأبديات الشعيرية بالصَّبْغة التنويرية ، من أجل نشر ثقافة الحرب ضد الخرافات الاجتماعية .

إن الشعر هو الأساس الفلسفي لمفهوم الخلافة الذاتية ، خِلافة الإنسان لذاته . أي إنه يَرِثُهَا بعد موتها ليجد الحياة الحقيقية . وهكذا ، فإن الإنسان يعيش في القصيدة ، ويعيش مع القصيدة ، من أجل تأسيس عالم جديد يُزاوج بين كافة العناصر المعرفية ، ويُكرِّس قِيَمَ الاندلاع الوجداني

في النَّص، بُغية إحداث ثَوْرَة في فهم المسار الحضاري، والحياة الفكرية، والهوية العامة لوجود الإنسان.

وفي ظل هذه المعطيات، تتجذر حتمية تلاقح مُكوّنات الحياة الواقعية، وعناصر الدّهن البشري، ممّا يؤدي إلى إخراج الإنسان من دائرة الفكر المشوّش ، وإدخاله في الوجود الحقيقي للحلم الجمعي . كما تتجذر فكرة الانعتاق، انعتاق الشاعر من سَطوة قصيدته، وانعتاق القصيدة من ظلال الشاعر. وبالتالي ، تصل العملية الشعريّة الإبداعية إلى مرحلة الانعتاق الكلّي ، حيث تُحقّق الكلمة بتفاصيل الأبداعية ، وتحرر اللغة من وطأة اللحظة الراهنة ، وسكونية الوقائع اللغوية المتكرّرة بلا رابط .

وعلى الرغم من وجود طفرات غير مُتوقّعة في الفضاء الشعري ، إلا أن القصيدة لا تترك شيئاً للصّدفة ، ولا تنتظر أحداً . فالقصيدة هي حركة التغير المعرفية التي تفحص الجذور الاجتماعية للبناء الفكري، وتزّرع قواعد التأصيل الفلسفي في أنساق النص، وتُجذّر الآليات العقلانية التي تدرس تطوّر مجتمع القصيدة ، ومسار القفزات الإنسانية النوعية . وعندئذ ، تندمج الأسئلة الثقافية مع الوظيفة الاجتماعية للقصيدة ، فتبرز نظريات تأويلية جديدة نابعة من هوية ذاكرة العناصر المنبوذة في زوايا اللغة السحيقة .

إن القصيدة الحقيقية نسقٌ فكري مُتوغّل في قضايا المجتمع البشري حتى النّخاع . وهذا الأمر مرجعه إلى كَوْن القصيدة بُنيةً اجتماعية ترفض ثقافة الحِياد بشكل قاطع ، فالحياد هو الهروب من اتخاذ القرارات المصيرية، ورفض تحمّل المسؤولية. كما أن ثقافة الحِياد ثقافة زائفة لأنها قائمة على مدلول أحادي ناقص. وبالتالي ، فالقصيدة الواقفة على الحِياد هي نصٌ ميّتٌ محجوبٌ عن تفاصيل التكيف الاجتماعي مع الثورة ، وغارقٌ في الانهيارات المعرفية. ولا يمكن القبول بالانهيارات الجزئية والكلية في الجسد الشعري . وكذلك ، لا يمكن القبول بالقصيدة المحايدة ، لأنها فكرةٌ وُلدت في الهامش وماتت في الهامش .

والانهيارُ في جسد القصيدة له نتائج كارثية على الوجود البشري . فالشّعْر هو خط الدفاع الأول عن الرّوح الإنسانية ومعنى الحضارة . وإذا حصل انهيار في النسق اللغوي ذي الطبيعة الوجدانية ، فإن الإنسان سيَفْشل في معرفة ذاته والعناصر المحيطة بها ، والحضارة ستُكرّر أخطاءها ، وتُلدّغ من نفس الجُحر مرّاتٍ عديدة . والقصيدة هي طوق النجاة في هذا الرّخم

المشوّش ، فهي البُنيةُ المعرفية المتماسكة التي تبني مناطق التماس بين المجاز اللغوي وثقافة المجتمع بشكل متوازن .

وبشكل عام ، إن القصيدة تحرق الحَيَاة ، وتشارك في إرشاد الإنسان إلى إنسانيته ، وتوجيه الكائن إلى كيانه. وهكذا، فإن الحياة ستدبُّ في جسد القصيدة وجسد المجتمع معاً ، فتنقل المشاعر الإنسانية من طُور الكُتْب إلى مرحلة التعبير الاجتماعي النابع من مُكوّنات الهوية الجامعة

والقصيدة هي البيئة الوجدانية الحاملة، حيث تتلاقى الذات البشرية مع الذات اللغوية، ويصبح الإنسان واللغة خَطَّين مُتَوَازِيَيْن ومُتَقَاطِعَيْن في آنٍ معاً ، وتتكسر اللغة كفضاء مُعَادِل للكيان البشري. وهنا، تتعادل شرعية الوجود الإنساني مع شرعية القصيدة. وهذه الأفكار مُجتمعة تُشكّل الأساسَ الفلسفي للفضاء الاجتماعي والأبجدية الشعريّة . وهذا الحلم الواقعي قادر على مخاطبة الرُّوح والمادة ، والتأليف بين التراكيب الاجتماعية المتنافرة، من أجل إقامة مجتمع إنساني خالٍ من التُّوحش . فالتوحش هو مقبرة التاريخ الإنساني ، وضريح ذاكرة الحلم .

وقوة القصيدة نابعة من عملية الانتخاب الطبيعي ، حيث إن الأبجدية تُعَرِّب نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا ، وتقوم العناصر الرمزية في النص بتنقية ذاتها بذاتها ، فتكسر الصور الفنية القوية ، وتتلاشى الصور الضعيفة . وهكذا تصبح القصيدة سُلْطَةً اجتماعية رمزية ، وثقافة قائمة بذاتها تحل محل ثقافة السُلْطَات القمعية. والنواة التكوينية للقصيدة هي مجتمع التشظي. إذ إن كيانات الذاكرة الإنسانية تشظى إلى سياساتٍ شعرية، وامتداداتٍ للنص، فتحدث انفجارات خيالية حاملة، ووظيفتها القصيدة تتجلى في السيطرة على هذه الانفجارات، وتقنينها. فالقصيدة _ أولاً وأخيراً _ هي قانون الخيال ، وشريعة الحياة الاجتماعية . وشيئاً فشيئاً ، تُحال العناصر اللغوية ذات الدلالة الاجتماعية إلى فضاءات وجدانية، وتصبح ذاكرة الوجدان الشعري تياراً فلسفياً، وتتحول إفرازات المادة إلى كتل عاطفية شعرية حاضنة للانهايار الإنساني كخطوة تمهيدية لإعادة البناء. وهذا التجسيد الفكري يرمي إلى تحرير الإنسان من الإنسان ، وتحرير المجتمع من الأساطير ، وتحرير الذاكرة من المسلمات الافتراضية. والنص الشعري المولود في هذه الأجواء الحيوية، سوف يكشف أعمق اللغة الرمزية ، ويَزْرَع الثورَة في الأنساق الشعرية التي تُقدّم مشروع الخلاص الفلسفي للكائن الحي . ومع هذا ، فليست الفلسفة الطالعة من بيئة القصيدة هي التي تصنع دلالة الألفاظ ، بل الذي يصنعها هو الخطاب الاجتماعي المبني على الفكر الشعري ، أي : الخطاب الاجتماعي الذي

يُنْقَب في اللغة الرمزية الموازية للحياة، والمعادلة للإنسان . وهكذا ، يُوضَع النَّصُّ في أقصى مداه ، وتُوضَع الكلمة في أقصى مدى الأبجدية . والهدف من هذه العملية التكاملية هو الوصول إلى أقاصي اللغة بُغية اكتشاف ما لم يُكْتَشَفْ. وهذه الدَّيْمومَةُ الحيوية في عملية الاكتشاف المتواصل ، سَوْفَ تَفَكُّ شَيْفَرَةَ المعاني الرمزية في المجتمع اللغوي ، وتُحَلِّلُ إشاراتِ المجتمع البشري ، وتضعُ الرمزَ الغامض في سياق الوضوح الاجتماعي ، فَتَحْدُثُ الإسقاطاتُ اللغوية على الواقع ، سواءً كان واقعاً خيالياً أحادياً أم واقعاً مادياً مُركَّباً .

وعلى الرغم من صعوبة التوفيق بين فضاءات الرمزية الشعريّة ، ودلالاتِ البنية الاجتماعية المادية ، إلا أن كائنات القصيدة قادرة على إيجاد طريقها في رُوح المجتمع الإنساني . وكلُّ عناصر القصيدة سَوْفَ تَخْرُجُ إلى حَيِّزِ العمل الميداني . وفي هذا الطُّور ، تَعْدُو الرموزُ الشعريّة أنويةً اجتماعية متكاملة. وهذه الثقافة الجزئية ستصبح ثقافة مجتمع عامة . وعندئذٍ ، تُولَدُ ماهيات جديدة في رُوح العلاقة بين المجتمع القصائدي والمجتمع الإنساني ، وهذه الماهيات تقوم على أربعة أُسس . الأساس الأول: ترجمة المعاني الاجتماعية إلى صُور فنية تأسيسية ماورائية . الأساس الثاني : اكتشاف أعماق اللغة. الأساس الثالث: التنقيب في أبجديات السياسة الثقافية . الأساس الرابع : القيام بحفريات في الدلالات المجتمعية التي لا تقيم قطيعة مع الإنسان ، وإنما تتواصل معه وتعجنه بالأفكار الرمزية الواعية .

والحقائقُ الرمزية في جسد القصيدة ، لا تنمو إلا في مناخ اجتماعي مصبوغ بالمعرفة . فالمعرفةُ هي الحاضنة لاشتعالِ اللغة ، ومفاصل الحياة الواقعية ، وتفصيل المنظور الشعري المتفاعل مع الأنا الشاعرة . وكلما سَيطَرَ غُفْوانُ النَّصِّ على غُفْوانِ المجتمع ، اقترب السلوكُ الإنساني من السلوك الشعري ، وَتَمَّ الانتقالُ _ بكل سلاسة _ من تعريف اللغة النظري إلى النظريات الرمزية الواقعية التي تقذف الإنسان في قلب القصيدة ، وتقذف القصيدة في رُوح الإنسان ، بلا مُقَدِّمات .

إن ماهية الرمزِ وقتٌ عابر للأمكنة ، يحمل في طياته صورةَ المجتمع المتخيّل ، ويمنع تحوّل اللغة إلى منقَى. وبالتالي، لا مجال لاغتراب اللغة في كيان الشاعر، ولا معنى لغربة الشاعر في جسد اللغة. وهذه المصالحة بين الشاعر واللغة هي القاعدة الأساسية التي يُبنى عليها الزمان والمكان ، اللذان يُساهمان في تنقية النَّصِّ من التشطي والاعتراب ، واكتشاف اللغة الحقيقية لا الموازية ، وإخراج الرؤية الشعريّة من الذهنية إلى التنظير الفلسفي الملموس . وهكذا ، تنفصل

السلوكيات الإنسانية عن ثقافة السلطات القمعية ، سواءً كانت سياسية أم اجتماعية . وتصبح هذه السلوكيات قصيدةً مُكتملة الأركان ، وتلتقي الدلالات الفكرية مع عناصر البنية المجتمعية ، من أجل تكوين عالم أقل توحشاً وأكثر إنسانيةً، وتكوين مجتمع متمرد على قوانين القهر الاجتماعي، وعيشة الشطط الطبقي. وهنا تبرز أهمية أن يكون الشاعر عالماً بأحوال الناس، وخبيراً بقضايا المجتمع ، كي يستطيع التعبير عن الأحلام الضائعة ، والأحلام المنشودة .

ويجب القول إن الشعر نظام اجتماعي متكامل ، يقوم على حرارة التجربة الوجدانية المنطقية ، وليس فورة غضب ، أو نزوة عابرة ، أو فزعة عشوائية . وهذا النظام الاجتماعي يرسم الأطر الوظيفية للألفاظ والمعاني ، ويحدد قيمة الفرد داخل الجماعة ، وقيمة الجماعة داخل المستويات الشعورية للفرد . وهذا يعني تحوّل النظام القصائدي إلى أبجدية تعني بالتفاصيل الإنسانية ، وتجمع أجزاء المنظور الوجداني. والجدير بالذكر أن العقبة الأساسية في طريق التحرر القصائدي هي وجود مجتمعات مُحاصرة بالأنظمة السلطوية ، ومحصورة في الأنظمة الاستهلاكية . لذلك ، ينبغي أن تنكسر البنية التنويرية في الذهن الشعري، فالواقع المادي انعكاس للقيمة الذهنية. وبعبارة أخرى ، إن الذهنية القصائدية هي التي تُحدد طبيعة السلوك الإنساني ومسار المجتمع. ولكي نُحدث انقلاباً اجتماعياً جذرياً في المجتمع المادي المتآكل ، يجب توليد قصيدة جامعة لأحلام الإنسان ، وقادرة على غزلة تناقضات المجتمع . وهكذا ، تكون القصيدة هي المختبر الحقيقي للتفاعلات الاجتماعية قبل زرعها في المجتمع الغارق في الاستهلاكية ، والذي يدور حول رغيف الخبز ، كما يدور الإلكترون حول نواة الذرة .

وفي هذا السياق ، تبرز احتمالية رفض المجتمع الواقعي للتغيرات القصائدية ، فالناس لا يتقبلون _ بسهولة _ فكرة تغيير سلوكياتهم . فالناس أعداء ما يجهلون ، والحكم على الشيء فرعٌ عن تصوّره . وهذا يقودنا إلى أمر غاية في الأهمية ، وهو ضرورة إيصال المعنى الرمزي الوجداني إلى المتلقّي بصورة واضحة لا لبس فيها ، ولا تحتوي على تأويلات مُتشعبة خارجة عن السيطرة ، لكي يُقدر المتلقّي على بناء حكم صحيح نابع من تصوّر صحيح ، وهذا يدفعه إلى تقبل فكرة التغيير التي فيها مصلحة الفرد والجماعة . وقيمة التغيير _ بحد ذاتها _ هي قيمة مُثيرة للجدل ، لأن الثقافة المجتمعية العرفية تنظر إلى الشيء الجديد بعين الريبة والشك . كما أن تأسيس الذهنية المضادة لسياسات القهر والكبت، سوف يصطدم بالعناصر البشرية التي اعتادت على التقليد الأعمى ، والتي تخاف من تغيير أفكارها خوفاً من فقدان سلطتها، أو نفوذها ، أو مكاسبها

الاجتماعية . وهذا الفكر الانتكاسي يؤدي _ بالضرورة _ إلى انتكاسة جماعية في مستويات الوعي المجتمعي ، ويحوّل الفرضيات العنثية إلى مُسلّمات غير قابلة للنقاش . وإذا أردنا تفادي هذا الوضع الكارثي ، فلا بُد من إشراك الناس _ كُلّ الناس _ في صياغة النصّ الشعري ، وبالتالي يصير المجتمع بأكمله هو الشاعر الذي يكتب القصيدة ، وتصبح الأبجدية الرمزية الشعرية من إنتاج الجميع ، وليس من إنتاج فرد عائش في بُرجه العاجي ، ويُنظر في تفاصيل المجتمع المسحوق ، والعالم الداخلي للإنسان الضائع . وإذا ترسّخت هذه المعاني ، فإن القصيدة ستغدو نصّاً اجتماعياً ذا مضمون راقٍ ، ومستوى فنيّ عالٍ .

إن الهدف الأساسي من ثورية النصّ الشعري هو إنتاج قيم سلوكية رمزية نابعة من قوة النقد الذاتي الذي يوصل الخُلم الشعري إلى الجماهير لا التُخبة فقط . ومع أن ماهية الشعر مرتبطة بشكل وثيق بالتُخبة المثقفة ، إلا أن إمكانية وصول الشعر إلى الجماهير واردة . وهذا الخُلم الصعب يتطلب إعادة النظر في طبيعة البناء الاجتماعي ، وعوالم التدفق اللغوي . إذن ، نحن أمام حركة تصحيحية تعيد الجمهور إلى الشعر ، وتعيد الشعر إلى الجمهور ، ليس من أجل بُعْ بُع نُسخ أكثر من المجموعات الشعرية ، وجني أرباح طائلة ، وإنما من أجل بناء المجتمع بشكل رمزي مُوازٍ للمادة الواقعية ، وهكذا يتحقق التوازن بكل أطرافه ، ويصير المجتمع ثورياً ، أقل توحشاً ، وأكثر إنسانية .

والمجتمع الوثائق بنفسه وتاريخه ، يمزج أنساقه الحياتية بالمستويات الدلالية للقصدنة (13) . وكلّ العناصر الاجتماعية السائرة في زمن القصيدة ، إنما هي أبجديات للإحاطة بالبوّرة المركزية داخل اللغة . شيئاً فشيئاً ، تصبح اللغة مشروعاً تنموياً لا يرمي إلى التعبير عن الأشياء فحسب ، بل أيضاً ، الدخول إلى حقيقة القصيدة التي تُمثّل حقيقة المجتمع الإنساني .

وفي هذا السياق ، تبرز أهمية المزاوجة بين طبيعة التعقيدات الاجتماعية ، ومركزية القصيدة التي تُبدّل جلدّها لكي تكسر الروتين الوظيفي ، وتقضي على الملل اللغوي . وتبدّل جلد القصيدة يعني تبديل الآليات وزوايا الرؤية ، ولا يعني تبديل المواقف المصيرية ، أو رُكوب الموجة ، أو نقل

(١٣) القصدنة: تطويع الصيغ الرمزية للمجتمع بشكل قصائدي ، حيث يتم فرض القصيدة فرضاً على الفرد ، من أجل صقّه ، ثم احتضانه ، ثم إطلاقه نحو تراكيب مجتمعية تمتاز بالرقّة بلا ضَعْف ، وتحلّي بالرُقّي بلا تكبّر .

البندقية من كتف إلى كتف . وهكذا ، تستقر وحدة الشعور المعرفي الذي يُشكّل المركبات الثقافية في المجتمع الداخلي للشاعر الرائي .

وكلُّ نواة قصائدية تتكوّن من عُصْرَيْن : النَّصُّ الْمُخْتَبَرُ ، والنَّصُّ الْمُخْتَبَرُ . وضمن هذه الشائبة القطبية تتحرك الشحنات العاطفية من أجل توليد خطاب شعري قادر على احتضان التداخيات الشعورية ، واحتواء الإحباطات الحياتية ، ومعالجة الاستنزاف العاطفي . وهنا ، تظهر أهمية تخلص القصيدة من الهوامش اللغوية الزائدة عن حاجة الثورة الزمكانية الواقعية ، وتبرز ضرورة تنقية الأبدية الشعرية من الخرافات الاجتماعية التي تُقدّمها السلطات القمعية على أنها مُسلّمات . والمشكلة الرئيسية في العوالم الإبداعية هي أن الأنساق الثقافية ما زالت تحمل المخلفات الفكرية للأنظمة القمعية ، والأيديولوجيات المنهارة في الشرق والغرب . لذلك ، صار صانع القصيدة _ في كثير من الأحيان _ بوقاً إعلامياً ، وجزءاً من قطع المرتقة . وهذا يتعارض بالكلية مع طبيعة الشاعر الثورية ، وطبيعة القصيدة الحاملة للمشروع الإنساني ، والتراث الأخلاقي للتاريخ والحضارة .

والقصيدة كَيُونَةٌ حَيَّةٌ ، تقضي على التصورات الاجتماعية الوهمية ، وتحقن أحلام المجتمع بصرخة اللغة اللانهائية . وهذه الأطر المعرفية تُشكّل فلسفة الحلم ، الحلم الشعري ، والحلم الإنساني . والجدير بالذكر أن العناصر الاجتماعية في الحلم القصائدي المحقون بالصّور الفنية الرمزية هي نظام متكامل ، يستقطب حقائق الشعور الوجداني العام ، ويمنع القصيدة من التحول إلى وثن غير قابل للنقد أو النقص . والمشروع الشعري أبعد ما يكون عن توثيق الذات الشاعرة أو تصنيف القصيدة .

إن انتزاع القصيدة من وجوه البُسطاء والمهمشين ، سيؤرّخ رمزياً للحياة الواقعية . وهذا يقود أبجديات الرؤية الشاعرة إلى التفتيش عن عوالم ماضوية في الحاضر المعاش ، وعناصر مستقبلية في الحاضر المعاش . وهكذا يصير الحاضر القصائدي تاريخاً كاملاً من الماضي والحاضر والمستقبل ، وتفتح الأزمنة على بعضها البعض ، وعندئذ يصبح الزمان والمكان شيئاً واحداً ، وتدخل القصيدة في عوالم الإنسان وفق سياق معرفي مُحَدّد المسار والهدف ، فيتمّ تجنّب فوضوية الأداء العاطفي المعرض للارتباك ، والاستسلام لتداعيات الأنساق اللغوية الكمية المصبوغة بالتقنية الشعرية .

والقصيدة الناجحة هي التي تُقنع المتلقّي بأن الشّعْر ليس ترفاً، أو تحفةً فنيةً للزينة، أو هَلُوسات عائشة في عالم الكوايس والشعوذة . وعندما يقتنع المتلقّي بأن القصيدة جزء لا يتجزأ من شرعية وجوده الروحي والمادي ، سوف يحتضنها بكل جوارحه ، وعندئذ يصبح المجتمع الإنساني والمجتمع الشعري كياناً واحداً غير قابل للانفصال أو التشطي .

والمؤسف أن المجتمع الإنساني كيانات متخلفة مُوغلة في العبثية والاستهلاكية . ولن يتقدم هذا المجتمع إلا إذا انطلق من ثلاث نظريات ثورية : النظرية الأولى _ مَوْت الطاغية ذهنياً وواقعياً . والثانية _ مَوْت الوطن فلسفياً ، والثالثة _ مَوْت الشعب روحياً .

أما مَوْت الطاغية واقعياً ومعنوياً فهو الخطوة الأولى في التحرر من مخلفات النظام السياسي القمعي الذي يفرض أجندته السلطوية القامعة على المحيطات الفكرية والثقافية في النسغ المجتمعي .

أما مَوْت الوطن فلسفياً فيُعَدُّ إشكالية حقيقية ، لأن الكثيرين سوف يتبادر إلى ذهنهم المعاني الجميلة عن حب الوطن والدفاع عنه . وهذا المعنى الرائع لا يملك أن يعارضه أحد ، لكن الحديث

هنا عن مفهوم " مَوْت الوطن " بشكل فلسفي⁽¹⁴⁾.

وأما مَوْت الشعب روحياً ، فهو يصف حالة الموات العامة التي يحيها الشعب . فالنظام القمعي قد دَجَّن الناس ، فصاروا مَوْتى متحركين . صحيح أن هناك مَنْ يُقاومون الموت المجازي

(١٤) الوطن الميَّت هو المؤسسات غير الشرعية الحاكمة على جماجم الناس ، والطغاة الذين يسرقون الشعب ، والحكومات التي تفرض ضرائب سرقة الإنسان ، وتقوم بتزوير الانتخابات ، وصناعة مجتمع الكراهية العنصري المتهايك ، والدستور الموضوع لترسيخ الدولة المخابراتية التي تقتل القتل وتمشي في جنازته ، والأغنياء الذين يسرقون الفقراء ، ومؤسسات الانحلال الأخلاقي المتفشية في أوصال شعب مقموع سياسياً ومكبوت جنسياً ، والشعب المسحوق المسبَّح بحمد الحاكم والمقدَّس له . فالوطن على كوكب الأرض ضمن هذا المفهوم الأيديولوجي المقيت وطن ميَّت ، مات منذ زمن بعيد ، ولم يجد من يدفنه . ووظيفة القصيدة أن تدفنه ، وتقيم وطناً جديداً يمتاز بالنقاء ، والكرامة الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية .

الذي تفرضه السُّلطات القمعية. ولكنهم أشخاص قليلون، ومنبوذون ، ومُبعدون عن دوائر صنع القرار، والنادر لا حُكْم له .

إذن ، كل قصيدة لها ثلاث نقاط انطلاق : موت الطاغية ، وموت الوطن ، وموت الشعب . وهذه ليست نظرة سُدّاوية، وإنما هي تشخيص للوباء الذي يَجتاح المجتمعَ الإنساني . وعلى الرغم من صُعوبة الموقف ، إلا أن القصيدة لن ترفع الراية البيضاء ، ولن تترك الأمور تسير بشكل أعمى. وسوف تُقاتل حتى اللحظة الأخيرة لتحرير كوكب الأرض فلسفياً ومادياً . وفلسفة الصِّراع هي فلسفة القصيدة في كُل زمان ومكان ، والقصيدة هي التي تختار الزمانَ والمكانَ المناسبين .

وينبغي إحياء العناصر المكوّنة للمجتمع ، وإعادة تركيب المجتمع وروابطه . واستناداً إلى هذا المفهوم الاجتماعي الجديد يتمُّ تأسيس شكل جديد لِثُورية النظام الشّعري ، وتغدو المجتمعات الإنسانية نظاماً لغوياً ثُورياً مُتداخلاً مع أحلام الفرد والجماعة . ومع أن المفاهيم الثورية الجديدة سوف تُجابه بضراوة ، إلا أن القصيدة قادرة على وضع الإنسان في أقصى مداه من أجل بناء الإنسان من جديد ، وإعادة هندسة المنظور الاجتماعي ، وبرمجة العناصر الاجتماعية في جسد المجتمع المتناسك لا المتناحر . وهذه الماهيات المعرفية تُعيد اكتشافَ فيزياء اللغة وكيمياء الكلام ، وتُعمل على التوفيق بين أقطاب المعنى المتنافرة ، وُصولاً إلى ثنائية قُطبية لغوية تعتمد على محاور

الكلمة للكلمة ، ومُصافحة الأبجدية للأبجدية . وهكذا نخرج من جدلية الإلغاء والطمس والنقض

والنصُّ الشّعري المنشود ليس تراتبية كلماتية جَوْفاء، وإنما هو منظومة متجددة تُساهم في تكوين فهم أفضل للتعقيدات الاجتماعية والعوالم الثقافية، وتعجنُّ الواقعَ المادي الملموس بالمعطيات الرمزية الماورائية ، وتُكرّس منهجية التجريب المتواصل في جسد اللغة وروحها . ممّا يؤدي إلى اكتشاف منطقية اللغة ، والوقوف على تفاصيل دلالاتها المصبوغة بالطابع النَّفسي الاجتماعي . وبالتالي ، يُصبح الواقعُ _ الذي رَمَمَتْهُ اللغة _ هو العمود الفقري للقصيدة .

*

٦

صياغة القوة الفلسفية للقصيدة

إن تحليل النَّصِّ تحليلاً رمزياً يُحافظ على الترابط الاجتماعي في منظومة الألفاظ والمعاني ، هو الوسيلة لتقليص نفوذ التداخيات العاطفية غير المحسوبة . وهكذا ، تتمُّ المحافظة على القوة الفلسفية السارية في الجسد القصائدي المجتمعي ، ويتمُّ تكريس قوة الفعل الشعري المنبعث من خصائص النَّصِّ، تمهيداً لبناء نظريات لغوية أكثر تكيفاً مع الأنا المركزية، والمجتمع الحي الفاعل لا المفعول به.

وكلُّ النظريات اللغوية عبارة عن حدود اجتماعية لواقع افتراضي يَظهر مع ظُهور اللفظة الشاعرة ويَغيب مع غيابها . ومن هنا ، تنبع أهمية إطالة عُمر اللفظة الشاعرة لكي تُذيب الحدود الجغرافية بين الشعر والنثر ، بين فيزياء اللغة وكيمياء العاطفة ، بين المبادئ الإستراتيجية للنظم

السياسية والقواعد الكلية للأدب الرمزي الثائر . وبعد عملية إذابة الفروقات، سيُدوب الشاعرُ الرائي في نصوصه ، ويمتزج بعناصر الطبيعة . وهذا إنجاز بحد ذاته . إذ إن الشاعرَ الرائي قد خَرَجَ من عزلته ، ورفضَ احتلالَ الرؤية له، ونزلَ من بُرجه العاجي، كي يَختلطَ بخصائص الذاكرة الوجودية الرمزية التي تعتبر المجتمعَ البشري خيالاتٍ تمشي في حُقول اللغة .

إن القوة الفلسفية للقصيدة تنطلق من الموت . فالموتُ هو حَجَر الزاوية في البناء الشعري . وبما أن الموت هو نهاية المجتمع البشري الحتمية ، فيجبُ إخراج شرعية الحياة من قلب الموت (المستقبل الذي لا يمكن الهروب منه) . والمستقبلُ الحقيقي صار وراء الإنسان وليس أمامه . وفي ظل هذه المعطيات ، تصبح عملية الهروب إلى النص الشعري خلاصاً كَوْنياً ، وحياةً لغويةً مستمرة ومُوازاة للموت المعنوي والمادي . وهذا لا يعني أن القصيدة ستنتصر على الموت ، فالموتُ هو المنتصر في البداية والنهاية . لكنَّ هذه العملية تعني توليدَ أنساق فلسفية جديدة لا تستسلم ، وتشكيلَ أبعاد اجتماعية تُقاتل حتى الرمح الأخير . والهدفُ من هذه الرؤية الشاملة وَضْعُ القصيدة في أقصى مدى مشاعر الإنسان، ووضْعُ الإنسان في فَوْهَةِ القصيدة، من أجل صناعة تناغم بين الإنسان وإنسانيته ، وبين القصيدة وذاكرتها . وهذا بالتأكيد سيُعِيد للشعر أهميته الحيوية ، ويمنحه القدرة على صناعة مجتمعاتٍ حقيقية مُوازية ، لا خيالاتٍ وهمية لِيشِرَ يعيشون في موتهم المتكرر . ممَّا يؤدي إلى ترسيخ قيم السلوك الرمزي الماورائي، وتجذير الإحساس الاجتماعي، وتأكيد الزخم المعرفي المحاط بالكيونة البشرية الذاتية . وهذه العناصرُ مُجمعةٌ تُساهم في توليد فهم أفضل لطبيعة اللغة ، وتوضيح علاقة الأبداعية اللغوية بالسلوك الاجتماعي العام .

وتتجلى قوة الأداء الاجتماعي الثقافي في قدرته على تقديم حلول جذرية ، تخفر عميقاً في نواة المجتمع . وهذه الحلولُ تنقل المنظومة الإنسانية من مجتمع الأشباح إلى مجتمع الحياة ، الحياة الواقعية بكل تفاصيلها الرمزية وتعقيداتها الاجتماعية . وهذه الثقلُ هي القاعدة التي يُبنى عليها المجتمع الجديد الراض للحياة، والمناوئ لأنصاف الحلول . فالمجتمعُ المنشودُ هو انقلاب في قلب اللغة ، والانقلابُ لا يمكن أن يكون مُحايداً . وهذا هو الأساس الفلسفي لرفض فكرة الحياد . وبالتالي ، فالقصيدة الحقيقية هي التي تقتل الحياد ، وتفتح معركة الوجود الإنساني .

ولا شك أن تحديد ماهية الانقلاب في المجتمع الشعري والمجتمع الإنساني على حد سواء ، من شأنه تعميق الوعي الرمزي في مفاصل الحياة الواقعية ، وعندئذ يصبح الرمز اللغوي هو المصدر (العلة) ، وتصبح السلوكيات الاجتماعية هي النتيجة (المعلول) . وهذه الثنائية تقوم بأنسنة القيم السلوكية ، فيخرج المجتمع من حيز التجريد الهلامي إلى ثقافة التحقيق ، تحقيق الحلم على أرض الواقع ، وتأسيس فلسفة حراسة الحلم ، وصناعة إنسان قادر على فهم هويته ، وتحليل أبعادها ، والمحافظة عليها . والإنسان لا يستطيع الحفاظ على شيء لا يفهمه . إذن ، لا بد من فهم هوية ذاكرة المعنى وما يتفرع عنها ، وبعد ذلك تأتي المحافظة عليها .

إن الإنسان قصيدة ، والمجتمع البشري قصيدة . والوعي الشعري يتحرك بينهما . وهذا الترابط المصري عبارة عن حالة رمزية تجمع بين المصدر والنتيجة . وهنا يتضح دور الكلمة الحية في توجيه الجماهير ، ويتضح - كذلك - دور الجماهير الحية في صناعة الكلمة بعيداً عن الإملاءات (15) .

وفي هذا السياق ينبغي القول إن المضامين الفلسفية تتألق لغوياً كلما ازداد الضغط القصائدي الرمزي على السلوكيات الاجتماعية . كما أن اللغة الشاعر تولد من رحم الفجعية . ووفق هذه المستويات المعرفية ، تترسخ القصيدة كمختبر وجودي يوظف الشعور الاجتماعي رمزياً وواقعياً . وينبغي أن يرافق الشعور الاجتماعي منظومة شعرية لتلا يتحول إلى قناع للوهم . وهذه المنظومة الشعرية هي التي تخرج المعاني الذهنية من القوالب الجاهزة ، وتدمج الأنا الذاتية مع الأنا المجتمعية . الأمر الذي يؤدي إلى اكتشاف المنظور الاجتماعي الكلي . وبشكل عام ، إن شرعية الجزء من شرعية الكل ، والكل لا يقوم إلا بالجزء ، وهذه هي فلسفة القصيدة الحية ذات القطبين .

(١٥) تنبع الإملاءات الخارجية من ضغوطات الدول الكبرى التي بيدها المساعدات المالية ، وقوة التأثير والنفوذ . أما الإملاءات الداخلية فتأتي من مثقفي السلطة السياسية القائمة الذين يقبضون رواتبهم نظير التطليل والتزوير ، وصناعة جنة وهمية على الأرض المحترقة لامتناس غضب الناس بسبب سوء أحوالهم ، فهؤلاء المثقفون الذبابيون يعيشون مترقة ، ويموتون مترقة ، لا تاريخ لهم سوى الوهم والخيانة والمتاجرة بالشعارات الفارغة .

ومفهومُ القُطبية في الذات القصائدية يشتمل على أبعاد ذهنية ومكانية وزمانية . فالأبعادُ الذهنية تتمثل في تحوُّل النُّظم الرمزية إلى عوامل لغوية . والأبعادُ المكانية تتمثل في تحوُّل الواقع المعاش إلى توهجات شعَرية فُوقية وتحتية . والأبعادُ الزمانية تتمثل في تحوُّل ماضي القصيدة وحاضرها إلى مستقبل للأبجدية المتجانسة . وهذا التحول الزماني باتجاه المستقبل هو الذي يُبقي على حيوية النَّص واستمراريته خارج أنطقة اللحظة الراهنة . وهكذا ، يَظهر الفرق الجوهرى بين القصيدة الحَيَّة العابرة للتجنيس المكاني والزماني ، وبين الأشكال الإبداعية الأخرى التي تصير جُزءاً من الذكريات بعد انقضاء الحدث .

وكُلما توغَّلَ المجتمعُ في التفاعلات الحيوية للمضامين الشعَرية ، توصَّلَ إلى فهم معمارية القصيدة ، وهذا يؤدي _ بالضرورة _ إلى معرفة الخصائص العامة للأبجدية التي تُعيد تشكيل الإنسان . وهذه الخصائصُ تتجلى في الثنائية التقابلية: الكلمة والقصيدة . وهنا يَظهر سؤالان مركزيان : أيُّهما سابق على الآخر _ ذهنياً _ الكلمة أم القصيدة ؟ . وهل يبدأ الشاعرُ من الجزء (الكلمة) أم من الكل (القصيدة) ؟ . وهذان سؤالان مُعقَّدان للغاية ، ومن الصعب إيجاد إجابة حاسمة لهما . ومن الأفضل عدم الانشغال بهذه الأسئلة الإشكالية ، والتركيزُ على المبادئ الشعَرية العامة التي لا يمكن تجاوزها . المبدأ الأول _ الشاعر هُوَ شاعر قبل أن يكتب حرفاً واحداً ، فالوجودُ الإبداعي لا يتعلق بالمنتج الإبداعي . المبدأ الثاني _ الكلمة هي اللبنة الروحية المادية في بناء القصيدة . المبدأ الثالث _ القصيدة هي المجموع اللفظي الذهني المعبر عن وجودية الكلمة ومعنى الوجود . المبدأ الرابع _ المنظور اليقيني في القصيدة هو الخلاص الخيالي الحتمي . المبدأ الخامس _ الخلاص الشعَري ينتشل الخُلم الاجتماعي من عُق زجاجة اللغة . المبدأ السادس _ العلاقات الفلسفية في القصيدة مرتبطة بالفكر الأخلاقي الذي يرمي إلى بناء معيار متوافق مع شرعية الفعل الثقافي .

وهذه المبادئُ الشُّمولية تُحدِّد مسارَ الطبيعة اللغوية للشَّعر ، وتكشف دَوْرَ القصيدة في بناء الذاكرة الجمعية، وتشبيد التاريخ العام للحضارة ، بعيداً عن الطرق المتشعبة والأسئلة المروعة . إن معيارَ الوجود الشعَوري الذي يُحدِّد مساراتِ الرُّوح الشعَرية الرمزية ، هو شفافية اللغة وقدرتها على حمل الأحلام البشرية ، وتوجيهها نحو تحديد السلوكيات العاطفية . وفي هذا المناخ الفكري ، تنطلق القصيدة نحو اكتشافِ العوالم الكامنة في الإنسان ، وتحديدِ قوة اللفظة وشرعية مكانها ومكانتها داخل آفاق المعنى .

وبشكل عام ، إن اللغة نواة فلسفية لعوالم داخلية قيد الاكتشاف . كما أن اللغة هي المنظور الذي يستشرف المستقبل، ويكوّن الجذور الفكرية للإنسان باعتباره رأس الحرية في معركة الحضارة، والأب الروحي لذاكرة الطبيعة . والقصيدة هي الأفق الذي يُبرز تفاصيل العلاقة المصيرية بين الإنسان والطبيعة . فالإنسان يجد صورته في مرآة الطبيعة ، والطبيعة تنفس من خلال الحلم الإنساني . ويمكن القول إن كيان الإنسان هو كينونة الطبيعة ، والعكس صحيح .

ولمّا كانت القصيدة نظاماً ثقافياً يناقش قضايا الحلم الإنساني باعتبارها مُتنفساً للعناصر الطبيعية (الفلسفية والمادية) ، كان لازماً على النص الشعري أن يؤسس لمرحلة ما بعد الإنسان ، وما وراء الوجود الحضاري . وهذه العملية ينبغي أن تنطلق من الحقيقة التي مفادها أن اللغة هي كينونة الإنسان ، والبؤرة الكونية القادرة على صياغة الحلم ، وبناء الدلالات الرمزية الفاعلة في المجموع الشعري الكلي .

إن القصيدة ليست جزءاً من شرعية الزمكان الكلامي، بل هي شرعية قائمة بذاتها، تلد نفسها بنفسها ، وتصنع إشارات البنى الاجتماعية داخلياً وخارجياً ، أي داخل المستوى الرمزي للأبجدية الذاتية ، وخارج مركزية المجتمع القصائدي . والقصيدة هي حزب سياسي قائم بذاته ، يزرع الصيغ الرمزية الكلامية في قلب المجتمع الإنساني . وهذا ليس غريباً ، فالقصيدة هي المحرك الرمزي الوجداني للمجتمع الإنساني المتجانس ، والذي يُشكّل وحدة سلوكية عامة .

لقد عبرت فلسفة القصيدة عن أزمة الوجود الإنساني بشكل صادق لا زيف فيه. وهذا متوقع. فالنص الشعري يكتشف جغرافيا اللغة، ويحلل تاريخ الأحلام البشرية. ووفق هذا المنظور، تنكسر اللغة الشعرية الرمزية كوسيط بين الصيغ الوظيفية للفعل الاجتماعي ، وبين الأشواق الروحية للإنسان المتماهية مع التطور اللغوي الذهني والرمزي ، وهذا الحراك ينبع من كون اللغة كائناً حياً مُتمرداً . واللغة مشروع استثماري ناجح (احتمال الخسارة صفر) ، كما أن القصيدة استثمار في تاريخ الحلم والروح والمادة. وهذا الفكر الثقافي الاستثماري يُحدد تضاريس النظم العقلانية داخل الرموز الاجتماعية، وداخل طبقات النص الشعري، ويُحدد أيضاً طبيعة المشاعر الإنسانية، الأمر الذي يؤدي إلى اكتشاف الجوانب الغامضة في المجتمع الإنساني والمجتمع القصائدي على حد سواء، وتحليل منهجية اللغة القصائدية استناداً إلى التراكيب الذهنية التي توازن بين الفعل الوجداني والفعل الاجتماعي . وفي هذا السياق ، يجب الانتباه إلى حركة الشعور المجتمعي ، وسلوكيات الأبجدية الشاعرة بذاتها ، والشاعرة بالعناصر المحيطة بها . وبشكل عام ، إن الشعور

والسُّلوكُ هُما النواة الفلسفية التي تصنعُ جسدَ القصيدة ، وتزرعُه في قلب المجتمع الإنساني .
مِمَّا يَقُودُ إلى تحديد معالم القصائد المختبئة في القصيدة . ودائماً ، هناك قصائد كامنة في
القصيدة . وهذه القصائد أشد خطورةً من القصيدة ذاتها . وهنا ينبغي التفريق بين أمرين : المسار
الشَّعري (ما قالته القصيدة) ، والمصير الشَّعري (ما لم تقله القصيدة) . ففي الأول، تتجلى
المادة اللغوية، وفي الثاني تتجلى الرُّوح اللغوية . وإذا امتزجَ المسارُ (المنطوق) والمصيرُ (
المفهوم) معاً ، فإنَّ العقلَ الاجتماعيَ الجمعي سَيَعْرِى أشكالُ اللغة من مركزية الدلالة الوهمية .
وعندئذٍ ، تتحرَّر اللغة من العناصر المفروضة عليها ، ويتحرَّر الخطابُ الشَّعري من الروائد اللفظية
والشوائب المعنوية . ويمكن القول إن ماهية التَّعْرية قائمةٌ على فكرة تخلص اللغويات الشَّعرية من
أعباء الإفراط في التأويل والرموز .

وكلما تعمَّقت ثقافته التَّعْرية في التاريخ القصائدي غير المحدود بشائية الزَّمكان ، تكَرَّستْ
جمالياتُ اللغة المنظورة ، واندمجت العلاقات الاجتماعية مع اللغة الماورائية غير المنظورة التي
تعمل القصيدة جاهدةً على اكتشافها ، ووَضَعها بين يَدَي التجربة الوجدانية، وذلك من أجل رَفْع
حرارة التعبير الشَّعري ، ورفَّع حرارة العلاقات اللغوية ذات الصَّبغة الاجتماعية . ومن أجل تحقيق
هذه الأحلام المشروعة ، يجب على المجتمع الإنساني أن يَخْفِر في اللغة أشكالاً لمصيره الدَّهْني
، وصُوراً للمدى الديناميكي الراسخ في القصيدة الحية .

واهتمامُ المجتمع الإنساني بفلسفة اللغة لَيْسَ تَرَفاً أو إضاعةً للوقت ، بل هو فِعْلٌ وُجُودي
غاية في الأهمية ، فاللغة هي الفكرُ الكَوْنِي الذي يُعمِّق العلاقة بين الرُّوح والمادة . واللغة _ أيضاً
_ هي الحياةُ التَّقِيَّة التي تعمل على أنسنة الحَيَوات الاجتماعية للكائن . مِمَّا يؤدي إلى تفجير
الطاقات الكامنة في الإنسان وعناصر الطبيعة ، وتحرير الرُّوى الفلسفية من وطأة العناصر
الاستهلاكية . وهكذا ، يتحوَّل المجتمعُ المغلَقُ المقموع إلى بُنية شَّعرية منفتحة تُزاوِج بين الجوهر
المعرفي والظواهر الاجتماعية . وينفتح الفكرُ الإنساني على كُلِّ الاحتمالات ، ويدخل الفكرُ
الشَّعري في عوالم الفعل الاجتماعي الذي يُحدِّد الانفعالات الوجدانية المستخلصة من مأساة الفرد
المسحوق في المجتمع الظالم. وإنَّ الأزمة الحقيقية التي تُواجه الإنسان هي انتماؤه إلى عالم يَنبِذه
ويدفعه دفعاً إلى اللانتماء، حيث تغيب معالم الهوية وجوهرها ، ولا يبقى من قِيَم الحضارة سوى
تفسيرات عشوائية للوجود الإنساني .

ولا معنى للحياة الشعريّة المتدفقة داخل الفرد في ظل سياسات قمعية على كافة المستويات، فالفرد مغموع وقامع في آنٍ معاً ، مقتول وقاتل في نفس الوقت . وهذه الإشكالية الفلسفية تُمثّل عقبةً في طريق التاريخ والحضارة . لذلك على القصيدة أن تتحوّل إلى محرقة الأحلام المكبوتة ، من أجل تحرير هذه الأحلام ، وتخليص الفرد من مأزقه الوجودي ، وإنقاذ المجتمع من الهاوية . فالفرد يعيش غربةً داخلية وخارجية ، فهو تائه في ذاته ، غريبٌ عن نفسه ، ضائعٌ في محيطه الاجتماعي ، منفىً داخل وجوده المجتمعي الهش ، كما أن المجتمع هاربٌ من ماضيه ، وبعيدٌ عن ذاته ، ومتداخلٌ مع انكساره الوجودي ، ومهزومٌ من الداخل . وهذه الكوارث الفكرية الهائلة يمكن علاجها عن طريق القصيدة التي تُداوي جروح القلب ، وتصنع الآمال العريضة ، وتبني التاريخ البشري .

وكلما ارتبطت القصيدة بالقوى اللغوية التي تُغذي المجتمع بالأبجديات الثورية اليقينية ، ازداد الترابط بين مصدرية المعرفة والمعاناة الإنسانية ذات الصبغة الاجتماعية . وهذا التشابك الإيجابي يُمْنَع حدوثُ تعارض بين كينونة الفرد وحُلمه ، وبين التجانس بين ذاتية الفطرة الإنسانية وذاتية المجتمع الحي . وكلُّ تضاد في السياق الثقافي يَسْلُب الألق من المستوى التعبيري المجتمعي . وهذا يُشير إلى أهمية التجانس الإبداعي باعتباره وسيلةً وهدفًا في آنٍ معاً . والإشارات المعرفية في بُنية العلاقات الأدبية المحددة لجغرافية الحُلم ، لا يمكن توظيفها في المدى التعبيري إلا في ظل توافق رُوحٍ مادي نافٍ للتضاد بكل أشكاله . وهنا ، تَظْهَر ضرورةُ توفير أرضية مشتركة بين كافة الصياغات المادية ، ثم تطويعها لخدمة المنظور الرُوحاني الذي يمتاز بالتطبيقات الرمزية المستمدة من الفاعلية الاجتماعية الحيوية على أرض الواقع ، والفاعلية الثقافية التي تعتبر الروابط النسيجية في القصيدة مجتمعاً قائماً بذاته .

إن تكريس الأطر المعرفية للُبنة الرمزية الحية ينطلق من ثلاث زوايا : الأولى _ فهم طبيعة الأضداد المكوّنة للمجتمع المنحاز إلى قيم اللاشعور، أو قيم الشعور الحماسي المجرد من آليات العمل. وهذه القيمُ السجينة في أقفاص النسيان لا تعدو عن كونها فورة غضب لا أكثر. والثانية _ تطبيق التجانس المرحلي في ذهن المجتمع الإنساني وأنساق الكلام من أجل السيطرة على تدفقات الأبجدية. والثالثة _ ترميم إنسانية الإنسان تمهيداً لزرعه في مكونات القصيدة المركزية التي تسيطر على عوالم الرّمز الشعري النابع من جَوْهر الإنسانية ومَظهرها .

وهذه الزوايا الثلاث عبارة عن مثلث محوري يُفسَّر نشأة الاتجاه الاجتماعي في صيغ الدلالة الرمزية ، ويُفسَّر — أيضاً — طبيعة المتواليات الشعريّة المرتبطة بالنواة المركزية للقيمة الوجدانية باعتبارها شكلاً لحركة أدبية تصحيحية ، ويُشرَّح إشارات النصّ الداخلية والخارجية ، ويُزيد من قدرة الشاعر الرائي على ضبط المشاعر في القصيدة .

وينبغي ألا تأخذنا الحماسة المفرطة ، إذ إن تداخل المستويات الرمزية في المجتمع اللغوي يُعيق — في كثير من الأحيان — تدفق المعطيات الاجتماعية الهادفة إلى إحداث تغيير إيجابي في المجتمع البشري . وهذا التداخل من شأنه إخراج القصيدة من طور التوهج الذاتي ، وزرعها في متاحف الرؤية الناقصة الموهلة في الشخصية الأحادية التي لا تطرح مشروعاً عمومياً ، وإنما تحاكي وساوس ذاتية تستنزف الشاعر الرائي تدريجياً حتى تُخرجه من دائرة الرؤية النصّية الهادفة، وتُغمسه في عالم السمات اللاتوافقية التي تتميز بالهشاشة المختبئة وراء أقنعة الاستشراف الناقص ، والرؤية البؤرية المنكمشة المنهارة. والمطلوب هو إنشاء رؤية جامعة للعلاقات بين كافة الصيغ المجتمعية . وهذه الرؤية بمثابة الآلة الفكرية التي تتعامل مع اللغة بوصفها سلوكاً سياسياً اجتماعياً ، يرمي إلى إنشاء مجتمع ديناميكي. ولا يخفى أن قوة المجتمع البشري سوف تنعكس على مجتمع القصيدة ، والعكس صحيح . وهكذا ندرك أهمية العلوم الاجتماعية في تكثيف الأبداعية الشعريّة التي تؤمن بعدم وجود نص شعري نهائي وحاسم ، لأن الصور الفنية متغيرة ، والمعطيات الاجتماعية متغيرة .

وبما أن النصّ الشعري أُفِّق مفتوح يفتقد إلى النهائية والحسم ، كانت عمليتا تصنيف الذات الشاعرة (أي جعلها صنماً) وتوثيق القصيدة (أي جعلها وثناً) ضرباً من الجنون وهستيريا اللاواقع ووساوس المتخيّل . وللأسف فإن كثيرين ممن يُسمّون أنفسهم شعراء يحيطون ذاتهم بهالة من القداسة والعصمة ، فلا يتقبلون النقد ، وهذا اتجاه مُضاد للطبيعة القصائدية . فالقصيدة هي نقد ، نقد للحاكم والمحكوم والحكومة والمحاكمة والمحكمة والحكم . إن القصيدة تفكيك للأنظمة السلطوية. وكل قصيدة لا تتمتع بمستوى نقدي مُنصف لا بد أن تدخل في دوائر الهذيان والفلسفة الموهلة في الذاتية التجريدية . وكل نقد للأوضاع الاجتماعية ينال شرعيته من توهج القصيدة ، واحترام الشاعر لسلطته الاعتبارية، وسلطانه الأدبي، وكيّونته الفكرية، ورمزية لغته ، ورمزية ذاته بعيداً عن توثيق ذات الشاعر وقصيدته . وهكذا ، يتم تأسيس ماهية ثقافية جديدة

مستمدة من تاريخية الحُلم اللفظي الذي يصير فعلاً اجتماعياً، ومنظوراً فلسفياً للتاريخ الشخصي في القصيدة، والتاريخ الجمعي الذهني في المجتمع البشري الحي .

إن ماهية النقد التي تؤسسها القصيدة وتشرعنها ، هي ماهية منطقية تكشف تيارات الوعي العام في قلب الكلمة . وإن الأداء العاصف للبناء الاجتماعي الرمزي يهدف إلى فهم التكوين الفلسفي لصيغة الخطاب الشعري . ووفق هذين المسارين ، تنطلق القصيدة باحثة عن الحقائق الاجتماعية للوجود البشري من أجل التعبير عنها بشكل دقيق . وشيئاً فشيئاً ، تقوم السلطة اللفظية في القصيدة بإجراء عملية نقد ذاتي . فالقصيدة الحية _ قبل أن تكون نقداً للقيم المجتمعية _ هي نقد لذاتية اللغة الشاعرة . وقد يتعجب البعض من كون القصيدة الحية ناقدة لذاتها ، ولكن هذه هي الحقيقة . فالفلسفة الشعرية الناقدة تبدأ من كينونة الذات الوجدانية ، ثم تنطلق نحو التكوينات الاجتماعية للأنساق المعرفية . وهذا يمنح الكلام القدرة على الحفر في نظام التحولات الاجتماعية داخل النسق اللغوي الرمزي . مما يؤدي إلى حشد طاقات اللغة في نقطة بؤرية مركزية ، الأمر الذي يعطي التكثيف المعنوي شرعية وجوده ، وماهية حدوده المتسعة تدريجياً . وبالتالي ، يتم التوفيق بين طبقات النص الشعرية ، وفهم مضامين القصيدة على أكثر من مستوى ، وتأسيس المنظور الوجداني لغوياً واجتماعياً . وكل هذه العناصر ستغدو شعارات جوفاء إذا كانت البيئة الشعرية مفككة . وهذا يشير إلى أهمية الترابط في الجسد الشعري والجسد الاجتماعي على حد سواء . والترابط يعني اتحاد اللفظ مع المعنى ضمن ثنائية متجانسة . وهذه الثنائية المتجانسة تهدف إلى فهم القصيدة المختبئة خلف القصيدة ، وتقنين حالة الإغراق اللغوي في الرموز الشعرية ، والسيطرة على تشظي الأنساق الاجتماعية داخل اللغة ، والتنقيب عن مكونات الحقائق الاجتماعية داخل التجارب الوجدانية ، وإحلال المضامين الفلسفية في النسق اللغوي . فالفلسفة هي المحتوى الرمزي الفاعل ، والوعاء الذي يستوعب أنظمة التغيرات في مناخ القصيدة . ويمكن القول إن الفلسفة هي وحدة الرؤية المسيطرة على تشظي الألفاظ والمعاني ، كما أن القصيدة هي وحدة الإشعاع اللغوي ، وأطراف الحياة الاجتماعية الداخلية والخارجية .

وإذا انهارت اللغة داخل أنساق الفلسفة الشعرية ، فإن البنية الاجتماعية ستتهافت ، وسوف ينتقل هذا الانهيار إلى النص ، مما يؤدي إلى عزل القصيدة عن أطروحات الفعل الاجتماعي ، وشرعية الأحاسيس في طبقات اللغة . والقصيدة هي الناقل الاستراتيجي للتوحد المجتمعي ، وهي المستوى الديناميكي الأكثر سيطرة على تفاعلات المشاعر . وبالتالي ، ليس غريباً أن تكون

القصيدة مجتمعةً عادلاً مُضاداً لمجتمع الهستيريا ، والظلم الاجتماعي ، والشَّطَطِ الطبقي الجائر .
فالقصيدة هي الأم التي تَحْنُو على أبنائها ، ولا يمكن أن تتركهم في لحظات ضَعْفهم .
لقد ظهرَ الترابطُ المعنوي بين الروح الشعريّة والمادّة الواقعيّة على شكل صورة اجتماعية
منسجمة مع لغويات البناء القصائدي . وهذا البناء المتكامل يُحيل العناصر الاجتماعية الشاذة إلى
منظومة متجانسة ، ويحوّل حالات القمع المجتمعي إلى أشكال للحرية . فكلُّ دلالةٍ سلبية في
المجتمع سَوَفَ تتحول إلى دلالةٍ إيجابية إذا تَمَّتْ زراعةُ المجتمع الإنساني في المجتمع
القصائدي . وذلك لأن البناء الاجتماعي تنخره الخرافاتُ والمسَلّمات الوهمية ، ويفتقد إلى
المعاني المتجددة بسبب قسوة النظام الاستهلاكي ، أمّا البناء الشعري فهو كُنْلةٌ لا تقبل الخرافات
، ونظامٌ متجدد يعتمد على تدفق الألفاظ والمعاني . وهذا يعني أن القصيدة حالةٌ صِدَامِيّة، وسلْطةٌ
مستقلة لا تخضع للسلطات .

وإذا وَصَلت الاشتعالاتُ القصائدية إلى ذُرْوَةِ الصّدّام مع الذات (حالة الاشتعال الذاتي) ،
وذُرْوَةِ الصّدّام مع المجتمع (حالة الاشتعال الكوني) ، فإن الأداء الشعري سَوَفَ يتركز في قمة
الحرارة التعبيرية ، وسَوَفَ يتفوق النَّصُّ الشعري على ذاته . وعندئذٍ ، ستملك القصيدة الطاقة
الاجتماعية اللازمة لكسر القوالب الجامدة ، وتحطيم نظام المسَلّمات الافتراضية ، وإزالة النظام
الاستهلاكي ، وصناعة حالة معرفية شاملة تُولّد فيها لغويات النَّصِّ باستمرار ، وتكوين نظام فلسفي
قادر على احتضان أشكال الكتابة الجديدة .

إن اللغة هي الشاعرُ والقصيدة . والشاعرُ هو الرائي الذي يُعطي للأبجدية مداها ، ويمنح اللغة
الخصوصية أفقاً أكثر تمرداً . وهذا المعنى الباطني بالغ الخصوصية الفلسفية ، وهو لا يَظْهَرُ إلا
في أطوار الولادة الثقافية التي ترافق التحولات الاجتماعية في مملكة القصيدة . وهذه الفكرة
متماهية مع فكرة تأسيس الصُّور الفنية على أنقاض الشَّاعر . فالقصيدة هي ولادة خصوصية لموت
مُتتابع يُسيطر على الشاعر ، ثُمَّ يُلقِيهِ في حَيَوات جديدة تنبجس من هذا الموت الشعري
المجازي . ففي القصيدة تَلِدُ الحياةُ الموتَ ، وَيَلِدُ الموتُ الحياةَ ، وَيَرِثُ العَدَمُ الوجودَ ، وَيَرِثُ

الوجودُ العدمَ . وهذا النسقُ المتوالي يجعلُ القصيدةَ مجتمعاً سحرياً تكاثرياً مُتجدِّداً ، وهذا سببُ تفوُّقِ المجتمعِ الشعري على المجتمعِ الإنساني (16).

والنَّصُّ الشعري هو احتراقاتٌ متعددة تستولي على الشاعرِ الصانع ، وتعشق جنونَ الحياة . فالحياءُ تخرج من رَحمِ الموت . والموتُ يُعطي للقصيدة حَيَوَاتٍ أكثر انفتاحاً على عوالمِ الحُلم . وكلما اجتمعت الأصدادُ في قلبِ الشاعر ، رأى في القصيدة واقعية الحُلم . وكلما انتقلت السلوكيات الاجتماعية المتنافرة من ذاتية الشاعر إلى الورق ، تولَّدت القصيدة المركزية البُورية التي تُشكِّل نظامَ حُكمٍ قائماً بذاته ، وقادراً على قلبِ كُلِّ أنظمة الحُكم في عوالم اللغة .

وثنائية الموت والحياة في الفضاء الشعري تؤدي إلى ثنائية الحامل والمحمول . فالحامل هو التعبير الفلسفي القصائدي الرمزي ، والمحمول هو المجتمع الإنساني بكل تناقضاته . وهذه الصياغة المكثفة تحدّد مسارات الوعي المشترك بين طبقات النَّصِّ الشعري ، وطبيعة المدد الرمزي في جسد اللغة .

وبشكل عام ، إن الكتابة الرمزية تنال مشروعية بنائها من هدفها المحتوي على أدبيات التثوير ، سواء اقتضى انقلاباً جذرياً يقتلع الأساس ، أم انقلاباً مرحلياً يُغيّر الآليات مع الإبقاء على الأساس . ومهما يكن من أمر ، فإن كينونة التثوير ستندفع باتجاه السلوك الاجتماعي القادر على تفسير النَّصِّ ، وإيجاد تأويلات جديدة له . وثنائية (التفسير / التأويل) تتم برهنتها من خلال إيجاد ماهيات جديدة لعناصر الطبيعة ، وابتكار مفاهيم جديدة للأنظمة ، سواء كانت أنظمةً زمانية أم أنظمة مكانية . وهكذا ، يخرج الفضاء الشعري من موت المصطلحات المستهلكة إلى ولادة المصطلحات الثورية الجديدة . ولا شك أن تجديد المصطلحات في الفضاء الشعري يقود إلى توحيد المنظور الشعري المتماهي مع السلوك الإنساني ، وتكريس لغويات الشعور الكلماتي ، وبناء أنظمة اجتماعية في قلب الأبجدية الرمزية .

(١٦) في عوالم القصيدة ، يصيرُ الموتُ شكلاً للحياة ، وتَصيرُ الحياةُ بابَ الموتِ الواسع . ومع هذا يجب أن تكون الكتابة من أجل الحياة برؤية مستمدة من حتمية الموت ، وهذه إحدى المعاني الإنسانية الصاعقة . والشاعر الحقيقي لا يكون إلا أجديةً متحركة كاملة الأوصاف المنطقية والمابعدية ، لأنه يحمل ذاكرة النَّصِّ ، ويستمد مركزية وجوده العاطفي من انكسار المجتمع الإنساني اللاهث وراء المادة .

وهذه الثقافة الكُلِّيَّة _ رغم أهميتها _ لا تُقدَّر بمفردها على إنهاء العُزلة المفروضة على الشَّعر. فلا بُد من اندماج الرُّؤية الشَّعرية مع قاع الحُلُم المجتمعي ، واتِّحاد الأبدية النَّصية مع أحلام العاجزين عن الحُلُم. وهذا لا يعني أن تصير لغة القصيدة لغةً سُوْقية مُبتدلة ، بل يعني تلمُّس مشكلات الناس ، والوقوف على حقيقة أحلامهم المقموعة ، وإنقاذ مستقبلهم المصادر ، وإيجاد حلول عملية تنتشلهم من وُحْل الشقاء . وهذه النَّقاط الجوهرية ينبغي ألا تَغيب عن فضاءات الكتابة الشَّعرية الجديدة⁽¹⁷⁾.

ومن الضروري تمهيدُ الطريق أمام الوعي الثقافي ، لكي تتمكن القصيدة من إنجاز مشروعها الرامي إلى توليد مجتمع داخل النَّص الكلماتي الرمزي . وبالطبع، إن المجتمع القصائدي مجتمع مُقَطَّر مُصَفَّى بالغ النقاء . وهذا المفهوم شديد الأهمية ، لأنه يُشير إلى حيوية اللغة الشَّعرية التي تنشأ من حَتْمية تالُف الحَيَوَات الإنسانية .

إن بُلُورَةَ الأنساق الشُّمولية الكلماتية لا تعني أن تصير اللغة الشَّعرية شكلاً جديداً للابتزاز وقمع تيارات الوعي المجتمعي، بل تعني التوفيق بين مفردات الدلالة الكلماتية الرمزية ، وبين الصَّيغ الجديدة في عوالم المعنى والشُّعور . وهذا التوفيقُ المصيري يُعتبر خطوةً أساسية من أجل فهم طبيعة التحولات الاجتماعية القصائدية . وهذه التحولاتُ تقوم على قاعدَتَيْن : الأولى _ كيفية التعامل مع طبقات المجتمع المتباينة فكرياً ومادياً. والثانية _ كيفية التعامل مع طبقات القصيدة التي تتفاوت في مستوى الطاقة والإشعاع .

والشاعرُ الحقيقي ليس شيوعياً سيأكل لحوم الأغنياء ، وينتقم منهم ، ويصادر ممتلكاتهم، ويقيم مملكة البروليتاريا على الجماجم ، ويحرق المجتمع ، ويبعد الإنسانية ، ويُدمر العلاقات

(١٧) في هذا الصَّدَد ينبغي توضيح سبب فشل أنصاف الشعراء الذين يظنون القصيدة مزرعة شخصية اشْتَرَوْها بأموالهم التي اكتسبوها من بيع كلماتهم على أبواب الوُلاة. وَفَشَلُهم يَعُود إلى تحويلهم النَّص = اللغوي المركزي إلى مجتمع مخابراتي قاعم مقموع ، وهذا انعكس سلباً على ذواتهم التي تحوَّلت إلى تراكماتٍ فلسفية منحرفة ، وركامٍ أيديولوجي وإٍ . وهذا يُفسِّر انتشار الميليشيات الأدبية (الشَّلَل) التي تحتكر المشهد الثقافي . والجديرُ بالذكر أنه كلما انتكس صوتُ القصيدة علا صراخُ الشاعر في محاولة يائسة منه لإقناع الآخرين بشرعية كتابته ، وتعويض الانخيار الشامل في قصيدته المتهاكة . ولا يخفى أن ثقافة الصراخ ناتجة عن ضعف البنية الفكرية ، وغيارِ المنهج العقلائي .

المجتمعية ، ويُحوّل المجتمع إلى كتلة من الكراهية والعنصرية والحقد . وأيضاً ، الشاعر الحقيقي ليس برجوازيّاً يَسْرِقُ الفقراء، ويستغل نقاطَ ضَعْفِ الناس ، ويستنزفهم حتى الرمق الأخير من أجل زيادة أرسدته البنكية المهرّبة إلى بنوك الخارج. إن الشاعر الحُرَّ مجتمعٌ حيّ يكتب مجتمعاً حياً، كي يجمع الإنسان مع إنسانيته في مجتمع حي . والجدير بالذكر أن التفاوت الطبقي في مجتمع القصيدة لا علاقة له بالمستوى المادي من حيث الغنى أو الفقر ، وإنما هو خاص بتباين طبقات اللغة الرمزية الثّورية ، ومستويات طاقة الصُّور الفنية .

والطاقة الشعريّة هي مضمون فكري يتكوّن من النَّفي والإثبات . وبعبارة أخرى ، يتكوّن من قُطْبَيْن : السالب والموجب . وكلُّ مجتمع كلماتي يُثَبِّتُ نَفْسَهُ عن طريق نَفْيِ بعض أجزائه من أجل استمرار الحياة اللغوية ، والحفاظ على دَيْمومة التدفق المعنوي في نخاع القصيدة . وهذه العملية إثباتٌ للقدرات الذهنية التي تُحدّد وظيفة الكلمة في السياق الشعري ، ونفْيٌ لأوهام الاتجاه الرمزي في جسد القصيدة .

إن شرعية القصيدة لا يمكن حصرها في الصُّور الفنية المدهشة ، فهذه الشرعية تمتلك ماهية أكبر بكثير من الأنساق اللغوية والصُّور الشعريّة . فالشرعية القصائدية هي وَحدة السيادة المركزية على الأنساق اللغوية والاجتماعية معاً . وهذه الشُمولية المعرفية الإيجابية تتدفق بكل قوة في رُوح الإنسان وروح المجتمع. وبسبب قوة التدفق، قد تنشأ كياناتٌ مجتمعية متنافرة في القصيدة الواحدة. وهذه الإشكالية المعرفية يتم علاجها من خلال دَمَج التراكيب اللغوية مع التراكيب الاجتماعية ، وتوحيد الصيغ الفكرية وفق مبدأ التثويرية الرمزية ، وهكذا يحدث اتّساق لغوي يتمتع بالزخم الكافي لاستيعاب المنظور الشعري والمنظور المجتمعي . الأمر الذي يُقنع شرائح المجتمع بأن الشعر ليس ترفاً زائداً عن الحاجة ، بل هو حاجة وجودية مُلِحّة . وشيئاً فشيئاً ، سيُقدَّر المجتمع الحُلُم الشعري الرمزي باعتباره ضميراً للفرد والجماعة ، وتأصيلاً للمعرفة الاجتماعية ، وامتداداً لإشراقات الرُّوح الإنسانية ، وتطبيقاً للسلوك الثّوري الواعي .

ومهما يكن من أمر ، فلا يمكن تجاهل حقيقة أن الرموز الشعريّة هي مجتمعات حية تتّبع الحقائق اللغوية المتعلقة بولادة تاريخ قصائدي جديد نابع من القدرة الفائقة على التواصل مع الأنا الذاتية والأنا الأخرى في مجتمع كلماتي مُؤسَّس على عناصر ذاتية متساوية الأبعاد أبجدياً ، ومختلفة المقادير فلسفياً. وقد تتعارض بعض الأبعاد الفلسفية بسبب ديناميكية القصيدة، وحرارة التجربة الوجدانية، وتعقيدات الأحداث الاجتماعية الموضوعة في قوالب لفظية ضيّقة . ولكن لا

مُبَرَّر للقلق ، لأن القصيدة قادرة على تصحيح مسارها بشكل ذاتي، وتصحيح مسار العناصر الأخرى بشكل تلقائي.

وفي هذا السياق ينبغي توضيح استحالة فصل الرمز عن التاريخ . فالتاريخ الشخصي ضروري لشُرْعنة الخلفية الاجتماعية والمستقبلية للنص الشعري الرمزي . والبعض يكتب التاريخ الوجداني للقصيدة بعقلية المؤرخ ، وهذا خطأ كارثي ، لأن المؤرخ مُطالب بأن يكتب التاريخ كما هو على أرض الواقع ، لا أن يكتب التاريخ المتصور في ذهنه . وعليه كذلك أن يُميّز بين النص التاريخي وبين تحليله للنص . وهذه المنطق العملي يختلف بالكُلّية عن منطق الشاعر الذي يكتب تاريخ الوجود البشري على شكل صور رمزية مُكثّفة. وهذه الحقيقة مرْدُها إلى الطبيعة المتفردة للشاعر . فالشاعرُ الرائي مُؤرِّخ رمزي للوجود ، يتعامل مع الأحداث الذهنية والواقعية بأسلوب ماورائي .

إن الشاعر قد يلتقط لحظة انكسار لجيش منتصر على أرض الواقع ، وقد يلتقط لحظة انتصار لامرأة مُغتصبة .. إلخ . وإذا أدركنا أبعاد هذه الفلسفة ، أدركنا فلسفة المنهج الشعري ، فالشاعر لا ينسخ المجتمع ويسكبه كما هو في قصيدته . بل يُعيد اكتشاف المجتمع شعرياً ، وينقلب عليه . وفي هذا السياق ، تظهر القصيدة باعتبارها كياناً موازياً للحياة ، وطهارة روحية ، ومعركة رابحة على الدوام ، تقود المجتمع البشري ، ولا يقودها المجتمع البشري . واحتمال الخسارة في القصيدة هو صفر ، فالكتابة الشعرية شريعة للأشواق الروحية ، وهوية مستقلة عن المسار القمعي للعناصر الحياتية . وكلّ جزء في هذه الهوية الوجودية معنيّ بالمحافظة على الهوية المعرفية للأنا الداخلية والخارجية . وكما أننا نصنع القصيدة ، فإن القصيدة تصنعنا اجتماعياً ووجدانياً ، لأن القصيدة منظومة مفتوحة على ذاتها ، تؤمن بحتمية التلاحق الاجتماعي ، وتفاعل العناصر الحياتية مع العناصر الذهنية، وضرورة تقطير حُلم الإنسان، وتعبئته في الألفاظ والمعاني ضمن منظومة الأبجدية الشعرية . والجدير بالذكر أن القصيدة تتكون من نظامين : نظام المسار الشعري العام ، ونظام النقد الذاتي لهذا المسار. وبعبارة أخرى، إن القصيدة نظام قابل للنقد ، ولا يتمتع بالعصمة والقداسة والفوقية . والأمر ينطبق على الشاعر أيضاً . وفي القصيدة يتم اكتشاف أزمنة جديدة للأبجدية الشعرية ، واكتشاف أمكنة جديدة للألفاظ والمعاني. وكلّ جزء في لغة القصيدة انقلابٌ واكتشاف في آنٍ معاً. انقلابٌ على الماهيات الخادعة والمسلمات الافتراضية ، واكتشافٌ للزمكان الجديد المحتوي على آمال الفرد خارج نطاق نفوذ القمع السياسي ، والضغط الاجتماعي ، والانهيال الجنسي للعاطفة .

ومهما يكن من أمر ، فإن المدى اللغوي يضع الاتجاه الماورائي الاستكشافي لأعماق الرمز في أقصى البنى الاجتماعية . وكلما توغلنا في المجتمع اكتشفنا قصيدةً جديدةً تكتبنا ، وتنتظر أن نكتبها . وهذا ليس غريباً ، إذ إن فعل الكتابة هو التطبيق الاجتماعي التبادلي بين النص وصانع النص .

وهنا ، لا بد من تحديد مفهومين في غاية الأهمية . المفهوم الأول _ فيزياء القصيدة ، وهو عبارة عن القوى الحركية الناتجة عن ثنائية الفعل ورد الفعل . والمفهوم الثاني _ كيمياء القصيدة ، والمقصود به هو قوة الاحتراق الداخلي ، حيث تُصهر اللغة الشعرية في عوالم القصيدة ، فتنتج تيارات فكرية تقوم بتنقية الظواهر الاجتماعية للألفاظ والمعاني . والقصيدة ينبغي أن تكون مضغوطة ومحملة فوق طاقتها ، وذلك من أجل توسيع حدود المعنى ، وتوليد الأفكار ، وإحداث انفجارات لغوية في الجسد الأبجدي ، تعيد هندسة المجتمع البشري .

والقصيدة هي القلق الجذاب لا المرضي ، وهي الشك المنهجي في تفاصيل الحياة الإنسانية . إنها شك مركزي صارم يتناول الصيغ اللغوية الرمزية وعلاقتها بالتعقيدات الاجتماعية ، كما يتناول علاقة الوجود الإنساني بكيونة اللغة . وبما أن الشاعر عامل في منجم اللغة ، فلا بد أن يكتشف العوالم الخفية التي لا يراها الإنسان العادي ، لذلك فالشاعر هو رؤية المجتمع الماورائية ، وهو القادر على صناعة الوعي القصائدي المرتبط بالوعي الاجتماعي . وهذه العملية يترتب عليها نتائج إيجابية شديدة الأهمية منها : إعادة هندسة المجتمع البشري ، وإعادة ترميم إنسانية الإنسان ، وتحويل اللغة من نصوص رمزية إلى مجتمعات متضاربة هادفة إلى ردم الهوة بين الإنسان وإنسانيته ، وإزالة الفرق بين الرمز اللفظي والمعنى داخل اللغة المتوحدة مع كيوناتها الاجتماعية .

إن النظام الشعري يقوم على قاعدة " تفريخ الحلم وتفخيخ اللغة " . وهذان المساران المتقاطعان يؤرّغان المعنى الاجتماعي على الدلالات اللفظية داخل القصيدة . وعندئذ ، تمتلك القصيدة القدرة على رسم خارطة اللغة في قلب المجتمع البشري ، وتحويل النص إلى منظومة عابرة للتجنيس ، وعابرة للزمان . الأمر الذي يقود إلى كسر القوالب الشعرية ، وزرع الوحدة الشعورية داخل الكيانات الاجتماعية . والجدير بالذكر أن الزمكان يتفرّع إلى لفظ ومعنى ، يؤلّدان في نفس اللحظة ، ويلمعان في ذهنية الحلم القصائدي . وفي الحلم القصائدي يصير الزمان مكاناً ، والمكان زماناً . وهكذا تتلاحم العناصر الوجودية ، وتختفي الأقطاب المتجاذبة والمتنافرة معاً ، وتبرز القصيدة كطاقة رمزية للشعور واللاشعور على حدّ سواء . وفي هذا الخضم ، لا يمكن

تجاهل عمليات الاحتراق الداخلي التي تحدث داخل القصيدة ، وتؤدي إلى صناعة التجربة الوجدانية المتفاعلة مع الواقع المعاش ، وتكريس النظام الشعري قطباً مُعادلاً للوجود الإنساني .
واللغة الشعرية هي قوة شعورية ذات كينونة إنسانية حية وثابتة، سواءً تَمَّ التعبير عنها أم لا .
ويمكن القول إن اللغة والشعور ولداً معاً ضمن تاريخ الوعي والوعي المضاد ، وهذا يعني أن الحُلم هو الحالم ، والفعل هو الفاعل ، والقصيدة هي الشاعر . وفي ظل هذه المعطيات ، ليس غريباً أن تكون القصيدة عملاً جماعياً ، يشترك كلُّ الناس في كتابته ، وما على الشاعر الرائي إلا تدوينه .
وكلُّ قصيدة هي انقلاب لغوي، وكلُّ انقلاب لغوي يُمثِّل خارطةً جديدة للنص الشعري . وهكذا، تنقلب القصيدة على نفسها لتتحرَّر من هيمنة الزمان وسطوة المكان . وهذا يعني أن القصيدة تنقلب على ذاتها (الانقلاب الداخلي) ، وتنقلب على عناصر الوجود (الانقلاب الخارجي) .
وبشكل عام ، إن القصيدة هي زمكان خارج الزمكان .

إن الإشارات القصائدية لا تستطيع الحياة إلا ضمن دافعية ذاتية متفجرة . وهذه الدافعية هي الرموز الشعرية الراضية للتدجين . ومهما كانت طبيعة الإشارات (اجتماعية / ثقافية) في نظام الشعر ، فإن الشعر هو الحاكم على رُوح اللغة ، واللقاء الشعري بين النص والذاكرة . والجدير بالذكر أن المنظومات الفكرية ذات الأبعاد الشعرية لا تتحرك وفق قوانين ميكانيكا القصيدة ، لأن الصور الفنية تختزع حركتها الاستقلالية من وحي تجربتها الذاتية . وهذا يعني أن الشعر يُعيد اكتشاف نفسه بنفسه ، كما أنه لا يُعطيك بعضه إلا إذا أعطيتَه كُلَّك . والشعر _ أولاً وأخيراً _ هو فعل عاطفي ، بمعنى أنه علاقة مع جوهر السلوك اللفظي ، وليس علاقة مع صيغ الدموع والاكْتئاب والأحزان . وإذا أدركنا مصدرية اللغة وذاكرة رموزها ، أدركنا حجم البناء الفلسفي داخل الإنسان وخارجه .

والتجريد الشعري الذهني يُفضي إلى بنائية قصائدية مستندة إلى ديمومة الفعل الاجتماعي ، التي تؤدي إلى صناعة أبجديات مخيالية توليدية . وهكذا يتمُّ الوصول إلى وحدات لغوية تفسيرية تتركز في رُوح النص الشعري ، وهذا يعني توسيعاً لمساحات الرمز ، وترسيخاً للمضامين الإنسانية الفاعلة، التي تنتقل بين الأنا الشاعرة ، وبين الكلِّ الجمعي لسياسة الشعر . وكلما ضاقت الفجوة بين الأنا الشاعرة والكل الشعري ، تحرَّرت قوة المعنى الإنساني من قيود الروابط الاجتماعية . وهذه الفكرة هي الأساس الفلسفي لتعريف القصيدة زمانياً ومكانياً . فالقصيدة هي كتلة زمنية افتراضية تتحرك في مكان افتراضي . كما أن اللغة الشعرية هي البعث الحقيقي للإنسانية الموازية

للإنسانية ، والانبعثُ الفاعل في قلب الموروث (الماضي والمستقبلي) . وينبغي القول إن اللغة التي نكتب بها، ليست هي اللغة التي نفكر بها. واللغة التي نكتب بها وجودنا في قلب الزمكان ، ليست هي اللغة المتولدة من المأساة الإنسانية. وهذا يدل على وجود مستويات عديدة لفهم طبقات اللغة. كما يدل على أن اللغة تتمتع بالقدرة على الاندماج والانشطار ، وهذا يُفسرُ قدرة القصيدة على البقاء حيّة في عوالم الموت .

واللغة ليست وسيطاً بين المشاعر وكيثونة العناصر المعرفية بقدر ما هي بيئة حاضنة للتاريخ البشري ، وهوية المنجزات الحضارية ، وروابط النظم الفكرية داخل الحياة وخارجها . والإشكالية الكبرى في هذا السياق ، أن البعض يعتبرون اللغة آلة لتفريخ جذور المعاناة الإنسانية ، ويعتبرون العلاقة بين الشاعر والقصيدة انقلاباً تبادلياً . وهذا مرده إلى تصوّر وهمي ، والحكم على الشيء فرغ عن تصوّره .

إن القصيدة تُجمّع الذوات الكلية داخل مركز العمليات في الذات الأحادية الجزئية ، الأمر الذي يؤدي إلى تكثيف الحالة الاجتماعية والشعرية داخل النسق الإنساني . كما أن القصيدة هي شرعية التأسيس الفلسفي لمفهوم " الدَيْتوتية " الذي يعني: اكتشاف العوالم الخارجية المحسوسة وغير المحسوسة عن طريق غوص الشاعر في أعماق ذاته المحسوسة وغير المحسوسة . وهذا المفهوم الجديد سوف يسيطر على حركة الشظايا الفكرية في المجتمع الإنساني ، ويعمل على تجميعها وتقنيها بعيداً عن الفوضى والهلامية . وعندئذٍ ، تتضح طبيعة الشعور المتزامن مع ولادة اللغة القصائدية الموازية للحلم ، الأمر الذي يؤدي إلى خلق حالة من التوازن بين معمارية القصيدة وكيمياء اللغة . وكلما تركز التوازن كنظام لغوي واجتماعي ، ظهرت المناطق المجهولة داخل النص القصائدي ، وهذا يساهم _ بشكل فعّال _ في اكتشاف مناطق الشعور الموهل في رمزية العلاقات الإنسانية ، وتحديد معالم تاريخ القصيدة، هذا التاريخ الذي يؤكّد من جديد، ويُكتشف من جديد. ومهما يكن من أمر، فإن جسد القصيدة هو موجز تاريخ الحلم ، واختزال القوة الثورية الشعورية في عوالم الأنساق اللغوية . كما أن اللغة هي زمان توليدي مرتبط بإمكانة تولّد في فلسفة الحلم .

والجدير بالذكر أن القصيدة متماهية مع منظومة الانتخاب الطبيعي ، أي إن القصيدة تُغرّب ذاتها بذاتها ، فتتّب نقاط قوتها ، وتنفي نقاط ضعفها ، وهي بذلك تصحّح مسارها بشكل ذاتي تلقائي، وهنا تكمن نقطة قوتها ، وقدرتها على تجاوز الأزمنة والأمكنة ، واختراع المفاهيم الجديدة

. فمثلاً ، في الرياضيات فرصة التقاء الخطين المتوازيين معدومة ، أمّا في القصيدة فيلتقي الخطان المتوازيان، ويتوازي الخطان المتعامدان، وذلك لأن الشّعر عالمٌ سحري متميّز ، له قوانينه الفيزيائية والكيميائية الخاصة . لذلك ليس غريباً أن يحول الشّعرُ الجبرَ إلى دم، أو يُحوّل الدمَ إلى جبر . فالشّعر هو السّحرُ المهيمن على أنساق المشاعر ، وتقاطعاتِ الذاكرة ، ومفاصلِ المجتمع .

والفلسفة الاجتماعية لعناصر المنظور الشّعري تنبع من مركزية الشّعر في ذهن الحضارة ، فالشّعر هو التعويض العادل عن الخسائر الروحية والمادية ، وهو العاطفة النبيلة التي لا تنكسر . فالعاطفة الشّعريّة ليست نقطة ضعف في متوالية مغلقة ، بل هي قدرة المشاعر على عزل الذاكرة عن الذكريات الوهمية. ووظيفة الشاعر لا تكمن في كتابة القصائد فَحَسْب ، فالشاعرُ شاعرٌ سواءً كتب القصائد أم لم يكتبها . إن الوظيفة الحقيقية للشاعر هي اكتشاف عوالم ما وراء القصيدة . وهذا ما يُميّز الشاعر عن الآخرين. فالشاعر ليس مراسلاً صحفياً، أو مذيعةً تُبرز مفاتها لنلا يطردها صاحب العمل . إن الشاعر هو الرّؤية .

إن القصيدة طاقة استيعابية ، ومجتمع حي متحرّك في فضاء العناصر الميّنة . ووفق هذه النظرة ، ندرك أهمية الكتابة الشّعريّة التي تُعيد الإنسان الميّت إلى الحياة ، وتُرجع أنساق المجتمع المنطقي إلى بؤرة الضوء ، وتخترع عالماً موازياً للحلم الواقعي .

لقد تزوّجت القصيدة نَفْسَهَا ، وهذا الزواج حرّر التاريخ الشّعري من جغرافيا المكان الخيالي ، وأدخل النَّصَّ الشّعري في أبعاد ذهنية جديدة، وهي : الطُّول، العَرَض، الارتفاع ، الزّمن ، الخيال ، الواقع .

فالطُّول هو امتدادُ المعطيات الشّعريّة التي تنحت الوجودَ الثوري على خارطة الأبجدية . والعَرَضُ هو الاتساع اللغوي التّوعّي الذي يركز إلى معايير ذاكرة النَّص . والارتفاع هو سلوك المعاني المستندة إلى الوعي والوعي المضاد . والزمن هو الوعي التاريخي الذي يُنقّب عن الحُلم الجمعي في منجم اللغة . والخيال هو واقعية الأحلام غير المنظورة . والواقع هو خيالية الألفاظ أثناء تكاثرها في الجسد الشّعري . وهذه الأبعاد الستة تُكوّن الدورة الدموية للقصيدة . مع العِلْم أن دم القصيدة هو الرمز المنهجي الذي ينقل الأكسجين إلى خلايا النَّص .

والشاعر عندما يكتشف قصيدته يكتشف ذاته ، ثم يكتشف المحيطات الاجتماعية التي تحاصره ويحاصرها ، وهذا الأمر له تأثير هائل على النَّص الشّعري . كما أن الشاعر هو الحامل لقيمة المعنى وتفصيل الوجود. وإذا انتهى الحُلم الشّعري، مات الوجودُ الإنساني برُمته ، وانهارت

اللغة بسبب مغادرة الإنسانية لمدار المعنى . ويمكن القول إن الشعر ضابط إيقاع ذهني ، يُنظم حركات الروح والمادة ضمن الفوضى الاجتماعية العارمة التي يُكرّسها مؤروث الخرافة ، والمسلّمات الافتراضية . إذن ، فالشعر هو مركز الثقل الوجودي الرمزي . وهذه الحقيقة قائمة على زُكنين : الأول _ معنى القصيدة كامن في الإشعاعات الساقطة على جسد القصيدة . والثاني _ مركز ثقل القصيدة ينبع من قلب القصيدة ، لكنه يصبُ خارج حدودها . وبعبارة أخرى ، مركز ثقل القصيدة يقع خارج حدود القصيدة .

والقصيدة هي تواصل حالم مع مبدأ الخيال الواقعي ، وليست بنايةً خياليةً تُؤد في الفراغ وتموت في العدم . وهنا تبرز عدة حقائق منها : النصُّ الشعري الواضح هو النصُّ الموازي المستتر ، والشاعر هو الشعور ، والقصيدة هي كل شيء سوى القصيدة . وهذا لا يعني تبرؤ القصيدة من كيانها ، بل يعني تلاحم ذات المجتمع الكلية مع ذات الفرد الجزئية ، وبالتالي انتشار المعنى الشعري للذاكرة الإنسانية من مأزق الوجود العدمي . وهذا لا يتأتى إلا بإحداث ثورة لغوية في قلب المجتمع . والثورة اللغوية لا تعني تحطيم اللغة ، والبناء على ركام المعارف اللفظية المنهارة . وإنما تعني وَضْع اللفظة في أقصى مدار المعنى ، بُغية الوصول إلى منظور رمزي قادر على غزلة ثقافة الأضداد في تقاطعات المجتمع . وقد سهّل الشعر هذه المهمة . إذ إن الشعر يمنع تحوّل المجتمع إلى غابة ، ويمنع تحوّل الناس إلى وحوش .

والقصيدة _ مثل عنصر الهيدروجين الذي عدده الذري واحد _ ، هي أحادية وواحدة مُكتفية بكيانها الشخصي الذي يتحرك وحيداً في المدار الوحيد . وعلى الرغم من أحادية القصيدة واكتفائها ذاتياً إلا أن هذا لا يعني عدم تأثرها بالمحيطات . فالنصُّ الشعري هو تضاريس التفاعل مع عناصر الطبيعة ، وتراكيب المعرفة الاجتماعية . والجدير بالذكر أن النصُّ الشعري يتفاعل مع المكوّنات الوجودية باعتباره الطرف الأقوى الذي يفرض شروطه على كافة العناصر ، وباعتباره العاطفة الأقوى القادرة على توليد أزمنة افتراضية وأمكنة مُتخيّلة . وضمن هذه المنظومة ، تصبح القصيدة هي الثابت الرمزي الوحيد في النظام الاجتماعي الذي يحتوي على بشر مُتغيّرين ، وأزمنة مُتغيّرة ، وأمكنة مُتغيّرة . وثبات القصيدة لا يعني أنها ماء راكد آسن . فالقصيدة تُطهّر نفسها بنفسها (التطهير الذاتي) ، وتُصحّح مسارها بشكل تلقائي (التصحيح الذاتي) ، وتحوّل الألفاظ والمعاني إلى كائنات من لحم ودم . فالشعر هو فنُّ تطويع المستحيل ، ومحاولة لاكتشاف الذات والعالم ، ومعادلة الوجود الإنساني الحالم داخل لغة التاريخ ، وإنقاذ للزمان من حصار الأنظمة

الأبوية السلطوية . وهذا ليس غريباً ، فالشعر هو السبب في الوجودية الوحيدة التي تتكون من الطبيعة والفلسفة والرمز .

وكل قصيدة لا تهدم المسلمات الافتراضية التي كرسها القمع الاجتماعي، لا يمكن أن تتكرر كفاعل رمزي مع البنى الجمالية (التحتية والفوقية) . وبالإضافة إلى هذا ، فإن القصيدة هي التقاط اللحظة الزمنية خالية من الضغط السلطوي ، وعنفوان الومضة المتمردة على الاعتيادية . والصورة الشعرية تشبه آلة التصوير التي تحبس ظل الأشياء ، كي تخلق صورة انتقائية خارج الزمن . كما أن عناصر الصورة الشعرية تتحد مع الزمكان ، بحيث يصير من المستحيل فصل الدلالة اللفظية عن المدلول المعنوي . وهكذا تصبح اللغة الشعرية حياة جديدة للإنسان ، وشرعية رمزية مضادة للتداعيات العاطفية الوهمية . فالشعر هو فن تحطيم الأصنام ، وثقافة تقنين المعاني ، ومبدأ ترشيد الألفاظ ، وعملية تكشف الزمكان ، وهندسة الذوات البشرية لغوياً ، والعذاب اللذيذ . وكما أن الإنسان يعيش مُعَذَّبُهُ ، فإن الشاعر يعيش القصيدة التي تُعَذِّبُهُ .

إن الشعر هو المُعَادِلُ الحياتي لموت الإنسانية ، وهو الديمومة الزمكانية التي لا تخضع للتعاقب والتزامن . والشعر هو أبرز عنصر مؤثر في الحراك الذهني والحراك الاجتماعي . لذلك ، كان مفهوم الاستقرار هو العدو الأول للشعر . فالاستقرار حالة ضعف ، ولحظة انهيار ، لأنه يعني تفوق الذات الإنسانية في زاوية ضيقة ، وانهلال الروابط اللفظية في عوالم الجمود اللفظي والمعنوي ، وموت الثورة اللغوية التي من شأنها حقن القصيدة بعناصر التاريخ وقيم الحضارة . وهكذا ، تصبح القصيدة كالحجر الذي استقر في قاع البحر ، وليس له أي دور في اكتشاف عوالم البحر . وإذا أرادت القصيدة أن تكتشف العوالم الخارجية فعليها أن تغوص في ذاتها . وإذا أراد الشاعر اكتشاف حلمه ، فيجب أن يغوص في ذاته . فالداخل الإنساني بئر عميقة ، لا يمكن معرفة عمقها وطبيعتها إلا بالنزول فيها . وفي هذا السياق ، تتولد فكرتان : الأولى _ السباحة في جسد اللغة الشعرية هي سباحة في أنحاء العالم . والثاني _ الغوص في أعماق النفس البشرية هو غوص في تاريخ الحضارات .

والقصيدة هي أسطوانة الأكسجين التي يحملها الشاعر أثناء غوصه في بحر اللغة ، وبدونها سوف يفقد الشاعر حياته ، وتفقد عملية الغوص معناها . ولا فائدة من القصيدة إذا لم تقم بتصدير الثورة والتنوير والانقلاب إلى العالم . فالقصيدة هي انقلاب ذاكرة اللغة على نفسها، وهي _ أيضاً _ العملية الفلسفية الوحيدة القادرة على اكتشاف اللغة والإنسان . وحين تنقلب اللغة على

نفسها بشكل مُنظَّم تُولَّد القصيدة ، والفرد لا يتوازن عاطفياً إلا إذا انقلب على نفسه . ومهمته الفعل الشعري هي تأريخ لحظة الانقلاب ، وتكريس الخيال في الواقع . والهدف من الخيال هو تأسيس منظومة رموز اجتماعية قادرة على فك شيفرة الإنسان الفكرية .

والمشكلة الأساسية في التسق الحضاري ، أن الكثيرين يتعاملون مع اللغة باعتبارها وسيلة للتخاطب وإيصال الأفكار فقط لا غير ، تماماً كالسيارة المستعملة التي تُعتبر وسيلة للتوصيل لا أكثر ولا أقل . وهذا هو عين الانهيار . فاللغة هي الطاقة الرمزية المحتوية على عناصر الوجود كلها . وفي هذا السياق ، يبرز الدور المحوري للقصيدة في تمجيد اللغة ، وتفجير طاقاتها الإبداعية ، وإظهار مستوياتها الرمزية والوجودية . ويظهر دور اللغة في تلميع القصيدة ، ووضعها في أقصى مداها . ويتضح دور المجتمع الإنساني في احتضان الأنساق اللغوية وإحيائها . وهذا لا يعني أن القصيدة ذاكرة ميتة تنتظر شفقة المجتمع من أجل العودة إلى الحياة . فالقصيدة كيان حي لا تنتهي مدة صلاحيته . والقصيدة قصيدة قبل أن تُكتب ، والشاعر شاعر قبل أن يكتب أي حرف ، والمجتمع الإنساني هو ردة فعل للفكر الشعري ، والفكر الشعري هو الفعل الفاعل .

والشعر هو غريزة البقاء ، وصوت العابرين إلى حلمهم مجتازين كل الحواجز الخيالية والواقعية ، والصيرورة الحاملة التي تحوّل الجزء إلى كل ، والكل إلى جزء . ومع هذا ، فالشعر ليس كل شيء ، ولا يمكن السماح للشعر أن يُفكر نيابة عن الإنسان والمجتمع ، ويتخذ القرارات المصيرية باسمهما . فالإنسان والمجتمع قصيدتان رمزيتان متكاملتان ، وقادرتان على التفكير واتخاذ القرارات .

والتعامل مع القصيدة ، إنما هو تعامل مع شرعية الوجود الإنساني على خارطة الزمن . فالقصيدة لها جناحان : الاختزال والتكثيف . وهذان المفهومان يلخصان الأحلام البشرية ، ويختصران الوجود الإنساني برؤيته . وكل عنصر يصنع القصيدة ، تصنعه القصيدة . وبقدر ما تُعطي اللغة القصيدة ، تُعطيها القصيدة . واللغة لا تُعطيكَ بعض أسرارها ، إلا إذا منحتها وجودك كله . ولا يخفى أن اللغة هي الوعي الفاصل بين الوجود والعدم .

والقصيدة هي التي تُعطي اللغة الامتداد الحالم في تفاصيل المجتمع الأفقية والعمودية . والشاعر الحقيقي يعيش في ظلال اللغة التي يُؤلد من رحمها بصورة تلقائية متواصلة . ووفق هذه المعطيات ، تبرز الأبعاد الوجودية للقصيدة . ووظيفة القصيدة ليست منح عكازة لهذا العالم

الأعمى كي يتوكأ عليها في طريقه إلى القبر ، وإنما إعادة بصره بكل الوسائل الممكنة . حتى لو اضطرت القصيدة إلى هدم العالم ، وإعادة بنائه من جديد .

إن لذة الشعر تتجلى في كَوْن القصيدة انقلاباً لا يمكن توقع حدوثه . وبالإضافة إلى هذا ، فإن القصيدة تُحرّر الزمانَ من خُشونة المكان ، وتُخلّص المكانَ من عبء الزمان الخادش . وهذا ليس غريباً ، فالقصيدة سُلطة التكييف ، ومملكة الاختزال ، والمتفجّرات المستخدمة في مناجم اللغة . والقصيدة هي مَنْ تكتب التاريخ ، ولا تترك المنتصرين يكتبونه . فالقصيدة هي شارة النصر ، لا تنتظر أحداً ، ولا تنتظر شاعراً يَمْنحها شرعية الوجود اللغوي ، فالقصيدة شرعية قائمة بذاتها ومُكتفية بنفسها، وهي عملية حَفَرٍ متواصلة ، وتنقيب لا ينتهي . والإنسانية تُحفر مَوْتَهَا في رُوح القصيدة ، كي تحصل على الحياة المقطّرة خيالياً وواقعياً .

وقدَرُ القصيدة أن تتحرك في مجتمعات التخلف والأوبئة والظلم والعنصرية والأصنام . فحيث يكون الداء يظهر الدواء ، وحيث تكون الجيف تَظْهَرُ النسور . وكما أن السجين لن يَخسر سوى قُيودَه ، فالشاعر لن يَخسر في معركته مع الوهم الاجتماعي سوى قيوده .

وفي ظل الضياع الرهيب الذي يجتاح كوكبنا الراكض إلى الهاوية ، لا تملك القصيدة إلا أن تتماسك لِتَفرض على التاريخ وجهة نظرها بمنطق الجبر والدم . فالقصيدة إمّا أن تقف على قَدَمَيْهَا أو تقف على قَدَمَيْهَا ، ولا يُوجد خيار آخر . ولا يُوجد حِياد حين يتعلق الأمر بالإيمان والكفر ، أو الحياة والموت ، أو التقدم والتخلف ، أو الذاكرة والنسيان .

وستبقى القصيدة تبتكر أزمنتها الخاصة وأمكنتها المشرقة ، لنلا يصطدم الإنسان بذاته ، فتسير الذكريات ضد الذاكرة ، وتتخلى الذاكرة عن الذكريات . والقصيدة _ أولاً وأخيراً _ هي كُتلة الشظايا الناتجة عن عملية تفجير اللغة .

*

ثانياً :

المأزق الاجتماعي للثقافة

تمهيد

إن الثقافة بوصفها فعلاً ثورياً ضد الوهم ، وعملية انقلاب على الخديعة ، قد تراجع دورها في بناء الذات الوجودية للحضارة البشرية ، فأضحى النتاج الثقافي مشكلةً بحد ذاته لاشتماله على عناصر العزلة ، والانحراف عن سكة المسار البشري العقلاني . فالمشاكل التي يعاني منها كوكبنا انعكست بشكل قاتل على واقع الثقافة، فأضحى المثقف ظلاً باهتاً مندمجاً مع مادية المسابقات الانتكاسية في بنية عتمة الحضارة الشاذة عن الدرب الإنساني التكويني .

فالمنبع المنطقي للأطروحة الثقافية صار رجوع صدى ركيكاً للأطروحات الغربية التي تلقفها أنصاف المثقفين دون تمحيص لأن المغلوب مَوْلَعٌ بتقليد الغالب . كما أن عقدة الشعور بالنقص ساهمت بصورة دراماتيكية في محاصرة الثقافة في زاوية رد الفعل دون الفعل ، فصار الكاتب الصانع لهذا الأداء الثقافي ناسخاً لا مُبدِعاً . ومن هنا حدث الانكسار العميق في بنية الثقافة التي صارت تدار بالعقلية البدائية . وهذه نتيجة متوقّعة في ظل تداعيات المعنى القمعي الذي لا يرى المثقف إلا في خانة المادحين المرتزقة . تماماً كما كان يحدث في الجاهلية ، حيث الشاعر لسان

القبيلة يساندها في الحق والباطل بلا تمييز ، لأن قداسة القبيلة الصّئم أكثر أهمية من قداسة الحق . وهذه الفلسفة الجاهلية لخصها أحد الشعراء حينما قال :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشُدِ

وهذا الانهيار الحاد في صيغ الدلالة المنطقية المشيرة إلى فاعلية الثقافة، نتجَ بفعل غياب أعمال العقل النقدي لسلوكيات الذات الإنسانية في المجتمعات المضمحلة المحصورة في ثقافة التآكل والاستهلاك ، وتصنيم الكيانات الفردية والجماعية ، وتحويل الذات البشرية إلى سلعة متمركزة في مكان التبادل والمقايضة . حيث العلاقات الإنسانية تصير فوضويةً ميكانيكية ، وتغدو المشاعر بين البشر مجرد مشاريع استثمارية مادية مصلحة على أرض الواقع الخشن الذي يُحاصر السُمُو الأخلاقي ويقمعه بذريعة الواقعية العملية . وفي ظل هذا التشطي الحضاري المقتول في مهده تُحال التيارات الفكرية الرصينة إلى امتدادات عزلة اصطناعية مفروضة على الأنساق الثقافية التثويرية من قبل السياقات الأبوية القامعة ، ومجتمع القيعان الذهنية غير القادر على استيعاب أبعاد التنمية الثقافية نتيجة انكماش الفكر في تقاطعات مجتمع ينتحر في دائرة مغلقة .

وهذا الانتحار المجتمعي له أبعاد شرسة للغاية ، وانسحابية بصورة صادمة . فالمجتمع المتكور حول ذاتية انكسار أنساقه المركزية تصبَح فيه الثقافة رفاهيةً زائدة عن الحاجة ، وجزءاً من الأثاث المنزلي للمجتمع الذي يحاصر ذاته . أي إن المجتمع المكسور في أنطقة البنية التحتية والفوقية سوف ينظر إلى المشروع الثقافي ، والمشروع المنطقية الحضارية للكلمة ، من زاوية الترف الزائد والتبذير الذي لا طائل من ورائه . وهذه نظرة متوقّعة وليست غريبة في تجمعاتٍ بشرية اجتماعية ظواهيراً مبنية وفق منطق التخلف والتبعية والاستبداد على جميع الأصعدة .

والأنظمة الدكتاتورية تنظر إلى المثقف الحقيقي على أنه مُنشَق خارج على القانون ، ويُشكّل خطراً على نظام الحكم بسبب امتلاكه العقل المفكّر الذي ينقد السياسات وينقضها ، ويفتح عيون الشعب على الحقائق التي يُعمَل على إخفائها ضمن مشروع تحويل الشعب إلى قطيع غنم يقول ما يقال، ويساق إلى الوجهة المرسومة له دون اعتراض (سياسة القطيع / ذَبْح الخِرَاف) . ومن هنا كان المثقف الحقيقي عُرضة لقمع الدول التي يحكمها العسكر بالحديد والنار ، وبالتالي ستقوم

الأنساق السياسية البدائية _ مرغمة _ باستعمال نظرية العصا والجزرة ، أو الترهيب والترغيب ، أو المال والسُّوط .

وكل نظام فوضوي يحرص على تحويل المثقف المعارض إلى دجاجة مادحة ضمن عملية تدجين منهجية . فبواسطة تقديم المال تستطيع الحكومات المستبدة أن تُحيل المثقف إلى بُوق إعلامي أشبه بشاعر القبيلة في الجاهلية . وهذا المثقف الذبابي الذي صار بوقاً مادحاً وظيفته هي تلميع العناصر السلبية ، وتمجيد الطغاة ، وتقديس أفعالهم وإدخالها في هالة الأساطير والإنجازات التاريخية ، وتكريس عقلية قطيع الغنم في المستويات الفكرية للشعب ، والرد على المنتقدين للسلطة الحاكمة التي جاءت بانقلاب عسكري أو انتخابات مزورة أو على ظُهر دبابة أجنبية ، وتسفيه أفكارهم ورؤيهم بالخيانة والعمالة من أجل نزع الشرعية عن ذواتهم ، وسحب غطاء المشروعية عن منهجية نقدهم . إذن ، فالسلطات المستبدة في العالم تنتهج منهجية الاحتواء الناعم أو الخشن لتدجين المثقف لأنها لا تثبت للثقافة وجوداً خارج أيديولوجيتها النفعية الاحتلالية المسيطرة على البلاد والموارد البشرية ومصادر الطاقة لصالح نخبة حاكمة مقدسة لا تُناقش . وكل عوائد التنمية إنما تذهب إلى عليّة القوم المتنفذين دون الوصول إلى الشعب ، وفي النهاية وحده الشعب سيدفع الثمن الباهظ . وهذه الإرهاصات العنيفة في الدوائر السلبية المغلقة في تقاطعات مجتمع رافض لذاته تدفع باتجاه اختراع سياسة ثقافية تقوم بدور الرافعة الأخلاقية التي توطّر الهالة البراقة المشرقة للوهم .

إن اختراع برواز أخلاقي للجريمة هو الأساس الفكري لوظيفة المثقف في مجال استقطاب الأنظمة الدكتاتورية المدعومة خارجياً ، والتي تُغري من يقترب منها ثم تلغيه حينما يصير ورقة محروقة . وإذا عجزت منهجية الاحتواء الناعم فعندئذ تلجأ الحكومة إلى الإجراءات المؤذية جسدياً ، وقد تصل الأمور إلى التصفية الجسدية .

ومن خلال هذه الرؤية القاتمة للمشهد السياسي العالمي تبلورت عملية تخلف انسحابية ، حيث تداعيات التخلف على الصعيد الاجتماعي بكل مكوناته ، وصلت إلى المشهد الثقافي المتموضع في الحضيض ، فصار المثقف أشبه بالمتسول الذي يدور هنا وهناك باحثاً عمّن يقتنع به . وهذه نتيجة طبيعية لحالة الانهيار الاجتماعي العام .

وهكذا تتكشف خيوط المأزق الثقافي الحاد في مجتمع غير مؤهل للاقتناع بأهمية العلم والمفكرين . وقد ازداد الأمر سوءاً في زحمة الضغوطات الاقتصادية الشرسة التي جعلت تفكير

الفرد محصوراً في كيفية تأمين أنطقه وجوده الاستهلاكي ، حيث تتمركز الشهوة في البطن والفَرْج

فالفرد الذي يلهث لتحقيق رغيف الخبز وقد لا يُحصِّلُه، لن يذهب لشراء كتاب ، أو يستمع لندوة فكرية ، أو مؤتمر علمي . فإلهم الوحيد بالنسبة إليه تأمين الخبز له ولأسرته. وهذا الكلام صار بديهياً من كثرة تداوله ، ويعرفه الجميع بغض النظر عن مستواهم العلمي . وهذا المأزق الوجودي الخطير _ يشير بلا ريب _ إلى أن الثقافة لا تزدهر إلا في ظل ازدهار اقتصادي ، فعندما يشبع البطن يصبح العقل قادراً على التفكير ، وممارسة الفعل الثقافي بكافة أشكاله . وسوى ذلك تظل الثقافة محصورة ومحاصرة في خانة ضيقة للغاية في ظل مجتمع يتآكل ، وحضارة تنتحر .

وعلى الرغم من كل الصعوبات التي تحاصر مسيرة الثقافة إلا أن هناك ضوءاً في آخر النفق يعتمد _ بالأساس _ على نظرية الطفرات . فالطفرة الفكرية لا بد أن تظهر من خلال بعض الأنساق المحورية . فعلى سبيل المثال ، إن الكاتب المغمور يمتلك فرصاً عديدة للظهور سواءً في حياته أو بعد مماته . والكاتب الجيد قادر على تقديم نفسه عبر الأزمنة بغض النظر عن نشاط المؤلف أو كسله . فالمشروع الثقافي الرصين هو أفضل مروج لذاته ، لكن وصوله إلى الأضواء قد يأخذ بعض الوقت ، وقد لا يستطيع الكاتب رؤية نجاح عمله أثناء حياته .

وكلما ازداد الظلام ازدادت فرصة النور للظهور . وفي زحمة انتشار التخلف تتضاعف فرصة ظهور ضوء التقدم كإجراء مضاد للسائد الواقعي المكسور . فالنواة الفلسفية الضاربة في المجتمعات هي قوة فاعلية الحراك الاجتماعي ، وتبادل الأدوار المجتمعية ، وتعاقب الأجيال بصورة دراماتيكية.

وضمن هذه المسارات ستظهر قيم جديدة ، تتعلق بتغييرات جذرية في الثقافة والثروة والنفوذ السياسي والاقتصادي ، والسيطرة على منابر الإعلام ، والتمركز تحت أضواء الشهرة والمجد . ولا يمكن تجاهل القيم المتناقضة ، كالحياة والموت ، والصعود والهبوط ، والقوة والضعف . فكم من تلميذ تفوق على أستاذه . وكم من موظف فقير صار أغنى من مديره . وكم من سجين صار مسؤولاً عن سجنائه ... إلخ .

وهذا الحراك الاجتماعي من أعلى هرم السلطة إلى القاعدة (القاع) ، يعطي فكرة جذرية حول التغيرات في المجتمعات عموماً . فمبدأ الظهور والزوال يدل على نظرية الأطوار الحياتية

التي تقود إلى مركزية التعاقب والتداول . فالكيانات الروحية أو المادية ، الفردية أو الجماعية ، الذاتية أو الدولية ، المحكومة أو الحاكمة ، تعبر أطوارَ الولادة ثم الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة ثم الموت . وحينما تموت تظهر كيانات جديدة تمر بنفس الأطوار ، وهكذا دواليك .

وفي ظل هذه التغيرات الجسيمة فإن الثقافة قادرة على إيجاد مكان لها رغم الازدحام الاستهلاكي الخانق في صيغ الإفرازات البشرية الجدلية . والمهم أن يظل الفرد يقاتل حتى اللحظة الأخيرة مهما تعرّض للهزائم ، لأن اللحظة الأخيرة قد تحمل بشائر النصر الحاسم الذي يُنسيه مرارة الخيبات المتكررة ، وينتشل تاريخه من أحوال الهزيمة إلى سدة المجد . ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً . وكما قيل فالدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطر ، وكلاهما سينحسر ليس يثبت .

وحياة الإنسان على الأرض مبنية على الأمل بإرادته ورغم أنه في ظل وجود احتمالات تحدد مصير الفرد . فالذين يتعلقون بالنجاة والحياة الأبدية بعد الموت إنما يبنون أفكارهم على الأمل ، لأن احتمالات دخول الجنة أو النار واردة بنفس القوة . والإنسان الذي يعمل ويجتهد رغم علمه باحتمالية دخوله النار ، إنما يبنّي منهجية أعماله على الأمل بدخول الجنة ، على الرغم من يقينه التام بعدم معرفة مصيره الشخصي ، وعدم امتلاكه صك غفران ، لكن الأمل يفتح له الأبواب المغلقة .

والكاتب أيضاً يُقدّم عُصارة فكره وعُمرة في الكتابة ، مع أن احتمال أن يظل مغموراً وارد بقوة ، لكنه يتعلق بالأمل بتثبيت اسمه في صدارة المفكرين . وهكذا فإن محورية النواة الفلسفية للإنسان تدور حول الأمل . وليس الأمل خدعةً ضد المنطق ، أو حلمًا زائداً عن إطار الواقع ، بل هو لبّ الواقع ، وبدون الأمل ينهار الإنسان ، ويصبح الانتحارُ _ بالنسبة إليه _ هو المصير الحتمي والحل الوحيد .
وكما قال الشاعر :

أَعْلَلِ النَّفْسَ بِالْآمالِ أَرْقُبْهَا ما أَضِيقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الْأَمَلِ

وبالتالي فنحن محكومون بالأمل ، ولا نملك إلا أن نصادق الأمل إذا أردنا مواصلة مسيرتنا على هذا الكوكب . ومن خلال هذه الرؤية المركزية تكون فلسفة الثقافة ملتصقة تماماً بالأمل في مستقبل أكثر جمالاً وأقل وحشية ، وصولاً إلى التقاء الإنسان بإنسانيته في هذا العالم المحصور في أنوية الكراهية والعنصرية ، والتي أحالت الأنساق الفكرية إلى مأزق وجودي حاد .

وليست وظيفة المثقف أن يطرح أسئلة على نفسه والآخرين ثم يذهب إلى النوم في بيته . بل عليه أن يُشيد صرح فلسفته وفق الأسئلة وإيجاد الإجابات المركزية الواضحة بعيداً عن المراوغات غير المجدية، والمواقف غير المحسوبة. فالمجتمع البشري لا يقوده الناس العاديون ، بل يقوده أصحاب السلطات الروحية والمادية . والمثقف صاحب سلطة تنبع من قلمه ، كما أن الحاكم صاحب سلطة تنبع من صَوْلجانه . وإذا تضافرت جهود السلطات لخير البشرية فإن سلطة جمعية ستنشأ يكون بيدها مركز قيادة الفرد والمجتمع نحو بر الأمان، وهذا لا يتأتى في مجتمع مسحق من الآلهة والعبيد، يكون فيه الحاكم راعي غنم ، والشعب قطيع غنم .

ومن خلال هذه المقاربة الحاسمة ، تتضح أهمية بناء الشعب بناءً منهجياً ثقافياً لكي يحتضن الشعب الأفق الثوري ضد الخرافات ، ويعمل على تعميم الحس التنموي ، وأخذ روح المبادرة بنفسه دون انتظار المشاريع الحكومية أو الأهلية . فالرهان على الشعب والوصول إلى الجماهير لأنها القادرة على أخذ زمام المبادرة وتعميمها في المجتمع . إذ إن الإمبراطوريات تأتي وتذهب ، ويظل الشعب . وهذا يعكس الأهمية البالغة للدور الشعبي في قيادة المراحل الاجتماعية بكل مرغباتها . فالدول التي يحكمها آلهة ، لا يهتمها إلا تثبيت وجودها وإطالة عمرها لأطول مدة زمنية ممكنة ، بغض النظر هل عاش الشعب أم مات . ومن هنا كانت الوسيلة الناجعة لإحداث تغيير جذري في المجتمع، وانتشاله من الضياع ، وتوجيهه نحو التقدم الفعلي لا الشعائري ، هي بناء الجماهير لتقود معركة العلم والثقافة والإبداع بنفسها من أجل حاضرها ومستقبلها ، أي إنها تحمي مصيرها بنفسها عن طريق قلع شوكتها بيدها لا بيد الآخرين الذين يتاجرون بأحلام الجماهير لتحقيق منافع شخصية بحتة .

وعلى الرغم من التوجه المصيري نحو الشعب كحل محوري شامل ، إلا أن دور النخبة يظل محتفظاً بوضعه المركزي ، وزخمه الأساسي ، لأن الجماهير بحاجة إلى رؤوس قيادية تدلها على الطريق الصحيح قبل أن يتولى الشعب قيادة نفسه بنفسه . والحديث عن قيادة الجماهير لذاتها يعني وجود سلطة حاكمة قائدة تزرع الوعي في نفوس الناس ليصبحوا عقلاً جمعياً واحداً يتصرفون

من منطلق التفكير الواعي الناضج ، لا منطق قطع الغنم الذي يتبع الراعي أينما ذهب دون تفكير

وكل هذه القضايا المحورية في تشكيل العقل الفكري للجماعات الإنسانية ، تتطلب وجوداً اجتماعياً فاعلاً ومتجانساً ، كي تُقدّر مسيرة الثقافة على لعب دور أساسي في الحراك الاجتماعي لا أن تقف على الهامش متفرجةً على سير الحياة دون امتلاك أي دور فاعل فيها .

إن الفعل الثقافي ليس ترفاً زائداً عن الحاجة ، أو قطعة أثاث هامشية في البيت المجتمعي ، بل هو مشروع تنموي هادف إلى إعادة إحياء الإنسانية التي وصلت إلى الحضيض بفعل الزخم المادي الاستهلاكي الهوسي القاتل لفاعلية الروح . وإذا أردنا صناعة فرد صالح لإعمار الأرض ، وقادر على إصلاح المجتمع ، لا بد من صناعة العقل البشري بكل حرية بعيداً عن منطق التدجين والتلقين . فبناء الإنسان الحقيقي لا يتم إلا ضمن اتجاه مضاد لعبادة الأصنام الروحية والمادية .

والفعل الثقافي هو الثائر والثورة والتشوير ، الذي يصعق المجتمع الميت ليُعيده إلى الحياة ، ويرجُ الفرد كي يفيق من غيبوبته . إنه فعل محوري يمتلك أدوات التغيير الواقعية ، وليس فعلاً نظرياً سجيناً في حبر الأفكار على الورق .

وهذه الأفكار تظل محاولة مركزية لاكتشاف الطريق الفكري وأبعاده الثقافية ، وصولاً إلى مجتمع متماسك بشكل حقيقي لا صوري ، يعرف متى يقول : نعم ، ومتى يقول : لا . وهذا هو المجتمع الثقافي المنشود الحر الذي يمتلك القدرة على التفكير والنقد والنقض بكل حرية مسؤولة ضمن نظام سياسي عادل ومتماسك وذو كفاءة يُغلب مصلحة المجتمع على مصلحته الذاتية .

إن هذا المبحث " المأزق الاجتماعي للثقافة " يأتي ضمن نظام متكامل من المحاولات الجادة لاكتشاف أبعاد الإنسانية المتزاوجة مع أبعاد الثقافة ، لأن بناء العقل هو بناء الذات الحضارية للمجتمع الإنساني . ويأتي _ كذلك _ من نظريات ذاتية وأفكار شخصية بعيدة عن التقليد . وهذا المنهج الفكري الشخصي يرمي إلى ابتكار فلسفة اجتماعية ثقافية خاصة ، ترفض نسخ أفكار الآخرين .

التعريفات المنهجية للثقافة

إن التعريف الفعلي للثقافة لا ينبع من ترتيب بعض الكلمات لتدل على فاعلية معينة ، بل ينبع من الوظيفة المركزية للفعل الثقافي داخل المجتمع ، وأبعاد تلك الوظيفة في جزئيات التأثير الإيجابي في نقل المرغبات الاجتماعية السالبة إلى حظيرة الفعل الاجتماعي الإيجابي على الصعيدين التحتي والفوقي . وليس التلاحم المنهجي في صور ثقافة التيار البؤري لمركزيات المجتمع ، إلا خطوة أولى نحو تشييد الظواهر المعرفية الأساسية بشكل قادر على نقل المجتمع من التخلف إلى التقدم .

فاللغة المنطقية في نخاع الإيقاع الحراكي للمجتمع تنال شرعيتها من حتمية زلزلة المجتمع ، لأن المجتمعات الميتة تحتاج إلى زلزال يخرجها من قبرها ، أو صعقة كهربائية عنيفة توقظها من الغيوبة .

وهكذا يتضح أن دور الفاعلية المعرفية لا يقتصر على إشباع الرغبات الداخلية للأفراد والجماعات ، بل إن الوظيفة التكريسية للنظام السياسي الثقافي المتحد بالتكوينات المجتمعية التحتية والفوقية هي تأطير نظام وجداني تكويني في أنساق المجتمع قادر على التحول إلى تطبيقات واقعية ذات تماس مباشر بالمادة . والمأزق الإشكالي الذي تحياه الثقافة في سياقاتها الحضارية هو تموضع الأنساق المعرفية في إفرازات الروح دون الوصول إلى المادة . فالكثير من المثقفين _ مثلاً _ تكون أعمالهم في واد ، والمجتمع في واد آخر . وحينما ينتهي المتلقي من قراءة أحد إنتاجاتهم يجد نفسه في غبش الفوضى ، فلم يتغير شيء فيه ولا في المجتمع . فتكون القراءة في تلك اللحظة مضيعة للوقت ، وهي التي كان يراد منها أن تكون خطوة أساسية في طريق التنمية البشرية الشاملة . وهذا المأزق الخطير جعل الناس ينظرون إلى المثقف على أنه إنسان معقّد قادم من كوكب آخر يظن نفسه الذكي في وسط الأغبياء ، والعالم في وسط الجهال ، والمؤهل للقيادة في وسط الرعاع . وهذه الصورة القاتمة ينبغي أن تحال إلى دراسة حقيقية من أجل تشريحها ، وتفريق أجزائها ، وإعادة جزئيات الأنوية التكوينية وفق نظام مصالحات فعلية وتأسيسية بين المثقف ونفسه ، والمثقف والمجتمع ، والمجتمع ونفسه ، وصولاً إلى السلام المجتمعي على مستوى الداخل الشعوري ، والخارج التطبيقي . ومن خلال المصالحة الاجتماعية الذاتية تتحول الأدوار الثانوية إلى إيقاع مركزي أساسي في صيغة التعايش الإنساني _ فردياً وجماعياً _ مع الثقافة

الركيزة . إذ إن نقل المعطى الثقافي من إشكالية الإهمال والإقصاء والتهميش وانعدام الفاعلية إلى مركزية صنع القرار الاجتماعي السُّلطوي العمومي يمثل الهدفَ التكويني لإحياء المجتمع ، وإعادة صياغة أنساقه الاجتماعية ومفاصله الاقتصادية وفق سياسة منهجية فعالة على الأرض ، وليست شعاراتية خطابية تخديرية . إن المبادئ العنصرية التي ترمي إلى تجذير النواة الفكرية لإفرازات المجتمع في نطاق الوعي المنطقي الحاسم تحال إلى دلالات وجودية ذات صلة مباشرة بالمشروع المعرفي الحراكي .

فالمكاسب التي تحققها سياسة الثقافة الثورية تنعكس إيجاباً على المفاهيم الإنسانية ، بحيث يتموضع الفرد في مجالات التنوير ، وهذا يقوّي الأداء الجماعي لتطبيقات سلطة المعنى في المجتمع ، مما يحاصر الفوضى ويقضي عليها تمهيداً لنقل التحليل المنهجي الإصلاحى إلى صيغ المجتمع النظامي الديناميكي الذي يعرف أين هو ذاهب . وإذا تكرست سياسة محاربة الفوضى الاجتماعية أدرك الفرد أهميته داخل الجماعة ، وأدركت الجماعة أهمية الفرد الذي صار مشروعاً خلاصياً وتخليصياً ، لأن الإنجازات الفردية الخارقة هي التي تُحدث نقلةً نوعية في المجتمع، وتنتشله من قاع الحرمان لتضعه في بؤرة استقطاب ضوء التقدم الفاعل والفعلي .

وفلسفة السياسات الخاطئة في المجتمعات المتخلفة تنبع من اعتبار الفرد تحصيل حاصل بلا دور حقيقي ، وهنا يشعر الفرد أن وجوده كعدمه ، مما يقتل فيه روح الانتماء إلى الأنساق الإنسانية الفعالة ، فيتحول الفرد إلى آلة استهلاكية بحتة ، ويصير عبئاً على نفسه وعبئاً على المجتمع ، شاعراً في قرارة نفسه أن المجتمع عبء عليه . وهذه التداعيات الإفرازية تجعل المجتمع مشلولاً لا يحرك ساكناً ، وإذا تحرك فإنه يتحرك إلى الوراء .

إن الصياغات الاجتماعية تتحدد بالأساس _ وفق الخلفية الفلسفية للمشروع الثقافي الواعي . فمدلول الوعي يتحول باتجاه مستقبلية المعرفة الثورية في الأنساق المجتمعية بفعل الحشد الشعوري المنطقي لقيمة العلم في انتشار المجتمعات من مأزقها، وانتشال الثقافة من مأزقها الحضاري .

وهذه العملية الإنقاذية ترمي إلى إعادة الزخم إلى الوظيفة الحضارية للفعل الثقافي المنطقي في استعادة أمجاد الكلمة كخطوة لا بد منها في طريق بناء الذات الكيانية ، والمجتمع الكينوني (المجتمع المتكون من وحدة كيانات طبقية وتطابقية ، هرمية الشكل ، وأفقية التأثير العقلاني ، وواحدية النواة غير المتشظية) .

فالمكتسبات الطبيعية للمشروع التنويري لا يتأتى الحصول عليها إلا من خلال نظام اجتماعي ثقافي ديناميكي قادر على صناعة أنظمة متحرّكات في البنية التحتية لشرعية الفكرة ، والبنية الفوقية لمشروعية التفكير .

والفلسفة الإشكالية التي تواجه مشاريع التحديث أن صياغات التنوير التنويري لا بد لها من حامل ذي كفاءة يضطلع بمسؤولية نقل الأنساق من أبجدية التصور الذهني إلى جديلات التطبيق الواقعي ، وهذا الحامل يفترض أن يكون التجمع البشري المتجانس ، لكن المجتمع الإنساني جثة هامة محاصرة بنظام استهلاكي مضاد لبشرية المعنى . واعتماداً على هذه الرؤية صارت الثقافة أشبه بعملية إجراء تنفس اصطناعي لجثة ساكنة هي المجتمع الميت .

وهذا التحدي الصادم يفرض علينا سؤالاً غاية في الخطورة : هل يعود المجتمع الميت إلى الحياة نتيجة الثقافة الداخلية أم نتيجة الثقافة الخارجية ؟ . وبعبارة أخرى هل المجتمع الميت قادر على إنتاج ثقافة حية زلزالية تنبع من خلاياه الميتة أم ينبغي حقن المجتمع بثقافة خارجية ناتجة من خلايا حية ؟ . هل يستطيع المجتمع المصاب بالسرطان المعنوي إنتاج مضادات داخلية للمرض أم ينبغي تلقي علاج خارجي ؟ .

إن المجتمع الميت لا بد أن تظهر فيه خلايا حية تشكّل قيمة الرفض ، وهذه الخلايا تحتفظ في أرحامها ببذرة الحياة ، ولكن حينما يأتي الوقت المناسب تتدفق قيم الرفض الحية والحرّة على شكل طفرات تقفز على الجدار العالي ، وتتجاوز الطريق المسدود إلى طريق جديد تم اكتشافه . ففي زحمة الظلام يولد النور والتغيير . وفي آخر النفق لا بد من ضوء .

والعبارة القائلة بأن فاقد الشيء لا يعطيه صحيحة تماماً في النواحي المادية لا المعنوية . فمن لا يملك مالاً لا يقدر أن يعطي المال . ولكن الأمور ذات المنحى النفساني المستند إلى فلسفة سيكولوجيا التغيير تؤول إلى تيارات تحمل فكراً مختلفاً ، وعندها فاقد الشيء قد يعطيه . فمثلاً ، المرأة التي تخون زوجها قد تربّي بناتها على الإخلاص لأزواجهن ، واللص قد يُبعد أبنائه عن مهنة السرقة . والطبيب المدخّن يطلب من مرضاه الابتعاد عن التدخين .

ومن خلال الأمثلة الواقعية السابقة نستطيع تكوين صورة منطقية حول الإمكانية القوية لظهور قيم رفض موت المجتمع في مجتمع ميت ، ووفق هذه القيم يتم تأسيس تيار بنائي واعٍ للنهوض بالجماعة البشرية زمنياً ومكانياً اعتماداً على المتمركزات الثقافية التي تعرف ماذا تفعل (الآنية

المعاصرة للفعل الاجتماعي) ، وماذا تريد (مستقبل البناء الحضاري الثقافي الشمولي) . وفي الأمثال : لا يذهب بعيداً من لا يعرف إلى أين هو ذاهب .

والمشروعية الثقافية قادرة على امتلاك البوصلة المجتمعية وتوجيهها نحو تشوير الخلايا الميتة لإعادتها إلى واجهة المشهد الإنساني الحي والحر . فالحياة والحرية متلازمان ، توجدان معاً وتغييان معاً . إذ إن منطق الدلالة الصانعة للحراك الاجتماعي ، لا بد أن يمتلك مقومات الحياة الثورية الهادرة النابعة من الضمير الجمعي لا إفرازات السياسة البوليسية . ومن هناك تظهر الحرية في التفكير كمبدأ ثابت لإيجاد صيغ اجتماعية حقيقية بعيداً عن النفاق الاجتماعي وتلميع صورة الخديعة . فالثقافة يراد منها أن تكون ظلاً تطبيقياً لصولجان الطغاة دون أن تُمنح فرصة للتفكير في ثنائية (نعم / لا) . وهذا يجعل الثقافة كائناً مسخاً يُردّد ما يقال ، وهذا ضد المنحى الثوري الواعي للفعل المعرفي التفكير القادر على انتشار المجتمع الذي يغرق .

إن مخيال قانونية الاتجاهات المجتمعية يستمد فلسفة شرعيته من الإطار الخيالي المنطقي للثقافة الاجتماعية . فالتطبيق الخيالي لا يعني التخندق في عوالم الوهم والكوابيس والهلوسة ، بل هو تيار فاعل تمهيدي لا بد منه إذا أردنا نقل الرؤية الذهنية إلى الواقع المباشر . فالمشاريع العظيمة تختمر أفكارها في الذهن قبل انتقالها إلى الأرض المادية . فكأن الخيال هو الأرض المعنوية الخصبة الحاضنة لبذور التحولات الاجتماعية الكبرى قبل تعزيز التحول الذهني للشعور المعرفي .

والمجتمع الحي المستند إلى الذات الثقافية في تنقلاته الأمامية والخلفية ، هو تركيب ديناميكي يمتلك العقل الذهني المشاعري الذي يدعم الإسقاطات المخيلية على أرض الواقع . فليست الثقافة فعلاً تلقائياً غوغائياً ، بل هي نظام متواليات دقيق من بناءات الصراع مع الانطفاء ، والصدام مع الانقراض ، والتحريك ضد الموت بمعناه الفلسفي . إذ إن قيم الرفض المتماسك الموجودة بكثرة في الأنطقة الشعورية للمبدأ الحضاري المجتمعي ، تجعل من الثقافة خط الدفاع المتقدم عن تراكيب المجتمع المركزية : ذاكرة المبدأ الماضي ، وآنيّة الوعي الحاضر ، وحُلْم التأسيس المستقبلي .

وعلى الرغم من وعي النخب بهذه الحقائق _ بشكل عام _ إلا أن أخذ الموضوع بعين الاعتبار ما زال حلاً بعيد المنال . فالثقافة في المجتمعات الغارقة لا تعتمد على الصناعة المنهجية المحترفة ، وإنما على حسن النوايا ، والتعويل على سداجة الموهبة المجردة ،

والانكماش في بؤرة الهواة الذين يعتبرون المشروع الثقافي فرصة لملء وقت الفراغ ، وممارسة هواية محببة للنفس لا أكثر ولا أقل .

وهذه المقاربات السالبة أدت إلى ذبول صورة المثقف ، وغياب نجومية المبدع ، وانحسار المد المجتمعي الواعي لمصلحة انتشار الهوس الاستهلاكي المادي التجاذبي . حيث تصبح تجاذبات الحياة وتعقيدات الوضع المعاش هي الثقافة الاجتماعية السائدة. فصار الدوران في فلك الرغبة هو الطموح الثقافي المعرفي ، وتوفير لقمة العيش للأسرة هو النواة الأساسية للحضارة ، وانتظار الراتب آخر الشهر بكل شوق هو المتعة الأدبية التي ما بعدها متعة .

وبالتالي فالنواة الاستهلاكية الجدلية حلت محل المشروع الثقافي خصوصاً مع انحصار تفكير الفرد في البطن والفرج . وهذا الوضع الكارثي كومة مسامير في نعش المجتمع المحتضر . وإذا أرادت النواة الأساسية لاحتضار المجتمعات أن تنفض غبار الانقراض عن ذاتها ، وتعمل على إعادة إحياء الخلايا المجتمعية الميتة لا بد لها أن تتأسس وفق النظرية الثورية المعرفية ، فالمعرفة_بالأساس_ هي أنظمة انقلاب على الأوهام في رؤوس الناس ، ترمي إلى تغيير الوضع الأسطوري القائم في الأذهان المنعكس على هلامية الواقع المنكسر .

ولا يمكن لأنساق الأطوار السياسية أن تتجاوز عثرتها إلا بالتأصيل الفاعل لمستويات الشعور المنهجي بشكل مضاد للخرافة الذهنية في العقول البشرية ، حيث إن المتوازيات السلطوية الأبوية لا تفترض وجود جماعات بشرية قادرة على اتخاذ القرار ، لذلك تقوم السلطات القمعية بفرض نوع من الوصاية والحجر على عقول الناس غير المؤهلين لمعرفة مصالحهم _ من وجهة نظر السلطة السياسية الأبوية _ .

وهكذا فإن إفرازات السياسة البوليسية قد اختطفت الشعب بكل ما يحمله من ذهنية تاريخية وحاضر معرفي وطموح مستقبلي . وبالطبع قاد هذا الوضع إلى إنتاج مجتمع مشلول يعتمد على القوى الخارجية (الحكومة أو الدول الأخرى) لحل مشاكله . فظل الشعب جالساً في مكانه ينتظر الحلول السحرية القادمة من هنا وهناك مقنعاً نفسه بأنه لا يملك أهلية التغيير ولا سلطة التعبير . مما أدى إلى تفشي العقل التبريري الانتكاسي بصورة شرسة للغاية صار من المستحيل معها إيجاد حلول عاجلة للمشاكل التي تتفاقم . فالأسد حينما يتم حقنه _ طول عمره _ بأنه خروف فسوف يصل إلى مرحلة يصدق أنه خروف ، ويتعامل مع ذاته والآخرين وفق هذا الأساس . ولا يمكن أن يصدق أنه أسد إلا إذا تم إحداث تغيير جذري في الخطاب الشكلائي والخطاب

الجوهري ، وتغيّر معطيات البيئة المحيطة بالأنساق الحياتية التي تصاب بالشلل نتيجة إفرازات مجتمعية خاطئة متخذة في المخرجات السلبية بفعل الاعتماد على مدخلات مشوّشة ومسيّسة بشكل أسطوري مُغرض .

وفي زحمة هذه الانتكاسات المتوالية نتجت حالة ثقافية ممسوخة واصطناعية أدّت إلى صناعة منهجية للمثقف الدُّبّابي الذي يعمل بوقاً يردد ما يُطلّب منه أن يردده لقاء بعض المنافع الشخصية . وبكل تأكيد فإن مجتمعاً ثقافياً موبوءاً بهذا الشكل غير قادر على منح أفرادهِ صورة الرمز المعرفي الموثوق . ومن هنا صارت شخصية المثقف في عيون الكثيرين أشبه بالمتسول الذي يركض هنا وهناك حالماً بتسويق إنتاجاته في بيئة غارقة في المادية ، وقاتلة للإبداع .

ولأن الإبداع هو المعادلة المنطقية للحرية ، فإن أنساقاً مجتمعية كثيرة سوف تعارضه خوفاً من النور ، لأن السجين الذي تعود على الزنزانة المظلمة سيجد نور الشمس شيئاً شاذاً مؤلماً ، وبالتالي فإن السجين فاقد الإرادة سيعارض حريته مؤثراً سلامته ذاته ، ويرفض النور مؤثراً حياته . وهكذا يتحول الفرد إلى آلة ميكانيكية قامعة لذاتها في مجتمع دُّبّابي مقموع وسائر ضد الحرية ، لأنه يعتقد أن الخلاص النوراني يعني نهاية النمط الاستهلاكي الشهواني . والفرد إذا اعتقد أن الحرية ستهدد مصالحه فإنه سيقاومها بكل قوة ، ولكن إذا آمن أن طريق خلاصه هو اعتناق الحرية فإنه سيتبناها منهجيةً حياتية لا مفر منها .

وستظل تقاطعات إنسانية مجتمع الثقافة _ رغم كل الثغرات في بنائية المجتمع والدولة _ هي المفاصل الحساسة في تكوينات مستقبلية الاختيار الحر للمشروع الفكري التنويري . فالفكرة الأساسية في الهاجس الاجتماعي هي ضرورة المضي قدماً رغم وجود الثغرات ، لأن مسيرة النهضة لا بد أن تحتوي على إيقاع متحرك قادر على ردم الثغرات مباشرة لكي يتم التأسيس وفق قاعدة صلبة متماسكة لأن " درء المفسد أولى من جلب المصالح " .

فقضاء وقت طويل في تدعيم أساسات البنيان أفضل من البناء السريع على أسس غير ثابتة . صحيح أن إنشاء قاعدة اجتماعية صلبة قادرة على توفير الخلفية المتينة للثقافة قد يستغرق وقتاً طويلاً للغاية وجهداً هائلاً ، لكنه سيظل الضمانة الأساسية لتوفير مسيرة متقدمة دون وجود ماضٍ مهزوز مليء بالثغرات يفرض على المجتمع المتقدم أن يتقهرق في الطريق المفصلي الذي يُحدّد مصائر الكيانات الروحية والمادية .

وإذا كان الجوهرُ الحاكم في تقاطعات مفصلية الرؤية الاجتماعية يفرض وجودَ أنساق معرفية محدّدة ترمي إلى التوفيق بين العَرَض (القشور) والجوهر (اللباب) بما يضمن الحيلولة دون حدوث صدام بين الثابت والمتحوّل في الشروط الاجتماعية السياسية ، فإن العَرَض الذي يُشكّل خط الدفاع الأول عن المضمون الفلسفي لثورة المجتمعات تنويرياً يقوم بدور مُشابه ، حيث يتحوّل العَرَض (الغلاف الظاهري) إلى نوع من الشَّرْطية الحواجزية ، أي التحوّل إلى حواجز لا تسمح بالعبور إلا إذا تحققت الشروط الاجتماعية بما فيها تحقيق الحد الأدنى من البناء الثقافي الإنقاضي الموجه لمنع تحول الفرد إلى آلة ، ورفض انتقال المشاعر الإنسانية إلى متواليات ميكانيكية شَيْئية تعتنق المصلحة الذاتية كبديل عن المشروع الإنساني العمومي . والإنسان إذا تحوّل إلى شيء في زاوية العَرَض والطلب ، فقد انتهى إلى الأبد .

إن دور عناصر الانتخاب الثقافي لا يتوقف عند تلميع صورة الجوهر الاجتماعي ، أو القيام بوظيفة الغلاف الظاهري الحارس للنواة المنطقية للمشروطية الاجتماعية⁽¹⁾ ، لأن الثقافة بحد ذاتها هي جوهر أصيل في بناء الذاكرة الجمعية للمؤسسات البشرية والمادية . وبدونها فإن التيارات الفردية والجمعية سوف تسير باتجاه مصاد للذاكرة ، وحينها تختلط قيم الزمن ، فيصبح الماضي حاضراً يأسر أصحابه ولا يسمح لهم بالخروج منه ، ويصبح الحاضر نسخة معاصرة للماضي وإعادة استنساخ للذاكرة ، وعندئذ تختفي معالم المستقبل ، ويصير الفرد لا يعيش حياته ، بل يعيش حياة أسلافه ، فيتحوّل المجتمع إلى نُسخ طبق الأصل لصورة قديمة ثابتة ، ويفقد الأفراد قدرتهم على التأصيل الإبداعي لأن الهروب من الحاضر إلى الماضي يصبح هو فلسفة الإبداع بكل تفرعاته . ومع زوال الشعور بالآنية المعاشة بوابة المستقبل ، تتكسر الأنظمة الوظيفية للجماعة البشرية في زاوية الشعور الاسترجاعي الذي يقع في أسر الماضي ولا يحيا اللحظة الحالية ، وبالتالي تؤوّل الكيانات إلى كتل ممسوخة مشلولة عاجزة عن دخول المستقبل .

(١) هي نظام الشروط التي تتبناها الجماعة البشرية ضمن منهجية الضبط الاجتماعي بما فيه من لوازم منطقية عُرفية ، وأسباب متلائمة مع المسار العمومي للمجتمع المسيطر عليه من قبل الأنظمة الأبوية (الدولة ، القبيلة ، الأسرة) ، ومسببات منهجية تعمل تحت سقف منخفض ومجتمع يتحرك ببطء ، ونتائج غالباً ما تكون متوقّعة بفعل السيطرة الشرسة على مدخلات المجتمع السجين في الذهنيات الجاهزة ، والمخرجات التي تغدو تحصيل حاصل .

لكن مستقبلية السياسة المعيارية لنهضة الفرد تتحدد وفق ملائمة البيئة المعرفية الموجودة في حاضنة المجتمع الكلي . فالفرد وحده _ مهما أُوتي من قوة وإصرار _ لا يقدر أن يبنّي صرحاً علمياً شامخاً في مجتمع هدام ، ولا يستطيع أن يثبت قيم الفضيلة في إطار اجتماعي رافض للفضيلة .

وكما أن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ لا يقدرّون أن يغيّروا المجتمعات إلا بوجود أصحاب ثقات يحملون الدعوة على أكتافهم ، فإن المثقف لا يقدر على بناء وعي التغيير الاجتماعي في متواليات التثوير المعنوي إلا في ظل وجود مؤمنين برسالته الإنسانية ، ومستعدين لنشر الإطارات المعرفية الرامية إلى صناعة الأداء التوعوي الذي ينقل المجتمع من عقلية القطيع إلى عقلية البؤر القيادية ، ويصهر المراحل ، ويحرق المسافات وصولاً إلى العقل الجماهيري وتغييره إلى الأفضل الثوري المضاد للأساطير ، والمناوى لجذليات الاستهلاك والانسحاب إلى الظل .

والمشكلة في المجتمعات المقتولة في مهدها أن الخوف يسيطر عليها ، مما يعيق تفكيرها ، ويجعل عقلها الجمعي مشلولاً . فالخوف من الحاضر الغارق ، والرعب من المستقبل المهدّد ، والرغبة من السياسة ، والاقتناع بأن الحياة السياسية لعبة الأثرياء ، والضغطات الاجتماعية ... إلخ ، كل هذه العوامل وغيرها تدفع المجتمع دفعاً إلى الانكماش في الغيوبة الاختيارية لأنها أكثر أمناً للفرد والجماعة _ من وجهة نظر المسحوقين _ ، وتبتز المجتمع بكل تشعباته لاعتناق المنفى الاختياري إذا أراد النجاة بنفسه من التحديات المحيطة بالأداء الإنساني العمومي .

والأمر ليس سهلاً لأن اعتناق الكيانات الإنسانية الفردية والجماعية من ثقل العوامل السالبة المتراكمة عبر حقبة زمنية طويلة من التخلف يستلزم تحرير الفرد من ذاته ، أي إرشاد الفرد كيف ينقلب على نفسه، فمن ينقلب على نفسه يجد نفسه، لأن تفوق الإنسان على ذاته يعني _ ببساطة _ تجاوز المراحل ، وصهر الأبعاد، مما يعزز فرصة نجاح انقلاب المجتمع على نفسه فكرياً لكي يعود قطار المجتمع إلى السكة . فكل طاقة القطار المبدولة وهو خارج السكة مضیعة للوقت والجهد ، وكذلك المجتمع .

واعتماداً على صياغات الثورة المعلوماتية المجتمعية المناوئة للفوضى فإن وعياً ناشئاً وجارفاً سوف يفرض ذاته من خلال الأنساق المحورية لديناميكية سياسة الحياة المعرفية . فمن أجل تثبيت الوعي السياسي بأهمية الاستثمار في العقول ومستقبل المعرفة لا بد من قرار سياسي واعٍ

قادر على التجميع لا التفريق ، تجميع طاقات بؤر المعنى لا تفريق الجهود العقلية للمواهب المكوّنة والناشئة .

فالمجتمع محصور في خانة المحكومية الخاضعة لسلطة حاكمة تحتكر استخدام العنف وتوجيه الموارد البشرية والمادية للبلاد⁽²⁾ . وهذا ليس عيباً يقدح في ذات المجتمع ، لأن كل تجمع بشري لا بد أن ينقسم إلى حاكم ومحكوم كي تسير عجلة المجتمع . لكن العوامل السالبة هي التي تنشئ دول الآلهة والعبيد . وهذا سبب الخلل في تركيبة المجتمعات المتخلفة العائشة في عزلة الوهم والكذب على الذات لإيجاد جدليات حياتية معيّنة تُستخدَم في تبرير الأخطاء لا تصحيحها ، والتحايل على الذات والآخر الداخلي من أجل صناعة أقنعة جذابة معرفية وهمية لسوء التخطيط والإدارة ، مما يجعل المجتمع بكل إفرزاته غارقاً في النفاق الاجتماعي والرياء ، فتصبح العلاقات الاجتماعية الحاكمة في الكيانات السياسية البدائية أشبه بسوق نخاسة . ومن هنا نفهم إشكالية التخلف الانسحابي في المجتمع .

إن خطورة التخلف تكمن في تداعياته الانسحابية التي تضرب كل مفاصل الكيان السياسي الاجتماعي ، بحيث يصبح من الصعب المحافظة على حصيلة متقدمة في مجتمع متخلف ، لأن الأجزاء الرابطة بين المستويات المجتمعية شديدة الترابط ، فأى سقوط إرهابي في مستوى معيّن سوف يصل امتداده إلى باقي المستويات ، لأن التركيبة الداخلية لأي مجتمع تشبه حجارة الدومينو ، تشكّل وحدةً جماعية متماسكة ما دامت العناصر واقفةً ، أمام إذا سقط أي عنصر فإنه سوف يسحب كل المرگبات إلى الهاوية .

ومن خلال عرض المشهد السابق نلمح دوراً خفياً للثقافة ، وهو الموازنة بين الأنظمة المركزية واللامركزية داخل نطاق الجماعات البشرية المتجانسة . وبعبارة أخرى بناء النظم الاجتماعية وفق التوازي الحر لا التوالي منزع السيادة ، لأن أنطقة التوازيات تحتفظ بزخم الحراك الاجتماعي والتقدم حتى في حالة الانكسار الجزئي لبعض العناصر . أما إن بُني المجتمع وفق المتواليات

(٢) هذا هو التعريف العلمي الدقيق للحكومة . فاحتكار استخدام العنف يقصد به أن السلاح محصور في يد الدولة دون غيرها ، وهي التي تقرر زمان ومكان استخدامه . كما أن الموارد الوطنية في قبضة الدولة ، هي المسيطرة عليها ، والتي تقرر الوجوه التي تُصَرَف فيها .

العاجزة فإن مفاصل الكيان السياسي في انعكاسه المجتمعي سوف تتعطل إذا حدثت أية ثغرة جزئية ، أو انتكس أي عنصر اجتماعي في هذه المنظومة .

وهكذا يظهر دور داخلي ومحوري للنظم الثقافية يتمثل في تعزيز الجبهة الداخلية من خلال النظر إلى الجماهير كوحدات فردية مركزية صغرى تشكّل أنويةً جزئيةً تعمل بشكل منفصل، وتمثّل في مجموعها المركزية الاجتماعية الكبرى .

ومن الخطأ المرعب أن يتحرك المجتمع كوحدة ميكانيكية مثل القطيع ، بل ينبغي أن يتحرك كل فرد لوحده ضمن الإطار الجمعي العام الضابط لحركة الجزئيات . تماماً كما يتم تصنيع السيارة ، حيث يقوم كل عامل بتأدية فعل جزئي محدد منفصل عن أفعال العمال الآخرين ضمن خطة تجميعية شاملة تسفر عن الوحدة المتماسكة الأساسية (السيارة) .

أما إن تحرك الأداء البشري ضمن الفاعلية الكلية دون اعتبار أهمية النواحي الجزئية في العمل المستقل ، فسيتحول النظام الاجتماعي إلى قطيع ميكانيكي يؤدي فعلاً اجتماعياً اصطناعياً ومعمداً على بيئة بشرية وهمية مصبوغة بهالة التجانس المخادع ، فيصبح المجتمع ضد المجتمع ، وتصير الأنساق البشرية انعكاسات فلسفية آلية تعاني الغيوبة المعرفية المتماهية مع البناء على أساس عاجز عن توفير الزخم للبنية الفوقية. وهذه الحالة تحكم بالإعدام على القيم الثورية الإبداعية ، وتجعل من الوهم حقيقةً ظاهرية ، يُضَيِّع المجتمع كل طاقته في تلميعها وتقديمها على أنها المشروع المخلص ، والمشروع الخلاصية النهائية والحاسمة .

ومن الأهمية بمكان أن تنبع طرائق المنهجية الثورية من فلسفة التفكير خارج عقلية القطيع . أي أن يرى الفرد بعينه لا عيون الأنظمة الأبوية السلطوية . وهذا الأداء يستلزم أطواراً متعاقبة من البناء الذاتي للأفراد كي ينقلبوا على أنفسهم لكي يجدوا أنفسهم . فالفرد ضائع في إشكاليات الخوف الذي يجذّر الشلل الفلسفي في الفكر ، لأن الخائف لا يقدر أن يقوم بأي عمل إبداعي من شأنه نقل الحالات المجتمعية الحرجة من طور تخلف الوعي ومخلفات انكسار العقلية الناقدة الناقضة، إلى وقائع النظرية الاجتماعية المتحالفة مع القوة المنطقية للشعب .

وبما أن النظام المنطقي للإبداع لا تقوم له قائمة إلا في ظل الحرية المسؤولة المشددة وفق مبادئ الانقلاب الذهني وغربلة التعريفات وإعادة القطار المجتمعي المنحرف إلى السكة ، فإن جذور الحرية المنطقية لاجتماعيات اللغة الشاعرة بالذات والآخر والبيئة لن تقوم لها قائمة _ هي الأخرى _ إلا إذا ترسّخ الخيال كوعي ثقافي حقيقي على أرض الواقع .

لكن إشكالية الصورة النمطية التي تفترض أن انقلابية الأنساق هي الفوضى الشاملة ، سوف تعترض طريقَ البناء الأنثروبولوجي (الإنساني) في زخم الأنطقة الروحية لقيم الجماعات البشرية المتجانسة . وفي واقع الأمر ، إن الانقلاب الحقيقي إنما يكون ضد الفوضى . ويمكن القول إن الانقلاب الحقيقي هو إعادة ترتيب فوضى المجتمعات الحاضرة لمغامرات السياقات الفكرية الصيانية على أسس منطق المعرفة ومعرفية المنطق . ومن خلال تجميع تقاطعات الاتصالات العقلانية بين مختلف الأنظمة السلطوية ، يمكن للأفراد أن يجدوا أنفسهم داخل متواليات منطقية شعورية عادلة ، وقادرة على احتضان الزخم الشعبي وطاقّة الكيانات الإنسانية . وغير ذلك سوف يظل الأفراد يعيشون في دوائر الغربة داخل الوطن السّجن والسّجين والسّجان ، ويفقدون قيم الانتماء ، خصوصاً في مجتمع علائقي مصلحياً مفكك عاطفياً ، تشعر فيه الكيانات الروحية والمادية بأنها تحصيل حاصل ضمن دوامة سوسيولوجية متذبذبة بين الروح والمادة ، أو بين الوقائع التطبيقية لأحكام الروح والإفرازات العدمية لقسوة المادية البحتة .

وخطورة التذبذب الهلامي تظهر بشكل أساسي في قدرته على حصر الواقعية في المخيال الذهني التجريدي ، ومحاصرة المخيال في زاوية المستوى الشعوري الداخلي للعقل العاجز عن التطبيق ، فيغدو الفرد والجماعة هاجساً ركيكاً لأحلام اليقظة العائشة في الغيبوبة ، حيث مجتمع الحقد يسير ضد ذاته ، والفرد يختار العزلة والعيش بنفسه لنفسه لأن الإفرازات السياسية الهدامة ولدت فيه القناعة بأن الإنسان تحصيل حاصل ، ووجوده كعدمه . فالبقاء على قيد الحياة صار إنجازاً بحد ذاته ، والوقوف على القدمين لأطول وقت ممكن صار إنجازاً اجتماعياً كونيّاً . وهذا دمر الثقافة وأفقد الكلمة معناها وامتدادها وأبعادها في نخاع المجتمع النازف حتى الموت لأنه استمرأ الموت .

وهذا الحصار المفروض من قِبَل الفرد على نفسه ، والمجتمع على الفرد ، والمجتمع على نفسه ، هو بؤرية التمرّكز المتذبذب الذي يحاصر المستويات العقلانية لمعاني الفكر التربوي ، فغابت التربية الثورية للأفراد ، وحلّت مكانها أنظمة استهلاكية اصطناعية متفشية بشكل وبائي . وهكذا لم تتمكن زحمة الآلية الخيالية من إيجاد فسحة واقعية لتحويل المعنى إلى مادة ، والمادة إلى مركزية عضوية مساندة للإنسان ، فصارت المادة عبئاً على الفرد ، بل سيطرت عليه ضمن عناصر فوضوية كرسّت سيطرة الآلة المادية على الكيان البشري المتكامل ، وصار الاستهلاك نظاماً إنسانياً يفرض مشاعره الممسوخة الخاصة به على الأنساق الفردية والجمعية . وفي هذا الجو

الموبوء تحولت الثقافة إلى ترف وأثاث منزلي تكميلي فاقدةً معناها الوظيفي في عقد لقاء بين الإنسان وإنسانيته لأطول وقت ممكن .

وبقَدْر ما تكون الوظيفة الاجتماعية للمعنى الثقافي مكرّسةً في جذور النظام العقلائي للجماعة البشرية، تكون نسبة التصالح الذاتي في نخاع النظام السياسي الداخلي لتجانسية العمليات التنموية. أي إن تصالح الآلية المعرفية للخيال الديناميكي مع نفسها لمصلحة الجماعة بعيداً عن سوابب المصلحية الذاتية يزداد بازدياد تكريس الأهمية الوظيفية للمعنى ذي التطبيقات الواقعية ، وينقص إذا نقص منسوب الفكر السوسولوجي التثويري في الأنطقة العقلانية الراسخة .

وإذا تحرر العقل من الخوف سينقلب على ذاته ، ويعيد تشكيل جزئيات التحليل النظري لأقاليم الوعي الداخلي تمهيداً لصناعة تاريخ رسمي لوقائع التطبيق المعرفي . ومن الخطأ الفظيع أن يظل الجبر في دائرة الجبر ، وتبقى الكلمات سجينة في معتقلات الكسب . فأفضل وسيلة للدفاع الهجوم ، أي إن أفضل وسيلة للدفاع عن المكتسبات المعادلة للإحساس بالكيانات الحضارية ، هي اعتناق الكلمات من أسر الأبجديات الاجتماعية الخشبية التي توظفها السلطات القمعية لتخدير المجتمع ، وهجوم المعاني على انكسارات الوعي الروتيني القاتل للإبداع . فهذه الهجمة الزلزالية ترجّ المصاب بالغيوبة لكي توقظه ولا تقتله . فالثقافة هي علاج بالصدمات الكهربائية التي لا بد منها ، لأن الأنساق الوجودية لطبيعة المجتمع الغاطس في الغيوبة لا يمكن إعادتها إلى المستوى الحياتي الشعوري التفاعلي إلا بالصدمة ، وهذه هي وظيفة الكلمة الأساسية . ليس هذا فحسب ، بل يمكننا أن نقول _ من باب الاختزال المنهجي التأصيلي _ إن الكلمة صدمة .

ونحن إذ نؤسس المعنى الوجودي للمجتمع الثقافي الحر فإننا _ في واقع الأمر _ نؤسس مجتمع الصدمة الزلزالية ، حيث تغدو الكلمة النقية تياراً لتنقية الإيقاع الشعوري في زحمة الغشبي الجماعي العام ، لأن المجتمعات العالمية المعاصرة هي مجتمعات مفككة وتفكيكية قائمة على الشطط الطبقي والكراهية وغياب العدالة الاجتماعية والاستبداد السياسي .

ولا بد من رؤية محورية تنتشل المجتمع من ديمومة الانكسار ، لأن الفرد الذي يعيش يجب أن يركز في كيفية حياته ومعناها الوجودي الواضح والرمزي، لا أن يكتفي بالعيش مثل باقي الكائنات الحية ثم يموت بعد أن يكرس ذاته كرد فعل بئس لنظام استهلاكي متوحش وجارف .

لذلك كان الوعي الوظيفي بأهمية نقل فردية تحريضية الشعور البناء⁽³⁾ من طُور الانزواء المعرفي إلى حقبة ثورة التنوير وعياً ذاتياً فردياً متحولاً إلى عقل جمعي يُمثّل تضامناً المجموع البشري مع أبجدية تغيير مجتمع الأغنام ، ليصبح مجتمع العقول المفكرة لصالح المجموع دون انتظار النظم الجزئية الهلامية لحل المشاكل ، لأن المجتمعات الاستهلاكية المتخلفة تكون فيها الأنظمة الحكومية مركز المشكلة لا الحل . وعليه فإن انتظار ما لا يأتي ، أو التعويل على فاقد الأهمية ، أو الاعتماد على المشبوهين، كل ذلك سوف يُحيل مناهج التغيير إلى سياسات روتينية مقتولة في مهدها ، فتصير إضاعة الطاقات الروحية والمادية في مشاريع التنمية المنشودة هي التنمية بعينها . ويصبح الفشل هو النجاح الوحيد في الدول المتأكلة المتمركزة على هامش التاريخ، تماماً كالقطار الذي يُصَفّر سعيداً بنشاطه ، لكنه لا يعرف أنه خارج السكة منذ زمن طويل .

وفي ظل انكسار الوعي في مجتمعات استهلاك المعنى وانتحار أبجدية العاطفة المعرفية ، تبرز ظاهرة ميليشيات النخب الثقافية الوهمية (المافيا الثقافية) التي تنتهج فكرة تصفية الحسابات كقاعدة أساسية لا محيد عنها . فكما أن الفلتان الأمني يظهر بشدة حينما تخف قبضة الدولة ، فأيضاً الفلتان الثقافي يتكسر حينما يغيب وعي الدولة بأهمية الثقافة ، ويختفي وعي المجموع البشري بحدوى المشروع الفكرية للمنطق المعنوي ، فتظهر الشلل الثقافية التي تتعاطى مع الهم

(3) فردية التحريض هي الحالة الثورية الشخصية التي تغلي في عظام الإنسان بفعل وجود طاقة هائلة فيه بحاجة إلى تفريغ منطقي ذي دلالة . وهذا التحريض الثوري يحمل صيغاً تنويرية خاصة بالشعور الانقلابي البناء الذي يرمي إلى التعمير أو الهدم المنطقي ، لا الفوضى أو الهدم العبثي ، لأن صورة العقل الجمعي هي أطوار الانقلاب الباني الذي يضع الفرد في أقصى طاقته فيصهر المراحل وصولاً إلى مجتمع متماسك قادر على الوقوف على قدميه مستغنياً عن سياسة الترقيع والترميم الفوضوي، ومعتنقاً منهجية الثورة الشاملة لصعق المجتمع بشكل محسوب ومُوجّه ومرحلي . وهذه القيم تضمن عدم خروج القطار الاجتماعي عن السكة نتيجة سرعة التغيير الجنونية التي تحرق المجتمع ضمن مغامرات صيبانية مخفية وراء أقنعة التطوير والحداثة . ونخلص إلى القول إن التغيير الانقلابي المنشود هو قيمة تحريضية داخل الشعور الشخصي لرفض السالب ، واعتماد الموجب ، ومن ثم نقل المشاريع الذاتية إلى التطبيقات الواقعية التي تحمل تاريخ فلسفة أطوار الحداثة في الآليات والأعراض ، دون المساس بالجوهر الثابت .

الإنساني الحياتي من باب السمسرة التجارية وعقد الصفقات والمنافع المتبادلة ضمن روتينية الوساطة والمحسوبة . وهذا قضى على الفكر الناضج للمعرفة الاجتماعية ، وجعل من المجتمع الثقافي مجرد حالة صيبانية طائشة متشكلة وفق رد الفعل لا الفعل .

وإذا أردنا تعزيز المنحى البرهاني الذي يمنح الأفراد القدرة على فحص ما قُدم على أنه مسلّمات وفق البراهين الواعية لتحولات مُثاقفة السياسة ⁽⁴⁾ المتداخلة مع هموم الفرد العادي ، لا بد من نقل النواة المركزية للسلطة الاجتماعية من زاوية رد الفعل إلى الفعل ، لأن خير وسيلة للدفاع الهجوم .

وعلى الرغم من أن تكريس فعل التوعية الجماعية يتضمن جانباً كبيراً من الأفعال التجريبية ، إلا أن اجتماعيات سياسة الثقافة سوف تحتفظ بزخمها دون الانحراف عن السكة نتيجة الضمانة الجماهيرية التي توفر الاحتضان الكامل لمشروعية الاستعمال العقلاني لتوجيه الثقافة كمشروع إنقاذ وطني . وأية ثورة معرفية إذا بقيت في أحضان الجماهير سوف تستمر لأن السلطات السياسية تأتي وتذهب ، ويظل الشعب حاملاً مشعل الاستمرارية ⁽⁵⁾ .

(٤) مثاقفة السياسة : الوعي التكريسي للحالة الثقافية في إطار سياسة الأنوية الجماهيرية وربطها بالمنظور العقلاني للتغيير . حيث يبدأ التأسيس الفكري ضمن متوازيات من القمة إلى القاع والعكس في آنٍ معاً دون الحاجة للفصل بين سياسة الثقافة وثقافة السياسة ، لأن المجتمع الحر هو مجتمع ديناميكي بالضرورة يرفض أن يكون بحيرة راكدة تنتظر الحجر الذي يُلقى فيها من أجل التحرك . وأيضاً فإن عناصر الحالة الاجتماعية المحالة إلى تيارات ثقافية ، تضمن عدم تحول المجتمع الافتراضي المنشود ووقائع التدفقات المجتمعية العملية إلى مختبر تجارب ، وأيضاً ترفض تحول الفرد إلى فأر تجارب .

(٥) إن البيئة الجماهيرية الحاضنة للمشروع والضامنة للمشروعية ، لها أهمية بالغة في تثبيت الوعي كحالة سائدة وسيادية . فعلى سبيل المثال نجد أن في أمريكا تزدهر كرة السلة ولا تزدهر كرة القدم رغم أن أمريكا دولة غنية في الموارد البشرية والمادية قادرة على توفير فريق كرة قدم بأعلى المواصفات، لكن غياب البيئة الجماهيرية لكرة القدم جعل من اللعبة متخلفة في تلك البلاد تفتقد إلى الشعبية . ولأن كرة السلة تتمتع بالاحتضان الجماهيري تكرّست كلعبة أولى على الرغم من عدم وجود قرار رسمي بذلك، لأن الجماهير — في أي مكان — هي الحكومة الفعلية ، حتى لو ظهرت للعيان عاجزة تتصرف كالقطيع المحكوم دون اعتراض . ولو نظرنا إلى المجال الثقافي نجد — مثلاً — أن ألمانيا مملكة الفلسفة في الغرب بما قدمته من أسماء

*

٢

التطبيقات اللغوية لمفهوم المُغَايَرَة

إن قدرة النَّصِّ اللغوي على صناعة أبجدية الوجدان التفكيري الحر تنبع من قيمة زخم المغامرة لا المقامرة . فالمغامرة اللغوية المحسوبة هي المحك الأساسي لاستمرارية المشروع النهضوي لنقل المجتمع عبر الأطوار . إذ إن مشروعية التغريد خارج السرب تتضمن إحساساً فلسفياً بالذات الجزئية والآخر الداخلي الكلي ، لأن الفرد هو كينونة العقل المدبّر للمشروع التنويري في البيئة الجماعية المحيطة به .

لامعة على المستوى العالمي، وهذا لم يتوفر لأية دولة . لأن المزاج الشعبي في ألمانيا فلسفي بامتياز، وهذا الاحتضان الشعبي هو الذي وفّر هذا الامتداد للفلسفة . وهناك أمثلة عديدة جداً على أن الاحتضان الشعبي هو المحرّك الأساسي رغم أهمية القرار السياسي الرسمي . إلا أن أية سلطة حاكمة لا تقدر أن تفرض وجهة نظرها على الشعب إلا إذا رضخ الشعب لذلك . فبالإمكان قيادة الحصان إلى النبع ، ولكن لا يمكن إجباره على الشرب . فالشعب هو القوة الضاربة سواء تم تدجينه أم لا . ففي حالة التدجين تكون القوة كامنة مثل النار تحت الرماد ، ولحظة الانفجار لا يمكن لأحد أن يتوقعها . والنسر مهما قالوا له إنه دجاجة ، وعاش حياته كدجاجة ، لا بد أن دماؤه سترده إلى أصله بإرادته أو رغماً عنه في نهاية المطاف ، وسيعرف أنه نسرٌ ، وسَوْفَ يتصرف وفق هذه الهوية .

وعليه فإن مفهوم المغايرة⁽⁶⁾ التي تشمل تأسيساتٍ مرحلية في أفق الصدام مع السوالب سيغدو تياراً إيجابياً مكرساً نتيجة الفعل المعنوي الذي يصقل المادة . فمن الأهمية بمكان بقاء الذات المعنوية أو كيان المعنى مستتراً داخل نواة المشروع الفكرية الانقلابية أدياً من أجل إبعاد المعنى عن الضربات الخارجية ، والاحتكاك المباشر ، والصدمات القادمة بفعل جذرية التخلف وتمركز الرجعية . فالخدش حينما يضرب السطح يكون تأثيراً هيناً ، ولكن إذا ضرب النواة الحاملة لجينات معنى التغيير المجتمعي ستحدث تأثيرات عنيفة تؤخر عملية الإبداع وتعميمها على الأنساق المجتمعية جزئياً وكلياً . فالجرح على سطح الجلد يختلف عن الجرح في القلب . ومن هنا ينبغي إبعاد العقل المفكر عن الانشغال بالهوامش الروتينية الخارجية الخادشة بغية الحفاظ على سلامة معرفية النواة المركزية لاستشراف مستقبل أنساق التوعية ، والتخطيط لمجتمع متحرك بفعل المنطق العقلاني الحاضن لسُلطة قراره النابعة من ذاته بلا تأثير إجباري خارجي . وهذا التحرك الأفقي والعمودي في نخاع المجتمع الراكض نحو استكمال دائرة الإبداع التي تحاصر السالبية إنما يأتي كفعل أساسي مضاد لردود الأفعال الوقتية الطائشة ، وميكانيكية الشعاعات والارتجال وفصاحة الفراغ .

ومن أجل إحداث نوع من التضامن بين جزئيات التفسير العقلاني لجنون المجتمع الاستهلاكي تفرز العناصر الكامنة في اللهب المعرفي تيارات تتعامل مع الذات السياسية الفردية كئيبية لها خصائصها المتفردة ، لأن الفرد بحد ذاته هو كيان سياسي له حدود مرسومة بدقة من قبل العقل المسيطر على دولة الفرد الشخصية . لكن الأبعاد السياسية في منظومة تاريخ الحلم البشري الشخصاني تختلف عن النظام السياسي الذي نراه في الدول المشكّلة لحالة الوعي الجمعي ، سواءً على المستوى الإيجابي أو السلبي .

وعلى الرغم من أن الدول البوليسية غير مسيطر عليها من قبل نظام حاكم بل فوضى حاکمة تتغطى بالقيمة الفكرية للمعنى الإنساني النظامي السامي ، إلا أن الوجود العقلاني النسبي للدول الفاشلة لا بد منه من أجل إتمام الدائرة المعيشية للأفراد في تداخلات الطّحن الجماعي التجانسي

(٦) يمكن تعريف المغايرة على أنها معيارية التغريد خارج السرب اعتماداً على البصيرة النافذة الناقدة الناقضة ، والالتزام بالحق بعيداً عن الضغط الاجتماعي المسلط على قيم الحقيقة التي يُراد أدجنتها مادياً بشكل تمببيعي نسبي لتوفير شرعية كرتونية للأوهام السُلطوية الحاكمة باسم الأساطير .

. فالحياة المعاشة في تقاطعات السالب الذي يتقمص الموجب والعكس ، تفرض على أتباع المنظومة المعرفية الضحلة الغارقة في استهلاكية الأنساق الروحية والمادية أنظمة حصار شرسة تجعل من المجتمع طاحونة ، والأفراد عناصر طاحنة ومطحونة في آنٍ معاً ، لأن المقموع هو ذات قامعة في أنساق متوازية مع انكسار الشعور المقابل للواقع . فالضحية هي مجرمة بشكل أو بآخر ، وكذلك المجرم ضحية إفرازات مجتمعية معينة محاصرة للحلم وقاتلة للاعتناق . وربما كان المجرم ضحية الضحية. فقد يكون الفرد طيباً في جانب ما ، لكنه حين ينتقل إلى الجانب الآخر يصبح شريراً ، لأن علاقات التوازي مع انكسار الحلم قد تدفع باتجاه نوع من الانفصام القسري في الشخصية تبعاً لانفصال المجتمع ، وتذبذبه بين النفاق الاجتماعي وحرية التكوين المعنوي الراقي . وهذه الثنائيات الذاتية (المقموع _ القامع ، الضحية _ الجاني ، ...) تحتاج إلى أنظمة ثقافية متماسكة ، ومالكة لأدوات التغلغل في أجزاء قومية جوهر المعنى الداخلي بغية تغيير المظهر الخارجي .

وانفاذ المجتمع من انفصام الشخصية يتطلب النظر إلى الجوهر والأعراض من منظور واحد ذي طبقات متعددة ، لأن تعدد زوايا الرؤية _ أحياناً _ قد يعالج جوانب محددة من المشكلة الاجتماعية دون تغيير أنطقة التخلف المتجذر في العمود الفقري للمجتمع .

ولأن المشروع الثقافي الخلاصي هو الرؤية والرأي ، فإنه يملك القدرة على رؤية ما لا يراه النظام السياسي الذي بيده مفاتيح السيادة الجزئية على حركة المجتمعات الأسيرة ، لكنه عاجز عن فك شيفرة الفكر الروحي الذي يحوّل كل فرد إلى حكومة قائمة بذاتها من أجل التنفيذ المباشر على أرض الواقع قفراً على الروتين والبيروقراطية والتوظيف الاجتماعي المنهار للمنافع الموعلة في الشخصية الانتهازية . فالمجتمع سيظل مشلولاً ما لم يتحرر من الخوف ، فالحرية هي التي تُشعر الفرد أن وجوده له معنى ، أمّا ما تقوم به الإفرازات القمعية من عملية ممنهجة لإشعار الفرد أن وجوده كعدمه فلا بد أن يقود المجتمع إلى الصدام مع ذاته، وعندها سيخسر الجميع : القامع والمقموع.

ومن خلال إشكاليات التبعية البدهية التي يُجذّرها إنتاج اقتصاديات تغييب العقل ، تتضح ثنائيات القمع والقمع المتبادل ضمن ثقافة الخوف ، حيث الفوضى المجتمعية اختطفت الإنسان بكل تفريعاته ، وكوّست الأحلام بكبرة حلوب دائرة في حظيرة الوهم الطبقي . وبالتالي يترسخ

الوعي المحصور في خانة ردة الفعل . مما يجعل الفضاءات جزءاً من عملية بلورة الغباء السياسي التي تفضي إلى النفاق الاجتماعي في متواليات تآكل الجزينات المعرفية لانتحار المعنى .

إن المشكلة الأساسية التي تضرب العمود الفقري للمجتمع ، هي تحرك الألفاظ التنموية الحاملة لمضامين التوعية في مسار مفرغ من المعنى ، ضمن دائرة هباء شامل تضرب على قيمة التغيير حصاراً خانقاً ، يجعل من التغيير للأفضل حُلماً صعب المنال . فالبنية الفوقية للمجتمع تتحرك بدون بنية تحتية، أي إنها تتحرك في الهواء. ولو وُجدت البنية التحتية لتحركت بدون غطاء من البنية الفوقية . لذلك فإن طبقات المجتمع تظل في دائرة الشَّلَل ، ولو وُجدت البنى السوسولوجية العلمية على شكل كيانات مصبوعة بالديناميكية ، فسوف تكون تلك الكيانات ظاهرية فارغة من المعنى ، لأن اللفظ لا يمكن أن يتحرك في ظل انتحار المعنى . ومن هنا كان تفكك المتوازيات الشعورية للمجتمع أحد أهم الأسباب لتثبيت التخلف في نخاع الجماعات البشرية المتجانسة وغير المتجانسة. إذ إن الجماعة البشرية العائشة في فوضى الحلم المقتول، ترسخ في فوضى الإفراز الإنتاجي الجمعي، فعندئذ تصبح النظرية السائدة هي " الغاية تُبرِّر الوسيلة " . أي إن الوهم الميسَّس صار الوسيلة والغاية والشرعية والمشروعية ، ويستحق _ من وجهة نظر الانكسار الوظيفي للسياسة _ أن تُسَخَّر كل الموارد للحفاظ عليه .

ولكن انتظار الضوء آخر النفق قد يعيق تنمية المعنى الإنساني لوجودية الحلم الذي يعيد إنتاج المجتمعات . فالضوء لا ينتظر أحداً ، وَيَسْخَر من الذين ينتظرونه ، لأن الفرد الحامل للطموحات البشرية العمومية ينبغي أن يُحدِّد مكانَ الضوء ، ويحصل عليه بأقصى سرعة . فالضوء صيد ثمين ، وفريسة ينبغي اصطباؤها ، وإبقاؤها على قَيْد الحياة ، وعدم إعطائها فرصة للإفلات .

وعلى الرغم من بطء الحراك الاجتماعي ذي الفاعلية الشاملة في الدول البدائية التي تحيا في التكنولوجيا ظاهرياً لكنها محصورة في العصر الحجري عاطفياً ، إلا أن مستويات البنية الذهنية لإيقاع التغيير الاجتماعي مؤهلة لاستقبال الزخم الثويري في حالة توافر الإرادة الحقيقية لصهر مراحل المعنى الزمكاني (تقاطع الزمان والمكان) ، لأن المشكلة التي تقضم العمود الفقري للتنمية المجتمعية هي فساد إدارة الموارد المنيقة عن فساد عقلية الإدارة . ومن هنا كان التعويل الأساسي على الحراك الشعبي للنهوض الاجتماعي ، لأن الفاسدين من مصلحتهم أن تظل فلسفة المجتمع سكونية جامدة لا تتحرك ولا تُحرَّك ، لأنهم المستفيدون من هذه البركة الراكدة التي توفر غطاءً لاستنزاف الموارد الوطنية ، واستمراره دون منغصات . أمّا الحركة أو الحراك فتُشكِّل في

العقلية الفاسدة خطأ أحمر لأنها تحمل معاني الخطورة والمغامرة والتغيير . ولا يخفى أن كلمة " التغيير " ذات وقع سيء في الذهنية التالفة لأنها تدل _ بشكل أو بآخر _ على مفردات انقلابية ، وتشير إلى خسارة النفوذ والامتيازات والمنافع الشخصية . وعلى أية حال ، إن التغيير الإيجابي هو السبيل الوحيد لنهوض المجتمعات .

والخوف من المصطلحات يشكّل أحد أهم أبجديات الفوضى التي أطرت الثقافة كمزرعة شخصية أو قطع أثاث . لكن إنتاج أبجديات جديدة من شأنه تجذير الوعي بأهمية احتضان الوعي ، ثم نشره وفق أشكال معنوية معرفية حاسمة . فالإجابات الجاهزة المزروعة في القوالب الحديدية والخاصة بعلم اجتماع النهضة لا تجدي نفعاً ، لأن ثقافة المنطق العقلاني التحليلي تتطلب كسر القوالب الجامدة ، وإلغاء ثقافة التبعية لعصور النفاق الاجتماعي ، والقضاء على سياسة تصنيف الذوات ، ورفض اعتبار الأفكار أوثاناً نهائية وحاسمة . إذ إن مبادئ النقد المنهجي لحالة الانهيار الانسحابي لا تنفصل عن منهج تعرية الأنساق البشرية من القداسة المزعومة ، وتجريد المجتمع المتخيل من العصمة الافتراضية في المسارات الواهمة .

وليست مشاكل المجتمع البشري المتوازي مع المسار الثقافي مقتصرة على تقاطعات الإشكال السوسولوجي الذهني . حتى التطبيقات المتماهية مع الافتراضات الجذرية وجذور التفسخ العقلاني معلقة في الهواء نتيجة غياب الأرضية البؤرية لاحتضان التمرکز المجتمعي التشبثي . فبقاء الوعي المكسور في زاوية مدلول تفسخ الحالة المعنوية نتاج طبيعي ومتوقع لفلسفة الانحسار الأخلاقي ، وتفشي المتواليات المادية في معنى العاطفة المنطقية .

وبما أن المجتمع السلبي سائر ضد نفسه ، فليس غريباً أن نجد الأغراض الفلسفية لاقتصاديات أبجدية الذات المعنوية عائشة في تأسيس الفراغ . فثنائية الأضداد الجنونية (المجتمع في واد_الثقافة في واد آخر) هي الحالة المنطقية لانتحار المنطق ، واختفاء الفاعلية الجزئية لمعنى الوظيفة الفردية النهضوية ، وشلل الفاعلية الكلية للتجانس المفترض الخاص بالحالة البشرية السائدة على إفرازات أنساقها ، المسيطرة على تشكيل علاقات الذاكرة بين المتخيّلات والوظيفة الثقافية في نخاع النسغ الحياتي .

ولا يخفى أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، لكن النظرة الجمعية إلى الثقافة بوصفها ترفاً زائداً عن الضرورة المعرفية للكيان البشري، نقلت المجتمع إلى مركزية القطيع في تموضعات التلقي المحض، تماماً كالموظف الذي يتلقى الأوامر من مديره على الدوام دون التفكير في طبيعة

تلك الأوامر. وهذه المنهجية التلقينية تفضلها الأنظمة الشمولية ، وتعمل جاهدة على نشرها وتجديرها وشرعيتها بغية اعتمادها خياراً وحيداً لنهضة الجماعة البشرية والتفافها حول فكرة " الحاكم بأمر الله " . وهذا الانكسار الحاضن للنفاق الاجتماعي نقل الفردية البشرية من طور الذات الحرة المفكرة إلى طور التلقي البائس، حيث تصير السياسة الهجينة فنّ التسول غير المرتبط بالإمكانيات الاقتصادية ، والدول الفاشلة شركة استثمارية لعلية القوم ، والمشاركة السياسية لعبة الأثرياء ، والنخبة الحاكمة أطفال زواج السلطة بالمال ، وبالتالي يصبح الوطن بقرّة حلوباً للطاغية المستبد ، وهذا الأمر منتشر في كل الأزمنة والأمكنة . وفي هذا الجو الموبوء يظهر المال السياسي ، ويتكسر الفاقدون لأهلية الاشتغال بالسياسة رجال دولة من الطراز الأول ، فيحدث الانقسام الشرس في العمود الفقري للمجتمع إلى من يملك ومن لا يملك ، وتتلاشى الطبقة الوسطى . وهذا كله ينعكس سلباً على مشروعية الفعل الثقافي النهضوي . إذ إن النزيف الاجتماعي الصارم لا يسمح بوجود عقلية ثقافية مركزية بذريعة أن الثقافة لا تُطعم خبزاً . وهذا المقولة صحيحة في المجتمعات التي باعت مستقبلها من أجل كسرة خبز آنية متقاطعة مع مسارات الانهيار الأخلاقي الشامل وانطفاء الحلم .

لقد امتدت العفوية الوقتية في النسيج الاجتماعي نارا تاكل الأخضر واليابس ، حيث إن سطوة المنطق الارتجالي ، وسيطرة المجال الشعائري الفوضوي على الطبيعة المادية للكيانات السياسية المنشورة في الأضداد ، قادت إلى نشوء حالة هلامية تجاذبية تشتمل على تحولات الفعل الاجتماعي إلى ردة فعل شبكية ذات قيمة نفعية . وبسبب تكريس المأزق الحضاري للثقافة كموقف سياسي استباقي في النسيج التجانسي لافتراضات السوسيولوجيا الشّعوبية ، نجد أن طبيعة المتحوّلات العنصرية تقتبس معنوية الأضداد من مهزلة التشتت الحاصل في ظواهر الذاكرة المفتوحة على احتمالات الانكسار . وهذا التكوين النسقي الذي يُنظر إليه بوصفه مجتمعاً على قلب رجل واحد ، ليس كذلك في واقع الأمر ، لأن صياغات معنى التّزعة المعرفية الطموحة ليست مفردة رومانسية تُرمى هنا وهناك ، ثم ينتهي الأمر .

لقد تركزت التّزعة الاجتماعية الحاملة للطموح المعرفي كأداء تغيير يَشتمل على رمزية التماس المباشر مع انكسار البؤر البشرية . وإذا درسنا الحالة الفردية المتشظية إلى جماعات متمركزة في التشتت لمحنا إشكاليات قاتلة للثقافة السياسية . والعجيب أنك تجد جذور التخلف المجتمعي ما زالت في خانة الاستقطاب دون التفكير الحقيقي بإحداث نقلة نوعية من الطّور

السالي إلى المجال الحيوي لانتعاش المعنى المنطقي . فقد صارت البنية السياسية ثقافةً بهلوانية مقتصرة على أنساقها المضمحلة، حيث التاريخ الشخصي للأفراد ضد التاريخ العمومي للجماعة المسيطر عليها من قبل الأساطير ، كما أن الحُلُم الفردي افترق عن الحلم الجماعي ، وكلاهما يبحث عن الآخر دون جدوى . وهذا مرجعه إلى الفوضى التي تم تقنينها كنظام اجتماعي متكامل يحدد المصائر العامة .

ونحن إذ نحاول تشريح الاستعدادات اللفظية لانتحارات المعنى الوظيفي في زحمة المادية الاستهلاكية ، فنحن _ في واقع الأمر _ نقوم بتشبيت ذواتنا أمام مرآيا لا تعرف المجاملات . أي إننا نكشف الأبعاد السالبة السحيقة في دواخلنا التي لم تصل إليها أشعة الشمس من أجل تنقيتها . وهذه الحالة تعكس _ بلا شك _ الثنائية الترابطية في العلاقة بين الواقعية المجتمعية العمومية والفردية الضمائية ، وبعبارة أخرى إن تعمقنا في دراسة الآخر الداخلي ما هو إلا اكتشاف للأننا الداخلية ، لأن المجتمع الكياني _ بغض النظر عن تقدمه أو تخلفه _ عبارة عن أفق مفتوح ، وبحر رافض للجُزُر المعزولة . أي إن الفرد إذا عجز عن تحمل واقعية الفعل الاجتماعي ، وفشل في أداء دوره الجماعي المنشود ، سوف يتأثر المجتمع العمومي سلباً بطريقة أو بأخرى . فالعقل الجمعي هو انعكاس الجزيئات الفردية ضمن نظام هرمي متكامل من الرأس حتى القاعدة ، لكن عدم انسجام الفردية المنطقية مع المنطق المجتمعي الحالم يؤدي إلى صناعة مجتمع سائر ضد المجتمع ، وتاريخ رافض للتاريخ ، وحالة من المنطق اللامنطقي أو منطقية اللامنطق ، وشعبٍ أدار ظهره لأنساق أحلامه .

ومن هنا يصبح العقل الجمعي مجرد شعار مفرغ من المعنى ، ويتجذر المجتمع كقيمة مرفوضة ، ففي ظل غياب المعنى المنطقي يتحول أفراد الشعب في الكيانات السياسية المنهارة إلى مجموعات من المرتزقة الذين لا رابط بينهم سوى راتب آخر الشهر . وللحيلولة دون وصول الجماعات البشرية إلى مرحلة المرتزقة العابرين في أنساق الحياة بلا انتماء أو تكوينات جذرية متماسكة، لا بد من تفعيل روافد التمركز حول الإدراكات الفكرية بُغية تشكيل نظام متكامل خاص بالوعي التجذيري الدائم لا الآني. فالمواطنة الحققة هي مركزية التأسيس الحتمي للفكر المرتبط بالذات الوجودية التي تستمد شرعية امتدادها الشخصاني من شرعية امتداد الحلم الجماعي التكريسي .

ولأن الخُلم الحامل لجينات التقدم المجتمعي يتطلب ديمومةً فاعلة لا تجرّيداً آنياً مصلحياً عَرَضياً، كان من الضروري ترسيخ ثقافة تجاوز المآزق الاجتماعي المتشعب وصولاً إلى إنتاج متواليات ثقافية قادرة على مواجهة تذبذب صفائح تشكيلات بنية الجماعة البشرية وبيئتها ، والتصدي للاضطراب المتداعي في النسيج الثقافي للنظم العمومية المفروضة على حركة المجتمعات من قبل العقل الاجتماعي البوليسي الميسّر بصورة ارتجالية طفولية .

والأمر المضحك المبكي في صياغات البناء العلاقتي على الصعيد الذهني ، والسياسي الكياني ، وجود عقلية الأطفال في أعلى هرم السُّلطة في الدول المنهارة . فقد نتج _ بفعل غياب الثقافة المحورية لقيادة مركزية أنوية الظاهرة السوسيولوجية _ مجتمعاتٌ صورية معزولة على شكل مزارع شخصية للفاستدين . ونحن نرى الكثيرين ممن يمارسون تجارة السياسة لا يعرفون ما هي السياسة، لأن الفكرة الخاطئة عند الكثيرين أن السياسة هي الحديث عن شؤون الحكم والحكومات فقط . وهذه نظرة قاصرة للغاية ، فالسياسة هي نظام اجتماعي متكامل وليست مسابقةً لاختبار فصاحة الخطب الرنانة ، واكتشاف المواهب البارعة في الاحتيال على الناس ، واختراع وسائل الالتفاف حول طموحات الجماهير ، وتخدير قوى الشعب بالأحاديث المنمّقة عبر تعميم المخدرات السياسية كوسيلة رئيسية في تحقيق ضمانات المستقبل السياسي للذين يلعبون بمصائر شعوبهم ، والغرق في المجاملات الترقية استجابةً لضغط الأطراف المجتمعية، حيث أهمية القبيلة مقدّمة على أهمية الدولة. وهكذا ، فإن الأثر المدمر لإقصاء ثقافة المعنى السياسي أفرز تيارات اجتماعية مفككة ومعزولة وضائعة بين الأضداد وفاقدة للشرعية أمام الجماهير . ورغم كل هذا فإن التفاف الشعب حول القيادات السياسية في المجتمعات المنتكسة ، يكون بفعل تأثيرات عاطفية لا علاقة لها بالبرامج السياسية التنموية ، وقد تكون تلك التأثيرات دينية أو قومية ، أو وفق القاعدة التي تقول إن الشيطان الذي تعرفه خيرٌ من الشيطان الذي لا تعرفه . وفي هذا دلالة واضحة على حجم المآزق الوجودي الحرج الذي يحياه الفرد التائه في نسيج المجتمع التائه . وكلما ازداد إقصاء المنحى الثقافي لسياسة المعنى ازدادت عزلة الجماعات الإنسانية ، مما يؤدي إلى حشر التحولات الوظيفية الخاصة بالذات المنهجية العقلانية في زاوية التأطير السلبي في ماضوية انكسار التاريخ على بوابات غبار الذاكرة .

والفرد الذي وجوده كعدمه هو نتاج طبيعي لانحسار مدلول الأبعاد الرمزية لاجتماعيات صهر المراحل، وسيكولوجيا نقل قيم التأثير الفلسفي ، وبؤرية انتشار التشوير المعنوي المتكامل ، وهذا

يستلزم بالضرورة اتجاه النواة الحاضنة لحلم الجماهير نحو إجراءات روتينية مقموعة لا تُقدّم إثباتاً للحلم المجموعي⁽⁷⁾ ، ولا تُقدّم نقياً للفكرة السائدة على مسارات الطموح البشري في التغير والتغير .

وفي ضوء سرعة انتقال المضامين التوعويّة⁽⁸⁾ بين أجزاء العقل الجمعي المسيطر على ميكانيكا نتائج الفعل الثقافي ، نجد أن عملية إعادة صياغة الأفعال المحمّلة بالحراك الاجتماعي السياسي تعطي حيزاً أكبر لديناميكية الثقافة كي تأخذ دورها الحيوي في ردم الهوة بين الإنسان وإنسانيته ، وبين المجتمع وحلمه . وهذا يحُدّ من حيوانية الإنسان ، ووحشية المجتمع الحديدي مشاعرياً .

وفي واقع الأمر إن السيطرة على المتحرّكات المحيطة بالمشروعية العقلانية لسياسة الثقافة ليست إجراءً روتينياً عابراً وعفويّاً ، بل هي عملية شديدة التكثيف ومركّبة بصورة تستلهم اتجاهات التعامل مع فلسفة التيارات الذهنية التطبيقية السابحة في فضاء المجتمع المغلق . حيث إن الفعل البشري التكثيفي لا يتحرك وفق خط مستقيم ، وإنما ضمن خطوط متوازية ومتقاطعة ، منطقية وفوضوية . وكلّ هذا التباين الاجتماعي في وسائل إيجاد الحلول الفلسفية لبؤر الانتشار الثقافي ، والاختلاف العقلاني في إيجاد الوسائل التفسيرية الأكثر نجاعة لتأويل النصوص الأبجدية

(٧) الحلم المجموعي : تحرك الصفائح الذهنية للمجتمع ضمن حركة واحدة نتيجة العقل الجمعي الذي يفترض وجود طريق واحدة وحلم واحد بمثابة ضوء في آخر النفق، حيث قوى الجماهير تتحرك باتجاه الخلاص الجماعي باعتبار أن الجميع في سفينة واحدة. والمبادئ الأساسية للحلم المجموعي تأتي تلقائياً بفعل المرجعية الداخلية المتمركزة حول النواة الداخلية لفكرة نشوء المجتمع ، وفلسفة شرعية التجمعات البشرية ذات الهوية الموحدة . مع العلم أن الهوية المشتركة قد تأخذ منحى مؤقتاً آنيّاً محصوراً في هدف ضيق زائل ، وقد تأخذ منحى وجودياً مصيرياً يمس شرعية وجود الجماعة كوحدة كلية شمولية .

(٨) إن مضمون الوعي الإستراتيجي لحركة أحلام الأفراد المكبوتة ، يتحول من خلال هوية معرفة إنسانية المسار والمسيرة إلى كتل جمعية فلسفية مالكة لأدوات الفعل التطبيقي (المضامين التوعوية) . وهذه المضامين الطموحة تتوزع بين تقاطعات المعنى الاجتماعي لتمنح الألفاظ بعداً أكثر اتساعاً ودقة في رسم خريطة حلم التغير الذي يعقد بين اللفظ والمعنى مصالحةً من شأنها تثوير الأنساق كلها .

المتجسدة على شكل كيانات متحركة روحياً ومادياً ، كل ذلك وغيره يتطلب وعاءً حاضناً للأحلام المتضاربة في الوجهة ، المتضادة في الأهداف البدائية والنهائية .

وكلما أدرك المجتمع الذهني أهمية الحاجة إلى تأطير الطاقات البشرية بشكل يوازن بين الحرية والمسؤولية ، وتفهم الدوافع الوظيفية لفلسفة تقنين الانبثاقات النفسية للفرد والجماعة ، آمن أكثر من أي وقت مضى بحتمية إيجاد نظام فاعل لتكريس التجربة الإنسانية في الحرية والتحرر بشكل مسؤول مضاد للعبثية . فالحرية الفردية هي مستقبلية الجماعة ، لأنَّ تخلص الفرد من عبء عبثية حياته ، والإفلات من مأزق انتحار الجدوى الفكرية لحاضره المعاش ، سوف يكسر الشرنقة المحيطة بأحلام الشخصانية الطامحة لعقد الهدنة الشاملة المنتهية بالصلح بين الفرد والمجتمع ، مما يؤدي إلى كسر الدائرة الخائفة التي تحاصر تدفقات الحلم المصيري . فلن يجد الفرد نفسه إلا إذا خرج من الحظيرة الاصطناعية القامعة ، وعندئذ يحصل اللقاء الحميمي بين طموح الفرد والحاضنة المجتمعية الرحبة . فالتجارب التي فشلت النظم السياسية في تأطيرها واقعاً خلاصياً تخليصياً⁽⁹⁾ إنما توقعت في خانة الفشل والإقصاء بفعل غياب الخلفية الثقافية الحاضنة لعمق التجربة ، واضطراب البنية التحتية لألفاظ الذاكرة الوجودية الشرعية ، وانحسار البنية الفوقية لمعنى أنسنة مشروعية الحلم وأولوية تطبيقه .

إن مشروعية صناعة الخيال الوظيفي ليست وظيفةً روتينية رغم اشتغالها على مبادئ التكريس الوظيفي الهادف . ففي جزئيات البنية الفكرية للجهاز الثقافي الحي تولد مجتمعات جديدة قائمة على أسس الخيار الثوري عبر وضع آليات ديناميكية فعالة لا تكتفي بالتنظير . ومن خلال تلك

(٩) الواقع الخلاصي: هو الحاجة الروحية المادية المجتمعية لفك عُقد الأفراد والجماعات، وإعادة المجتمع المخطوف من قبل أنساق الفساد المركزي إلى حظيرة تركزات الانتماء المتشعب إلى أبنية العلاقات الوجدانية . وهذا الواقع المنشود يقود إلى تخليص الذاكرة الإنسانية من الرواسب الوجدانية الفائضة عن الحاجة، وتعريه الجسد المجتمعي من الشوائب التي تنهشه تدريجياً ، والتخلص من عبء تاريخية الفشل الجاثم على صدر مستقبل الإنسان .

المجتمعات المالكة لخيارها تتكاثر الأبيدياث المعنوية التي ترسخ الدور السياسي للاعتبار العاطفي المسيس والمشيد على المتوازيات الموجبة⁽¹⁰⁾ .

وإذا أردنا تشريح التعليل التأويلي لمفهوم المتوازيات ومعقوليته ينبغي الاستناد إلى مركزية الموجب في العلاقات الاجتماعية ، وهذا لا يعني ترقيع العيوب في تاريخ الذوات المتحركة في الدوائر المحصورة ، وغضّ البصر عن الثغرات الخطيرة في النظام الأساسي لجوهرية إنتاج الأنظمة المعرفية . بل يعني تشييد الحس النظامي المسيطر على فردية الناتج المكوّن لتراكيب عفوية الثورة وبقايتها على أرضية التأصيل الفكري لاستئصال السوالب لا ترقيعها .

فالعفوية المجتمعية في إحداث حراك ثقافي كينوني لا يمكن تركها في مسارات الفوضى، وإنما يجب تطهيرها عَرَضياً وجوهرياً لضمان إنتاج سياق متوازي الأدوار ، وتوجيه الطاقة الكامنة في عقلانية العفوية البُكر نحو إحداث تنظيم متعدد المسارب لتفعيل صناعة الجمعنة الثقافية ، أي صناعة إحساس الأُمة بالمصير والخلاص الجماعي لا الفردي .

إن المصير الذهني هو النافذة التي تطل على المصير الواقعي، والفرق بينهما يكمن في متواليات سلاسة التشكيل الخرائطي . فالذهنية المحورية لتشكيل الفاعلية الثقافية هي مركزية الاندفاع السياسي في إطار صناعة الإنسان كإنسان ، أما الواقعية المتمركزة في أبيدياث النقلات النوعية المحسوسة فتظل الركيزة المرئية للتطبيق التجريبي في مجتمع عاجز عن صناعة مخيال وظيفي فعال ذي إسقاطات اجتياحية تنتشر في دوائر صنع القرار .

(١٠) المضمون الفلسفي لمفهوم المتوازيات هو الإيقاع الذهني الذي يُسقطه التنظير البؤري والمركزي على واقعية انتقالات الحلم ، وتعدّد صورة المعنى تبعاً لاختلاف زوايا الرؤية . وهذا الإيقاع يسير على شكل موجات ضوئية لا تصطدم ببعضها البعض، وإنما تتحرك وفق العقلية الفلسفية التي تطرح أسئلة = على جذور التأسيس الاجتماعي، وتختبر الحالة السُلطوية للتوالي الإنساني في صناعة الكيانات الثقافية ذات الأبعاد الحاملة لاجتماعيات السياسة المنطقية النابعة من مركزية الشعب لا شعب المركزية . أي السياسة النابعة من القاعدة حتى رأس الهرم ، من القاع حتى القمة . والشعب هو الضمانة الأكيدة للمحافظة على المكتسبات الاجتماعية، وإن أية دولة لا تسقط إلا إذا سقط الشعب في الإطار العمومي الانتكاسي . ومن أخطر المسائل التي تفرض التحديات المصيرية على النواة الداخلية النسيجية للشعب هي تصنيف الذات (اتخاذ الإفرازات الحاكمة أصناماً) ، والتخندق في سُلطوية الشهوات (البطن والفَرْج) .

والعجز المجتمعي عن ابتكار نظام خيالي يقودنا إلى الحديث عن أهمية الخيال في تشكيل الواقع . فطريق الألف ميل الذي يبدأ بخطوة ، إنما ينبثق من الذهنية الكاشفة للماوراء ، ماوراء مادية حصار العناصر التي تغلف أفقنا المحدود ، والمحصور في أضداد الاستهلاك وثنائيات انعدام الجدوى .

والخطوة _ التي هي التندشين الحقيقي للسباق مع الزمن _ إنما تشتعل أول ما تشتعل في ذهن

الخيال المسيطر على أدوات انبعائه ، ومن ثم يتم البحث عن حاضنة واقعية لاستقبال " الفضفاض العاطفي الحالم " (11) .

إذ إن القدرة على الخيال والتخيّل هي الركيزة الفاعلة لإنشاء الأسس التقنية لتكنولوجيا ذهن ضمن منهجية تنوير آلية تطبيق المعنى بواسطة جزينات الحراك الاجتماعي، وأجزاء الثورة الفكرية القاتلة للتخلف الشامل الذي نشأ كقوة ضاربة لضمان استقرار الوهم القامع . ويمكننا تلخيص أهمية الخيال في كونه الفعل الفلسفي التثويري الأكثر قدرة على اختراق الحواجز ، وعبور الخنادق المعنوية في المجتمعات المتآكلة ، والوصول إلى الماوراء الحالم التطبيقي بأقل جهد ، وأقصر وقت . وتظل مسألة التمييز المفهومي بين الخيال والمخيال من أجل استخدام أكثر انضباطاً للتعريفات ذات الدلالات الواقعية المنطقية. فالخيال (السُلطة التشريعية الفلسفية) هو سبكة الجسد الفكري البكر ، أما المخيال (السُلطة التنفيذية الفلسفية) فهو آلية التجسيد التحديثي المالك لأدوات صهر المراحل ، وإحداث نقلات مجتمعية تغييرية عبر الأطوار .

وليست الآليات الاجتماعية المحورية التي تتعامل مع بنية تكوين الوقائع الذهنية إجراءات ميكانيكية صماء ، بل هي تشكيلات بشرية فاعلة على المستوى الشعوري ، لأن الشعور الحاسم هو قدرة الانتقاد المعرفي على توليد متوازيات تمتلك برنامجاً للتغيير والإصلاح ، وتمتلك _ في

(١١) هذا التعبير الشخصي يعني الانفجار المعرفي الصادم والمنطلق _ بلا ضوابط _ في كل اتجاهات العالم الداخلي للفرد المبدع . فالفكرة الثورية تمتاز بالبركانية (انطلاق الفاعلية الحرارية التفجيرية دون موعد مسبق وبشكل فوضوي) . وهذه الثورة المعرفية الذهنية البركانية البكر الخام غير المنقّحة هي الفضفاض العاطفي الحالم . ووظيفة التشكيل الواقعي السلس هو عقلنة الفوضى ، وإعادة تدوير جنون الذات الثورية الفكرية العاصفة .

ذات الوقت_ القدرة على تنفيذه بكل فعالية. فالتنظير الأجوف الخالي من المعنى ، والمضاد لمنطقية حركة المتجهات السيادية في النسخ الإنساني ، لا يجدي نفعاً في ظل وجود تحديات توليدية منبثقة من أبجديات التمحيص الإثباتي الذي يفصل العناصر في الكيانات السيكلوجية ، ويُعزّلها للوصول إلى حالة النقاء الذي يُثبت منطقية المعنى ، وأولويته السيادية على الألفاظ والتراكيب والمعطيات . فالمعاني هي الذات المعرفية للمجتمع. والألفاظ هي الرافعة الأساسية الحاملة للطموح التفاعلي. والتراكيب هي القوالب المتحررة من الحصار ، والحاضنة للإرث المجتمعي العضوي والكينوني الشمولي . والمعطيات هي الروافد الناتجة بفعل كليات الحراك الاجتماعي الذي يصنع فلسفة سياسة التعامل مع الثقافة كبنية وحدث ضد الغرق في الأدوار التقليدية الارتجالية التي جعلت من المجتمع السلي مهزلة عفوية فوضوية ، وتكتلاً محصوراً في عقلية القطيع .

ويعتمد المعطى الحضاري الجمعي على ابتكار خطة متناسقة مدعومة بالدوافع السوسولوجية الواعية من أجل وضع المعنى في بؤرة اللفظ المناسب، وتأطير الحالة الكيانية للمضامين الوظيفية على شكل تجسيد عقلائي فاعل يتعامل مع نفسية الفرد كظاهرة اجتماعية كلية ، لأن الفرد _ في حقيقة الأمر _ هو مجتمع كامل ، وهو الوعي المصيري الذي يحتضن أحلام المجتمع ، ويضمن تحقيقها خارج إرهاصات الكبت الجنسي ، والقهر السياسي ، وانكسار الأحلام ، وغيبش المستقبل .

وما ساهم في انطفاء المجتمع هو اضطراب طريقة التعامل مع الفرد . لأن الفرد محاصر ومحصور في بؤرة الوصاية ، حيث يُنظر إليه على أنه جزء وظيفي شئني ودافع ضرائب مسحوق لا كلمة له. وهذا أدى إلى فقدان الفرد لثقته بنفسه وبمجتمعه، إذ إن وجوده كعدمه في ظل مجتمع مكسور ، حيث الأحلام تتبخّر تباعاً، ويضيق هامش الحلم والفرح شيئاً فشيئاً . لذلك فالفرد الحقيقي الذي يتفوق على نفسه ينبغي أن يُعامل كمجتمع كلي شامل ، لكي تقدر الأنساق البشرية الإبداعية على إحداث النقلات النوعية ، وحمل الطموح المجتمعي العام على أكتاف الأفراد الخارقين للعادة ، المؤهلين للقيادة ، الحاملين لمشروعية الرائي ، ومشروعية الرؤية . وسوى ذلك سوف يظل الفرد في واد ، والمجتمع في واد . كلاهما ينتظر قدوم الآخر بلا جدوى ، وكلاهما يحمل الآخر مسؤولية التخلف والتقهقر على جميع المستويات الحياتية ، ولا أحد يستمع للثاني . حيث الحياة ضد الحياة ، والفرد يتحرك في مجتمع الكراهية كارهاً لنفسه ولمحيطه . ففي

المجتمع الظالم سيشعر الجميع أنهم مظلومون ، وفي الوطن الساحق سيشعر المواطنون كلهم أنهم مسحقون . وهكذا يتساوى القاتل والضحية ضمن فوضى عبثية بلا بوادر لحل هذه الأزمة الوجودية .

وتستند المعارف السياسية الحاسمة في بُعدها الثقافي إلى تخليص المجتمع من فخ ثنائيات الحصار⁽¹²⁾، بمعنى تخليص الذات العقلانية الجمعية من إشكالية الانحسار الذهني ، وانكسار سياسة الفردية الوجودية على صخرة اللفظ الظاهري . وهذا يدفع باتجاه انتشار النسغ النظامي الحامل لصفات الجينات المجتمعية من مستنقع الخيارات الصعبة ، حيث التذبذب البنائي للمجتمع المهزوز سوف يقضي على بنائية الثقافية التحويلية التي تتكفل بإحالة المستوى المخيالي إلى واقعية التوظيف الجيوسياسي للفكرة . ومن الأهمية بمكان تأسيس قيم الانطلاق في النظم الاجتماعية وفق قاعدة الثقافة الكلية الخالية من التعقيدات الطبقية على الصعيد العاطفي والعقلاني . إذ إن الخروج من ثنائية الأضداد الضيقة سوف يعطي المجتمع الثقافي فرصة ذهبية للخروج من مأزقه الوجودي الكياني عبر تخليص الذات اللفظية من عبء المعنى الزائد عن المعنى .

فالمعنى الذي نحتاجه هو الذي تم تفصيله حَسَبَ البؤرة المركزية لإشكاليات معرفية السوسيولوجيا . ونحن بالقطع لا نحتاج كل المعاني الثابتة لعلاج مشكلة ضيقة أو شديدة المركزية ، ففي هذه الحالة نكون قد رمينا كل أوراقنا، ولم يعد لدينا أي وسائل مناعة لتلقي المجهول .
فالذكاء هو الوصول إلى أبعد نقطة بأقل تكلفة ، وهذا يستلزم تفصيل اللفظ على المعنى ، وتأطير المعنى المتحرر من الهواجس الواهمة على مقياس اللفظ الثوري الحامل لمسؤولية تغيير ثقافة

(١٢) إن مأزق الأضداد الثنائية يمكن فهمه من خلال جدلية الأبيض والأسود. فليس من المعقول أن يكون الخيار على سبيل المثال : تعاطي المخدرات أو معاقرة الخمر . أو الرضوخ لطغاة الداخل أو الاستسلام لغزاة الخارج . فمثل هذه الثنائيات باللغة التركيز المتقابل تسلب الفرد من بيئة منهجية =الإبداع، وتجعل منه رجوع صدى للهلوسة الاجتماعية . ففي الحياة هناك ألوان غير الأبيض والأسود ، ولا يمكن بأية حال من الأحوال اختزال النظم السوسيولوجية في دائرة القاتل والضحية ، لأن المجتمع الذي يعتنق القطب الموجب كقاتل ، والقطب السالب كضحية ، لا بد أن يَنقُط ، ويُسَقِط معه كل مدلولات الحلم الجماعي التكريسي .

السياسة الارتجالية البدائية إلى سياسة الثقافة الخلاصية . فما فائدة الثقافة _أصلاً_ إن لم تكن مشروعاً خلاصياً حاملاً لطموحات الكيانات المكيوتة روحياً ومادياً ؟ .

واعتماداً على تصورات المنحى الثقافي الذي يعيد ترتيب البنية التحتية للجماعات البشرية وفق مابعدية البنية الفوقية ، نتوصل إلى تقاطعات مصيرية تتعاقد مع العمود الفقري للمجتمع . ولا بد للمجتمع الحي والحر إذا أراد تفعيل وجوده كاسراً حدوده أن يأخذ بالحسبان ضرورة اعتماد المعرفة الثقافية التأصيلية كعمود فقري ، وفي نفس الوقت أن يجعل هذا العمود مخفياً تحت طبقة النتائج السياسية للفعل الاجتماعي من أجل حماية المحرك الأساسي للكيانات البشرية المتوازنة مع بؤر الصدام المجتمعي حيناً ، والمتقاطعة معها حيناً آخر .

والفعلُ العلاقتي الثقافي هو الكفيل بفك طلاسَم توقيت التوازي والتقاطع ، وهذا ضروري لتوقع حالات الانفراج والتصادم بين الأنساق المجتمعية المتباينة. إذ إن الفعل الثقافي المستند إلى سياسة الفعل الأساسي التجذيري لا سياسة رد الفعل الارتجالي الصياني ، سينقسم إلى عدة أفعال ثورية تتحرك أحياناً كالحمم البركانية أو الشظايا الضاربة في كل مكان، ومن شأن التوقع الاستباقي لحالات التقاطع والتوازي السيطرة على تأجج الانبعاثات الثقافية وتقنينها منطقياً ليس من أجل الكبت والتضييق السُلطوي ، بل من أجل تفعيل نظرية الحرية المسؤولية التي تمنح الحياة الثقافية زخمها الوظيفي والتكريسي .

وفي خضم الحاجة الماسة لإخراج المجتمع الثقافي من مأزق الوظيفة التقليدية المستندة إلى استبداد النُظم السياسية، والرقابة الفوضوية للنظم الاجتماعية ، تظهر أبجديات التغيير كأدوار تنظيمية توازن بين توقيت سياسة الثقافة كخلاص ذهني ، وتوقيت ثقافة السياسة كتميز عقلائي يؤطر الفرز الطبقي لا على أساس الثروة المادية ، بل على أساس نظرية الشخص المناسب في المكان المناسب . فالفرز الطبقي هو انتخاب طبيعي واصطناعي في آن معاً لتوظيف الكفاءات المنهجية في مركزية الاستعداد الوظيفي لتفعيل الأداء السوسولوجي المعتمد على الوعي بالأنما والآخِر الداخلي، وهذا يَمنع تحوُّل المواطنين إلى فئران تجارب ، ولا يَسمح باتخاذ الصيغ المجتمعية مختبراً لتبديد الثروة القومية ، والمقامرة بموارد الدولة في لعبة خاسرة على كل الاحتمالات .

إن انزياح التقنيات التجريبية في عقل المجتمع الأحادي ، سوف يؤدي إلى بنائية وظيفية هادرة بشرط أن يكون الانزياح حاضناً لأحلام الكل الجمعي ، لأن القوى الشعبية هي المحرك الفعال في

تأسيس المستويات الحاضنة للشعور التطبيقي ، وهي كذلك الضمانة الأكيدة لإخراج المجتمع من
بؤرة الظاهرة الصوتية المجردة (الجعجعة بلا طحن) .

وهكذا يتضح دور الفاعلية الشعبية اعتماداً على الكينون المجتمعي⁽¹³⁾ ، حيث المواءمة بين
الشعور الكلي للطبيعة الثورية لذهنية المسار الوجودي للإنسان ، وبين العاطفة التلقائية المنظمة

(١٣) ينقسم الكينون المجتمعي إلى عدة مضامين أو إضاءات تشكل فيما بينها تعريفاً مركزياً لهذا
المصطلح ، وهذه المضامين كالتالي :

أ (الكيان الواقعي المحسوس لأبعاد توزع الجماعات البشرية .

ب) الكيان الحالم غير المنظور ، والمتمركز في تناول اليد ، والمنتشر في الموارد التطبيقية الخاضع
= لسلطة واقعية التنفيذ .

= ج) النظر إلى المجتمع بوصفه نمطاً للشعور يُفترض به أن يكون خارجاً على قوانين التنميط من أجل
المحافظة على الحراك الاجتماعي الأفقي والعمودي .

د) تماسك صياغات المنهج المعرفي ، وترابط مجتمع العلم الذي يرفض المعطيات السياسية المشوشة
التي كرّستها الأنظمة القمعية كمسلّمات ، وتدعيم منطق الفصل بين النظريات المعرفية الحاضنة لثقافة
العاطفة الاجتماعية ، وبين التسييس المغرض الذي يقف خلف معرفة الثقافة ، فيصير خلفيةً للطبقة
الثقافية ، ومن ثم يتركز التسييس الانتهازي كجزء لا يتجزأ من المشروعية الثقافية الخلاصية .

هـ (تأصيل فرضيات بيئة الاستيعاب الثقافي المحتوي على معقولية الأداء الثوري للنسخ الاجتماعي
وفق احترام فردية الكل الجمعي ، حيث تتصرف الجماعة كعقلية واحدة . وبالطبع هذه المرحلة لا يتأتى
تعميمها كنظرية قادرة على قيادة المجاميع الشعبية إلا إذا صارت سياسة الثقافة خياراً إستراتيجياً للحفاظ
على إنجازات الحقب الزمنية ، والتوفيق بين الإنسان وإنسانيته ضمن مسار حر مضاد للتلفيق والترقيع ، لأن
انقلابية الثقافة على النظم المجتمعية الفاسدة منهج ثوري حاسم ونهائي .

و (تطوير اتجاهات بناء العاطفة السياسية ، والتركيز على إنتاجية النمو المصيري المتجانس ، وتحذير
أطوار نمو الشخصية الاعتبارية للفرد والجماعة على أساس مشروعية الحلم الثقافي ، وشرعية المنظور
المنطقي المناوئ للتلقين ، والمعطيات الجاهزة المفروضة من قبل سلطة النظام الأبوي في الدول السائرة نحو
تدمير نفسها .

الرافضة للنفاق الاجتماعي ، والتركيز على المادة ، وإقصاء المسار الروحي الثقافي من تقاطعات الحياة المفصلية .

واعتماداً على مبدأ التوفيق بين الأضداد المجتمعية لا التلفيق ، تستطيع الوقائع الاجتماعية انتهاج أسلوب جديد للتعامل مع عوامل بنية الثقافة بعيداً عن إقصاء المعنى ، وترقيع معطيات انتخاب المشاعر ، وتفتيت قيمة الإحساس الإنساني المضاد للميكانيكية الآلية .

ولا تملك الثقافة إلا أن ترفض مأزقها الاجتماعي بُغية تثبيت سياسة فعالة تطرح الأسئلة الوجودية المعرفية بالحاح على أنوية التجمع الثقافي السوسيولوجي . ومن أجل ذلك ينبغي التصدي للنمذجة الفوضوية الحاملة لمعطيات تبجيل الانهيار ، والحاضنة لمشاريع صناعة الأوثان البشرية وتكريسها كآلهة فوق مستوى النقد والنقض . إذ إن تصنيف الذوات يشكل خطراً بالغاً على علاقات ذاكرة الشرعية الإنسانية بامتدادها الطبيعي في تقاطعات المجتمع ، وإذا تركزت حالة تصنيف الذوات ، فإن المأزق الإنساني الوجودي سيتكسّر كوجود مستقل قاتل لمستقبل الحُلم . وهذه الحالة الغريبة تتضمن البناء على العدم ، والتأسيس للفراغ . واعتبار المشكلة ركيزة أساسية للحل يدل _ بشكل قاطع _ على أن المجتمع أضاع بوصلته ، وصارت القيم المعنوية قطاراً منحرفاً عن السكة يرى الانحراف خطأ مستقيماً .

وهذه الحالة من الضياع والتبعية للسوالب الحياتية إنما نتجت بفعل غياب المرجعية الحاكمة على جدوى الأنساق وشرعيتها . فالحُكم على الشيء فرغ عن تصوره ، والناس أعداء ما يجهلون . وفي ظل هاتين القاعدتين ، وغياب المرجعية المركزية ، انتقل مفهوم التقاطعات اللغوية في أبجدية المعنى الدال على الألفاظ إلى غيبش جدلي فاقد الدلالة ، فانقلبت الموازين لأن زوايا الرؤية غير واضحة ، وعملية الرؤية _ أصلاً _ يشوبها الكثير من القصور والتبعية للانكسار الموظف سياسياً في بؤر استمرار الحُكم كيفما اتفق . لكن الثقافة _ ومن خلال أبعادها المحورية وتشعباتها الدلالية _ قادرة على تصحيح مسار التعريفات إذا امتلكت _ أي الثقافة _ حُكماً ذاتياً يؤهلها لاتخاذ قرارات التغيير الاجتماعي بحرية دون ضغط سياسي متمركز في مصلحة النظام الحاكم ، والحاكم الأوحده وحاشيته ، ضمن فوضى تصنيف الذات ، وتوثيق الأفكار البشرية⁽¹⁴⁾ .

(١٤) تصنيف الذات : اتخاذ الذات البشرية صنماً معصوماً وفق منهجية الأنا العليا المركزية . أمّا توثيق الأفكار البشرية فهي : اتخاذها أوثاناً مقدّسة فوق النقد لصناعة هالة العصمة والحصانة حول أصحابها .

واستناداً إلى معنى الوظيفة الحتمية لانتشال المجتمع الثقافي من المصيدة السوسولوجية ،
تنحاز العناصر المعرفية اللامعة إلى جانب بناء الشخصية الاعتبارية للفرد الذي أضحي مسخاً ،
وظالاً باهتاً في زحمة النفاق الاجتماعي . فالفرد قد فقدَ قيمته الإنسانية ، وأصبح بوقاً مادحاً
للإفرازات القمعية في المجتمعات الدائرية المغلقة .

*

٣

أبعاد عملية التحرير المجتمعي

إن المجتمع المحصور في فوضوية تقاطعاته هو _ في واقع الأمر _ دائرة مغلقة لا تتيح للفرد
فرصةً للانعقاد أو الخروج من مأزقية الحصار الشرس . لذلك كان لزاماً على الذات البشرية إذا
أرادت الالتقاء بكيانها المنطقي أن تتفوق على ذاتها ، وتصنع فرصة ذاتية اعتماداً على جهدها
الشخصي . أمّا انتظار صدقات المجتمع القامع المقموع لتحرير الفرد من سطوة حياته المادية
الصارمة فهو انتظار ما لا يأتي .

ولا يخفى أن الحرية تُنتزع انتزاعاً ، ولا تُمنح على شكل صدقة من الأعلى إلى الأدنى . ووفق
هذه القاعدة فإن الفرد مُطالب بانتزاع حريته من أجل تحرير معناه من معناه ، وتكريس وجوده
البشري الفعال كأداء عقلائي واضح مضاد للانطفاء . إلا أن التقنيات السيكلوجية المشوّشة تقف
عقبةً في طريق عملية تحرير الفرد من مداره المفروض عليه من قبل سياقات السُّلطوية المصطنعة .
ممّا يؤدي إلى انبثاق تيارات عاجزة عن طرح الأسئلة ، وتوفير إجابات واضحة .

وفي مثل هذا الجو من انعدام الوضوح ، تتجلى الإفرازات المجتمعية كحالة كلية عاجزة عن
احتضان الأجزاء ، فيجد الفرد نفسه خارج حسابات الجماعة ، بل خارج نطاق تفكير الجماعة ،
وهذا يقضي على روح الانتماء ، فيحدث انشقاق عنيف في صورة الفرد على مراحا الكينون البشري

الجمعي . ومن هنا يصير المواطن مُنشَقاً ، وهذا الانشقاق يتجذر في باطن الإنسان فيقضي على امتدادات إنسانيته ، وينعكس على ظاهره الخارجي ، مما يجعل من الفردية الحاملة لمشروع نهضة الجماعة المتجانسة ظاهرةً لتفشي سياسة العزل والعزلة داخل مجتمع يسجن نفسه بنفسه، ويلعب لعبة المقايضة مع مصيره، كأنه يقامر بوجوده الحي والحر . وهذه اللعبة تجعل المجتمع سَجَاناً وسجيناً في آن معاً ، لأن الذي لا يعرف معنى الحرية سوف يجعل من حريته مفتاحاً لزنزنته . وهذا يدل على أن غياب المرجعية الحاضنة لأفق إصدار الأحكام المصيرية ، سيفود إلى اختلال زاوية الرؤية ، فتظهر المعطيات صورةً إشكالية من التبادل العشي بين المدخلات والمخرجات .

وكلما تجمست المدخلات دورَ المخرجات وبالعكس، تفتشت في أوصال النواة المركزية المحتوية على جينات التنوير الثقافي أشباخ مجتمع مسخ لا يُفسح لنفسه مجالاً للحراك التَنُموي إلا ضمن منظومة الاستهلاكية . وهذا يصنع من انكسار وظيفة الفرد في صهر المراحل مضموناً لنهاية تاريخ الحلم، ورفع المجتمع للراية البيضاء ، والاستسلام للملل الوظيفي والروتين الاستهلاكي الشهواني القاتل المتذبذب بين الرغبة والجنس (البطن والفرج) .

ووفق اتجاهات بنية التشكيلات الثقافية، سوف تتعزز نظرة المعنى الكلي لأجزاء المعاني الجزئية، أي إن المعنى المسيطر على تفرعاته سينقل الهاجس الاجتماعي من مركزية القلق إلى مركزية الوعي بالذات والآخر ، وهذا بحد ذاته إنجاز . حيث إن الهواجس المرضية ضمن الأحكام السوسولوجية تفترض صورةً قائمة للحالة الاجتماعية ، وتعمّمها على الخطوط السياسية للنسغ الثقافي، وهذا يقود _ حتماً _ إلى تشكيل صورة خادعة عن النفس الفردية في أبعاد الأزمة الوجدانية للمجتمع المتآكل. والمجتمع البشري لا ينفعه إصدار الأحكام المخادعة اعتماداً على النفاق الاجتماعي والرياء والمداهنة والمحسوبيات وبدائية العقلية العشوائية . ومن هنا كان لزماً تجريد المصطلحات من أثقالها الأسطورية المشوشة التي فرضها نظام المجاملات القبلي . وهذا التجريد الفلسفي الأساسي لن يتعامل مع وحدة القيم الشعورية كظواهر مفرغة من الامتداد والتأثير ، بل سيتعامل معها ككتلة واحدة متحركة في زمان واحد (مخيالية الزمان والمكان المتشابهين لفظاً ومعنى) ، حيث النظر إلى الزمان والمكان كشيء واحد اتحادي لا انفصالي .

ومن هنا يتموضع المجتمع كبنية محورية مكونة من الظاهر والباطن بكل شفافية ، مما يقضي على انفصام الشخصية في المحاور الاجتماعية الكلية والجزئية ، لأن الذي يُسبب انفصام الشخصية هو اختلاف الظاهر عن الباطن ضمن فوضوية النفاق الاجتماعي . أمّا النظر إلى ظاهرية

المعنى الفلسفي لجذور الحركة الثقافية الانقلابية التي تنقلب على نفسها لكي تجد نفسها ، وباطنية التفكير الأنساقى المتناسك ، نظرةً متوحدة مع اتجاهات انبعاث حضارة الأجدية المعرفية ، ومتوازنة وفق منهجية توحيد الزمان والمكان، وتوحيد الظاهر والباطن ، وتوحيد اللفظ والمعنى ، وتوحيد الخيال والواقع، وتوحيد البنية التحتية والفوقية ، فسوف يكون _ أي النظر _ اتجاهاً فكرياً جديداً يتجاوز معنى النظر إلى ماهية النظرية ، لأن انضباطية توحيد المحور الأفقي والعمودي في تشريح القيم الفاعلة في حركة المجتمعات ، تُعتبر اتجاهاً ديناميكياً لفك طلاسَم انكسار بنية مجتمع الكآبة ، وتحليل تَمْوُضَعَات النواة الفلسفية التي تَكُونُ إفرازاتِ المجتمع الميت .

وبما أن الفعل الثقافي هو فعل زلزالي يطرح أسئلة الوجود على جذور الفكر السوسولوجي، ويختبر منابع المعقولة السائدة في الحراك الاجتماعي ، كان من الطبيعي حدوث حالة اصطدام بين الفاعلية الثقافية الثورية الحية ، وبين النسغ المجتمعي الميت _ أو الذي يتصنع الموت _ ، وهذا الاصطدام لا يمكن أن يُفْتَتِ القطب المجتمعي الفُطْري مهما بلغت قوته ، وإنما سَيُنتِج مَوْلُوداً جديداً منبثقاً من تقاطع الاصطدام ، وهذا المولود هو الوعي الثقافي الذي يكرّس سياسة الثقافة كسياسة نظيفة تصون أحلام الفرد والمجموع ، ولا تتاجر بها تمهيداً لوأدها . ويعزز انبثاق المولود الثوري من رحم البيئة القاتلة للروتين الوظيفي أساليب تدعيم جبهة الثقافة المتقدمة من خلال نقل إشكاليات الأضداد المتعامدة عبثاً إلى صياغات توفيقية لا تلفيقية ، وكلّ صياغة توفيقية عبارة عن سد منبع للحيلولة دون تفشي ظاهرة الأقطاب المتنافرة . فالثقافة ذلك الفعل الثوري الرسمي والشعبي هي بُعْدٌ وجودي كَوْنِي لصهر الأضداد المجتمعية ، ثم إنتاجها على شكل أقطاب مختلفة لكي تتجاذب مثل السالب والموجب ، مع الانتباه إلى أن الاختلاف لا يعني تشتت القوى المجتمعية الشعبية، وتفكك المسار والحلم والمصير ، وإنما يعني النظر إلى مراكز الثقل الاجتماعية من زوايا متعددة إحاطية لكي يتم تكوين فكرة واضحة كلية لا جزئية تبعية . وهذه الفكرة الشاملة (النظرة الإحاطية) كفيلة بالسيطرة على كامل منظومة المدخلات والمخرجات ، مما يتيح فرصة حقيقية لدراسة الخطوات ، ومواعيد تقدمها أو تأخرها وفق معطيات البيئة الذهنية والواقعية . وهكذا نجد أن وحدة المسار ووحدة المصير وجهان لعملة واحدة تم اعتمادها لتغزو مجالات الثقافة ، وتنتشلها من روتين أدراج المكاتب ، لكي تزرعها ثورة مستمرة في أدق تفاصيل العمود الفقري للمجتمع .

ويظل هاجسُ التحدي الأساسي للمشروعية الثقافية هو عملية نقل الجبر إلى مكانة الدّم ، ونقل القلم إلى مكانة السيف، ونقل الكلام إلى مكانة الفعل ، ونقل الأفكار السجينة في الكتب إلى الشارع العام . وهذه المتواليّة العنيفة من فلسفة النقل المتواصل تعطي زخماً قوياً للحراك الاجتماعي الذي يُبنى حسب العقلية الثقافية الثورية لا الطبقة المادية التجريدية .

ولا يخفى أن الخلل البنائي في روافد العمل الإنساني الواعي والحاضن للوعي بالعناصر المحيطة ، هو أحد نتائج كومة الإشكاليات المحيطة بالمنع العميق لسوسيولوجيا المجتمع المحصور في أضداد الاستهلاك القائم على قاعدة القوة الشرائية . وهذا جعل من الفكر الاجتماعي الشعبوي سوقاً تجارية للعرض والطلب ، فانكششت القوة العقلانية للفرد بسبب غرقه في متواليات التسلّع الإنساني⁽¹⁵⁾ .

وننتج عن ذلك مجتمع وهمي يتحرك في محيطات هلامية صابونية ، حيث تُرسم له الأبعاد الحدودية من قبل الأنظمة الأبوية المشوّشة لإقناعه بأن وجوده حقيقي وفاعل ، وهذه إحدى وسائل التخدير ، وخداع المريض عبر إقناعه بأنه صحيح الجسم .

وليست التجربة الفردية المتفوقة في تشكيل الوعي الجمعي إلا تقنيات عنيفة تهز المسلّمات الافتراضية المكرّسة بفعل الإسناد السلطوي العسكري . فالكثير من الافتراضات التي يُنظر إليها على أنها حقائق ثابتة إنما تستمد وجودها وديمومتها بفعل قوة النظام الأبوي المتشظي لا قوة المنطق الذاتي الفاعل .

واضطراب النظام الأبوي (نظام الوصاية التعسفية) له جذور وارتدادات عميقة وشاملة لتفاصيل الهرم الاجتماعي . ففي المجتمعات المغلقة تكون المؤسسات الاجتماعية الرمزية _ مثل الأسرة أو المدرسة _ عبارة عن دويلات بوليسية مصغرة . وهذا الجو من الكبت التركيبي الطبقي سيؤثر على الأنوية الديناميكية في الجسد الوظيفي الثقافي ، لذلك _ ومن أجل حماية الشرعية الثقافية من الغرق في الروتين الحياتي وقشور الترف الزائد عن الحاجة _ ينبغي إبقاء الفعل الثقافي تحت مظلة الفعل الثوري الواعي .

(١٥) تحول الإنسان إلى سلعة في موضع العرض والشراء ، حيث تفقد المستويات الشعورية الإنسانية قيمتها لصالح تيارات مادية تعطي السيادة للقادر على الدفع .

وعلى الرغم من أن علم اجتماع الثقافة يتحرك تحت الحصار، وتحت الحصاد. بمعنى أنه يتحرك في بيئة خانقة للإبداع ولا تحترم مكانة المبدع، ويتمدد تحت ضربات الحصاد الاستتصالي الذي يراد منه اجتثاث الثقافة كفعل توعوي نقدي، وجعلها فعلاً تدجينياً ترقيعياً محصوراً في دوائر الأبواق المادحة للتقاطعات السلبية في شتى طبقات التزييف الاجتماعي، إلا أنه _ أي علم اجتماع الثقافة _ قادر على ترتيب أوراقه عبر عملية تصحيح ذاتية من شأنها إحالة المعنى الشعوري إلى تيار تطبيقي ينهض بالفرد والجماعة، وذلك راجع إلى القوة الدافعة الكامنة في شرعية الثقافة _ بغض النظر عن انتشارها المجتمعي أو عزلتها _ .

ومن خلال التأصيل التجريبي الأحادي فاقد السيادة على روافده بفعل محاصرة الثقافة داخل معركتين: داخلية وخارجية⁽¹⁶⁾، فإن شرعية التأصيل ستبدو مهزوزة لأنها اعتمدت على التحرك المسيطر عليه مسبقاً، حيث المسار والوجهة مرسومان سلفاً وفق إرادة الطبقات المتنفة التي تشكّل الثقافة خطراً على وجودها واستمرارها في أماكن النفوذ وصناعة القرار .

ومن أجل تفعيل التصاق المشروع الثقافي بالمجتمع البشري، ينبغي رسم صورة الثقافة الخلاصية والتخليصية كوسيلة إنقاذ، وعندئذ سيتبناها المجتمع بكل طبقاته . إذ إن الناس أعداء ما يجهلون، ومن خلال هذه الرؤية لا بد من جعل الثقافة خبزاً يومياً متوفراً في الحياة لئلا يشعر الفرد بالغربة داخل مجتمعات المشروعات الثقافية، بل يشعر بأن الثقافة عضو من أعضائه ملتصقة به، وتعمل من أجله بكل اتساق ووضوح، وعندها يتخلص الذهن من القناعات الافتراضية حول عزلة الثقافة وتعقيدها وترفها واقتصارها على النخبة .

والنخبة الحقيقية هي النخبة المنبثقة من الحس الشعوري العام بأهمية السياسة الاجتماعية المنهجية التي ترمي إلى انتشار الفرد من قطيع الغنم، وتحويل قطيع الغنم الشّعبي إلى جماعات إنسانية متجانسة قادرة على صناعة المبادرات التنموية الحقيقية وإتمامها ضمن سياسة الاتجاه الديناميكي لليقين . وهذا يستلزم فحص المسلمات الاجتماعية الموجودة بفعل قوة استمرارية العادات والتقاليد لا قوة النواة الفكرية الداخلية .

(١٦) المعركة الداخلية للثقافة تتلخص في المحافظة على النظام الأساسي للثقافة خارج دهايز التدجين والنفاق الاجتماعي، أمّا المعركة الخارجية فيمكن اختزالها في عقد لقاء بين الإنسان وإنسانيته وفق سياق الإرادة الحرة الفاعلة في الحراك الاجتماعي، والتحريك السياسي، والحركة الثقافية .

ولا يمكن للمشروعية الثقافية أن تتجذر في وسط مجتمع يقول كما يُقال ، ويُساق بالعصا والجزرة . فالوعاء الاحتضاني الذي يحتوي تقاطعات التنميط الاجتماعي لا بد أن تكسره المشاريع الفكرية بُغية الخروج على قانون الروتين ، وكسر قوالب الأنماط الذهنية التي تحوّل الأفكار البناءة إلى أصنام حجرية تدفع باتجاه تكريس المجتمع كضحية للتنميط غير المبرّر الذي كلما نما قتل الإيقاع الديناميكي لأنوية الجماعات البشرية ، وحوّلها إلى قبائل ميكانيكية متضادة مختلفة المسار والهدف .

وإذا أردنا التفاعل مع المعطيات الاجتماعية بشكل يتيح تكوين أجهزة أخلاقية حاملة لحلم الشعب ، لا بد من فهم طبيعة تحركات التقاطعات السياسية والمتواليات الاجتماعية والمتوازيات الثقافية ، ومعرفة توقيت التفاعل بين المعقولات التّهضوية ، وإدراك حدود رقعة الحاضنة الفلسفية التي ستم عليها أنشطة المجتمع الحيوية .

ولا يكفي القول إن المجتمع البشري يتحرك حسب البنية التحتية والبنية الفوقية ، أو حسب المحور الأفقي والمحور العمودي . فهذه معلومة مفروغ منها . لكن النقطة الجوهرية في سياق فهمنا لعقلية الحراك الثقافي باتجاه سياسة العقل الجمعي ، هي تحديد أشكال الالتقاء بين الأنوية الحيوية للمجتمع (السياسة ، الاقتصاد ، الثقافة ، ... إلخ) ، وتعيين الوقت الدقيق للتجاذب والتنافر ، وهذه العملية الدقيقة ستوفّر فرصة ذهبية للتنبؤ بشكل الجنين الثقافي (المولود السياسي) القادم لانتشال الفرد من مأزقه الوجودي الخطير تمهيداً لإخراج المجتمع من مستنقع ردود الأفعال التي تهضم تأثير الفعل الثقافي الانقلابي الطامح للتغيير والتشييد مستخدماً الهدم والبناء في آن معاً .

إن أبجدية المجتمع تمثّل تياراً عقلياً متوحداً مع ذاتية المعنى . ومن خلال هذا المنظور ، فإن الأداء المعرفي لا بد أن يتأثر باتجاهات المعنى الظاهري والباطني . وفي هذا السياق ، يجب القول إن المعنى شكلٌ وجوهرٌ : شكلٌ للطبيعة الثقافية المحيطة بالثورة الإنسانية ، وجوهرٌ لألفاظ المستوى الذهني .

وتتعرّز أهمية الذهن بوصفه الرّحم الحاملة لبذرة الوجود الثوري خارج أنساق الثورة العلمية ، وهذه المنظومة من التداخلات الظاهرية والباطنية هي الضوء المحتوي على ذرات الاستعداد

الوظيفي للمجتمع من أجل احتضان مشروعية الفعل الثقافي الواعي المتمرد على قانون الاستلاب السياسي⁽¹⁷⁾.

وكلما تعمقنا في تشريح ذهنية أنساق التحولات السيكولوجية ، اكتشفنا أبعاد التراكيب الفلسفية الناقلة لرمزية الشروط النفسية للأداء الثقافي ، وعليه فإن مفهوماً جديداً لتحولات الوعي السياسي سينشأ متضمناً الأبعاد الشعورية للفرد في ظل صعوده العمودي في طبقات الإحساس الجماعي . وفي ظل امتدادات حركة المشاعر الوجودية ذات التطبيقات العملية ، تتكسر أبجدية الثقافة كحالة فاعلة في الحراك الاجتماعي، بل إن الثقافة تغدو فلسفةً أساسية لوعي الجماهير بال مسار والمسيرة والمصير ، فتتجذر الثقافية حراكاً اجتماعياً قائماً بذاته ، ومتمتعاً بحكم ذاتي منفصل عن شوائب التسييس المغرض .

ولا يمكن للمجتمع الاعتباري المتكوّن على شكل نص ثقافي جماعي تكتبه العناصر المعرفية المتضافرة أن ينشئ نظاماً حركياً واعياً ، إلا إذا نجحت عوالم الأنساق السوسولوجية في الانعتاق من سُلطة المسلّمات الافتراضية الاستباقية الحاكمة على الفعل الثقافي والنصّ الإبداعي . وهذا الانعتاق المحوري لا يتأتى إلا من خلال تفعيل رمزية اللغة في انقلاب الفرد على ذاته لكي يخرج من مأزقه الشعوري الحرج .

ولأن أبجدية التمركز المعرفي حول النواة الثقافية السيكولوجية هي فاعلية رمزية وجدانية ، كان لزماً على التيارات الداخلية في ذهنية تجربة العلوم الاجتماعية أن تنتقل من التجريد الهلامي العابت إلى تحديد أفق المتمركزات الشعورية لفضاء اللغة ورموز الأبجدية .

فالفلسفة الاجتماعية التي تحاصر مأزقها الاستهلاكي العاطفي لا تقدر أن تعيش خارج الرّحم الثقافية ، لأن المعاني التشريحية التي تنظر إلى الثقافة على أنها معقولة الخلاص المرحلي ، ومنطقية الماوراء الداخلي الملموس ، هي معانٍ تكوّنت في الرّحم الثقافية ، ثم خرجت من مخاض ولادة الإرهاصات المضطربة في مجتمع مضطرب .

(١٧) هو القانون العُرفي الذي كرّسته الأنظمة الشمولية للحفاظ على وجودها واستمرارها عبر اختلاس سياسة المعنى المثورة في أوساط الجماهير، ثم إعادتها على شكل كتل هجينة موظفة سلبياً لقلب المفاهيم في الأذهان لصالح الوعي الحكومي السالبي .

وكل المجتمعات المبنية على أحادية القبيلة هي مجتمعات قلقة أسست قاعدتها الشعبية على سطح بركان قد ينفجر في أية لحظة . ومن هنا تنبع أهمية دراستنا للإرهاصات العقلانية المنحازة إلى الفكر التكويني الآتي من واقعية المخاض الاجتماعي العسير ، حيث تختلط فلسفة الاستهلاك باستهلاكية الأنساق المصرية ، لذلك فإن المجتمع الذي يقصي الثقافة باعتبارها مركزية أنماط الترف ، ويعطي ظهره للنظم الفكرية النوعية ، إنما يلعب بمصيره ويقامر بوجوده الحر الفاعل في مساحات حياة الفعل الاجتماعي المعياري . وكلما اتجهت بوصلة ثورة اجتماعيات اللغة نحو تكريس المعنى الوجودي للفردية في مستوى الكل الجمعي ، ازدادت قيمة التحولات الإشارية التي تنقل صياغات الروتين الاجتماعي الوظيفي إلى مركزية الأبجدية الرمزية المضمونية ، حيث يصبح المضمون النموذجي لمنوال التشييد الثوري المنطقي حراكاً اجتماعياً متماهياً مع الخط الثقافي للعلاقة بين الذاتية والمضمون الخارج عنها، الملتصق بها . وهكذا سوف تتركز أبجدية المعنى الإنساني العميق في نخاع أنظمة العلاقات الإنسانية، وهذا الأمر بالغ الأهمية في كشف الحضور المعرفي شعبياً، وضروري جداً بالنسبة لتفعيل وجود نواة الحلم المتجذر في المنبع لا الروافد ، لأن صياغة المناحي الوجودية في المنبع الأساس يشبه تركيز الثورة في القلب الذي يضخ الدماء في الشرايين، أما تشكيل تيارات التغيير في الروافد فلن يكون ذا تأثير حاسم في ضخ المعنى الثقافي الانتشالي الإنقاذي⁽¹⁸⁾ في توزيعات المنحى الإنساني على مستوى فردية الجماعة ضمن تقاطعات العقل الجمعي .

وتتكشف الملامح النظامية التي تعيد إنتاج تقاطعات المجتمع الثقافي لتعطي للمعنى التواصل بعداً أكثر جذرية ، مما يتيح الفرصة لعناصر التفكير الجوهرية كي توجد مستويات ديناميكية تنقل أبجدية التواجد البشري المؤقت إلى ديمومة الإنتاج المعنوي الفعال . ووفق هذا التجدير تبرز إشارات أخلاق التجانس الاجتماعي على شكل صياغات ثقافية خارجة على قانون الظرفية الاصطناعية الذي ينظر إلى المشروعات المعرفية على أنها ظرف طارئ ومصطنع ، يستمد وجوده الحركي نتيجة التسييس المحيط به بفعل النظم السياسية المتطرفة ، التي تدجن مشروعية الحلم

(١٨) إن وظيفة المعنى الثقافي هي انتشار المجتمع من مستنقع الغد المصادر ، والحاضر المسلوب . لذا فإن الفاعلية الثقافية يمكن قياسها بقدرات تحول الألفاظ إلى المعاني الشعورية الكونية القادرة على تغيير البيئات

الثقافي تمهيداً لاستخدامه في أطر مشبوهة محدّدة المسار والمصير، من أجل خدمة الطبقة الحاكمة وما يتفرع عنها.

وإذا أدركنا أهمية الثقافة الواعية كفعل انتشالي يرمي طوق النجاة للمجتمع الغريق ، فهمنا اتجاهات التحول في شكلانية الفعل العقلاني المنوالي الذي يتواصل في معرفية التطابقات الذهنية مع الواقع . والعنصر الفعال في تزويج الذهنية بالواقعية هو اللغة التي تؤسس لمرحلة انتقال التحليل الاجتماعي من زاوية افتراضات تأصيل إنتاجية استهلاك النّسق ، إلى مدى المصدر الواعي لأبجدية تاريخ التنمية .

والقدرات التّنموية ليست إشارات افتراضية منحازة إلى عقم البناء الحضاري على ذاكرة الخديعة، بل هي نتاج الفاعلية المتجانسة لتجريد التنظيم الفردي من ثقل اضطراب الجماعة كخطوة أولى لتكريس أبجدية الجماعة كتاريخ جديد متجانس وحر، قادر على وضع النقاط على الحروف . وبعبارة فلسفية أشدّ تكشيفاً، وضع البنى الاجتماعية في متوازيات البنية التحتية والبنية الفوقية ، للحيلولة دون التضارب في نقل المعطيات الإنسانية الثقافية في شرايين اجتماعيات الكيانات الطبقيّة الأخلاقية ، وضمان سلاسة التشييد الأخلاقي في قيم الإثبات والنفي، إثبات المعنى الوظيفي للحياة الذاتية التواجدية ، ونفي تواصلية رموز الإنتاج الشعوري مع إفرازات النظم الاجتماعية الخادعة .

ولللخروج من حالة الخداع الاجتماعي التي تجذرها النظم الفوضوية بواسطة خلاياها المجتمعية في النسيج الأسطوري المصبوغ بالثقافة التنويرية ، لا بد من إزاحة القناع عن وجه النظام الاجتماعي الفوضوي عبر توصيل الرسالة الثقافية الحقيقية إلى العمود الفقري للجماعة البشرية ، وتأطيرها في أفق التجانس المتحرر من سطوة المتخيّل السالبي .

وإن دلالة التوليد النصّي الرامية إلى ردم ثغرات البنى السوسيولوجية لا تعني _ بأية حال من الأحوال _ انتهاج أسلوب الترقيع المغرض والتلفيق الجدلي . وذلك لأن صياغة توليد النصّ الحامل للطموح المستقبلي في التغير والتغيير تمثّل صياغة جديدة للمعنى الفلسفي الثقافي اعتماداً على تغيير زاوية الرؤية بما يضمن أفقاً أكثر رحابة للنظر والتمحيص والنقد والنقض .

لذلك تتركز قيمة النقد كنظرية حياة وحرية في بناء مجتمعات ثقافية تنويرية ، توازن بين البنى التاريخية الذهنية التي تعتمل في عقلية الفرد ، وبين العقل الجمعي للكل البشري التجانسي . وهذا التركيز إنما يحمل في طياته تفتيت المتمرکزات السياسية في مستواها السالبي الانتهازي ، من أجل

القضاء على ابتزاز الحرية الفردية باسم الحرية ، أو استغلال الجماعة باسم الحق العام وحفظ السلم الأهلي .

إن لعبة اختراع الكيانات المعرفية من قبل الأنظمة السلطوية الأبوية حاملة الوصاية المزعومة ، وتفصيل المصطلحات الاجتماعية الثقافية على مقياس الدول المارقة لشرعنة الأطر الظلامية ، وتبرير انكسارات المجتمع لصالح ازدياد نفوذ النخبة الحاكمة روحياً ومادياً . كل ذلك يؤدي إلى توليد مجتمع اصطناعي مغلق في غرف زجاجية تفصله عن الحقيقة ، وتتحكم في مقدار نور الشمس الواصل إليه .

وهذه النشأة الاجتماعية غير الطبيعية عبارة عن كائن مسخ ، أو جنين مشوّه . وهذا يعود إلى أن الثقافة ذات المشروعية الناقلة للحدث الأصيل المنطقية أضحت بحد ذاتها ثقافة للإرهاب الذاتي، وإطاراً رمزياً لترهيب العناصر الخارجة عن الذات. ومن خلال هذا التأصيل المحوري لحركة ردة الفعل التي تقضي على الفعل، صارت الثقافة وسيلة لكسب العيش وتسلق السلم الوظيفي، وأداة مربحة مادية بفعل التطيل والتزوير للقادرين على الدفع من علية القوم . وصار المشروع الثقافي مكرساً بامتياز لشرعنة وجود أنظمة اللاوجود ، والدفاع عن استمراريتها بحجة أنها الخلاص النهائي والحاسم. وهذه التقاطعات المؤلمة في المسار الإنساني العارق في الغيبوبة اختزلت المثقفين في زاوية المرتزقة المرهونين للداخل أو الخارج . وبعبارة أخرى الارتهان للقادر على الدفع . وهؤلاء المثقفون الذين أضحت رسالتهم تحقيق منافع شخصية غير مشروعة ، صار وجودهم مرتبطاً بوجود الجهات التي يعملون لديها وتعقد عليهم ، وصارت مصالحهم متماهية إلى حد الاندماج مع مصالح التيارات المتنفذة الابتزازية ضمن علاقة تطفل متبادلة ، يؤدي فيها المثقف خدمات غير أخلاقية مقابل مردود مادي معين ، وزيادة نفوذ ، وترسيخ مكانة اجتماعية ظاهرة .

إن تحولات الفردية المركزية بشكل متذبذب في مجتمع مسجون في أنساقه السجينة ، لن تؤدي إلا لمزيد من انكسار المعنى في زحمة فوضى المصطلح. فمن خلال الضجيج المتشعب حول طبيعة مفاهيم تحولات المجتمع على المستوى الفردي، وكيفية حركة الفرد في إطار الجماعة الرمزي، سوف تنزاح قيمة المعرفة الشعورية باتجاه متوازيات الفوضى التي تصنع مجتمع الفوضى في ظل التطيل والتزوير ، دون أن يهتدي الأفراد إلى الوجهة الصحيحة كوحدة جمعية ثقافية عابرة للأطر الارتجالية الناشئة في حضانة العصبية القبلية .

واعتماداً على مبادئ مجتمع الثقافة باعتبارها فعلاً تنموياً مضاداً لعقلية تقوقع شاعر القبيلة الذي يدور مع القبيلة حيث دارت بفعل العصبية الشاذة عن مسار الولادات الفكرية، سوف تتعزز صورة المنطقية الفعالة في إعادة إحياء البنى الداخلية للمشروعية المعرفية ضد المشروعية السلطوية الأبوية⁽¹⁹⁾. وفي ظل تمركزات الفردية ضد الجماعية، ومواجهة الفرد مع المجتمعات الكيانية للثأر من نسغها الضاغط على المعنى، وردة الفعل الكلية التي تنبذ الفرد وتقضيه بوصفه منشقاً أو خارجاً على قانون القبيلة، تبرز ظواهر نقض الشعور الافتراضي الذي يستلزم تحطيم المشاعر الداخلية للفرد، والمصنوعة في مزرعة العواطف المستنسخة بشكل افتراضي قشوري لا يمس الجوهر (النبع). وهذا الخداع المتبادل في إشكالية ثنائية (الفرد / المجتمع) يؤسس المجال الفلسفي لولادة المجتمع الاصطناعي قيصرياً، وعندها يكون الأفراد كائنات ممسوخة مفرغة من محتواها، لأن الجنين المجتمعي الثقافي المنتظر لم تتم تغذيته في نظم انقلاب العقل على الجهل، ورفض الحقيقة للأسطورة. فكانت النتيجة شللاً اجتماعياً إقصائياً ضد الثقافة، وكل مجتمع يتموضع على كرسي متحرك لن يقوم بواجبه في إحداث نهضة على الصعيد الشعوري كخطوة ابتدائية لإحياء التكوينات السوسولوجية المؤمنة بالقضايا المصرية التي حوصرت في خانة الشعارات الروتينية إلى حد الملل، والفلكلور التراثي المنبوذ، والمكياج على الأقنعة اللامعة التي تخفي بشاعة الوجوه.

وينقلنا الحديث عن الطبيعة الاجتماعية للعقل المعرفي المحاصر، إلى مبادئ وحشية المجتمع في التعامل مع المثقف التي أدت إلى انعزاله في معسكر كلماتي صحراوي شديد الوطأة على الروح والجسد، وعزله بعيداً عن النمو التاريخي للشخصية الثقافية الاعتبارية واضحة المعالم

(١٩) إن النظام الكهنوتي السياسي الذي يعطي الحاكمية للبشر الذين يُنظر إليهم على أنهم آلهة، يفرض شروطاً جائرة على الجزء الإنساني والكل البشري (الفرد والجماعة) من أجل ضمان الولاء القسري والانتماء الإجمالي لمشروع الابتزاز السياسي الفوقي. وكتلة الشروط هي المشروعية المنهجية التي تتخذها مؤسسة الحكم الفوضوي دستوراً لتدجين الثقافة والمثقفين، وتحويل الرسالة العلمية العقلانية إلى حديقة ببعاءات تردد ما تسمعه أو ما يُملَى عليها دون فهم المضمون. وهذه النقطة الجوهرية تنقلنا إلى إشكالية سلخ العرض عن الجوهر، أو سلخ الظاهر اللغوي عن المضمون المعنوي، مما ينتج أبجديات قمعية تحل محل اللغة الثقافية الإحيائية.

. وهذا التخبط انعكاس متوقَّع لتخبط المجتمع كوحدة كلية جمعية دائرة في حلقة مفرغة نتيجة انعدام البوصلة ، وضعف القيادة في طبقات الهرم السُّلطوي بكافة تفرعاته . لذا فالمجتمع الموغل في الجدل المتذبذب عبارة عن سفينة بلا ربان ، لا تذهب بعيداً لأنها لا تعرف أين هي ذاهبة .

وفي المجتمعات المتخلفة سيدفع المثقفون الثمنَ أضعافاً مضاعفة ، لأن الجاهل تكون التقاطعات الاجتماعية بالنسبة إليه تحصيل حاصل ، فهو يحيا في حصار البطن والفَرْج ضمن أطر الاستهلاك ، ولا يرى أبعد من تحقيق الشهوة التي صارت نظامَ حياة أساسياً لوجوده ، وشرعيةً مستمرة لديمومة تواجد النسغ الفردي في مشاريع الجماعة الكلية ، حيث مجرد البقاء على قيد الحياة أضحي شغلاً شاغلاً لكل شرائح المجتمع المتدنية ، وإنجازاً فريداً من نوعه .

ومما لا شك فيه أن انحسار العقل الإبداعي للموضوع البشري في زاوية المتطلبات المعيشية الضاغطة على الفرد والجماعة ، ساهم بشكل أساسي في تحييد الثقافة في حصار المتواليات الترفيئة المحيطة بالنخبة . وهذه العقلية التَّصفوية (تصفية المشروع الثقافي كواقع حياتي خلاصي) صارت ثقافةً بحد ذاتها ، لأن أركان انتحار المعنى صارت شروطاً جديدة تعيد تعريف الكائن الحي وفق ما في جيبه لا ما في عقله .

وبالتالي فإن المعنى الإنساني للفرد بوصفه ذاتاً فاعلة ومحورية ، قد تقلص لصالح تعريفات جديدة للفرد وباقي الكائنات الحية اعتماداً على المشروعات المتخيَّلة التي حوَّلت الإنسان إلى سلعة في التوازي التبادلي ، وحوَّلت المشاعرَ إلى كتل كميَّة نسبية استناداً إلى دورها الافتراضي في تحقيق أرباح عاجلة . فالأمر أضحي مثل ما يحصل في السينما ، حيث الممثل يصنع مشاعر الحب أو الكراهية أمام الشاشة لأن هذه وظيفته التي يحصل منها على أجره . وهذا بالضبط يحصل في الحياة اليومية التي تكلَّست في أطر سينمائية اصطناعية، ودوائر سيناريو جاهز مسبقاً، ومحفوظ مسبقاً، ومكرَّر على الدوام ، وهكذا يُلبس لكل حالة زِيُّها الخاص وقناعها الخاص .

ومع تزايد الفجوة بين مستويات المعنى الجوهرية، يُؤلَّد معنى وهمي ظاهري للجوهر المزعوم ، وتَنزاح القيمُ الفلسفية الجوهرية التي تم تكريسها بفعل قوة عسكرة الخديعة لصالح طبقات مجتمع الأفعنة ، والوهم المبني على الذاكرة المخادعة المصبوغة بالمسلِّمات الافتراضية .

ومن خلال التكتيف الترابطي بين انكسار الأنا وتشظي الآخر ، واختلاط المفاهيم الأحادية والثنائية بشكل آلي انسحابي خاضع للتسييس المغرض ، تنشأ علاقات منوالية مكسورة تفتقد إلى

واقعية أدوات التشريح النصي الدقيق . وكلما تواصل بناء مجتمع الثقافة على قواعد أبجدية الإقطاعات السياسية الهشة، ازدادت الهوة بين مستويات اللغة الشعورية للجماعة البشرية السائرة ضد تجانسها . وهذه نقطة غاية في الخطورة ، لأن فقدان التجانس الاجتماعي على صعيد الفعل الجماعي في وحدة المسار والمصير ، يحوّل الأفراد إلى كومة من الكائنات الميكانيكية التي لا يرافق أعمالها الذهنية والواقعية نمو عاطفي . ومن هنا تتأكد سيطرة الوهم الجزئي على كليات المعرفة الإنسانية التي تصير جزءاً من خديعة اجتماعية مكرّسة باسم الثقافة ، مما يصبغ الثقافة بهالة الانتهازية والنشطي المجتمعي بسبب قوة الاقترانات الراسخة نتيجة التكثيف الميكانيكي المسبق ، والإسهام المتناقض في فهم الطبيعة الانقلابية للثقافة عن سبق الإصرار والترصد .

ولا يخفى أن الجهات التي ترى في الثقافة مشروعاً هداماً للمجتمع _ من وجهة نظرها النفعية الشخصية_ ، أي إنه سيزيل الغشاوة عن عيون الجماهير ، ويفتح عقولهم أمام المشهد السياسي بكل تفريعاته وتناقضاته ، ويمنح الأفراد فرصة الكلام والنقد والنقض ، ستعمل جاهدة على تفرغ المحتوى الثقافي من امتداده الجماهيري وبنيته العمومية الشرعية ، لكي تحاصر كل مستويات المنطق الفكري للمعرفة وصولاً إلى مجتمع الأبواق التي تردد الكلام الذي يُطلَب منها ترديده مقابل منافع شخصية . لكن النقطة الجوهرية التي ينبغي الالتفات إليها هي احتواء الثقافة على أبعاد الهوية الحقيقية القادرة على الصمود ، إذ إن عوامل القوة الكامنة في أصل المشروع العقلاني الخلاصي الذي يحرّر الفرد من ذاته ، كما أن عوامل الضعف متأصلة في بنى مشاريع السُلطوية الانتهازية التي تنظر إلى الإنسان على أنه موضع للتبادل السِّلعي النفعي البحت ، ومشروع استثماري مادي ، وآلة ميكانيكية تعمل عن بعد بواسطة الأزرار .

والقوة الذاتية المتأصلة في نواة التاريخ الثقافي التي تصير عضواً من أعضاء الإنسان ، سوف تدعم سيادة أبجديات المعنى على فوضوية الحراك الاجتماعي الهش الناتج بفعل الزواج العُرفي بين السُلطة والثروة . وكلما استند الطلاق بين السوالب العنصرية إلى أداء سيكولوجي متماسك ، صارت فرصة فض الاشتباك بين السلطة السالبة والثروة الموظفة سياسياً أكبر وأعمق أثراً .

إن الازدواجية في تشتيت متلازمات النسيج الشبكي للمجتمع البدائي المتخندق في قوالب النفاق الاجتماعي ، قد تغدو مجتمعاً فوضوياً جديداً إذا لم يتم وضع الشبكة السوسولوجية في مداها الثقافي التثويري ، لأن قيمة الثورة مستمدة من مشروطة الانقلاب ، انقلاب الفرد على ذاته حتى يكشف ذاته بعيداً عن قوقعة المجتمع الذي يقصم نفسه . وبما أن المشروطة هي متواليات

الشروط المنطقية، فإن الفرد _ لكي يلتقي بإنسانيته _ يفترض به أن يفرض على ذاته شروطاً ذات مدى مستقبلي تغييري لكي يستطيع تثبيت إمكانياته في أقصى مداها الوظيفي الحاسم ، ووضع المستوى الشعوري الإنساني في بؤرة الانطلاق الحقيقي ، من أجل تحويل الرموز اللغوية التجريدية إلى أبجدية مجتمعية حية ، تحيا في إشارات الذاكرة البشرية، وتكوينات الفكر اللغوي الخاص بعقلنة أبجديات الثورة . ولا توجد ثورة من أجل الثورة ، فالثورة إنما تكون من أجل رفع سقف التحليل الشعوري الذاهب نحو إيجاد معنى مُبتكر لإنسانية الثقافة ، وأنسنة اللغة المعرفية⁽²⁰⁾

(٢٠) إن مفهوم الأنسنة يحمل تصوراً لجعل الأمور إنسانية الهوية والملامح ، ولكن في ذات الوقت فإن الأنسنة لا يمكن فصلها عن المجال العسكري لعقلية الفرد المصرية ، فالعسكرة هي أنسنة التصورات بشكل عابر للملامح الظاهرية ، كما أن الأنسنة هي عسكرة الثوير المنطقي ، وقيمة انقلاب الذوات البشرية على ذواتها من أجل إيجاد "ذات" أكثر شباباً وإشراقاً . والعقبة الأساسية في درب الأنسنة اللغوية للمجتمع ، هي شيخوخة الكيانات البشرية وهي ما زالت في ريعان الشباب . ووفق هذا التحدي الشرس يتحدد مفهوم مصدرية الرمز الثقافي في بناء علاقة إشارائية بين الخيال والواقع للحفاظ على شباب المجتمع كقيمة ثورية ضد الشيخوخة الذهنية . وبالطبع نحن لا نتحدث عن تأثيرات العوامل الزمنية والمكانية في الأجساد البشرية ، بل نتحدث عن المستويات الذهنية لحيوية المشاعر ، وضرورة انقلاب المجتمع على نفسه بكل حضارة وسلاسة لكي يحافظ على فرصته بالظهور مستقبلاً. ويمكننا أن نحدد أبعاد مفهوم الانقلاب الذهني ذي الأطر التطبيقية على الشكل التالي :

أ) التغيير الجذري في رمزية أنساق الذهن ، والتعامل مع الذهنية الشعبية كحامل ومحمول ، أي حزمة متكاملة من الوعي والوعي المضاد .

ب) تأسيس الانفعالات المحورية الدالة على سلوك المعنى متضمنةً نظرية المنسي الدال على التمرکز، أي دراسة العناصر الاجتماعية المنبوذة ، والانتقال بواسطتها إلى النواة المركزية العميقة في المجتمع ، لأن قاع المجتمع هو الذي يحدد الطبيعة الرمزية للمجتمع .

ج) تكوين حكومة الظل الثقافية عبر تحذير صورة الدلالات المركزية في إطار طبقية المعاني اللفظية، وصولاً إلى صناعة أبجديات الانتقال الحاسم من البنية التحتية للثقافة إلى البنية الفوقية = = لسياسة الثقافية ، مما يضمن مد جسور التنقلات الفكرية في نخاع الذات الشعورية للأنا والآخر الداخلي ، وهذا يساهم في تجنب الصدام العنيف بين أبجدية المجتمع المنكسر في التنميط الفكري ، وبين الضمير الفردي الحاضن

بوصفها كائناً حياً لا مشروعاً تجارياً متوحشاً . ولدراسة التشريح الداخلي لحالة أبعاد اللغة المعرفية ، لا بد من تحديد انعكاسات المفهوم والمفهومية والشرط والمشروطة على المستوى الواقعي التجديري . ومن خلال الإشاراتيّة التوظيفية للعناصر يمكننا تعيين أبعاد المنحى التكويني للمعاني . إن " المفهوم " هو التبادل الحر للخصائص الاجتماعية المرتكزة إلى ثورية التبعية الجزئي في سياقات الكلية المعرفية . وبعبارة أخرى ، إن " المفهوم " هو الإطار الجماعي الرامي إلى تحديد صيغ الدال والمدلول في مجال إحداثيات العلة والمعلول ⁽²¹⁾ .

أمّا " المفهومية " فهي الاشتراط العقلائي لأطر الوعي المبني على تسلسل تقاطعات المعاني في مساحات المعرفة . أي تحرّك التفاعلات اللغوية المرّكبة باتجاه أبجدية ديناميكية ذات توجه معنوي شامل . واعتماداً على فكرة المعنى المحتوي على ألفاظ البناء الرمزي للمجتمع ، فإن تجانساً من نوع حيوي ذي استمرارية سينشأ ، ويحل مكان العبث التنظيمي بأبجديات المجتمع المتضارب في الرؤية ، المتصادم في المسيرة . ووفق هذه الصورة الأدائية شديدة التكثيف الفلسفي تتحدد أهمية المعنى ، ليس باعتباره نسقاً مجتمعياً نسقياً فحسب ، بل باعتباره الرّحم الحاملة لبذور التأسيس المخيالي التطبيقي لعقلنة الفوضى (جعلها عقلانية) ، وجعل السلوك البشري أقل وحشية .

وليست وظيفة الثقافة تحويل الأنساق الاجتماعية إلى نتائج حتمية لسياسة الأنسنة بشكل فوضوي أو ارتجالي استعجالي غير مدروس ، وإنما تحويل الطبيعة الرمزية للحالة الإنسانية إلى

لسلوكيات رمزية المعرفة . وفائدة تجنب الصدام تكمن في المحافظة على طبقية البنى الثقافية كحالات وعي جماعي ، وليس كحالات بؤرية للعوامل الطبقية المادية ضمن عبثية الشطط الطبقي .

(٢١) هذه العملية باللغة التركيب وشديدة الترابط المتراص ، تمثّل الفاعلية الجذرية لتحويل سوسيولوجيا التجانس الإنتاجي الإشعاعي إلى منظومات شعورية تفهمها البنية التحتية والفوقية من أجل التعامل مع النواحي الغامضة في لغة المجتمع الغارق في أصولية النفاق الاجتماعي . ويمكن فهم هذه العملية الترابطة اعتماداً على تجزئة السياقات ، فصيغة الدال والمدلول هي التكتل المجتمعي لزواج القطبين الموجب والسالب ، أمّا رمزية سياقات العلة والمعلول فهي التركيب الزمكاني لتاريخ المجتمع كوحدة مخيالية واقعية . ومن خلال الزواج الكبير بين التكتل المجتمعي ورمزية السياقات ، يؤكّد الفعل الاجتماعي كفاعل ذي مكانة اعتبارية . ويتم تلخيص هذا الاندفاع الوظيفي الترتيبي بعبارة " الفعل هو الفاعل " .

مركزية الشعور الإنساني ، والحفاظ على الجانب الشهواني العنيف ضمن إطاره المنطقي الذي وُجد من أجله .

فمشروع " الكتابة " على سبيل المثال هو المسار التكريسي للشهوة الموضوعة في مجالها الحيوي الواضح بلا إفراط أو تفريط . وعليه فإن رمزية معرفة التجانس بين شهوة الحياة وثقافة الشهوة تنتج مساراً منهجياً للتوازن بين الروح والمادة .

فمن العبث محاولة تحويل الإنسان إلى سياق افتراضي مثالي في متواليات المخيال الوظيفي ، لأن شرعية وجود الإنسان مستمدة من حسناته وسيئاته . وهذه البنية تعطينا فكرة أساسية حول الدور الثقافي المحوري في احترام الإنسانية غير المعصومة ، والنظر إلى تكوينات المفاهيم السببية على أنها كسل ناشئة بفعل النماذج المعيارية الدقيقة المتعلقة بكيفية بناء العلاقات النفسية المتشابكة لدى الأفراد والجماعات .

أما مبدأ " الشرط " فلا ينبغي أن يرتبط بالحالة الاستباقية ضمن إشارات المجتمع الكلاسيكي التقليدي ، بل يجب أن يرتبط بالتوظيف الجوهرى لإحداث النقلات الأساسية في نخاع المجتمع عبر انتشاله من المدلولات المسبقة في القوالب الجاهزة سلفاً ، وزرعه بشكل فعال في القدرة على اكتشاف المتخيّل والمدّهب . مما يضمن إحداث تمرّكات هائلة في أشكال التفاعلات الفكرية عن طريق تثبيت مبدأ التبادلية : تحول الأطراف إلى مراكز ، وتحول المراكز إلى أطراف ، وذلك من أجل الإحاطة بكافة مستويات الوعي .

وقد يرى البعض أن خطورة من نوع ما تكمن في تحولات المراكز الشعورية الأساسية إلى أطراف عابرة ، وأن مثل هذه العملية سوف تُفقد المسار الاجتماعي طبيعة مصداقيته ، خصوصاً في ظل انعدام ثبات الأنوية (المنابع) التي تخرج منها شرعية المركزية الثقافية المتفرعة إلى مفاهيم رمزية، وإيقاعات وجدانية تلامس أقاصي الذات المجتمعية (المستوى الفردي الإبداعي) .

وفي واقع الأمر ، إن عملية إخلاء المراكز (الأنوية) لمواقعها ، وإحلال الأطراف في مكان القوة الدافعة الشعورية للجمعية البشرية ، تبدو _ للوهلة الأولى _ تدميراً منهجياً للكيان الاجتماعي التجسدي الحامل للطموح الإنساني العمومي . لكن الواجب علينا الانتباه إلى بعض الملاحظات الحساسة حيال هذه العملية . فهذا الأداء الانتقالي يتم ضمن إطار منضبط شديد التكثيف تحت سيطرة النزعة المركزية . وفي الحقيقة نحن لا نفرغ المجتمع الثقافي من عقله

المفكر ، بل ننظر إلى جميع العناصر البنائية الشعورية وغير الشعورية كمراكز ثابتة ومتحولة ، أساسية التركيب ، وأساسية التواجد .

وفريق العمل هذا لا توجد فيه عناصر احتياط ، بل توجد فيه عناصر محورية موزعة على شتى القطاعات الطبقية ، وقادرة على تغيير جُلدها باستمرار لضمان درء الروتين الوظيفي القاتل ، ومواجهة الملل الصادم في المجتمع الثقافي ، واقتحام الخيال، واستعمار (إعمار) المتخيل المدهش . وهذه العنصرة تتحرك وفق مبادئ انتشار الفرد لمجتمعه ، وهذا الانتشار يأتي كنتيجة لازمة لاحتضان المجتمع لإبداعات أفرادهِ .

والذي يتم هو إجراء تبادلي لا أكثر لصناعة محورية حركية داخل طبقات السوسيولوجيا الرمزية تمهيداً لاكتشاف ما وراء الذاكرة الإنسانية . ولا يتم تفريغ المضامين من معناها وفق منهجية عبثية تعتمد الحراك الميكانيكي على حساب الكيفية المنطقية لأشكال التنظيم الاستثماري في جسد التاريخ المستقبلي ، لأن المستقبل _وحده_ هو الذي لا نملكه، وهو الإطار الرمزي للمتخيل المبهٍر. فالماضي قد مضى، والحاضر حينما نحياه يصبح ماضياً .

وضمن هذه المعادلة المخيفة نتوصل إلى جانب مهم من نظرية تبادلية الأطراف (المراكز المقنعة) والمراكز الظاهرية ، وهو الحفاظ على المدهش في الآتي ، واستلهام روح الإبهار في القادم ، وانتظار الحلم الجامع الذي يأتي من وراء العقل التوايدي للكائنات التي تحيا في ذاتها ، وتحيا في العناصر الأخرى .

وهذه العملية يمكن تلخيصها بانقلاب المعنى على اللفظ ، أي تمرد المعنى البكر على الطبيعة القوالبية للألفاظ الجامدة . وهذا الأداء الديناميكي الحاسم يُعتبر من أساسات شرعية السلوك الثقافي الذي يطرح الأسئلة على مفاصل المجتمع ، ليس للتهرب منها ، بل من أجل تأجيج العقل النقدي القادر على السير في حقول الألغام المعرفية .

ومفهوم الشرط كحالة استباقية وظيفية ، لا يعني وقوف المضمون المنهجي ضد بناءات اللفظ المصيري . أضف إلى هذا أن المصير السيكولوجي للأفراد هو النتيجة الحتمية لتمرد الذاكرة الجزئية على حطامها. أي إن تجسيد الجوهرية كنواة أساسية ذات ركيزة محورية لا يمنع تكوين الأعراض لخدمة الشرعية الثقافية ضمن اتجاهات مضادة للسوالب المترسبة في الوعي الداخلي . وهذا الأداء التجانسي يدفعنا إلى مفهوم أكثر تعريّة لإنتاجية المفاهيم الشرطية ، وأكثر تشريحاً

للمركزات التفاعلية في أنظمة التجمعات ذات الكيانات الاعتبارية⁽²²⁾ . وهذا الجنين الوليد ، الحلم القادم ضد جدليات الكابوس ، هو " المشروطة " .

وإذا أردنا تكوين رؤية شمولية حول فاعلية مبدأ " المشروطة " ، لا بد من احتضان نظام الشروط القبلية والبعدية وفق الجزئيات المتطابقة في تنوعات الجماعة البشرية على خارطة المخيال . ولا شك أن المجتمع الفعلي في تقاطعات الشعور العمومي ، إنما ينشأ في الذهنية الخصبة الحاملة للبذور .

ومن أهم الجوانب التي كشفتها " المشروطة " باعتبارها سياقاً يضع الشروط في نصابها الصحيح من حيث التوقيت والطاقة والفاعلية والامتداد والمعنى والمضمون اللفظي والكيفية والكمية ، هو جانب التجريد المدهش لتقاطعات الحدث ، وبعبارة أشد تكثيفاً : النظر إلى الخيال على أنه جغرافيا متكاملة لا أحجار شطرنج تُفرض عليها الأوامر من السلطة الفوقية . ومما لا شك فيه أن اعتبار الخيال جغرافيا يستلزم اعتبار أبجدية المعنى ثقافة مضمونية تكتشف تضاريس المجتمع بشكل كاسر لقوالب الترميز الإشكالي ، مع الحفاظ على رمزية المناطق الشعورية التي ندركها دون أن نصل إلى أنوية منابعها .

إن امتدادات التحليل الثقافي لإشكاليات الجدلية الاجتماعية ، لا تعني بأية حال من الأحوال رفض المعطيات التطبيقية ، وإنما تعني صناعة تطبيقات المخيال الوظيفي على شكل خيالي معرفي واضح يمتلك القدرة على الخروج من أسر الذهنية . وهذا الخروج لا يتم بشكل عشوائي ارتجالي ، لأن أطوار التأسيس الفكري الكاسر للقوالب الجاهزة مسبقاً ، هو صهر للمراحل يمتاز باختيار التوقيت المناسب في الموقع المناسب .

فالتغيير الجذري ليس هدفاً بحد ذاته ، بل هو وسيلة لتأصيل المفاهيم التكوينية المنسجمة مع مستويات تفتت الألغاز المجتمعية . والتحدي الذي يفرض نفسه يتعلق بأسباب تكريس

(٢٢) إن التجمعات إما أن تكون ذهنية مخيالية أو مادية تطبيقية ، وفي كلا الحالتين تبرز ظاهرة التجانس كحاضنة كلية محتوية على معرفية الأنساق الإشارتية التي تدل على ذاتها عن طريق ذاتها . أمّا الكيانات فيمكن فهمها من خلال الثوابت والمتغيرات . فكل كيان بشري هو — بالضرورة — كيان اعتباري لأنه يملك شخصية مستقلة بغض النظر عن الموجب والسالب . إذ إن الكيئون الاعتباري هو قوة الوجود العنصري سواء كان نشيطاً أو خاملاً .

إشكالية مساءلة مشروعية الثقافة العاجزة عن انتشال المجتمع . وكلما تحركنا في مدارات فك العزلة المفروضة على سياقات المعاني والألفاظ من أجل تفتيت مجتمع العزلة لصالح فاعلية هوية الانصهار الراشد ، رجعنا إلى نقطة البداية التي تطرح أسئلة الشرعية والمشروعية على مشروع الثقافة ، ومدى تأثيرها في الكيانات الروحية والمادية على المستوى البشري والطبيعي (الطبيعة بمفهومها الجغرافي المادي لا الطبيعة الفلسفية التجريدية) .

والكارثة الحقيقية تكمن في اختزال الحياة الثقافية في التأسيس للفراغ ، ومخاطبة العدم ، ضمن لعبة نخبوية عائشة في كوايس البرج العاجي دون المساهمة بشكل فاعل في مبادئ عضوية المجتمع ، واعتبار الثقافة كائناً حياً يتحرك مجتمعاً مستقلاً محتوياً على الأسئلة وإجاباتها . ومن خلال هذه الرؤية المحصورة والمحاصرة في إفرازات مجتمعية رافضة لدور المثقف ، تتجذر صعوبات هائلة في طريق بناء الفردية في سياقات الكل الجمعي التجانسي ، لأن التجانس في حركة القوى الاجتماعية هو الكفيل بتثبيت الوعي المؤقت والدائمومي في سوسيولوجيا أجدية المعرفة التي تغدو لغة متماسكة على الصعيد الرمزي والإشاراتي والفاعلية الاعتبارية .

فاحترام الثقافة ، وتقدير المثقف ، وفهم الأهمية المصيرية لديناميكية التنوع السيكلولوجي للثقافة الحافظة للهوية واستمرارها . كل هذه العوامل وغيرها تُعتبر أحجار زاوية في القلعة الفكرية العمومية التي تحترم العقلية الذاتية للنقد والنقض . ومن الأهمية بمكان الانتباه إلى تأسيس تاريخية السياق المنبثقة من العوامل الداخلية بُغية جعل الثقافة مشروعاً خارجياً ذا صفة كُونية . وهذا التأسيس مبني على تكوين رمزي يعتمد على قوة الذكريات المحالة إلى إجراءات واقعية ذات تماس مباشر بالتنمية البشرية .

وتحويل الذكريات إلى طاقة حركية ذات وجود فاعل ، يجب أن يتكسر كمبدأ ثقافي في القيمة العقلانية للمعرفة ، لأن صورة الذكريات تمتلك روابط ذهنية ومادية فعالة ، ومن العبث إقصاؤها بحجة عدم جدواها . فكما أن الآلات تحوّل الرياح أو المياه إلى طاقة يُستفاد منها ، فكذلك الذكريات ، إنها الحاضنة الكبرى لانصهار الفردية في الجماعية والعكس ، وفق مبادئ تاريخية دُيتوتية (تكريس الذوات المركبة كذات واحدة) . ويمكن الاستفادة من الذكريات لتحويل القيمة اللفظية إلى معنوية ، وتحويل المعنى إلى امتداد إجرائي تصالحي مع الأنا والعناصر الطبيعية ، وتحويل قيمة التصالح إلى وُحدة وطنية ، وتحويل الوُحدة الوطنية إلى تنمية شاملة يلمس الفرد العادي نتائجها بيديه . لذلك ، من الجنون أن تظل قيم المعرفة مجرد شعارات بالية .

وكلما تجاوزَ المجتمعُ الكلماتي إشكاليةً هندسة الخراب⁽²³⁾ ، انتبهَ إلى أصول اللعبة

السياسية

القائمة على مبادئ تفتيت المتمركزات البشرية ، التي تُعتبر إحدى الأسس الفلسفية للكيانات القمعية ، سواءً في نظام الأسرة غير السوية حيث انكسار الفوضى الأبوية ، أو أنظمة الدول الفاشلة التي تمثل كياناتاً جمعياً أحادياً قائماً على الإقصاء والإقصاء المتبادل .

وبما أن التجاوز يأخذ أشكالاً فلسفية ذات إسقاطات موهلة في اقتحام المدهش الإنساني ، كان لزماً الانتباه إلى متواليات تفتيت الأنوية ، حيث تتحول العلاقات البشرية إلى ميكانيكا مشاعرية ، وتُحال التيارات التوعويّة إلى مجالات انتكاسية متهمّة بالخيانة والارتهان للخارج ، وتنتقل صورة المجتمع من حاضنة الذكريات إلى قامعة الذكريات ، وهذا ينسف الركائز المحورية التي قام عليها مشروع الحلم الجماعي . وهناك سماتٌ تحويلية متجذرة في طبيعة بناءات المجتمعية الذهنية من حيث الاتجاه العمومي ، والمعرفة الصارمة . لكن لغة العقلية التّصية سوف تتكون من خلال التوافق _ لا التلقيق _ بين البنية المركزية للحدث اللغوي ، والشعور الكلي بمركزية أبعاد المعطى الثقافي ، لأن صياغة الخصوصية المعنوية للاتجاهات الرمزية الشاعرية ليست إخراجاً للمجتمع عن السكة ، بل هي متوالية انتقالية لتفتيت مراكز صنع الخديعة كإطار

(٢٣) هي تشييد المناحي الفلسفية لرمزية الوهم على أساس التضليل المعرفي ، وذلك عبر اختراع نتيجة ذهنية ، ورسمها كشعار أساسي تكويني براق ، ثم تطويع الفلسفات بكل أدواتها لإثبات الأسطورة كمسألة تاريخية وعقلانية. وهذا الغبش الإعلامي خطير للغاية لأنه يتوصل للأسباب حسب النتيجة المسبقة ، ولا يتوصل إلى النتيجة وفق الأسباب المنطقية في الذهن أو على الأرض . وهذا المبدأ في تحذير الاستباقية المغرضة يعتمد بشكل كلي على فكرة " التجاوز " ، أي تجاوز الألفاظ لصناعة معنى مطروح سلفاً ، والقفز فوق الواقعية لاختراع خيال اجتماعي افتراضي . وهذه الافتراضية إنما تهدف إلى صناعة الوهم كحالة رسمية معاشة ، وتأطير الخديعة كمجتمع استقلالي ذي صفة اعتبارية واضحة المعالم . والأمر أشبه بتعاطي المخدرات حيث يعيش الفرد في عوالم الأحلام والخيالات والاشتعالات، ولكنه حينما يستيقظ يجد نفسه في قلب الكابوس المؤلم الذي يحاصره من كل الجهات . والفرد الساحق المسحوق في المجتمع الساحق المسحوق يتعاطى المخدرات السياسية التي تجعله يتخندق في دائرة الحلم الوردي الوهمي ، ثم يفتح عينيه فلا يجد غير الكارثة ونهاية اللعبة .

عمل . ولا يخفى أن ديمومة الصور السوسولوجية المنتظمة تفترض إحساساً عارماً بأبعاد مشروعية تنقلات الحلم على سطوح الأبجدية المستقبلية ، حيث إن أنوية الثقافة الحاملة للمستقبل بكل كياناته المغامرة لا المقامرة ، ستظل تياراً واعياً ينقل الهاجس الفوضوي الشهباني في فردية المراكز البشرية إلى أفق التسامي ، وعندها سيعاد تكوين فلسفة نشوء المجتمعات .

إن المجتمع المنبثق من شهوانية الرموز الكيانية فردياً وجماعياً ، لا يلبث أن يتحول إلى مجتمع الكراهية المستترة ، لأن الشهوة التي لعبت دور الركيزة التجميعية للحالة السيكولوجية حينما تزول ، فإنها تحمل معها بذور الانشقاق في طبيعة التعامل مع نشأة الفكر الرمزي الاجتماعي المحمول على النظرية الثقافية في التحول والتحويل ، تحول الأنساق الرمزية إلى واقعية تطبيقية ، وتحويل المستويات المبدئية للعواطف السوسولوجية إلى تيار عقلائي مشاعري يوازن بين الروح والمادة .

وهكذا تصير الثقافة مشروعية التوازن بين الأضداد ، سواء الأضداد الناتجة بفعل الاصطدام بين البنية التحتية والبنية الفوقية في ظل غياب شرعية الحلم الجمعي ، أو الأضداد الظاهرية المنبثقة نتيجة تداخل مناطق التماس بين المعنى واللفظ.

وقد يعتقد البعض أن ثنائية الاشتباك الحراري بين المعنى واللفظ قد أعطيت أهمية فوق ما تستحق ، لكن هذا محض وهم ، لأن مركزية المعنى المحاطة بالألفاظ هي القوة الدافعة في مدارات تفعيل تاريخ معنوية المجتمع . وبعبارة أخرى ، إن التفاعلية الإنتاجية للمعنى واللفظ هي التي تُخرج المجتمع من إشكالية التشييد الأسطوري المخادع ، وتنتشل سوسولوجيا المعرفة البشرية من المأزق الميكانيكي لانكسار الحلم في تضارب سياسات الذات البشرية التي صودر حلمها لصالح تثبيت وجودها كذات خالية من المعنى ، مفرغة من شرعية الأحلام. وهذا أدى إلى تفشي ظاهرة الأنساق الميتة ، وانتشار تقاطعات الموات الوظيفي الاصطناعي في نواة ثقافة المعرفة المضادة للإفراز الأسطوري السلطوي المستند إلى أسبقية الوهم المغرض غير التلقائي .

ومما لا شك أن تصيير الدلالات المؤنسة⁽²⁴⁾ يركز إلى فلسفة الأبعاد الغامضة في

تقاطعات

(٢٤) هذا التعبير يعني تكيف الإشارات الإنسانية الرامية إلى توليد المجتمع المدهش من رحم المجتمع الميت ، عن طريق صناعة دلالة فكرية رافضة للقولبة الرمزية المشتملة على الصياغات المسبقة الموطّنة لتثبيت

الجزرية الفضائية الحتمية بين الفرد الأنا والكل الأناوي⁽²⁵⁾، وصولاً إلى ما وراء الإنسان . أي النظر إلى ما وراء الذاكرة الشعورية للفرد اعتماداً على مبدأ التجاوز، حيث يتم اعتبار الفرد مجتمعاً قائماً بذاته ، وكذلك اعتبار الفرد طُوراً مؤقتاً على وشك الإقلاع، وتصنيف الذاكرة الإنسانية الأحادية في المسار الإنساني الشخصي كقاعدة أساسية نحو الانطلاق إلى الماوراء التطبيقي، من أجل وضع ألفاظ الثورة المعرفية في أقصى مدى المعنى الهادر . وكلما انزاحت الصبغة العلاقية في المحسوسات نحو معانٍ أشد تكثيفاً ، وأكثر إفصاحاً عن الطموحات البشرية بين سطور المجتمعي الكلاسيكي المغلق ، امتدّت صياغات الرموز الفردية إلى كشوفات سيكولوجية لا تعتمد على التحليل التفكيكي عبر طرح تأصيلات مبادئ الفرز أو مجاميع الفصل والجمع واللصق فحسب، بل أيضاً تؤسس لمشاريع نهضوية لتحويل الإنسان إلى فكر مستقبلي غير متحجر ، وتحويل الآلة الاستهلاكية في الجسد البشري إلى مستقبلية الحلم العاطفي الحاضن لمستويات الشعور، حيث تغدو الذاكرة الوجدانية بنيةً تحتية ، ويصير الفعل الاجتماعي الثقافي بنيةً فوقية غير موظفة من قبل سؤالب الأنظمة الأبوية⁽²⁶⁾ التي تعمل جاهدة من أجل تسييس المصالح الجماعية لخدمة المصالح الفردية وتثبيتها كوعي مصري . وعندئذٍ ، يتكسر في المجتمع مبدأ " الفرد هو

الوهم السوسيولوجي سلفاً ، وبشكل مغرض ضمن الاستخدام اللفظي لمعنى انتحار السياسة الكلية لذهنية الكيانات البشرية ، وما ينبثق عنها .

(٢٥) الجزرية الفضائية الحتمية : هي صدمة التأسيس المعنوي لعوالم الشعور الواقعي التي تدرس العلاقات الجزرية التأصيلية في أصولية المعنى الرمزي ذي الامتداد العقلاني الواعي ، عبر إتاحة الفرصة لصناعة فضاءات جديدة تقوم وفق مبدأ درء التعارض الظاهري بين الفرد الأنا (مركزية الكيان البشري الأحادي التركيبي) والكل الأناوي (الكيان الاجتماعي الجمعي الذي يتصرف كأنا واحدة مركزية واستقطابية ، مركزية في مستوى الفعل ورد الفعل ، واستقطابية في مستوى الشعور الجماعي ، وترجمة العاطفة إلى انقلاب في تضاريس المفاهيم) .

(٢٦) المقصود بالسؤالب هي الإفرازات الناتجة من صناعة ردة الفعل لا الفعل ، والمولودة قيصرياً وفق عملية جراحية ضد طبيعة الولادة السلسلة المعتمدة على ترتيب الأسباب والنتائج . وهذه الإرهاصات السلبية نتاج طبيعي لسلطة الرمزية المخادعة في الفوضويات الأبوية ، التي تُسمى مجازاً بالأنظمة الأبوية (الأنظمة المتسلطة المبنية على قاعدة امتلاك الموارد والتحكم بمن لا يملكها) .

الدولة ، والدولة هي الفرد " . وتنعكس تطبيقاتُ هذا المبدأ على طبقات المجتمع كلها ، وتنهال العلاقة المتوازنة بين المصلحة الفردية والمصلحة الكلية ، ويسقط الوعي في ذاكرة المجتمع المشروخة .

٤

التعامل مع الذاكرة

إن التعامل مع ذاكرة الفرد الجماعية يقود إلى تأسيس مبادئ الوعي بالذات الفكرية التي تأخذ على عاتقها حمل القدرة التفسيرية للزمكان الداخلي (تزاوج الزمان والمكان في ذاتية الفرد الجوانية) كخطوة لا بد منها في سبيل تأسيس الزمكان الخارجي (تزاوج الزمان والمكان على أرض الواقع المحسوس لا المتخيل ذهنياً) .

وهذه العقلية التأسيسية بكل أبعادها الثقافية مبدأ محوري ثابت تدور حوله المتغيرات الوظيفية الملامسة لأنوية التدفق الاجتماعي الخلاصي ، لتلا تصبح الذاكرة عبئاً على كاهل مجتمع المعرفة ، أو عقبة في طريق اللقاء الحميم بين الإنسان وإنسانيته .

ولا يخفى أن مشروعية ولادة التقاطعات التأسيسية للثقافة باعتبارها كائناً حياً مركزي الوجود ، متشعب الأبعاد ، متشظي المساحة ، إنما هي مشروعية الحفاظ على الذاكرة ، ليس بوصفها تراثاً تم تجاوزه أو فلكلوراً شعاراتياً احتفالياً ، بل بوصفها خط الدفاع الأول عن المفهوم التأصيلي لمركزية الرمز بكل مستوياته ، خصوصاً المستوى التجذيري الاندلاعي الذي يعتمد على اندلاع المعنى في بركان اللفظ للوصول إلى مجتمع الحدث الشعوري المضاد للروتين الوظيفي ، والرافض للغرق في جنسوية انكسار بنية حتمية الأبجدية التي يكتبها الكل المجموعي .

وإذا انتقلنا إلى مفهوم الجنسوية⁽²⁷⁾ كأداء ابتكاري تصويري ، لا بد أن نكتشف المعاني التي تحدد أبعاد المنهج الأنثروبولوجي الخصوصي (الإنساني) لأنه وحدة الدلالة على شروط توافر الزخم المعنوي ، الذي لا ينكسر أمام تحديات تقاطع الأبجديات الخيالية والواقعية .

(٢٧) هي النظر إلى المجتمع البشري على أنه جنس مخيالي وهمي ، يملك أدوات التطبيقات الواقعية ، والنظر إلى الفرد على أنه مجتمع كياني متنقل بين مفهومية النص المعرفي ومشروطية الوعي الإستراتيجي

ومن أجل تأسيس مشاعر الفردية في أحلام مجتمع الثقافي الدلالي ، لا مفر من صناعة تاريخ المعرفة الخصوصي للخروج من مأزقية الإنسان المتوحش ، والانعتاق من حصار الانكسارات الصادمة في مسيرة الذاكرة الواعية لمسارات تنمية الفردية الرافعة للمشروع الجماعي . وهذا يدفعنا إلى تفعيل نطاق نفوذ أنوية الفكر الثوري الرامي إلى انقلاب الأنساق على الأنساق ، مما يمهّد الطريق إلى وضع العوالم الثقافية باعتبارها كائنات حية في أقصى درجات الحياة الفعلية لا الشعراية، وصولاً إلى مجتمع التجاذب المعرفي لا التنافر الوظيفي .

فالسعي المرحلي إلى تأصيل أبجدية الولادة ، هو الضمان الفلسفي لإعادة تشكيل المجتمع الموحش والمتوحش ، عبر أنسنة ذاكرة التقابلات الارتدادية بين الخيال والواقع، لأن الخيال هو واقعٌ مَنْزوع الأظافر ، والواقع هو خيال مُسَبَق . وهكذا فإن العلاقة بين الخيال والواقع لا بد أن تنتهي بالزواج الذي يرفض الطلاق .

وَصِيغُ الروابط الداعمة لتفاصيل المخيال الوظيفي (العقل الخيالي الذاهب إلى تأسيس الواقع الجديد) ، تظل صِيغاً مرفوضة تاريخياً ما لم تُشكّل تاريخاً خصوصياً يصنع تاريخاً خاصاً بالعقل الجماعي ، وطبيعة توازناته الرامية إلى فصل التوظيف السياسي للثقافة عن ثقافة سياسة توظيف المعنى لانتشال الأنساق البشرية من مستنقعها .

والطبيعة التاريخية لعملية الفصل المنشودة ليست فعلاً إجرائياً مضاداً للمسار الداخلي في نواة تاريخية الجسد الثقافي ، لأن التاريخية هي التاريخ المصوب في قالب الذاكرة ، والجسد الثقافي هو التاريخ الاستقلالي الذي يكسر القوالب ، فيتحوّل التاريخ الاستقلالي إلى ذاكرة جديدة تعيد بناء المجتمع المكسور ، وتجمع شظايا المعنى الإنساني . وهذه العملية لا تعني انتهاج سياسة الترقيع ، بل هي تأطير للمراحل الزمنية داخل أطرها الفلسفية ، لأن الثقافة هي فعل الانتصار ، إنها جسد راکض في ذاتية معرفية واضحة المعالم .

واعتماداً على ركائز الفعل الاجتماعي ، ينتقل الجسد المعرفي الكوني إلى تجسيد المتفاعلات الشعورية في امتداد الثقافة في أنساقنا المعاشة بكل طبقاتها المحورية . فالسياسة الفكرية _ مثلاً _ هي تفرّع لثقافة اقتصاديات المعرفة ، حيث يوضع الحلم في مساره الحالم التطبيقي لا الخيالي

بأهمية الخيال كوسيط بين مادية الحياة والأخلاق الثقافية اللغوية ، وصولاً إلى اعتبار المجتمع لغةً تتكون من عدة أبجديات داخلية وخارجية ، والتعامل مع الفرد بوصفه الأبجدية المركزية المتميزة .

المثالي الهلامي . وتوضع الهلامية الجدلية في محل البؤرة المركزية للفكر الذي ينقل الإنسان إلى طبقاته العليا المتسامية بعيداً عن جدليات استهلاكية الرموز لصالح " الفوضى الخلاقة " ، لأن المجتمع البشري هو ثقافة تربية المعاني المتوازنة لا ثقافة تركيب الفوضويات بشكل ترقيعي معتمد على الأقنعة الطبقية.

وإذا نظرنا إلى الجانب الثويري من فلسفة المجتمع الواقعي ، سوف نتوصل إلى مفهومية جديدة للإيقاع الاجتماعي تعتمد على كَوْن المجتمع ترتيباً للفوضويات بشكل نظامي تأطيري . وهذا المعنى الجاني إنما يتفرع عن مصطلحات الممارسة الإشارتية للحالة البشرية بكل تناقضاتها . وبالطبع فالثقافة لا تخرع مجتمعاً مثالياً ذهنياً ، لأنها تعرف أن الأنساق البشرية هي فوضويات مُستترة . أحياناً يسيطر النظام الجزئي على الأداء ، وأحياناً تسيطر الفوضى على إفرازات الواقعيّات المتخيّلة (تعبيد شوارع الخيال بالأحداث الواقعية المتكاثرة) .

ويظل المحك الأساسي لتحديد سياقات الشعور الفردي في توجيه دفة تاريخية الحلم الجماعي ، هو كيفية التعامل مع أسئلة الواقع من منظور مخيالي ذي بعد تطبيقي، والتعامل مع أطروحات الخيال لزرعها واقعاً ذا أبعاد برهانية تعتمد على براهين الخصائص التاريخية التي تخرع تاريخاً جديداً لكيفية الحلم الجمعي الانتشالي . إذ إن الحلم غير مقصود لذاته ، وإنما هو الوسيلة التي تؤسس معرفة الشعور الظواهري ، الذي يمنح للظاهرة الإنسانية بعداً مشرقاً كاسراً للدائرة المغلقة المفروضة على السياقات البشرية من قِبَل الضغوطات الحياتية، والمعرفة الواقعية الخشنة . ومع هذا فليس الحلم وسيلة للعيش في دنيا الافتراض المنتهية بالكابوس ، أو مخدراً لخداع البشر بحياة مخملية خارج نطاق المحسوس الجزئي والكلي. فالحلم هو الذاكرة المحسوسة التي تفتح الأبواب المغلقة أمام المستويات العاطفية المؤطرة عقلياً وثورياً . والثورة هي المفتاح الانقلابي لشرعة التاريخ الجديد الذي تكتبه الثقافة بماء الوعي الكلي بكيفية المسار، وحجم تفرعاته الكميّة . ووفق هذه المعادلات الفلسفية المتشابكة تُحال أطروحات الفعل الاجتماعي إلى سياقات الفعل السياسي الذي يتعامل مع سياسة الثقافة على أنها سياسة الفعل المشروع للوعي التاريخي . وهذا الوعي التاريخي يحتوي على المضامين التحليلية للأنا الجزئية والأنا الكلية، اللتين تُشكّلان المنظومة الانقلابية المضادة للمسلمات الوهمية التي فرضتها السُلطات الأبوية القائمة للمسار الحي والحر .

والحلم في صيغته التحليلية لا يُثبت أفعالاً تكرارية للمواجهة مع وعاء التاريخ المحيط بالتفاعلات الرمزية الإنسانية ، بل يُثبتها ليُعيد جدولة التكرار اللفظي من أجل الوصول إلى معنى اتحادي قادر على التعبير عن طموحات الجماعة ، خصوصاً في بُعدها الرمزي الذي يظهر في ظواهر التفاعلات بين الناس ، ولا يمكن التعبير عنه في غالب الأحيان بشكل كاف .

واعتماداً على تفاصيل انعكاس العواطف على التفاعل الرمزي الإنساني ، تتكون صور علائقية بين الكيانات البشرية ، نشعر بها ولا نَقدر أن نعبر عنها ، لأن الوجدان الداخلي _ الذي هو منبع الامتداد العاطفي التشويري _ عبارة عن أبجديات تولّد بشكل تكاثري فاعل وعنيف . وكلّ التكوينات الأبجدية تُحال إلى امتداد لغوي صارم يصنع لغة الحرية بمدلولها الاجتماعي المسؤول .

والتعويل على توليد الأبجديات الفكرية من رَحَم الفاعلية السيكلولوجية ، إنما هو تعويل على القدرة اللغوية على صياغة سياسة الثقافة انطلاقاً من نظرية الكائن الحي اللغوي ، حيث يتم النظر إلى الفرد على أنه أبجدية قائمة بحد ذاتها، يكتبها المجتمع اللغوي بكل تفريعاته الروحية والميكانيكية.

فالفردُ اللغةُ إنما هو كيان عقلائي يساهم في انتشارال المجتمع الإنساني من المأزق الدلالي الذي أدى إلى عدم معرفة صياغات طريقة تكوين المجتمعات ، فاختلط الجانبان الروحي والمادي ضمن فوضى تأسيس شرعية التجمعات البشرية .

ونحن إذ نشرّح صياغاتِ البنى الديناميكية للمجتمع الثقافي ، لا نُغفل طبيعة ميكانيكا البنى التحتية للإفرازات الثقافية ضمن منطوقها المحوري⁽²⁸⁾ ومفهومها المابعد⁽²⁹⁾ . وهذا راجع إلى

(٢٨) المنطوق المحوري : هو حالة الإفصاح الثقافية المعلنة والمتضمنة طبيعة تشكيلات تحول الكيان الثقافي إلى مركزية الأبعاد الكلمائية ، أي انتقال التجريد اللفظي المضاد للسوالب الاجتماعية الوظيفية (العناصر الشاذة) إلى حالة واعية لأطوار نمو المعنى التاريخي لدور الأفراد المركزي في صناعة التاريخ ، وحمل الكل الجماعي على أكتاف الإبداعات الفردية الهائلة .

(٢٩) المفهوم المابعدي : تركز المجتمع الثقافي السياسي في نقطة الانطلاق نحو ما وراء الكيان الإنساني الطيني ، والنظر إلى ما بعد الوجود الميكانيكي الآلي والآني لنتائج العقل البشري على الواقع التطبيقي .

أن الفكر الثوري لا يمكن أن يتحرك بمعزل عن الوقود المحترق في ذاكرة المجتمع لإدارة عجلة صناعة الأنساق التجريبية والانفعالية . فليس معنى الميكانيكا المفاهيمية هو التقاط إشارات القواعد الفلسفية التي تخاطب المستوياتِ الشعورية الداخلية في الجسد الإنساني المصبوغ بانكسار المعنوية فحسب ، بل أيضاً التقاط الأبجديات المحورية المنعكسة عن التماس التداخلي بين الكيانات المتحركة في المجتمع الذي يستمد فاعليته حياته من سياسة الثقافة المنشورة على الأصعدة الذاتية النظرية متعددة المسارات . والعناصر الوسيطة في تداعيات اقتصاد الشعور المعرفي الذي يملك وجوداً واضح المعالم على الأرض ، تشتمل على النواة العميقة التي يتفرع عنها المراكز اللغوية المثبتة على أطراف المشروع الثقافية العقلانية ، ويتفرع عنها أيضاً المسارب التي تنطلق فيها نظريات المشاعر المحددة للعقلانية العاطفية المدعومة من قبل منطقية الروح وامتدادها وتداخلها .

إن الفاعلية العلمية الجوانية المستندة إلى تدوين أحلام الروح على رقعة المساحات الضيقة في الهاجس الواقعي ، تتواجد مع لوازمها الطبيعية التاريخية . وهذه اللوازم تتعامل مع الأنا المجتمعية على أنها كلياتٌ عناصرية تنشُد التغيير الجذري . فالكتابة فعل ثوري متطابق من جذور المعنى إلى قمة الذاكرة المتحدة بمستقبل مفاهيم الحلم المنطقي .

وهذه الثورية الطبقية لا تعني بناء اللوازم التاريخية⁽³⁰⁾ في نطاق عزل التاريخ عن نسغه الطبيعي الثقافي، لأن قيمة الثورة هي أداء اجتماعي تاريخي يعيد صناعة التاريخ من منطلق الذهن المتوقع .

والمابعدية تستلزم النظر إلى المسؤولية الكامنة وراء المتعة ، وعدم التخندق في بؤرة المتعة الوقتية الزائلة ونسيان التبعات الجسيمة المترتبة على فاعلية المتعة المحصورة .

(٣٠) إن الكيان التاريخي هو المنطق التجذيري لطبيعة انعكاس القدرات الحياتية للفرد على مساحات الذاكرة المعنوية المشتملة على العناصر المكوّنة للإنسان، باعتبارها فلسفةً ومساراً وحلماً وتاريخاً . وهذا التاريخ الذي يتجسد في طريق المعنى الإنساني هو جواز سفر المعارف البشرية عبر الزمن . وهذا الجواز بحاجة إلى أختام عابرة لقارات الحلم، وصاهرة للمراحل ، من أجل ضمان العبور نحو غدٍ أقل وحشية. ونحن نعبّر عن هذه الأختام المعنوية باللوازم التاريخية التي يُقصد بها — على وجه الدقة والتكثيف — كل المترافقات المحيطة بعناصر التاريخ ، وهي بمثابة الأطراف لجسم الإنسان .

ومن خلال الإسناد الجزئي والكلّي المرافق للتجسيد السيكلوجي المتفاعل مع جذرية الثورة الثقافية ، يتم تشييدُ الفاعلية التاريخية لفعل الكتابة، وتدوينُ فلسفة الحلم في أنطقها التطبيقية.

ومما لا شك فيه أن طبيعة التركيب التاريخي للرمز الثقافي تمنح أبجدية الشعور الجماعي فرصةً للتَمَوُّض في عواطف الفرد الموعلة في الذاتية ، مما يؤدي إلى انفتاح الكل على الأنا ، وتماهي الأنا في مشروع الكل . وهذه العملية شديدة الأهمية ، لأنها تُزيل الحواجز بين الفرد ومحيطه البشري الجماعي. أضف إلى هذا أن انهيار الجدران الاصطناعية بين الفرد والجماعة من أركان المنظومة اللغوية التكوينية الرامية إلى شخصنة المجتمع بالمفهوم الإيجابي لا السليبي. والفرق بين هذين المفهومين جذري ومُستتر . فالمفهوم الإيجابي لشخصنة المجتمع هو تكوين السياقات الإنسانية الجماعية انطلاقاً من دافعية العقل الكلّي الجمعي المرتكز إلى منهجية فريق العمل الواحد . أمّا المفهوم السلبي فيعني اختراع صنم بشري ، والنظر إليه على أنه الركيزة النواة ، وكل ما سواه من عناصر يدور في فلكه ، وخاضع لمشيئته الافتراضية . ومنهجية " المشيئة الافتراضية " هي إحدى أهم العوامل السلبية التي تساهم في تآكل الأنوية الداخلية للمجتمع الحالم، والعمل على تدجينه عبر سلب المعاني الفكرية من المحيط الذهني الواعي . وإذا أردنا فكّ الإشارات المعقّدة للمشيئة الافتراضية ، لا بد أن نشرّح الظواهر التطبيقية التي يظهر فيها أثر الافتراضات الهلامية ، والإرادة الوهمية لانكسار الذات المجتمعية . ومن خلال وضع اليد على نقاط التقاء الأسطورة مع توظيفها السياسي ، يمكن تحديد مفهوم " المشيئة الافتراضية " التي أضحت أسطورةً مُراوغة يتم تقديمها كصنم مركزي ، ثم تُوظّف لتجذير عبودية الإنسان للإنسان في مجتمع أصنام متآكل ، ضمن فوضوية تصنيف الذوات الروحية والمادية .

وخطورة تصنيف الذوات في إطارها الجدلي العشي المِراوِغ ، تنبع من تحول القيم الشعورية الكيانية في المجتمع إلى هياكل ميكانيكية مفرغة من الامتداد التاريخي لطبيعة الاستعمال القصدي للظواهر المعرفية . ولا شك أن المعرفة هي فعل قصدي عن سبق الإصرار والترصد ، وليست فعلاً ارتجالياً يأتي ضمن عبثية مسارات العصبية القبلية . وعليه فإن مفهوم القصدي كفعل اشتراطي مسبق لا تقوم له قائمة إلا بالاعتماد على وضوح الرؤية في مسارب الإشارة الرمزية للتدبير العقلاني .

وإذا كان التفسير التحويلي لاقتصاديات المعرفة عبارة عن مؤشرات رمزية في صيغتها الفلسفية الأساسية ، فإن الأفعال المنطقية لطبيعة تاريخية التحول المتبادل بين روح النصّ البشري

وميكانكية أبجدية العاطفة هي الأخرى تفسير رمزي . ومن الأهمية بمكان إدراك أن مفهوم الرمز لا يعني اللغز العصي على الفهم ، وإنما يعني تحول الميكانيكا الفوقية للذات البشرية إلى فضاء رحب لاستيعاب إشارات التحول الحاسم نحو اقتصاد الحلم ، حيث النظر إلى الإنسان على أنه طاقة مبدعة لا مشروع استثماري سلعي مادي محض . فالاستثمار في الجسد البشري ينبغي أن يفهم وفق منظور زرع طاقات الأفراد في أقصى مدى علمي ممكن ، لنقل المجتمع إلى الضفة الأخرى من الحلم التطبيقي . فكلما قصرت المسافة بين الحلم الذهني المخيالي والحلم المتجسد على أرض الواقع ، أمكن تحليل الوظائف الفكرية لأنثروبولوجيا الثقافة (النظر إلى الثقافة على أنها كائن حي ذو صفات إنسانية حقيقية من ناحية الوعي وتنفيذ الأحلام) . وهذا التعليل المنشود لا يعني استخدام وسائل الترقيع والتدليس وإخفاء العيوب ، لأن هذه الوسائل المخادعة سوف تفضي إلى لحظة الانفجار ، ووصول الأمور إلى حيرة الحليم ، واتساع الفتق على الراتق . وينبغي _ قبل أن يأتي الطوفان وتنهار دولة الإنسان _ ردم كل الثغرات في الجسد الإنساني المهلهل ، وتعبئة الثقوب في جسد المجتمع الممزق بالوعي الشمولي المضاد لاستهلاكية الأنساق البشرية ، والرافض لتفسير سياقات أبجدية الحياة وفق أساس شهواني غريزي بحت .

إن البنية الانتقائية لصياغات التصميم الاجتماعي الديناميكي لا تجدي نفعاً في ظل انحسار المدلولات الفكرية . فالإشكالية الشرسة في أنساق المسارات الفلسفية المجتمعية هي تموضع غياب الحلم الجماعي ، وانكسار الذاكرة الوجدانية أمام الشعور الإنساني الفردي . وفي كل المجتمعات السلبية ، يشعر الفرد أن وجوده كعدمه . وهذه المجتمعات _ القائمة على تبادلية السوالب _ تجعل الأفكار المتطرفة أصلاً محورياً ثابتاً ، وما حولها متغير بتغير شكل أنوية الفساد .

ومع تمركز التطرف كظاهرة تستمد شرعيتها من الغطاء السياسي المغرض ، فإن عملية إنتاج القيم الروحية والعناصر المادية سوف تتحدد ماهيتها وفق تبادل الخبرات السلبية ، واكتساب العلم غير النافع . وهكذا تصبح فكرة " تبادلية السوالب " هي الأساس العقلاني الافتراضي الذي يعيد صياغة المعقولات اعتماداً على اللامعقول والفوضى الخلاقة . وهذا يؤدي إلى التخندق في اللذة الزائلة دون النظر إلى حجم المسؤوليات المتمركز خلف المتعة المؤقتة .

إن المنظومة المكونة من الفكر الحامل لتوجهات السياقات الاجتماعية ، والمعارف المحمولة على التراث التقليدي لمعاني التأطيرات البشرية المخترعة ، هي منظومة ميكانيكية محضة محمولة

على تبعات اجتماعية بالغة التعقيد ، ولها امتدادات في النسيج الاجتماعي لثقافة العادات والتقاليد . وهذه المنظومة الخطيرة يمكن تسميتها " عُقدة ابنة العم " . فكثير من المجتمعات الإنسانية الماضية والحاضرة تنظر إلى الزواج على أنه تبادل عشائري تكريسي بين ابن العم وابنة العم بحكم القرابة ، وأطر الأنساب المحمولة على الشائيات المتضاربة في العقلية العشائرية ، وثنائية فحولة الرجل الشرقي الحامل لإرث شرف الأنوثة ، والقائم بمهمة رفع لواء القبيلة بين القبائل . فكما أن الرجل ينظر إلى نفسه كوريث شرعي يضطلع بمسؤولية الدفاع عن شرف القبيلة وأنوثة نسائها الشريفات ، فالمرأة أيضاً تُسلم زمام أمورها لرجال عائلتها الأقارب ثم الأبعد بحكم الحفاظ على الذات الكيانية للقبيلة والمجتمع الموغل في المراكز الروحية والمادية ، والمتجذر في الاستقطاب باسم الدين ، أو العادات والتقاليد ، أو المنظور السياسي الذي يصنع بعض الدول وفق منظور عشائر متضاربة الرؤى والأهداف تتمتع بالانتماء والولاء للسلطة المركزية . وإذا أردنا صناعة الروابط ذات الدلالات التوعوية بين عُقدة ابنة العم في ذهنية الاجتماعيات وبين الثقافة المجتمعية الحارسة لوعي الأمة التاريخي ، لا بد أن نقوم بعملية إسقاط لفكرة الوراثة العائلية على المعقولة الثقافية ، لأن الثقافة _ للأسف _ دخلت في سراديب العقلية العائلية والسلطات الأبوية العليا ، ومنظومات الشلل العشائرية ، والروتين الوظيفي القاتل ، والبيروقراطية الاستهلاكية الفوضوية .

ومع تحول الأنساق الثقافية إلى مشاريع قَبَلِيَّة ، غابت الركائز المعرفية عن المحيط الثقافي ، فأضحى المشروع التنويري ضرباً من الاستهلاكية الزائدة عن الحاجة ، والترف العاجز عن تقديم الوعي التاريخي الشامل . فالفكرة العشائرية التي تلزم ابنة العم بابن عمها بغض النظر عن المحبة والكراهية ، هي ذاتها التي تتوغل في النسغ الثقافي لتجبر الثقافة على قبول فوضويات المجتمع المنظمة بخُجَّة رص الصفوف ، والحفاظ على الوحدة الوطنية ، وحماية السلم الأهلي ، وحراسة مقدّرات الوطن والمواطن ، وعدم تشتيت قوى الشعب . وهذه السياسة الترقية الوهمية تستعمل الحق لتحقيق به أهدافاً باطلة .

والمجتمع المركزي الحقيقي يحيا في ظل الحوار بين كل المتناقضات ، حيث يصير مبدأ الانفتاح والمكاشفات هو الضمانة السيادية لرص الصفوف ، وليست الضمانة صناعة أفراد منافقين يُطَبَّلون ويُزَمَّرون ليلاً نهاراً لإفrazات السلطة الأبوية القسرية ، وحينما نريد أفعالاً حقيقية لا نجد أحداً منهم . وكما قال الشاعر :

إني لأفتحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا على كثيرٍ ولكنْ لا أرى أحداً

وهذه الصدمة المجتمعية العنيفة هي نتاج سياسة النفاق الاجتماعي ، وتدجين الأفراد باتجاه إعادة صياغة الوعي التاريخي على أساس تاريخ مكسور غارق في أجساد المسحوقين، الذي يؤمنون بأن أقصر درب لتحقيق أهدافهم المادية هو الرياء والنفاق والكبت . وحينما تحين ساعة الانفجار سوف يدرك الجميع أن كسر الحواجز بين قلوب الأفراد كان الحل الأكثر نجاعةً على المدى البعيد لحماية المكتسبات العقلانية ، وصون التاريخ الوطني للخيال والواقع .

إذن ، فالتخلص من العقد النفسية في الجسد الثقافي ، يُعتبر مفهوماً لغوياً مركزياً ذا دور مهم في منع الانجرار إلى عبث ثنائية (رجولة الثقافة / أنوثة الثقافة) ، التي نتجت بفعل التفسيرات الذكورية الاجتماعية للهاجس العشائري الضاغظ بحكم المتمركزات الجذرية . ولا بد من طرح ثقافة الأسئلة بعيداً عن الأسئلة الجدلية التي تخلق وعياً زائفاً ، ولا تحمل أية بشائر بولادة جنين كامل الخلق . فليست تكوينات نماذج الأسئلة هدفاً مقصوداً لذاته ، بل هي وسيلة لتأطير الطاقات اللغوية في أبجدية جماعية يكتبها الأفراد استناداً إلى دستور مملكة الحلم الذهني على أرض الواقع الثقافي المعرفي الانتشالي .

وكلما دخلنا في رمزية البعد الاجتماعي للكيان البشري ، أدركنا أهمية العناصر المنبوذة المنسية في السياقات السوسولوجية المتقاطعة بشراسة في النسيج الاصطلاحي للمغزى الحياتي . فالعناصر المنسية الدالة على وحدة النواة الحاملة لجينات المجتمع الثقافية لا يمكن إغفالها ، خصوصاً في ظل انزياح القدرات الشعورية السياسية نحو الذاكرة الاستغلالية ، حيث تنكسر المصلحة الذاتية الشخصية على شكل اعتبارات وظيفية تسخر الطاقات الجماعية لخدمة بعض الأفراد المتنفذين وفق منهجية تصنيف الذات ، وشخصية الاعتبار السلوكية .

ومن الأهمية بمكان الانتباه إلى شكل السلوكيات المنبوذة في المجتمع التي يتم إقصاؤها لدوافع سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ... إلخ . وذلك من أجل إعادة دراسة ما اصطُلح على تسميتها بالمسلّمات ، لأن الإشكالية الكبرى في تشريح سياقات لغة الشعور المجتمعي المحركة للتحليل السيكولوجي المعياري ، هي تثبيت مفاهيم ذات إسقاطات فوضوية ، وإحاطتها بهالة العصمة والقداسة ، وهي ليست كذلك . فاختراع " المسلّمات " بشكل غير منهجي سوف يحيل

الذاكرة الأبجدية للولادات المعرفية الإنسانية إلى انعكاسات للفوضى الخلاقة ، حيث توثين الكيانات البشرية والمادية سيغدو هو المجتمع الجديد (مجتمع الأصنام) . وهذا التدجين المتوالي ضد منهجية الثقافة كفعل عقلائي وممارسة واقعية. ومن أهم أسس شرعية الثقافة كسر الأصنام أينما وُجدت بغض النظر عن مُسمّياتها الجديدة المعاصرة المصبوغة بهالة الحضارة والرقى والتقدم . فالصنم هو صنمٌ ، سواءً كان عارياً أم أُلِيس ثوباً من حرير .

ومن خلال هذه الرؤية الماورائية التي تسبر أغوار الدلالة اللغوية المشيرة إلى كيفية ولادة أنساق اجتماعيات التكتل الإنساني ، نخلص إلى حتمية التعرية المستدامة للتعريفات الفلسفية العُرفية المتداولة بين الناس⁽³¹⁾ ، وضرورة تمحيص المسلّمات الاجتماعية التي تتخذ شكلَ نصوص

(٣١) هناك فلسفة اصطلاحية سائدة في أنساق الجماعات البشرية ، وهي متداولة على شكل عَقْد اجتماعي شفوي من حيث المنهج والممارسة ، وبغض النظر عن الطبقة الاجتماعية . وبالطبع فنحن لا نعني بالفلسفة المتداولة مجتمعياً وجود نظريات أو فرضيات مكتوبة لفلاسفة الشرق والغرب بشكل أكاديمي . وإنما نعني وجود تيارات فكرية ضابطة للسلوكيات الذهنية على شكل تكتلات فلسفية من قمة الهرم الاجتماعي حتى قاعدته . فعلى سبيل المثال ، إن سائق التاكسي يمارس فلسفته الخصوصية المعتمدة على ترابط إنسانيات الأضداد ، وعمق التجارب الإنسانية ، وصيغ التبادل السلوكي بين = المستويات البشرية المتباينة . وعامل النظافة يؤطر فلسفته الذاتية المبنية على التعامل مع الأجسام ذات الكيانات المادية، ونتائج المستوى الاستهلاكي الإنساني، وطبيعة التحولات الجذرية في مستوى الدخل القومي للأفراد ، لأن النفايات دليل واضح على مستوى استهلاك الطاقة من قِبَل الشعب ، وإشارة أساسية تدل على مستوى تحرك الثروة في المجتمع ، وطبقية السلوكيات المادية . حتى إن الأنساق البشرية الشاذة تمارس فلسفتها الخصوصية ، فالزوجة الخائنة تختزع فلسفة قائمة على إشكاليات الحياة الزوجية وتأطيرها في النطاق الاجتماعي المنفصل من عقاله . فالخيانة هي الانكسار الجزئي في قيم النص الفلسفي العُرفي التي تعتمد على ثنائية (الجاني/ الضحية) لتبرير السعي اللاهث نحو اختراع متعة متصوّرة في ظل تجاذبات " فاقد الشيء لا يُعطيه " ، وبالتالي يبدأ البحث في الخارج عن الأشياء التي لا يجدها الإنسان في الداخل. وهناك أمثلة كثيرة تدور حول فكرة ثابتة وهي قدرة الأبجدية الاجتماعية الثقافية أن تُفلسف القيم الإيجابية والسلبية في نطاقها البيئوي (الإفراز البيئي الملازم للكيان البشري) ، وتُفلسف — أيضاً — الأبعاد الاجتماعية المحورية التي تكشف الضعف الإنساني أمام الشهوة والشُبْهة .

عُرفية مُقدَّسة . وهذا من شأنه تعزيز ثنائية (النقد / النقض) التي تُعتبر من أهم أدوات المثقف لتأصيل المتوازيات الشعورية في مجتمع يُحتَضَر . وهناك جانبٌ خفي في تجذير فلسفة (النقد / النقض) ، وهو تعميق الدهشة والإدهاش في صياغات تمرد اللفظ على المعنى . فمما لا شك فيه أن مفهوم تمرد النصوص العُرفية الماورائية على معنوية المسار الثقافي الجزئي ، يُنتج مفهوماً جديداً يتناول طبيعة تشكيلات أبجدية الثقافة الخلاصية، لأن الصراعات في داخل اللغة الفكرية الاجتماعية إنما هو صراع على تثبيت مواقع الألفاظ والمعاني في مستوى التغيير الفكري المرحلي

وهنا ينبغي التمييز بين مسار الصراع على اللغة ، وثقافة الصراع في اللغة . فالصراع على احتكار اللغة السيكلوجية لا ينبغي أن يُساق إلى تنفيذ أجندات من شأنها تفتيت قيمة الأنسنة في المجتمع المتوحش ، إذ إن أنسنة الدهشة والإدهاش هي القدرة الرمزية على تمزيق النسيج الكابوسي للعناصر الوحشية المتوحشة التي تجعل من الإنسان مسخاً ، وشبحاً لأوهام استهلاكية مغرصة . وبالتالي فإن الصراع على اللغة يجب أن يُؤطَّر في مشاعر توجيه اللغة في المسار الأكثر أهمية ، والذي يضع أبجدية الألفاظ في أقصى معاني أبجدية المشاعر الحياتية الثورية .

أما الصراع الناشئ في اللغة فهو _ في واقع الأمر _ عملية انتخاب طبيعي لإنتاج السياقات الصالحة للبقاء ضمن منظومة البقاء للأصلح . وكلُّ أشكال الفكر الواعي التي تُولَّد من رَحم الصدام الجزئي المسيطر عليه في الجسد اللغوي ، إنما هي أجنَّة تجعل من اللغة لغةً جديدة أكثر قدرة على التأثير والمواكبة . ولا بد لأبجدية الانتقالات الثقافية الحاسمة أن تبدِّل جِلْدَها _ بمعنى الانبعاث المتجدد _ كما تفعل الحيَّة ، إذا أرادت هذه الأبجدية (الإطار اللغوي السوسيلوجي) تكوين منتَجات معرفية تردم الثغرات في جدار المستويات الشعورية .

وكلما واصلنا تشريحنا للأدوار التاريخية المساهمة بفاعلية في نشر الظواهر اللغوية الثورية كحدث أبجدي رسمي ، اقترنا من منطقية الأنوية الفكرية التي تعقد بين لغويات الثقافة الأفقية والعمودية وبين لغة الحلم الراكض إلى التطبيق هدنةً ، تنتهي بمصالحة شاملة تقنع كل أشكال المعارف التجريبية بالالتفاف حول أبجدية الانتشال الاجتماعي الرامي إلى إخراج الكيانات الوهمية من مستنقعها لمنحها وجوداً نقياً وحقيقياً على الأرض .

والمشروعية العلمية لا تصنع تاريخها الخاص لتلغي التاريخ العمومي لأبجديات المشروعية الثقافية المتوالية . وإنما تؤسس لغة التاريخ لكي تتقن مخاطبة القادم من صدمات جزئيات

الحالات الاجتماعية ، وتنفرغ للتعامل مع الماوراء الحالم . وهذا كله يساهم بصورة فعّالة في تعرية الأنساق الإنسانية من القيم الميكانيكية الآلية الدخيلة .

ولا يمكن النظر إلى الطبيعة التاريخية للأفراد على أنها آلة ، أو مشروع استثماري خاسر في بورصة جذليات التطور اللغوي . فكل معنى ترفضه الألفاظ هو معنى دخيل لا يُقدّر أن يُثبّت وجوداً رمزياً لخصائص ذاتية الثقافة على الصعيد التاريخي والماورائي .

وإذا كان المعنى عاجزاً عن اكتشاف مابعدية الأطر الواقعية للإفرازات الاستهلاكية ، فسيظل غارقاً في الآنية النازفة التي تستهلك خصائص الفعل الاجتماعي لتحيلها إلى فراغات امتصاصية ، تمتص الطاقات الخلاقية لروابط المنظور العقلاني . مما يعمل على تدمير قدرة الفرد التواصلية بشكل منهجي مغرض . وهكذا يصير الفرد حجرَ عثرة في سبيل حركة المجتمع ، ويتموضع المجتمع الوهمي كعصا في الدولاب ، تمنع الحركة الفكرية ، وتعيق الحراك الاجتماعي الذي يُعَوّل عليه في نقل المشاريع الثقافية من طبقة اجتماعية إلى أخرى .

وفي ظل تفجر هذه الثغرات ، ومحاولات ترقيعها غير المجدية ، يتمركز المجتمع التحتي والفوقي على كرسي متحرك في حالة شلل عاجزة عن النفي والإثبات . وكل مجتمع يفتقد إلى القطبين السالب والموجب في عملية تحركاته سوف يغدو كياناً عنكبوتياً هشاً ، لا يُقدّر أن يُكوّن الروابط المعرفية بسبب عجزه عن امتلاك ثنائية (التجاذب/ التنافر) .

ومسألة الثنائيات المجتمعية تدفعنا إلى تكوين متواليات شعورية تنفادي الانكسار الصارم في كتل الأضداد . والفوضى الخلاقية قد ترسخ كأحد أركان المجتمع الشعوري ، وعندها سيتم بناء المتوازيات الوجدانية الطبقيّة⁽³²⁾ على إطار مهزوز ، لأن معنى الفوضى قد يأخذ شكلاً نظامياً مجازياً ، وبالتالي ستتحال الإشكاليات السوسيولوجية إلى تقاطعات سيكولوجية شديدة الذاتية

(٣٢) الفلسفة المتوازية هي تشريح أنساق الجماعات البشرية ، الأحادية والجماعية ، الانعزالية والاستقطابية ، الجذرية (العلة) والأغصانية (المعلول) ، وفق منهج واحد بالغ التفرع والتقابل ، بحيث نتعامل مع الزمان والمكان كصيغة واحدة ، ونتعامل مع نتائج العملية الاجتماعية كحزمة واحدة وفق خطوط ذهنية متوازية . وهذه الخطوط التشرّجية لتحليل النصّ السوسيولوجي العُرْفِي المتواجد في عقّد اجتماعي شفوي هي متوازية (خطوط متقابلة) ، ووجدانية (ذهنية القلب والقلب المعتمدة على الأحاسيس المعرفية المنضبطة فلسفياً) ، وطبقية (متمركزة في تفاصيل الهرمية السُلطوية) .

الانعزالية . وهذا كله ناتج بطبيعة الحال من التباين الاصطلاحي في تعريف الفوضى ، أو كيفية التعامل مع الإرهاصات الفوضوية التي لا بد من ظهورها في المجتمعات .

وتعريف الاصطلاحات المختلطة يقودنا إلى ثلاثة مناهج فكرية للتعامل مع الفوضى :

الأول _ يعتبرها شراً كاملاً ، وبالتالي يجب رفضها فوراً ، وتطهير المجتمع منها، وإعلان الحرب عليها بلا هوادة . وهو ينظر إلى الفوضى على أنها تيارٌ همجي عبثي إقصائي اقتلاعي ، يهدف إلى تدمير المنجزات الوطنية ، ومصادرة حياة المواطنين وآمالهم ، وتعكير صفو الحياة ، وإيقاف عجلة النهوض والتقدم .

والثاني _ يعتبرها أساساً للحياة ، وفلسفةً وجوديةً حياتية لا غنى عنها ، بحيث تُفتح الأبواب على كل المصارع ، ويغدو الفرد مُنفلتاً متحرراً من كل الضوابط، وتُمنح الشهوات الغريزية غير المنضبطة حرية التنظير الفكري والتطبيق العملي وشُرْعنة وجودها وممارساتها ، بذريعة إلغاء الكبت السياسي والجِنسي والاجتماعي ، والقضاء على كل أشكال الحرمان .

والثالث _ ينظر إلى الفوضى بشكل تجزيئي تفكيكي ، حيث يحاول تأطير المتواليات الإيجابية في الفلسفة الفوضوية الذهنية ، ورفض السوالب القِيمِيَّة في تعريف الفوضى . وعندها تظهر مصطلحات من قبيل : الفوضى المنظمة . الفوضى الخلاقة . الفوضى الجزئية . الفوضى المابعدية . الفوضى المَقْنَنَة . الفوضى المحدودة . الفوضى المسيطر عليها .. إلخ . ولا مُشاحَّة في الاصطلاح .

ومن الأهمية بمكان أن نُشرِّح الفوضى باعتبارها مُصطَلحاً له جذور ضاربة في بنية المجتمع . فينبغي تقطير الفوضى لاستخلاص العناصر الإيجابية منها، والاستفادة من صور الأنماط الثورية ، ثم رفض الباقي (كتل الرواسب) .

وإذا أردنا تكوين فهم أكبر لانعكاس الفوضى على الحياة الثقافية ، لا بد من دراسة المجتمع في فوهة اللهب لا دراسة المجتمع بشكل انفرادي بمعزل عن الاختلاطات الفكرية التي تموج في المجتمعات ، لأن فكرة التجانس الاجتماعية هي منظور ثقافي مختلط ، حيث تتضارب التوجهات المحورية لفلسفة التنمية البشرية ، تبعاً لاختلاف صورة المنظور الفكري على صعيد البنية التحتية ، والبنية الفوقية .

وكما أن صياغات التعبير الثقافي هي شرط أساسي لصناعة مناهج علاقاتية تربط بين الدلالات الذاتية الفردية والكلية المجتمعية ، فإن تنقية الجوانب الفوضوية من الغبش البؤري المركّز هي

شرط جذري لدراسة ثقافة الفوضى وأثرها في تحويل القيم السيكلولوجية إلى بناءات فكرية، وإحالة المعاني الفلسفية إلى تطبيقات قانونية تعيد تشكيل أبعاد الجماعة البشرية وفق منظور المعرفة الذاتية ، حيث صناعة الأفراد الموهوبين تتأسس لكي ينتشلوا المجتمع من زحمة انتحار المعنى ، واضمحلال الأنسنة المركزية ، وتراجع قيمة الفرد الوجدانية لصالح الآلة الميكانيكية .

ولا يخفى أن الفردية المتفوقة التي تصهر أطوارَ الذاكرة الآنية المتخذة في اللحظة الزمنية المصادرة ، هي التي تحمل على أكتافها النواة السوسولوجية الجذرية السحرية الحاملة لشيفرة التحولات الثقافية الكبرى .

ومن هنا تنبع أهمية الفردية لإعطاء المجموع البشري معنى ذاتياً متجانساً بشكل يسمح للروابط الأخلاقية الإنسانية بإعادة تشكيل مراكز الثقل المعرفية . والإشكالية القاسية في طريق تشريح أنساق الذاكرة المجتمعية كامنة في التبادلية غير المنضبطة بين المركز والأطراف . وهذا أدى إلى اعتبار الفوضى مجتمعاً كلياً قائماً بذاته . ومن أخطر التحديات التي تواجه حرية العلاقات بين المستويات الثقافية ، النظرُ إلى الفوضى ككل لا يتجزأ ، لأنه في هذه الحالة ستثبت السالبية كمنهج ذي فلسفة متكاملة _ نظرياً _ ، وعندها ستتهار الظواهر المعرفية بين جزئيات الصدام الجزئية والكلية . مما يدفع باتجاه احتكار ماهية الدال (وحدة الإرشاد إلى نقاط القوة والضعف في التركيب المجتمعي) من أجل محاصرة وحدة المضمون الذي يحمي طبيعة التراكيب الثقافية وعلاقاتها بالأجزاء المعنوية والكيلات اللفظية .

والأبجدية السوسولوجية هي لغة الشعور المؤطر واقعياً غير المحاصر بالمثاليات الوجدانية التجريدية . ومن خلال هذا التركيب الدلالي الأولي تتحدد ماهيات المشاعر الإنسانية ودورها في انقلاب المعرفة الجذرية (الكل) على المعرفة المنقوصة (الجزء) . وعندئذ تظهر تحديات المسائل العالقة من قبيل: العلاقة بين الكل والجزء. هل هي علاقة شراكة أم صدام أم حوار ؟ . وطبيعة المناخات الحاكمة على شكل التفرعات العلمية . هل هي طبيعة مقنعة أم طبيعة حاملة لوصف الديمومة ؟ . وحدّة التساؤلات الجذرية تزداد كلما اقتربنا من فوهة اللهب الاجتماعي ، وسيكولوجية العلاقة الثقافية مع السلطات المفهومية (الكيانات التي تملك أنطق السيطرة والنفوذ في دلالات فهم الفرد للقوى الحاكمة عليه) .

وكلما امتدت اقتصاديات تقنين المعرفة السلطوية في الجسد الثقافي ، نتجت أجنة المقارنات بين معرفية التاريخ الشخصي والعمومي ، وبين مسارب الثقافة التي تخلص المجتمع من نماذج

عزلته . وكيفية التاريخ الانعزالي للمجتمع البشري تتحدد وفق عزلة المنظور الإشاراتي الثقافي، لأن منهجية المعرفة المنقوصة _ بحُكم سيادة الأنساق السالبة على الإنتاجات الفكرية _ تظل منهجيةً غير متماسكة ، لأنها تتلقى ثقافةً مغلوطة بفعل اضطراب العقلية الثقافية ، وتذبذب المعقولة الرمزية للسلوك الاجتماعي . أي إن منظومة الأسئلة العنيفة المطروحة على سياقات الشرعية المفترضة لتكوينات الجماعات البشرية ، تبقى منظومةً من الأشباح التي تدور في مجتمع منكسر رافض ومرفوض . رافض للتغيير الإيجابي لأنه يشكل خطراً على استمرار الأنظمة السياسية التسلطية ، ومرفوض بسبب عجزه عن مواكبة التحولات المصرية الحاسمة في طبيعة مستويات النمو المشاعري للفرد الجماعي .

وإذا استطاعت أدوات التفسير الرمزي تكوين أبجدية جديدة من الأسئلة والأجوبة المتعلقة بالمسار التكويني لطبقات المجتمع ، فعندئذ ستكسر شمولية دلالات المفاهيم كثقافة قائمة بذاتها لا كجزء ثقافي ضائع في بيروقراطية الفرز السياسي الهلامي غير المنضبط . وبالتالي ، تغدو سياسة المتواليات الشعورية نظاماً متكاملًا من طبقات اجتماعيات الثقافة المحكومة باقتصاديات اللغة ، حيث توضع كمية العلاقات البشرية في أفق النوعية الكيفية لا الحجم الكمي الفيزيائي . لذلك فإن اللغة الاجتماعية الثقافية هي انتقال تجارب الشعور الفكري من الفيزيائي (المظاهر الحسية) إلى الكيميائي (التركيب الباطني) ، وتحول المغامرة الفلسفية (وليس المقامرة) من الصيغة العمودية (التكوين الذاتي) إلى الشكل الأفقي (الامتداد المجتمعي) .

إن التاريخ الجديد الذي تصنعه سلوكيات مفاهيم الاستعداد اللفظي لاحتضان معنوية الثقافة ، إنما هو امتدادٌ طبيعي للحالة المعرفية العمومية . فالبنية التحتية للحلم الواقعي ، والبنية الفوقية للمخيال المحتوي على شيفرة الخيال المنهجي ، تُعتبران جناحين للأفعال الثقافية المنطقية ، ولا يمكن للفعل الاجتماعي أن يتحرك في مفهومية الشروط الثقافية إلا بهذين الجناحين .

ووفق هذه القاعدة الرمزية ، تُحال الأبجديات إلى أشكال تطبيقية لما وراء السلوك الاجتماعي ، أي البحث في فلسفة نشوء التنظيمات الاقتصادية المؤطرة في عوالم الأنساق الثقافية . والبحث في ماورائية ظواهر الشعور الإنساني هو _ في الحقيقة _ بحثٌ في مابعدية المنحى السيكلوجي للروابط الديناميكية بين طرائق التعبير عن الأنا والآخر .

وبما أن التعبير عن ذاتية التوجهات المعرفية شكلٌ لإحداث اختراق فلسفي في الجدران الاجتماعية الأسمنتية التي يقيمها الوهم الطبقي لصالح الانكسار الأخلاقي ، واستثمار الإنسان في

احتضار أخيه الإنسان ، فلا بد لهذا الشكل الجديد المحتوي على معرفية الفلسفة الانتشالية التي تُخرج الفردَ من مأزقه الوجودي ، وتنتشل الجماعةَ من مستنقع المادية المتوحشة ، أن يتطور ليصبح شكلاً أكثر قدرة على مواكبة المعنى اللغوي العقلاني الرامي إلى عقلنة إشارات الحالات الاجتماعية، والحدّ من توحش الإنسان ضد نفسه ، وأخيه الإنسان ، وعناصر الطبيعة .

وليست ماهية التوحش الإنساني موضوعاً سهلاً أو تحصيل حاصل ، لأنها رؤية متعددة الأبعاد ذات تأثير ساليبي عنيف في اتجاهات الفكر التنويري . فالمشروعية الثقافية هي قانون استئصال الوحشية والتوحش، وعليه تكون الأبعاد المعرفية الإشاراتيّة فاقدةً لشرعية رموزها التجريبية إذا نشأت صيغُ الاجتماعيات المكسورة في قالب التوحش ، والاعتماد على استبعاد الآخرين ، وإقصاء المعاني الإنسانية المتواجدة في لغة الشعور الفكري والعواطف الفلسفية .

وأخطر ما يواجه الحراك الثقافي في النسيج التفسيري لنشأة ثنائيات (النقد / النقض) ، هو الأنظمة الأبوية التسلطية التي تحجر على انبعاثات الدلالة الإنتاجية المنوالية ، التي تستمر في إنتاج السياقات اللغوية بشكل منوالي يُثبِت وَيُنْفِي ضمن مسارب اجتماعية متعددة التراكيب الفكرية .

وهذا الفكر المنبثق من إنتاجات الأبجدية السلوكية لعناصر الطبيعة الثقافية ، ليس فكراً طارئاً لا أصل له ، بل هو امتداد شرعي لطبيعة القواعد التي تحكم العلاقة بين السلطات الحامية لسياسة الثقافة ، وبين الإشارات التأصيلية التي تأخذ بيد الإنسان لكي يكشف نفسه فينقلب عليها ، ويكتشف المجتمع الأبجدي بشكل أكثر ديناميكية . وعندئذٍ ، تتأسس لغة العاطفة المركزية على

قاعدة اللقاء الحميمي النادر بين الإنسان وإنسانيته .

وتستمر صياغات البنى الوجدانية في إعادة اكتشاف المشاعر اللغوية ، التي تبني سلوكيات الذاكرة الحتمية التي تفك الحصارَ عن أنساق الأبجديات المتوازية في المجتمع الجزئي ، الذي يصنع لغة العاطفة الثقافية من خلال تجميع اقتصاديات أبجديات المعرفة . وهكذا ، يتشكل المجتمع الكلي الذي يغدو أبجديةً واحدة ومتماسكة .

لكن الحراك المفاهيمي الهادف إلى تحليل ظواهر التعريفات الفكرية ، لا يمكن أن يثبت إلا من خلال تجذير عوامل الماهية العقلانية لإعادة اكتشاف النقاط الخفية في ماورائية التشكيل البصري للظواهر الاجتماعية . وبما أن التراكيب المنطقية لا يمكن أن تولد وتحيا إلا في مجتمع

مضاد للنفاق الاجتماعي ، كان لزاماً النظر إلى الفرد على أنه مشروع استثماري في جسد التاريخ الرمزي الحقيقي لا مشروع تجاري في موضع العرض والطلب ، لأن ماهية الاستثمار تتحدد نتيجة الوعي المسبق بأهمية تنابعات الإنتاج اللغوي ، وتراكيب الذاكرة الإنسانية المحتوية على أنظمة التحولات الفكرية العميقة . وهكذا نجد أن الثقافة هي التحديد السياقي لأبجديات التغيير الدائم لا برجوازية الإيقاع البيروقراطي لتجذير التخلف والجمود والتبعية للأنساق الأبوية المتسلطة . وكلما تركّز النشاط البشري في إقصاء السوالب النابتة في قلب الذاكرة الجماعية ، نجحت الفاعلية الثقافية في رسم مستقبل أبعاد الحضور الإنساني في كيانات حاضنة متوسعة لا خانقة . ومن خلال جذرية فلسفة الكيانات السلوكية ، يُصار إلى مفهومية جديدة للتأطير الفردي والجماعي . وظواهر الرموز السلوكية لا تنظر إلى التأطير كفعل اختناق كايح للتدفق المشاعري ، بل تنظر إليه بوصفه مرجعية لغوية لتفتيت كتل الإرهاصات التاريخية المفروضة على الفرد بفعل قوة الاستمرارية المقدسة ، وليس بفعل الحقيقة الذاتية للسياق . وهذا النقطة الجوهرية تدفعنا إلى التفريق بين المسلمات الناشئة نتيجة تكثيف تاريخية الرموز الأبوية التسلطية ، وبين المسلمات الناتجة بفعل تماسك الحقيقة الذاتية التي هي _ في واقع الأمر _ مرجعية شرعية قائمة بذاتها ، لأن الحقيقة تمنح للأنساق التاريخية معناها وليس العكس . وبالتالي يتشكل لدينا تاريخٌ جديد أكثر فاعلية ، وأكثر قدرة على مقاومة الاختراق . مما يسمح للفاعلية الثقافية أن تتحول إلى حراك اجتماعي معياري واضح المعالم . فالتاريخ الغامض المستتر مثل اللقيط الذي لا يُعرف له نسبٌ ، فيقضي حياته مصاباً بالخجل والانطواء . أمّا التاريخ المركزي المستند إلى شرعية الحقيقة فيملك القدرة الذاتية على صناعة مجتمع تفسيري ناقد غير تلقيني .

وتأسيس الحقيقة كمرجعية يُعتبر كلمة السر الضرورية لفك شيفرة التراكيب الخصائصية المعقدة في اجتماعيات السلوك الإنساني . فالبنية التأسيسية للحلم التفسيري الواضح ، هي انزياح المجتمع باتجاه امتلاك المخزون الواعي لتشريح أنساق السوالب من أجل تعميق جذور الإيجابيات الأفقية والعمودية . والتفاعل الإشاراتي بين منهجية الأسباب الفكرية وبين امتدادها في

نتائج المعرفة العقلانية الخاصة بالتراتبية الثقافية⁽³³⁾ سوف يفتح الباب واسعاً أمام تدعيم أصولية الخيال ، أي زرع الوقائع الفكرية الملموسة في تاريخ الخيال التجريدي . وهذا يسمح بإقامة زواج مؤبد بين الخيال والواقع ضمن الصيغة الأفقية التي تجتاح وقائع التاريخ الذي يولد باستمرار ، وضمن التركيب العمودي الذي يُنسّق فقرات التاريخ اعتماداً على المنحى المنهجي الذي يطرح التساؤلات على النسيج الاجتماعي بُغية اختبار المشاعر العقلانية للحياة الثقافية .

وكلما تركز التوظيف اللغوي في مراكز تكثيف الأسئلة المصيرية ، انتقل توظيف الأيديولوجية الاقتصادية لخدمة الاستهلاك الفج إلى آفاق علمية أكثر رحابة بعيداً عن الأدلجة السالبة للأنظمة السياسية التسلطية . فكما أن صياغات الشعور تمتلك وعياً تطبيقياً خاصاً بالذاتية الاعتبارية للفرد (التعامل مع الفرد على أنه كيان) ، فأيضاً الأنظمة الشعورية الفردية تمتلك مجالاً مجتمعياً عمومياً حاضناً لسياق إنتاج ذهنية المجتمع على شكل نصوص شفوية ، تمنع حدوث صدام بين الأنا والأنا من جهة، والأنا والكلّ المجتمعي من جهةٍ أخرى. وهذا من شأنه تحويل الأبعاد الفلسفية المتطرفة إلى مراكز عاطفية عقلانية تؤسس لمابعد الإنسان ، أي اكتشاف الكيانات الفلسفية التي لا يُقدر الإنسان أن يراها بالعين المجردة .

وتكمن أهمية هذه الرحلة الثقافية الاستكشافية في إحالة المنظور السيكولوجي إلى مستويات المعنى المولود من ولادات التاريخ المستمرة . ومبدأ التوالد الطبقي بين أنساق التاريخ الثقافي للوعي، يجعل تقاطعات المنظور البشري قادرةً على نقل المجتمع عبر العصور ضمن منظومة صهر المراحل ، وحرّق المسافات ، والقفز على الحواجز ، وإحداث طفرات اجتماعية شديدة التأثير .

٥

التعامل مع التحديات الرمزية والواقعية

(٣٣) هي الشكل العقلاني التركيبي الذي يُورّع الرموز الاجتماعية على مساحات تاريخ الكتل الثقافية المستمر في عملية الولادة . مع الانتباه إلى أن ديمومة الولادة التاريخية تُنتج تاريخاً منضبطاً بالشوايت السلوكية للإيقاع الإنساني ، والتوظيف العقلاني التغييري لسياسة الثقافة .

إن أخطر التحديات التي تطرح أسئلةً عنيفةً على مستوى الانتماء لدى الأفراد ، يتمثل في انكسار التاريخ في قلوب الناس ، لأن هذه العملية ستؤدي إلى غياب الوعاء الحاضن للتطبيقات العملية للأفكار ، مما يُعَرِّى المبادئ الفكرية من انعكاس تطبيقاتها العملية ، وهذا يدفع باتجاه انكسار الحلم ، وغياب القدوة ، وانتحار المعنى في أبجدية تتآكل .

والفرد قد يعيد النظر في فلسفة انتمائه إلى السياقات الطبيعية للتاريخ الاجتماعي إذا آمن أن وجوده كعدمه ، وأن ظواهر البنى الاجتماعية مُعلَّبةً وجاهزة للاستهلاك مسبقاً . وهذا من شأنه إحالة قدرات الفرد إلى اللامبالاة ، خصوصاً في ظل وجود أنظمة سياسية انتكاسية غارقة في زواج الثروة بالسلطة ، وإغراءات المال السياسي، وحصر الممارسة السياسية في أصحاب المال ، بحيث تصبح السياسة لعبة الأغنياء ، دون وجود فاعلية حقيقية لأداء ثقافي اجتماعي يتبلور في قناعات التفسير الأخلاقي لحركة التاريخ الجزئي والكلبي ، والحراك الاجتماعي الفردي والمجموعي .

وانسجاماً مع القدرات التصويرية التي تملك أدوات نقل التاريخ عبر الحقب الزمنية المختلفة ، تتأسس أطوار إنتاجية الذهنية الواقعية كمبدأ زمني متفاعل مع المكان . فالتاريخ _ في تعريفه الظاهري _ هو ماهية تتحرك في الزمان والمكان . وهذا التعريف لا غبار عليه ، لكنه يُخفي الطبيعة الرمزية للعاطفة العملية الماورائية التي تحرك من وراء الستائر الأفراد والجماعات . وكل نسق تاريخي هو بالضرورة نسق رمزي لأبجدية دائمة الولادة ، ولغة نابتة في مراكز الشعور الجوهري .

ومن خلال حركة المنظومات الشعورية ، تظهر أهمية الارتباط الفكري بالتفسير الاجتماعي لتاريخ الثقافة (السياسة المنهجية للمعارف) ، لأن أي غياب في التواصلية بين جزئيات ماهية تاريخية الثقافة سوف يكسر تاريخ المجتمع ، ويُعَرِّى القيمة العاطفية للفرد من امتدادها الشرعي في الأنا والآخر .

ويمكن تلخيص التعريف المشاعري للتاريخ الثقافي ، بأنه شرعية تواجد الأفراد في مساحات الانتماء الحقيقي للذاتية (الغوص في أعماق الذات) ، والكُلِّيَّة (إنكار الذات في صيغة المجموع) . وكل توزيعات الشرعية التاريخية لسياسة الثقافة ، سوف تظهر آثارها في النسيج السيكلوجي لاقتصاديات المعرفة ، حيث يصبح الفرد حاملاً لميراث المجتمع بشكل طوعي لا قسري ، وينزاح المجتمع باتجاه الوعي الحالم بأهمية الفكر الثوري والتفكير التغييري . فكل تغيير إيجابي في

النسغ الإنساني ، هو جنين جديد يُؤلد من رَحم التاريخية الجديدة ، التي تعتمد في فلسفة مصطلحاتها على تجذير الزمن كإطارٍ كاسرٍ للقوالب الجامدة التي أفرزها انكسارُ المعنى واحتضارُ الوعي .

إن التشخيص العلاقتي للوعي التجانسي يحلّل المنظور الاجتماعي من خلال الدراسات المجهرية العميقة ، بحيث تصير زمانية المسار التاريخي مكاناً جديداً ملائماً لاحتضان وعي عقلانية التجربة . لكن السؤال التاريخي المفروض على جزئيات الحلم الثقافي يتشظى باستمرار ، فتصير الأسئلة الاجتماعية نوعاً من التحليل الوجداني لنفسية الفرد ، وهذا يعمل على ابتكار منظومة لغوية تفسيرية توازن بين المتواليات الحسّية والعلاقات الإنسانية التي تستثمر في جسد التاريخ بصورة تتيح إنتاج أشكال جديدة للتاريخ ، تنبع من الوعي الثقافي لا التوليد القسري لسياسة المفاهيم المركزية .

ونحن إذ نركّز على الكينون التاريخي (وحدة تشكيل الأنوية التاريخية) في تنقية المساهمات الثقافية من عدمية التسييس المسبق ، فإننا نركّز بنفس القدر على وضوح رؤية الإسهامات البشرية في تعميق وعي الثقافة في عقلية المصير التاريخي المؤرّع بين إشارات التفاعلات الإنسانية ، وبين دلالات حتمية التوجه الثقافي لصناعة مجتمع لا يهرب من التاريخ .

واعتماداً على زيادة منسوب الشروط الاستباقية في هالة الجذريات الثقافية (الأنوية الفكرية الأساسية) ، يمكن تفعيل المسار الاجتماعي بما يضمن تحويل السوالب الاستهلاكية إلى أبجديات محسوسة وواعية .

والإشكالية الصادمة التي تعيق مسار الإنتاج الثقافي ، هي غياب التفاعل بين المستويات الذهنية لطبقات الثقافة المجتمعية . والتعامل مع الثقافة على أنها حزمة واحدة بالغ الخطورة لأنه يفترض تأسيساً اجتماعياً متجانساً ، وهذه الفكرة وهمية بسبب اختلاف الزوايا التي ينظر منها الأفراد إلى مشاكلهم ومشاريعهم المستقبلية .

إن التفاعل المساري الذي يوحد زمانية أبجدية صناعة المخيال التطبيقي مع مكانية الاحتضان الوجداني للمعنى ، يقتضي زراعة المشروعية الثقافية في قلب الحاضر وطريق المستقبل ، وعندئذ سيؤمن الفرد بأن الثقافة هي كيان أساسي مندمج بالكلية مع الوجود البشري ، وهكذا سنصنع أفراداً يدافعون عن الثقافة باعتبارها مصيراً حتمياً يمسُّ مصيرهم ، وليس باعتبارها وظيفة حكومية ،

أو مشروعاً تجارياً بحثاً ، أو إجراءً ترفيهياً لملء وقت الفراغ ، أو ممارسةً برجوازية أمام وسائل الإعلام .

والمجتمع الحقيقي هو الذي ينقل الثقافة إلى نظام حياة شعبي ورسمي ، ويحوّل الطبيعة الفكرية للمعرفة إلى خبز يومي ، وعندئذ تتعامل المنظومات الإنسانية مع المنظومة الثقافية كالماء والهواء والغذاء .

لكن الأسئلة المعيارية المطروحة على أنوية النسيج الاجتماعي للكائن الثقافي ، لا تأتي من إشكاليات بناء الحدث الواقعي في أروقة الفكر المخيالي ، بل تأتي من عدم ملائمة القوالب الواقعية للكميات الوجدانية الخيالية ، أي إن المستوى الثقافي للتنظيم العقلائي يجد صعوبة بالغة في سكب الخيال في قوالب الواقع . وهذا يُنتج صداماً بين أجنحة المجتمع الطبقي المعتمد على زواج الثروة بالسلطة ، وتفشي سياقات المظاهر الاستهلاكية البراقة على حساب المعايير السلوكية للفكر التربوي .

ومن التحديات العنيفة التي تفكّك النسيج الاجتماعي لأنوية الثقافة ، صياغة سلوك تربوي جديد على أسس استهلاكية في المستوى المعنوي ، وانسحابية في المستوى اللفظي . أي إن المعنى ينزاح باتجاه احتضار ماهية الوجود الإنساني الشخصي ، واللفظ يترنح بين ضغوطات الحياة الاقتصادية وأحلام الثقافة الخيالية .

وهذا التحرك التفاعلي المغترب عن طبيعة لغته الفكرية ، يُنتج أبجديةً جديدةً تعمل على زراعة البنى الجدلية غير المنطقية في قلب المنهج التوليدي للعقل الاجتماعي . وخطورة هذا المبدأ كان بالإمكان تجاوزها لو كان التلوث في الروافد ، لكن التلوث _ للأسف _ في مركز المنبع . أي إن القلب الثقافي الذي يضخ الدماء الثقافية في عروق المجتمع قلبٌ ملوَّث غير قادر على الإنبات والنفي .

والتأسيس العقلائي في البنى المعرفية النسيجية ، لا يتحمل تلوثاً في السياق اللغوي أو الأنساق السيكلوجية . وبالإضافة إلى هذا ، فإن قيمة العقل الثقافي الكلي تظهر في تجزئة امتداد الرمز في تاريخية الجسد المجتمعي ، من أجل توزيع مراكز الثقل على أكبر مساحة ممكنة ، وبالتالي تتمدد الأفكار الكلية على شكل تيارات مرحلية تبني الهرم الثقافي بشكلٍ واعٍ ضمن مسار الأولويات .

وحرّيّ بنا _ في أثناء دراستنا للمنحى الثوبري الفلسفي _ أن ندرك الصياغات الإشارتية التي تحرك التقاطعات الاجتماعية . والأمر يُشبه سائق عربة تجرّها خيول كثيرة . وفي هذا السياق ، يجب القول إن تشكيل الاندفاع الجوهرى كعملية تربوية ، ينبغي ألا يُغفل ميكانيكية التركيب السلوكى لتاريخية الخيال (طبقات التشكيل التاريخى للخيال) . ومن شأن غياب الحس الجوهرى لميكانيكا التحركات السوسولوجية ، إنتاج كائنات ثقافية ممسوخة محكومة بأنظمة سياسية بدائية غير مبنية على المؤسسات ، وإنما مبنية على الولاء القبلى ، والخجل الاجتماعى من نقد السلطات الأبوية المتمركزة في أبراج العصمة المزعومة ، والقداسة الافتراضية المسيسة مصلحياً بشكل فردى شهوانى ابتزازى ، ينظر إلى الوطن والنسيج الاجتماعى والعقل الفردى الكلى ، على أنها شقق مفروشة تستأجرها بأموالك لفترة محددة ، ثم تغادرها إذا لم تعد تعجبك . وهذه النظرة الكارثية هي _ بالأساس _ منهج جدلى نفعى قائم على تسليع الكائنات الحية ، أي تحويل الصياغات الروحية إلى بضائع تجارية في زاوية العرض والطلب . ومن شأن هذه الاشتعالات الفلسفية السالبة إحالة المنظور المعرفى إلى صفقات استثمارية ، تعيد صياغة الكائنات الحية لصالح الآلة ، وتؤسس قيمة الإنسان استهلاكياً لمصلحة ميكانيكا مشاعرية مُعدّلة وراثياً ، تُشيد الأرواح البشرية في وهم الجدليات ، من أجل نيل رضا مادية المجتمع الضاغط ، والمحصور في تقاطعات الأضداد .

وخطورة العمليات التي تعرّي الإنسان من امتداده الأفقى الواقعى ، وتسليخه من امتداده العمودى المخيالى ، تكمن في إعلان انتصار الآلة المصنوعة على الإنسان الصانع ، وإعلان هزيمة الإنسان أمام إفرازات عقله . وبذلك يتحول المجتمع الكلى إلى خليط هجين من الكائنات الحية المعدّلة وراثياً ، حيث تغيب سمات الإنسان المميّزة في زحمة الأطر الميكانيكية المجتمعية ، ويختفى إبداع العقل البشرى في أنقاض الإنسان ، وخطام الإنسانية ، وبقايا الأحلام الاجتماعية التي غدت ثقافةً فوضوية في ديناميكية الوهم المتحرك في أرجاء العقل البشرى ، والجسم الاجتماعى الهش ، والتاريخ الحضارى المكسور .

وعندئذٍ تصير الثقافة تحصيل حاصل ، وضياًعاً للوقت والجهد ، وجسداً مشلولاً على كرسي متحرك ينتظر أية مساعدة من هنا وهناك . وفي ظل احتضار سلوكيات المستوى الثقافى، ستنشأ أنثروبولوجيا هجينة كنتيجة للزيجات المختلطة العنصرية بين أطروحات الانكسار الشخصى ، وفلسفة الهزيمة الذاتية ، وتبرير العنف الاجتماعى ، وتجسيد جلد الذات ، وانحسار الحلم البشرى ،

وانخفاض سقوف المعنى ، وغروب شمس أبجدية الثقافة ، وتفشي ظواهر تدمير الذات ، وانتقال الكليات السلوكية إلى جزئيات المنفعة الشخصية البحتة .

وبالطبع فهذه الزيجات الخارجة على قانون الاستعداد العاطفي للنهضة ، والمضادة لشرعية التكوين السلوكي المتوازن بين حتمية الحياة والتدبير العقلاني التوزيعي ، تظل زيجات خارج إطار الشرعية المعنوية ، لذلك ستبحث لها عن حاضنة شرعية ، أو حظيرة فوق مستوى النقد ، لكي تُقدّر على تفريخ الأجنة الثقافية المشوّهة ، وتفريخ أنثروبولوجيا المجتمع الإنساني من الجوهر والعرض . والجدير بالذكر أن انزياح المجتمع المخيالي نحو تراكيب حياتية شديدة العزلة ، يأتي في خضم النتائج الحتمية لانتحار تاريخ الأفراد والجماعات . ومشكلة التحيز الاستباقي (الانتحار التدريجي) التي أفرزها العقل البدائي ، لا تعني تجمع السياقات التاريخية في حيز ثقافي جاهز مسبقاً ، وإنما تعني خلخلة الأنوية الداخلية للتفسيرات الثقافية لمسارات الحلم ، وتكريس الفوضى الخلاقة بين التكتلات الفكرية الاصطناعية ، والكُتل المجتمعية المتناحرة . وهذه المنظومة العشبية تتقاتل على احتكار اللاشيء ، وتتنافس على الخسائر .

وانتقال الصياغة الثقافية لواقعية الحلم الاجتماعي ، من طور الوعي الكلي إلى أطوار التلقين المسيّس ، سوف يُعزّز العناصر الشاذة كوجود بشري أساسي ، وسوف يكرّس احتضارات الوعي المجتمعي كحالة جمعية كلية تسيطر على خارطة الحلم الثقافي . وهكذا يصير الاستثناء هو القاعدة ، ويأخذ النادر الشاذ حُكم الأغلبية المطلقة ، فتشأ ظاهرة التعميم الارتجالي المتسرع التي لا تعني بخصوصية الصور الفكرية المنعكسة عن تحليلات الشيفرة الرمزية للسلوك الإنساني تحت مظلة الأنسنة الثقافية . أي إن ظاهرة التعميم السلبية التي طُبِخت على عَجَل ، لا تُقدّر على تعزيز المسار الإنساني الرامي إلى تنقية الثقافة من وحشية التسييس المصلحي الشخصي .

وبما أن الأنسنة كماهية منطقية متوالية ضد التوحش ، كان من المتوقع أن يحدث صدامات عنيفة بين جزئيات التفاعلات الرمزية للسلوك المعرفي، وبين العقلية البدائية التي تتعامل مع النظام السياسي في الدولة كمشروع استثماري عائلي .

ويظل التحدي الفلسفي _ الذي يُجابه مفاهيم التوجهات الاجتماعية المركزية _ كامناً في قدرة الثقافة على صناعة الدولة كحاضنة جماعية لا سوهر ماركت . وبعبارة أخرى ، إن بؤرية التمركز المعرفي لا يمكن أن تثبت إلا في أحضان نظام سياسي متماسك ، يَني دولة القانون والمؤسسات على تراكمات الوعي التفسيري ، بُغية الخروج من الارتجالية في العمل السياسي ، والإفلات من

ثقل العناصر التقليدية المسبقة ، والتحرر من الأفكار الاستهلاكية الجاهزة التي تتعامل مع المعطيات الثقافية السياسية كمعلّبات تباع في الأسواق .

ومن خلال الارتباك الحاصل في صياغة اقتصاديات اللغة ، وتضارب مستويات احتضان أبجدية المعنى ، تتحدد معالم الإشكاليات الكبرى في المجتمع الذي لا يقتنع بأهمية التحولات العقلانية الجذرية لأنه غارق في تفاصيل الحياة اليومية الضاغطة ، وبالتالي صارت الثقافة عبئاً عليه بسبب شلل الفكر الثقافي، واحتضار المؤسسات الثقافية الغارقة في الروتين الوظيفي. والفرد لن يحتضن الثقافة ويتخذها مشعلاً في حياته إلا إذا آمن بأن المعرفة الثقافية هي طوق النجاة الذي سيوفر له توازناً روحياً بين مستويات تاريخه (الحضور الماضي، واللحظة الآنية المعاشة، والطموح المستقبلي). وعندئذ سيتبنى الأفراد قيم الوعي المعرفي التنويري سياسةً ثابتة للأفق الثقافي ، لأن مشروعية الحلم الفكري أزالَت الأعباء عن كاهل الأفراد ، وانتشلت المنظومات الاجتماعية الكلية من مأزقها الوجودي الخانق .

إن تشريح الأنساق الاجتماعية ينبغي أن ينبع من سياسة الثقافة لا النظرة الأوتوماتيكية للتداعيات الفكرية المؤطرة في مناهج تسييس الهياكل الأبوية السُلطوية . وكلما تركّزت منطقية زراعة السياقات المعرفية في تجانسية الشمول الإنساني ، تجذّرت شرعية اجتماعيات الثقافة الكاسرة للقوالب الجاهزة .

وبما أن الثقافة _ كسياسة وظيفية _ هي أداء عقلائي واقعي رافض للتأطير السالي ، والمجتمع الاصطناعي المعلّب ، كان لزاماً نقل المجتمع الحي في داخل الإنسان _ والذي يعيش على التنفس الاصطناعي _ من دائرة التسول الثقافي والارتزاق السياسي ، إلى فضاء المعرفة الثورية التي تنتشل الكيانات الإنسانية من مستنقعها . وهذا يستلزم بالضرورة توجيه الجهود الأخلاقية لصناعة اقتصاد ثقافي يبنى مجده على الموازنة بين المعنى اللامحدود واللفظ المحدود . ولا بُد من كسر حدود التفكير التجانسي ، إذا أراد العقل التنويري بناء الذات الإنسانية _ التي تنقلب على ذاتها لاحتضان ذاتها _ في المستوى الزماني ، والشعور المكاني .

إن مشكلة الحدود الذهنية الملتفة حول الشرعية الثقافية ، تخلق مشروعية افتراضية جديدة تفتقد إلى حس التعامل المزجي بين الزمان والمكان . وفي ظل انكسار ماهية رموز السوسولوجيا ، سيظل الزمان عبئاً على المكان ، والمكان عبئاً على رمزية التنظيم السيكلولوجي للمجتمع . وهكذا تنزاح اللقطات الفكرية الآنية نحو سياق ماضوي مُتشعّب . الأمر الذي يُرغم عِلْم اجتماع الثقافة

على التخندق في ردود الأفعال المستهلكة ، مما يتيح للتقاطعات الزمنية أن تقهر الفكر الثقافي ، وتجبره على التراجع لصالح غياب الرؤية الاجتماعية ، واحتضار المشروع السياسي في الدول الاستبدادية التي تنظر إلى المثقف على أنه متسول على أبواب السلطان . وبالتالي تنبع أهمية خادعة للمثقف والثقافة ، لأن الثقافة _ في نظر الأنساق السياسية التسلطية _ هي وسيلة ترويج مخادعة لجذب الجماهير ، وإقناعهم بالالتفاف حول الصولجان من أجل تجذير الوهم كنظام سياسي طبقي متوحش .

والتعويلُ المصيري على المثقف ، لا ينبغي أن يفتقد إلى الأبعاد الحضارية لبناء الشخصية ، لأن المثقف المهزوز أمام التحديات الجسيمة سيلعب دوراً عكسياً في المبادئ السيكلوجية ، فتتشكل مفاهيم جديدة ذات إسقاطات غير معهودة بسبب الخلفية التسييسية الصارمة . فعلى سبيل المثال ، سوف يختلط مفهوم العلم وماهية الجهل بصورة كارثية نتيجة غياب المرجعية ، أو ظهور مرجعية وهمية تحل مكان المرجعيات الحقيقية بفعل قوة الصولجان الذي يضمن إعادة تعريف الماهيات بمنطق القوة لا قوة المنطق .

وتنبع خطورة إعادة صياغة المصطلحات من الخلط الميسس المقصود بين القيم الأخلاقية والمسارات اللاأخلاقية . وهذا يجعل من الفراغات الجزئية الاجتماعية وعاءاً حاضناً للعلاقات السالبة ، وانكسار التجانسية بين مكونات العقل الشعوري للأفراد .

ولما كانت العقلانية العاطفية إحدى أهم المحركات في دراسة الهوية المعرفية للجماعة البشرية ، نتجت نظريات تشريحية توازن بين اجتماعيات الثقافة وسياسة المعرفة . ولا يمكن لأي نسق ثقافي أن يستقل بذاته خارج إطار الاحتضان المنظومي ، أي احتضان الجماعة البشرية الكلية لجزيئات الحلم الإنساني . وبالتالي ، يتأسس الحلم ليس كأداء انفعالي هواجسي ، بل كأداء مابعد استشرافي يرشد الذوات البشرية إلى التوضع في الكيانات المتجانسة . وهذا الأمر سيدفع باتجاه تجذير فاعلية العقل البشري في الموضع اللائق به ، حيث توضع ديناميكية الفاعلية الثقافية في أقصى مداها السيكلوجي ، فتظهر المعارف الفكرية كحاجة بشرية كالماء والهواء ، وعندها تغدو الثقافة سياسةً منهجية رسمية تحتوي على رموز الفاعليات المنهجية التي تنتشل الكيانات السوسيولوجية من غبش التّموضعات غير المحسوبة .

والذي أخطر نشوء المعيارية الثقافية الفعالة في توازنات الأطر الإنسانية ، هو عدم الانسجام بين اللفظ والمعنى ، والإطار والمحتوى ، والزمان والمكان ، والروح والمادة . فتراجع الدور

السلوكي للمعرفة ليصبح إشكاليةً بحد ذاتها ، الأمر الذي نقل صياغاتِ الحل الجذري إلى قوالب المشكلة . والأداء الفكري الذي يُفترض أن يكون حلاً، صار غارقاً في إشكاليات الواقعية العنيفة التي تضرب العمود الفقري للمجتمع . والتسارع الفظيع في التغيرات المجتمعية أضحى حجماً تاريخياً لانكسار واقعية الحلم . وهذا الانكسار لم يصاحبه تأسيس عقلائي مُساند يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، لذلك صار الانكسار واقعاً متجذراً ، ونواةً أساسية تدور حولها القيمة الأساسية لوجود الفرد في سياقه الزمكاني وتواجده على خارطة ترفضه .

والتحدي الداخلي غير المنظور هو تمركز الإنسان في بيئة رافضة له . وهذه الإشكالية الخطيرة قد لا ينتبه لها الكثيرون بسبب حجم الضغط التفسيري للظواهر الاستهلاكية على رقعة العقل المشاعري في المسارات المضادة للتنمية والانتماء . وللأسف ، فإن التنمية في المحيطات السالبة صارت عبئاً على الفرد ، وأسطوانةً مشروخة . أمّا الانتماء فانتقل من الولاء للقيم الأخلاقية المطلقة إلى الولاء للاستهلاكية النسبية الآنية المادية الشهوانية ، لأن الفرد ينظر إلى الانتماء كعبء حياتي يومي ضاغط . أضف إلى هذا أن الاستبداد السياسي أنتج كائناً يؤمن بأن وجوده كعدمه ، وهذا قتل قيمة الانتماء كعقل شعوري فعال في ترتيب أنساق سياسة الثقافة المجتمعية .

وعلى الرغم من تحولات العقل الشعوري داخل توزيعات الفاعليات الثقافية ، إلا أن حجم توزيع الامتداد العاطفي على مساحات المعنى الاجتماعي يتأثر — بدرجة كبيرة — بالأطر السياسية الموجبة والسالبة . ولا يتحرك التجانس الثقافي بمعزل عن الأنظمة الفكرية السياسية أو التسييسية ، كما أن معنى السياسة كأداء حاكم على الخيالات والوقائع التاريخية ، يسير ضمن منظومة السيطرة على الثقافة وتدجين المثقف .

ولا يمكن للفاعل الثقافي أن يخترع زماناً ومكاناً — بشكل استقلالي — لاحتضان أبجدية الإبداع المعرفي . خاصةً وأن الثقافة لا تملك النفوذ الجماهيري الذي يؤهلها للتحديث من موقع القوة ، ولا تملك كذلك السُلطة الوجودية على أحاسيس الناس واتجاهاتهم الواقعية . ودورُ التعبيرات السلوكية للمجتمع الثقافي لا يعدو عن كونه ردة فعل ، أو فعلاً ارتجالياً يأتي في سياق محدود لا يتمتع بالسيادة المنطقية على إفرازاته .

وهذا الانهيار في امتداد الدلالات العقلانية، صار تنويراً هجيناً بفعل الحشد السياسي لاتجاهات المصطلحات التي صارت تجميعاً لتناقضات الأضداد ، وفوضى الدال والمدلول ، واختلاط اللفظ والمعنى . ومع تزايد الإقصاء المؤسسي للعقلية الثقافية الناقدة ، صار الفكر

المعرفي عاجزاً عن تفسير السياقات السياسية ، ومشلولاً أمام تحديات الأسئلة الجديدة ، وإيجاد الحلول الفعالة في المجتمعات المتأكلة التي تنتظر الحلول السحرية ، دون أن تتخذ أي إجراء ملموس على الأرض .

وهكذا أضحت الثقافة سياسة الانتظار ، وشعوذة التاريخ . وصار الخُلم الثقافي ينتظر أن تُمطر السماء ذهباً أو فضة . وهذه الانتكاسة الحرجة ما كانت لتأسس واقعاً ملموساً ومُسلّمةً مُكرّسةً ، لولا الاضمحلال السياسي الذي تمركز في النسيج الثقافي الإشاراتي ، وضربَ العمود الفقري للعقل الوظيفي الذي انسحب لصالح إرهاسات تلقائية غير منطقية لا ترى شكلاً للحياة خارج إطار الشهوات، ولا تُثبت قيمةً للإنسان المميّز إلا داخل مستوياته الغريزية . وبذلك تكون الأنساق العقلانية في قلب وظائف النسيج الثقافي ، قد تحوّلت إلى أنماط هلامية لا تملك شرعية التواجد على رقعة العواطف البشرية ، وليس لديها القدرة على تمثيل أحلام الناس في العقل المخيالي تمهيداً لصناعة الوقائع التاريخية الخاصة بحياة أفضل . وتكمن المشكلة _ بشكل أساسي _ في وصول الخدش الاجتماعي إلى العمود الفقري للإنسان الثقافي ، مما جعل النسيج الداخلي للفرد مُهدّداً ، وعليه أن يخوض حرباً داخلية في أرجاء كيانه الإنساني إذا أراد الخروج من عزلته المستتقعية .

ولو قمنا بربط التيارات الشعورية بحالة انفجار الوعي ، فإننا سننتقل من معرفية العزلة إلى انكسار الحدود بين الإنسان وإنسانيته . الأمر الذي يؤثر _ إيجاباً _ في خصائص الوجود البشري الحالم على صعيد تعميم السلوك التاريخي كسياسة ثقافية ، وتوجيه مسار الظواهر التاريخية نحو فك عزلة الكائنات في المجتمعات الميتة .

ونحن إذ نكرّس التفسير المخيالي للظاهرة التاريخية ، فإننا لا نُغفل الطبيعة العاطفية للمجتمع الثقافي كحدث تاريخي أحادي واستقطابي . وهذه الأحادية الاستقطابية ستغدو تشكيلاً جمعياً يصهر الأضداد في بوتقة الولادة المعرفية الاتحادية ، فينتج فريق عمل واحد . ومن خلال هذا التركيز المنطقي ، تُحال المبادئ الشعورية إلى سلوكيات ثقافية في الداخل البشري الفردي . ولا يمكن إنشاء مجتمع الثقافة المحورية على أرض الواقع ، إلا إذا أقمنا في تداخلات الجسد الإنساني المتفرد دولة الثقافة .

لقد كانت محاور الاستقطاب المعرفي غارقةً في الجدليات المخيالية ، ولكن مع تثبيت نظريات تشريح الصيغ المجتمعية وفق أسس سلوكية ، انتقل مفهوم الاستقطاب من قيمة الخيال

الوظيفي المحاصر إلى ماهية الحضور الإنساني الفاعل . فلم يعد الحدث التاريخي الجزئي ينفصل عن متواليات العقلانية الكلية ، ولم يعد السلوك العاطفي حكراً على المستويات الذهنية العائشة في العوالم الافتراضية . بل حدثت عملية زواج شرعي بين الخيال والواقع ، ليس من أجل صناعة المتعة الآنية المحصورة في التغني بالتاريخية المعرفية، وإنما بُغية توليد البنية التاريخية لاقتصاديات الشرعية الثقافية ، بحيث لا ينفصل التحليل التاريخي للجوهر (العقل الباطني الأساسي) عن الاقتصاد المعرفي للعرض (السُلطة الذهنية التنفيذية) .

ومبدأ الزواج الديمومي بين العقل المفكر والعضلات ، يعني التحامَ شرعية التصور السلوكي مع التطبيق العملي . كما أن عدم الفصل بين مكونات الوعي التاريخي، سَوْفَ يُوحِّد الزمانَ والمكانَ في امتداد الشعور ، فيتجسد عنصرُ التاريخ (كوحدة زمنية) على رقعة العقل الإنساني (كوحدة مكانية) . وعندئذ يعيش الإنسانُ في التاريخ ، ويعيش التاريخُ في الإنسان .

وفي حدود الشرارة الوقتية الناتجة عن اختلاف سرعة الكيان البشري والكيان التاريخي ، تتحدد ماهية الثقافية كإحساسٍ زمني ، وامتدادٍ مكاني . وهكذا تقوم الثقافة بتكثيف الحضور البشري في التاريخ عبر اختزال الزمان والمكان في عملية زواج العناصر الإنسانية بالقيم التاريخية الإشارية .

ومن الإشارات الثقافية المهمة في كشف طبيعة العلاقات بين الدلالات الزمكانية ، اكتشاف تفسير فلسفي للتاريخ يقوم مقام الحشد القمعي للسلطوية السالبة التي تعتقد أن أفضل وسيلة للتعامل مع الحالم هو قتل حُلْمِهِ .

ويظل العقلُ التاريخي هو الضمانة المعرفية لتثبيت رموز المنظور التحليلي المتجانس في أوصال سياسة الثقافة ، بسبب تمركز البعد التاريخي غير الجدلي في الخلفيات الاجتماعية الثقافية . والتحرك في مستويات التاريخ لا يُعتبرُ فعلاً غريباً عن الفكر الثقافي ، أو تياراً شاذاً عن المشروعات العقلانية للتنوير المنتقل عبر أطوار المخيال الوظيفي ، لأن التحرك الطبيعي في تاريخية الأنساق هو تاريخٌ قائم بحد ذاته ، كما أن الحراك الخيالي في النسيج الواقعي هو واقعٌ مستقل عن محيطاته المخيالية ، ومستقرٌّ في قلب النواة التوليدية لأبجدية المعرفة التي تُمثلُ تاريخاً متجدداً للحُلْم الثقافي .

ونحن إذ نتحصن بالسلوك الرمزي للفاعلية الأبجدية ، لا نخترع تاريخاً افتراضياً هلامياً لعناصر ميتة في مهدها ، بل نعيد توليد القيم الفكرية على محاور الثقافة مُستَبدِين إلى تاريخ

المعاني . وهذا التوليد الجديد صار فلسفةً تطبيقية للخروج من روتين الولادات الميكانيكية ، التي أحالت المجتمع إلى كتل مشلولة تبني أبراج الوهم على كرسي متحرك .

ولا بد _ إذا أردنا تفجير الطاقات الإبداعية الكامنة باتجاه مضاد للميكانيكية الارتجالية _ أن نعيد توليد العناصر التفسيرية المحورية من جديد ، فنصنع تاريخاً جديداً للحلم الثقافي بعيداً عن المسلّمات الاستباقية الجاهزة ، ونؤسس مشروعاً معرفياً ضد التلقين الميسّس الذي يُنتج مثقفين مرتزقة وبيغاوات ، ونؤسس ثقافة الأسئلة لضمان السيطرة على أبعاد النقد ومحاور النقض ، ونقيم مجتمع العدالة الاجتماعية لكي نوفر الحاضنة الشرعية الملازمة لاستقبال الجنين الثقافي ، والاعتناء به كمخلّص وليس عبناً زائداً عن حاجة القدرة الذهنية ، أو مُنتجاً فائضاً عن وجودية الاستهلاك الديناميكي . وإذا لم يقم المجتمع بتثيت وجوده ثقافياً ، فسوف تحصل انتكاسة انسحابية تضرب العمود الفقري لتاريخ الثقافة المتولّد من العقل المجتمعي ، فتبدأ المصطلحات السلوكية البشرية في تأطير مجتمع افتراضي هلامي استهلاكي لا جذور له ولا أغصان ، خصوصاً في ظل تحييد البعد التاريخي الاستنادي ، وغياب الحضور الآني الوقي الفاعل ، واضمحلال التواجد الجذري في المستقبل .

وتُعتبر ماهية التاريخية الثقافية سياسةً لغوية شديدة الأهمية ، بسبب دورها في الحفاظ على أبعاد المصطلحات من خلال تأصيل المفهوم الدلالي لثنائية المعرفة (السبب / النتيجة) . كما أن العقل التحفيزي المضاد لمفاهيم الهدم ، يُساهم بشكل أساسي في إحالة العناصر الثقافية إلى ولادات تاريخية ، فتنشأ ماهيات جديدة لقيمة التجانسية الشعورية التي تعتمد على فرز الثنائيات المشاعرية وفق أسس واقعية ، تمهيداً لدراسة اللغة العُلومية (العقل المنطقي العلمي) ضمن مبادئ التحليل السوسولوجي لأبجدية المجتمع الناشئة باستمرار من القاعدة حتى القمة وبالعكس .

ومن خلال وصول الذهنية اللغوية إلى أعماق القيم البدائية ، يمكن تجريد إشارات المعنوية الرمزية من ثقل الهاجس اللفظي الميسّس . ولكن _ قبل الوصول إلى تلك المرحلة المتقدمة _ ينبغي التمييز بين ولادات التعريفات الزمكانية ، والتفريقُ الذهني التطبيقي بين مستويات التعداد اللفظي لكينونة المعنى . وماهية المعاني التجانسية متشعبة للغاية بسبب اندماج السبب والنتيجة في بعض حالات الولادة الأبجدية ، الأمر الذي يؤثر على الثقافة كوجود بشري استقطابي .

ويمكن تطبيق مبادئ الخلفية الاجتماعية الثقافية على ماهية التاريخ والتاريخية ، حَدَثًا وتكوينًا ، غُزْلَةً واستقطابًا ، باطنًا وظاهرًا . وينبغي الانتباه إلى أن الاعتماد على بؤر التاريخ في فحص النسغ الثقافي ليس ارتهانًا للزمنية الروتينية ، أو حصارًا يفرضه المكان المغلق على الزمان المفتوح ، لأن الثقافة هي مالكة أدوات توسيع الزمكان فعليًا ومجازيًا . لكن اعتمادنا على التاريخ يأتي في سياق ربط المشاريع الذهنية بالقوالب المادية ، من أجل الخروج من عزلة الكائن الحي إلى فضاء المعنى اللفظي ، واللفظ المعنوي .

وفي هذا السياق ، يجب الانتباه إلى تعدد ماهيات التاريخ (المسار الزمني الأفقي / فلسفة الإنسان في الهروب إلى الأمام / معنوية التكوين الدال على فاعلية الوجود الإنساني / خروج السجين من سجنه / امتلاك أدوات الخيال في تغيير الواقع) . وفي نفس الوقت ، يجب الانتباه إلى تنوع الكيانات التاريخية (المسار الزمني العمودي / الفكر الثوري الذي يُشكّل امتداداً للرُوح الإنسانية / زواج الزمان والمكان / توجيه وحدات الدلالة إلى مراكز الصراع بين طبقات العقل الثقافي / التمرکز العاطفي في صهر الأطوار المعرفية) .

ومن خلال هذا المزج التقاربي بين تشعبات مسار التاريخ كرأسمال رمزي ، نضمن عدم وصول الجوهرية الثقافية إلى إقطاعيات ارتجالية مُتوارثة . والتاريخ _ أثناء عنفوان تحركاته _ لن يظل محصوراً في خندق اللاعب الاحتياطي ، بل سيتحول إلى لاعب أساسي يحترق لكي يُنتج ثقافة جديدة مُعاشة . والتاريخ الذي يحرق الكيانات المتحركة جدياً ، سيحترق لاحقاً نتيجة مغادرته لمجاله الحيوي بُغية صناعة حياة جديدة تحمل على أكتافها الرمز الثقافي ، والأبجدية التنويرية .

ولا يمكن لصناعة الثقافة أن تزدهر إلا من خلال التمرکز في تاريخية المستقبل القادم ، لأن المشروعات الفكرية المتجانسة استثمار في الماوراء . وبالإضافة إلى هذا ، فإن ذهنية التواجد الأخلاقي في عُنف المعنى الأبجدي ، يُحيل الذاكرة الوجدانية إلى شكل لغوي رمزي ، وهذا يُقرب الماوراء من المعرفة الذهنية ، كما يُجسّد المابعدية كإطار ملموس يحتوي على اجتماعيات الدلالة الأنثروبولوجية التي تكشف ذاتية الإنسان بواسطة تكثيف المعنى الفاحص لسوسولوجيا اللغة .

والسؤال الذي يفرض نفسه بقوة : كيف يمكن لمجتمع الثقافة أن يتحرك بسهولة في مساحة ضيقة محدودة بالتاريخ المركزي والتاريخية المتشعبة من جهة ، والعقلانية الأبجدية المتكاثرة من جهة أخرى ؟ .

والجواب لا يمكن حصره في بؤر مركزية محدّدة ، لكننا نقول إن أبعاد الثقافة ليست تاريخاً لفظياً محصوراً ، لأن أنثروبولوجيا الثقافة هي صناعة جديدة للفرد اعتماداً على انزياح الذاكرة الوجدانية نحو ثورة المعنى داخل النسيج اللفظي للشرعية الثقافية .

واجتماعيات الحياة الثقافية قادرة _ بما تملكه من تجانس الأداء التفسيري _ على توسيع الحدود المادية المحيطة بها، وليس هذا فحسب ، بل هي قادرة _ أيضاً _ على تحويل الأنساق المادية إلى متواليات روحية مُقنّنة، من شأنها تفتيت المراكز الوهمية، وتحطيم الأصنام المعنوية ، وتوفير الضوابط المعرفية للخُلم الوجداني ، الذي يضمن عدم تحول المجتمع السلوكي إلى كابوس

ومبادئ عقلنة تجارب الوعي النظامي هي التجسيد الدلالي للحفاظ على قيمة الخُلم كخُلم ، وإغلاق الباب أمام الكوابيس الناتجة بفعل انزياح القيمة الفكرية للإنسان إلى إطار استهلاكي . ونحن إذ نُشدّد على فقه القيمة المعرفية ، لا نُغفل القدرة الوجدانية المابعدية على تفسير اللحظة المنطقية الآنية .

ومن خلال تأطير فلسفة انطلاق المجتمع السجين من سجنه ، وتثبيت منطقية خروج الوعي الجماهيري من المدار المحصور في أضداد النفاق الاجتماعي ، يمكن النظر إلى مشروعية الذات الثقافية كقواعد أخلاقية تراتبية (مرتبة عمودياً) وليس كغريق نسعى إلى توفير طوق النجاة لإنقاذه

والمبدأ الأساسي في تحليل انعكاسات صَهر التغيرات المعرفية ، يجب أن يتعد عن التنظير الجدلي من الأبراج العاجية ، لأن الغريق لا يُقدّر أن يُنقذ غريقاً . وبالتالي فإن التوجهات الرمزية لتحويل المعرفة إلى نظام وجودي ، وتكوين العلاقات العقلانية وفق تجانسية الزواج المؤبد ، وتجدير السلوك الديناميكي لكسر ميكانيكا المشاعر الاصطناعية، كل ذلك سوف يساهم بفاعلية في وضع الإنسان في أقصى مداه تمهيداً لتحرر الكيانات البشرية من مداراتها الاستهلاكية المسيّسة .

والجدير بالذكر أن وظيفة الأبعاد الثقافية لا بد أن تتعد عن لعبة تسييس التاريخ لصالح الإفراز السلطوي . والشكل التاريخي للمعنى الاجتماعي إذا حوّر في زاوية البعد الماورائي للانتهار الأنثروبولوجي ، فلا بد أن يُنتج كائنًا مسخاً اسمه الثقافة .

لذلك ، في أي تكوين سلوكي لغوي لا مفر من الاعتماد على وضوح الصيغة التاريخية على مستوى العلة (التاريخ الباطني المعنوي) والمعلول (التاريخ الخارجي المحسوس) ، من أجل منع تحوّل الثقافة والتاريخ إلى عصفورين يتقاتلان في قفص واحد .

واستناداً إلى البعد التاريخي للإشارات المجتمعية ، فإن البنية التأسيسية للسلوك التنويري الأبجدي سوف تتكرس كإطار رمزي في مجال سوسيولوجيا الثقافة ، أي انتقال الشرعية الفكرية من المخیال الوظيفي إلى الهاجس الداخلي المُقَنَّ .

وحيث تتكرس المبادئ التكوينية في صياغة النتائج المعقولة للخلّم تاريخاً توظيفياً يعقد هدنةً طويلة بين المخیال (الآلة) والمخیال (البنية) . وهذا من شأنه تحويل البعد الإستراتيجي للمعقولة العلاقتية (منطقية الترابط الجزئي والكلي بين الفرد التجانسي والجماعة المتماهية مع الفردية) إلى فلسفة قائمة بذاتها تُوظف القدرة الشعورية للمخیال كآلة تفريخ للوعي الجماهيري أفقياً وعمودياً .

وتوظيفُ العوامل الاستباقية من أجل تحديد معالم السلوك على رقعة الواقع ، وتجديد رموز الماقبل لشُرْعنة المابعد ، لن يكون عملاً سهلاً تجريبياً ، لأن الاستباقية متماهية بشكل كبير مع النسيج التفاعلي السلوكي . وصناعة المخیال متأثرة _ إلى حد بعيد _ بالانعكاسات الواقعية ، وهذا يدل على استحالة القطيعة بين الأبجدية الخيالية واللغة الواقعية ، خصوصاً في متواليات إنشاء التيارات الثقافية الحاملة لعبء انتشار المجتمعات الخيالية العائشة في داخل الكيان البشري ، وتلك العائشة في قلب التيارات الشعورية الفردية .

وعلى الفرد _ إذا أراد التمرکز في قلب الوعي _ أن يخترع آليةً لإحداث ترابط بين المجتمع الباطني الساكن في الإنسان ، وبين الإنسان الساكن في المجتمع ، وذلك لضمان إحداث توازن معقول بين إحداثيات الصناعة الثقافية روحاً ومادة . وأيضاً من أجل المحافظة على قيم الضغط الداخلي والخارجي ، فلا تُمخى المشاعر الفردية في ماهية الخطاب الجماعي ، ولا يصير المجتمع بقرّة حلوباً يُستفاد منها ثم يتم نبذها .

وهذا التوازن العلاقتي يفتح كل الأبواب المغلقة بين الفرد والجماعة ، لأن التعامل يصبح على أساس المعرفية الوثائقية بمستقبل مشترك أفضل ضمن عوالم الخُلّم ، التي تؤسس مجتمعَ العدالة الاجتماعية لا مجتمع الشُّقة المفروشة التي يقضي فيها الفردُ بعض الوقت ، ثم يتركها إلى غير رجعة .

لذلك على الكيانات المعرفية التنويرية أن تقود ثورةً في مجتمع الثقافة ، لا ثورةً على مجتمع الثقافة . خاصةً أن ماهيات اشتقاق التاريخ الثقافي لا يمكن أن تتكسر إلا في بيئة معرفية ثورية ترفض أن توضع العربية أمام الحصان . بمعنى رفض وضع المسلّمات الافتراضية أمام الوعي الإنساني العلمي ، ثم إرغام الجماهير الثقافية على اعتناقها بقوة الاستمرارية ، والتأسيس الوهمي ، والتسييس الرمزي لتحولات اقتصاديات المعرفة .

والهوية العلمية لأنثروبولوجيا الثقافة لا تكتمل إلا من خلال استنتاج المسلّمات بدون ضغط العوامل الخارجية ، سواءً كانت عوامل متعلقة بأسئلة البنى التحتية لشرعية اكتمال الهوية الخيالية لتطبيقات اللغة الشعورية، أو عوامل توليد أجنة التاريخ بما يتناسب مع الوجهة السياسية للإفرازات القمعية في المجتمعات المتأكلة المعتمدة على لعبة الإرهاب المتبادل بين الفرد والجماعة .

والجدير بالذكر أن هوية اكتمال المشروع العقلائية لتوظيف الدلالات الفكرية ، لا تتحدد أبعادها إلا من خلال الوصول الطبيعي السلس إلى التنظير التنويري لاحتضان المسلّمة (المرحلة المتقدمة المكرّسة) . وكلُّ مُسلّمة هي فرضية ، والفرضية لا تُصبح نظريةً إلا إذا تمّ التحقق منها .

ولا فائدة من اشتقاق الافتراضات الجدلية من الوعي التاريخي المعرفي ، إذا أردنا تشريح تكوينات هوية المشروع المعرفية العلمية ، لأن الوعي التاريخي هو نتيجة متقدمة هرمية الطابع ، لم تظهر على السطح إلا بالاعتماد على القواعد التحتية، والتحولات الأفقية الرافعة للدلالة الثقافية . ودراسة تفرعات الأغصان عن طريق القفز على فلسفة الجذور ، تُعتبر قاتلةً للمحسوس العقلي والماوراء العاطفي ، فهي أشبه بعملية إحصاء الفَرَاح قبل أن يفقس البَيْض .

لذلك من الخطأ دراسة الوعي التاريخي باعتباره حكماً على جوهرية السياق الثقافي الإنساني ، وحاكماً على تحولات تجانسية الفردية في صعودها الجماعي، لأن الوعي التاريخي المجرد لا يُثبت شيئاً ، بل هو بحاجة إلى إثبات عبر تقديم القرائن الفاعلة المرتبطة بالمنهج الواعي الحامل للبذور والثمار معاً . والمنهج الفكري الذي يُفرضي إلى منهج فكري مثل الطريق الذي يُفرضي إلى طريق . لذلك كانت الثقافة الناتجة عن انكسار الدلالة المنهجية ، وغياب ميكانيكا تطبيقات التاريخ المعنوي، هي تفسيراً للماء _ بعد الجهد _ بالماء . والإشكاليات الخطيرة في سياقات التخلف الفلسفي المتجذر في أوصال العقل التكويني للطبقات المعرفية ، هي انسحابية الانهيار ، وشمولية الانكسار ، وموت الوعي ، ورسوخ الوعي المضاد .

والمجتمعات الهشة المبنية على مساحات فقاعة الصابون هي تكتلات اجتماعية وهمية ، ومتوالية انكسارات شرسة ، تؤسس اجتماعيات كيان الدومينو . أي تحول الطبقات الفكرية إلى روابط معتمدة على منطق الاستمرارية لا استمرارية المنطق . وحينما تنكسر صيغة مجتمعية سوف تتساقط باقي الصيغ التركيبية المؤسسة لفلسفة البناء الاجتماعي ، تماماً كحجارة الدومينو .

لذلك فإن المجتمعات الخالية من الوعي الثقافي ، هي تكتلات حَجَرِيَّة مبنية فوق بعضها البعض بشكل عبثي وفوضوي ، ولا يمكن أن تصمد في وجه الذاكرة التاريخية للوعي التجانسي ، إذ إن مجتمع الدومينو مُشَيَّد وفق فرضيات التوالي لا التوازي⁽³⁴⁾ . وهذه الحالة بحد ذاتها نقطة ضعف تضرب القلب النابض للدلالة الاجتماعية . والحل الجذري لاستحضار حالة الوعي التجانسي العمومي هو تشييد المجتمع الثقافي على الوعي المخيالي والتطبيق التحليلي الواقعي ، بحيث يستمر السلوك العقلاني للرموز الفكرية في إنجاز الوظائف المنوطة به ، وتوظيف المنظومات الواعية في اجتماعيات الإشارة الأنثروبولوجية حتى لو حصل خلل ما في إحدى منعطفات الحراك الاجتماعي . فمن غير المعقول أن يتوقف المجتمع عن توظيف السياق الثقافي في السلوك التنويري السيكلوجي لأن مشكلة ما ظهرت هنا أو هناك .

والحصول على مستويات الأداء السلوكي التنويري ضمن البنية التحتية والبنية الفوقية ، والوصول إلى مجتمع متحرك بكفاءة قادرة على ابتكار طرق التعامل مع الأزمات ، وتعميق سياسة النقد الذاتي للسياق اللغوي الحامل لمستويات الشعور المجتمعي ، ونشر فلسفة العمل بروح الفريق المحمول على أكتاف الطاقات الفردية المبدعة . كل ذلك يتطلب توطيد العقل النقدي في

(٣٤) هذان المصطلحان (التوالي / التوازي) منتشران بصورة كبيرة في الدوائر الكهربائية . لكننا نريد الاستفادة من فلسفة عملهما في التقاطعات الاجتماعية الثقافية . فالتوالي نظام تركيبي شديد المركزية ، بحيث إن أي خطأ جزئي يؤثر سلباً على المنظومة الجماعية ويعيق عملها ، أمّا التوازي فنظام لا مركزي ، تكون فيه السيادة موزعة على الجميع النشطة . ولو حصل خلل جزئي ، فإنه سيؤثر على نفسه فقط ، ولن ينسحب تأثيره إلى باقي الجميع الكلية أو العناصر الجزئية .

تقاطعات التعليل الوظيفي⁽³⁵⁾ ، والابتعاد عن تدجين العقل البشري ، وحصره في قوالب النفاق الاجتماعي .

وتمركز الطاقة الاجتماعية في أقصى مداها الثقافي ، من شأنه استثمار الكيانات العقلانية في مسارات الوعي والوعي المقابل، وهذا يُعطي الفرصة لمجتمع الثقافة أن يتماسك في وجه عواصف التغريب والحلول المستوردة والخدع البصرية المصبوغة بهالة التقدم والحضارة والانفتاح . وكل أرض لا تُنبِت مجدداً لأبنائها ، ستجعلهم أذلاء مهما ضربوا في الأرض بحثاً عن المجد . ومن يفقد احترامه لنفسه لا ينفعه احترام الآخرين له ، وكل ضوء لم يخرج من أضلاع الذات سيظل شكلاً مُخادعاً للظلام .

ومبدأ الانفتاح قبل أن يتكسر مع إفرازات الحلم المقابل ، ينبغي أن يتمركز في أنساق الداخل الذاتي، فعلى الإنسان أن يتحاور مع نفسه قبل التحاور مع الآخرين ، وينفتح على مساحاته الداخلية الجوانية قبل انفتاحه على الآخر . ومن غير المعقول أن تعرف جغرافيا الأرض المقابلة لك بالتفصيل ، وتجهل طبيعة الأرض التي تقف عليها . وهذه المسألة غاية في الأهمية ، لأنها تعتمد على معقولية الأداء الذاتي ، والتفتيش عن الشمس الداخلية بدلاً من استيراد الشمس الوهمية المعلبة .

إن اكتشاف الصياغات الأخلاقية للتوظيف المعرفي في الجسد الثقافي ، يتم عبر التنقيب في ذاتية المجتمع ، والغوص في أنوية الكيانات المعرفية الفردية ، وصولاً إلى تأريخ تشريحي لطبيعة سوسولوجيا المنظومة الكلية ، التي تتفاعل في الإنسان بشكل لا إرادي وفق نظرية التأثير والتأثير . ولا يمكن فصل التقاطعات المركزية عن ثقافة الأطراف المنبوضة ، كما لا يمكن فصل القلب في الجسد البشري عن السيلالات العصبية في الأصابع . أي إن المركز _ مهما كان مهماً وقادراً على اتخاذ القرارات الحاسمة في توجيه مسار الأحداث الداخلية والخارجية _ لا يمكنه أن يستغني عن امتداداته الطرفية التي قد يُنظر إليها على أنها بلا أهمية ، أو تحصيل حاصل .

(٣٥) هو التفسير المنطقي الذي يستنتج النظريات بعد فحص الفرضيات ، ولا يضع الفرضيات كمُسَلَّمات بدائية ويُقدِّم النظريات المعلَّبة مسبقاً ، والناجئة عن القفز فوق مستويات اختبار الألفاظ والمعاني .

ومن خلال رؤية التوازنات بين المركزية والأطراف ، تتحدد طبيعة التفسير النقدي لمبادئ السياق الوظيفي للعناصر الثقافية . وبالإضافة إلى هذا ، فإن التجانس المنهجي المتحرك باتجاه اجتماعيات الشرعية الثقافية ، لا يتوقف عند طبيعة ميكانيكية معتمدة على حراك اجتماعي آلي ، كما أن الصفة المميزة لقدرة المتحوّلات الفكرية على تغيير الشخصية النفسية للكيانات المجتمعية ، هي التجاوزُ الذهني ، وعدمُ الاستسلام للحصار الميكانيكي المحكوم بالقوانين المادية المغرقة في مُناهضة المخيال الوظيفي الحتمي . ومهما يكن من أمر ، فإن العقل الثقافي في المجتمع الإنساني سيظل يُنقّب عن آثار الحُلم في مناجم الوعي المندثر .

إن التشريح اللغوي لإرهاصات ولادة الجنين الثقافي ، ينطلق من حتمية البناء التاريخي على تقاطعات المتناقضات ، فلا يمكن للنسيج الاجتماعي أن يتكون من الأبيض أو الأسود ، فلا بد من مزيج من الألوان ضمن نسب مُتوازنة، من أجل تحقيق مبدأ احتواء النسيج الاجتماعي في إطار الاستعداد العقلاني لتجذير الثقافة تاريخاً حتمياً جديداً لمجتمع متعدد الولادات .

وعن طريق انتقال صياغة المفاهيم من العقل التاريخي إلى الذهنية المنطقية لتطبيقات المخيال الثقافي ، يمكن تنقية الجماعة البشرية تدريجياً من العناصر السوداء دون إحداث خلل في بنية الحراك الشعوري المستند إلى مركزية تحركات الرمز الحياتي المتشعب إلى جواهر وأعراض ، وظواهر منطقية ، وأخرى فوضوية .

والتدرجُ التجانسي _ إذا حدث وفق تسلسل ظواهر توليد الكيانات البشرية _ فإن الفوضى ستغدو شكلاً منطقياً في عالم خصوصي ذي طبيعة مختلفة عن طبيعة الحياة المعاشة . إذ إن الفوضى نتاج منطقي لحالة تفتقد إلى المنطق، وظهورُ الفوضى تاريخٌ طبيعي في ظل تفتت العناصر الإنسانية، وتحول الوعي الرمزي إلى أبجديات مُتناحرة .

وأبجديةُ الفوضى الناتجة عن أبجدية المجتمع ، قد تكوّنان لغةً واحدة ذات عدة مستويات ، في حال انتقال الأحاسيس الثقافية إلى دائرة الاستهلاك المسعور . وعندئذٍ ، تصير اللغة الفكرية المعبرة عن أخلاقيات التجسيد المجتمعي شكلاً فوضوياً آلياً .

وعلى الرغم من هذه المركزية الحرجة في التعامل مع انعطافات إنتاج الدلالة التفسيرية للأنا والآخر في الداخل السوسيولوجي ، إلا أنه يمكن إعادة تركيب القطع المفككة في المجتمع الرمزي بناءً على حدود الظواهر اللغوية التنويرية ، ثم اعتبار المجتمع الواقعي بكل تناقضاته

المنهجية وأصداده الفلسفية لغةً مؤقتة في أطوار حركة انتقالية تسبق تثبيت الإنسان كوعي منهجي حامل، وترسيخ الثقافة كلغة اجتماعية محمولة .

وتظل مساحات الفوضى ضيقة للغاية ومسيطر عليها ، ولا تُستخدم إلا في حدود محصورة زمنياً ومكانياً . والأمر الذي قد يثير الاستغراب هو إمكانية استعمال الفوضى المجتمعية لإكمال تنظيم بعض الكيانات الروحية والمادية . وبعبارة أخرى، إن عملية تقنين الفوضى وإعطائها مساحة للعمل ضمن حرية مُراقبة، يمكن أن تؤدي إلى تعزيز أنظمة الشعور الوجداني في صياغة الجوانب المستترة ، أو البعيدة عن نفوذ المساقات العقلانية المختصة بالمراكز الفكرية الأساسية .

وإذا انتقلنا إلى السمات العنصرية لتاريخ سياسة الثقافة، لا بد أن نمر على المعادلات الوظيفية لفلسفة تجزئة التاريخية الذهنية إلى أشكال محسوسة . والمنظومة الشاملة التي تعطي تعريفاً دقيقاً للمعادلات الوظيفية تتركز حول أربعة مفاهيم مُتشعبة : الإحساس المكاني بالتاريخ الثقافي . والدلالة المنطقية لاتجاهات سياسة العقل . والتجانس الطبيعي في توظيف الخيال لصالح الواقع . والطبقة اللغوية التي تعيد تشكيل المجتمع على شكل لغة .

وهذه المفاهيم المركزية تشكّل فيما بينها إطاراً عمومياً لمعنى " المعادلات الوظيفية " . ولا يمكن دراسة هذه المعادلات كمصطلحات وظيفية مستقلة عن المسار التنويري، أو منفصلة عن السياقات الطبيعية للوعي الثقافي العاقل، لأن مجتمع سياسة الثقافة يتكون من عملية تقاطع الماهيات الفكرية وفق المستوى الإرادي القصدي (عن سبق الإصرار والترصد) ، وفي ذات الوقت حسب المستوى التلقائي الارتجالي الناتج من التحركات الطبيعية غير المسيطر عليها .

وعلى الرغم من شدة الروابط بين الماهيات الأربع ، بحيث يصبح الفصل بينها نوعاً من تغيير الذات المعنوية ، وإحالتها إلى معنوية جديدة بعيدة عن الخط العام للثقافة العاقلة ، إلا أنه يمكن إعطاء لمحة موجزة عن كل مفهوم لوحدَه _ بشكل نظري تجريدي _ . ونحن بذلك كمن يدرس

الأكسجين والهيدروجين ، كلاً على حدة ، مع أن اندماجهما يُكوّن الماء .

أولاً : الإحساس المكاني بالتاريخ الثقافي . وهو تيار الوعي الجواني الذي يوفر للزمن غطاءً مكانياً من أجل صناعة مستوى أفقي وعمودي قابل للحياة ، وجاهز لاستقبال حيوات الأنظمة الاجتماعية بكل تناقضاتها ، تمهيداً للوصول إلى أرضية مشتركة قادرة على حمل نقاط التقاطع بين الأضداد ، لأن عملية إثبات المعنى ونفي ضده قد تصطدم بعدم استعداد المجتمع لتقبل التغيرات الجذرية اعتقاداً منه بأنها تشكل خطراً على مصالحه الفردية والكلية ، وكل تهديد للكيان الإنساني

— واقعي أو غير واقعي — سيتم رفضه ومقاومته ، لأن الناس أعداء ما يجهلون .

ثانياً : الدلالة المنطقية لاتجاهات سياسة العقل . وهي الأبجدية الشعورية التي تعمل على نمذجة صورة العقل اتجاهاً منطقيًا في دلالة الأبعاد المجتمعية . أي إن الدلالة المنطقية تكتسب شرعيةً منطقيًا من استعداد العقل السياسي لقيادة المجاميع الثقافية المتضادة في مجتمع الاختلاف نحو سياسة عقلية موحدة ، وهذا يستلزم عدم وضع المسلّمات الافتراضية المعلّبة أمام آلية اختبار الفرضيات لترسيخ سياسة الأمر الواقع . والإشكالية الصادمة في طبيعة تكوينات تاريخ الحلم المجتمعي المعاش ، هي اختراع نظريات جاهزة قبل مرورها على آليات اختبار الفرضيات ، فتغدو الأسس الحاملة للبناء الفلسفي الفكري ظاهريّة، وعاجرةً عن إعطاء الشرعية للعناصر فضلاً عن إعطاء الشرعية لنفسها . وبالتالي تبرز سياسة اتجاهات العقل كمنهجية معرفية تعتمد الموازنة بين صهر المراحل ومبدأ فلسفة التجاوز الوظيفي ، مع مراعاة عدم استباق الأحداث ، وقطف الثمار قبل نضوجها .

ثالثاً : التجانس الطبيعي في توظيف الخيال لصالح الواقع . وهذه النقطة الجوهرية ترمي إلى تكثيف الوجود التثويري في النسيج الإنساني العابر لإشكاليات الوهم لثلاث تصير الوسيلة هدفاً ، أو تقدم الوسيلة على الهدف ، بحيث تظهر النتائج قبل الأسباب . فهذه الولادة غير الشرعية التي تعني ولادة الجنين الثقافي المجتمعي قبل حصول زواج بين ماهيات الحراك العقلاني للسياق الأنثروبولوجي وبين الوعي الجماهيري الضامن لاستمرارية الأطر السياسية الثقافية ، هي ليست بأكثر من ولادة ممسوخة فاقدة للمعنى ، لأن التجانس الطبيعي في الكيانات الروحية والأطر المادية لا يعني شيئاً إذا بقي محصوراً في الخيال . وشرعيةً التجانس لا بُدَّ أن تتأسس في بيئة الخيال الوظيفي (المرحلة المؤقتة) ثم تنتقل إلى تطبيقات عملية (مرحلة الديمومة) .

رابعاً : الطبقة اللغوية التي تعيد تشكيل المجتمع على شكل لغة . وهذه المرحلة الحساسة تُعتبر من أساسات العمل التثويري المضاد للشكلية متعددة الظواهر (التمرکز على السطح دون اكتشاف العمق) . واعتبار المجتمع لغةً حيّة ، والتعامل مع تقاطعات أبجدياتها حسب المنظور التشريحي ، وتوزيع امتداد المساحات الشعورية على العقل اللغوي الحاسم ، كل ذلك من شأنه اكتشاف الجوانب الإنسانية في المتواليات الاجتماعية المتوحشة ، بُغية أنسنة السوالب السلوكية، وجعل المجتمع البشري أقل توحشاً ، وجعل الإنسان أقل استغلالاً لأخيه الإنسان .

ومن غير المعقول أن ندرس المجتمع الإنساني كلغة قائمة بذاتها ، ثم ننسى المستويات العاطفية المحمولة على امتدادات الأبجدية الاجتماعية . فالقوة الرمزية لاجتماعيات اللغة الثقافية لا تنحصر في وسائل الخطاب ، وصناعة الفعل الكلامي التّحتي والفّوقي ، والتفريق بين متواليات الحدث اللغوي . ومع أن هذه العناصر شديدة الأهمية ، إلا أنه يجب التذكير بأن القوة الرمزية تشمل _ بالإضافة إلى ما سبق _ قوة العاطفة الوجدانية المنشورة على شكل سيالات عصبية في أبجدية التعامل الثقافي بين الأنا والآخر . واللغة هي جهاز عصبي متكامل لا بد من توظيفه لإيصال الرسائل الثقافية المصيرية إلى جزئيات الكيانات البشرية ، من أجل توليد سياسة الثقافة كفعل أساسي لا رد فعل .

وهكذا ، فالتطبيق اللغوي ستنقل من صياغة المجتمع لغوياً إلى صياغة الإنسانية فكراً . الأمر الذي يجعل لغة التخاطب بين مستويات الشعور الوجداني قوة عقلية محكومة بالأبعاد الإنسانية الخالية من التوحش اللفظي ، والشذوذ المعنوي ، والانحراف الأخلاقي ، والانتهازية الاستهلاكية . ولا نبالغ إذا قلنا إن حقيقة تحولات المشاعر الثقافية هي حراك جغرافي روحي على خرائط اللغة الفكرية الرمزية بين تقاطعات علم اجتماع الثقافة . وذلك عائد إلى كون التيار الثقافي مركزاً إشعاعياً للفكر التنويري ، ودائماً يكون الفعل المركزي بؤرة استقطاب لباقي العناصر المكوّنة للنسيج الاصطلاحي في تصورات العقل المشاعري .

ومن خلال التنظيم التفسيري لكل المعايير المتحركة في قوالب الحراك الاجتماعي ، وأطر المعرفة الثقافية التصورية ، يتولد نظام معياري متشعب قادر على تحليل الماهيات العقلية بواسطة اقتصاديات الشعور الثقافي المحال إلى شعور جماعي متجانس على أرض الواقع .

وليس القصْدُ الشعوري مرحلة رومانسية خيالية تسبح في الأذهان البدائية ، ثم تنطفئ مع اكتمال النضج العقلاني ، بل هو _ أي القصد الشعوري _ النواة الأساسية في بنية السلوكيات الرمزية في أقصى مناطق الوعي المستتر (اللاوعي التداخلي) . وإذا أردنا تمييز مناطق الوعي الخفي أو اللاوعي المتداخل مع صيغ الأفعال المجتمعية ، لا بد لنا أن ندرس السلوك الإنساني من زاوية الخلفية الرمزية ، لا منظومة ميكانيكا الفعل ورد الفعل المعزولة عن المساحات العاطفية المحركة لأشكال ثقافة الفعل الاجتماعي . مع العلم أن الأفعال الاجتماعية كجزئيات ثقافية ، لا يمكن عزلها عن الطبيعة الميكانيكية للجوانب اللغوية ، مما يدل بكل وضوح على أن اللغة تحمل

صفة آلية ضمن مسار مُحدّد . وهذا المسار يظهر ويختفي حسب العاطفة العملية المنعكسة عن ثقافة الثقافة⁽³⁶⁾ .

ولا نبالغ إذا قلنا إن أبجدية العاطفة تساهم بدور بالغ الأهمية في تشكيل محاور الكيانات البشرية المتشعبة . ولا يمكن حصر العاطفة في إشكاليات المراقبة الإنسانية العابرة في سطحياتها ، بل ينبغي فهم العاطفة ضمن دورها المركزي في علاج المراقبة السياسية ، وإيجاد حلول عملية للمأزق الثقافي في مجتمع التحولات الاستهلاكية الصادم . والحلول ينبغي أن تراعي طبيعة التحولات الفردية ، وتركز على علاقة التجانس البشري الشخصي بالوعي المجتمعي الكلي ، وذلك من أجل تفادي الصدام أو التصادم .

*

٦

ملامح تاريخ المعقولات الثقافية

(٣٦) هذا المصطلح انبثق من استقلالية المنظور الفكري ، ليحمل شخصية اعتبارية مختلفة عن سياسة الثقافة ، لأن الثقافة يمكن فهم إفرازاتها وفق طريقين :

أ (سياسة الثقافة) اتخاذ المجال الثقافي منهجية ذات خطط واقعية تمس حياة الناس ، وتؤثر فيهم ، وتسوسهم خيالاً وحياتياً ، وتهذب أخلاقهم) .

ب (ثقافة الثقافة) التركيز على الجانب الفلسفي الثقافي التجريدي خالياً من كل الإفرازات السياسية ، والإسقاطات المجتمعية ، والتطبيقات الشعورية الرمزية ، من أجل دراسة القوة الذاتية المجردة للثقافة ، بدون أي إسناد خارجي) .

إن العاطفة في مفهومها التاريخي تحال إلى ثقافة قَصْدية عن سبق الإصرار والترصد . والثقافة القصدية هي المنهجية المجتمعية المستندة إلى تخطيط مسبق ضمن مسار واضح يفضي إلى هدف محدد خيالياً أو واقعياً .

لذلك فنحن ندرس أبعاد العاطفية الوجدانية ، لا نغرق في الرومانسية الكلاسيكية الهلامية أو نحلق في عوالم الوهم هروباً من الواقع المعاش ، بل إننا بذلك نغوص في صميم النسيج الواقعي بكل إجراءاته الميكانيكية الموحشة .

والمستوى العقلاني للوعي الثقافي يفتش في قلب الأطوار المجتمعية الآلية عن رموز وجدانية شاعرية يمكن توظيفها لأنسنة التحولات الفكرية في الجماعة البشرية . ومن غير المقبول أن تظل السياقات الإنسانية عبارة عن آلات مادية جوفاء تتصرف تبعاً للمصلحة الخارجة عن ماهيات المعقول . فلا بد لأنثروبولوجيا الثقافة أن تميز بين الإنسان والآلة إذا أرادت اكتساب شرعية معناها ، والحصول على مشروعية تأسيس علم إنسانيات الثقافة (صناعة إنسان الثقافة) . وهذا التمييز المنشود بين الإنسان والآلة يرمي - بالأساس - إلى وضع المتمركزات الفلسفية في حيز الوعي التطبيقي ، فلا فائدة من ثقافة الثقافة إذا بقيت فرضيات تجريدية محبوسة في الكتب ، فيجب أن تخرج إلى مساحات الفعل الاجتماعي لكي يغدو المعقول الإنساني امتداداً للعقل الثوري الجزئي والكلي .

ومن خلال أفعال المعقولات الثقافية⁽³⁷⁾ سوف يتكسر العقل الاجتماعي كفعل إبداعي لا كردة فعل آلية آتية. وهذا سوف ينقي المجتمعات المعرفية من ثنائية (الآلية المطلقة / الآنية المغرقة) التي هي من أقسى العقبات في طريق صناعة الفعل الثقافي ، لأنها ثنائية تمتاز بسرعة تحولاتها السالبة التي تقضم أنساق اجتماعيات الدماغ الثقافي للمنظومة المجتمعية الشاملة . فهي مثل الفيروس الذي يتخذ عدة أشكال للتغلب على المضادات الحيوية ، والتأقلم مع وجودها . وهذا التحدي الحرج يدفع باتجاه تفتيت الأنوية المنطقية في النسيج اليقيني، مما يجعل المجتمع بأسره حالة من الشك والشك المضاد ، وعندئذ تؤول الحياة الفكرية إلى جحيم متمركز على خارطة اللغويات الثقافية ، فلا يقدر الفرد أن يفهم المجتمع، ولا يقدر المجتمع أن يفهم الفرد .

(37) هي الأفعال المبنية على تزويج الأنطقة العقلية القابلة للتطبيق في بيئة المعنى بالتشكيل الثقافي الذي يغطي مساحات فكر المنظومة التجانسية للجماعات البشرية المتحدة على هدف واحد .

فتنتج حالة الاغتراب الداخلي ، حيث تنخبط المسارات الفردية في غربة المجموع البشري، ويذوب المجموع في عزلة الفرد، وهكذا يتأسس اللاتجانس كمرحلة وجودية حساسة تقضي على تمركز إنسانيات الثقافة في المعقول الإنساني الكلي .

ولو أردنا تشريح ثنائية (الآلية المطلقة/ الآنية المغرقة) التي تفترس أدمغة الاجتماعيات الثقافية، لقلنا إن الآلية المطلقة هي تحويل كافة الأنساق الإنسانية المعنوية إلى إجراءات ميكانيكية آلية بحتة ، بحيث يصبح الإنسان كتلةً حجرية مؤسّسة على الوهم المادي ، وتعتمد في ترابط جزيئاتها المتصلبة على مسامير حديدية، وهذا الكيان المسخ يتم تقديمه على أنه الفرد المعاصر والعصري والحداثي والمتطور ... إلخ .

وبالطبع فإن الشرعية الوهمية المساندة للكيان المسخ الذي سبق وصفه ، هي امتداد الاستهلاكية في الشبكة التفاعلية السيكلوجية تحتياً وفوقياً ، بحيث تتم عملية تفريغ وإحلال بشكل متزامن ، تفريغ الكيان الإنساني الأصلي من عناصره الحيوية الأساسية ، وإحلال القيم المادية الصّئمية مكان معقولية الوعي المشاعري ، فيصير الإنسان صنماً يعمل بالأزرار الإلكترونية عبر جهاز التوجيه عن بعد ، يقول كما يُقال ، وينفذ الأوامر بلا نقاش أو مساءلة أو تمحيص أو نقد أو نقض . وهذا الإنسان الشّبحي هو النوع المفضل عند الأنظمة الاستبدادية، لأنه لا يُشكّل أية حالة وعي، وبالتالي لن يشذ عن القطيع المحاصر بالأوهام التطبيقية في المجتمعات المسحوقة

أما الآنية المغرقة ، فتعني التماهي مع اللحظة المعاشة دون النظر إلى عبر الماضي التجريبي أو توهج المستقبل الحالم . وهذا الإغراق في الآنية المحصورة في الزوايا الذهنية الضيقة تأخذ مسارين : قسري وإرادي .

فالآنية القسرية نابعة من عجز الفرد عن استعادة أمجاد الماضي ، وفشله في مواكبة الحاضر، وإخفاقه في رسم سياسات المستقبل بكل ثقة وثبات، وهذا يجعله يتوقف في مكانه غير عالم بالطريق الواجب اختياره ، وكما قيل : لا يذهب بعيداً من لا يعرف إلى أين هو ذاهب .

أما الآنية الإرادية فتأتي نتيجة فقدان الرغبة الداخلية والإرادة الجوانية في إحداث تغيير بسبب حجم المتطلبات الشاقة لفعل ذلك ، فيختار الفرد أقصر طريق من وجهة نظره ، وهي تقليد السابقين ، وترديد أقوال الآخرين ، والبناء على القواعد المسبقة الجاهزة دون التفكير في مدى صلاحية تلك القواعد . وكل هذا مرجعه إلى اعتناق الروتين الوظيفي منهجاً لا يتطلب كثير جهد،

ولا يُتعب العقل في التفكير . وهذه حُجَّة العاجز على الدوام الذي يؤثر الكسل والجبن على الإبداع والتجريب والتثوير والمغامرة المحسوبة . وكما قال المتنبي :

يَرى الجبناء أن الجُبْنَ حَزْمٌ وتلك خديعةُ الطبع اللئيم

ومن أجل كسر الروتين الوظيفي المتغلغل في إشكاليات المسار الثقافي ، لا بد من توليد مسارات ثقافية مُوازية للحُلم الذهني بُغية السيطرة على خطوط نقل الأفكار إلى البيئة التطبيقية . ومن أجل هذا المفهوم السيادي، تولد سياداتٌ جديدة تشكّل في مجموعها التجانسي الأرضية المشتركة المحتوية على بذور المشروع البيئية المعرفية⁽³⁸⁾ .

وكلما تكاثفت السيادات البُورية ، اتجه المعنى الإنساني نحو تأسيس بيئة ملائمة لاستقبال الجنبين الذهني . وأهمية هذا الفعل تنبع من تحول البيئات الفكرية إلى أجنة لديها القابلية للنمو

(٣٨) هي الحاضنة الفعالة للأنظمة العقلانية المتشعبة إلى بيئات متباينة، أي التشييد الواعي على مستوى البيئة تحتياً وفوقياً ، مفهوماً (باطنياً) ومنطوقاً (ظاهراً) ، عمومياً وخاصاً ، واضحاً ورمزياً . وهذه التقابلات الإشارتية تتكفل بصناعة النظام البيئي (البيئة المركبة) لتنظيم عملية تحميل المعاني الثقافية بالأبعاد الاجتماعية ضمن عملية تفصيل المدلول الاجتماعي على حجم المعنى . والثقافة كمشروع نهضوي لا يمكنها لوحدتها تحمل مسؤولية تخلف المجتمعات الإنسانية، وانكسار الكيانات المعرفية المنتشرة في النسيج الشبكي للخيال السيكلوجي الوظيفي . فالجزء الذهني التوعوي الذي يخترع التطبيقات الملائمة للحالة المجتمعية لترسيخ الوعي الشمولي بالقضايا المصيرية وتفرعاتها ، هو نواة أحادية تتحرك في سياق منظومة جمعية ، ولا يمكن أن يتم التعامل مع الجزء كمنظومة كلية ، ولا يمكن تحميل الجزء الثقافي المنبوذ في إشكاليات الولادات المجتمعية مسؤولية انسحاب الكيانات البشرية إلى الظل ، وضمحلل المشروع الرائي المتطلع إلى المستقبل ، وفقدان بوصلة خريطة المعنى في التجمعات البشرية المتخبطة العاجزة عن صناعة حراك اجتماعي حقيقي ، والفاقد لمؤهلات صناعة اقتصاد فاعل ، لأن العناصر المنبودة لم تملك الفرصة لتوجيه مسار الأنسجة الاجتماعية ، بسبب تحييد القيمة الثقافية العقلانية، وإحلال المنهج الاستهلاكي التقليدي، حيث الكائنات الحية تغدو كيانات ممسوخة ، ويصبح الفرد شبحاً لبقايا إنسان ، والمجتمع تكتلاً وهمياً ذهنياً لا يملك وجوداً حقيقياً على أرض الواقع .

العقلاني ، وتأسيس العقل الحياتي المعاش حسب التوجه المجتمعي نحو ذهنية الاشتغال الرمزي المتناثر في أوصال الأبجدية النفسية الحاكمة على السلوك البشري . ونحن نشدد على أهمية المسار السلوكي بُغية تنسيق الإمكانيات المستقبلية الرامية إلى صناعة مستقبل يحمل في بطنه أجنة الماضي والحاضر، مما يتيح للحركة الثقافية المستقبلية إعادة إنتاج الماضي بشكل اختزالي تكيفي مُصقّى ، وإعادة تشكيل ولادة الحاضر الآني في أزمنة صهر المراحل، وأمكنة اختراع وعي الأطوار الزمنية ، وهذا يتيح للعقل السيكلوجي التنقل عبر الماضي والحاضر والمستقبل ذهنياً ضمن مسار معقولة الوعي التخيّلي لا هلامية الوعي المغشوش . وفكرة التنقل عبر المراحل الزمنية تحمل في طياتها تكريساً تفاعلياً لأمكنة جديدة تولد من رحم الحراك العلمي فيزيائياً وكيميائياً⁽³⁹⁾ . ولأن العلم هو الذات الاعتبارية الحاملة لمشروع النهضة ، والمانحة لشرعية زواج الأنساق الثقافية ، سوف تحال التكوينات الإنسانية إلى أزمنة ثورية تنقلب على المكان ، لذلك يمكن تعريف الفعل الثقافي في أحد جوانبه الحركية (القوة الضاربة) بأنه انقلاب الزمان على المكان ، وتحول الزمان من وعي ظاهري سطحي إلى تأسيس معنوي عقلاني ، وانتقال المكان من ماهية اللحظة الجغرافية الراهنة المحصورة بين الأضداد الحدودية إلى الأفق العقلي البيئي الذي يضم الخيال والواقع في منظومة كاسرة للحدود. وكما أن الفعل المعرفي هو اتجاه تجاوزي عابر للحدود ، صاهر للمراحل ، فإن القيمة التفاعلية لبناء النظم الثقافية على جذور المعرفة الإنسانية ، هي الأخرى تيار قافر على محدودية الفراغ العاطفي المتشعب . وهذا الفراغ العاطفي الذي يقضم أسس المؤسسة المخيالية الواقعية ، لم يأت نتيجة قصة حب فاشلة بين شخصين، أو مشروع رومانسي غير مكتمل ، بل هو نتيجة انحسار المد العقلاني ، وانزياح القيمة الاجتماعية للتجانس التفسيري نحو الزوايا الضيقة المنبوذة اجتماعياً ، وسقوط مشروعية الحلم الكلي والجزئي في خندق اللاجدوى . وبالتالي تتأسس إشكاليات الفكر التربوي على بقايا الإنسان المتفشية في بقايا المجتمعات المنتحرة . ولا تُفهم محدودية الفراغ العاطفي على أنها دائرة تحاصر تداعيات احتضار

(٣٩) الفيزياء الاجتماعية (الحراك الظاهري الأفقي) : هي الظواهر الحركية البادية على وجه المجتمع، والتي تعكس حياته أو موته ، من خلال حساب التسارع الفكري في عملية تحليل الأبجديات الحياتية ، وتشريح اللغة المشاعرية في نخاع المعقولة الثقافية. أمّا الكيمياء الاجتماعية (الحراك الباطني العمودي) : فهي التحركات الباطنية في تداخلات الأجهزة الذهنية الجوانية للكيانات الروحية والمادية .

المعنى فتتحد من التأثيرات السالبة ، لأن الماهية المحدودة هي اتجاه فلسفي ذهني ، أمّا الاتجاه المحسوس للفراغ العاطفي على أرض الواقع فهو إجراء انسحابي متساقط يضرب في كل الجهات بدون موعد سابق . ولا يخفى أن عدوى المرض لا تستأذن من أحد، ولا تأخذ تأشيرة سفر لكي تمر . ومن أجل تأصيل متواليات علم إشارات الشرعية الفلسفية ، لا بد أن نفهم ماهيات المقايضة الاجتماعية، وعلاقتها بالأصول الثقافية للسياسة العامة في الكيانات الحية، حقيقة أو مجازاً.

ومفهوم المقايضة على صعيد العلاقات البشرية الثنائية لا يبدو واضحاً في فرضيات التحليل المنطقي للمشاعر الأصولية (تداخلات العواطف العميقة الخام) ، لأن الأذهان التي تحمل الأفكار المسبقة تنظر إلى ماهية المقايضة على أنها اصطلاح تجاري ذو صبغة مالية ضمن محل التبادل المشترك بين الأفراد. لكن المفاجأة غير السارة أن المقايضة أخذت منحى إنسانوياً مُعَدَّلاً وراثياً⁽⁴⁰⁾ .

(٤٠) الإنسانويّة : هي تحول القيم المادية إلى اتجاهات إنسانية الطابع والهوية بشكل مشبوه (لأن التحول غير طبيعي ، ولم يتم وفق أسس سليمة ، كما أنه حصل اعتماداً على الفوضى الخلاقة ، وانكسار المادة لحساب الروح ، وتشظي الروح لحساب المادة، بدون أية ضوابط، واستناداً إلى التشتت في طبيعة تحليل العلاقات الاجتماعية، حيث تغيب رؤية المنظور المناسب في المكان والزمن المناسبين)، وظاهري (لأن القيم الإنسانية لم تتأسس بشكل سليم ، فقد حصلت عملية تفريغ وإحلال ، تفريغ القالب المادي من الاتجاه الواقعي ، وإحلال الوهمية الروحية مكانه ، فلم تحصل أنسنة بالمعنى الحقيقي القلبي والقيالي) ، ومُخَادِع (لأن ارتداء الذئب لثوب الحمل لن يؤدي إلا إلى مزيد من الخداع، وضياع منهجية الأولويات الحياتية ، وانتحار مكانة الكائنات في ظل فوضى انتحال الشخصيات ولعب الأدوار الوهمية المتضاربة). أمّا التعديل الوراثي في أنساق المناحي المشاعرية فيُقصد به اختفاء التوارث الذهني في نسيج العلاقات الاجتماعية المتبادلة، وظهور سياسة هجينة تعتمد على ثقافة اللحظة الآنية، وليكن الطوفان بعد ذلك . وهذا المسار الثقافي المضطرب لا يُقدَّر أن يستوعب التحليل التأويلي الهادف لأنه مسار مفكّك غير تجانسي ، ويفتقد إلى تماسك الجزئيات الداخلية، وهذا يجعله شكلاً هلامياً ساجماً في فضاء مُسيطر عليه من قِبَل سياسات مشبوهة تضعها مؤسسات ثقافية مُعسّكة تقتل الروح في الإنسان لكي يسهل ذبحه دون أي اعتراض .

وهذه العبارة بحاجة إلى تحليل ديناميكي يكشف النواة البكر وصولاً إلى التكوينات العامة للمنظور الشخصاني المضاد لإفرازات التشبث السيكولوجي . فالمقايضة صارت إجراءً ذا تفاعل مع المشاعر البشرية المختلطة ، لأن البشر في المجتمعات المقتولة فلسفياً صاروا يتحركون كأحجار شطرنج في موضع التبادل السلعي ، حيث تحولت القيم العاطفية الحاكمة على سلوكيات المعنى إلى أشياء ميكانيكية ضمن صفقات التبادلية والمقايضة .

فصارت المقايضة عبارة عن تموضع التبادلات المشاعرية الإنسانية ، حيث الأحاسيس تباع وتشتري في البورصات المجتمعية . وهذه العملية بحد ذاتها تشكّل تهديداً حقيقياً للمسار البشري، لأنها تنقل الكيان البشري الاعتباري إلى حالة تجارية سلعية تجريدية، فيغدو الفرد مشروعاً استثمارياً في قوالب مادية بحتة ، بحيث تنتصر الآلة الميكانيكية على العقل البشري الذي صنعها ، ويتأسس مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " كشرعية منطقية في ظل انتحار الإنسان التدريجي ، ويصبح المجتمع بورصةً ، وتصبح الذرائعية التبريرية⁽⁴¹⁾ هي المسيطرة على اتجاه الفرد في حياته المعاشة ، لا سيما مع تأجج عنفوان التحركات الغريزية الدائرة في فلك الشهوانية المجردة .

وبالتالي فإن الفرد يُعاد تعديله وراثياً ، ليس على صعيد الجينات المحسوسة ، بل على صعيد الجينات غير المحسوسة ، أي أفق المشاعر الداخلية ، وطريقة التفكير الذهني، وفلسفة أسلوب الحياة الضاغطة على منظومة المعاني ، فيحتفظ الفرد بكيانه البشري كبرواز ، لكنه خالٍ من المعنى ، فهو كالطبل الفارغ المفرغ من المادة المتماسكة .

ومن خلال هذه التحولات الثقافية الشرسة، يتأسس مجتمع الأشباح الخارجة من بقايا الإنسانية المحتضرة، فتتجذر سوسيولوجيا الكراهية الضاربة في أعماق الكيانات التي تحيا في موتها ، ويحيا موتها فيها . وهذه الجدلية المختلطة العاجزة عن الإحاطة بتفسيرات ماهية الحياة والموت ، توصل المجتمعات البشرية إلى أطوار الاحتضار المتكرر ، بحيث تصبح الحياة الحقيقية

(٤١) هي اعتماد السلطات الحاملة للمشروع البشري (الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي) على فكرة تبرير الأخطاء بدلاً من إصلاحها، واختراع الذرائع التي تُضَيِّع وقت الجماعة البشرية في الدوران حول الهدف دون إصابته. حيث تنشأ عقليات تبريرية تخاف أن تقول للمخطئ إنك مخطئ ، بسبب ضغط العلاقات الاجتماعية القبلية على صياغات المنظومة البشرية الحياتية ، وانتماء الفرد إلى اللفظ دون المعنى ، واعتماد الإنسان على قوة الدم العائلي لا قوة العقل الجمعي .

شدوذاً عن القاعدة ، وتكسر الطهارة الأخلاقية نعمةً نشاراً . وهكذا ، تفقد الكيانات البشرية بوصلتها بسبب انعدام التفسير الدقيق للماهيات الجزئية، والمصطلحات الفكرية. وإذا غاب القلب الحاضن للمعنى ، فلا يمكن الوصول إلى المعنى .

ومن أكبر التحديات التي تضرب العمود الفقري للكيانات الاجتماعية ، هي اختلاف التعريفات حول الشيء نفسه ، وتباين المقصود حول المعنى اللفظي ذاته ، والاشتراك في اللفظ والمعنى . فاختلاف المصطلحات وعدم الاتفاق على دلالتها ، قاد إلى تشظي مستويات الصراع الثقافي في اجتماعيات العقلية الإنسانية ، فصراعٌ في المعنى ، وصراع على المعنى .

والخطورة تكمن في تداول المصطلح ذاته، ولكن ضمن مناهج تفسيرية مختلفة ، وهذه المناهج خاضعة إلى المرجعية المسيطرة على الفرد. فمثلاً مصطلح " الإرهاب " يتم تداوله على نطاق واسع، لكن معناه فضفاض وهلامي وعائم ، وذلك لكي تضمن الجهات التي تستعمله توجيهه نحو مرادها في ظل تغير الأزمنة والظروف . حيث يتم تفصيل المصطلح لكي يلبس لكل حالة لبوسها ، ومن شأن عملية اللعب بالمصطلحات ترسيخ الابتزاز ، إذ يغدو المعنى الاصطلاحي للكلمة سيفاً مُصلتاً على الرقاب . فالدولة الفلانية قد تكون الآن إرهابيةً ، وبعد خمس دقائق لا تصبح إرهابية ، والحال ينطبق على الأفراد . وأيضاً التعريف المعنوي لأية عبارة يدخل في مجال التجاذب ، فيصبح كل تعريف سلاحاً ضد الآخر ، حيث يُستخدم التعريف كحامل للمرجعية والمسار والأهداف .

وللأسف فالهلامية المعنوية في سياسة صياغة المصطلحات ، دَفَعَتْ باتجاه تفتيت اجتماعيات الثقافة، وانزياح الفكر الكلي الشامل إلى زوايا مظلمة منبوذة ، فلم يعد العقل الإبداعي هو الحاكم على سياقات الأداء الشعوري ، بل أضحى العقل التقليدي الناسخ هو الذي يقول كلمته . لذلك فالحاجة تبدو مُلحةً لصناعة ثورة على الوهم عبر تعرية اختراع المسلمات الافتراضية ذات الصبغة التسييسية . ومن أجل الوصول إلى طُور التنقية المشاعرية في النسيج الثقافي للكيانات المتحركة اجتماعياً ، يجب إحداث انقلاب على الانقلاب وصولاً إلى اكتشاف المعنى الكامن في ذات الإنسان بوصفه حامل لواء الإبداع والتجديد في كومة الأنساق الثقافية المتآكلة الناتجة بفعل الخلط بين المتخيّل والواقع ضمن منظومة التقليد الأعمى ، ونسخ المشاعر ، وقول ما يقال ، ومحاولة جعل الماضي حاضراً معاشاً دون التفكير في اختراع حاضر مشرق . وهذا كله نتيجة طبيعية لوقوف الإنسان على باب إنسانيته دون الدخول ، ودون التفكير في

اكتشاف مكونات الذات البشرية . وإذا رفض الإنسان ركوب القطار ، أو تأخر عن موعد الانطلاق ، فلا بد أن يفوته القطار .

إن تحديد أبعاد ماهية المصطلحات ، يستلزم تعريفاً دقيقاً للجانب الأخلاقي للمستويات الشعورية ، لأن تعريفات الفكر الثقافي ترفض مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " ، وترفض كذلك منطقية الاستهلاك المادي الفوضوي ، وفي ظل هذا الرفض لكل إفرزات الانهيار الجدلي يتأسس المجتمع الثقافي الأخلاقي على قواعد سياسة الإنسانية الشمولية .

فالتعريف التقليدي للسياسة بأنها فن الممكن لا ينسجم مع توجهات الحركة الثقافية ، لأن الثقافة عبارة عن هندسة اتجاهات التاريخ بكل أنويته الداخلية وسطوحه الخارجية ، وهذه الهندسة تعتمد _ بالأساس _ على المصدقية التبادلية الواضحة لا الغموض الدبلوماسي الغارق في المصطلحات العائمة ، لأن تعويم المصطلحات في أثناء مراحل البناء السوسيولوجي من شأنه تفتيت سياسة الصورة الثقافية المتناسكة ، وقتل القوة الدافعة الشعورية ، وتشتيت التكثيف الإنساني المسلط على مسارات النظام العلاقتي الفكري .

لذلك ، تظل قوة الأنوية المركزية الحاملة لجينات الحلم الثقافي هي القوة الضاربة في تحولات أنسجة الترابط الذهني ، وهذا يعكس أهمية بقاء الأنوية المركزية بعيدة عن الخدش ، لأن أي خدش في العمود الفقري للحلم الثقافي سوف يضرب مشروعية الحلم الجماعي ، وينقل الإحساس التأصيلي الكلي من أطوار تكثيف التنمية البشرية إلى انتكاسات الجدلية الجزئية ، فتغرق التيارات الاجتماعية العقلانية في معارك هامشية دون الولوج إلى المعركة المصيرية في مركزية سياسة العقل الثقافي .

وعلى الرغم من تذبذب مصداقية الشرعية الأنثروبولوجية بفعل حجم الضغوطات المادية على رقعة تحرك العاطفة الوجدانية البشرية ، إلا أن هذا التحدي لا يقدر أن يوقف مسيرة المعالم المنهجية للأحلام التكوينية الكبرى ، لأن الحلم السياسي الخاص بالمشروع الفكري التنويري هو إرادة ثقافية حاسمة . وما دامت الإرادة الجذرية موجودة ، وأمامها مساحة مركزية للحركة الاجتماعية والحراك التفكيري ، فلا يمكن للتحديات أن توقف المسيرة المنطقية للفكر الانتشالي (الخلاصي الإنقاذي) . وقد تتأثر المسيرة في بعض جوانبها ، لكن النواة المركزية (القوة الدافعة للشعور التغييري / منبع الفكر الإرادي التصحيحي) ستظل بعيدة عن أي خدش ، لأن الضربات

ستركز على السطوح المعزولة عن مراكز صنع القرار الثقافي ، ولن تصل الضربات إلى العمق الإستراتيجي .

وفي خضم تفعيل سياسة اتقاء الضربات الموجهة إلى مركزية الشرعية الثقافية، لا بد من ترسيخ منهج التعامل الأخلاقي مع كل إفرازات الحقيقة اللغوية التي يمثلها المجتمع الأبدي . فالمسار العقلاني التثويري ينظر إلى المجتمع التكويني على أنه أبجدية لغوية قائمة بذاتها ، وبالتالي فالعامل مع الأفراد يكون باعتبارهم حروفاً ضمن منظومة اللغة الحاملة لشرعية الطاقة الروحية والعاطفة الميكانيكية .

وكلما اتجهت القيم المعادلة للمنظور التشريحي نحو سياسة الثقافة الكونية الشخصية ، تفشت الفردية في الإيقاع الجماعي للمعنى الكينوني (الإطار الزمني لاختراع المكان الافتراضي أو الكيان المتخيل) . ومن ثم تتزوج المفردات الفردية والجماعية في صيغة الحدث التفاعلي الذي يأخذ على عاتقه نقل أطوار التجانس الثقافي عبر الزمن المحصور في الأضداد .

ومن أجل ضمان ديمومة إنتاج النقلة الزمنية الفاعلة، لا بد من تثوير معنى المكان (الحاضرة) لنقله عبر المحيطات الفكرية والجغرافية بأساليب جديدة وبأشكال متعددة . وأخطر ما يواجه المسار الثقافي ويعيق حركته هو صناعة مكان ثابت يصير مكانةً قلبية محدودة ، وهذا يقتل فرص الإبداع الفكري والتحليق المعرفي التثويري .

ومن أجل الإفلات من مأزق الأطر المسبقة ، والحدود الوهمية الجاهزة سلفاً ، لا بد من تعويم مصطلح المكان ليتم تفصيله كحاضرة فضفاضة تشتمل على مشاريع السياسات الثقافية ، من أجل توفير البنية التحتية للمشروعية الثقافية الإبداعية الفاعلة لا سجن المنظور المعرفي في قوالب محدودة جاهزة مسبقاً ، ومعلبة عن سبق الإصرار والترصد (42) .

(٤٢) إن خطورة القوالب الجاهزة تكمن في إنتاجها لمجتمع علب السردين ، حيث يتحول الأفراد إلى كائنات شبحية خيالية ، وكيانات خالية من المعنى دائرة في حلقة مفرغة . وهذا يجعل العناصر البشرية المتحركة على الصعيد الفكري عبارة عن علب سردين ممسوخة، محدودة المساحة، ومتكورة على ذاتها، لا هدف لها في الحياة سوى البقاء على قيد الحياة . وهذا التلميظ القوالي الجاهز يفضي إلى مجتمع اختراع المسلمات الافتراضية ذات النزعة التسييسية المغرضة ، أي تثبيت الحصان أمام العربة أو وضع العربة أمام الحصان بكل فوضوية ، ثم البناء المتواصل على ديمومة إفرازات الوهم حتى يصبح الوهم حقيقة من كثرة

إن المحافظة على طبيعة الاكتشاف في المشروع الثقافية، تتطلب التنقيب المتواصل عن الأبعاد المدهشة في حضارة المسار العقلاني ، لأن وحدة الإبهار في منظومة القيمة الثقافية تجسّد سياسة قائمة بذاتها ، وذلك لأن حتمية اكتشاف العناصر الباهرة سوف تغدو _ فيما بعد _ جسراً تعبر عليه أنساق المجتمع الحي والحر ، وهذا العبور هو قوة المتخيّل المبهّر الذي يجذب تشكيلات الطبيعة الفكرية للمعاني .

ونحن إذ نشدد على أهمية وحدة الإبهار في عناصر السياسة الثقافية ، فلا نغفل سياقات الجانب الميكانيكي في المنظومة الإنتاجية الطبقيّة على صعيد المستوى الذهني لا المستوى المادي، لأن الطبقيّة في المفهوم العقلاني الثوري هي الترتيب المعنوي للمتسلسلات الوظيفية التي تأخذ على عاتقها نقل المعاني من طُور إلى آخر . ولا يُقصد بالطبقيّة بأية حال من الأحوال المستوى المادي من حيث الغنى والفقر ، لأن صيغ التجانس الاجتماعي الأساسي يقودها العقل المعرفي التأسيلي لا العقل المادي الاستهلاكي .

وعليه فإن علم اجتماع الثقافة سوف يحال إلى تفسيرات شديدة المركزية والقطبية بسبب الذات المغناطيسية المتمركزة في الشعور الإنساني التنويري . والعاطفة الوجدانية التي تنبع من انتماء الفرد إلى معناه ، وانتماء الجماعة إلى الذات الكيانية المتجانسة ، سوف تُنشئ كيانات جديدة في المجتمع البشري ، تحمل عمق التنظير الفلسفي للفكر الإنقاذي التصحيحي ، حيث يعاد القطار المنحرف عن السكة إلى وضعه الطبيعي، مما يؤدي إلى بروز أفعال اجتماعية فعالة على الصعيدين: السياسي التجريدي (النظرية المحضة) ، والسياسي الثقافي (النظرية التطبيقية) .

وهذه الفاعلية الاجتماعية لا يمكن أن تنجذر إلا في محيطات واقعية حاضنة ، لكي يخرج المجتمع الثقافي من مأزق الأسطورة (المستنقع الأسطوري) ، ويدخل في الوعي التطبيقي الحالم . الأمر الذي ينقل التكوينات المعرفية من النظرية الجزئية إلى الوقائع الفكرية العملية . ومن الأهمية بمكان أن يسعى الفكر الفلسفي نحو إخراج المعنى من الجزئية المغرقة في التبعيض (التجزئة التشتيبة) إلى الكلية الطبقيّة (الشمولية متعددة المستويات) . والخطورة

التكرار . وللأسف الشديد فهذه النظرة سائدة بشكل ساحق في الأوساط السياسية المنكسرة في المجتمعات المقتولة في مهدها .

في النسق الاجتماعي الثقافي كامن في الإصرار على دراسة المعرفة الثورية كوحدة كلية مصممة لا تتجزأ باختلاف الزمان والمكان . وهذه النقطة الكارثية تُشبه حَمْل السُّلْم بالعرض . والتماسك في كليات المعرفة الثورية هو تماسك فكري لا يعني جمود الأفكار ، أو تخندق الأجزاء الشعورية في قوالب جامدة مفرغة من المعنى . فالإنسان _ على سبيل المثال _ يتحرك كوحدة كلية متماسكة ، لكن جسمه مليء بالأعضاء والعضلات والمفاصل والتقاطعات التي تُشكّل فيما بينها نظاماً تراتبياً تجزيئياً طبقياً لا ينفي قوة التماسك المجموعي . فكل عضو له مجاله الحيوي الخاص به ، ومع هذا فهو يتحرك في منظومة شمولية عامة . فالمبدأ الطبقي في الجسد الإنساني يعني تنوع أهمية الأعضاء ، وقيام كل عضو بدور مستقل ضمن منطقة سيادية محدودة، تخضع إلى هيئة عليا مُسيطرة (القلب) . ولو تعطل عضو بشري فإن باقي الأعضاء تستمر في العمل ، ولا يتوقف الإنسان عن العمل إلا إذا سقط القلب، تماماً كسقوط الملك في لعبة الشطرنج. لذلك فمبدأ التوازي في عمل أعضاء الإنسان هو الذي يوفر الخلفية المناسبة لإصرار الإنسان على الحياة ، والقتال حتى الرmq الأخير متشبهاً بالواقع المعاش . والفلسفة الثقافية ينبغي ألا ترفع الراية البيضاء مطلقاً، لأن قيمة الوعي عصية على الاستسلام، خصوصاً عندما تتجذر المجتمعات الوهمية في قوالب صناعة الآلهة ، حيث تصنيف الذوات الروحية والمادية يصير تياراً ذا قبول في المنحى السيكلولوجي الداخلي للأفراد ، وهذا الشرح العنيف في الذاكرة الوجدانية المجتمعية يُنتج مجتمعاً صنمياً عاجزاً عن طرح الأسئلة والتفتيش عن الأجوبة ، لذلك تغدو المجتمعات التلقينية المعتمدة على توثيق الكيانات مجالاً خائفاً للثقافة العضوية .

ومما لا شك فيه أن التصاق الكائن الثقافي بالمنظومة الحياتية الشمولية يحوّل المشروع الفكرية إلى كائن حي ، وهذا يعطي امتداداً فلسفياً مقاتلاً في تفريعات الأنظمة الداخلية للمعنوية المعرفية ، فالعقل الثقافي هو القلعة الحصينة التي تضم أماكن التخطيط للمستقبل المفعم بالحياة ، كما أن الفعل العقلاني هو معقل أبجديات التغيير الاجتماعي الحامل لجينات الوعي التجانسي بأهمية الثقافة كقومية عالمية إنسانية الطابع لا تملك إلا السير للأمام كخيار وحيد لا يتعدد .

إذن ، تبرز وحدة المسار وواحدية المصير كجناحين للحلم الاجتماعي في تطوير السمات الوظيفية للجوهر الفكري . وكلما استند المنظور العقلاني إلى المنهجية الأخلاقية في نقل المسارات الثقافية عبر أطوار مؤسسات الفعل الاجتماعي، انبثق الفكرُ الذهني كمضمون معرفي

واضح المعالم، الأمر الذي يدفع باتجاه توحيد فيزياء المعرفة اللغوية وكيمياء الأبجدية الإشارائية التي تحدد أطوارَ النشاط البشري على أساس الفلسفية الداخلية للشرعية الثقافية .

ولا يخفى أن وجود الفاعلية الإنسانية كسلوك نظامي ذهني وعُرفي من شأنه تدعيم صورة الثقافة كخارطة جينية للمستقبل الباهر، وإعادة صياغة الماضي اعتماداً على العين الناقدة، والمنظور الغريالي التَّصْفُوي (تنقية الأنساق الاجتماعية من فاعلية الشوائب ، وفرز النتائج العملية استناداً إلى التواجد الإنساني السلوكي الحي في سياقات المعارف الميتة ، وتصنيف الأفعال الثقافية حسب التجسيد الوظيفي لمعقولة سياسات الذهن) .

وضمن سياسة الأنساق الذهنية يتولد منحى التفتيت التاريخي للجسد الثقافي ، وهذا التفتيت لا يقصد به تحويل الكل إلى جزء ، بل تحويل الذاكرة إلى ذكريات بشكل مؤقت ، بغية دراسة التنويعات الفردية بحد ذاتها دون وجود ضغط خارجي على السلوك الاجتماعي لتاريخ الثقافة .

وبما أن سوسولوجيا التاريخ السياسي للشرعية الثقافية هي الذاكرة الجمعية الغريالية المعتمدة على التنقية المستدامة للسياقات الأنثروبولوجية ، كان حتماً على التوزيع الثقافي للأدوار التاريخية الجزئية أن يحوّل المعنى إلى إجراء ملموس ، والذاكرة إلى وعي جماهيري عمومي ، والقواعد اللغوية إلى حياة اجتماعية معاشة ، والفكر التربوي إلى فضاءات تثويرية حاسمة ، والذات التاريخية الماضوية (الماضي التركيبي عمودياً) إلى مشروعية ثقافية تفسيرية .

وهذه القيم المتحوّلة على رقعة الإحداثيات المجتمعية أفقياً وعمودياً تنتج _ في نهاية المطاف _ وعياً كيانياً مستقلاً بذاته، وفعلاً اجتماعياً يعيد صياغة الحراك التاريخي ، فتصبح _ حينئذ _ الشرعية الثقافية قادرةً على صناعة ولادات تاريخية جديدة في قلب المسار التاريخي العمومي .

والتفسير الرمزي لإيقاعات التاريخ على جسد الثقافة ، يصير تاريخاً توليدياً جديداً يعيد إنتاج القواعد العمومية الخاصة بالأبجدية الحياتية . ووفق هذه الرؤية الديناميكية ، تخرج اللغة الثقافية السوسولوجية من أسر القواعد الجامدة إلى فضاء التنويعات الرمزية المحمولة على الوعي الإنتاجي، الذي يدرس الأبجديات الكلية ضمن أنظمة متوازية ، تتيح للمعنى الإنساني أن يكتشف الماورائيات المختبئة وراء القواعد اللغوية ، وبذلك تخرج اللغة من الوعي المحصور في وسائل التخاطب الميكانيكية إلى الأنظمة العاطفية الوجدانية ذات الصبغة الرمزية الباهرة .

ونحن إذ نعول على الأبعاد الرمزية للأبجدية الثقافية ، فإننا لا نُغفل الطبيعة الميكانيكية للتفسير الذهني المنعكس على الواقع المعاش . وبالإضافة إلى هذا ، فإن واقعية الذاكرة التجانسية تعيد إنتاج منظومة التاريخ من زاوية التفسير الجديد للماضي ، بحيث يصبح الماضي جزءاً من الحاضر والمستقبل ، وبذلك تتداخل الأطوار الزمنية لمصطلح التاريخ ، ويصبح التاريخ قيمةً فكرية عقلانية للوجود الإنساني الرمزي ، لا قيمةً للمراحل الزمنية (الماضي ، الحاضر ، المستقبل) .

والقوة الضاربة لمرجعيات بُنية الذات الثقافية ، تنبع من توحيدها للزمان والمكان ، أي النظر إلى المسار التاريخي كوحدة جمعية واحدة مترابطة ، لا فواصل زمنية فيها ، وبذلك يتحول التاريخ من إجراء زمني محصور في بقع جغرافية إلى فضاء ثقافي متجانس ، يحمل الفكر الشرعي الخاص بلغويات التفسير الثقافي لحركة المجتمعات ، أفقياً وعمودياً .

وإذا استطعنا نقل أطوار التاريخ من الآنية الزمنية إلى القيمة المعرفية ، فعندئذ سوف نتحرر من قيود الاستباقية الزمنية التي تحاصر الأنساق الإنسانية الوجدانية في زاوية الجغرافيا المادية . وأخطر ما يواجه الرمز المعرفي في طريق تكوينات الذات الإنسانية الفاعلة ، هو الافتراضات القتالة المحمولة على التاريخ الهلامي للثقافة الشَّبحية الممسوخة . حيث تتجمع الافتراضات المغرصة الرامية إلى تفتيت قيمة الوعي بلا سند واقعي ، بُغية صناعة تاريخ صابوني لا يملك جذوراً ، وهذا التاريخ الاصطناعي مهمته إنتاج ثقافة وهمية مخادعة مصبوعة بالمعاني الإنسانية السامية ، والقدرات التشويرية الحاملة للفكر الأخلاقي الراقي . لذلك فإن ثقافة الأقنعة وأقنعة الثقافة وجهان لعملة واحدة ، تكوَّنت بفعل الإرهاصات العنيفة في الجسد اللغوي المجتمعي .

وكما أن المجتمع هو الذات الأبجدية ، فإن الفعل الاجتماعي الثقافي هو الإرادة الداخلية لسياسة الضمير (كيفية التعامل مع الوازع الذاتي) . ووفق هذا المفهوم ، لا يمكن أن نتصور مجتمعاً ثقافياً خارج الشكل السياسي المنطقي ، لأن مفردات أنسنة إشارات تشخيص الحلم بحاجة إلى حاضنة ذات درجة حرارة ملائمة لكي تتولد النَّزعة الإنتاجية للكيانات الاعتبارية التي لها مكانة اجتماعية رمزية وإشارتية .

ومن الأهمية بمكان أن نتذكر ضرورة إخراج المجتمع من الصيغة الأسطورية ، وأهمية انتشار الوعي الرمزي من مجتمع الأشباح والأصنام . وأخلاقيات النَّزعة الفلسفية لا يمكن أن تنكسر إلا في محيط من الوعي الإبداعي الرافض للمسلّمات الصابونية (ثقافات علب السردين) .

ولا يمكن للشرعية المعرفية أن تقبل بوضع العربية أمام الحصان ، وثبت وجوداً عديمياً لقيمة الأسئلة ، لأن ذلك من شأنه تحويل أفراد الجماعة الإنسانية إلى مهرجين في سيرك محترق نتيجة تحول الشخصية الثقافية الواقعية إلى ألعاب بهلوانية . وعندئذ تزول الشرعيات عن الهويات ، أي إن هوية الجينات الأخلاقية للفكر العلمي تصبح عاريةً بلا غطاء شرعي مستمد من واحدة مشروعية اقتصاد الحلم المعرفي .

وإذا تحركت السياقات المعنوية دون إسناد حقيقي ، فهذا يعني أن الطبيعة الرمزية لأبجدية التحولات الاجتماعية أضحت فراغاتٍ متحركة في حلقة مفرغة عاجزة عن وضع سياسة الإثبات والنفي . وما دامت المفردات الفلسفية متوقفةً أمام إصدار الأحكام ، فإن نظاماً جديداً من الوهم الهلامي سوف ينشأ تحت اسم الثقافة بلا دلالة واضحة أو مدلول فعلي . والفلسفة هي حكمٌ إرادي على الأشياء ، وإذا غابت هذه الصفة تفقد الفلسفة معناها . فلا يمكن أن نتخيل قاضياً عاجزاً عن إصدار الأحكام ، لأن الشيء إذا ثبت ثبتت لوازمه . والفعل الثقافي هو الثابت الأخلاقي في تكوينات النسغ الإنساني بالمعنى الواعي لا بمعنى الجمود والتقوقع ، لذلك لا بد أن تثبت لوازم المشروع الثقافي ، وهو الذات الاعتبارية الأخلاقية ، والفاعلية المستدامة ، والنمو الوجداني المتواصل .

والنظرية الحاملة في البيئة الذهنية المثالية تختلف عن تطبيقها في الإشكالية المجتمعية الصادمة ، فحركة الوعي العقلاني تصطدم بانكسار مساحات المعرفة الواقعية الخشنة . وفي ظل هذه الانتكاسة المتصورة يصبح من المستحيل أن تنمو التاريخية الحقيقية الكاشفة لأبعاد سوسيولوجيا الثقافة ، لأن البيئة الموبوءة تتحول إلى إجراء بيئوي بالغ المركزية الاستقطابية .

وفي حالة تراجع الدور التاريخي الحاضن للفعل الثقافي ، شرعيةً ومشروعياً ومشروعاً ، يتحول الكيئون الاجتماعي إلى سفينة غارقة ، وكل الأفراد يسعون للقفز منها ، حيث يتركونها لمصيرها المجهول مقابل أن ينجوا بحياتهم . وهذه نتيجة متوقعة للعلاقة المضطربة (النفعية المصلحية) بين الفرد والمجتمع داخل التجمعات البشرية المقتولة فلسفياً .

ومع تراجع دور انتماء الفرد إلى الجماعة بسبب اعتقاده أن وجوده كعدمه ، وأنه كائن وهمي يرتدي قناع الإنسان لكنه في واقع الأمر بقرة حلوب محصورة في سلسلة القهر الاجتماعي ، تصبح السياسة لعبة الأغنياء ، ويزداد تكريس زواج الثروة بالسلطة ، مما يُنتج تشوهاتٍ مرعبة في بنية العلاقات المعرفية الإنسانية ، ويُجبر الفرد على الانسحاب نحو الظل الأكثر عنفاً وتطرفاً ،

ويدفع بالمجتمع نحو مزيد من التوحش اللاإرادي والإرادي ، حيث تتركز القصدية الأنثروبولوجية (الفعل الإنساني المتمم) في بؤرة التوحش .

ومع تزايد هذا الانحدار السالبي الكارثي تؤول الفراغات الوجدانية إلى مساحات تعج بالفوضى الفراغية ، فيصير الفرد موجوداً وغير موجود في نفس اللحظة ، أي إنه موجود على رقعة الحياة بشكل فيزيائي إحدائي مادي، لكنه يحيا في غيبوبة فكرية شاملة ، تجعل منه كائناً مفرغاً من المعنى ، وقالباً حجرياً لا أكثر ولا أقل . وهذا الانتحار الفلسفي لا بد أن يدفع باتجاهات أكثر رعباً واحتضاراً على الصعيد التطبيقي ، فردياً وجماعياً .

وتتجلى مظاهر الغيبوبة المعرفية في تحويل المنطلقات الظاهرية إلى إشكاليات سرية متماهية مع رمزية الأحكام العرفية في الكيانات السيכולوجية المحتضرة . ومع غياب إيقاع الشفافية البشرية في تكوينات الحياة العامة ، تُحال الصور الفكرية الجماعية إلى خيالات مستترة تعتمد على المراوغة لا المصارحة. وكلما استمرت هذه الأنساق السالبية في التفشي والتشطي انتقلت الجماعات الإنسانية من العقل الإبداعي الوظيفي إلى العقل المخبراتي البوليسي، فيصبح المجتمع الإنساني _ بصورة انسحابية لا إرادية _ قناعاً لأديبات البوليس السياسي ، حيث سلسلة القمع الأفقي والعمودي تصير دستوراً عُرفياً متداولاً في العقول الباطنية للأفراد والجماعات .

ومن أهم أسباب تفوق الجماعات البشرية في قوالب الفراغ السياسي والعقلية المخبراتية ، غياب المنحى الأخلاقي الثقافي الذي يبنى الضمير البشري العمومي . وغياب النزعة الثقافية الثورية يعني غياب عقلية الوازع الروحي الذاتي ، وبالتالي تكريس روحانية المجتمع كهياكل مادية جافة تنفي القيم الروحية والجمالية والأخلاقية .

والثقافة ليست مهنةً روتينية تحصل منها على راتب آخر الشهر، ثم تنساها في زحمة الضغوطات الحياتية. بل هي حركةٌ تصحيحية، وإعادةُ القطر المنحرف إلى السكة الصحيحة ، وأنسنة التوحش الإنساني كي يجد الفرد إنسانيته، وتلتقي الجماعة البشرية بوجهها لا قناعها، ويعثر النظام الأخلاقي الواعي على كيانه الشخصاني الاعتباري الحقيقي .

لذلك ، لم تكن الثقافة _ في يوم من الأيام _ تياراً مادياً استهلاكياً ، ولم تكن فعلاً إجرائياً روتينياً كمن يذهب إلى السوق فيشتري بعض الحاجيات ويرجع . إن العقلية التجانسية لرموز الشرعية المعرفية تولد وتحيا في الوعي الأخلاقي العام، والتجانس البشري المفعم بالأحاسيس المعنوية الهادفة إلى التغيير ، وبناء مجتمعات العدل والمساواة .

ومن خلال هذا التأصيل المعرفي الهادف ازدادت قيمة المصطلحات الإنسانية نفوذاً في أوساط المشروعات الفكرية الكبرى المتمردة على عبودية رغيغ الخبز . فلم يولد الفرد لكي يأكل ويُنجب وينام ويموت . وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة البديهية ظاهرة للعيان، ولا تحتاج إلى جهد لفهمها، إلا أن غيابها أو تغييرها القسري عن مسرح صناعة الأحداث الذهني ، كان السبب الرئيسي في انتحار الأفراد التدريجي، وصولاً إلى حالة العمى الكوني الضاربة جذورها في مركزيات البناء الفكري على كوكب الأرض . وهذا الغبش الجذري في صياغات العقل التكويني نتج بفعل تحول الإنسان إلى شيء ، وانتقال المعنى إلى شيفرة ميكانيكية ، واتجاه المنظومة البشرية الإبداعية نحو التقليد والانغلاق والجمود .

إن قوة التحركات الفاعلة في المسار الإنساني لا تتجلى إلا في طبيعة التشكيل الثقافي ، وانعكاسه على السمات المنهجية لآفاق المعنى ، حيث تحال الصور الذهنية إلى تطبيقات فعالة من شأنها صناعة تاريخها الخاص ، مما يؤدي إلى بناء الحدث المعرفي وفق أسس السلوك الاجتماعي المتحرك أفقياً وعمودياً .

وهذا يجعل القدرات الإنسانية تسير جنباً إلى جنب مع مسارات التكوين العقلي ، مما يؤدي إلى تجاوز التناقضات الصارخة في النسيج الفردي والجماعي . وكلما انتشرت رمزية الحراك المجتمعي ، اتضحت التناقضات العنيفة في متواليات الشعور الفكري ، لأن تحرك الكيانات السوسولوجية هو تحركٌ للتناقض الداخلي في الجسد الإنساني ، وبروزٌ للفوضى المؤطرة في الكيان الجمعي ، لأن الذوات الاعتبارية التي تملك وجوداً تطبيقياً على أرض الواقع سوف تظهر عيوبها حينما تبدأ الحراك .

وأيضاً ستظهر ثغرات المناهج الثقافية الفلسفية حينما تبدأ حركتها المعرفية التي تبحث في بنية العلاقات المتشابكة بين الفرد والجماعة ، والأنا والآخر ، والذات الفردية والذوات الكلية ، والكيان المستقل والكيان التابع .

لذلك تبرز فلسفة التحرك الفاعل بأدنى نسبة من الأخطاء . ومن أجل تفعيل هذا المبدأ ينبغي الاعتماد على وضوح رؤية فلسفة المعنى ، وعدم الاكتفاء بالتجميع العشوي للألفاظ في منظومات قلبية وتقديمها على أنها المعنى ، لأن المنظومة الثقافية قادرة على تمييز المعنى الحقيقي من المعنى المخادع ، كما أنها تملك القدرات الذاتية على التفريق بين وجه الحلم وقناع الحلم .

ومن الجدير بالذكر أن التوجه الثقافي نحو تفسير حراك التاريخ الخاص بتقاطعات العلاقات الإنسانية قادراً على توفير الغطاء الشرعي اللازم لتفادي الأخطاء القاتلة ، وتجاوز الخنادق العميقة في بنية المناهج الفكرية . وأخطر ما يواجه النسق العقلاني التنويري هو وجود فجوات متسعة في البنية الأساسية للمناهج العقلانية المستخدمة لتفسير العلاقات السايثقافية (السياسية _ الثقافية) ، وتحليل بؤر تمركزات الصراع بين الأنا والأنا الآخر في الكيان الواحد . حيث توجد صراعات داخلية في ذات الفرد، وفي نسيج المجتمع الواحد . ووظيفة الشرعية الثقافية عدم الوقوف عند هذه الخنادق العميقة، بل تجاوزها إذا كان ذلك بالإمكان ، أمّا إن استعصى التجاوز ، فينبغي نقل المجتمع الواقعي إلى ذهنية الأنساق الفكرية من أجل صناعة تموضعات افتراضية في دوائر التحليل العقلي التجريدي ، ثم إعادة اقتحام الواقع بناءً على الصور الذهنية الرمزية .

إن الفلسفة المنطقية المتمركزة بين سوسيولوجيا الثقافة وإشكاليات المشاعر الوجدانية ، تفرض وجوداً ذاتياً لتوجهات الحلم ، وهذا التوجه ينبغي ألا يتوقف عند الحواجز ، حتى لو فشلت العاطفة البشرية في تجاوزها . ففكرة الحلول سوف تأتي مع قوة التحرك نتيجة القوة الدافعة التي تُلهِم المسار الوجداني ، وتعيد صياغة العقل الثقافي في ظل الضغوطات الحياتية العنصرية⁽⁴³⁾ . وإذا تم بناء الطبيعة الرمزية لإشارات الوجود العقلاني الحر بصورة متماسكة ، فلا يمكن اختراق المنظومة الأنثروبولوجية المحيطة بالنمو العمودي للشرعية العلمية ، وذلك لأن اقتصاديات العقلية الثقافية سوف تضع الحلم في المركز الأخلاقي الواضح ، وبشكل بالغ التكشيف . الأمر

(٤٣) العنصرية : هي منظومة فلسفية تعتمد على فكرة تحديد الكل الجمعي استناداً إلى العناصر المختلفة غير المتجانسة . ويتم التعويل على وحدة المركز الكلي في صهر العناصر المتضاربة من أجل الخروج بنظام متجانس موحد . وتظهر أهمية "العنصرية" في كونها آلة صاهرة ونظاماً توحيدياً للأجزاء المتضادة . وتتجلى تطبيقاتها في هندسة العلوم الاجتماعية ذات النزعة السياسية بصورة ثقافية أقل حدة وتوحشاً ، اعتماداً على أنسنة سوسيولوجيا السياسة ، وإحالة العناصر المتطرفة فيها إلى نسغ ثقافي عقلائي، لأن علم اجتماع السياسة يتعامل مع عناصر بشرية مختلفة على كل الأصعدة . وهذا الاختلاف إن بقي على حاله سوف يصبح وحشاً عاتياً يصعب السيطرة عليه ، كما أنه سيحتاج كل تراكمات المنجز الحضاري ، لذلك يتم تنظيم الفوضى المتضاربة على شكل عناصر متجانسة محتفظة بخصوصية الهوية الفكرية في قالب جماعي يُوظف لصالح تأسيس التفسير العقلاني لثقافة المعنى الإنساني .

الذي ينقل الشرعية المعرفية من الروتين الوظيفي إلى الأفق التثويري المتواصل. وفي ظل هذا الحركة المستمرة تتأسس الديمومة الحاملة لبذور الحلول المبتكرة لمشاكل المجتمع ، لأن الحراك العقلاي في صيغته الباطنية والشكلانية يجمع حلولاً جديدة من خلال دورانه المستمر في أنوية المجتمع الحي .

ومع تكاثر التجارب الإنسانية والخبرات الحياتية للأفراد والجماعات تظهر أفكار مُبتكرة . وعنفوان الشرعية الثقافية يكمن في تجميع تلك الأفكار ، وعدم السماح لها بالمرور العابر في التدايعات المعرفية ، والخيالات المتعكسة .

وبالتالي يمكننا اشتقاق تعريف جديد للثقافة من وحي نظامها الداخلي المتماسك، وهو : مبدأ اصطياد الأفكار المستقبلية المحمولة على رافعة المجال الحيوي للمعنى الإنساني الثوري ، وإحالة ثورة الإنسان على ذاته إلى نظام حركي تطبيقي يقود ثورةً على الفلسفة الجامدة القالبية ، لكي يُنقل المشروع الفلسفي من إطار التنظير العدمي الهلامي إلى واقعية المحسوس الروحي والمادي . وعندئذ سيجد علم اجتماع الثقافة أرضاً ملموسة خصبة لكي يحيا فيها ، ويحيا عليها . ولا شك أن الأرض الخصبة الحاضنة للمشروعية الفكرية هي شرعيةً منطقية بحد ذاتها ، بسبب قوة الدافعية الجزئية والكلية التي تملأ الحياة الثقافية بالعنفوان العقلاي غير الفوضوي .

ولأن الصورة النمطية للمجتمع الاستهلاكي المستهلك ينبغي أن تُكسر من أجل إحلال القيم الخصائصية الكاشفة لأبعاد التشخيص الفلسفي ، اتجهت لوازم العملية الثقافية إلى كسر الحواجز العالقة في طريق المد العقلاي . وكل عقلية نسقية هي بالضرورة مشروعية ثقافية محالة إلى قيم تشخيصية واضحة المعالم ، وهذا الاندفاع يجب أن يدخل في نطاق السيطرة الاجتماعية الفاعلة لئلا يتحول المد الثقافي إلى طفرة عبثية مؤقتة تذوب في زحمة الاشتعال العاطفية التي تؤول إلى انطفاء جامع وشاسع .

والمشكلتان البارزتان في معقولية الحلول المعرفية ، هما : الانسياق وراء العواطف التي لا تجد مخرجاً واقعياً تطبيقياً ، والاحتكام إلى عنفوان المشاعر بمعزل عن التأسيس العقلي للمعارف . مما جعل المجتمعات المقهورة عبارة عن تكتلات من الجعجعة بلا طحن ، وغياب الأفق الإستراتيجي الواعي .

وقد تمتد النزعة العابثة في شكلانية العلاقة الدلالية بين الفرد والجماعة بسبب الشعور الداخلي القاتل الذي ينتاب الفرد في ظل المجتمع الضاغط ، ويدفعه إلى تصنيف نفسه كمنبؤد

وتحصيل حاصل لا أكثر ولا أقل . وهذا يقتل روحَ الانتماء إلى الحلم الجماعي ، ويزيد من عزلة الإنسان وغرفته في ذاته ، وفي مجتمعه الصانع لأدوات الحصار .

وفي واقع الأمر إن سوء الفهم بين الفرد (الجزء) والجماعة (الكل) من شأنه تدمير مفاهيم المنظور الحالم ، وإحالة السُّمو الأخلاقي إلى إجراءات نفعية شخصية، حيث البيئة تغدو مجتمعَ العزلة ، ونظاماً انعزالياً خانقاً . ويتحول الفرد إلى كينونة متوحشة تعيش من أجل ذاتها المعزولة عن السياقات الطبيعية للتاريخ العمومي. ولا يمكن للكائن الثقافي أن ينمو في مجتمع ذي سقف منخفض يكاد يقع على رؤوس من تحته .

لذلك تظهر وظيفة المعرفة واضحة في توسيع الدلالة العقلانية ، وجعلها أكثر ملائمة لاستيعاب التدفقات الحالمة ، حيث يتدفق الحلم على شكل انبعاثات منضبطة وغير منضبطة . واللائنضباط من شأنه تفتيت الوعي الجمعي ، لأنه ينقل المعنى من مركزية الفكرة إلى استقطاب الشهوة . وهكذا تؤول المراحل العقلانية إلى تعليمات شهوانية غريزية محكومة بالآنية المفرطة في الأنانية . ومع ازدياد تخندق الذات الإنسانية في زاوية الفردية يصبح المجتمع عازلاً ومعزولاً في نفس الوقت . عازلاً للمفردات المشاعرية بسبب تكريس سياسة الحواجز الراسخة بين العقول والأجساد، ومعزولاً عن المحيطات التحتية والفوقية نتيجة تأسيس مجتمع الكيانات (الكُنُونات) ، حيث كل فرد يصير دولةً مستقلة لوحده ، يتحرك في مسار خاص لا يتقاطع مع باقي المسارات ، ويخترع مسيرته الشخصية ضد العقل الجماعي الكلي الحامل لشرعية المنظومة البشرية العامة .

وفي ضوء هذه الانبثاق التاريخي الصادم (تاريخية مجتمع العزلة) ، يؤول الكائن الأنثروبولوجي إلى لغةٍ جدلية غامضة مبنية على تناقضات الإحساس الوجداني المحمول على القوة اللغوية . وليس من مصلحة المد الثقافي أن يتحول عنفُ العزلة الاجتماعية إلى مسار لغوي متموضع في بنية الحدث والحادث (منظومة التحركات الاجتماعية الأفقية والعمودية ، الطبيعية والمصطنعة) ، أو بنية نظام الإحداثيات المجتمعية التحتية والفوقية ، لأن ذلك سيؤدي _ لا محالة _ إلى نشوء وعي مضلل في مركز صناعة القرار الإنساني الحاسم .

إن ظهور فلسفة العزلة كنظام لغوي صوتي ومادي قائم بذاته ، من شأنه أن يؤسس وعياً تشبثياً لكافة الجهود الفكرية المنبثقة عن تاريخ اللغة الخصوصية المرافقة لعملية نمو ذاكرة الإنتاج

المعرفي الكلي . وكلما غاب صوت الأبجدية الثقافية في زحمة التجاذبات السياسية الداخلية ،
تكوّن

للمعنى البشري مجال انعزالي يغزل بشكل مضاد لحركة النمو الطبيعي لتاريخ أنثروبولوجيا العقل .
وعندئذ تنسلخ الإنتاجية العقلانية عن الإنتاجية المعيارية (المادية) ، مما يخلق وضعاً مُربكاً
في تقاطعات اللغة الوجدانية مع أحاسيس الذات العقلانية الفذة ، وهذا الارتباك هو عُزلة المعنى ،
واغتراب العقل الثقافي عن كل إفرزاته المضادة للتجانس نتيجة الولادة غير الطبيعية لتاريخ
أبجديات ذهنية المجتمع .

ونحن إذ نحدد طبيعة العلاقة بين تاريخية النظام اللغوي للمعنى الثقافي والتشخيص التفسيري
، فإننا ننطلق من رمزية الأداء الذهني العالي الذي يمتلك أهلية التفريق بين جزئيات الحدث
التفسيري لعلم اجتماع الإشارات الفكرية . وكل إشارة تتولد في الجماعة البشرية، وتدل على
تفسير واضح المعالم لخط سير إفرزات الحواس ، هي بالضرورة تيار معرفي قادر على الموازنة بين
إنتاجات الكيانات السوسولوجية . ومن هنا استطاعت الحتمية الثقافية أن تصل إلى مستوى الفعل
القصدي عن سبق الإصرار والترصد ، أي امتلاك إرادة الدافعية الداخلية ، والسيطرة على نطاق
الأفعال الواقعية ضمن المسارات المقصودة . وهكذا يتضح لنا أن القصدية (النية التي لا يطرأ
عليها إرهافات التذبذب) ، هي فعلٌ شَرْطي لا بد من تحقيقه في الوعي الثقافي من أجل الوصول
إلى حقيقة النظم العلمية ، وبدون وجود الفعل القصدي سيصبح أي مسار فكري مجرد زوبعة في
فجنان ، ومضيعة للوقت والجهد ، وتلاعب بالثروات الروحية والمادية .

ويجب أن تتكرس القاعدة الفكرية الحاسمة ، وهي " إذا ثبت الشيء ثبتت لوازمه " . وهذا
الإطار المعرفي يحدد زمانية جغرافيا النصوص العقلية ، حيث تتحول الشخصانية الذهنية إلى
مراكز نصية عابرة للأطر الأبجدية بالمعنى الانكماشى المحدود . وثبوت النظم العقلانية في
مساحات المنطق الفكري يستلزم حتماً ثبوت لوازم نشوء هذه النظم، ورسوخ شرعية وجودها
وتواجدها⁽⁴⁴⁾.

(٤٤) الوجود : الذات الاعتبارية المستقلة القائمة بذاتها، المالكة لوحدة مسارها، والعالمة بأفق مصيرها.
وهذه المعاني لا تحيا إلا في ظل وجود ذاتي حُر يتواجد بفعل قوة المنطق لا منطق القوة . أما التواجد :
فهو انتشار أنظمة السلوك المتجانس في الفضاء الواعي لتواليات السياسة المعنوية ومعرفية المعنى .

ومن خلال توحيد المنظومة الشائبة (الوجود / التواجد) ، تتكشف لوازم النظم الثقافية الحاملة لجينات الوعي الاجتماعي ، مثل : البنية التحتية والبنية الفوقية ، واقتصاديات المعرفة ، ودحض الطبيعة الشائبة الخشنة للعواطف ، وتعريّة الأخلاق المصلحية المادية أمام الرأي العام مع تعزيز الأخلاق المضادة لسياسة تبرير الخطايا لتحقيق الغاية ، وترسيخ شروط الغائية (المصير) بالتوازي مع شرف الوسيلة مما يضمن درء التضارب بين الغاية والوسيلة ، وتحرير المعنى من حصار الألفاظ الضاغطة لكي تنتقل السيادة الجزئية من خانة الاستبداد إلى أفق المصير المشترك بين الأنا (الداخلي والخارجي) ، والآخر (الداخلي والخارجي) . وهذه الوحدات الفلسفية ذات الصبغة اللغوية ، تؤدي _ بالضرورة _ إلى تحمل أعباء الصيغ الكونية باعتبار أن كوكب الأرض سفينة واحدة ، إمّا أن تنجو بشكل كامل أو تغرق بشكل كامل . فالطبيعة المصيرية ترفض اللون الرمادي جملة وتفصيلاً . فالمسار والمصير إمّا أن ينتميا إلى اللون الأبيض أو اللون الأسود . فلا يوجد خيار آخر ، ولا توجد حلول وسط .

إن البنية الإنسانية الغائية (المصيرية) ترفض الحلول الوسط أو أنصاف الحلول الرمادية . ومن خلال هذا المنظور الإستراتيجي ثبّت النظام الثقافي كفلسفة مضادة للدبلوماسية ، وفنّ الممكن ، والعبارات الهلامية العائمة ، واللفّ والدوران حول مركز المعنى دون إصابته _ عمداً _ . وليس هذا بسبب انعدام الذكاء الثقافي ، أو عجز العقل المعرفي ، أو خشونة التعاملات العقلانية العابرة للتجنيس القاتل المغرض ، بل بسبب فلسفة التعامل مع المصائر الحاسمة ، وانتهاج طرق الذهاب بلا عودة . الأمر الذي يحتمّ عدم تضييع الوقت في المواربة والمجاملة . فلا بد من الوضوح الكامل ، لأن فرص التعويض معدومة ، والأوقات ممتلئة بالأضداد ، والكيانات الإنسانية تنتقل من المركز إلى الأطراف ، والقيم الاجتماعية تتساقط ، والأنظمة السياسية تضمحل ، والإنسان ينتحر تدريجياً .

وهذه التحديات الجسيمة تجبر الأنساق اللغوية على تطوير معنى الفلسفة التي صارت ضرباً على السطح لا العمق ، والتفافاً حول الظاهر دون اكتشاف الباطن . وقد انتقل المعنى الاجتماعي للفعل الثقافي من التنقيب الاكتشافي إلى نفخ الغبار عن التراث الإنساني المتشابك والمتضارب . وهذا أدخل الفاعلية المعرفية في حيّز التقليد ، دون اكتشاف طريق الإبداع . فصارت المعارف الفكرية نسخاً لأفكار السابقين ، واستدعاءً للتراث الماضي لضعف الثقة في الحاضر ، وعدم القدرة على صناعة معارف مستقلة على مستوى عالمي .

والفعل الثقافي في محيطه الأنثروبولوجي لا بد أن يكون واضحاً ، فيُنزل الناس منازلهم ، ويُوقف الظلم الاجتماعي ، ويفضح الشخص الفاسد بغض النظر عن مرتبته الاجتماعية⁽⁴⁵⁾ . ومن الجنون القول للقرء : أنت قمر . وللأسف الشديد فهذه الفلسفة المخادعة منتشرة بصورة كارثية في كل طبقات الهرم الاجتماعي . ومن شأن هذه السياسة الالتفافية تعزيز ثقافة تبرير الأخطاء كبديل عن إصلاحها . فالوقت الذي يؤخذ في اختراع غطاء شرعي للأخطاء والخطايا كفيلاً بإصلاحها . والمجتمعات الذبائية المبنية على المراوغة لا المصارحة إنما هي طُور اضمحلال تمّت أدلجته بشكل سالي لتكريس السُلطات الوهمية خوفاً من مغامرات التجديد ، وهرباً من التفاصيل الصارمة التي يُنظر إليه كوطن للشيطان (الشيطان كامن في التفاصيل) . وهذا يدفع باتجاه تقديس الماضي ، فتظهر عبادة الأجداد ، واعتبار الماضي هو الشكل الأرقى المقدّس بالتوازي مع اعتبار الحاضر مركزية الرذيلة والخطيئة والتخلف . وتختلط الأحلام الوهمية بالنوايا الصالحة . وهذا الأمر شديد الخطورة ، لأن الطريق إلى جهنم مُعبّد بالنوايا الصالحة .

والحاح الوعي الماضوي (تكثيف حضور الماضي في اللحظة الآنية) ، يقود في أحيان كثيرة إلى تعرية المستويات القصدية من الفعل المتعمد (النية الجازمة) ، بمعنى غياب الإرادة الداخلية التي تحدد هدفها وتقصد إصابته عن سبق الإصرار والترصد .

(٤٥) هذا الوضع لا يعني تحول السياقات العقلانية إلى مسارات فجة جامدة وقحة . بل ينبغي اختيار الأسلوب الطيب لإيصال العبارة المناسبة في المكان المناسب . ولا مفر من اعتبار ثنائية (النقد / النقض) أساساً منهجياً في التعامل مع الكيانات المختلفة . فعلى سبيل المثال : لا بد للطبيب أن يوصل للمريض حقيقة مرضه بأسلوب تثويري مقاوم لا أسلوب انتكاسي انهزامي ، لأن معرفة المرض خطوة أولى في علاجه ، كما أن مقاومة المرض ليست مسؤولية الطبيب فحسب ، بل أيضاً مسؤولية المريض الذي يجب إمداده بأدوات المقاومة النفسية والجسدية لكي يقود المعركة بنفسه لتحرير نفسه . وإذا أردنا انتشار المجتمعات من دائرة المرض ، لا بد أن تأخذ المجتمعات المبادرة من أجل تخليص نفسها بنفسها ، وعدم انتظار الحلول المعلّبة المستوردة . فعلى الغريق أن يخترع طوق النجاة بنفسه وهو في قلب الحصار الرهيب ، فالتعويل على قدوم شخص من المجهول يحمل طوق نجاة إنما هو أضغاث أحلام ، واعتماد على غائب افتراضي هلامي ، يتم اختراعه ذهنياً لخداع النفس ، وتخديرها بالأمانى الناعمة للهروب من الواقع الخشن .

وهذه النقطة الكارثية تُفرِّغ المحتوى الإنساني من الطبيعة الفعلية العاقلة ، وتسليخ إرادة المعرفة القصدية عن الفعل الاجتماعي ، مما يؤدي إلى انبثاق أفعال وهمية مختلطة ليس لديها خطة عمل واضحة للتغيير والتثوير ، وبروز إرادات مشوّهة ارتجالية لا تملك المشروع والمشروعية لإحداث نقلات نوعية في النسيج الاجتماعي ، ولا تمتلك حركةً تصحيحية لصناعة طفرات عابرة لحواجز التجنيس التمييزي⁽⁴⁶⁾ .

وهكذا تنحسر ثقافة السياسة المعرفية في قوالب التردد الماضوي ، حيث يعاد تدوير التراث بشكل مسيَّس وذلك من أجل نيل شرعية وهمية لمفاصل السُّلطات الاجتماعية الحاكمة في النسيج الثقافي المتشظي في أركان الكيانات البشرية .

والمشكلة الخطيرة في عملية تدوير التراث ، أو إعادة صياغته بما يضمن الحفاظ على مصالح النخب، وترسيخ عقيدة تصنيف الكيانات وتوثيق الذوات ، هي أن صياغة التراث لا تطرح الأسئلة على التراث ، وإنما تتعامل معه كنص توحيدى مقدّس ، تدور حوله باعتباره صنماً ، لكنها تغيّر زاوية الرؤية حسب قوة دافعية المصالح الشخصية الضيقة ، فيتحول التراث إلى حالة إشكالية معصومة يتم التحويم حولها دون امتلاك الجرأة على اختراق هذه المنظومة المختلطة ، أو اكتشاف حقيقة هذه الحالة المتشعبة من السلوكيات الثقافية، والمبادئ الاجتماعية ، والقواعد السيكولوجية.

وهكذا يتحول الوعي التراثي إلى تراث سالي على صورة عبء ثقيل على كاهل العاطفة الوجدانية الحاملة . وفي ظل هذا الانحسار الكارثي يتأطر الإحساس بثقافة التراث في قوالب

(٤٦) التجنيس التمييزي : هو تصنيف الذوات الفكرية (الروحية والمادية) وفق اعتبارات شخصية مغرضة بهدف التمييز ضدها، وتحييدها ، ونبذها ، وتصنيفها في دوائر سلبية موعلة في الحصار من أجل تحقيق أهداف ليس لها علاقة بسياسة الفكر ، وتحديات العقل الإنساني ، وإشكالياته الحاسمة . وهذا التجنيس لا يُقصد به توضيح حالة الكيان ، بل انتقاصه . فعلى سبيل المثال يطلق البعض لفظ " امرأة " على الكيانات الأنثوية ، ليس بهدف توضيح جنسها وحالتها البيولوجية والنفسية في محيط الثقافة الاجتماعية ، بل بهدف انتقاصها والحد من قدرها . وهكذا تأخذ المصطلحات منحىً قافزاً على المعنى السائد بهدف نقل المعاني المتداولة في سياقها المحترم إلى تمّ وشتائم مُغرِضة . فتتكرس قاعدة " كلمة حق أُريد بها باطل " .

جامدة من التردد والتكرار اللفظي دون مساءلة المعاني . وهذا يؤدي _ بالضرورة _ إلى تدمير القيم النفسية لمعالم السياسة الثقافية ، لأن العقل المعرفي _ حينئذ _ يصبح تاريخاً ماضوياً ، ورَجَعُ صدى باهتاً لا يملك القدرة على تفعيل منظومة (الإثبات / النفي) .

*

٧

الموجب والسالب في الوعي الثقافي

إن أهم ركائز الفعل الشخصاني الثوري امتلاك القدرة على تثبيت الموجب ونفي السالب . وفي حال عجز الفعل الشخصاني عن تحقيق هذه المعادلة الإثباتية في مواطن التأسيس ، والنافية في مواضع الدحض ، فإنه سينتقل من الفعل القادر على التطبيق إلى الفعل المحنَّط في متاحف الروتين الوظيفي القاتل لإسهامات سياسة الثقافة في تغيير المجتمع نحو الأحسن .

وهنا تبرز إشكالية كبرى تتمثل في الافتراضات القاتلة التي تعيق مسارَ توحيد شطايها الفعل الاجتماعي تحت راية الفاعلية السياسية المنبثقة عن تعريفات ثقافة الثقافة التي تعني _ باختصار _ توحيد الأفعال الثقافية وفق سياسة معرفية منهجية واحدة .

وهذه الافتراضات من شأنها إحالة التدبير التفسيري النوعي إلى حالة عبثية من الوعي والوعي المضاد ، الأمر الذي يُنتج عقلاً مشلولاً عاجزاً عن إثبات الوعي الآني اللحظي . والذي يفشل في إثبات الآنية سيفشل _ لا محالة _ في إثبات المابعدية (الطموح المستقبلي النابع من دافعية الحاضر) .

وهذا الفشل التكريسي تم تأطيره سياسةً منهجية لها مستواها الثقافي الخصوصي الرامي إلى قَوْلبة السُلطات الاجتماعية الهرمية الحاكمة بما يضمن استمرار الوعي السلبي في تفتيت العقل النقدي لمصلحة العقل التقليدي الناسخ .

وأدبيات فلسفة القَوْلبة لا تعني صناعة قوالب قاتلة للعنفوان المتأجج التغييري فحسب ، بل أيضاً تحويل الذهنية البشرية إلى قوالب بلاستيكية جاهزة ، تمهيداً لتسويق مجتمع علب السردين في تقاطعات النسيج الاجتماعي عبر أطوار الهرم السياسي الثقافي .

وكلما اتسعت الفجوة بين الذات المنطقية الفاعلة الناقدة وبين مستوياتِ النقض الذهني ، اتجه المسارُ الاجتماعي نحو نسخ الماضوي بحُكم سُلطة الموروث الذي تمت أدلجته اجتماعياً على شكل إرهابات ثقافية ، مما قاد إلى تفتيت المنهج اللغوي في تشكيل أبجديات تخلص الكيانات المجتمعية من الكبت ، وهذا صَنع إشكالية ظهور أبجديات سيكولوجية مشوّهة تقمصت دورَ العقل اللغوي الذي يُعطي للعواطف الإنسانية مساحتها ، ويمنح الشرعية الواهمة لكل إفرازات العقل السياسي المنسلخ عن المعرفة الثقافية ، والمنشق عن الوعي الجماهيري لصالح وعي النخبة التي لا تمثّل إلا نفسها في الدول البوليسية التي نسيت وجهها في زحمة أقنعتها .

إن الطبيعة التاريخية للوعي السياسي تتطلب مستوياتٍ نوعية في طبقات فلسفة الخطاب الثقافي المتوازن ، لأن ضبط التوازنات النقدية من أهم معالم النقض العقلاني للصيغ الفكرية الحاملة . حيث إن قيمة الحلم تتحدد من خلال أنساقه الثقافية ، وقدرتها على امتلاك أدوات الصناعة المنهجية للواقع المنشود .

والقدرة الاحتضانية للمعنى لا يمكن اختزالها في ألفاظ الذاكرة الثقافية المنسلخة عن المسار المجتمعي ، لأن الواقع هو أبجدية تصنعها القيمة الفكرية للحلم ، وعليه فإن انعكاس البؤر

الإستراتيجية في تقاطعات الإحساس السيكلولوجي يخلق المستويات الثورية في العاطفة الإنسانية المضادة لتأطير دائرة الاستهلاكية المغلقة .

والحلقة المفرغة في مسارات الجوهر البشري المحدود ، لا يمكن إيجادها عن طريق العقلية الأسطورية لقراءة الكف أو الأبراج الفلكية ، بل يمكن اكتشافها من خلال ترابط وعي المسارات على أرضية تثوير أبجدية الصيغ الرمزية للتاريخ الاجتماعي الذي يؤكّد بشكل ديمومي غير محدود

وبالتالي ففكرة توسيع الذاكرة الحدودية لمعالم المنحى النفسي الثقافي ليست وليدة الآنية الارتجالية غير المنطقية ، بل هي تأسيس حي متلازم مع انبثاق العاطفة الثقافية في أدق تفاصيل النسيج الاجتماعي المحصور في المأزق الوجودي الحرج .

ومن أجل إخراج الكيانات البشرية من مأزقها ، تطرّح تجانسية السلوك الثقافي مشروعاً خلاصياً تصحيحياً من أهم ركائزه توسيع الحدود ، وتنقية الذاكرة الوجدانية من مساحات غبش السُلطات الأبوية الكهنوتية الحاكمة في النسيج الضميري للأنا والآخر الداخلي .

وما دام هناك تواجد فاعل للحدود بين طبقات العقل الداخلي ، فسوف تظل الحواجز البينية في الذات الفردية المتأكلة ، والذات الجماعية المضطربة ، تقوم بدور هدام يهدف إلى تفتيت رمزية إشارات التماسك الواعي، فيفقد العقل التجانسي قدرته على توحيد قوى المجتمع تحت راية العقل.

وما دام هناك شوائب سُلطوية في الذاكرة الحاملة لمشروعية العاطفة الإنسانية ، فسوف تتحول قيم التجانس الوجداني إلى أيديولوجيات متناحرة على سُطة وهمية، ومتصارعة على بقايا مجتمعات، ومحصورة في دائرة السيطرة على الوهم ، والتنازع على احتكار الفراغ واقتسام العدم . فتظهر الحروب الوهمية الرامية إلى اللاشيء ، ويظهر الأعداء الوهميون .

وكل هذا التخبط يؤدي _ بالضرورة _ إلى إنشاء مجتمعات الأشباح ، وانتشار الفوضى الخلاقة ، وتكريس كيانات الخيالات المرضية العاجزة عن إيجاد حاضنة منطقية على أرض الواقع

ومن أجل القضاء على هلامية الذهن المجتمعي الانتكاسي ، لا بد من الاعتماد على الولادات الأبجدية المتمتعة بالديمومة الفكرية في أنسجة سياسة المعنى الثقافي . فقيمة الولادة الفكرية

المتواصلة هي الضمانة الأساسية لكسر الحاجز المرّضي في نسيج المجتمع ، وانتشال الواقعة المحدودة من غيش الخيالات القاتلة والافتراضات المسمومة .

وكل مجتمع يتكون من محيط خيالي جدلي، أو افتراضات فلسفية صابونية عبثية، سوف يتآكل تدريجياً نتيجة انكسار المستوى الإشاراتي للمعنى الثقافي . وكل صورة ثقافية هي— في حقيقة الأمر— كيان سياسي يحمل بذور العمق الإستراتيجي للعاطفة الثورية في شبكة صناعة الشعور الاجتماعي العمومي المحتاج إلى تشوير زوايا رؤيته ، من أجل التقاط اللحظة الزمنية المناسبة لإحداث طفرات التغيير ، حيث يُنقل المجموع البشري من خانة اللهاث وراء كسرة الخبز إلى مركزية تأسيس المنحى العقلاني الذي يعيد إنتاج العواطف الإنسانية من منظور الفكر التأصيلي الذي يبني قومية الخيال المنطقي لا هلامية الخيالات المرّضية .

وهناك فرق جوهري بين الكيانات السوسولوجية ينبع من طبيعة مصدرها . فالكيان الناتج عن الفعل الثقافي التصحيحي هو كيان حالم يوازن بين الخيال والواقع ، وهذه الموازنة قوة دافعة لتكريس التصورات الإنتاجية . أمّا الكيان الناتج عن الفعل السياسي الابتزازي فهو كيان مصلحي مشلول محكوم بقوة النخبة النفعية ، وضائع بين جدليات التكوين الهلامي ، نتيجة تأطير الخيال كمرحلة مرّضية متشعبة.

وهكذا تتضح أشكال المعرفة المجتمعية من خلال طبيعة التاريخ الرمزي الماورائي للخلفية الخيالية ، فالخيال — بالإضافة إلى مستوى قوته الدافعة — عبارة عن ذاكرة استثنائية هاربة من حدود الزمنية الآنية الموغلة في الحصار ، وهذا يعطي القدرة العقلانية على صناعة الشرعية الثقافية مزيداً من مساحات التحرك والإبداع والمناورة في النطاق التصحيحي المنهجي لا المراوغ .

والعقل المنهجي هو التدفق الطبيعي الواعي في التقاطعات الإنسانية الشرسة ، وكما أن الإنسانية تظل مفرغة من معناها بدون امتداد روحي متجانس ، كذلك البنى المجتمعية تظل ميتة ما لم تجد حاضنة غير اصطناعية تحتضن المشروع الفكرية للأنا الجزئية والكلية .

ومهمة الإنتاجية المعرفية كامنة في تفسير التجانس الظاهري لتاريخ رمزية الخيال، تمهيداً لفك شيفرة تحولات النسق الباطني، لأن الضرب على السطح دون الوصول إلى العمق من شأنه تكريس السطح كعمق وهمي يقضي على العمق الحقيقي ، وبالتالي فإن إشكاليات البناء المجتمعي

ستدخل _ حتماً _ في جدلية التفريغ والإحلال. أي تفريغ الأنساق الاجتماعية من أبعادها الثقافية المعرفية، وإحلال الجدليات السطحية في الواقع البُري⁽⁴⁷⁾.

ولأن ضغط التدفقات التاريخية على قوالب المعرفة الاجتماعية يأتي على شكل انبعاثات عالية التسييس، تحولت الصيغ الثقافية إلى متواليات وهمية، بحيث أضحي المد العقلاني انحساراً مركزياً شديداً الاستقطاب، لأن العقلية الحاكمة على أنساق المشاعر السيكلولوجية هي عقلية فوضوية وغير منهجية.

وليست العبرة في صناعة مستويات عقلية في الأدوار المركزية للثقافة، وإنما في صناعة منهجية عقلية تصحيحية قادرة على تدعيم الموجب ونفي السالب. فلا فائدة من القدرات العقلية إذا تم حشرها في زاوية استقطابات ردة الفعل، لأن المستوى العاطفي _ في تلك اللحظة _ يفقد قوة الإبهار، ويخسر دافعية عنصر المفاجأة. وعندئذ تصبح العاطفة الوجدانية تياراً ميكانيكياً يُدار بأجهزة التحكم عن بعد. وهذه التداعيات الانسحابية فرغت الشرعية الثقافية من أبعاد التأثير الواقعي، ومنطقية التواجد العقلاني للمجتمع على رقعة اللغة السوسولوجية.

واضحلال طبيعة تلقائية التاريخ الوجداني الداخلي لم يأت نتيجة جدلية ميكانيكا الأحاسيس فقط، بل نتج _ أيضاً _ بفعل تفشي الحواجز الرمزية في العقل الشخصاني الواحد، بحيث صار الفرد مصاباً بانفصام بالشخصية _ رغم تماسكه الظاهري _، ويتقمص أدواراً متناقضة نتيجة انتكاسة الصور الذهنية التي لم تجد واقعاً ملائماً.

وهذا الخليط العجائبي من مزيج (الذهنية / الواقعية) هو تشكيل للعناصر المتحوّلة بسبب غياب العنصر الثابت المنطقي. فالثابت في تقاطعات المعرفة السيكلولوجية هو استهلاكية

(٤٧) الواقع البُري _ نسبة إلى البئر _ : هو المادة المعاشة على شكل بئر محدودة المعالم، ومحصورة التفاعلات الإنسانية. فالبئر كُبُعة جغرافية هي متواليات التركيز الضيق الذي لا يملك امتداداً في الطبيعة، ولا يقدر على صناعة مستويات حراك اجتماعي دُجومي أفقياً وعمودياً، لذلك فإن الطبيعة الجغرافية للبئر تنسحب على المجتمعات القائمة المقموعة، فيؤول الواقع البُري إلى مجتمع بُري يحمل صفات الانتكاسة الجغرافية، والتقوقع على الذات بلا تاريخ أو دورٍ فاعل في مسيرة صناعة الأحداث المستقبلية. لذا يمكننا القول إن البئر فلسفة الجغرافيا المجردة من المستقبل، وهذه الفلسفة هي أدبيات الموروث الحاكم في مجتمعات الانحسار، وكيانات الاضمحلال.

الفراغات الاجتماعية . وبعبارة أخرى إن الثابت في معادلة البناء الاجتماعي الوهمي هو تراكيب متغيرة تتبادل الأدوار فيما بينها ، وتقتل بعضها بعضاً ، مثل أعضاء الإنسان التي تحارب ذاتها في جسد منها .

والتراكيب الثقافية البدائية المتبادلة هي متواليات مقتولة في مهدها ، وتقوم بقتل نفسها ، وكأنها تستهلك ذاتها ضمن الفراغ الاجتماعي المرعب الذي يتمركز في روابط الاتصال الفكرية ، نتيجة غياب دور الفعل الاجتماعي في تحديث أدواته ، وتراجع أداء العقلانية التأصيلية في سد فراغات البنى الإنسانية الناتجة عن الفراغ العاطفي ، ليس بالمعنى الرومانسي ، بل بالمعنى السياسي الناشئ في مجتمعات الكبت الجنسي والقمع السياسي .

ومن أجل الخروج من تأطيرات الكبت الديمومي تحتياً وفوقياً ، لا بد من تصدير القيم الثورية من الذات الإنسانية الشخصية إلى المجموع الكلي الاجتماعي وبالعكس ، وذلك عبر خط إنتاج متماسك يعيد فحص الافتراضات التي تم إلbasها قناع المسلمات ، مع الانتباه إلى قيمة الثورية الفكرية المضادة للفوضى والعبث وسفك الدماء .

والبعض يحصر مبدأ الثورة في قلب أنظمة الحكم بشكل دموي ، وتدمير مكتسبات المجتمع، وعسكرة السلوك الاجتماعي ، وإقصاء المعارضين في صراع جنوني على السلطة يأكل الأخضر واليابس . والحقيقة أن هذا الأمر يتعارض - جُملة وتفصيلاً - مع المد العقلاني التنويري، لأن ثورية التنوير هي الضمانة الأساسية للسلم الاجتماعي وأمن المجتمعات ، خاصة أن التراكيب الثورية في مجال الفكر مسيطر عليها من قبل آليات صناعة البعد الثقافي الداخلي والخارجي .

والسلوك الاجتماعي الثوري ليس إعادة ترتيب الفوضى بقدر ما هو عملية إنتاج لغوية جديدة تعتمد على صناعة أبجديات تمتلك أدواتها لاكتشاف زوايا مختلفة لرؤية الحقيقة . وهذه الأبعاد الجديدة هي التراكيب المستقبلية القادمة التي سوف تتكسر كمجتمعات حقيقية ذات قوة منطقية ، ودافعية مستدامة ، وتنمية فعالة ، ليس على صعيد المستوى الشعراي التجريدي ، وإنما على مستوى البعد العقلي الذي يُفسح المجال للعقل لكي يني قلعه على أساسات التحليل المنطقي لإفرازات المجتمع لا جماجم أفراد الطبقات الاجتماعية المتدنية .

إن الركيزة الوجودية في متواليات النسخ الثقافي، تعتمد على فك شيفرة التعقيدات الاجتماعية المرتكزة إلى أولية الفوضى الذهنية ، وبدائية الإحساس العقلاني باتجاهات العاطفة . ولكيلا يدخل

التكوين الاجتماعي في جدلية التأويلات ذات الصبغة التحويلية الاحتمالية التي تدور حول المركز دون إصابته من أجل تثبيت الأطراف كمراكز معرفية سيادية بُغية تفتيت المنبع الأساسي للعلاقات التنويرية المجتمعية ، فإن الشرعية الثقافية تعيد صياغة أنساقها الوجودية لتتفادى حدوث صدام بين الشرعية الأخلاقية للنسق الثقافي ، وبين السياسة العرفية الحاكمة على مسارات العقل والعاطفة .

وإذا استطاع المشروع التفاعلي تأصيل ثقافة الأطر الفضفاضة المتماسكة في طبيعة التحولات العقلانية ، فإن صورة الفرد ستعكس _ إيجاباً _ على الفكر السيكولوجي الكلي . الأمر الذي يقود إلى إحداث متواليات تفاعلية من الولادات المستمرة في الرّحم المجتمعي الثقافي ، لأن ديمومة الولادة ضرورية للغاية في تنويع مصادر الإبداع التجانسي ، ووفق هذه النظرة ينبغي على المجتمع الإنساني أن يغيّر جلده باستمرار⁽⁴⁸⁾ ، لِمَا في ذلك من قوة التنوع الفكري ، وتماسك التنوع الثقافي الراسخ في اقتصاديات المعرفة ، حيث العقل يتدخل في النسق الاجتماعي بشكل مناسب ، ويتغلغل في النسيج الجغرافي المناسب ، تحتياً أو فوقياً ، ويحدد الوقت الملائم للضرب على السطح أو الضرب في العمق .

وقد تنشأ سلوكيات رمزية مستترة متمركزة في ذواتنا كخلفيات سيكولوجية محضّة ، ووَحْدَهَا العقلانية المؤمنة بالتنوير الحضاري قادرة على اكتشاف الماورائيات الداخلية، وإخراجها إلى النور ، وترسيخها نظاماً وجودياً متماسكاً ومرناً . وهذه المنهجية بالغة الأهمية ، لأن تمركز الماورائيات المشاعرية المكبوتة في الذات الإنسانية الشخصية وعدم وجود مُتَنَفِّس لها ، من شأنه أن يُكْرَس غُزْلَةُ الفرد في غُزْلَةِ منظومة العقل الجمعي، وهذا يؤدي _ حتماً _ إلى تكوينات مجتمعية منبوذة في

(٤٨) هذه الفلسفة المنهجية ينبغي استيعابها في السياق الطبيعي للفكر التّهضوي . فلا يعني تغيير الجلد التخلي عن الثوابت والقيم الفاضلة، بل يعني القدرة على تجديد الأنساق التكوينية لأبجدية تاريخ الحلم، لئلا تتحول الأفكار إلى قلاع معزولة عن محيطها ، ومن أجل تفادي قَوْلِية المناهج الفكرية في عوالم الأرشيف . وهذا التجديد في الوسائل من شأنه تحديث زوايا النظر إلى المواضيع المصرية ، والبحث التأسيلي في ماهيات القضايا الحتمية، وإعادة فحص درجة الحتمية من خلال فصل الثابت عن المتحوّل، وتمييز العناصر السياسية الخالصة عن العناصر الثقافية المسيّسة . وهكذا ، تتأسس عملية تغيير الجلد كإعادة بحث عن الهوية والمسار والمصير .

محيطها الطبيعي، ومجالها الحيوي. وبالتالي تنتكس قيمُ الانتماء إلى المنظومة الجماعية، وتصبح الفلسفةُ الاحتلالية تغييراً في الأسماء وأشكالِ الأقنعة ، دون أي تغيير حقيقي في سياسة الأمر الواقع .

والخطورة الحرجة تكمن في احتلال الفرد لذاته ، حيث يتحول الإنسان إلى آلة ميكانيكية مشتملة على ثنائية (القامع/ المقموع) ، فيقمع الفردُ نفسه استجابةً لضغط العوامل الخارجية ، ومن هنا تنشأ فلسفة الرقيب الداخلي المتوحش الحامل للعقلية الجاسوسية ، فيتجسس الفردُ على ذاته من أجل تدمير ذاته .

وفي هذا السياق ينبغي التمييز بين الرقيب الداخلي الشريف (الضمير الحي) ، وبين الرقيب الداخلي الجاسوسي الذي ينخر في تقاطعات الفكر الجواني ، ويحشر الفردَ في زاوية التشويش ، والتآكل الذاتي الشخصاني ، والتدمير الممنهج في الأحاسيس الداخلية .

وتتركز مهمة الثقافة في هذا الموت الانتكاسي التدريجي الضارب جذوره في فلسفة تكوينات المجتمع في إقامة الحواجز المتينة بين الأفراد والوحوش العائشة في دواخلهم ، تمهيداً لتنقية الداخل الإنساني من قيمة التوحش ، وتداعيات التدمير الذاتي . ولا يمكن للفرد أن ينتصر على العناصر المحيطة وهو مهزومٌ داخلياً ، لذلك ينبغي تقوية الجبهة الداخلية الفردية تمهيداً لتغيير المنظومة المجتمعية الكلية نحو الأفضل ، حيث الانقلاب الشامل على التخلف بكافة أشكاله .

والشرعية الثقافية هي صانعة الإرادة السياسية التي تنتشل التكوينات السالبية ، بُغية ترسيخ فعل التغيير ماهيةً اجتماعيةً تعيد بناء العقل الكلي ضمن متواليات التأصيل المنظومي المتجانس ، من أجل تجذير الوعي المستقبلي بالماوراء المعرفي الداخلي حراكاً عقلياً يقيم قطعةً شاملةً ونهائية بين الإنسانية والتوحش .

وتظل ماهياتُ دَرَجَ تعارض المسارات تحدياً شرساً ، يستلزم تأصيل العمل العقلاني حراكاً اجتماعياً على أرضية الوعي الفلسفي التطبيقي ، بحيث تأخذ المسارات الفعالة في التغيير الفكري الداخلي والخارجي تشكياً متوازياً ، لأن قيمة التوازي في أفعال التغيير الاجتماعي تتطلب إسناداً خارجياً متمركزاً في فلسفة المنهج الذي يكرّس البنية التحتية كحدث تفسيري للطموح البشري غير المباشر ، ويكرّس البنية الفوقية كوسيلة تخاطب بين منظومات الفعل العقلي السوسولوجي : (الأنا الجزئية ، والأنا الكلية / الخلفية الاجتماعية للسياسة ، وسياسة اختراع الخلفيات الثقافية / التفكير من أجل التفكير ، والتفكير من أجل التغيير / تشوير السياقات البشرية ، وتحديد الأنساق

الحياتية / ثورية المعرفة ، وثورية الفوضى / إيقاع الوجود الإنساني على أرضية التجريد الفلسفي ، وإيقاع الحياة الثقافية وفق منظومة التطبيق الفكري) . ولا بُد من التفريق بين هذه العناصر ، وإيجاد روابط منطقية بينها وبين مسار المجتمع الإنساني .

إن العائق الذهني الحقيقي الذي يُشْرَعْن عزلة الفرد في محيطه ، ويغذّي غربة الفرد في ذاته ، هو الإخفاق في تعيين الأوليّة ذات الأسبقية ، أي عدم امتلاك أدوات الوعي الشمولي الكاشف من أجل تحديد النواة الأساسية لبدء الشرعية الوجودية . فلم يتم تثبيت الأوليّة البدائية : البيضة أم الدجاجة ؟ . من السابق ومن اللاحق في هذه المنظومة المتواجدة على خارطة الأحاسيس الداخلية والوقائع الخارجية ؟ . هل البيضة أحضرت الدجاجة في سياق فلسفة التواجد الطبيعي أم الدجاجة أنتجت البيضة ؟ . هل المرأة انعكاس منطقي ونتيجة طبيعية للمكيّاج ، أم المكيّاج نتيجة للذات الأنثوية بكل سياقاتها اللفظية والمعنوية ؟ . هل الحاكم من صنع الشعب أم الشعب هو الذي صنع الحاكم ؟ .

وهذه الأسئلة قد تبدو للوهلة الأولى سطحية ، وبالغة السذاجة ، ولا تعدو عن كونها مخيالاً لفظياً تضليلاً . إلا أن التفكير العميق في هذه الأسئلة المركزية ، وما تنطوي عليه من أبعاد ماورائية ، ودلالات مابعدية ، سوف يقود إلى استنتاجات مرعبة من شأنها إعادة فهم الخارطة التاريخية لنشأة جغرافيا المشاعر الإنسانية وانعكاساتها على الواقع العملي الفاعل ، لأن ثنائية (الفعل / الفاعل) لا يمكن أن تؤدي دورها إلا في مناخ من حرية التأصيل العقلاني ، والتأسيس المنطقي المعنوي ، وهذه هي الفاعلية الحقيقية في تكوينات اجتماعية شرسة بشكل تكثيفي صادم .

ومهما حاولنا حقن الثقافة بالرومانسية الخيالية الدبلوماسية الناعمة ، إلا أن المعرفة الفكرية لا بد أن تشتمل على عناصر ثورية تنويرية تصنع صدمة في تاريخية بناء أنساق المجتمع . ومن أجل تفادي اصطدام المسار العاطفي المجتمعي العمومي بالطموح الفردي الشخصي ، لا مفر من صناعة مساحة ثقة متبادلة بين المتوازيات السيكلولوجية ، وتوفير مسافة أمان بين القطارين السائرين على نفس السكة (الفرد والجماعة) . وإذا نجحنا في توفير هذه الشروط الصعبة سنضمن تحول الفعل إلى فاعل ، وتحول الفاعل إلى تكوين اجتماعي متصاعد ، وتكثيف الوجود الثقافي ليس كفعل متوتر منفلت ، بل كأداء عقلائي حامل لأنظمة تحولات الجماعات الإنسانية الساعية نحو إيجاد مصيرها المشترك مع عناصر الطبيعة ، مما يؤدي إلى إعادة صياغة ماهية السيادة البشرية على التفاسير الجوهرية . وهذا سوف يضرب الغرور البشري ، ويعيد الفرد إلى مجاله الحيوي

الطبيعي في منظومة الوعي الكلية بعيداً عن سيادة صابونية مفرغة من معناها ، لأن السيادة الحقيقية هي سيادة الحق على كل إفرازات التشكيل الوجودي ، وسيطرة الحقيقة على العقل الموجّه لكل تقاطعات الحياة بكافة عناصرها المحسوسة وغير المحسوسة .

إن الذاتية النقدية التي تتكشف من خلال التكوينات العابرة لخنادق التجنيس ، هي مسار مركزي يشتمل على صناعة الظاهرة الاجتماعية خارج فلسفة المصيدة ، لأن بعض الظواهر الإنسانية التي تمت السيطرة عليها من قبل التمرکزات الأبوية السُلطوية جرى تسييسها ، مما أدى إلى تحول الفراغات المعرفية إلى ثغرات فكرية، وتحول الفكر الاجتماعي المتغلغل في النسيج البشري إلى فخاخ استقطابية ، مما أنتج واقعاً متردياً مشتملاً على إنسان شبحي هلامي صابوني مفرغ من محتواه المعرفي المستقبلي، وهذا التدجين الذي أصاب الإنسان أدى إلى وقوع المجتمع بأسره في مصيدة الفعل ورد الفعل ، حيث إعادة إنتاج العنف في طبقات الهرم الاجتماعي ، وإلباس هذا العنف والعنف المقابل لباساً دينياً تارّةً ، ولباساً سياسياً تارّةً أخرى .

وصناعة خارطة الفعل العنيف أفرزت أشكالاً بؤرية عميقة وخادعة وغامضة ، فنشأت في صميم العقلية المجتمعية فلسفة الثقوب السوداء على المستوى الفردي والصعيد الجماعي ، فتكرّس مجتمع الوهم كواقع لا مفر منه ، حيث وجه الإنسان إلى الجدار (الطريق المسدود) .

ومجتمع الثقوب السوداء هو تكوينات مضطربة تتخذ من الفوضى الخلاقة نظاماً دستورياً مقدساً ، وتكرّس لشدة التجاذب المجتمعي بين الأطراف المتنازعة على الوهم واحتكار الخديعة ، وتأسيساً للعنف المجتمعي الناتج عن العصبيات القبلية والتحزب للأشخاص لا المشروع ، وتأطير للشخصانية الغامضة التي تجذب ضوء الوعي الجماهيري الطامح إلى الكشف والاكتشاف ، كشف الأبعاد المستورة في متواليات اضطهاد المعنى الذي يتم تدجينه لكي يتجنس الفرد على ذاته من أجل تدمير ذاته ، واكتشاف الأغوار السحيقة في مستويات نشأة العواطف البشرية عبر التنقيب عن تذبذب النظام الأخلاقي العمومي . وهذه الأبعاد الصادمة تشكّل فيما بينها تياراً شديداً المتمركز في عوالم الفخ الاجتماعي .

وانكسار الحلم الإنساني المتشظي في مفاصل هلامية الوعي الجماهيري، والمتفجر في تضاريس شبكة العلاقات البشرية ، يؤول إلى نظام اجتماعي استبدادي مغلق يصطاد الأفراد تماماً كما تفعل الثقوب السوداء في الكون التي تجذب الضوء الطامح إلى اكتشافها، وهكذا تحافظ على غموضها وسر قوتها ، وتظل عصيةً على التفسير والاختراق .

وكل الأنظمة الاستبدادية هي شبكة عنكبوتية تصطاد كل الأجسام الطامحة إلى اختراق التأصيل القمعي من أجل تفسير أبعاد الكشف والاكتشاف . ويسبب هذه الأنظمة المغلقة شديدة التمرکز والاستقطاب يحتاج الفعل الاجتماعي _ أكثر من أي وقت مضى _ إلى التفوق على ذاته ، وصهر المراحل ، لكي يتحول النشاط البشري الروتيني العادي إلى إحساس زمني بتاريخية الثقافة على خارطة انفتاح الزمان على المكان والعكس ، بغيّة توحيد الزمان والمكان على رقعة الانفجار الثقافي المنضبط .

وفي حال بقاء الزمنية الثقافية محصورة في إشكاليات المكان ، فإن هذا سيدفع باتجاه انطفاء الذاكرة العمومية للمعاني ، فتنشأ في قلب الحالة الزمنية بؤر وهمية لأمكنة افتراضية من شأنها تحويل الإحساس الثقافي إلى خديعة بصرية ، لأن فلسفة الافتراضات تعتمد بالدرجة الأولى على صناعة عالم مخيالي واهم ، ثم إسقاط القيم الفكرية المصبوغة بالهالة المنهجية على كل أنساق ذلك العالم الوهمي .

وخطورة تفصيل المكان على مقياس زمنية المناهج الافتراضية ، تنبع من تجذير الوهم الصابوني واقعاً ملموساً في تاريخ الذهن فقط دون وجود أية دلائل محسوسة على أرض الواقع ، وبذلك يتحول الذهن التجريدي إلى واقع جديد ، وتنهار فلسفة الحياة المادية للكيانات الروحية .

وهذا الخلط الرهيب يجعل الفرد غير قادر على تحديد وجوده من عدمه نتيجة تكثيف المراحل الزمنية على رقعة جغرافية محدودة ، تُحال إلى ثقافة الأشباح المتحركة في أجزاء العمود الفقري للمجتمع الإنساني .

وإذا وصل الخدش إلى العمود الفقري للكيانات الاجتماعية بكل مكوناتها التحتية والفوقية ، فإن شللاً حتمياً سيصيب منابع صنع القرار الثقافي ، فيفقد الفعل الاجتماعي قدرته على تشكيل أبجديات الوعي ، مما يقلل من الترابط التجانسي في تمركزات اللغة النواة التي تمنح للذات المجتمعية شرعية التغيير الحاسم عبر تفاصيل الهرم السيكلولوجي لأبجدية المجتمع . وهذا الذي يوقف عجلة التقدم المعرفي .

والإشكالية الصادمة في هذا التشكيل المبدئي المتشابك ، هي عدم امتلاك أدوات جس النبض الداخلي لمشاكل ثورة الثقافة ، بمعنى عدم القدرة على تشخيص حالة انكسار الفرد في متاهة الجماعة ، وتشظي الجماعة في عزلة الفرد ، وذلك راجع إلى العجز عن الوصول إلى منبع التشظيات المعرفية الصارمة . وهذا مؤشر واضح على أن التحليل الفلسفي المتواجد في النسيج

المجتمعي ، إنما هو صَرْبٌ على السطح دون الوصول إلى العمق ، وملازمةً للظواهر الإنسانية البالونية المنتفخة دون التنقيب في عمق الشبكة الفكرية لسوسيولوجيا أبجدية الفرد والجماعة في مجتمع التغيرات السريعة القاتلة .

لذلك ضعفت اللغة الثقافية ، وانحسرت في مدارات عزلتها بلا وجود حقيقي لمؤشرات تشوير الجذور المهيئة لمجتمعات الانطفاء الشاسع نتيجة توالي زمنية القمع ، وتزامن تشييد أبنية الاضمحلال الثقافي مع تركيز السلطات الأبوية الوصية على المجتمع البشري بكل إفرازاته الطبقية والترابطية .

لكن النظام الأبوي الميسس يخلق تاريخاً جديداً للفكر الثقافي ، بحيث تتكشف إرهابات انهيار التوعية المعرفية في قوالب المنظومة المجتمعية ، وهذا يضمن نشوء تيارات منحرفة عن السكة ، مشغولة بحل مشاكل الأطراف ، ناسية المتواليات الشعورية في المركز . وسوء التقدير هذا من شأنه إنشاء مجتمعات وهمية مقنعة على الأطراف ، وتفرغ المركز التجانسي من قوة الإمداد المعرفي ، والتدفق المعلوماتي الذي يفترض به نقل المجتمع من حالة السلب إلى حالة سلب السلب (الإيجاب التطهيري) ، أي امتصاص الصدمات الاجتماعية ، وسحب الهزات الذهنية العنيفة، لئلا تصل الضربات المرتبطة بغياب روح الانتماء الفردية وضعف احتضان الجماعة للفرد ، إلى العمود الفقري للمجتمع الإنساني ، لأن ذلك من شأنه تثبيت الحواجز الظواهرية الديناميكية في خطوط اتصال البنية التحتية بالبنية الفوقية ، وبالتالي تصبح مستويات انتقال عاطفة تنوير السياقات الثقافية من النخبة إلى العامة وبالعكس بالغة التعقيد، وتحتوي طرقاً فلسفية صعبة ، مما يجعل المثقف في برجه العاجي يؤسس للعدم ، ويهندس الفراغ .

والتنظير الذي يقوم به المثقف يبدو وكأنه مخاطبة الفرد لذاته ، والمشاريع الحاملة المرسومة في ذهنه الإبداعي ستظل رهينة في حيز الزمن الذهني دون الانتقال إلى الواقع التطبيقي . وهذا مرجعه إلى انسداد أفق الخبرات الوجدانية اللفظية . وهكذا يغدو صوت المثقف صرخةً في واد بلا رجوع صدى ، لأن الأبجدية الثقافية التي يفترض أنها متجانسة أضحت مجعلاً للتناقضات ، وتكتلاً من الحواجز الأمنية الصارمة التي تعزل أماكن صناعة القرار الاجتماعي عن منابع توليد السياسة الثقافية الانتشالية .

وتشخيص الحالة الحواجزية _ إن صح التعبير _ أسهل بكثير من عملية إزالة الحواجز المثبتة في الأبجدية المجتمعية الثقافية عبر تراكم السنوات والأزمات . وإذا أرادت التكوينات الحاملة

لشرعية الهوية أن تدمج البقاع المعزولة في الجسد الأبجدي السوسولوجي ، فلا بد من تصنيف الجماعة البشرية كلغة شعورية تنتمي إلى قومية الخيال الثوري الذاهب إلى التطبيق ، لأن عزل الخيال عن الواقع سيعيد الفكر الاجتماعي إلى المربع الأول ، الذي يحتوي على متواليات هندسية مُحكمة الإغلاق ، تتكون من الأماكن المعزولة ، والروابط المنبوذة ، والشوائب الوبائية الراسخة في فلسفة لغة الخطاب التبادلي بين أركان الكيانات البشرية .

وفي حال اتخاذ المجتمع النخبوي (صانع فلسفة الحراك الاجتماعي) قرار فتح المساحات الفكرية على بعضها البعض عن طريق إزالة كافة الحواجز بين اللفظ والمعنى ، فلا بد من توفير أرضية تطبيقية قادرة على احتضان التدفق المتوقع في التكوينات العقلانية الناتجة عن اندماج المساحات الفكرية ، لأن الذي يقوم بفعل التغيير لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار ما يأتي بعد ذلك الفعل من التزامات وتحديات .

وبالتالي فإن تحديات أسئلة المابعد هي ثقافة بحد ذاتها قائمة على أسس اكتشاف الماوراء اللفظي وصولاً إلى القيمة المعنوية الكامنة في المنظور الماورائي . وهكذا ، لا يمكن دراسة الفعل الاجتماعي التغييري بمعزل عن التطبيقات المابعدية التي تتبع التأسيس التغييري .

ومن أكبر الكوارث في المجتمعات الإنسانية ، غياب الرؤية الإستراتيجية للموراء المختبئ خلف التنفيذ الفعلي للتغيير . فالتلميذ يسعى للنجاح في الامتحان فإذا نجح لا يعرف ماذا يفعل . وصانعو الانقلابات العسكرية بعد أن يُسقطوا النظام لا يعرفون كيف يُديرون الدولة . والإنسان الطامح إلى الزواج لا يعلم ما يترتب على هذه العملية لاحقاً .

وهذه الأمثلة المنتقاة _على سبيل المثال لا الحصر_ تعكس غياب الرؤية المركزية الشاملة للوسيلة والهدف ، والمسيطرة على الظواهر والمابعديات . وهذا أدى إلى تكريس شرعية الأفعال الارتجالية ، فأضحت التنمية أشبه بالعصبية القبلية ، حيث يتداعى الكل ولا أحد يهتم بالحق ، والكل يُصَفَّق ولا يعرف لماذا يُصَفَّق .

وهذه نتيجة منطقية للتسرع في اتخاذ القرارات المصيرية نتيجة الضغط المتماهي مع جذور الأفعال الارتجالية الناشئة في المجتمع الخالي من الفكر الإبداعي المتماسك . وغياب المرجعية (النبع) سيدفع كل الروافد إلى إعلان استقلالها ، فيصبح كل رافد نهراً قائماً بذاته ، وكل طرف مركزاً مستقلاً بفلسفته ، وبالتالي تصبح عربات القطار بلا قاطرة قائدة ، مما يؤدي إلى تشتيت الجهود الرامية إلى فعل الحراك الاجتماعي التغييري ، فتأسس ثقافة النفي والنفي المضاد ، وتتعزز

فلسفة الإقصاء والإقصاء المقابل . وفي أي مجتمع ظالم فإن الجميع سيشعرون أنهم مظلومون . وهكذا يتساوى السجان والسجين أمام فلسفة المجتمعات التي لا يغطيها إلا ورقة التوت . وهذا الاضمحلال سرعان ما يظهر بشكل سرطاني يؤثر سلباً على وحدة الوجود البشري داخل الرقعة الثقافية ، ويهدد مصير الكيان الإنساني الذي يصبح قبلةً ملغومة في قالب مجتمعي عاجز عن توفير المتطلبات الأساسية للفرد على الصعيد الروحي أو المادي . أضف إلى هذا غياب الصورة المتفائلة بمستقبل مشرق بسبب تمركز الوعي الذهني خارج منهجية الانتماء ، لأن الفرد المسحوق المفرغ من روح الانتماء ينظر إلى المجتمع كشقة مفروشة سرعان ما يغادرها ، أو كسفينة غارقة يريد أن يقفز منها ، وينهي كل صلاته بها بالضربة القاضية التي تجرف في طريقها مركزية قوة الذكريات ، وروح الانتماء .

إن السمة المنطقية لتوليد مسارات الانتماء الداخلي في المجتمع ، لا بد أن تمر عبر التوليد الثقافي المستمر الذي يضطلع بدور صناعة الخطوط المتوازية التي تسير فيها اشتقاقات الوعي وما يتفرع عنها من إفراقات . ونقطة الضعف التي قد تصيب الحصيلة اللغوية للحراك الاجتماعي أثناء ولادة الأجنة الأبجدية ، هي تغييب النسغ الثقافي عن مستويات الشعور اللغوي من أجل إحداث قطيعة بين الخيال والواقع لتكريس سياسة الأمر الواقع ، وتثبيت سلطة من يقف وراءها . وهذه الفلسفة المشبوهة يتم اعتمادها للحفاظ على الوضع السائد خوفاً من أي تغيير قد يهدد وجود صانعي القرار في المجتمع المضمحل وجودياً ، المنحل فلسفياً .

وهذه المنهجية تعطينا فكرة واضحة حول خطورة عملية التغيير التي قد تسبب نزعةً فوضوية اجتماعية إذا فقدت السيطرة على سياقات الوعي الثقافي التصحيحي ، لأن عملية التصحيح هي إعادة القطار الخارج عن السكة إلى وجوده الطبيعي على السكة . أي تكوين المسار الرمزي في قلب الحدث لكي تُنشئ المعاني خطوط اتصال بين الألفاظ المتناحرة على رقعة اللغة الناتجة عن صراع الأجنحة المجتمعية .

وهنا تنشأ أسئلة مصيرية حاسمة تمس تأثير الصراعات الاجتماعية على أشكال الظاهرة الثقافية ، وتأثير اتجاهات مراكز صنع القرار على العقل الفلسفي للمشروع الثقافي . ولا يخفى أن الصراع ينتج ثقافات متعددة كما أن الصدام الداخلي في التكوينات الاجتماعية يخلق وضعاً من ردود الأفعال المصبوغة بهالة الأفعال المستقلة . وهذا الوضع يصنع ثقافةً ارتجالية مؤقتة تأخذ شكل التلميع الأيديولوجي ، بحيث تصبح الشرعية الثقافية كالأحزاب السياسية المتناحرة التي

تؤدّج الخطاب العقلاني ليصير أشد تمجيداً للقيم الحزبية الضيقة دون الانتباه إلى المسار الوطني العام ، وهكذا تنكمش الثقافة في قالب الفتوية الضيقة ، حيث يختزل المسار المعرفي للثقافة كلّ تكوينات الوطن في فلسفة حزبية ضيقة . وهذه هي عملية اختطاف ثقافي في وضوح النهار ، فتؤخذ القيم الفكرية من رحمها الشرعي العمومي الشامل ، وتُزرع في رحم اصطناعية إقصائية تختزل مسيرة الأفكار الكونية في فكرة ضيقة ميسّسة ، فيصبح النظر إلى العالم الواسع من خلال ثقب إبرة ، وهذا يُفسّر انكسار زاوية الرؤية ، وعدم مشاهدة الكأس بالمرة ، لا نصفه الملائن ، ولا نصفه الفارغ.

إن جذرية المتحولات في النسيج السيكلولوجي للبنى الظواهرية ، هي مجتمع ديناميكي قائم بذاته يتّجه نحو تعزيز الوعي الثقافي للحقيقة كمسار له خصائص تاريخية محددة. وكل نسق تاريخي متفاعل مع الحالة الثقافية لأبجدية المجتمع المتحرك لا بد أن يؤوّل إلى تاريخ خاص للمُحدّدات الاجتماعية التي تضبط اتجاهات السلوك الإنساني المتجانس . وحركة سياقات المعرفة الفردية المنتشرة في السلوك البشري ، لا يمكن أن تظل منفصلة بخُجة تقوية الحراك السلوكي، إذ إن السلوك البشري إذا غابت عنه صفة الانضباط المنهجي سوف يتحول إلى سلوك عابث غريزي نابع من الارتجالية العصبية لا المعرفة الثقافية المنهجية .

وهذا لا يعني بأية حال من الأحوال محاصرة السلوك الإنساني وقمعه ، ودفعه نحو التوقع في خانة رد الفعل ، أو الانسحاب إلى الظل المعتم ، أو الانكماش في القوالب السلطوية الجاهزة مسبقاً بفعل التسييس والأدلجة ، وإنما يعني تحديد المسارات التي سيمشي فيها الوعي السلوكي من أجل دراسة الأدوار الإنسانية كمعالم حاسمة في التاريخ الاجتماعي للثقافة .

والفرد الثقافي (المثقف الثوري) حينما يتحرك في مسارات واضحة المعالم ذات أبعاد تاريخية مكشوفة وكاشفة ، يكتسب وعياً استكشافياً جديداً مناوئاً للغموض، وهنا تتكرس قيمة المغامرة لا المقامرة، استناداً إلى فلسفة وجود الضوء في آخر النفق . ولا يمكن للثقافة أن تضع وقتها في اكتشاف نفق لا يحمل ضوءاً في آخره ، ولا يمكنها كذلك إضاعة تاريخ إبهارها باحثاً في غرفة معتمة عن اللاشيء .

والتحدي المائل أمام الاصطلاح المنهجي للقيمة الثقافية ، هو ضمان وجود العناصر قبل الشروع في التنقيب عنها ، ووفق هذه القاعدة لا بد من درب اجتماعي واضح الخصائص ذي

بداية ونهاية بارزتين . وذلك من أجل ضمان معنى للبحث في ذاتية الوجود الإنساني ، وتوفير عقل معرفي حاسم ينقّب في كيان الجماعة البشرية الداخلي .

وهذا يدفع باتجاه وعي يشترط حياة المجتمعات قبل البحث في خصائصها ، فلا توجد أية فائدة من إجراء تنفس اصطناعي لجثة هامدة ، وعلى هذا الأساس لا توجد أية فائدة للحراك الثقافي في مجتمع ميت اجتماعياً ، لأن الحراك العقلاني الفوقي لا بد له من بيئة مادية تحتية حاضنة للتطبيقات المعرفية . أمّا إضاعة الوقت في اختراع عوالم افتراضية أو مجتمعات ذهنية ، ثم البحث في الخصائص الأنثروبولوجية للكائنات الافتراضية ، فلن يجدي نفعاً في تحويل الذات الخيالية إلى تجانسية واقعية ، لأن الواقع لا يُصنع من هلامية المجال الخيالي، بل يُصنع عن طريق صناعة إنسان قادر على التحرك في إحداثيات الوعي المصيري أفقياً وعمودياً ، تحتياً وفوقياً .

والأهمية النفسية في قيمة الحراك الفاعلة تتجلى في الحيلولة دون تصادم الذات الفردية المتحركة في مدارات الشخصية الذاتية الاعتبارية مع الذات الجماعية المتحركة بشكل تكثيفي تجميعي ، مما يفسح المجال لنشوء منطقة أمان عازلة بين شراسة طموح الفرد ومصلحة الجماعة ، وهكذا يضمحل هاجس انتقام الفرد من المجتمع ، ورفض المجتمع للفرد .

إن التركيز على المستويات العقلانية في تشريح العلاقة الثنائية (جموح أنانية الفرد / القوالب الجماعية الجامدة) ينبغي أن يخرج من إطار الفكرة الجثة (الإطار المستهلك التكراري الميت) ، وذلك بغية اكتشاف الماوراء الأبجدي لطموح اللغة الفردية في إنقاذ الجماعة الكلية ، واستيعاب الجماعة الإنسانية ، وإفساح المجال للعقل الفردي التجانسي كي يُبدع . والاعتماد على القوالب الجاهزة الجامدة في الصيغة الفكرية العمومية سوف يقضي على الطموحات الفردية ، وهذا سيُنشئ إشكاليات كثيرة متمركزة حول مصير الطبقات العلاقية بين الدلالة اللفظية والدلالة المعنوية .

لذلك لا بد من تغيير جلد المجتمع بشكل دراماتيكي آلي مسيطر عليه، بمعنى تغيير منهجيات صناعة الآليات ، وتجديد ماهية الوجود الداخلي في الآلية المشرفة على خلق الحراك الاجتماعي . وكل الآليات الناشئة بعد عملية التجديد هي الذات الثقافية التفاعلية المالكة لقرارها وتوقيته . وهذه مسألة غاية في الأهمية ، لأن الثقافة المحورية في أي مجتمع حي لا يمكن أن تتقدم في صناعة الكيفية الناقلة للإبداع اعتماداً على امتلاك صنع القرار فقط ، بل ينبغي كذلك امتلاك سيادة حقيقية على توقيت صنع القرار ، لأن العنصر الزمني في تفعيل العقل الثقافي المحوري هو القادر على زراعة الذات المجتمعية في مدارها الصحيح في الوقت الصحيح ، مما

يؤدي إلى نشوء طاقة خلاقة في قيادة العمل الإبداعي دون الحاجة إلى تجزئة مشاعر الناس ، أو تفتيت صور الأفراد، لإيجاد وظائف جماعية مشتركة بينهم ، لأن الذاكرة الجزئية للعاطفة البشرية هي نفسها الذاكرة الكلية للكينون الإنساني ، وهذا يدل على عبثية تخيّل إمكانية تجزئة العلاقات الاجتماعية بدافع تحديد الوظيفة الفردية في الحراك الجماعي، وتعيين الحاضنة الاجتماعية العمومية في احتضان الفردية.

والثقافة الاجتماعية المتجسدة في الأفراد والجماعات هي وحدة واحدة ، ولا يمكن تجزئتها إلا في نطاق ذهني تجريدي محدود من أجل اكتشاف مواطن الضعف والقوة ، وفحص الأنساق الأنثروبولوجية للوقوف على الطاقة الكامنة في كل جزء اجتماعي .

أمّا تفريق العاطفة الاجتماعية التوحيدية السارية في المنظومة الفردية والتشكيلية الجماعية ، من أجل توزيع الوظائف المجتمعية ، فهذا سيقضي على ثقافة الحراك الثقافي، ويحيل التكوينات البشرية إلى معسكرات معزولة هامشية ومتوترة ، ويسهم في عسكرة المجتمع بشكل سالب في الوقت الخاطئ⁽⁴⁹⁾ ، وشحنه بالاختلاطات غير المتجانسة التي تحشر الفرد في الزاوية بحيث

(٤٩) عسكرة المجتمع تنقسم إلى قسمين :

أ (العسكرة المادية : أي تحول السياقات الاجتماعية الوجدانية إلى جدليات مادية حربية متصارعة على الوهم ، وانتقال الذات الإنسانية من مستوى العقل البشري إلى منطقية عقل البندقية . وهذا يستلزم انتقال كافة مستويات تجانس الفاعلية البشرية إلى تأطير الثقافة الحربية العسكرية ، حيث يتحول العقل إلى مسدس ، والجسد البشري إلى لغم ، والمعنى الثقافة إلى خريطة عسكرية .

ب (العسكرة المعنوية : أي انتقال الذاكرة الجوانية الفردية من الوعي التاريخي بالأحداث ثقافياً إلى الوعي الصّدامي بالأحداث عسكرياً . بمعنى اختلاف المرجعية الحاكمة على الأنساق البشرية ، فالحكم على الشيء فرغ عن تصوره. وهذا التصور في الذهن الجواني الإنساني يحمل جينات عسكرية تضطلع بمسؤولية تفسير اللغة التاريخية، وتأويل الأحداث الواقعية على رقعة المعنى. فكل حدث مشاعري إنساني في الواقع يتم تأويله بطريقة مادية عسكرية حربية تعتنق الصّدام ، وتناوئ البعد العاطفي .

ويمكن تلخيص الفرق الجوهرى بين هذين النوعين كالآتي : إن العسكرة المادية تحويل الواقع المحسوس إلى بندقية محسوسة ، أمّا العسكرة المعنوية فتحويل المشاعر غير المحسوسة إلى تأويلات بندقية غير محسوسة

يتصادم مع ذاته والآخر المجتمعي في نفس الكيان الثقافي الحاضن للجزء والكل، والدلالة والدلالة المضادة ، والفعل ورد الفعل . كما يُسهم في حقن الفعل الإنساني _ ذي الخلفيات المتضاربة _ بالتوتر الديناميكي الذي يتفشى في جديلات البنى الاستهلاكية للحطام الإنساني المغروس في بقايا الاندفاع السوسيولوجي المفتقد إلى اتجاهات منطق الذهن الثقافي .

وإشكاليات بناء التوتر الثقافي تأتي في سياق انحسار الوظيفة الإنسانية في مستنقع العنصرية الشَّيْئِيَّة ، أي غرق الطبيعة الخصائصية للأفراد والجماعات في سطوح الأشياء والظواهر الثقافية الوهمية الناجمة عنها ، دون إحداث اختراق حقيقي يقود إلى التعامل مع النواة الداخلية العميقة ، فتتسأ تيارات لا تتقن التعامل مع التاريخ ، وهذا الأمر يصنع ثقافة قائمة بذاتها ، تتكون من تواريخ متضاربة من حيث الإثبات والنفي ، والتواجد والإلغاء ، والتجذير والإقصاء . فيدخل النسق التاريخي في كهف ردود الأفعال ، وهذه هي ثقافة التاريخ الميت الذي يولد ضمن ديمومة اصطلاحية من تواريخ ميتة سابقة .

وحرى بنا أن نؤسس صيغة التفاعلات الاجتماعية بعيداً عن ثقافة التاريخ التحطيمي الميت الناتجة بفعل إرهابات غير طبيعية متفاعلة مع أشكال وهمية تأخذ طابعاً تاريخياً . والمشكلة المقلقة في عملية إحياء العقل الثقافي في المستويات الاجتماعية ، هي نشوء قيم جديدة للتاريخ مستندة إلى تعريف جديد للتاريخ . وهذا التعريف الجديد يفتقد إلى فكر المصطلحات التثويرية لأنه تعريف نشأ في ظروف مشبوهة موهلة في التسييس المغرض ، ومحاطة بإشكاليات تاريخية ذات صبغة تراتبية.

ولأن التاريخ _ كمنطق جماعي _ هو الدلالة التجانسية المشيرة إلى اتجاهات الفعل الاجتماعي ، والفعل التجاوزي الذي يقفز على الاختلافات العرقية ، تعرضت أنساق الوقائع الزمنية إلى هجمات شرسة للغاية من قبل صانعي سياسة اختراع الجغرافيا الافتراضية (50) .

. والجدير بالذكر أن كلا النوعين يشتملان على الإيجابية والسلبية، وما يحدد ذلك هو توقيت العسكرة وأهدافها ووسائلها .

(٥٠) هذه السياسة تعني تثبيت وهم مكاني محدد التضاريس من أجل تغيير معالم الوعي الزمني ، وحصار الذات التاريخية في قالب انسحابي جاهز ، حيث تعاد صناعة التاريخ ليس من منظور الحقيقة الواقعية ، بل من منظور مصلحة الطرف القوي . وبذلك يتحول التاريخ إلى بوق دعائي للنظام السلطوي الأبوي ،

وتأسيسُ أمكنة ذهنية بقصد محاصرة المد الزمني عمودياً ، واجتثائه أفقياً ، من شأنه صناعة تاريخ صابوني معْلَب يفتقد إلى الهوية الرمزية المركزية ، والذات الاعتبارية الواضحة ، ومعالم الامتداد في الشخصية المجتمعية ، والخصائص الثقافية الحاملة لشرعية الوجود الإنساني . وترتكز أهمية البعد الزمني الثقافي في تأسيس تاريخ مركزي قادر على استيعاب إفرازات الأبجدية المحورية على مجال انبعاث الشعور . وهذه نقطة بالغة الحساسية ، لأنها تشير إلى وجود الأبجدية قبل انبعاث الشعور ، أي إن الشعور يأتي كرد فعل على التعاطي الاجتماعي مع تعدد زوايا الصياغات الثقافية.

وفكرة تمركز الانبعاثات الثقافية التي تُشكّل في مجموعها تياراً لغوياً حاسماً (الأبجدية المعرفية) قبل نشوء الذاكرة المشاعرية تدل على السابقية. وهذا المبدأ الدقيق يدفعنا إلى التنقيب في صياغات الفترة الزمنية المترافقة مع السلسلة الفكرية الفلسفية. فوجود الدلالات الثقافية في محيطها الجمعي، وتمركز الإشارات الفكرية في الكيان الاجتماعي التشويري ، وتواجد الحياة المعرفية الفاعلة الخاصة بالقوة الدافعة المشتملة على إرادة الفعل وإرادة التغيير . كل هذه الأفكار المتموضعة تملك وجوداً زمنياً يسبق ولادة الذاكرة المشاعرية ، لأن الذاكرة كمحيط من الزخم التفكيرية هي حصيلة المعلومات المتواجدة أصلاً، وهي كذلك نتاج التّموضّع الموجود بشكل واقعي ، وهذا يجعل الذاكرة كزخم فلسفي عبارة عن كتلة فكرية تابعة للأفكار المسبقة ، وهي تأتي في سياق الوجود التابع غير الاستقلالي . فلا بد من وجود خلفية فكرية ذات تواجد فعال وواقعي على شكل بنية تحتية ، من أجل ظهور ذاكرة مشاعرية تملك وجوداً حراً وديناميكياً على شكل بنية فوقية .

والذاكرة المشاعرية ليست تكتلاً ذا صفة اعتباطية آلية تجريدية ، بل هي ردة فعل منطقية تأتي كخطوة ثانية تأسيسية مبنية على الانفعال الحقيقي للمعنى البدائي الأولي . والبدائية في هذا

فردياً وجماعياً ، سياسياً واجتماعياً ، فيزيائياً وفلسفياً ، لأن الذات الحاكمة في الإطار الشخصي أو العمومي تعتبر التاريخ جزءاً من لعبة دبلوماسية الجماع ، واستثمار دماء الفقراء في صناديق الاقتراع ، وإرسال الطبقات المتدنية إلى الحروب العنيفة من أجل إشباع المزاج الغريزي للأباطرة المستبدن. وهذه اللعبة الخطرة هي تحميل أقتعة الجريمة ، وإلباسها زي الأخلاق والعدالة ، عبر اختراع شعارات افتراضية سامية وإسقاطها على واقع يُحتَضَر.

السياق لا تعني التخلف أو الوعي الضحل البسيط، وإنما تعني التفكير الأولي الأساسي الذي يشكل المادة الخام لولادة المعنى الشعوري التكريسي الذي يدفع باتجاه إحداث تغيير مجتمعي أفقي في صيغته المادية ، وعمودي في صيغته الرمزية .

وإذا وضعنا التشكيل البدائي الأولي للوعي المعنوي جنباً إلى جنب مع الفكر الزمني المصاحب لنشوء الذاكرة المشاعرية ، سنجد أن إشكاليات بناء العلاقات الاجتماعية على قاعدة فوضوية ردود الأفعال الارتجالية الافتراضية تضحل ، وهذا يُفسح المجال لوعي إنساني تنويري كي يحل في تقاطعات الأفعال الاجتماعية ذات الصبغة التغييرية .

ولكي تنشأ علاقة صحية بين الرمز الاجتماعي والعلاقة السياسية الثقافية ، لا مفر من تعزيز ثنائية (توليد الهويات الذهنية الواقعية/ تنقية المعرفة الإنسانية من أيديولوجيات التسييس السلطوي المغرض) . ووفق هذه القاعدة الأساسية ، تتكاثر متواليات إنسانية انتشالية تسحب المجتمعات المتخلفة من مستنقع الانكسار الانسحابي ، وتمنع نشوء علاقات زواج متعة بين السياسة والدين الذي يُقدّمه علماء السلاطين . وهذا يمنع انبثاق ظاهرة الفساد الإداري عبر مناطق الهرم الاجتماعي نتيجة زواج السلطة بالثروة . وهذه الإجراءات الوقائية ليست ضرباً من الخيال الافتراضي ، وإنما هي خطوات أساسية لا بد منها من أجل ولادة قاعدة اجتماعية خلاقة قادرة على ربط البنية التحتية بالفوقية، والقيام بمبدأ توصيل الفكر من القاعدة إلى الرأس وبالعكس بكل سلاسة . فالفكر الثقافي ينبغي أن ينطلق من مبدأ الموصّلات المتماصة . أي بناء القاعدة المجتمعية وفق لبنات فكرية تقوم بتوصيل الزخم المعلوماتي عبر طبقات الهرم الاجتماعي، وهذا يستلزم صهر كل المناطق في مفاصل الفعل الاجتماعي الثقافي بحيث تختفي أية منطقة عازلة ، مما يجعل التاريخ التفكيرى للأنساق مجالاً حيواً واحداً مُتصلاً لا مكان فيه للحواجز العازلة .

وبالإضافة إلى وحدة المجال التاريخي لثقافة الفعل المجتمعي ، سوف تتكسر الوحدانية الإنسانية كحزمة واحدة متحركة في تقاطعات الفكر البشري الخلاق الطامح إلى التغيير . والخطورة الصادمة الكامنة في تفاصيل العمل التاريخي الحاسم ، هي وجود مناطق عازلة في سلسلة التفاعلات البشرية المندمجة مع إشارات كثافة المنهج التاريخي العقلاني ، وهذه العوازل في تأطير الأزمنة الفكرية سوف تدفع المجتمع الفكري إلى التخذق في أطر معزولة عن كثافة المعنى ، وتجبر الفرد على الانسحاب نحو الظل الأكثر عتمة ، مما يحشر الجماعة الإنسانية في قالب العزلة القسرية ، أي تحول المعنى التفكيرى للإنساني إلى إشكاليات رمزية وهمية ، لأن

التكوينات البشرية إذا اختارت العزلة فقد اختارت انتحارها البطيء . وهكذا تظهر أهمية البناء المتناسك المتراص في سلسلة قواعد الكثافة المنطقية على الصعيد الإنساني . وفي ظل وجود فراغات كامنة في المسيرة المجتمعية ، سوف تتفشى ظاهرة الولادات الثقافية المشوّهة الناتجة عن انفصال مسارات الفكر المعنوي. ووفق هذه المبادئ السيادية في الإطار العقلاني ، تتحدد علاقة الهوية البنائية للمجتمع مع طرق تفاعل الفرد مع ذاته ومحيطه . وقيمة التفاعل كإطار تفكيري تشويري هي _ بالأساس _ طريقة تعبيرية عن تموضعات تفاعل الفرد مع ذاته ، وعلاقة الذات الفردية الشخصية بالمجموع الإنساني النظامي ، والرابطة بين تقاطعات الأنا الداخلية والخارجية ، وبين الآخر الداخلي والخارجي .

ومن خلال التأصيل الفكري للمنهج التاريخي في تحليل الخطاب الإنساني ، وبالتزامن مع اختفاء كل أماكن العزلة ، وغياب أزمنة الفراغ القاتل في منهجية مسار البناء الثقافي ، يمكن للذات البشرية أن تتقدم نحو مستقبل الخطاب العقلاني المؤمن بالقضايا المصرية بكل ثقة ، مستندة إلى بؤر زمنية تختبر أمكنة تواجدها على خارطة الفعل الثقافي بكل إصرار ، دون الحاجة إلى إسناد خارجي . وفي ظل توفر بنية تحتية بالمعنى الذهني الأبجدي في داخل طبيعة التركيب الإنساني للفعل المجتمعي ، ستتحقق أطراف الصياغة الفلسفية للمعادلة الوجودية ، أي إن المعنى سيتصالح مع اللفظ ، والأبجدية ستتنضوي تحت لواء الفكر اللغوي العمومي بكل أريحية وثبات .

إن تاريخاً حاسماً سيؤكد نتيجة اللقاء الشرعي بين أبجدية التجانس المجتمعي وتراكيب الخطاب الثقافي . وفي ساعة الولادة سوف يتكرس المجتمع كإحساس جماعي عميق ، وبالغ التأثير في الفرد والجماعة . ومن خلال هذا التصوير الحالم المضاد للكابوسية كظاهرة إنسانية مُستترة ، سوف يبرز الفكر الثقافي كظاهرة خلاصية تخليصية . الخلاص من المأزق الوجودي الحرج للمعنى البشري ، وتخليص الفرد من أعباء الكثافة الوهمية الضاغطة على الأنساق الشعورية .

وكلما ازداد رسوخ المعاني في أبجديات التفكير الإنساني التنويري ، تكرر المجتمع كظاهرة شعورية ، وحالة إبداعية جماعية ، تتعاونان فيما بينهما لتأطير الصوت الجماهيري كبؤر متجانسة من المشاعر الثقافية ، لأن الثقافة في أصلها التكويني عبارة عن اتجاه مشاعري نحو قيمة التغيير . ولا يمكن لأي تغيير أن ينجح ويجد له موطن قدم على أرض الواقع ، إلا من خلال الاستناد إلى ثقافة شعورية حاسمة ، تُشكّل الخلفية المناسبة لتوليد الظواهر التنويرية في المجتمع ، والبنية

الأساسية التي تدعم مشاريع تحديث الخيال في صورته النهائية الحاسمة التي تسبق التطبيق البشري في السياقات المادية .

واعتماداً على صيغة التوظيف التفاعلي بين إحساس الأفراد الثقافي ، ومنطق الجماعة السيكولوجي ، يُصار إلى توليد ثقافات مرجعية بؤرية لسلوك الهوية الثقافية المركزية في داخل المحيطات البشرية الواعية . فالثقافة لا تتحرك ضمن مستوى واحد محدود التضاريس ، ومعلوم البداية والنهاية . وعلى الرغم من أن الثقافة بُنية مصيرية شديدة التنظيم ، وذات تماس مباشر مع تاريخ الوجود اللغوي البشري ، إلا أنها حالة استكشافية تتطلب التحرك في مسارات مبعثرة تحت مظلة التنقيب واكتشاف الماوراء الفكري ، والتقاط الوعي المابعد المستتر خلف الظواهر المادية التجريدية الجافة .

وهذه المغامرة الاستكشافية تمثّل في مدلولها الإنساني الرمزي العميق رحلة غير محدودة للوقوف على معالم الهويات الذهنية التي تُحرّك الظواهر السلوكية البشرية ، سواءً على الصعيد السياسي الثقافي ، أو الاجتماعي الثقافي .

إن قواعد تحولات هذه الرحلة الاستكشافية تشتمل على أنظمة داخلية يمكنها تحديد نقاط البداية والنهاية للمشروعية الثقافية، ضمن أطر خاصة لا يمكن تعميمها إلا في سياق تاريخي عقلائي، مع الانتباه إلى أن الثقافة _ كوحدة وجودية متراصة _ تشتمل على أكثر من نقطة بداية، وأكثر من نقطة نهاية ، وذلك لأن قيمة المستوى الفكري مشتملة على أبعاد لانتهائية متعلقة بالأداء الخيالي والواقعي على حدّ سواء .

وبما أن (الخيال / الواقع) ثنائية تزاوجية تصلان في كثير من المراحل إلى التطابق المعرفي الوجودي الانصهاري بحيث يستحيل فصلهما ، كان من الصعب السيطرة على أماكن الانبعاث (البدايات) وأماكن الامتصاص (النهايات)⁽⁵¹⁾، لذلك تعددت نقاط بداية الانبعاث الثقافي على

(٥١) مفهوم السيطرة على توليد السياقات الاجتماعية منذ نشأتها حتى تكريسها النهائي ، ينبغي أن يوضع في نصابه الصحيح . فصعوبة السيطرة لا تعني _ بالضرورة _ انفلات الأمور ، وخروج المبادئ الثقافية إلى هالة العدم والعشبية . فالنزعة الثقافية هي هوية بحد ذاتها ، وصوتٌ موهل في الدفء الثوري لا يمكن معرفة أين سيصل صده . فالكلام أكبر من أن يتم تطويعه في حدود إقليمية معروفة سلفاً ، لذلك فالكلمة هي رصاصة إذا خرجت لا بد أن تصيب شيئاً ما ، ولا يمكن التنبؤ بالمدى الذي ستبلغه . ووفق

المستوى الإنساني الأبجدي، وتعددت_ كذلك _ نقاطُ نهايات امتصاص السياسات اللغوية للمعنى الاجتماعي . أضف إلى هذا أن نقطة البداية ونقطة النهاية قد تكونان_ أحياناً_ نفس النقطة، وذلك لأن مسارات المشروعات الثقافية هي سياسات تنموية على المسار التنويري الثوري المختص بثورية المعرفة ، والانقلاب العَلَمي على السياقات الوهمية . وهذا يستلزم وجود عمليات تتابع متواصلة في البناء الثقافي على قواعد المجتمع السياسي، مما يجعل المسار الثقافي خطأً متصلًا نتيجة قوة التدفق المعلوماتي التابعي ، وهذا يُظهر الشرعية الثقافية كمسار وجودي خالٍ من الثغرات أو محطات الوقوف ، أي لا تعتربه نقاط بداية أو نهاية ، وهذا المشهد هو حالة ظاهرية غير حقيقية ، لأن قوة التدفق الإنساني الرامي إلى صناعة مجتمع المعرفة الثقافية تشتمل في رحمها على بدايات ونهايات ، لكن نقطة البداية تكون نقطة النهاية في نفس الوقت ، وذلك لتعدد المسارات المختلفة في سرعتها وأماكن انطلاقها. فعلى سبيل المثال : نقطة بداية اللفظة هي نقطة نهاية المعنى ، ونقطة بداية انبعاث الحلم الثقافي هي نقطة نهاية دائرة المشروع السيكولوجية للجماعة البشرية، ونقطة بداية انبثاق الفكر التنويري هي نقطة نهاية انقلاب العلم على التخلف ، ونقطة بداية اندلاع الحالة المعرفية العمومية هي نقطة نهاية حياة مجتمع التخلف والتبعية .

إن الثقافة هي أبجدية الانقلاب على السوالب ، وتكريسات الفعل الثأري المضاد لسحولات أقنعة التخلف الانسحابي الذي تؤثر تداعياته على المستوى الأخلاقي لفعل الكتابة بوصفه البيان الأول لمشروعية سياسة الثقافة . واعتماداً على هذا المعنى يمكن دراسة فاعلية الكتابة من خلال تأصيل أفعالها الثورية التنويرية التي تتخذ أشكالاً حياتية وحالاتٍ ديناميكية ذات تماس مباشر مع الوجود البشري الحي⁽⁵²⁾ .

هذا التأصيل المنهجي تُفهم ماهية عدم السيطرة على أنها عدم معرفة الحدود التي ستصل إليها سياسة النسغ الثقافي ، لأن القوة العقلانية الضاربة للنسيج الاجتماعي الثقافي كامنة في الوصول إلى أبعد نقطة ممكنة ضمن مسارات استكشافية تعيد إنتاج المعنى باستمرار لقتل الروتين الوظيفي .

(٥٢) القوة الضاربة للكتابة تكمن في تنوعها الخلاق ، حيث صناعة الأطوار المتجانسة على شكل أفعال ترى المجتمع البشري من كل زوايا الرؤية . لذلك بإمكاننا دراسة الكتابة كطوق نجاة وكفعل حيائي ضد الانتحار ، وضد تغييب العقل الطوعي والقسري . وهكذا تتكسر الكتابة على شكل أفعال تمتلك

السيادة على ذواتها . ويمكننا اختصار أطوار صناعة الكتابة كمشروع معرفي وجودي عمومي وفق الشكل التالي : —

(أ) الكتابة فعل تمحيصي : هذا الطُّور يتضمن تكريس مشروعية الكتابة كإجراء غُرْبالي — إن جاز التعبير — ، أي إنه يقوم بدور الغربال ، حيث يُمَحِّص التراكيب ، ويُفَرِّز المكوّنات ، ويُميّز الكيانات ، ويفصل الأطر الفكرية حسب مستوياتها الداخلية والخارجية . وكل هذه العمليات التمحيصية تنشأ في جوهر العقل الحاكم على اتجاهات الجماعة البشرية الموجودة في البيئة المعرفية ، وبالتالي فإن الفعل الاجتماعي وردّة الفعل الإنساني يسيران معاً ضمن أطر التمايز (تمايز اتجاهات خطوط إنتاج المعطى الاجتماعي) ، والتمييز (التفريق بين المنتج الثقافي كسياسة إبداعية حياتية لا مفر منها ، وبين المنتج السياسي كإطار ترتيب متغير) .

(ب) الكتابة فعل استعلائي : أي فعل يتعالى فوق الجروح التي تجتاح الذكريات البشرية ، ويستعلي على انخيارات المراكز الفكرية في التجمعات البشرية . مما يدل على أن فاعلية الكتابة هي تيار تكويني مضاد للاستسلام ، والخضوع لسياسة الأمر الواقع . فالثقافة تشتمل على عنصر الكتابة (القوة الضاربة والعقل المفكر) ، والثقافة — أيضاً — هي سياسة قائمة بحذائها تصنع واقعها بيديها ، ولا تنتظر = استيراد واقع معلّب حسب الطلب ، أو استخدام الحلول الجاهزة المستوردة .

(ج) الكتابة فعل ثأري : إن الكتابة نظرية انتقامية من فلسفة الانهيار ، وثأر من كل أشكال التخلف الضارب جذوره في أعماق المجتمع عبر حقبة زمنية طويلة . إن الكتابة قوة ذاكرة الغليان المتفجر في وجه الجهل والتجهيل ، وفي وجه كل الأشكال السالبة في المجتمعات المنهارة المغطاة بقشرة الكذب السياسي على المستوى الرسمي ، والشللية الثقافية على المستوى الفكري ، والنفاق الاجتماعي على المستوى الوطني ، والملل الجنسي على المستوى الأسري .

(د) الكتابة فعل ثوري : إن المبدأ الثوري في الفعل الكتابي يُعتَبَر من أسس ديناميكية النواة الفكرية الحاملة لشرعية الوجود الثقافي على خارطة المنتج الإنساني العام . فالثورة ضد السالب وما يترتب عليه إنما هي إعادة إنتاج المعطى البشري على قواعد راسخة مضادة للوهم والروتين والملل . لكن الإشكالية الصادمة في مستويات المد الثوري كامنة في إمكانية ظهور الفوضى الخلاقة المسيّسة بفعل إنتاج نسخ مشوّهة من الثورة ، وتوجيهها نحو الفوضى والعبث والتخريب وتنفيذ أجنداث شخصية ضد المصلحة الجماعية . لذلك فالثورة هي امتداد عقلائي تنظيمي رافض لكل السوالب ، ويعالج الموضوعات بحكمة وتوازن وموازنة بين المنافع والمضار ، ويوجد علاقة تكاملية مشتركة بين الحاكم العادل الراعي لمصالح

والتنوع الخلاق في تحليل الذاتية المعرفية يستلزم دراسة الموضوع التاريخي للأطروحة الثقافية المجتمعية من كل الجهات ، لأن تعدد زوايا الرؤية هو _ في حقيقة الأمر _ تعدد اتجاهات التحليل العقلاني للأبجديات الثقافية باعتبارها شخصيةً اعتباريةً لتاريخ يُؤكّد من الوجود الإنساني

الشعب لا مصلحته الشخصية ، وبين المحكوم المنتمي إلى مجتمعه المبدع الحاضن للطاقات من أجل توجيهها في الطريق المناسب ، وفي الوقت المناسب، ضمن جرعات مناسبة تأخذ بعين الاعتبار استعداد المجتمع للتغيير التدريجي ، وقدرته على التحمل ، واتجاهات الحركة في المستويات الأفقية والعمودية ، وصناعة الحراك الاجتماعي الإيجابي .

هـ) الكتابة فعل انقلابي : إن ماهية الانقلاب في الفكر الثقافي هي الفعل الكتابي الرفض لسياسة الأمر الواقع روحياً ومادياً ، وبالتالي فإن قيمة الانقلاب هي مرجعية الرفض والتغيير نحو الأفضل . أي رفض كل السياقات الوهمية المخدّرة للشعب ، وتغيير الكيانات البشرية عبر نقلها من التّموضعات الاستهلاكية المحصورة إلى فضاءات حرية التعبير والنقد والنقض والتحديث ، بما يضمن ديمومة الاتجاه الإنساني في إخراج الفرد من الغرائزية الشهوانية ، وتوجيهه في مجال التفكير العقلاني الانتشالي . فالانقلاب هو لحظة التقاء الإنسان بإنسانيته ، ومجال التقاء الزمان بالمكان استناداً إلى تكثيف سياسة أبجدية المعرفة ، فتنشأ في رُوح المجتمع لغةٌ حية قادرة على مواجهة السالب ، وتحويله إلى موجب، ليس على صعيد المستوى الخرائطي للتركيب الاجتماعي فحسب، بل أيضاً على صعيد العقل الشعوري الباطني المنشور في تداخلات الكيانات البشرية ، وشبكية العلاقات المعرفية التحديثية .

و) الكتابة فعل حياتي : لا نبالغ إذا قلنا إن الكتابة حياة داخل الحياة ، وهي مرجعية كُونية مناوئة للانتحار، سواء البطيء أو السريع . فالهدف الأساسي من ممارسة فعل الكتابة الثقافية هو الحصول على حياة فضلى أقرب ما تكون إلى المثالية. فلا فائدة من الحصول على هوية ثقافية مجردة في مجتمع ينتحر، ولا أهمية للفكر التغييرى المخنوق في كيانات اجتماعية تُحتصر . وفكرُ الكتابة ينبغي أن ينتقل إلى وقائع التطبيق العملي إذا أراد أن يتمركز في دوائر الشعور الوجداني الرامي إلى انتشال المعنى من السُلطات الصورية ، ومستنقع أبجديات الخديعة . والمعرفة سُلطة الشعور الصانع لحياة حقيقية ذات معنى . واعتماداً على هذه المعادلة المحورية ، تتأسس الكتابة ضمن إجراء ذهني يُحطّم الأصنام الواقعية والخيالية، ويصنع مجتمع العدالة والمحبة حسَب المنظور الإنساني الراقي لا سياسة الأمر الواقع المفروضة على المغلوب . فالكتابة هي حياة المجتمع المتماusk الواعي ، حيث الكل منتصر ولا مهزوم .

المتصاعد على المستوى العاطفي التطبيقي. ولا يمكن صناعة تاريخ المنظور السيكولوجي للأبعاد الوظيفية إلا من خلال صناعة أبجدية الشعور العاطفي الذي يُمثّل العمق الإستراتيجي لخصائص النماذج البشرية المتفوقة القادرة على القيادة بكفاءة. أضف إلى هذا أهمية تغطية الأنساق بالذكريات المتحددة لنيل شرعية بناء الشخصية البشرية على قواعد السلوك الأخلاقي، استناداً إلى منهجية الثقافة كهوية أخلاقية سلوكية قبل أن تكون تياراً عقلياً لتمرير مشاريع الذهن الحاملة

والقدرة على صياغة أحلام تمتلك الديمومة، هي قدرة على صياغة خطوات عملية لتنسيق العلاقات الاجتماعية حسب القاعدة الأخلاقية لمستويات الشعور الوجداني الحاسم. وعبر استخدام البنية الفلسفية للخلم، يمكن تأسيس تراكيب كاشفة للتناقض في الخطاب الثقافي الوهمي الذي تحاول مؤسسات التسييس إحلاله مكان العقل الثقافي النقدي الحقيقي. وهذا يدفع باتجاه تأسيس دراسة تشريحية للصراع بين أجنحة الثقافة نفسها، والتميز بين الصراع على الثقافة والصراع في الثقافة، وما يتفرع عنهما⁽⁵³⁾.

إن النص الثقافي هو مجتمع قائم بذاته، والمجتمع البشري هو نص مفتوح على احتمالات التمرکز حول المعنى. لكن الأمر الذي يتطلب انتباهاً دقيقاً هو تمرکز المعنى كوجود ذي صبغة استقلالية على شكل تاريخ حي توليدي يصنع الأنساق الحاملة، ثم يعمّمها على الصياغات المتجانسة للتثوير الاجتماعي الثقافي.

(٥٣) ماهية الصراع يجب تحليلها حسب الأبعاد المكانية للوجود الصّدامي. كما ينبغي تكوين التاريخ الفكري للتركيب المتمايز، حيث تتكرس أهمية التفريق بين مستويات الصراع وفق الأبعاد المعرفية = الحاسمة. فالصراع على احتكار الثقافة يرمي إلى امتلاك دفة توجيهها اعتماداً على الخلفيات الفكرية المتباينة، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره. وإصدار القرارات يعتمد — بالأساس — على المرجعية الحاكمة في عقلية الفرد. أمّا الصراع في ماهيات البنى الثقافية فهو صراع داخلي بين أجنحة تمتلك زوايا رؤية مختلفة، وكل طرف يعتقد أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، لذلك يحاول احتكارها مستنداً إلى وجهة النظر التي يعتنقها مسلماً لا تقبل النقاش، والناس أعداء ما يجهلون. وهناك تفرّع صدامي يتمثل في الصراع بين أجزاء التركيبة الثقافية الأساسية (النواة / الجنين)، وهو ناتج عن حجم الاحتكاكات الصارخة بين مستويات الأبعاد المعرفية التي جاءت بسبب القوة الحركية للصفائح الثقافية في كل الاتجاهات.

ونحن إذ نصنع تاريخَ الحلم في بؤرة الصراعات الإيجابية على توجيه الفكر الذهني ، فإننا نرْمي إلى تجاوز فكرة إعادة إنتاج الواقع عبر تلميعه ، وحقنه بالأقنعة الزائفة . فالمجتمع البشري لا ينبغي أن يدخل في جدلية (الشيطان الذي تعرفه خيرٌ من الشيطان الذي لا تعرفه) ، لأن هذه الجدلية من شأنها أن تقود إلى انكسار الذاكرة الحاملة ، وانحسار المد الفكري ، وتقوقع السياسة الحاكمة في المجتمع حول ذاتها . والمقارناتُ المركزية ينبغي أن تظل نابعةً من هاجس الفكر التجانسي الحي ، لا من هاجس الاختيارات بين الأطراف القتالة .

ومن أكبر الأخطاء القتالة أن تخضع الثقافة للسلطة التسييسية التي تُفَرِّز مقارناتٍ مُغرِضة من أجل استمرار عزلة الجماعة البشرية . فعلى سبيل المثال ، لا يحق للسياسي أن يخير الشعب بين الفساد المكشوف أو الفساد المقنع ، ولا يحق للمثقف أن يخيرهم بين القبول بالجهل أو القبول بثقافة القطيع الذي لا يعترض . فأنصافُ الحلول ، أو الحلول الجزئية ، أو التحليلات المجتزئة ، أو سياسة فرض الأمر الواقع على المجتمع المسحوق ، كل هذه التراكيب بالغة الخطورة لأنها تدفن النارَ تحت الرماد ، ثم تَخْدَعُ نَفْسَهَا بأن الأمور على أحسن ما يُرام . لكن أحداً لا يعرف متى تخرج النار من تحت الرماد ، ومتى تَحِين ساعة الانفجار التي تجيء نتيجة كثرة الضغط .

وعندئذ تصير القطرة التي أفاضت الكأس فلسفةً لانكسار الحلم الذي سار في أطوار التحول التدريجي إلى كابوس دون أن ينتبه أحد إلى مراحل الانتقال من الضد إلى الضد ، واتساع الفجوة الفكرية ، حيث فلسفة النقيض تؤول إلى النقيض المقابل دون أية محاولة جادة لإنقاذ ثقافة المجتمع من السَّلْعَةِ أو الاضمحلال.

ولئلا تتحول الظواهر التفاعلية إلى شعور مفرغ من معناه، وعائش على الهامش المحترق ، ينبغي عدم تسليم الفضاءات المعرفية إلى ثقافة الأضداد ، حيث الانتقال الصارم من سخونة اجتماعيات الفراغ الإنساني إلى برودة المشاعر البشرية ، والانتقال من النقيض الأفقي إلى النقيض السالب ، لأن الانتقالات غير المنظَّمة سوف تضغط على الذات الشعورية لإنسانيات النسق العاطفي الثقافي ، مما يخلق مناخاً فوضوياً لا يستوعب العمق الفلسفي لثقافة البناء الديناميكي المتواصل ، وديمومة التأصيل الوجداني المبنى على قواعد الاتجاه المعرفي في غريزة الأنساق .

ومن أهم الأسباب المؤدية إلى فوضى انتقالات الذوات المجتمعية عبر ضفاف الأضداد ، وماتمة النقيض المتشظي، هو الفهم الخاطئ لمبدأ التجاوز . فالبعض ينظر إلى التجاوز باعتباره

قطيعةً كاملة مع منجزات الماضي أو التراث الإنساني السابق . والبعض الآخر يرى التجاوز عملية انقلابية قاتلة، حيث الأبناء يقتلون آبائهم فلسفياً ، وينقلبون على ميراث الآباء المؤسسين . لكن التجاوز يجب أن يتضمن نظرية الخروج من عباءة الآخرين ، وأن يكون المثقف نفسه لا أن يتقمص الآخرين ، ويصبح بوقاً لهم ، لأنه _ حينئذ _ يصير مجرد ببغاء يردد ما يسمع دون أن يفكر فيه ضمن منهجية (النقد / النقض) .

وهذا التميز لا يمنع من الاستفادة من تجارب السابقين وفق قواعد الفحص والتمحيص . فالمنهج المعرفي للتمايز التفكيري لا يحتوي على الأبيض والأسود فقط، فهذا الجدلية في التفكير من شأنها إضاعة الأفكار البناءة الكامنة في الألوان المنتشرة بين الأبيض والأسود ، لذلك فالفكر عملية غريبة متواصلة ، حيث الاستيعاب والتمييز وتبني الأفكار ودحض غيرها . أما جدلية (إِمَّا قاتل أو مقتول) فلا تناسب اجتماعيات الذات الثقافية للقواعد المنهجية العلمية . وما لا يُدرك كُله لا يُترك جُلُه . ومبدأ التجاوز يتطلب فهماً عميقاً لمجالات صناعة الطفرات المصيرية وتوقيتها . فالكثيرون يعتقدون أن الطفرة (التغيير المفاجئ العابر لحدود الواقعية المحصورة) ، هي نتيجة لعوامل خارجة عن سيطرة الفرد ، لأن الطفرات تراكمات متشابكة تأتي من تحرك الوعي الاجتماعي العمومي العفوي غير المقصود .

وهذه النظرة تحمل جزءاً من الصحة . ولكن إذا نظرنا من زاوية رؤية مغايرة لهذه الواقعية الخشنة ، سنكتشف وجود إمكانية لصناعة الطفرة بشكل نظامي قصدي ومسبق ، أو _ على أقل تقدير _ تمهيد الطريق لظهورها ، أو تهيئة التربة المناسبة لاحتضان بذرة التغيير .

ومن غير المنطقي انتظار تحرك الصفائح المجتمعية في كل الاتجاهات دون تنسيق أو سيطرة مسبقة ، وانتظار قدوم التغيير المصيري الذي ينتشل الفرد والجماعة من المأزق الوجودي ، بل ينبغي المساهمة في صناعة الأحداث ، وعدم الوقوف موقف المتفرج المراقب ، حتى لو أدى هذا الأمر إلى صناعة أحداث اجتماعية معدلة وراثياً _ إن جاز التعبير _ .

وهذه النظرية تقودنا إلى ضرورة صناعة عالم افتراضي _ في بعض الأحيان _ ليكون أشبه بالمختبر التجريبي لإجراء فحوصات مجتمعية قبل تأسيس المجتمع الواقعي ، أو المساهمة في صناعة الوقائع التاريخية الحقيقية (54) .

ومن أخطر التحديات التي تواجه مجتمع الثقافة ، التعامل مع الذات المعرفية الأساسية بوصفها نظاماً خارجاً عن المسار الإنساني الطبيعي . وهذه النقطة الكارثية ساهمت في عزل المثقف عن أماكن صنع القرار ، كما ساهمت في عزله عن الحياة الاجتماعية ، وأيضاً قامت بإبعاد المجتمع عن استلهاهم صورة المثقف ، حيث تم النظر إليه كشخص غريب الأطوار، وخارج على القوانين ، وكلامه طلاس غير مفهومة.

والإشكالية التاريخية التي ترافق عملية صناعة المنتج الثقافي ، هي حصر الأنساق العقلانية في دائرة النخبة ، وعدم تفعيل دور الجماهير في احتضان الفكر الإنساني باعتبارها غير مؤهلة ، أو أنها تفتقد إلى التحليل العقلي الواعي .

ومن هنا تتبع أهمية إعادة تأصيل دور الجماهير ، وتحديد أبعاد وغيها الخاص بظروفها المعاشة . فالقوة الجماهيرية تملك القدرة على التحليل والاستنباط ، لكنها تفتقد إلى أدوات التعبير عنه . فالشخص العادي الذي يشاهد لوحة فنية يتوصل إلى مشاعر تحليلية محددة تجاه الألوان والضوء والتمازج ، بيد أنه لا يقدر على التعبير عن ذلك بحرفية الناقد الفني لعدم امتلاكه أدوات أبجدية المعنى التعبيري . وهذا ما يحصل في الحالة الثقافية ، إذ إن الجماهير لها وغيها الخصوصي حيال أبعاد القواعد التأصيلية للمنهج الثقافي بكل طبقاته المنظورة وغير المنظورة .

(٥٤) هذا الإجراء الوظيفي يتشابه مع الظروف المحيطة بعملية المطر الاصطناعي، أو فلسفة الأنهار الاصطناعية . حيث يتم اختراع حالة ذهنية ذات تطبيقات واقعية ، تحاكي النماذج الحية الحقيقية . وفي مبادئ صناعة المجتمعات يحصل نفس الشيء مع اختلاف البيئة والنواة الفلسفية الحاكمة على سياقات اللغة الفكرية ، وأبجدية الخطاب الثقافي . حيث يتم اختراع ثقافة مخيالية مساندة تعمل عمل حكومة الظل من أجل إجراء الفحوصات العقلانية عليها ثم إحالتها إلى نظام سلوكي واقعي . والمجتمع البشري _ في حقيقته _ هو أبجدية السلوكيات المتقدمة ، ولغة الخطاب الإنساني الذي يمتاز بالتجاوز والتحديث والأخلاقية النسقية أفقياً وعمودياً .

غير أنها لا تستطيع إيصال المنحى الشعوري إلى الآخرين ضمن تسلسل فكري تراتبي طبقي متماسك ، لعدم تمكنها من تحويل الذات المشاعرية إلى ذات لغوية .

لذلك فإن الإحساس الجماعي بأبعاد الحدث ، ينبغي الاستفادة منه في حشد الطاقة الجماهيرية في سبيل تكوين معالم جديدة لواقعية الحلم . ولا يمكن لإشارات الوعي الحاسم في سياسة الثقافة أن تتكاثر إلا من خلال نظرية " الخروج من عباءة الببغاء " (55).

وانسجماً مع الفكر التنويري يتم توظيف عناصر الإبداع الثقافي في متواليات المناهج السياسية الانتشالية ، حيث التفاعل الاجتماعي ينبع من رمزية اللغة ، والطاقة المختبئة في أعماق الأبدية . وكلما حاول الفرد اكتشاف النار في اللغة ، اكتشف ذاته الثورية الطامحة إلى تعبيد طريق المستقبل بالوعي الديناميكي ، وفكّ العقد النفسية التي تعترض درب توحيد الخيال والواقع .

ومن أهم الأسس المجتمعية لتجذير فقه الأبديات الثقافية ، بناء الأنساق اللغوية على قواعد الرمزية المنهجية المناوئة للعبث ، والتنظيم العقلائي المعياري الكاشف لما وراء الذات اللغوية . واللغة _ في منظورها الثوري _ ليست وسيلة اتصال بين طرفين فحسب . وإنما هي وسيلة اتصال بين الحقب الزمنية ، ووسيلة ترابط بين البنى الإشارتية في الذهن الطامح إلى الواقعية ، ووسيلة اتصال بين صُور الفرد عبر التاريخ الافتراضي والتاريخ الحقيقي .

واعتماداً على هذا التوجه تظل الفلسفة الثقافية المبنية على قواعد سياسة اللغة ، وأبدية الوعي السياسي ، هي الفلسفة المنهجية الرامية إلى تفعيل دور الفرد في إطار تاريخ الجماعة ،

(٥٥) هذه النظرية تعني ضرورة الخروج من مأزق التقليد ، وتقمص أفكار الآخرين . فلا بد من الإبداع ، ووضع النظريات الجديدة ، وعدم العيش في عباءة الآخرين . فعلى الإنسان أن يكون نفسه ، ويترك بصمته الشخصية في مجال تفكيره ، ويطلع اسمه كالحتم ، وذلك من أجل صناعة الشخصية الاستقلالية . أمّا أن يقضي حياته ناسخاً للآخرين ، فهذه إضاعة لجهود العقل البشري ، وتدمير للطاقة الإبداعية في المواهب الفكرية الجديدة . وهناك عبارة مُذهلة لا يحضرني قائلها : ((قبل أن تموت لا بد أن تكون نداءً)) . وهذا الفكر التحريري هو الذي يُعطي للفرد أبعاداً حاسمة لشخصيته ، ويكشف كوامن الكيانات الإبداعية في الذات البشرية ، مما يضمن الخروج من عقلية القطيع المستسلم ، الذي لا يُفرّق بين المشي إلى القمة ، وبين المشي إلى الهاوية .

وتعزيز دور الجماعة في وعي الفرد الداخلي ، وتأسيس قيمة رمزية للتاريخ تتضمن التأسيس
السيكولوجي لحركة التاريخ، وحدود إشارات الوعي الجماهيري، ووظائف التعليل العقلاني للحراك
الاجتماعي، والثقافة البصرية والسمعية .

ومن خلال التلاحم بين هذه الإجراءات الإشاراتيّة التي تقود الوعي بأهمية المسار الثقافي ،
يمكن للمجتمع كبؤرة تاريخية أن يصنع رموز تاريخه حسب التأصيل الاستكشافي لقيمة الوعي
التاريخي . وهذا الوعي التاريخي هو كائن حي يحيا وينمو ويموت وفق الظروف المحيطة المختلفة

*

٨

لغويات النظم الثقافية

إن تيارات صناعة النظم الثقافية على قاعدة إشارات اللفظ الحامل لأبعاد المعنى، لا يمكنها
أن تسير في درب المعرفة وحيدة بلا إسناد أو خلفيات متماسكة . لذلك فإن الدعم اللوجستي

للمرموز المجتمعية وطرائق تفسيرها وأبعاد وجودها لا مفر منه . وأفضل من يلعب دور المساند للشرعية المعرفية هو الاحتضان الجماهيري ، حيث إن الشعب بكل قوته الرمزية العُرفية بإمكانه توجيه الأفكار الأولية نحو تكوين بيئة للإبداع على أرض الواقع .

وبالإضافة إلى الدعم اللوجستي للشرعية العقلية الآتية من الوعي الجماهيري المنظور وغير المنظور ، تظهر أهمية التاريخ الثقافي في علاقته المتشعبة مع اللغة السياسية الشعبية والرسمية ، ليس من ناحية قدرة النسق الزمني على تفسير المكان المجتمعي، والوقائع المعاشة، والتفاعلات الاجتماعية فَحَسْب ، بل أيضاً من ناحية قيمة الرمزية في النسق الزمني القادرة على تبديل جُلْد التاريخ الثقافي لأبجديات المجتمع ، بمعنى القدرة على التجدد ، واستعادة النشاط الحياتي ، ولعب أدوار جديدة أكثر فاعلية في تحليل النشاط الإنساني ، وصناعة تواريخ متعددة تولد باستمرار وفق منظومة ديمومة سياسة الثقافة . ومن الأهمية بمكان فك الارتباط اللغوي الحاد بين عملية " تغيير الجُلْد " وخلع الهوية . وقيمة التجدد المعياري نابعة من حتمية توليد تواريخ جديدة تتبع من الصدام العاطفي المسيطر عليه بين الوعي والوعي المضاد ، ضمن جدلية تبادل الأفكار الأولية بُغية توصيلها إلى كيان يجسّد أحلام بنية التاريخ في تعزيز جذور الهوية ، والاعتناء بأغصانها ، وفق التوازن بين البنية التحتية للحلم التاريخي المعرفي ، والبنية الفوقية لسياسة الثقافة الانتشالية .

لكن ماهية البنية في المجتمع ليست ثابتة ونهائية ، كما أن أهمية البنية تتحدد حسب عوامل خارجية مثل البيئة واللغة والمسار وشرعية المصير . فالبنية السياسية لا تحمل ماهيةً ثابتة في رحمتها ، لأن الهوية السياسية متغيرة بسبب اعتمادها على الاحتضان الشعبي المتبدل قبولاً أو رفضاً .

ولا تحمل البنية السياسية مجالاً نهائياً ، لأن السياسة _ في نواتها الأساسية _ هي افتتاح دروب جديدة ، واكتشاف عوالم جديدة ، والتصدي لأزمات جديدة . وهذه العناصر المتجددة تتطلب انفتاحاً على الحلول والمشاكل باستمرار ، وهذا الذي يُبرز السياسة وكأنها طفل يُولَد باستمرار ، ولا يَشِيخ .

والعوامل الخارجية المساهمة في توجيه الذهن السياسي متعددة ، منها ⁽⁵⁶⁾ : بيئة الاحتضان الجماهيري والقبول الشعبي بكل مستوياته المنظورة وغير المنظورة ، ولغة الخطاب المتواصل مع المستوى الشعبي ، والشيفرة الأبجدية المشتركة بين الحاكم والمحكوم ⁽⁵⁷⁾ ، ومسار الضغوطات الداخلية والخارجية ، والتفاعلات الاجتماعية مع مصير الحراك السياسي نجاحاً أو فشلاً .

أما البنية الاقتصادية فهي تحمل صياغات مضطربة ومتفاوتة ، لأن فلسفة الاقتصاد هي فلسفة البورصات المتغيرة صعوداً وهبوطاً . وتبقى التغيرات العالمية الحادة المفاجئة أكبر من التخطيط الاستثماري الرامي إلى توجيه الاقتصاد نحو التكامل والتماسك . والبيئة الحاضنة للمنحى الاقتصادي ذات نزعة متوحشة طبقية مناوئة للماهية الإنسانية ، كما أن اللغة الفكرية الحاملة للذهنية الاقتصادية هي لغة محصورة في خانة الربح والخسارة ، دون الانتباه إلى الأعراض الجانبية

(٥٦) العوامل الخارجية لا تعني بالضرورة تلك المؤثرات القادمة من خارج الدولة . فقد تعني العوامل الخارجة عن النسق الفكري للتوظيف السياسي أو الاجتماعي . فالرأي الشعبي — مثلاً — قد يكون عاملاً خارجياً ، بمعنى أنه خارج عن الكيان الحكومي بالمفهوم المادي المكاني . فالأسرة مليئة بالعوامل الخارجية التي يراها الناس داخلية . فالرجل عامل خارجي بالنسبة لزوجته ، والزوجة كذلك . فمهما كان النظام الاجتماعي متراصاً ، ستظل هناك حدود بين الحاكم والمحكوم ، والرجل وزوجته ، والأخ وأخيه ، والإنسان وذاته . وهذا يحفظ الخصوصية والحدود المنطقية بين الكيانات ، ويحمي هوية الطبيعة المستقلة للأفراد والجماعات . وهذا لا يعني تمزق المجتمع أو الأسرة ، لأن الخصوصية لا تتمتع باستقلالية مضادة للوحدة ، وإنما استقلالية تهدف إلى التحاور والتكامل والتوحيد زمنياً ومكانياً . وبالتالي فإن أي نظام مجتمعي متماسك مثل الدولة أو الأسرة أو المدرسة ، تكون فيه العوامل داخلية وخارجية في ذات الوقت ، لكن الذي يميّز بينهما هو زاوية الرؤية ، والسياق الفكري الخاص .

(٥٧) إن ثنائية (الحاكم / المحكوم) غير محصورة في البعد السياسي . بل تشمل كل الأنساق الاجتماعية بكل تفرعاتها . ففي الأسرة هناك حاكم ومحكوم ، سواء كان بالمفهوم الإيجابي حيث التعاون بين الزوجين لقيادة الأسرة مع امتلاك الرجل حق القوامة المنضبطة ، أو بالمفهوم السلبي الذي يعني ممارسة الرجل سلطاته الذكورية بشكل استبدادي خانق ، أو ممارسة المرأة سلطة الاستبداد وتحكيم رأيها بصورة خاطئة . وفي التداخلات الأسرية قد يكون الأخ الأكبر حاكماً على إخوته الصغار (المحكومين) . وفي المدرسة يكون المدير حاكماً على المعلمين والتلاميذ (المحكومين) ... إلخ .

التي تؤثر على حياة البشر سلبياً ، والآثار البيئية من ناحية التلوث واستنزاف الموارد الطبيعية والغطاء النباتي وطبقة الأوزون ... إلخ . أمّا المسار الاستثماري في المجتمعات المتوحشة فهو نزعة قاتلة للمصائر البشرية ، ومضادة للحلم الإنسان في الواقع المعاش .

وبالنسبة للبنية الاجتماعية فهي خاضعة للتدفقات العنيفة في قيمة الحراك الاجتماعي، مما يؤدي إلى تغيير أنوية المجتمع الداخلية بشكل مستمر ، يُماثل استمرارية الانتقالات الذهنية عبر الأضداد . في حين أن البيئة المجتمعية هي صورة الوعي الجماهيري الذي قد يغيب في صوت التسييس الرسمي لصالح نخوية الخطاب، ومشاريع عليّة القوم . واللغة الحياتية هي التبادل الميكانيكي في تشابكات النقيض ، حيث أبجدية المعنى تتوّل إلى نصوص لغوية باحثة عن وعاء واقعي يحتضنها . أمّا المسار فهو اختيار الفرد الواقع تحت الضغوطات الحياتية القادمة من كل الاتجاهات. ولكن تظل شرعية المصير هي العنفوان الإنساني القادر على الحركة تحت الضغط ، وصناعة المستويات الإبداعية في مجتمعات علب الكبريت (المجتمعات الضيقة المحصورة) .

ومن الأهمية بمكان الانتباه إلى طبيعة مسار المجتمع واتجاهه قبل زيادة سرعة الانطلاق والتسارع. فلا فائدة من سرعة القطار المذهلة إذا كانت حركته خارج السكة ، ولا فائدة من رومانسية الرجل المتدفقة إذا كان متوجهة لغير زوجته . فلا بد من تحديد المسار ، لكي يتم تأسيس الانطلاقة الصحيحة والتسارع المدروس على قاعدة ثابتة لئلا تذهب الجهود المضنية أدراج الرياح.

وإذا جئنا إلى البنية الثقافية سنجد لها ذات أبعاد ديناميكية متماسكة ، بغض النظر عن ازدهار الثقافة أو انتكاسها . والثقافة هي المرأة التي تعكس صورة المجتمع الظاهرية والباطنية ، وتعبّر عن هويته وتاريخه وطموحه المستقبلي . واعتماداً على هذه الوظيفة الحضارية يتغير النسيج الاستكشافي لبنية الثقافة وفق منهج يؤلّد البدايات من ظواهر النهايات . وتبقى البيئة الإبداعية هي الضمانة الأساسية لتحول النسق المجتمعي إلى نص لغوي أبجدي متماسك ، يصنع لغة العقل البشري من حروف التراكيب المجتمعية الدقيقة . لذلك فإن المسار الفكري الموجّه لتجانس الأفعال الاجتماعية هو سياق ثقافي خارج على قانون الروتين والملل الحياتي . وهذا يجعل من شرعية المصير الفردي والجماعي تياراً مقاوماً للتهميش والإقصاء .

إن النظر إلى الخطاب الثقافي على أنه سياسة وجودية (بمعنى التماهي مع الوجود البشري والتمازج إلى حد استحالة الفصل) ، وسياسة متواجدة (بمعنى التمرکز على خارطة الزمكان) ،

يجعل من اللغة الحاضنة لمشروعية الحلم البشري مجتمعاً قائماً بذاته . ووفق هذا المنهج تتحدد علاقة الخطاب اللغوي بالوقائع التاريخية المنطلقة من منظور تركز الوعي على رقعة صناعة القرار الإستراتيجي .

وبالإضافة إلى دور اللغة (الخطاب النسقي المتشابه مع إرهاصات التحولات البشرية روحياً ومادياً) ، فإن دوراً جديداً يظهر لأبجدية فلسفة اللغة ، يتعلق بالتنقيب عن الماورائيات الباطنية في الكيان البشري⁽⁵⁸⁾ . وبذلك تنتقل صورة ثقافة اللغة من توصيف الظواهر المحيطة المتماهية مع صيغة الاستهلاك إلى اكتشاف مكنونات النفس البشرية .

وهذا يجعل اللغة محيطاً فكرياً رحباً يتسع لطبقات لغوية متعددة ، فتصير اللغة النواة حاملةً لأبجديات متعددة . وهكذا تصبح اللغة هَرَمًا تركيبياً من لغات متعددة ، مما يمهد الطريق لتأسيس وضوح منهجي يتفاعل مع الثقافة على أنها عِرْق متجانس من متواليات الصناعة اللغوية المنطقية . واعتماداً على ما سبق ، تتضح أهمية اللغات الهَرَمية في سبر أغوار الذات البشرية، فتنقل ماهيات الوظيفة اللغوية من مأزق وسيلة التخاطب ، وإشكاليات تبادلات المحادثة ، إلى تكوين نشاط رمزي قادر على الوصول إلى العمق في تشريح اتجاه ماورائيات الظواهر الإنسانية . لذلك تبرز الحاجة _ بين الحين والآخر _ إلى تأسيس أزمنة مغامرات استكشافية تمدُّ الجسمَ الاجتماعي بالطاقة اللازمة لمواصلة الحركة . وقد تكفّلت اللغة بتحقيق فعل الاستكشاف عبر تكوينات ثقافية حاملة ، من شأنها إحالة الخطاب العقلاني إلى أكسجين جماعي يتنفسه كل الناس

(٥٨) إن المأزق الوجودي الحرج الذي يمس مصداقية الكائن البشري ، هو انشغال الفرد في اكتشاف العالم الخارجي ، ونسيان العالم الداخلي غير المُكْتَشَف في ذات الإنسان . ولا بد من ترسيخ ثقافة اكتشاف الداخل قبل الذهاب إلى اكتشاف الخارج، لأن الشخصية الاعتبارية للإنسان هي هوية معاني الاكتشاف ، والتأسيس المصيري الداخلي على قواعد الفكر الإستراتيجي . ولا يمكن للفرد أن يُحوّل السياقات الخارجية عن كيانه إلى فلسفة ، إلا إذا اكتشف الفلسفة العميقة القابعة في أعماقه . وكلما سَبَحْنَا في الذات البشرية الشخصية المحدودة ، اكتشفنا العوالم الخارجية غير المحدودة . لذلك قيل :

وداؤك فيك وما تُبْصِرُ وداؤك منك وما تَشْعُرُ
وتزعم أنك جُرْمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

. ممّا يضمن تحوّل النسق النخبوي العاطفي الجواني إلى فعل اجتماعي عمومي شَعْبَوِي . لذلك صار الفهم الفكري التنويري للمشروع الثقافي نابعاً من كَوْن الثقافة فعلاً جماعياً يساهم كل الناس في تأسيسه وتطبيقه على الأرض .

وهذا المنحى غاية في الأهمية لأنه يؤدي إلى فهم تأصيلي جديد للخطاب الثقافي باعتباره سياسة تُحرّر الجماهير من سيطرة الشُّبهات والشّهوات ، ومنهجاً يُحرّر المعنى من حصار الألفاظ الهندسية الفجة . كما أن المشاركة الاجتماعية الجمعية تحمل سمات رد الاعتبار للوعي الجماهيري . وغالباً ما يُنظر إلى الجماهير على أنها خارج أماكن صنع القرار . ولكن لو نظرنا من زاوية مختلفة للحدث التجانسي الجماعي لوجدنا أن كل إنسان هو فيلسوف يمتلك أدوات صناعة مشروعه الفلسفي في أفقه الثقافي ، لكن وسيلة التعبير مختلفة ، ونظرة المجتمع إلى إنجازهِ متفاوتة (59) .

ومن خلال هذا التصوير المعتمد على تغيير زاوية الرؤية ، تتضح جذور الثقافة الضاربة في أعماق الذات المجتمعية ، ولكن ضمن صور متباينة . وهذا التأسيس الفكري الجزئي يظل خارج منظومة التعميم ، لأنه إطار محدود تم اكتشافه تحت تأثير تغيرات زاوية الرؤية غير الواضحة للجميع . لذلك تبرز الحاجة ماسةً لتعميم المنحى الثقافي على كل أنساق المجتمع باطنياً وظاهرياً ، من أجل اكتشاف الماهية المعرفية الحقيقية للمجتمع تحت كل زوايا الرؤية بلا استثناء . ولتحقيق هذا الهدف ينبغي تكريس النظام الاجتماعي اعتماداً على قواعد تأصيلية في فهم أبعديه التحولات الرمزية، ومبادئ تفكيرية تجذيرية في فهم طرائق تفسير النّص الحياتي المعاش ، لأن

(٥٩) إن الأمثلة على صحة هذه النظرية ماثلة للعيان . فالشاعر فيلسوف يمتلك أدوات لغوية وخيالية تعينه على صناعة مشروعه القصائدي الإبداعي . وشرطي السير فيلسوف يمتلك أدوات تنظيم المرور ، وإنقاذ الأرواح والممتلكات، وهو بذلك يصنع حلمه الشخصي ، وحلم إنقاذ الجماعة البشرية. وسائق التاكسي فيلسوف يمتلك أدوات التعامل مع مشاعر الناس وميكانيكا السيارة، فيصنع مشروعه الحياتي المتجدد، حيث الوجوه تتغير، والأزمنة تتبدل ، والأمكنة تتباين . وعامل النظافة فيلسوف يمتلك أدوات التعامل مع القمامة لتخليص المجتمع من كآبة المنظر، والرائحة السيئة، ويسعى بكل قوة لصناعة مجتمع خالٍ من القذارة ، وهذا هو مشروعه الفلسفي الوجودي .

المجتمع المتحرك _ في زحمة التفاصيل اليومية المتكاثرة _ يتحول إلى نص ثقافي مفتوح على قيم تأويلية متجددة .

ومن هذا المنطلق تنبع مبادئ تحول المجتمع الإنساني إلى لغة رمزية مفتوحة على قواعد تفسيرية متكاثرة ومتضاربة . لكن الإشكالية الحرجة في انفتاح اللغة المجتمعية المادية على اللغة الرمزية المعرفية، تكمن في احتمالات ظهور مجتمع طبقي بالمفهوم السلبي الاستغلالي ، وعندئذ يشعر الجميع أنهم خارج المنظومة إما روحياً أو مادياً . وهذا يقضي على روح الانتماء ، لأن الفرد _ حينها _ يقتنع أن وجوده كعدمه في هذه السياقات المجتمعية المحاصرة .

والسؤال الذي يطرح نفسه بكل قوة في هذا التصور : ما علاقة تحول المجتمع الروابطي المتشابك إلى لغة رمزية بظهور الطبقة المجتمعية بالمفهوم الاستغلالي ؟ . والجواب : إن تأسيس المنحى الشعوري للفعل الاجتماعي على قواعد لغوية رمزية يستلزم تحول الوعي السوسيولوجي إلى أشكال ذهنية تشبه أشكال الحروف اللغوية . وكل أبجدية هي مجموعة طبقية من الحروف أفقياً أو عمودياً ، وهذا التماهي الفكري في رسم الأشكال اللغوية قد يتسرب إلى الأشكال الاجتماعية ، فتحول النزعة اللغوية من تقاطعات جزئية (حروف) إلى تقاطعات مادية (الطبقات الاجتماعية) . فتصبح اللغة الرمزية هي تكريس لزيجات الثروة والسلطة ، وثنائيات (الغني والفقير ، السيد والعبد ، النخاس والجارية ، ... إلخ) . لذلك لا مفر من تحويل المساحات اللغوية الرمزية إلى أشكال اجتماعية عابرة لإشكاليات الصراع الطبقي ، وذلك من أجل توحيد المجتمع على قاعدة الانتماء الكلي إلى وحدة المسار والمصير . وبذلك يتمكن المجتمع البشري اللغوي من تجاوز عقبتين معاً: الأولى _ احتكار تأويل النص الرمزي المجتمعي ، والثانية _ ظهور جماعات ضغط داخل الأبجدية لتسييس لغة المجتمع لصالح ثقافة النخبة .

إن أهمية الخطاب الرمزي في تحديد ماهيات العلاقة بين الواقع والمتوقع ، والخيال والمنتخيل ، تنسجم مع المكانة الفكرية لأبجدية النسيج المجتمعي . مما يؤدي _ بالضرورة _ إلى توزيع الأدوار المعرفية على فريق عمل من المعاني اللغوية التي تعيد تشييد الوعي الجماهيري انطلاقاً من قيمة الانتماء كوعاء جامع ، ومصلحة مشتركة للفرد والجماعة .

والقواعد النصية الرمزية في تأويل الشعور المجتمعي ثقافياً ليست ثابتة ، لأن إشكاليات تفسير النصوص المتمركزة في الذهن الفردي هي مجتمع جديد يحمل بذور الصراع مع ثقافة الجماعة

الكلية ، أي إن اختلاف وجهات النظر في التعامل مع تعميق الإشارات الدالة على وحدة المجتمع كبنية متماسكة ، يعكس التباينَ التفكيري في قواعد المرجعيات بين الفرد والجماعة . ومن أجل ذلك كان لازماً توحيد المسار التأويلي وفق خلفية مشتركة للالتقاء في منتصف الطريق ، وهذا يمنع ثورة الفرد على الجماعة، ويحول دون إقصاء الجماعة للفرد . وليس هذا نوعاً من التلفيق وصبغ الأقنعة بالألوان الخادعة . بل هو توفيق بين الاختلافات في مستويات التفكير اللغوي التي قد تنعكس سلباً على حركة الثقافة السيكلوجية . وهنا ، تبرز ملاحظة غاية في الأهمية ، وهي أن اختلاف المرجعيات من شأنه تقسيم المجتمع إلى كيانات متناحرة دينياً وسياسياً وثقافياً .

إن تأسيس أبعاد كلية حاضنة لتوجهات التاريخ الثقافي للمعنى ، هو بمثابة إنتاج لغة إشاراتيّة جديدة تأخذ على عاتقها تكريس الخلفيات المشتركة كحل وسط بين النزعات المتضادة . ولا يمكن للحراك الإبداعي أن يتجاوز أوهام الإفرزات المجتمعية غير المنضبطة ، إلا عن طريق توحيد زمان تأويل النص الثقافي مع مكان تأويل النص المجتمعي ، وعندئذ يتلاحم النصان في بوتقة واحدة تُجسّد الثقافة والمجتمع في مسار مصري واحد لا يتشظى ، وتؤسس لأطوار النص الواحد المشترك الذي يحتمل أكثر من قراءة .

وهذا الأمر ليس لعبة ترقيع النصوص أو تلاعباً بجينات الثقافة لجعلها متماشية مع المسار المجتمعي الإنساني. إن هذه العملية هي حل سحري لإقناع الثقافة والمجتمع بتبني مصير مشترك ، يتم على أساسه تحديد السلوك التّفسي (اتجاهات المشاعر) ، وتحديد السلوك المادي (الطريق التي يتوجب السير فيها) . أمّا إذا بقيت الثقافة والمجتمع عصفورين يتقاتلان على احتكار السراب في نفس القفص ، فستظل تحولات الفكر المتجانس غارقة في تأويلات السلوك البشري الافتراضي دون أي تأصيل ملموس على أرض الواقع .

والتاريخُ التغييري في الهوية الثقافية يتأسس على مبدأ إخراج الحلم من الذهن إلى الواقع . وإذا غابت هذه المنهجية فإن إحساساً عارماً بالخيبة سوف يضرب كل أوصال السياقات الطبيعية للنمو الوجداني الأنثروبولوجي . وكلما شدّدنا على فاعلية التأسيس الناقل للمصلحة الجماعية من التجريد المخيالي إلى التطبيق الوظيفي ، امتلكنّا صيغةً بنية اقتصاديات التاريخ بمفهومه الرمزي. أي الانعتاق من استبداد أسقية التعريفات الاصطلاحية على التطبيقات العملية الواعية . وعندئذ يتحرر المجتمع الثقافي من كارثة التسييس المفرط في المصلحة الطبقية، وتحرر كذلك.

الصِّياغاتُ العقلانية من ثقل المصطلحات القلبية الجاهزة التي تُشبه غلب السُّردين ، من حيث جُمودها ، واحتفاظها بحيز ثابت محدود .

إن خروج الجماعة البشرية من مأزق إفرازات الوصاية الاجتماعية ، هو تمرد على أشباح المجتمع البَطْرِيْكي ، حيث احتكار سُلْطَة الحق ونفوذ الحقيقة من قِبَل ذات سُلْطوية وهمية متمركزة في الأذهان ، ومتنقلة عبر هرم الطبقات الاجتماعية .

واتجاهاتُ دراسة بنية التراكيب الثقافية التي تُشكّل أبعاد النواة التاريخية لمعنى الذوات البشرية وشرعية امتدادها في الزمان والمكان ، تنبع من اختلاف زوايا رؤية الصِّدام الحتمي بين التزامنية المعرفة⁽⁶⁰⁾ . وهذه التزامنية هي صفائح ذات تماس مباشر مع حياة الفرد وديمومته ،

(٦٠) التزامنية المعرفة : هي المساحة الفراغية المتمركزة على خارطة العقل المجتمعي الباطني التي تختزّن تصوراتٍ استشرافية متعلقة بقيمة تحولاتٍ مُحدّدة مثل :

أ (تحول الزمان الواقعي إلى زمان افتراضي وبالعكس : هذا التعبير يستلزم تحول اللحظات المشاعرية المتعلقة بأطوار العمر إلى تقاطعات زمنية ذهنية تُؤكّد من نفسها، وتتمصّ عناصر الطبيعة . وتحولاتُ الصيغ الزمنية نابعة من حجم إرادة التغيير عبر الأطوار ، وقوّة نظرية صهر المراحل . أمّا عملية إخراج الزمن الذهني المتمركز في الكيان البشري إلى واقعية عمومية ، فهي تعبير عن إرادة التكريس المعنوي لقيمة الألفاظ ، وتشكيل أجدية التغيير الذي يُؤكّد في الذهن كأفكار ، ثم يبحث عن حاضنة على أرض الواقع .

ب) تحول المكان الواقعي إلى مكان افتراضي وبالعكس : أي انتقال التضاريس الجغرافية الثابتة إلى معالم طبيعية غير خاضعة لعوامل الحث والتعرية ، لأن المكان هو الزمن المحصور بين الواقع والخيال . وإذا سارت المشاعر بين هذين الطرفين جيئةً وذهاباً، فإن المكان سيصبح وطناً ومنفىً في آن معاً . وبعبارة أخرى ، إن الهاربين من زحمة الضغوطات الحياتية الواقعية سيهربون إلى المكان الافتراضي الذي يصير مفاهم ، أو مكان قضاء فترة الاستجمام . والمُتعبون جرّاء غرقهم في غربة المكان الافتراضي سيذهبون إلى المكان الواقعي حينئذٍ إلى الذكريات والتنفيذ العملي للمشاريع الفكرية . وبالتالي يصبح المكان مسارين متوازيين ، وهذا يعني الحيلولة دون اصطدام قطار الخيال مع قطار الواقع . وإذا أراد الوعي الثقافي فتح الخيال على الواقع والعكس ، فيمكنه وضع مسار جديد يقوم بدور التوصليل بين المسارين المتوازيين (الواقع والخيال) .

تطرح أسئلة الشرعية على التواجد المجتمعي على رقعة المشاعر الحياتية الناتجة جزاء تفاعل الإنسان مع الإنسان، وتفاعل الإنسان مع البيئة ، وتفاعل البيئة مع البيئة . وهذا المزج المفتوح على احتمال التكوينات المعرفية إنما هو مزيج هلامي سحري بين الزمان والمكان ، يعتمد على تبادل الأدوار .

وتبادل الأدوار يتم وفق ثلاث وحدات نظرية متماسكة : الوجود ، النمو ، الذكريات . ممّا يدفع باتجاه تكوين نظام أخلاقي ذي صبغة علمية من شأنه إسناد الأفعال المجتمعية إلى مرجعيات ثقافية تقوم بدور التأصيل الفكري لحالة الشعور الفردي تجاه ذاته وبيئته .

والوجود هو التمرکز على رقعة المشاعر التاريخية وتاريخ الجسد الإنساني الحي . ولا يمكن للوجود أن ينفصل عن بيئة صناعة الخيال ، لأن وجود الإنسان لا يتمتع بالاستقلالية ، وإنما هو وجود مبني على قواعد مسبقة متعلقة بالوعي الاجتماعي ، والتجانس الثقافي ، والإطار السياسي لإنتاج الفعل الإبداعي .

ج) تحول الزمان إلى مكان وبالعكس : هذه النظرية من أهم الإسهامات التي أخرجت الفرد من متاهة الدوائر الاجتماعية المحصورة بين المستوى الأفقي والمستوى العمودي ، لأن انتقال اللحظة الزمنية من طور التمرکز الجسدي الذي تتغير معالمه مع مرور العمر إلى التمرکز في المكان الجامد المحصور بين عناصر المادة ، يُعتبر انتقالاً من الشيخوخة إلى الشباب ، وبالتالي فإن المجتمع يملك فرصة الحفاظ على شبابه ، وإعادة اكتشاف ذاته الأولية (البكر) التي لم تدخل في تأثير أدوات الحث والتعرية . وأيضاً = انتقال المكان إلى زمان يعني تحول قيمة الحصار المادي الأفقي إلى مجال مفتوح على كل الاكتشافات بشكل عمودي سابع في الفضاء .

د) تحول الوعي التاريخي من الزمنية إلى الحركة المجتمعية : إن الزمن قيمة معنوية لا يمكن إمساكه باليد — مثلاً ، لذلك فهو يكتسب معناه من التغيرات الطارئة على الجسد الإنساني أو الجسد المجتمعي ، كما يكتسب ماهيته من الحركة المستمرة للأدوات الروحية والمادية . فالتغيرات المصاحبة لأخلاق الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة ، تعكس مرور الزمن على جسد العناصر . وأيضاً ، إن حركة عقارب الساعة تشير — بكل وضوح — إلى حركة الزمن ، وهذا يدل على أن الحركة الفيزيائية للعناصر تمنح الزمن المعنوي معناه الدقيق، فينتقل الزمن من المجازية إلى الواقع، وتندمج الظواهر الخارجية مع التركيب الداخلي ، لذلك يمكن القول إن الزمن هو حركة فيزيائية تصاحبها تغيرات كيميائية .

ومن الأهمية بمكان تأسيس نُظم فكرية متماسكة خوفاً من تمييع صناعة الفعل العقلاني لصالح مسارات غير عقلانية . والقدرة على صناعة الخيال من أسس سياسة الواقع الثقافي ، ولكن ينبغي الحيلولة دون تحول الخيال إلى نوع من تعاطي المخدرات هروباً من الواقع ، حيث اختراع الوهم يتأسس لنسيان خشونة الحياة المعاشة . وهذا يتطلب تكوين المرجعيات الثقافية على قواعد الفعل الأخلاقي الذي لا يهرب من تحمل مسؤولياته . وبالإضافة إلى حماية الخيال من مأزقية الواقع ، وحماية الواقع من تخدير الخيال ، لا مفر من إنشاء وعي ذاتي يفصل بين المعطيات الرمزية (الوحدات الفكرية المتجسدة على شكل أفعال بنائية) ، وبين المعطيات الإشارائية (الوحدات الواقعية الدالة على أماكن صناعة القرار الثقافي) .

وعملية الفصل السابقة هي مُنتَج إبداعي بحد ذاته، لأنها تضمن ديمومة النمو المجتمعي، والتمدد الإنساني المنطقي في مسار واضح مُحدَّد ، حيث القطار لا يُكوّن مملكته خارج السكة . وبعبارة أخرى إن أي خروج عن واحدة المسار هو خروج عن التوحيد الفكري الذي يصهر كلّ العناصر في بوتقة واحدة يتم فيها دمج المعنى مع اللفظ ، ودمج لغة الزمان مع أبجدية المكان . أمّا وحدة النمو فتنبع وظيفتها من التوظيف الرمزي لأبعاد اللغة في مجال اكتشاف المابعد الفلسفي ، أي اكتشاف الأحلام المستترة وراء الحلم المكشوف⁽⁶¹⁾ .

والطبيعة الثورية للمد الثقافي متزامنة مع عمليات التنقيب عن انعكاسات الوعي الإنساني على وجودية الذاكرة ، التي تتحرك باتجاه مضاد للتهميش والوعي السالي . ومن هنا تنبع أهمية قيمة النمو المجتمعي أفقياً وعمودياً ضمن مسارات أكثر تجانسية . أمّا وحدة الذكريات التي تُشكّل الضلع الثالث في مثلث الحياة الاجتماعية الفاعلة (الوجود ، النمو ، الذكريات) ، فهي وحدة بناء المستقبل الرمزي للعاطفة السيكلولوجية التي تلعب دوراً أساسياً في تأصيل المسار الثقافي انطلاقاً

(٦١) صناعة الإنسان تشبه عملية استخراج اللؤلؤ من الصّدف . فلا بد من الغوص في أعماق الذات البشرية من أجل الحصول على الطاقات الإبداعية القادرة على تحويل مسار المجتمع بأسره من النقيض إلى النقيض ، من الانكسار المجتمعي إلى النهضة الكلية . وفي هذا دلالة واضحة على الأبعاد الرمزية للأبجدية الاجتماعية، ودور التأمّلات الذهنية في صناعة التغيير الواقعي، ودور الكفاءات البشرية الخارقة التي بإمكانها قيادة المجتمع نحو الفعل الإبداعي المتحرر من سطوة الماهيات المسبقة التقليدية المضادة للفعل العقلاني التأصيلي .

من وحدة اللغة كمصير عقلائي مشترك . وبالتأكيد فإن ماهية الذكريات لا تعني الحوادث الماضية التي عَبَرَتْ ذهنياً أو واقعياً ، وإنما تعني في الأبجدية الثقافية الجمعية وحدة انطلاق الماضي نحو المستقبل بكل اندفاع وتأجج ، من أجل رسم الحاضر المشترك بين سياسة الثقافة وعناصر البيئة الرمزية لاجتماعيات اللغة السيكلوجية . ويمكن إعادة تشكيل العبارات السابقة وفق نظرية تأسيس أفعال الذاكرة على المناحي الرمزية لا المناحي التاريخية. ومن خلال هذا المفهوم الجديد تغدو الذكريات تاريخاً رمزياً لماهيات السياسة الثقافية لا مرحلةً زمنية عابرة .

وهذا المفهوم في غاية الأهمية لأنه ينقل الوعي بالتاريخ من حصار الزمن إلى سوسولوجيا الرمزية المعرفية ، فيتحوّل الإحساس من كتلة خاضعة لتوقيت التاريخ إلى زخم عابر للمراحل الزمنية (الماضي ، الحاضر ، المستقبل) . وإن تكريساً لغوياً يعتمد على هذه السياقات من شأنه تحويل الأبجدية الاجتماعية إلى بنى سياسية تملك قراراً صنع سياستها الخاصة وفق دوافع المصلحة الذاتية العامة (الحلول الداخلية) لا الإملاءات الخارجية (الحلول الخارجية) .

وتزداد أهمية صياغة الذكريات كلما ازداد الوعي الإنساني بالمسار التاريخي ، وعلاقته المصيرية بالعد التصاعدي لأبجدية التغيير الثقافي المنطلق نحو تأصيل سياسة المعنى على قواعد اللفظ ، باعتبار أن اللغة الحاملة لاقتصاديات تثوير بُنى الثقافة هي نفسها اللغة الحاملة للماهيات الفكرية التي تنبع منها وحدة المجتمع ، والعلاقات الحتمية المشتركة بين الكيانات الإنسانية والكيانات الثقافية . وحسب هذا الاتجاه فلا بد من إعادة بناء الكينون الإنساني (الذات الإنسانية المحتفظة بجينات الجين الثقافي) ، لأن الركون إلى جاهزية الفرد لحمل أعباء إنسانيته سوف يؤدي _ حتماً _ إلى بروز فراغات كثيرة في اتجاهات الوعي .

لذلك على أبجدية سياسة الثقافة المجتمعية أن تدفع الإنسان إلى إعادة اكتشاف إنسانيته باستمرار ، وأن يحدد البُيعة مع ضميره وفق خطة منهجية دائمة لا تنقطع بانقطاع تيارات المشروعات الثقافية ، لأن سياسة صناعة المعرفة لا تنشأ إلا في ظل ديمومة متكاملة ومتواصلة من العمل الفردي والجماعي وفق قاعدة التنقيب المتواصل في الذات البشرية ، وذلك للحفاظ على الجاهزية البشرية للقيادة ، والتأصيل الكاريزمي لشخصية المجتمع الكلية .

إن قيمة المعرفة التاريخية في العلوم الاجتماعية ليست ثقافةً أسطورية ضمن عوالم ألف ليلة وليلة. بل هي التيارُ الزمني الجديد العابر للزمن التقليدي . ومن خلال هذا الطرح يُؤكد فهم جديد لماهية الزمن الذي يصير إحساساً بالمعنى خارج حسابات عقارب الساعة .

وبالإضافة إلى انطلاق الزمن من عنق الزجاجة ، فإن المكان سوف يتحدد بشكل جديد مغاير للتضاريس الجغرافية والوعي التقليدي بالزمان والمكان. وبالتالي تكون الشرعية الثقافية قد مهّدت الطريق لماهيات جديدة أكثر انطلاقةً ، وأكثر تحرراً من سطوة المفاهيم المسبقة . فالزمان يأخذ معنىً رمزياً ، والمكان يتحول إلى بيئة إشارتية للإبداع الثقافي ، والتاريخ يصبح حزمةً من ضوء .

ولا يخفى أن نشوء هذه الماهيات الجديدة يساهم بشكل فعال في اكتشاف أبعاد الشخصية الذهنية غير المنظورة المرافقة لنشوء العلاقات الاجتماعية الثقافية . ومن أهم أسس التحذير الثقافي اكتشاف المجتمع المستتر خلف المجتمع المكشوف ، لأن البحث في الماورائيات الفكرية ، أو التنقيب عن المابعد الاجتماعي ، أو الغوص في أعماق مشاعر الوجوه المختبئة وراء الأقنعة ، كل ذلك من شأنه نقل المجتمع من النفاق الاجتماعي إلى الوعي المعرفي ، وتأسيس أبعاد التدقيق السلوكي في إفرازات الثقافة الشعبية التي تؤول إلى دستور عُرفي متداول شفويًا .

ومن الضروري إذا أردنا الحصول على نتائج دقيقة حول تاريخية التحولات في ثقافة المجتمع _ أن نراقب عمليات الاقتراب والابتعاد بين البنية السكونية للمجتمع والبنية الديناميكية ، لأن تاريخ نشأة البنى الثقافية المتزامنة مع نشأة البنى المجتمعية ، هو التاريخ الثقافي الناشئ من تفاعلات السكونية والديناميكية في العمود الفقري للكيان الاجتماعي .

لذلك كانت الثقافة تياراً عابراً بين الأضداد بكل توازن وتماسك، يمسك العصا من المنتصف ، ليس خصوصاً للشروط الدبلوماسية ، بل تجذيراً للتوازن الدقيق في التعامل مع معطيات التاريخ الاجتماعي ، وإفرازات سياسة الثقافة الحاكمة في جذور الوعي الشعبي والرسمي . وأهمية المسار الرمزي في سوسيولوجيا الثقافة تنبع من عدة أماكن مختلفة ، لكنها تتوحد في بؤرة مركزية واحدة بفعل التكشيف الدلالي العميق الذي يصهر أبعاداً جغرافياً الفكر المجتمعي في أفق السياسة الثقافية المضادة للمصلحية الضيقة .

وكلما اتجهت تضاريس الحدث التاريخي الصانع لتقاطعات العاطفة الشعورية نحو تكوين ظواهر الانطلاق الثقافي، اتجهت البوصلة البشرية إلى تأسيس المعنى بعيداً عن الأشكال الجاهزة ، والقوالب المصنوعة مسبقاً . لذلك كانت الثقافة مفتاحاً حقيقياً لعوالم الصناعة المتجددة للتاريخ الذي يؤلّد من رحم الثقافات المتلاحقة . وهنا لا بُد من القول ، إن مبدأ تقاطع لغة النص الفكري مع أبجدية الحراك الاجتماعي يُنتج كائناً تنموياً يُعيد التجسيد اللفظي إلى الزخم الشعوري .

ولا يخفى أن الشعورَ العمومي من أهم خصائص الشخصية الفردية ، لأن الفرد ابن بيئته . وبالتالي فهو يتأثر بالعناصر المحيطة بشكل تراكمي ، فتظهر التأثيرات على شكل أبجدياتٍ ذاتية تدفع صيغة الوعي الاستباقي باتجاه تأصيل الشخصية الفردية في إطارها العمومي الشامل ، وتكريس بنية الجماعة البشرية حسب ثقافة التغير في مناخات الإحساس الفردي . والإحساس بالأنا والآخر البيئي⁽⁶²⁾ من الركائز الأساسية في بنية العلاقات الاجتماعية التي تخلق ثقافة الوعي والوعي المضاد، فينشأ نظام سياسي متجسد في ذات الفرد .

وإذا أردنا دراسة الأنظمة السياسية المتجسدة في ذاتية المعاني الفردية والجماعية، والكيانات الشخصية والاعتبارية العمومية ، فلا بد من تأطير أبجدية الخطاب بين بنية المجتمع وسياسة الثقافة انطلاقاً من حتمية التلاحق الوظيفي المنتشر ضمن المسار التاريخي لاقتصاديات المشاعر اللغوية والمسار العقلائي للتجانس الثقافي .

والمجتمع المتحرك في البيئة الأفقية والطبيعة العمودية ، يُولّد أثناء حركته مستوىً هندسياً حاضناً لتاريخية العمل الثقافي بالتوازي مع منطقية السياسة الاجتماعية السارية من رأس الهرم الوظيفي حتى القاعدة .

واعتماداً على هذه الأطروحة يصبح من المستحيل إحداث عملية فصل بين المُنتج الثقافي والمُنتج التاريخي ، لأنهما جناحان للسياسة التوحيدية التي تجمع الشتات الاجتماعي ، وتوفّر القيمة التجانسية لصيغة الحدث الفكري، وطبيعة المسار الذي ينمو في ظل استجابة الكيانات الاجتماعية لارتدادات الفعل الثقافي العابر للتسييس المغرض .

إن اكتشاف الخارج المجتمعي عن طريق الغوص في الداخل الباطني للشخصية الفردية ينطلق من ثنائية (الجوهر / العَرَض) . وبعبارة أخرى إن ثنائية (النواة الداخلية الفاعلة / الظواهر الطافية على السطح) هي التي تحدد طريقة التعامل مع التأصيل التاريخي للحراك السياسي الثقافي . والتطابقات المعرفية المبنية على قواعد لغة الوجدان ، تأخذ شكلَ الأبجديات المتوالية عمودياً

(٦٢) الآخر البيئي : مبدأ يعتمد على أنسنة العناصر البيئية المادية ، وإضفاء الصفات البشرية على = التراكيب المحيطة بالطبيعة استناداً إلى تمركز المتواليات الطبيعية المادية على شكل وحدات إنسانية تتفاعل معها ، وتتفاعل معنا . مما يُنتج لغةً مشتركة بين الروح والمادة ، ووسيلة خطاب جديدة ذات أبعاد ماورائية بين الفرد وإفرازات بيئته .

بُغية كشف العلاقات الناشئة بين اللغة الأصل واللغات الفروع . وحيثما تنكسر ثقافة لغة الخطاب السياسي ، تتأسس أطوار البنية الاجتماعية بعيداً عن حصار المتناقضات .

وهكذا ، تنزاح القيم الشعورية نحو إيجاد حالة الطمأنينة في ظل تاريخ عنيف متضارب ينتهج ثقافة إقصاء العناصر المناوئة للفكر الاستباقي المملب . وعبر هذا الماهية المتشابكة يتم تأصيل التاريخ كسلطة رمزية حاکمة على أنساق المدارات الثقافية ، وتحتكر السيادة على إشكاليات الوعي والوعي المضاد ، مما يتيح المجال لظهور حركات مناوئة في داخل التاريخ ، تسير ضد التاريخ ، وضد التوظيف السياسي السلطوي لتاريخية سياسة الثقافة . لذلك فإن التجزئة الدئوتية⁽⁶³⁾ هي الأداة الأكثر فاعلية في اكتشاف مابعديات النص التاريخي المجتمعي انطلاقاً من التوضع في بؤرة التاريخ من أجل فصل طبقاته الأفقية عن العمودية ، وفصل مستويات مسار

(٦٣) نظرية " التجزئة الدئوتية " : هي التأصيل الفلسفي الذي يعتنق منهج كشف الجينات الوراثية لطبقات المجتمع بالمعنى الفلسفي لا البيولوجي ، وفك شيفرة الروابط العلاقية بين المسارات الأفقية والعمودية . فالدئوتية (مصطلح شخصي) هي تكريس الذات المركبة كذات واحدة . وتأتي فكرة تجزئة هذه العلاقة اعتماداً على اختلاف كثافة التاريخ عبر أنساق الأبجدية المجتمعية المتحركة في أطرها السياسية والثقافية . ومن خلال تجزئة هذه الذات التركيبية يمكن الحصول على وحدات (أنوية) تحمل توارخ متعددة ومتباينة ، فتصبح كل وحدة اجتماعية هي تاريخ خصوصي متميز . وبالتالي نستطيع دراسة هذه الوحدة المستقلة كتاريخ مستقل يكشف عن مسار حركته . وبواسطة معرفة نظام التحركات في المنظومة المجتمعية (فك شيفرة المسارات الرمزية والواقعية اجتماعياً) يمكن معرفة الوعي والوعي المضاد . والأمر يشبه سريان التيار الكهربائي في السلك ، فمن خلال اكتشاف جنس الشحنة (موجب أو سالب) يمكن اكتشاف حركة التيار ، وطريقة تحويل مجراه ، وإمكانية تكوين بؤر مصطنعة للتجاذب أو التنافر . ومن أهم الأفكار الثورية في مجال الكشف عن تصادمات الوعي هو اكتشاف التاريخ الشخصي للوحدات المجتمعية ، فكل وحدة تحمل تاريخاً ذاتياً مميزاً يشبه الحمض النووي (DNA) . وهكذا ، نحصل على تعريف جديد للمجتمع أكثر تنويراً وتنويراً ، فالمجتمع هو مجموعة بصمات مختلفة موجودة في مسار شديد التكثيف والانصهار لتوفير عنصر التجانس ، وصناعة بصمة واحدة تكون هي الجماعة البشرية المتماسكة ، والمتحدة مساراً ومصيراً .

الوعي عن طبقات الوعي المضاد عبر اكتشاف اتجاه الحركة ، وطبيعة فلسفة المنهج الحاكم على لغويات السياسة الثقافية .

وهكذا تصبح نهاية التاريخ المجتمعي بداية اللغة ، أي إن القيمة الرمزية لأبجدية التحولات السيكلولوجية الطارئة على الأفراد والجماعات ، تنشأ حينما يتوقف التاريخ عن بناء الإشارات العقلانية الدالة على اقتصاديات المعنى . وهذا التوقف يسبب اختلالاً مربعاً في صيغة البناء المعنوي في ظل عدم تناسق التراكيب اللفظية مع القوالب المعنوية .

وكما أن التاريخ هو صيغة السلوك الاجتماعي الخارج من المساحات الزمنية ، والداخل في التحليل الذهني اللفظي ، فإن اللغة هي معاهدة فض الاشتباك بين المتخيّل الرمزي لأبجديات المعرفة

الأنثروبولوجية ، وبين المتوقّع الإدراكي الذي يتنبأ بمسار الجماعة البشرية ومصيرها .

لذلك تنشأ العلاقات التاريخية بشكل متزاوج مع ماهيات السلوك الاجتماعي . والجنين الناتج من هذا التزاوج الدائمومي غير الموسمي هو الثقافة الكلية بكل تأطيراتها. ومن أجل تفعيل الإحساس بالمتواليات التاريخية ودورها في رسم خارطة المشهد الإنساني الشعوري والمادي ، تقوم الثقافة _ بين الفينة والأخرى _ بصناعة تواريخ شخصية ذاتية تردم الثغرات في خطوط الاتصال التاريخية التي تنقطع نتيجة عجز الخيال عن إيجاد بيئة حاضنة للتطبيقات الآنية والمستقبلية، وحجم ضغوطات الواقع على الخيال ، لأن الوقائع المادية كلما ازداد تشابكها ، ازدادت نسبة التعقيد في مستويات الخيال الذي يفترض به أن يصنع الحلول الملائمة لمأزق وجودية الكيانات المجتمعية المتصارعة على المستوى الجزئي (الشخصية الفردية) أو المستوى الكلي (الجماعة البشرية) .

ومن أخطر التحديات الجاثمة على صدر المجتمع ، تحوّل التاريخ الثقافي لبناء المجتمعات إلى كتلة فراغية نسبية ، لأن مبدأ " نسبية التاريخ " يشير _ بشكل مربع _ إلى خلل في التركيب السيكلولوجي للجماعة ، فهذا معناه أن المجتمع غير متفق على تاريخه . فالبعض يراه تاريخاً مجيداً ، وآخرون يرونه أسود . وطائفة تراه سيفاً على رقابها ، وطائفة أخرى تراه جزءاً من هويتها .

وهذا التضارب في النظر إلى ماهية التاريخ ، تجعل منه بؤرةً نسبية غير متفق عليها . وهذه الحالة الخطيرة تظهر كتمهيد لحروب أهلية ، أو تظهر بعد الحروب الأهلية ⁽⁶⁴⁾ .

(٦٤) الحروب الأهلية غير محصورة بالنزاعات المسلحة فقط . بل تشمل الحرب الباردة ، وإفرازات مجتمع الكراهية والعنصرية والقيم السالبة المتضادة . فكثير من المجتمعات الصامتة ، والمتحركة بحدوء تام في حياتها ، تعيش حالة حرب مرعبة في داخل أنساقها الاجتماعية، حيث الشطط الطبقي ، وغياب العدالة الاجتماعية ، والتشديد السياسي على العنصرية والفئوية ، وعدم تكافؤ الفرص ، والفساد الضارب جذوره في بنية الهرم المجتمعي ، وإدارة الظاهر لحقوق الإنسان ، واضطهاد المرأة اعتماداً على سُلطة التقاليد ، أو سُلطة التأويل الذكوري للنصوص الدينية . وهذه المجتمعات البدائية من ناحية الوعي الحضاري هي نتاج حالة الاحتقان السياسي الذي يصنع ثقافة الانغلاق والتحجر والتطرف . وما يثير القلق أن هذه المجتمعات المنحرفة عن السكة تتآكل تدريجياً بسبب غياب القوة الجوهرية الدافعة، لكنها لا تقوم بأي عمل من شأنه تثبيت وجودها على خارطة التغيرات الاجتماعية العالمية الشرسة . فالفرد حينما يُحاصر في مجتمع مغلق قاتل للموهبة ، قد ينظر إلى المجتمع كشقة مفروشة سرعان ما يغادرها = =بلا انتماء لها ، أو شعور بسُلطة الذكريات والعواطف النبيلة . وإذا شعر الفرد أن وجوده كعدمه في محيط اجتماعي ظالم ، فعندئذ سيفقد روح الانتماء والولاء . وفي كل مجتمع ظالم سيشعر الجميع أنهم مظلومون ، وهكذا يتساوى الجلال والضحية في الشعور بالظلم . والمؤلم أن يُنظر إلى المجتمع على أنه سفينة تغرق، والبطل من يحاول أن يقفز منها قبل الآخر. وبالتالي فإن ماهية البطولة قد انتقلت حقيقتها من النقيض إلى النقيض ضمن منظومة انتحار المعاني الناتجة بفعل غياب المنهجية الثقافية الحاملة لحضارة المجتمع وتاريخه. ومن أخطر النتائج السلبية التي تظهر ، تقمص الضحية لشخصية القاتل نتيجة انكسار الوعي الحضاري في النفوس ، ومن هنا تختلط الأقنعة مع الوجوه . فيصبح المعنى عبثاً على اللفظ ، ويصبح اللفظ خيلاً لا يناسب واقعية المعنى . وهذه المنظومة من حالات التقمص الصادمة تؤدي بالضرورة إلى إنتاج تاريخ ثقافي بالغ التشويش ، لأن المجرم والضحية يتبادلان الأدوار، بفعل غياب منهجية العدالة عن النسق الاجتماعي الثقافي . وهكذا ، تصبح الثقافة _ بحد ذاتها _ أيديولوجيةً قمعية توفّر الشرعية الأخلاقية والتاريخية والحضارية لفعل الجريمة . وبالتالي فالتساقط الاجتماعي سوف يزداد حاملاً معه دلائل اضمحلال المجتمع ، وتشظي الوعي الجماعي ، واستقالة المواطن من المواطنة.

وتظل الإشارات الثقافية هي الضمانة الحقيقية لحماية التاريخ من نفسه ، وعقد اتفاقية سلام بين الخيال والواقع . وعندئذ تُتاح الفرصة للسياقات التاريخية أن تبني تاريخ الثقافة على قواعد العمل السياسي الإنقاذي لا الابتزازي . وعبر تكثير متواليات التحليل اللغوي لمسار اجتماعيات الثقافة ، يمكن تأطير الفكر السياسي كانعكاس طبيعي للوعي الثقافي . والسياسة من خلال شمولية وجودها الميكانيكي على أرض الواقع ، تحتاج إلى إسناد روحي يحتضن أحلام الجماهير ، ولا يمكن لغير سياسة الثقافة أن توفر هذا الإسناد الروحي .

لذلك فالعلاقة السليمة بين السياسة والثقافة ليست رابطةً مصلحة انتهازية مجردة من القيم النبيلة ، فكل مسار سياسي لا ينبثق من أبجدية التوعية الثقافية لن يصل إلى قلوب الجماهير ، ولن يقدر على التأثير في بنائية المستويات الوجدانية للجماعة الإنسانية ، كما أن كل تيار ثقافي خارج منظومة السياسة الإنقاذية لن يؤدي إلى تشييد مجتمع التوازن بين الروح والمادة .

والسؤال الذي يطرح نفسه بكل ثقة : هل يمكن للثقافة أن تستثمر لغوياتها في السياسة ؟ . ويمكن الإجابة على هذا السؤال من خلال تكوين صورة شمولية للعلاقة الحتمية بين الثقافة والسياسة . فالوعي الثقافي لا بد أن يخرج من سجون الذهن ، لذلك هو يحتاج إلى رحم واقعية (المجال السياسي) ، لكي ينمو الجنين الثقافي بشكل شرعي وصحي . وهكذا تبرز إمكانية استثمار لغويات الثقافة في السياسة . والعناصر الثقافية والسياسية متجاذبة لا متنافرة ، وهذه التراكيب العنصرية ليست غريبة عن بعضها البعض ، مما يجعل التجانس واقعيةً منطقية محسوسة لا يلزم من جواز وقوعها مُحال ، وكل ما كان هذا شأنه فهو جائز الوقوع . كما أن نقاء المسار الثقافي قادر على غربة الوعاء السياسي ، وتنقيته من الشوائب ، خصوصاً مبدأ " الغاية تُبرّر الوسيلة " .

وهناك سؤال آخر يظهر في ظل تراوج العلاقات السلطوية الاجتماعية ، حيث سُلطة السياسة وسُلطة الثقافة تعيشان جنباً إلى جنب : هل يمكن للسياسة أن تعتمد على تجانسية الثقافة في تحديث المجتمع ؟ . والجواب يعتمد على مقاصد الماهية السياسية ، ودوافع الفعل السياسي الذاهب باتجاه الثقافة . فإن كانت السياسة تنظر إلى المنظومة الثقافية كغطاء شرعي للأفعال السياسية اللاشرعية ، فعندئذ سيحدث شرخ في مستويات الوعي الجماهيري ، وتناكل روح الانتماء في المجتمع ضمن صراع أجنحة بين الكيانات المجتمعية المتضادة ، وتغرق الأنظمة البشرية في متاهة الأضداد ، وتذهب الجهود الإنسانية أدراج الرياح . أمّا إن كانت السياسة تؤمن

بأهمية الفعل الثقافي ، ودوره في إحداث تغيير جذري إيجابي، فعندئذ يمكن للسياسة أن تضع ثقلها في تجانسية الثقافة لإخراج المجتمع من مستنقع عزلته الكونية .

إن صورة المجتمع الدلالي الذي يعرف مساره ومصيره تنبع من إيجاد حلول جذرية للإشكاليات المتعلقة بماهية السيادة الثقافية على الإفرزات السياسية . وبواسطة الفكر الثقافي التأصيلي المنتشر في طبقات الوعي الاجتماعي ، يمكن للسياسة أن تصبح أقل توحشاً وأكثر إنصافاً . ووفق هذا المنظور الفلسفي تُعاد دراسة الحدث الاجتماعي كبنية مستقلة عن ضغوطات التكيف التسييسي ، أي تحرر اجتماعيات الأبدية الإنسانية من ثقل الخلفيات السياسية ذات الصبغة النفعية الاستهلاكية .

ولأنَّ تحرر الفرد من ثقل الهواجس خطوة تمهيدية ضرورية لتحرر المنظومة المجتمعية من ثقل السياسات التجهيلية ، كان حتماً على الفرد أن يأخذ بعين الاعتبار الصيغة الجماعية للتكوين الأبدي في إنشاء تاريخ الكل قبل أن يبنّي تاريخه الشخصي الجزئي . وهذا لا يعني بأية حال من الأحوال أن يلغى الفرد شخصيته نزولاً عن رغبة الجماهير ، بل يعني إنشاء منظومة تجانسية واعية تربط الجزء مع الكل ، وتدفع الكل لاحتضان الجزء خروجاً من حالة الخصام والصدام والتنافر القطبي .

والدور الشخصاني في إنفاذ المنظومة البشرية وانتشال الكل الاجتماعي ، لا يعني الاستعلاء على المنظومة الاجتماعية الجماعية عبر تأسيس ثقافة متعالية عائشة في الأبراج العاجية . بل يعني توظيف العقل الفردي لانتشال منظومة الجماعة البشرية، وإعادة القطار إلى السكة . وهنا تبرز أهمية المواهب الفردية في تحريك الرأي العام نحو الدرب الصحيح ، والتأثير في المنظومة الكلية.

والعبرة لا تكمن في الإبداع الفردي المجرد ، لأن كل فرد _ مهما علا كعبه في المجال المعرفي _ يظل متحركاً في بيئة محيطة تتسرب إفرزاتها إلى العقل التكويني لتاريخ الفرد سواءً اعتنقها أم رفضها . وهذا التسرب عبر أطوار الوجود الزمني يجعل من الفرد بيئة متحركة تحمل منظومة من الأضداد التي جاءت بفعل الأنظمة المكونة لشخصية الفرد . لذلك فإن الفرد الذي يطمح إلى توجيه مجتمعه نحو الفاعلية التطبيقية ينبغي أن يخوض حرباً مع نفسه لتطهيرها من كل الرواسب العالقة بها . والفرد يُقاتل نفسه لكي يجد نفسه خارج منظومة احتراف الانحراف . وإعلان الفرد الحرب على نفسه ينبغي أن يفهم في سياق تصحيح مسارها ، وتنقيتها من العناصر

الشاذة. ولا يُفهم في سياق انتحار الإنسان، أو فقدان بوصلة التوجيه الشخصية ، أو إنتاج فرد منحرف تائه بين الأضداد ، أو صناعة مجتمع مضطرب شاذ عن المسار الحضاري .
إن المعمار الاجتماعي هو البعد الرمزي لتاريخية العلاقة الحتمية بين الثقافة البصرية والثقافة السمعية . وهذه الصورة الثقافية العمومية لا تعني تأسيس ارتباط المشروع المعرفية بالحواس المادية من منظور توحيد الشرعية العقلانية مع الحواس الناقلة للخبرات الحياتية . بل تعني التمييز بين المسارات المتقاطعة والمسارات المتوازية داخل الكيان الاجتماعي الذي يعتنق الثقافة كأسلوب حياة وقيمة خلاصية وتخليصية .

ولا يمكن حصر السلوك الثقافي لاجتماعيات الأجدية الإنسانية في قالب المعرفة التجريبية الآتية عن طريق البصر والسمع . والمنظور الإبداعي الثقافي الذي يؤسس تاريخاً من اكتشاف الخيال ، وبناء قواعد المجتمعات الذهنية بشكل افتراضي ، بُغية إسقاطها على الواقع حياة معاشة ، لا يمكنه السقوط في فخ الظواهرية المعتمدة على ما تنقله الحواس من مشاهد ، لأن هذه المشاهد بحاجة إلى غربة عقلانية لفصل الخيال الذهني عن الواقع المادي .
والقدرة العقلانية التحليلية هي الحاكمة على مُدخلات الحواس ، لذلك تمارس أدوات التنقية الفكرية دورها في فصل المعنى عن اللفظ ، وفصل التاريخ الشخصي عن التاريخ العمومي ، وفصل ثقافة السياسة عن سياسة الثقافة .

ووفق تأصيل مبدأ حاكمية العقل على الحواس ، يظهر معنى جديد للشرعية الثقافية ، ينبع من طبيعة العلاقة بين أحاسيس الظواهر المرئية بكل أطيافها، والعقل الثقافي الذي يستنبط تاريخ الإشارات التطبيقية من وحي الحواس الثقافية . وهكذا تنتقل ماهيات الحواس من إطار الجوارح الظاهرية إلى عوالم الوعي بأعماق الخيال المتمركزة في ماورائيات الحراك الاجتماعي . وحسب هذا المنظور تنكسر ماهية الثقافة كحالة استكشافية دائمة تعتمد بالدرجة الأولى على قوة المخيلة في صناعة الفعل ، وتوقع ردة الفعل .

وخصوصية المنحى الرمزي في التعامل مع قوة المخيلة ، تقودنا إلى فهم تداعيات التحرك التاريخي بين إشكاليات سياسة البناء الثقافي في عوالم ضيقة ، أي تشييد مساحات فكرية متشظية تتمتع بحرية الحركة والانتشار في الزوايا الحرجة والأماكن الضيقة . والأداء العقلاني الذي يصنع بُنية الحدث التاريخي لا بد أن يتعود على الحراك في أفق ضيق . والقوة الضاربة للرمز الفلسفي والمبادئ الثقافية ، تتحدد من خلال قدرة المنظومة المعرفية على توسيع قيودها لتجعل من سجنها

أفقاً رحباً للوعي الفلسفي ، والتوعية المنطقية ، والحركة المكوكة الهادفة ، والحراك الاجتماعي الذي يُؤلّد سياسات المصالحة الفكرية بين التاريخ كسياسة ، والتاريخ كثقافة .

وفي خضم رسم معالم تاريخية الأبجدية السياسية الناشئة في بيئة الثقافة ، تنشأ مفردات أكثر وعياً بأهمية التحليل الاجتماعي لمصادر انبعاث سياسة الثقافة . والفكر الثقافي لا يمكن حصره في مكاتب المؤسسات الثقافية ، لأن البيئة الجماهيرية الحاضنة لتطبيقات البيئة الفكرية هي الضمانة الحقيقية لديمومة الشرعية العقلانية .

وكما أن العلم لا يمكنه الوصول إلى تطبيقات واقعية نافعة إذا بقي جبراً على ورق ، فكذلك التجسيّدات الثقافية لا يمكنها تغيير الصيغ المجتمعية إذا بقيت محصورة في المؤسسات الثقافية . ومن هنا تنبع أهمية الاحتضان الجماهيري لدفع العملية الفكرية نحو مزيد من الانتشار والثبات ، ونيل الشرعية الحياتية التي لا تنفصل عن الماهيات الاجتماعية ذات التماس المباشر مع مستقبل المجتمعات ومشروعية بقائها .

والنظم المعرفية في كل التكتلات النسقية السوسولوجية تحمل صبغةً مابعدية ، أي صيغة استكشافية لجذور الروابط بين الأفراد والجماعات ، وعلاقة هذه الجذور بالفعل الإنساني ورد الفعل المابعدية . لذلك تحرص الثقافة في كل أطوار تكونها على فك الرموز الاجتماعية من منظور سياسي ثقافي ، وذلك للوصول إلى ثنائية التلازم (المنبع / المصب) في الفكر المعرفي .

وحيثما تتكرس المتلازمة (المنبع / المصب) بكل وضوح في النسق الاجتماعي لاقتصاديات المعرفة الرامية إلى وضع الطاقة العقلانية المناسبة في المدى المجتمعي المناسب ، يمكن تحديد مسار العلاقات الإنسانية في محيطها التجانسي .

وعبر استخدام الفكر التأصيلي لحركة التغيرات الثقافية الناشئة في المجتمع ، تستطيع القيمة الإبداعية للمنتج العقلاني أن تقود الهاجس الثقافي نحو تحقيق المزيد من الواقعية والأحلامية ضمن زواج شرعي مؤبّد بين الواقع والخيال . ولا مفر من مباركة هذا الزواج لأنه الطريق الشرعي الوحيد لقدم الجنين المكتمل . وهذا الجنين هو التاريخ الحامل لجينات الواقع والخيال وفق تقاطعات النظم الاجتماعية المحمولة على سياسة الثقافة التي تفك شيفرة تعقيدات الحياة اليومية للأفراد والجماعات . ومن أهم الخطوات التي تؤسس النظام البيئي لاستيعاب العقل الثقافي ، اكتشاف تفاصيل الشيفرة الحاكمة على سياقات الروابط البشرية . فلا يمكن توقع سلوك الفرد ، وتحديد اتجاه مساره العقلاني ، وكشف مرجعيته العلمية ، إلا من خلال تحليل العلاقة الفردية مع

المنظومة الجماعية الكلية ، لأن الجزء حينما يتحرك في مداره باتجاه الالتحام مع الكل، سوف تتضح معالم هذه الحركة الفردية ، وبالتالي تظهر قوة توقع الفعل ورد الفعل ، مما يُسهّل على المنظومة الاجتماعية رسم سياسات الانتشال الثقافي بما يتناسب مع قدرات الأفراد واستعدادهم النفسي والجسدي لتحمل مسؤولية التغيير الخلاصي ، الذي يدفع عجلة التقدم الحضاري للأنساق البشرية في المحيط البيئي .

وعلى الدوام تظهر في سياقات المعرفة التجانسية إشكاليات متعلقة بسطوة الشرعية الثقافية على الشرعية الوجودية للنسج الإنساني . فتظهر أسئلة الهوية والقيادة ، هل الثقافة ستقود المجتمع نحو الخلاص أم المجتمع سيقود الثقافة نحو الاختزال ؟ . وهذا السؤال يبدو غير مترابط للوهلة الأولى ، لكنه يبرز بشكل موغل في الإلحاح والمنطقية ، ويُطرح تحديات وجودية جسيمة .

والثقافة _ بوصفها مشروعية الخلاص الإنساني من التوحش _ هي امتداد للعقل الوظيفي المعنوي الذي يُؤنّس التيارات المعرفية في الهالة الاجتماعية ، أي يجعلها إنسانية الهوية، وبشرية الأحاسيس. وهذه الأنسنة تظهر بشكل مُلح _ بين الفئنة والأخرى _ لتعيد المجتمع إلى العقلانية الواثقة التي تجد حلولاً لا العقلانية العاجزة التي تعتنق النقد المستمر دون تقديم مشاريع بديلة . ومن هنا كان الارتباط الوثيق بين الثقافة كحالة خلاص ، وبين الأنسنة كمشروعية لتخليص الهوية البشرية من فوضى الشوائب الغريزية المحصورة في أنطقة التوحش .

أمّا المجتمع فهو تجمعٌ لشظايا الذاكرة المشاعرية ، وتكتلٌ لأجزاء هوية الذكريات التي تأخذ على عاتقها تأسيس الفكر الثقافي على قواعد النماء والانتماء . والذكريات _ في الوعي الرمزي للأبجدية الاجتماعية _ غير محصورة في الإحساس الزمني الماضي الذي يصنع هالة الحنين ، ويفتح باب المشاعر على احتمالات الذاكرة ، لأن الذكريات _ في معناها الواسع _ تُشير إلى القدرة الفردية على الانتماء إلى المنظومة الكلية . وبدون هذا الانتماء سيشعر الفرد أن وجوده كعدمه ، فتتهار النظم المجتمعية الحضارية على بوابة الاستهلاكية المفرغة من المرجعية المعرفية الحاكمة على السلوك البشري . لذلك فإن ماهية الذكريات تملك أفقاً يتجاوز الإحساس العاطفي بالماضي ، والحنين إلى لحظات عمرية محددة . ومن غير الممكن اكتشاف الأبعاد الماورائية للذكريات بدون تفعيل النظرية الثقافية في القيادة . فلا بد من إنشاء علاقة تكاملية مناوئة للتضاد . فالثقافة الواعية الناشئة في بيئتها السيكلوجية تملك حلولاً أكثر فاعلية في نطاق مجتمعها

العقلاني ، لأن الرمز الثقافي ابن بيته . وهو أدري بها ، وأكثر قدرة على فك تقاطعات الأبجديات المجتمعية الملتقية على رقعة الفكر الانتشالي . وبذلك تكون الثقافة قادرة على رسم معالم الخلاص . ومن استطاع إحضار المفتاح بعد طول عناء لن يعجز عن فتح الباب . وفي نفس الوقت على اللغة المجتمعية أن تقود أبجدية الثقافة نحو الاختزال بالمفهوم الإيجابي (65) .

والتكثيف الدلالي لأبجدية الثقافة هو مستقبل العمل الاجتماعي ضمن أطر المنظومة التوعوية . وصورة العمل الاختزالي تستند في تصورها إلى مبادئ تكثيف الوجود الثقافي في سياسة التبادلات الاجتماعية ، مع ضرورة الابتعاد عن التشطي غير الواعي . وبما أن شرعية سياسة الثقافة حالة شديدة الاستقطاب ، كان لزاماً على البنية المعرفية للفكر الثقافي المتجانس أن تعتمد على التكثيف بدلاً من التشعب العبي ، والاختزال بدلاً من الانفتاح على الوهم . وعبر هذه المنظومة الموعلة في التماسك، تتشكل بُنية الحدث الاجتماعي كنواة لعقلانية الهوية الجامعة لتراكيب الأسئلة المصيرية ، والإجابات المنطقية .

والهوية تطرح أسئلتها الحرجة على أبجدية الحراك الثقافي ، مما يجعل السياسة المعرفية مُنتجاً أخلاقياً بامتياز ، وهذا يساهم في أنسنة المجتمع بشكل اختزالي تكثيفي ضمن حركات تلقائية مناوئة لفكر الشظايا الذي يرسم سياسات الارتجال في المجتمعات البدائية .

والأداءات الفكرية التلقائية في الجسد المجتمعي الثقافي ، تمتلك نفس فلسفة جهاز المناعة في الإنسان الذي يقاوم _ بشكل تلقائي _ أي جسم غريب يقتحم الكيان البشري . ومن خلال معرفية النسق المتماثل بين تركيب جهاز المناعة في الجسم الإنساني والجسم الثقافي ، يمكن تأصيل أبعاد العناصر الثابتة والمتحولة ، وتمييز الأجسام الغريبة عن غير الغريبة . ومثل هذه العملية

(٦٥) إن الاختزال هو قيمة الوعي بالتكثيف ذي الإشارات الرمزية المتراسة في مجتمع متغير بسرعة مذهلة . والاختزال يسلك اتجاهين في أدائه المجتمعي اللغوي . ووفق ماهية الاتجاه يتحدد الإيجابي والسلبي . فالمعنى الإيجابي للاختزال : هو تكثيف الأبجديات الثقافية ، بحيث تتجمع مراكز القوى في النواة والأطراف بُنية إنتاج كتلة متراسة من الاجتماعيات اللغوية المتعلقة بمد الثقافة بالطاقة اللازمة لحركتها أفقياً وعمودياً . أمّا المعنى السلبي فهو : انكماش المساحات الثقافية الممتدة في تشابك الروابط المجتمعية ، وارتداد الوعي الجماهيري إلى أنوية نخبوية محصورة في أبراج عاجية لا تملك سلطة التغيير على أرض الواقع بسبب انعدام قيمة التأثير والتأثير .

سوف تدفع باتجاه توقع ردة الفعل الاجتماعي حيال السياسة الثقافية الرامية إلى تحليل الجوهر والأعراض، تمهيداً لنشر العناصر الإبداعية الحاملة لجينات الحراك الاجتماعي في كل تفاصيل الحركة الإنسانية الحياتية .

وإذا تم تثبيت معاني توقع ردة الفعل في الفكر السوسولوجي ، فإن صناعة الفعل الحقيقي ستصبح أكثر سهولة . وحينئذ تتأسس نماذج الخطاب النفسي الذي يغوص في أعماق الذات البشرية لاستخراج قيمة الجوهر الإنساني الثقافي . والفرد هو خزين ثقافي غامض ومُروغ ، والتحدي الحقيقي يكمن في طريقة الوصول إلى محتويات هذا الخزين الثقافي الآتي من بيئات الفطرة، والعقل الذهني الباطني ، وتراكم الخبرات الحياتية ، وصور الأشكال المجتمعية المنطبعة على صفحة الذهن دون خروجها على شكل سيالات كلامية .

وعُبر توظيف طرق التنقيب عن الثقافة الداخلية للأفراد ، يمكن فهم الدوافع الحقيقية لتكريس الصمت كأبجدية قائمة بذاتها . والتحدي البارز في السياقات العقلانية يكمن في تحوّل الصمت إلى ثقافة في المجتمع الذي لم يتعلم لغة الحوار ، أو المجتمع الممتلئ بالضجيج في كل الاتجاهات دون نتائج على الأرض .

وسياسة الجعجعة بلا طحن الناشئة في المجتمعات الطفولية ، ستُنتِش جيلاً لم يتعلم أن يتحدث ولا يستمع . واعتماداً على هذه الصورة القاتمة يترسخ السكوت كلفة مستقلة عن طبيعة الماهية اللغوية الحقيقية التي هي خطاب جماعي تساهم المنظومة البشرية في إبداعه .

٩

دور الثقافة في صناعة البنى المعرفية

تبرز مهمة الثقافة الأساسية في محاولة فك شيفرة التقاطعات الاجتماعية الصامتة التي حوّلت وسيلة التخاطب من اللسان إلى العيون . فأضحت لغة العيون هي المتحركة في محيطات الحراك الاجتماعي ، والسلوك المعرفي الضارب جذوره في بُنى الاستعداد اللفظي لبناء المعاني . وبالإضافة إلى ما سبق تتشكل أبعاد مغامرة الثقافة في اكتشاف اللغة السردية الكامنة خلف صمت العيون . والمجتمعات المتناحرة لا يمكنها إنشاء وسائل خطاب مُحَدَّدة المسار والهدف مسبقاً ، لأن الأساس الفكري للتناحر المجتمعي يعتمد _ بالدرجة الأولى _ على عدم معرفة الآخر الداخلي ، بسبب غياب ثقافة الاستماع .

وإذا اعتقد الفرد أنه يملك الحق المطلق، وغيره على الباطل المطلق ، وغابت لغة الحوار البناء ، والجدل بالتي هي أحسن، فعندئذ ستتحول الأنساق المجتمعية إلى كيانات فردية معزولة ، ويتخندق الفرد في شرنقته الخصوصية ، وينسحب إلى مساحات العزلة والانكماش على الذات رافضاً التأثير في محيطه أو التأثير به . وهذا يؤدي إلى تقوّع التراكيب السوسولوجية في زاوية ردة الفعل لا صناعة الفعل الأساسي، فتنشأ مجتمعات متناحرة_حقيقية_ترتدي قناع الوحدة الوطنية_ظاهرياً _.

إن سيكولوجيا الثقافة لا تنبع من الامتداد الشعوري للوعي اللغوي فحسب ، بل تنبع _ أيضاً_ من المسارات المتوازية في مرجعية المعرفة . والدلالة الإنسانية التي تصنع مجتمع الثقافة السياسية ، هي نفس الدلالة التي تُنشئ فكراً ثقافياً في سياسات الروابط المجتمعية بين الأفراد والجماعات .

والمصدرية الفلسفية في تكوينات الوجود البشري ، تُفرز معانٍ جديدة للإنسان والمجتمع . واللغة _ بحد ذاتها _ هي اصطلاح جماعي تَنمُوِي، والكلماتُ يتغير معناها حَسَب الاستعمال الاجتماعي للأبجدية وأبعادها الواقعية والمجازية .

وفقه اللغة ضروري للغاية في تحديد ماورائيات أبجدية النصّ الإنساني الاجتماعي ، وتعيين حدود الرموز الثقافية المحمولة على لغة البيئة الفكرية البشرية . واعتماداً على أهمية اللغة في تحديد هوية المسار الثقافي والمصير المجتمعي ، تظهر أهمية بناء فلسفة الأبعاد المعرفية المرجعية على قاعدة اللغة بُغية صناعة مجتمع ذهني يمتاز بالمرونة الحركية ، والديمومة المعنوية في مجال طرح الأسئلة والإجابة عنها ، وإنتاج متواليات اجتماعية واقعية تتميز بالحيوية في التعامل مع الأفعال الفكرية ، وسرعة ردة الفعل في عوالم تتغير بسرعة هستيرية .

ولمّا كانت اللغة كائناً حَيّاً يُؤلّد ويتحرك في تحولات التجارب البشرية المصيرية، كان _ من الضروري_ إنتاج الفلسفة في حضن اللغة، وذلك لكي تنتقل القوة الحركية للأبجدية ، وينتقل الأفق الرمزي اللغوي إلى المعنى الفلسفي الملتصق بالتراكيب الاجتماعية ، وهذا يُتيح للفلسفة أن تنتشر بصورة أكبر . واللغة لا يمكن تدجينها ، وذلك عائد إلى تماسك أنويتها الحيوية ، وبنيتها الثورية شديدة الزخم ، حيث ثورة المعاني المبتكرة ، واستخدام التراكيب اللغوية في خلق حالة إبداعية متفردة ، وانتشال الفرد من الروتين الوظيفي والملل الحياتي . وكلّ هذه القيم تشكّل فيما

بينها ثورة لغوية على مُنتجات الأبجديات الركيكة، حيث المعاني المستهلكة، والألفاظ الجامدة في القوالب المتكررة .

وبالإضافة إلى ما سبق ، نجد أن اللغة تمتلك قدرات خارقة على إطلاق الروح البشرية نحو التسامي والإبداع ، وصناعة التنوير الاجتماعي، والإفلات من المأزق الوجودي الذي يضرب العمود الفقري للمجتمعات المريضة التي تحرق الفرد، وتحترق بانكسار الفرد .

واللغة حققت إنجازاً مذهلاً في مجال التراكيب الذهنية التحليلية . فالطاقة اللغوية أخرجت الفلسفة من أطر الفرضيات الجامدة والنظريات القوالبية إلى فضاء أكثر رحابة . فلم تعد الفلسفة مقتصرة على المختصين بها في دوائر العلوم الإنسانية، بل انتقلت إلى قيمة سلوكية جماعية رمزية ، حيث كل فرد في المجتمع _ بغض النظر عن مستواه العقلي _ فيلسوف متكامل يمارس فلسفته الذاتية على الصعيدين: الشخصي والجماعي. لكن أسلوب التعبير عن الفلسفة هو الذي يمنحها معناها المحدد في الوقت المحدد والمكان المحدد .

وعبر توظيف أبعاد الماهيات الجديدة للفلسفة ، يمكن صناعة المجتمعات الافتراضية من أجل محاكاة النمذجة الشعورية، حيث تُولد العاطفة الإنسانية من رحم الفكر التنويري . وحينما تتركز المعاني الفكرية الواعية في النسيج الاجتماعي للثقافة ، سوف تتمكن بنية الحدث المعرفي من إنتاج متواليات متجانسة تروم الثغرات المتسعة في المجتمع اللغوي بُغية الحصول على مجتمع شديد التماسك . والتداخلات في المجتمعات الواقعية والكيانات الاجتماعية الافتراضية، تتحدد من خلال منظومة الثقافة العابرة للحدود المادية . وهكذا تظهر أهمية الثقافة في اكتشاف الماوراء الفكري ، أي التنقيب عن الجوانب الخفية في النسق الحياتي للأفراد والجماعات .

إن صيغة التوعية الثقافية قادرة على توفير الرحم الملائم لاحتضان جنين التاريخ . وعملية الولادة هي المخيال الإنتاجي للعناصر الواقعية . وبعبارة أخرى ، إن ولادة التاريخ تتم وفق عملية خيالية ذات قدرة على تحريك اتجاه الوقائع المادية . والأفراد الذي يصنعون بنية الحركة التاريخية يبدأون من الوعي الخيالي بضرورة تغيير الواقع نحو الأفضل ، وحسب هذه المعادلة تترسخ الماهية التاريخية كإطار واقعي متحرك يأتي كنتيجة حتمية لأسبقية الخيال على الواقع .

وإذا أردنا تأسيس الحقول التأويلية للرمز الثقافي في علاقته مع الوعي اللغوي، لا بد من تفسير الحركات المعرفية في البنى التاريخية شديدة الاستقطاب. فالتاريخ هو وعاء ذو حركات محدّدة يظل مُتجهاً نحو نواة مركزية توحيدية . وإذا نجحت سياسة الثقافة في التشكل على هيئة

نواة أولية متماسكة ، فإن التاريخ سيتحول إلى وعي عقلائي يتجه _ تلقائياً _ نحو نواة الثقافة المركزية . وهذا الانجذاب سيُنتج زواجاً شرعياً بين اتجاهات العناصر المعرفية التي تقود مسيرة المجتمع البشري.

والإشكالية البُورية في التعامل مع تاريخية المحيط الثقافي ، تكمن في إمكانية حصول انشقاقات في النواة العقلانية المركزية الجاذبة لأطراف المجتمع الثقافي . والثقافة _ في طبيعتها _ تمتاز بالحراك الفكري الذي يُغيّر مسارات الحراك الاجتماعي، وتتميز _ أي الثقافة _ بوجود نظام أخلاقي مبني على أسس ديمومة الإنتاج المعرفي المتواصل ، والمعرفة المتغيرة حسب الظروف المادية والملابسات الذهنية . وسرعة التغيرات للتأقلم مع الظروف المستجدة ، إن لم تتأسس على قواعد تجانسية متينة فإنها ستتحول إلى فوضى . وهنا تتضح ضرورة تأطير معالم المد الثقافي ، ليس بدافع محاصرة العمل الإبداعي في صناعة ثقافة الوعي السياسي ، ولكن بدافع توضيح الحدود التي ترسم أبعاد ثقافات التحولات الاجتماعية . ومن شأن هذه الحدود ترسيخ الوجود المعرفي على أسس بنية الحدث الإنساني في التعامل مع الذات والآخر .

وبالإضافة إلى ملامح العمل الإبداعي في نقل المعرفة السياسية إلى حيز التطبيق التجانسي ، تبرز الحاجة إلى عقد صلح اجتماعي يُنظم عمل السياقات الثقافية في مجتمع الوعي الممتد من الذهن التجريدي إلى الذهن التطبيقي . وضمن هذه الظروف ، تظهر العقلانية الثقافية كمحاولة جادة لتفسير القيم الإشارتية في بنية الحركة البشرية أفقياً وعمودياً . والبشر _ في أثناء حركتهم _ يعيدون إنتاج الحلم الإنساني ، وصياغة المكونات المشاعرية حسب اتجاه العقل الباطني الحامل لإفرازات البيئة المعرفية . لذلك تتكرس البيئة كثقافة قائمة بذاتها تتسرب إلى أدق تفاصيل العمل الإنساني التَنَمُّوي دون أن يشعر الإنسان بها .

ومن خصائص الحراك السوسولوجي في صياغة الأبعاد النفسية للفرد أنه يتسرب إلى الطبيعة الفكرية للإنسان تلقائياً . والمحيط البيئي يؤثر في أنساق الفرد وفق متواليات طبقية شديدة العمق والتكثيف ، ومن خلال هذه الرؤية تبرز الشخصية البشرية كتاريخ عمومي يحمل التكتلات الجماعية هويةً له . وهذا يمنح الهوية ماهيةً جديدةً تتمحور حول العلاقة بين البيئة البشرية التي تكشف جغرافيا تضاريس الجسد المعرفي للفرد ، وبين البيئة المادية الظاهرة على أشكال حياتية معاشة . ولا يمكن تصوير المعنى النهائي لمفهوم الهوية كنقطة التقاء بين بيئتين متنافرتين ، مع أن هذا التصوير صحيح بشكل جزئي، وضمن أنطقة زمنية محدّدة .

والهوية الاجتماعية في جدلية بناء الثقافات على مسار التوظيف العقلاني للطاقة البشرية المستترة هي ترتيب لكومة التناقضات . وإذا استطعنا الحد من هذه التناقضات ، وتوجيه بوصلتها نحو العقلنة، يمكن الحصول على طبيعة رمزية لغوية للهوية المتوازنة . والفرد هو خليط من المشاعر المتضاربة ، والشهوات غير المتجانسة ، والنوازع المتباعدة. وعن طريق التنسيق بين هذه المتواليات المتناقضة ، يمكن تقليل التناقضات ، وهذا يؤدي إلى تحرك الهوية الإنسانية _ بتوازن _ بين نقطتين وفق خط مستقيم لأنه أقصر طريق بين اللفظ والمعنى ، والخيال والواقع ، والثقافة والسياسة .

وعلى الرغم من قوة الأبجدية الثقافية في مجال التطبيقات الرمزية المتجانسة ، إلا أن ظهور بعض التناقضات لا مفر منه ، بسبب القوة الدافعة للحراك المجتمعي الذي يُنتج تياراً شرساً من الأضداد تبعاً لاختلاف مستويات الطبقات الاجتماعية .

واجتماعيات الثقافة أمام أمرين : الأول _ أن تقضي وقتها في مكافحة هذه التناقضات من أجل استئصالها ، والثاني _ أن تعيد صياغة التناقضات عبر تكريس إعادة تربيتها ضمن منظومة دائرية متكاملة تقلّم أظافر أي تناقض ، ثم تضعه في خطاب تصحيحي يوازن بين أبجديات سياسة الثقافة ، وبين الوعي اللغوي بأهمية الفلسفة الاجتماعية في علاج أمراض المجتمع الروحية .

وبسبب الحاجة الماسة إلى تأسيس حراك اجتماعي تطائفي ، فإن الثقافة لا يمكن أن تقف مكانها منتظرة تطهير المجتمع اللغوي المعرفي من إشكالياته المتناقضة. لذلك على الثقافة أن تسير بالسرعة القصوى، وفي أثناء سيرها ستقوم بعملية تصحيح المسارات، وذلك لضمان عدم الوقوف في طريق المتواليات العقلانية الجزئية والكلية الرامية إلى إعادة بناء الشرعية الثقافية على أسس صناعة الفعل الاستقلالي الواعي ، والذي يهدف إلى منع حدوث ارتدادات خطيرة في سياسة الثقافة ، ومنع ظهور ردود فعل سلبية قد تعيق المسيرة الفكرية للمشروعية المعرفية .

وكلما ازداد الفعل الاجتماعي وعياً وثباتاً ومعرفةً بالحركات البشرية في المحيطات المغلقة ، ازدادت السيطرة على ردود الأفعال عبر توقعها المسبق . والضربة الثقافية الاستباقية التي يتم توجيهها _ بقوة وسرعة _ نحو العناصر السلبية الاجتماعية ، لن تتيح لهذه العناصر أن تمتلك الوقت الكافي لإنتاج ردة الفعل .

وفي هذا السياق تتحدد صورة المعنى الإنساني ضمن مجتمع سائر باتجاه واحد وتوحيدي. واحد لا يتعدد ، ويمنع السباحة ضد التيار⁽⁶⁶⁾ . وتوحيدي بمعنى تكريس الجهود وتكثيفها في إطار موحد مناوئ لعناصر التشتت .

ومن خلال الواحدة والتوحيدية ، يُصار إلى صناعة لغويات ثقافية قادرة على تخلص الأبجدية المعرفية من أزمة المأزق التكويني لاجتماعيات الحالة المكسورة في ذات الفرد. ومن الضروري إبعاد حالات التشظي _ التي تضرب العمود الفقري للوعي الإنساني _ عن امتدادات اللغة في سياق العلوم الاجتماعية . والفرد _ أثناء حركته المجتمعية _ سوف يتأثر بالإفرازات السلبية للمحيطات الروحية والمادية، وإذا انتقل انكسار الشخصية البشرية إلى اللغة ، فعندئذ سوف تتحول اللغة إلى عبء يُرهق المشروع الثقافي . مما يُنتج تياراتٍ متناحرة في الجسد الثقافي ، وهذا ينعكس سلباً على بنية التكوينات المعرفية التي يُفترض بها أن تحدد معالم الإبداع الفردي ، وحدود عمليات صهر المراحل في الإطار السوسولوجي لكل طبقات المجتمع .

إن الإشارات الدالة على وحدة المعنى كلفظٍ فردي لا يتشظى ، ترمي إلى تنقية اللغة المشاعرية من ثقل الهواجس الناتجة عن رواسب العلاقات الاجتماعية غير السوية . وليس المعنى الثقافي مُجرّد تيار إبداعي معزول عن مركزية التأثير، بل هو نتاج طبيعي لحالة الإبداع اللغوي في سبيل تنقية المشاعر من مأزقها الدلالي . والبنية المشاعرية ينبغي أن تظل متحركة في كل الاتجاهات بقصد تحريك بوصلة التغيير الاجتماعي نحو الوعي الجماهيري . وإن انحصرت المشاعرُ في دلالة زمنية مُعيّنة ، فعندئذ تتدخل اللغة لتخليص بنية الفكر المشاعري من تحديد الدلالة ، لكي تظل القيمة المشاعرية متحركة في امتداد غير محصور ، وقادرة على الوصول إلى أعماق الذات البشرية عبر وضع الحلم في أقصى مدى الطاقة المادية، أي وضع الحلم على أكتاف المجتمع، لكي ينتقل الحلم إلى الوعي الجماهيري واقعاً خلاصياً ملموساً .

(٦٦) هذا لا يعني إنتاج مجتمع بوليسي لا مكان فيه للرأي الآخر البناء ، وإنما يعني تأطير كل الآراء الواعية في درب واحد لمنع التعارض والسباحة ضد التيار . فاختلف وجهات النظر، وتباين زوايا الرؤية، وظهور اجتهادات مختلفة تبعاً لاختلاف مستويات الفكر والتفكير . كل هذه العناصر تسير جنباً إلى جنب ، ولا تسير في اتجاهات متعاكسة . فالرأي والرأي الآخر ، كلاهما يولدان في الإطار الشرعي التوحيدي ، ويعتمدان بالكلية على الوعي المنتمي إلى المجتمع بكل طبقاته الروحية والمادية .

وفي ضوء هذه التحركات تعاد عملية توليد القيمة المشاعرية من رحم اللغة ، لأن اللغة _ في حقيقتها _ تيار عابر للتجنيس ، حتى وإن بدت اللغة تكتلاً من المعاني والألفاظ . فاللغة تستمد صورة جنسيتها من علم اجتماع الرمز الناقل لطاقة الحلم . والرمز ليس هروباً من الواقع ، أو فراراً من المواجهة . إن الرمز هو الواقع المكثف ، والمواجهة النهائية الحاسمة .

وأهمية الرمز في صناعة سياسة العمل الثقافي ، تتجلى في التعبير عن تاريخية الحلم المبتعد عن تعبيرات اللغة ، فالألفاظ المحصورة في دائرة التواجد الاجتماعي المحدود ، قد لا تتمكن من التعبير عن عوالم المشاعر الإنسانية اللامحدودة . ومن هنا يستمد الرمز شريعته وشرعيته ضمن المنهج الفكري لتحويل القيم الإنسانية إلى لغويات متداولة في تجانسية الفعل الثقافي . وبعد تجاوز مخاض صناعة الوعي الرمزي بحركة اللغويات في الاجتماعيات ، وولادة السياسة في الثقافة ، وانبعث فجر النهضة من المدلول الإيجابي للجانب المضيء في حياة الفرد ، تبقى ماهية المزج بين التاريخ كوعي رمزي ذي تواجد حقيقي على خارطة الحراك الاجتماعي الديمومي ، وبين الرمز كوعي تاريخي له حضور في تفاعلات الحركة الثقافية السياسية .

إن التاريخ والرمز ثقافتان تتناوبان على تدعيم الأطر المعنوية المرافقة لنشوء أبجدية أنسنة المصير العقلاني ، وما العقلانية إلا انعكاس للوظيفة الديناميكية للبعد الثقافي في إنشاء منظومة الوعي المتكامل . والمجتمع الذي يبني ثقافته بين تاريخية الرمز ورمزية التاريخ ، إنما يصنع مستقبله خارج أنظمة الفوضى . وبنائيات المجتمع المتماسك تنطلق من تماسك الوعي الثقافي بجدوى الشرعية الإنسانية المتحررة من إسقاطات الوهم ، والمحررة للطاقة المكبوتة في أبعاد الحراك الذهني الشامل .

وفي هذا السياق تتولد في تاريخية السلوك الفردي ثقافات جديدة ، من شأنها إعادة رسم أدوار الأفراد في تشكيل خارطة الوعي الثقافي الديمومي . والمبادئ الديناميكية التي تحكم عمل الأفراد تؤول إلى قيم اجتماعية مُستترة ، ومن أجل إظهار فلسفتها لا بد من تعزيز الدور الفردي في تشكيل التاريخ الإنساني . وبالإضافة إلى انعكاسات الرؤية الاجتماعية للذوات المعرفية ، تظهر في ديناميكية اللغة الحاملة لجينات الحلم البشري تواريخ جديدة لإسقاطات الوعي السياسي على أبجدية الثقافة . والعلاقة بين لغة السياسة المجتمعية وأبجدية الثقافة مصيرية إلى أبعد حد ، لأن الوعي حينما يتشكل وفق أنماط إنسانية فإنه سيصل إلى مرحلة كاسرة لمبدأ النمطية ، حيث العبور إلى المعرفة الإنسانية ، تحليلاً وممارسةً . مما يؤدي بالضرورة إلى إنتاج علاقة تزامنية بين

لغويات العلوم الاجتماعية السارية عبر هرم السُلطات الفردية والجماعية . وهنا تتحول السياسة الحاكمة على أنساق سوسيولوجيا المعرفة إلى ثقافة تصحيحية لأوضاع الانكسار الروحي الذي يحياه الفرد ، وبالمقابل تتحول الثقافة العابرة للتجنيس النمطي إلى امتدادات سياسية قادرة على صناعة الفعل ، وتوقع رد الفعل .

وبما أن الفرد هو محور صناعة التاريخ ، فإن التحولات التاريخية التي ستمر عبر أطوار التشكيل الإنساني ستتوزع في محيط دلالي ذي نقطة مركزية (الفرد) . واستناداً إلى هذه الرؤية يولد معنى الاستقطاب واتجاه حركة العناصر الاجتماعية. ويظهر السؤال الحتمي : هل الفرد يسير إلى التاريخ أم التاريخ يسير إلى الفرد ؟ . ولئلا ندخل في أنطقة جدلية تعيد العلاقات الفكرية النهائية إلى المربع الأول (نقطة البداية) ، يمكن القول إن التاريخ هو الذاتية المجازية للطموح الفردي الثقافي السائر في المتواليات السياسية ، أي إن التاريخ هو المرآة التي يطمح الفرد أن يرى فيها أحلامه ومستقبله الطموح . وكلما تكاثرت ولادات النسق التاريخي ، تحوّل التاريخ إلى إنسان مجتمعي يعيش مع الأفراد ، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم .

وبالطبع فإن الفرد لا يتحرك في المجتمع بمفرده مهما علا كعبه ، لأن هناك منظومة سياسية تحكمه نظامياً وعُرفياً⁽⁶⁷⁾، لذلك يأتي التاريخ كحصيلة تجاذبات شديدة الوعي الجمعي والاستقطاب التكويني . أمّا الفرد فهو الخارطة التي يكتب عليها التاريخ طبيعة الاتجاهات السيكولوجية النابعة من توظيف البوصلة الإنسانية في اكتشاف الماورائيات الحاملة ، والتي تمثل الخلفية الشرعية لحركة الأفراد في التكتلات المعرفية .

(٦٧) كل نظام سياسي اجتماعي يتكون من مسارين: الأول _ المسار النظامي: وهو الدستور المكتوب والعلاقات القضائية المدونة التي تأخذ طابعاً رسمياً ، لأنه يستمد شرعيته من شرعية الدولة التي تقف خلف تنفيذ القانون بكل قوتها التنفيذية ، لأن الدولة _ وَحْدَهَا _ التي تحتكر حق استخدام العنف وتوقيته ومكانه . فأجهزة الأمن بكل مستوياتها بيد النظام السياسي للدولة ، وهذه قاعدة مُطَرَّدة في كل زمان ومكان. الثاني _ المسار العُرفي : وهو الدستور الشفوي، والعُقد الاجتماعي غير المدوّن، والسائر بين الناس عُرفياً استناداً إلى دوافع التقاليد والعادات ، وسلطة التراث ، والضبط الاجتماعي المتداول في أوساط الناس بحكم القرابة أو حق الحوار أو الصداقة ... إلخ .

وتتحدد العلاقة بين اتجاهات الفرد والتاريخ وفق منظومة تبادلية، حيث الفرد يسير إلى التاريخ لكي يجد فيه الحلم الخصب البكر الذي يُولد باستمرار ، والتاريخ يسير إلى الفرد اعتماداً على قوة الجذب الشخصية، ودور المركزية الفردية في صناعة المسار الوجودي للإنسان .

والذات الشخصية للفرد ليست آلة تكاثورية استهلاكية محصورة في مسار زمني محدود ، وبقعة مكانية مقيّدة . بل هي انتقال شرعية الحلم من دائرة الفناء إلى فضاء الوجود الحي والحر . وليس الإنسان إلا صورة للديمومة الاجتماعية في إعمار الأرض ، وإصلاح الفكر المعرفي الرامي إلى انتشال صورة الذات الاعتبارية للفرد من مأزقها الناتج بفعل إرغاصات الحلل الاجتماعي .

والجدير بالذكر أن الإنسان في أثناء سيره إلى التاريخ ، وبحثه عن الطبيعة المعرفية الثقافية للمعنى، يصنع أفقاً لغوياً استثنائياً يتحرك في مسارات لفظية لها انعكاسات على الأنوية المشاعرية للمجتمع الذي يبني تاريخه الشخصي على شرعية بحثه عن التاريخ العام. وهذا التداخل بين التاريخ الخاص والتاريخ العام ، سوف يدفع باتجاه تعزيز التراكيب الحيوية في الذات الشخصية ، فيتحوّل الفرد الأحادي إلى مجتمع كلي متكامل . ومن هنا تنطلق العقلية الاختزالية باللغة التكثيف

ومحاولة زراعة المجتمع الكلي في الذات الفردية الشخصية هي محاولة جريئة للغاية ، وذات فوائد جمة . فالفرد هو مجتمع متحرك داخل المجتمع ، وبالتالي فالفكر التكثيفي يختزل الحضور الاجتماعي العميق في الوجدان المشاعري للفردية ، فتقوى الروابط الاجتماعية بين الكيانات الثقافية الفردية والجماعية ، وتزول الفروقات بين الأنا الجزئية والأنا الكلية ، مما يضمن تحول المجتمع إلى خلية نحل متماسكة، فتزول الطبقات بين تحركات الفرد والحراك الاجتماعي للجماعة ، وهذا يؤدي بالضرورة _ إلى إنتاج طبقة إبداعية متدفقة عابرة لأطوار التجنيس الجزئي والكلي .

إن التعامل مع العناصر المادية للمجتمع الثقافي إنما هو _ في واقع الأمر _ تعامل مع الذات المشاعرية للكلية الإنسانية، لأن الكُلَّ في أثناء حركته السوسولوجية _ يملك القدرة على التحول إلى ماهية جزئية من الناحية السيكلولوجية، والجزء يستطيع لعب الدور الجماعي للكيان الاجتماعي البشري العمومي . ومن شأن تفعيل هذه المنظومة الفكرية ردّ الهوة في مسار الثغرات الاجتماعية، وإحالة الجمود الثقافي إلى فاعلية منطقية شاملة تتجاوز للعقل الروتيني الوظيفي التجريدي . والفرد حينما يتعامل مع العناصر الفكرية باعتبارها مجتمعاً متماسكاً قائماً بذاته ، سوف يقوم بدوره مباشرة

، ولا ينتظر قدوم الجهات المجتمعية الاعتبارية لكي تدعمه . كما أن المجتمع الكلي حينما يعتنق المعقولة الفردية التي تمنح الشرعية للتصرفات الشخصية المنضبطة بمنهج المصلحة العامة، سيزيد من تماسك المنظومة الثقافية الكلية، فيصبح المجتمع مُوحّداً ، ويتصرف حيال القرارات المصرية بالعقل الجماعي الواحد .

وبذلك تتجلى أهمية المنظومة الثقافية في تكثيف الجهود المبعثرة في صراعات الفردية مع الجماعية ، وتضارب مصالح الرؤية العقلانية في ظل تعاقب الأجيال واختلاف زوايا النظر . وتقوم الثقافة بتأطير الدلالة العقلانية للكيانات البشرية التجانسية ، وتجاوز مأزق الطموح الشخصي في مواجهة المصلحة العامة ، والتوفيق بين اتجاهات المصلحة العامة والنزعة الفردية للأنا الإبداعية .

والمجتمعات المبنية على أهمية الثقافة كنزعة عقلانية ، واتجاه وجداني مصري يرمي إلى تحرر اللغة المجتمعية من وهم الإشكاليات المعرفية ، وتحرير المعاني من قوالب الألفاظ المحصورة في المصلحية الضيقة، ستكون هي مجتمعات المستقبل لأنها نجحت في حل أزمة صراع الأجيال ، وتجاوز أعباء جدال الأسبقية : هل الجزء الاجتماعي يسبق الكل أم العكس ؟ . ويمكن صياغة السؤال بشكل آخر : هل الفرد هو من يصنع التاريخ الوجودي للمجتمع أم المجتمع يمنح الفرد شرعية الوجود والحراك الاجتماعي الثقافي ؟ .

والجواب التلخيصي الحاسم هو : إن الفرد والتاريخ رمزان لصناعة الحركة الثقافية ، ويتأثران ببعضهما البعض ، ويؤثران في أنساق الحركة المعرفية من خلال توزيع أدوار بنية الحدث العقلاني على مفاصل الحراك التفاعلي بين أبجدية المعنى الاجتماعي ، ومنظومة الوعي الثقافي .

ومن خلال البحث في مصدرة التوازن الرمزي بين الجزء الفردي والكلية التاريخية ، تبرز الماهية الفعالة لقيمة التأثير المتبادل بين الأنساق المجتمعية . والإشارة الثقافية الديناميكية المبنية على القواعد العقلانية ليست اتجاهًا فوضويًا عائمًا ، بل دليلاً فكريًا متزامنًا مع حتمية الاستقطاب المتبادل بين الوعي الداخلي والوعي الخارجي ، لأن التاريخ _ بوصفه أبجدية مستقلة عن لغويات الانكسار الذهني _ ينظر إلى الشرعية الثقافية كدلالة تاريخية جديدة تشير إلى المناطق العميقة في الذات الإنسانية التي لم تُكتشف .

إن صيرورة الأبعاد التأثيرية في صناعة العقل التاريخي للثقافة سوف تتوزع على شكل كيانات أكثر تجانسية ، كما أن تشريح الدلالة الإشارتية الكاشفة لماورائيات البعد الإنساني يتمركز أثناء ولادة الفعل الاجتماعي كفعل قصدي يمتلك مساراً مُحدداً ، ونقطتي بداية ونهاية . وهذا يدحض

المبادئ الفوضوية التي يقوم الفعل التسييسي المغرض بإشاعتها حول إرهابات ولادة الفعل الاجتماعي . والثقافة المتوازية مع نشأة المعرفية الحركية في المجتمع الإنساني الفاعل هي فعلٌ تخطيطي لا ارتجالي ، وبيئة مركزية متفرعة لا حقل تجارب هلامي . ومن هنا تنبع أهمية القصّدية في العمل الثقافي الاجتماعي باعتبارها سياسةً منطقية تعرف بنية الفعل الإنساني ، وتقصد أن تفعله .

وعبرَ توظيف مبادئ الوعي المسبق ، تؤول فلسفة الصدفة في صناعة المُنتج الثقافي الإبداعي إلى قيمة صِغرية ، لأن الثقافة عملٌ محسوب بدقة منذ البداية وحتى النهاية . وهذا لا يعني إحالة الشرعية الثقافية إلى لعبة أرقام وحسابات ، لكنه يعني إحالة المنظور الجزئي القاصر إلى منظور كلي راصدٍ لثغرات المجتمع كي يَردمها ، وكاشفٍ للوقائع الفكرية المستترة خلف الكيان البشري .

وكلما تعمق المبدأ الثقافي التأصيلي في اكتشاف فوضى الإنسان ، اكتشفَ _ كذلك _ نظاماً مركزياً في الحراك البشري ، لأن الفوضى _ بغض النظر عن درجة شراستها _ تحتوي في داخلها على أنظمة إنسانية ديناميكية ، لكن الإشكالية أن هذه الأنظمة لا تجد الإيقاع المناسب لحركتها ، والطريقة الصحيحة لترابط الاتجاهات وتركيبها ، فتظهر بصورة فوضوية رغم امتلاكها لمعقولية الأجسام النظامية المتناسكة ، لذا فإن النظام الثقافي _ بكل بساطة ودقة _ هو إعادة ترتيب الفوضى الاجتماعية الموجودة . فلا مبرر أن يقوم النظام الثقافي بهدم المجتمع ثم بنائه من الصفر ، أو شطب إنسانية الإنسان في طريق البحث عن صناعة الإنسان .

*

الثقافة كثورة رمزية وأبجدية اجتماعية

إن التأسيس النظامي الرامي إلى أنسنة المشاعر البيئية هو شكل للتجانس المجتمعي ، لأن اكتشاف علاقات الأنظمة المركزية في السياقات الفوضوية يقود إلى اكتشاف الدلالات الإنسانية في المستويات المتوحشة القاتلة للذات البشرية .

ولأن المجتمع عبارة عن دلالة ثقافية شديدة الاستقطاب ، كان من الطبيعي إبراز الوجه التثويري لأبجدية العلوم الاجتماعية المتعامدة مع سيكولوجيا الخطاب الثقافي . والمعاني المستترة في أبجديات الفعل الاجتماعي لها بعد ذاتي متعلق بالبعد العاطفي للوجود البشري . والترابط بين اجتماعيات مسار الدافعية الإنسانية وبين الخلفيات النفسية الذهنية وثيقٌ للغاية ، لأن امتداد اللغة في الجسد الثقافي يؤدي إلى إنتاج جسم اجتماعي تركيبي ، فيصبح الفصل بين الطبيعة الاجتماعية للأبجدية الثقافية والدلالة السيكلوجية لمراكز المشاعر عملاً قاتلاً للجسد المجتمعي . وهذه العملية تشبه فصل الدم عن الشرايين في جسم الإنسان .

ومن أجل الوصول إلى جوهر الذوات المشاعرية ، لا بد من بناء سياسة النسق العاطفي على الوجدان المجتمعي العمومي ، لئلا تتحول الطبيعة الفلسفية للأحاسيس الوجدانية إلى هواجس مرّضية ، أو خيالات رومانسية تعصف بكيان الفرد . لذلك فالقيمة الشعورية للعاطفة البشرية تتبع أهميتها من قدرتها على إنتاج منظومة ثورة الألفاظ الفاعلة على المعاني الجامدة ، وخروج المعاني من عباءة قوالب الألفاظ .

واللفظ القادر على تصحيح مسار الوعي الثقافي ، يبدأ رحلة البحث عن اكتشاف ما بعد المعنى المستهلك وصولاً إلى المعنى المتجدد المدهش القادر على حمل رمزية الطموح الفردي والجماعي ، أي التنقيب عن العلاقات الفكرية المدهشة بعيداً عن الروتين اللغوي الذي يلد نفسه ليُنتج نفسه ، ويعيد تكرار البناءات الأبجدية بشكل اعتيادي وظيفي .

وثورة المعنى هي عملية ذهنية مركزية تهدف إلى توسيع الأبجدية ، ووضعها في أقصى مدار الطاقة الشعورية ، وإعطائها بعداً رمزياً متجاوزاً ونشيطاً . وعملية التوسيع الأبجدي لا تعني زيادة

عدد الحروف مثلاً ، أو تدمير بنية الخطاب في امتدادات العقل الثقافي ، بل تعني توفير غطاء رمزي

للأبجدية قادر على التجاوز ، ونقل الفوضى البشرية إلى تيارات نظامية ، وإحالة الكيان الثابت إلى كيان ديناميكي عابر لحدود المحسوس ، وصولاً إلى صناعة عوالم افتراضية تتوّل إلى قيم واقعية ، من شأنها إنقاذ الواقع المعاصر للإنسان الذي يصنع أزماته بيديه ثم يبحث لها عن حلول .
واللغة كائن متجدّد في سياقات تنزع إلى تجميد التراث الإنساني ، وحياةً مفتوحة على الدلالات الرمزية والمحسوسة ، وقاعدة فلسفية شديدة الحساسية لمنظومة التأثير والتأثير . وتزداد القيمة التفسيرية للحلم كلما ازداد رفض اللغة للتوقع داخل وسائل الخطاب ، لأن البعد الرمزي لأبجدية الحراك الثقافي أكبر من أن ينحصر في عملية تبادل للمعلومات .

وانسجماً مع مركزية الرمز في لغويات المجتمع ، تولّد العلاقات المنطقية للثقافة بُعية تشخيص أبعاد الدلالة الإنسانية التي تكشف الملامح الداخلية للمجتمع الفردي ، أو المجتمع العمومي المتجمع في الصورة الفردية .

والإنسان الاجتماعي في أثناء تحركه الستاتيكي (الجامد) والديناميكي (الفعال) ، ينتقل عبر دوائر الشيفرة الأبجدية لكي يجد له موقفاً على خارطة الشرعية الثقافية . لكنّ الإشكاليات المتكاثرة تؤدي إلى إحداث ثغرات في الوعي الإنساني ، ومركزية سياسة اللغة ، وقيادة وحدة الرموز الثقافية .

وللتغلب على العنف الثغرات التي تضرب العمود الفقري لاجتماعيات العقلية الإبداعية ، لا بد من تجاوز الظواهر السطحية في عملية اكتشاف الماورائيات الداخلية ، لأن الظاهري هو امتداد للبيئة المكشوفة الاعتيادية المتاحة للأنساق البشرية الواضحة .

والعمل الإبداعي هو قوة الكشف الراصد المتمتع بالتجاوز والتداخل . تجاورُ العوالم الظاهرية ثم التنقيب عن المشاعر الخفية في الذات البشرية ، والتداخل بين مستويات سياسة المنظومة المعرفية ، حيث يتم تحديد العلاقات الباطنية بين الثنائيات التبادلية المركزية (الأنا الداخلي / الآخر الداخلي . الأنا الداخلي / الآخر الخارجي . الأنا الداخلي / الأنا الخارجي) .

والثنائية (الأنا الداخلي / الآخر الداخلي) هي عقد صلح بين الفرد وذاته ، وتأسيس معاهدة سلام في كيان الفرد للوصول إلى حالة التوازن التي تتيح للكائن فرصة التحرك في محيطه المجتمعي دون اضطرابات سلوكية أو عقد نفسية .

وكل إنسان يتكون من نظام داخلي ونظام خارجي . ولتلا تبرز حالة انفصام في الشخصية بالمعنى السوسولوجي لا السيكولوجي ، ينبغي تأسيس مستويات من الحوار بين الذات والذات ، وصولاً إلى معنى نسقي متماسك . والذين يفترضون أن الإنسان هو وحدة واحدة مُعلَّبة وجاهزة ، ويتعاملون مع هذه الفكرة على أنها مُسلَّمة ، سوف يُصعقون في خضم الحراك الاجتماعي، وسيعرفون أنهم يقفون على أرضية ضعيفة توصلهم إلى نتائج مغلوطة ، وذلك لأن الفرد عبارة عن عدة مستويات متباينة، وكل مستوى مثل البصمة يمتلك عمقاً فكرياً مستقلاً ، ونظاماً منطقياً خاصاً يتعلق بدرجة سيادة النُّظم المعرفية .

ومن الضروري اختيار الأدوات الفلسفية القادرة على اكتشاف الأنظمة الثقافية في المستويات البشرية وفق طبيعة ذلك المستوى البشري . فمثلاً حينما يراد اكتشاف مستوى الحلم الإنساني ، ينبغي استخدام أدوات رمزية لكي تقدر على الوصول إلى أعماق الدلالة الحاملة المعبرة عن أشواق الفرد اللامحدودة في محيطه البيئي . أمّا اكتشاف مستوى المادية الاستهلاكية فيحتاج إلى أدوات اقتصادية قادرة على تحديد ماهية الحاجة إلى المادة ، وأبعاد هذه الحاجة ... إلخ .

والثنائية (الأنا الداخلي / الآخر الخارجي) هي فلسفة حوار الحضارات القائم على الاحترام المتبادل لا سياسة الأمر الواقع . فالأنا الداخلي هي امتداد التكوين الفلسفي في الأبعاد الحاملة ، والآخر الخارجي هو الاختلاف الذي يؤدي إلى التنوع في المنظومة البشرية الكونية . وإذا التقيا على أرضية مشتركة لتحقيق مشاريع النهضة البشرية ، وإعمار الأرض بالفضائل الروحية والمادية، فعندئذ يصبح (الأنا / الآخر) مشروعاً للتنوع الخلاق ، والإنتاج الحضاري شديد الزخم .

أمّا (الأنا الداخلي / الأنا الخارجي) فهي فلسفة ذات مستويات متوازية باطنياً وظاهرياً . والفرد في أثناء صناعته للحراك الاجتماعي يسير وفق بُعدين : الأول _ البعد الداخلي الموجود حقيقةً ومجازاً في الكيان البشري الشخصي، والثاني _ البعد الخارجي المنثور في العلاقات البيئية ، والدلالات الرمزية لتاريخ الذكريات ، والكيانات الإنسانية المتحركة أفقياً وعمودياً .

والمعنى الذاتي للكينونة البشرية ليس موجوداً _ بشكل كامل _ في الذات الشخصية للفرد ، لأن البيئة الخارجة عن حدود الكيان البشري تحتوي على معانٍ أخرى . لذلك فإن الماهية

الفردية تمتلك وجوداً جزئياً خارج الإنسان ينبغي اكتشافه لفهم الإنسان ، وهذا الوجود يسير وفق نظرية المتوازيات الشعورية الدائرية⁽⁶⁸⁾ .

ومن أجل الحيلولة دون تحوُّل الفرد إلى معنى سطحي مفرغ من معناه ، ينبغي منع تحول الفرد إلى أداة شَيْئِيَّة محصورة في النُّظم الاستهلاكية الصارمة . ولا شكَّ أن اللغة الرمزية التي تتعامل مع الدوافع العاطفية البشرية لها أبعاد أكثر عمقاً من كَيْنونة الفرد المحدودة .

والإنسان ليس نقطة في نظام إحداثيات ميكانيكية ، أو رقماً بين الأرقام ، أو عنصراً جغرافياً على خريطة منسية . إنه مجتمع قائم بذاته له أنظمة بالغة التركيب والتداخل ، وشديدة التعقيد . ووفق هذه النظرة ، تتأسس عملية اكتشاف أبعاد المنظور الفردي عن طريق المتوازيات الشعورية داخلياً وخارجياً .

والمعقولة الجماعية المتجانسة ترمي _ بالأساس _ إلى تأطير الأبعاد الإنسانية خارج نفوذ انكسار الإنسان أمام سَطوة المادة . لذلك يبرز التأطير كمعنى تحريري لا تحديدي . تحرير الفرد

(٦٨) هذه النظرية تتعلق بالدلالة السيكلولوجية للفرد التي تنحو منحى تفسيرياً للسلوك الإنساني تاريخياً وثقافياً . وهي تعني _ ببساطة _ أن الإنسان هو مركز دائرة ، وحوله تدور القيم الشعورية لسياسة التاريخ الشرعي الخاص بحياته الروحية والمادية . وهذه الحركة الدورانية متوازية مع حركة النواة = الأصلية (الإنسان) . والأمر يُشبه النواة _ في علم الكيمياء _ التي تدور حولها الإلكترونات في مداراتها . وقد يعتقد البعض أن هذا التفسير سطحي وهلامي ، ولا يُقدِّم رؤيةً تأويلية جديدة لعلاقة الذات البشرية بالنظام الشعوري الجدلي . لكن الأمر ليس كذلك ، لأن اعتبار الإنسان مركزاً يقود إلى أهمية الاستقطاب ، أي هجرة الأداء المشاعري الإنساني من العقل الهلامي الفوضوي إلى العقل التحليلي التكتيفي المنضوي تحت لواء كيان فكري متماسك . وهذا المبدأ يساعد في عملية تحديد اتجاه سلوك العواطف الإنسانية ، وامتلاك القدرة على تحديد أبعاد ردود فعل النظام المشاعري المتمركز في السلوك البشري العمومي . والاعتماد على تفسير ميكانيكي مادي للحراك الاجتماعي سوف يُحيل المجتمع إلى معنى الماكينات الجافة ، ويُقدِّم الإنسان كرجل آلي يتحرك بالأزرار عن بُعد . والمشكلة الكبرى الكامنة في التفسير الميكانيكي لحركة المجتمع هي إغفال البعد الرمزي المشاعري، حيث العاطفة الداخلية تصدر أحكامها ، وتتعامل مع الإفرازات البيئية . والأبجدية الرمزية للمسار العاطفي مركبة في الكيان البشري السوي ، ولا يمكن تجاوزها بأية من حال من الأحوال .

من احتلال العناصر الاستهلاكية، وتخليص الأنظمة الشعورية البشرية من أسر ردود الأفعال والأحكام المسبقة .

وكلما سارت ماهية اكتشاف الذات الإنسانية وفق مسارين مُتحدّين زماناً ومكاناً (الغوص في الداخل الإنساني / التحليق في البيئة المحيطة بالإنسان) ، استطاع الوعي السياسي _ الخاص بالاحتمية الثقافية لأبعاد العلاقة بين الفرد ومجتمعه _ أن ينتقل من التنظير الفراغي المحصور إلى الأفق الانتشالي الذي ينتزع الفردَ من مأزقه الوجودي الحرج، ويعيد للماهيات العقلانية صبغتها البشرية.

ومن أجل تكثيف الدلالة الرمزية المشيرة إلى حتمية إيجاد تفسير عقلائي للسلوك البشري ، انحاز الوعي التفكيرى إلى أداء أكثر منهجية في التعامل مع الفرد كذات أحادية ومجتمع كلي في آن معاً . والعناصر الفردية تمتلك وجوداً مجتمعياً عمومياً ، وهذا يرجع إلى تركز المفردات الجماعية في الأبجدية الفردية بحكم البيئة المحيطة بالذات الشخصية للإنسان .

واعتماداً على مبادئ تأسيس حالات الوعي الجماهيري ضمن تيارات فردية وجماعية ، تولّد ماهيات جديدة للمعقولة الثقافية على النطاق الشخصي والمجتمعي . والذي يفصل بين المعقولة الفردية والاحتمية الجماعية هو سياسة الشكل الثقافي ، أي إن التجانس الثقافية بين جزيئات الحراك الاجتماعي تحدد أشكال المصير الحالم للمعرفة الإنسانية .

ولا يمكن للمجتمع البشري أن ينطلق نحو تحقيق طموحاته إلا إذا استطاع التمييز بين المعرفة الفردية الإنسانية ، والعلوم المجتمعية الكلية . ومسارات الحياة الفكرية لأبجدية الثقافة تحمل عدة مستويات تحاول التأقلم مع الطبقات المشاعرية للمجتمع . ومن أجل وضع المستوى الثقافي في الطبقة الشعورية المناسبة ، لا بد من تحديد مصادر المعرفة (فردية ، جماعية) ، وماهيات المعرفة (جزئية ، كلية) .

ورغم تلازم المسار الفردي والتأطير الجماعي ، تظل إسهامات العلاقات التركيبية الفردية هي صانعة التاريخ الامتدادي في سياسة الثقافة . والفرد هو عربة القطار الأولى التي تنصدر باقي العربات أثناء السير نحو الازدهار . ودور الأفراد المبدعين في انتشال مجتمعاتهم لا يمكن أن يختفي ، وهو دور مركزي ، ويساهم في بناء الكيان الإنساني والكيان الحضاري والكيان التاريخي بصورة تزامنية لا تعاقبية .

والموهبة الفردية هي الأساس في نقل التاريخ من ماهية الانحسار الواهم إلى معاني التأسيس العقلاني للتطبيق الثقافي . والدور الفردي يتمثل في اكتشاف الطريق ، وتوفير الشمعة التي تنير الطريق . وهكذا تتجمع العناصر الاجتماعية المتفرقة بشكل متجانس ضمن وحدة المسار والمصير .

وبعد ذلك يحمل المجتمع البشري ذلك الإرث التاريخي الحاشد ، ويصبح التراث اللغوي للوقائع الثقافية مُلكاً للكيان الاجتماعي العام . والإطار الرمزي للجماعة تكمن فلسفته في الحفاظ على المُنجَز الفردي الخارق الذي استطاع وضع الشمعة في بداية الطريق ، وتعليق الجرس . إن السير في الدرب سهل للغاية ، لكن الصعوبة تكمن في اكتشاف الدرب . وإذا وُجد التأسيس العقلاني الشعوري للتطبيقات المادية ، فمن السهل _ عندئذ _ البناء على القواعد الأساسية . وقيمة الجذور الفكرية لأبجدية الوعي الثقافي تنبع من حتمية التأسيس اللفظي على المعاني ، وثورة الحقيقة على الوهم . ودافعية الجذور ترمي إلى تكريس الصيغة الرمزية للمجتمع كبنية مشاعرية تعتنق منهجية الخلاص الجماعي لا الفردي . وذلك من أجل تفادي تحوّل المجتمع الإنساني إلى سفينة تغرق ، حيث يحاول كل فرد أن يقفز منها لكي ينجو بنفسه .

وخطورة الخلاص الفردي تكمن في تحول الإحساس الجماعي بأهمية المسار والمصير إلى تيار شخصاني استثماري أشبه بالمساهمة في شركة تجارية . وهذا بحد ذاته خطورة كبرى ، لأن المجتمع في دلالته الرمزية هو ثقافة المعنى الكلي ، حيث الإنقاذ الجماعي هو المبدأ الأساسي الذي قام عليه الفكر اللغوي لثقافة المُشترَكَات (القواسم المشتركة) . وإذا تم تقاسم الوعي الإنساني بصورة إيجابية ، فإن الذاكرة التاريخية ستقل رمزية الوجود البشري من السالب إلى الموجب . وهذا كله يُكرّس الخلاص الجماعي ، ويقتل فكرة الخلاص الفردي التي تهدف إلى تفتيت المجتمع إلى وحدات عناصرية ضيقة ، مختلفة الوجهة ، ومتضاربة الأهداف .

ومن أجل تجذير المبادئ الكبرى في حياة الفرد ، وإخراجه من السلوك الاستهلاكي الشرس ، لا بد من تفعيل الضوابط الرمزية لأبجدية التعاملات الاجتماعية . وثقافة التبادلات الإنسانية ليست تعليمات ميكانيكية مسبقة ، بل هي امتداد لغوي حاسم يسري في الجسد الفكري للمعنى ، ويتأسس في مستويات الشعور الوجودي لسياسة الثقافة . والفعل الثقافي _ بالأساس _ هو فعل جماعي حضاري يمتلك قُصدية الخلاص الكلي ، أي يمتلك رؤية مسبقة لانتشال الكل)

المجتمع (من المأزق ، وفي نفس الوقت عدم تهميش الجزء (الفرد) . والطموحات الشخصية هي فعلٌ حضاري بامتياز ، ولكن لا يمكن إخراجها من المنظومة الجماعية الثقافية .

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق : هل المسار الثقافي يؤسس علاقةً تجاذب أم تنافر بين الفرد والمجتمع ؟ . والجواب يتوقف على شكل المسار الثقافي ، وطبيعة البنية السياسية لعلاقات المعرفة ، ومدى قدرة المجتمع على وضع الشخص المناسب في المكان المناسب . والثقافة هي ابنة الوعي الجماهيري المندفعة باتجاه الشعور الخلاصي الجمعي ، لذلك تتوقف الطبيعة الفكرية لمعالم المجتمع على مدى قدرة الثقافة على الخروج من عزلتها ، والإسهام الحقيقي في توليد قوة تأويلية لذاكرة المجتمع .

وكلما تمركزت السياسة الثقافية خارج حدود المسلّمات الافتراضية ، اتجهت الجماعة البشرية نحو اكتشاف الماوراء الرمزي لحركة التاريخ الإنساني ، أي اكتشاف منبع أشكال الأحاسيس التاريخية المستترة خلف أبجديات الحراك الاجتماعي . ومن هذا المنطق تغدو الثقافة إحساساً عميقاً بالأشياء ، وقدرةً فائقة على تخيل الأبعاد الإنسانية ، ورسم الذاكرة المجتمعية وفق الدافعية الثقافية المتجانسة ، مما يؤسس لحالة كلية من الخلاص الجماعي لا تستثني الأحلام الشخصية ، لأن الشخصية الفردية هي مجتمعٌ يدور في منظومة مجتمعية أكبر ، فالجزء ذاكرة الكل ، والكل هو الغطاء الشرعي للجزء .

ومن خلال تعزيز اتجاه التوازن بين الفرد والجماعة ، يمكن للنسق المعرفي أن ينتقل من أطر التبعية إلى أفق المعنى المستقل بذاته ، والمحتوي على جينات المعرفة الشخصية . وذلك لأن الماهية المرجعية الحاكمة على إرهابات الدلالة السوسولوجية ، هي ماهية نابعة من الوعي الجماهيري بالدور الحتمي الذي تلعبه الثقافة ، من أجل نقل الذات الحضارية من متاهة الإفراز اللغوي إلى تدفق اللغة الانقلاية ، حيث ينقلب الجرحُ على التّزيف ، وتنقلب الأبجدية المعنوية على احتضار المعنى ، وينقلب الوعي السياسي على شظايا تغييب العقل المجتمعي .

وكلما اتّجهت قيمة اللغة نحو إشارات الثقافة الحتمية ، اتّجه التحليل التاريخي نحو اكتشاف مابعد الصورة النمطية للأبجدية . والإشكالية الحرجة في سياق التحولات اللغوية الحاسمة ، هي التصورات المسبقة والمعلّبة عن طبيعة الذات الأبجدية المتدفقة ، والوجود اللغوي الحي والحر .

وبعض المسلّمات الجاهزة تنظر إلى اللغة على أنها تحصيل حاصل ، أو إطار تخاطبي بين طرفين . وهذه النظرة القاصرة من شأنها تعرية المستويات الأبجدية من أبعادها الرمزية ، وسلخ

الماورائيات المعنوية عن الأطر اللغوية . وبالتالي تصبح اللغة كائناً مُدجّناً ، وكياناً تابعاً لا متبوعاً ، وهذا يتعارض _ جملةً وتفصيلاً _ مع ثُورية اللغة ، ويتصادم مع علاقات الأجدية الانقلابية في المجال الاجتماعي الحيوي ، ويتعارض مع الروابط المصيرية بين البنية الاجتماعية والبنية الثقافية . والارتباط المصيري بين فلسفة اللغة وماهية الثقافة ، يقود إلى تعميق الوعي الإنساني خارج نفوذ التدجين وسطوة فلسفة تقليص الأظافر وتكليم الأفواه، لأن اللغة _ في طبيعتها الوجودية _ هي قيمة مضادة للتدجين ، تمتلك القدرة على التحاور والتجاوز والانقلاب على السياق الأسطوري . وبعبارة أخرى إن اللغة هي التكوين الشرعي لأبعاد الثوير المجتمعي القادر على صناعة الحوار بين الجزء والكل ، وتجاوز المعاني المستهلكة ، والانقلاب على الوهم الضارب جذوره في المجتمع . ولا يخفى أن سوسولوجيا التوظيف اللغوي لأبعاد الطاقة البشرية في محيطها المشاعري ، هي ماهية أساسية في منظومة العمل الثقافي . وبالتالي فإن اشتغال المعقولة الثقافية على التيارات المجتمعية التنويرية ، يؤدي إلى تدعيم المشروع المعرفية الرامية إلى بناء الإنسان . ولا يمكن بناؤه إلا وفق أطر أجدية واضحة المعالم . ومن هنا تتكسر أهمية الثقافة الأجدية باعتبارها تجسيداً حالماً تغييرياً ، ينزع إلى تأسيس الروابط المعرفية وفق اجتماعيات الذاكرة الفعالة ، والأشكال الرمزية للتاريخ الفعلي لا الصوري .

*

ثالثاً :
كلام في فلسفة الشعر

تمهيد

إن هذا المبحث " كلام في فلسفة الشعر " ، ليس كتاباً جديداً ، بل هو إعادة صياغة لأهم أفكار هذا الكتاب . وهذه الصياغة تجيء على شكل مقالات موجزة ومكثفة ومبسطة . ولا يخفى أن هذا الكتاب _ بشكل عام _ يمتاز بطابعه الفلسفي المرگب ، ولا أقول المعقد . كما أنه يحتاج إلى نفس طويل في القراءة ، بسبب أطروحاته الكثيرة والمتشعبة . وهذا قد يسبب الملل للقارئ المبتدئ الذي لم يتعود على المواضيع الثقافية الدسمة ، والنظريات الفلسفية الصلبة ، والمواضيع الجادة التي تُعالج القضايا الفكرية الشائكة .

وبالطبع ، إن مستويات القراء تتفاوت ، كما أن قدراتهم العقلية مختلفة . وقد كنتُ حريصاً على إيصال أفكار هذا الكتاب إلى جميع القراء ، المتخصص وغير المتخصص ، المثقف وغير المثقف ، العالم وطالب العلم .

لذلك برزت الحاجة إلى تبسيط الأفكار ، وتلخيصها على شكل مقالات . وقد حاولتُ قدر المستطاع توضيح الأفكار بلغة واضحة ، والالتزام بالاتجاه العام دون الخوض في التفاصيل ، على أمل أن تصل هذه الأطروحات إلى أبعد مدى ممكن ، وتكون في متناول الجميع .

والجدير بالذكر أن كل مقالة تمثل رؤيةً موحدةً ومتكاملة وقائمة بذاتها . وهنا تكمن أهمية هذه المقالات التي كنتُ قد نشرتها في جريدة العرب اللندنية على فترات متباعدة ، وأحدثتُ صدىً طيباً لدى القراء ، وقدّر لها أن تنتشر في الشرق والغرب .

ومع هذا فلسْتُ أدَّعي العِصمة ، ولا أقدِّم نفسي كعالم أو فيلسوف . ولكني أقدِّم نفسي كطالب علم ، ألقى حَجراً في الماء الراكد، وابتعدَ عن نسخ تجارب الآخرين وتقليدهم، واختطَّ لنفسه طريقاً خاصاً ، ومشى فيه وحيداً ، بلا غُرور ولا تكبُّر . وصدق القائل :

قُلْ للذي يدَّعي في العِلْمِ فِلْسَفَةً حَفِظْتُ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

علم اجتماع القصيدة

إن كتب علم الاجتماع العربية والأجنبية تُركِّز على بُنية العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وإشكالياتها وتفصيلها . ولكن من النادر انتقال معنى التفسير الاجتماعي إلى الأشكال الثقافية الحياتية ، وعلى رأسها القصيدة . لذلك فالحاجة تبدو ماسَّةً لتأسيس رؤية شمولية تمسُّ القصيدة بكل جوانبها ، خصوصاً الجانب الاجتماعي والتأثير في أنساق التحولات البشرية في المجتمعات

ولمَّا كانت القصيدة عالمًا متشابك الأوصال ، كان لزاماً تجذير التجوال في الأبعاد الرمزية للقصيدة ، والتفاعل مع العناصر الفكرية ، حيث المرور على التقنيات الأدبية في توليد الرؤى والبناءات المتوالية بشكل فاحص لا عابر . وهنا تبرز أهمية اختبار النص الشعري كلمةً كلمة .

والمرور اللغوي في عوالم القصيدة ليس عابراً . إنه تجريد وتعريّة . أضف إلى ذلك حتمية العمل المتواصل من أجل إخضاع القصيدة لعلم اجتماع خاص بها له مقوماته الاستقلالية ، وأبعاده المادية والذهنية بالغة الخصوصية ، وأيضاً من أجل الذهاب إلى ما وراء النص بغية الحصول على صيغة متكاملة لنص منهجي مُكثَّف قادر على تفسير النص الشعري المتمتع بكل خصوصياته .

ويمكن تعريف " علم اجتماع القصيدة " على أنه : (العلم الذي يدرس القصيدة باعتبارها مجتمعاً متحركاً بشكل ذهني وواقعي، ويقوم بتشريحها إلى وحدات بدائية انطلاقاً من ثلاث محطات: الولادة " الانبعاث " ، والشباب " العنفوان " ، والموت " الانطفاء " ، مع الانتباه إلى

حالات التمايز والدمج والمجاز والحقيقة ، بين هذه المراحل الثلاث المختلطة إلى درجة الانصهار ، في بؤرية الحلم المستتر .

والقصيدة هي الثورة الذهنية الواقعية الأكثر قدرة على استشراف الواقع المتخيل ، ذلك الواقع المعجول بالطموح الإنساني الواعي الذي تتم عقلته في كل لحظة سطوع . وبالتالي فحريّ بنا أن ندرس القصيدة بوصفها كائناً حياً له صفات خاصة ، ويمر في أطوار مادية وغير مادية متعددة الجوانب . وهذه الأطوار إنما هي تشكيل للقدرات الإشارية التي تستشرف مستقبل الحلم ، وتحوّله إلى وجهٍ للتاريخ ، وطريقة لفهم تحولات الذات الإنسانية في أعماق تشكيلها الشعري .

والبعض يعتقدون أن تطور المجتمعات الإنسانية يستند إلى نهضة تكنولوجية مادية مجردة من كل النواحي الأدبية والفنية . وهذا اعتقادٌ موغل في الخرافة الأكيدة ، لأن الأمم المتطورة تكنولوجياً لا بد أن تكون متطورة أدبياً وفنياً ، والعكس غير صحيح . فالأمة العربية تعيش أزمة معرفية شديدة الوطأة ، وهي مُحاصرةٌ بأشباح التخلف التكنولوجي ، لكن هذا لا يعني أنها متخلفة حضارياً أو أدبياً . بل هي تعجُّ بالمبدعين والعلماء والفلاسفة والأدباء الذين يستطيعون مُقارعة أكبر المبدعين في العالم ، والتفوق عليهم بسهولة . لكن البيئة العربية عاجزة عن زراعة المبدع في قلب الحضارة العالمية ، بسبب تمركزها السياسي في هامش الأمم ، وبالتالي فإن المبدع العربي يذهب ضحية انكسار بلاده .

لقد قَصَرْنَا في صناعة السيارات والطائرات ، أي تقاعسنا في النواحي المادية المحضة ، لكننا ما زلنا نصنع مجداً أدبياً لافتاً . ومن الأخطاء الكارثية تصنيف الأمة العربية في الآداب والعلوم كدرجة عاشرٍ لأنها مُتخلفة في مجال التكنولوجيا . إذ إنه لا توجد مُعادلة علمية تقول إن الذي لا يُتقن صُنْع الحديد لا يُتقن صُنْع الإنسان . وهذا يدفعنا إلى العمل بِجِد لتشكيل حالة من التوازن بين الناحيتين المعنوية والمادية . فالمجتمع الذي يُنْجَب فلاسفة بارزين وأدباء مُتمكّنين وعلماء أفاضل ، لا بُدَّ أن يشحذ همّته من أجل صناعة السيارة والطائرة ، وغير ذلك من الصناعات المادية .

إن القصيدة هي اختصارٌ مُكثَّف لحالة إنسانية جمعية مُحلّقة في فضاءات أكثر رَحابةً وتسامحاً وعُنفواناً . والقصيدة أساسٌ روحي للنهضة والاندفاع ، ومشروعٌ تاريخي كوني حاسم ، رغم أنها لا تُعنى بالوقائع الاجتماعية من حيث تأريخها . وهذا الأمر ليس من وظيفة النصّ الشعري الساعي بكل ما أُوتِيَ من مهارة وثقافة إلى إعادة تشكيل الواقع ، وفق منظور حالم قائم

بالأساس على استنباط العناصر الثورية ذات الجمال الفاعل المتشظي إلى تقاطعات حياتية مفصلية ، ومحاور إنسانية تتقاطع مع المنتج الشعري ، الذي يتم اعتباره وجهة واضحة تحدّد اتجاه سير المجتمع ككتلة جمعية موحّدة وموحّدة للعناصر المبعثرة في النصوص الطبيعية الجمالية . والقصيدة هي ظاهرة شمولية ، تعتمد على صياغة الأبعاد المعرفية في قوالب كاسرة للقولية والتقليدية . وينبغي وضع النصّ الشعري في أقصى مداه ، من أجل الحصول على علاقات متكافئة مُتمرّدة على الفوضى داخل الكيان الإنساني والكيان المجتمعي . وهذا يدفعنا إلى التفتيش في قلب النصّ عن قدرات فاعلة ، تمتلك المؤهلات لرسم حياة متكاملة في المجتمع الجزئي (الفرد) والمجتمع الكلي (الجماعة) . وإذا أصّلنا التزاماً حقيقياً بالمعايير الفنية ، فسوف نحصل على نقاش هادف يُعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية في النصّ المزروع في نزعة الأنسنة ، بشكل يصعب معه المساس بالجذور الراسخة للقصيدة .

سوسيولوجيا الوحدة المكانية للنصّ

إن لغويات الثورة السارية في تراكمات المنظور الشعري مستمرة بفعل قوة نفوذ الأبجدية الفكرية ، التي تُبرز أهمية تعميق جذور المشروع المستقبلي في الجسد القصائدي . حيث يتمّ تأصيل استشراف الحلم القادم من وراء الكلمة الملزمة بالقضايا المقدّسة . وهذه الماورائية بُنيةً مُتحرّكةً مندمجةً بالكامل مع سياسة الرؤية ، وخاضعةً للعقل الهادم الباني ، حيث يهدم الأنساق العشوائية الضابية غير الثورية ، وينني الرؤى المادية والمعنوية التي تمهد لمرحلة الانفجار الشامل في تفاصيل اللغة الهادرة . وهكذا نجد أن الشعر يُورّخ لمرحلة جديدة ، تستلهم تاريخاً جديداً ينبثق من قوة المنطق لا منطق القوة . والشعرية الثورية هي سوسيولوجيا الوحدة المكانية للنصّ ، وأيضاً هي سياسة نقية تعيد صناعة مجتمعات الكراهية وفق منظور إنساني يقتل الشرّ في الإنسان ولا يقتل الإنسان . وهنا يلتصق البناء الكمي بالسلوك النوعي ، فينتج ما يمكن تسميته بالجمعة القصائدية (تجميع أبعاد المجتمع الشعري لتوحيد المجتمع البشري) ، حيث يذوب الجزء في الكل ، وتحلّ أبجدية حلم الخلاص الجماعي مكان الخلاص الفردي الأناني .

إن المحتوى الذهني لامتدادات الأفق الشعري يأخذ شكلاً بنائياً مُميّزاً . وهذا الشكل ما هو إلا انعكاس خلاق للطبيعة الكلامية المفتوحة على كل احتمالات التجريب ، في إطار سياقات اللغة الأدبية . والأدب هو سوسولوجيا رمزية لتاريخ اقتصادي كلامي يبحث في الخيال الواقعي . ومع هذا فالأدب ليس تأريخاً للأحداث بقدر ما هو تأريخ للخيال القادم كالطوفان إلى أرض الواقع . وإذا فهمنا أشكال العلاقات الذهنية في وظيفة الرؤى المتمردة، أدركنا حتمية الصدام بين الثنائيات المشكّلة للقصيدة . وأدركنا كذلك أن الثنائيات تتوّل إلى صراع طبقي من نوع جديد في البنية الشعرية ، صراع لا علاقة للفقراء والأغنياء به .

إنه صراع طبقات اللغة بين مستويات الكتابة الإبداعية ، وينقسم إلى صراع داخلي وصراع خارجي . الصراع الداخلي يقوم بالتجريد والتعرية المستدامة للانهايار الحضاري ، الذي أصاب الإنسان المادي . والصراع الخارجي يقوم بالتجرد من تبعات هيمنة إسهامات البشر المحتشدة في اللغة . والتراكمات البشرية اللغوية ليست هي اللغة ، لأن اللغة أوسع وأعمق وأكثر شاعرية من طينية الإنسان .

والشاعر الذي يكتب قصيدة خالية من القضايا المقدسة ، إنما هو يكتب ضد الكتابة ، فيصبح عبثاً على لفته، فتقف القصيدة رغماً عنها في مواجهة القصيدة، وهذه هي حالة التلاشي (الانتحار) التدريجي التي تقتل رُوح النص .

ومن جهة أخرى ، ينبغي توجيه الانتباه إلى الاستعارات الوظيفية المقابلة لحالات توهج المعلومة المدهشة . والشعر هو عقل الدهشة وقلبها النابض، وهو يوصل معلومات مُحَدَّدة موهلة في الرمزية والتوهج والدهشة ، وبالتالي فهو يختلف عن كل أنواع الكتابة .

إن اختزال البنى السياسية الشعرية في نص مُكثَّف عملية غاية في الصعوبة ، لأنك تُعبر عمّا يعتمل في نفسك من محيطات ذهنية وواقعية مترامية الأطراف بكلمات معدودة على الأصابع ، وهذا بحد ذاته أداء نسقي ، يطحن روابط إنتاجية التجمعات البدائية ، داخل الاشتعال العاطفي المتراص .

ولسنا بحاجة إلى دمج الحدود الفاصلة بين طبقات القصيدة فَحَسْب ، بل تكسيرها أيضاً ، وإقامة مملكة مفتوحة على كل تشكيلات الوعي المطلق بقضايا الإنسان، والكائنات الحية، وعناصر الطبيعة. وهكذا تزداد عناصر الحالة الماورائية التي تُحدّد مسار التأصيل المعرفي للموروث الشعري الملتزم بالرؤية الكونية الشاملة ، وقضايا الإنسان المصيرية . وفي هذا السياق ،

لا بُدَّ أن تكون نقطة البداية هي الذات الشاعرة ، وأن تنطلق عملية التغيير من الكيان الإنساني الشَّخصاني. فمن الجنون أن يُصلح الإنسانُ بابَ جاره ، وينسى أن بابه مخلوع .
والانقلابُ الشَّعري الحقيقي يكسر القوالبَ ، ليظلَّ مُحلَّقاً في فضاءات أكثر رحابةً ، وأكثر ثورية . وسيظل الشَّعْرُ هو الشرارة التي تنفدح في الدَّهن بدون موعد مسبق ، وتُحرق الفضاء بصورة دراماتيكية عنيفة .



السياسة الشَّعرية والسياسة الاجتماعية

إن الأدوار الاجتماعية الفكرية المساهمة في صناعة بُنى شِعْرية ، هي سمات حقيقية لثقافة تنقلب على الأحكام المسبقة الجاهزة . وهذا الرفض للقوالب الجاهزة هو الذي يُدَوِّب الفروقات بين الشَّعر والنثر . ففي بركان الحرارة العاطفية الجياشة ، تغيب الفروقات بين المدلول الشَّعري والدلالة النثرية ضمن ثنائية واعية وليست عَدمية .

وهكذا يفرض إعصارُ القصيدة شروطَه على المتلقي ، كما تفرض الذاكرةُ شروطَها على التَّسيان. ويتأجج الدعم الذي تقدمه الصورةُ الشعرية لعناصر الشرعية البُورية في سياق الكلام . إذ إن تلك العناصر تساهم في خلق متوالية تكاثرية تصنع قانونها الخاص بها ، انطلاقاً من حركات معرفية دائمة البحث عن معنى .

والشَّاعر هو مَلِكُ دائم البحث عن عرشه . وهذا هو القَلَق اللدنيذ . إنه قَلَقٌ ينقل الأبجديةَ الشَّعرية من نمذجة المصطلح الجاهز ، إلى صناعة مُصطلحات دائمة الاكتشاف والتحول . والشاعرُ يكتشف ذاته في مشروعه الوجودي ، من أجل أن يكتشفَ هذا المشروعُ الرؤيةَ الكونية للشاعر . ومن الممكن اكتشاف الذات عن طريق اكتشاف ذوات الآخرين ، لأن الكلمة تخرج من

ذات الشاعر ، وتعيش في كيانات أخرى (روحية ومادية) . وهكذا يمكن القول إن الشاعر ما هو إلا المتلقي ، وهنا تتعدد الأنا الواحدة لتشمل ذوات الآخرين .
والشعر صوت صاعق ، والمجتمع صدى لهذا الصوت الصاعق . وإذا اتَّجهنا إلى علاقات النصوص المتقابلة داخل رؤية التكثيف الشعري ، سنُدرِك حتمية الصدام بين مُكوّنات القصيدة . وهذا الصدام ينقل الرؤية التعبيرية من دائرة التوازي مع الذات إلى دائرة مُعادلة الذات . وعندئذٍ، يُصبح الشاعر هو القصيدة ، والقصيدة هي الشاعر . وبعبارة أخرى ، يتحد الصانع والمصنوع .
والكلام هو الذي يقولنا ولا نقوله . والشعر لا يُعطيكَ بَعْضَهُ ، إلا إذا أعطيتَهُ كُلَّهُ . وهذا لا يعني أن يتقوَّع الشاعر على نفسه، ويتعد عن العلوم والمعارف . لكن المقصود هو أن يَهَب الشاعر نفسه للشعر في لحظة التقاء غيونه بجيش الحروف ، الذي يغزو رُوح الشاعر بدون تحذير مُسبق .

وتُشبه الحروف في هذا السياق الثوري نوابض مغناطيسية جاذبة للأفق الشعري . ويجب أن نلاحظ الأدوار التعبيرية التي تُجسّد طموحات سياسة الشعر في تكوين جيل ثائر ضد الخرافة . والأبجدية الشعرية الثقافية لا تنفصل عن الثورة بأية حال من الأحوال .
ودخول الأفق السياسي في الأسلوب الشعري ، لا يستلزم بالضرورة تقييد حرية حركة الصور الفنية والتعبير الرمزية . فالقضايا الوجودية تُحضر معها أبجدية خيالها أفقياً وعمودياً ، ممّا يؤدي إلى إدراك حتمية التحويل الجغرافي في بنائية تاريخ الشعر ، باعتبار القصيدة تاريخاً جديداً وجزءاً من رواية عجائبية لا تعتمد على السرد ، بل تعتمد على التقاط اللحظة وتثويرها وإحاطتها بهالة رمزية ذات هدف غير عبي .

ويمكن أن نُفكِّك القيم المتحوّلة في إطار النظريات الاجتماعية الهادفة إلى قلب نظام حُكم القصيدة ، وتكوين نظام جديد نابع من صيرورة المتحوّلات البنائية العامة والخاصة . وهنا يحدث تمازج بين الأدب والسياسة ، لأنهما عاملان أساسيان في تحريك المجتمع روحياً ومادياً . ولكن علينا أدبنة السياسة (حَقْنها بالأدب الجامح لكي يكبح تهورها) ، وتسييس الأدب بالمعنى الإيجابي للكلمة (جعله سياسياً بالقدر الذي يسمح بتأجيج غنف اللغة ذهنياً) .

وتتكرس النماذج الاجتماعية المسيطرة على النسق الشعري كواقع عملي لا مهرب منه . وهذا الأمر يؤدي إلى إعادة تشكيل الوعي الموجب ، وتعبئته ضد سالبية الوعي السلطوي المفروض

على النص من خارج النص. ويجب ألا تخضع القصيدة للابتزاز الخارجي المتمثل في الأنظمة الأبوية، التي تصيغ الثقافة والحياة من منظور أحادي استبدادي .

*

القصيدة بين سياسة البناء الشعري والحضور الثقافي

إن المضامين السياسية للنظام الشعري تؤسس علم اجتماع خاصاً بالحياة اللغوية في النسق القصائدي . والسياسة _ اجتماعياً وأبجدياً _ تتولد في القصيدة كتعبير رمزي للحضور الثقافي العام. وهذا يمنع تحول القصيدة إلى روتين وظيفي مفرغ من معناه. وكلما تركز النشاط المجتمعي في النص الرمزي ، انتشر الوعي الإنساني في الوظيفة الاجتماعية للشاعر ، والتي تتجلى في تحريك الساكن ، وطرح الأسئلة على الألفاظ والمعاني ، ورفض تصنيف الذوات . فالشعر هو السؤال الوجودي الدائم ، أي النقد الدائم ضمن متوالية هدم السالب وبناء الموجب . وتستطيع وحدة الشعور الهادر في إيقاع سياسة القصيدة، أن تعيد تكوين النمو السوسيولوجي لعسكرة الكلمة بمساعدة التأطير الذهني للطبيعة الفلسفية الأخلاقية . مما يؤدي إلى تصاعد نمو حركة الأفكار أفقياً وعمودياً داخل البنية الرمزية للمجتمع الإنساني . وهكذا تتجذر أهمية الفكر الشعري في فك شيفرة التجمعات الإنسانية، عبر استنطاق البنى الصامتة في حركة الجماهير "النخبة والعامّة" .

وكل مجتمع بشري حي سوف تنتشر فيه قيم المعنى ، بفعل التوليد المستمر لحركة الأفكار والأفراد ، وهذا يؤسس قيمة النص الشعري كقيمة مُعادلة للوجود الحياتي الذي لم يتم تدجينه . ولو درسنا تفاصيل الهيمنة الشعريّة على مسار النمو العاطفي للمجتمع ، لاكتشفنا أن النص الشعري صار مجتمعاً بحد ذاته في مقابل المجتمع البشري . لكنّ الهيمنة الشعريّة في سياقات حياة الأفراد والجماعات لا تُوصِل دائماً إلى مجتمع متماسك، لأن البناء الاجتماعي الثقافي يستلزم وجود تناسق تام بين الإنسان " حامل الفكرة " وأبجدية المعنى " المحمول " .

وأكبر إشكالية تُواجه النصّ الشعري ، هي أن يصبح كالجوهر في يد فحّام . وعندئذ يصبح الشّعْرُ مَعُولٌ هَدْمٌ في الذاكرة المجتمعية . فالسلاح في يد إنسان أعمى سوف يكون وبالاً على الجميع بلا تمييز . وإذا وُضعت القصيدة في نصابها الصحيح مثلما يتمركز السهم في القوس ، سنجد أن شرعية الذاكرة المجتمعية تحوّلَت إلى منحى عقلائي ، يُؤسّس أشكالاً جديدة لتمرّد الظواهر الفنية على الصيغ المجتمعية السلبية . وهذا عائد إلى قدرة الذاكرة على اقتحام عوالم النصّ الشعري ، وتأسيس منظومة إعمار الخيال ، أي حقنه بالفاعلية التطبيقية ، والقدرة على الانتقال من الذهن إلى الواقع .

وهذه المنظومة الموزّعة على مشروعية العمل الثقافي ، تؤلف قيماً إنسانية تساهم بشكل كبير في الحراك الاجتماعي ذي الشرعية القصائدية . وبما أن الشّاعر كيان سياسي قائم بذاته، ومستقل عن الطليعة الاستبدادية لثقافة السُّلطات القمعية ، كان لزاماً تنظيم مواقع التكيّف الاجتماعي التي تؤدي إلى صناعة تطبيقات واعية للعقل الثقافي الجمعي الفذ . ممّا يسمّح لنا بإعادة رسم خارطة النص الشعري كدلالة حياتية متفرعة عن حتمية تلاحم الخيال والواقع .

*

جسد اللغة هو ذاكرة القصيدة

إن الحفريات في جسد اللغة هي الإشارة الواضحة في طريق النص الشعري ، الذي ينقلب على ذاته لكي يجد ذاته . وهذا الانقلاب الداخلي في اللغة الشعرية نتيجة طبيعية للقصيدة التي تُولد من موت الشاعر ، فيصير موته أحد أشكال الحياة . وبالنطلاق إلى سياسات الأبنية الشعرية، نكتشف أسلوباً مُقارناً يُحقّق معادلة الأبعاد الرمزية للتجمع الكلامي ، في المجتمع البشري المتدفق خارج زنازين الوهم . والقصيدة هي المجتمع الوحيد الذي لا يخضع لسلطة المكياج الاجتماعي وارتداء الأقنعة .

والثقافة المعرفية في التكوين الشعري تتصل بعملية عسكرة الكلام ، مُولدة عناصر جديدة ترفض قوالب الصور الفنية المستهلكة التي ييسر من كثرة التكرار. والبنية الشعرية تركز باتجاه طرح أسئلة وجودية لازمة. وهذه الأسئلة تتكاثر ليصبح لدينا مجتمع كلماتي واع لمساره ومصيره . والشك المنهجي في الأساليب الشعرية هو عملية تحليلية غير عدمية. ويجب أن تكون أدوات التحليل نابعة من الشكل العام للسُّمو الأخلاقي . أمّا هيمنة الصور الفنية التقليدية على

امتدادات المشروع الشعري ، فهي شكل يُنبئ عن وجود لغة شعرية خاضعة للاضطهاد . وهذه عملية شديدة الخطورة لأن اضطهاد الشاعر لقصيدته من شأنه أن يقهر القصيدة ، ويُغرقها في استياء متآكل ، وهكذا تفقد الصورة مفرداتها الواعية ، وصولاً إلى هالة منتفخة ، تصير وربما سرطاناً في جسد الكلمة، ومن هنا يسيل موت القصيدة الذي قد يأخذ شكلاً حياتياً مُقنَّعاً، لا ينمو إلا في ظل سلطة معرفية وهمية .

وتبرز نمذجة المشروع الشعري القصائدي كحالة نفسية تحليلية ، تستند إلى تنويعات سياسية جمعية . وبالمقابل فإن تداول القيم الاجتماعية في مُخرجات النظام الشعري بكفاءة عالية ، يقودنا إلى اجتماعية التوازن الخلاق بين الثقافة الشعبية والثقافة النخبوية . وأيضاً ، إن تحميل الدلالات طاقة عاطفية متراصة ، يُبنى على أساسات الحفريات الدائمة ، في جسد اللغة الحرة غير القابلة للتدجين .

وتنبع أهمية التوظيف التنويري لسياسة التحليل النصي داخل الجسم الشعري من حرارة التجربة . وكلما ارتفعت حرارة التعبير ، ذابت الفروقات بين الشعر والنثر . والحلم الشعري الذي يتحد فيه الشعر والنثر في جسد واحد ، هو نتاج حرارة التعبير الصاعق ، مثلما يتحد الأكسجين والهيدروجين في الماء . ومن غير المقبول أن تكون الأوزان الشعرية هي الحكم الذي يُقرّر الشعري من النثري . ومن غير اللائق أن ندفن الصور الفنية المبتكرة الخارجة عن الوزن ، فقط لأنها غير موزونة . فالوزن الحقيقي هو وزن الصورة الشعرية المدهشة . وبالإضافة إلى هذا ، فإن القصيدة تصنع علم عروض خصوصياً قائماً على المزاجية بين المتخيل التجريدي للتعبيرات المبتكرة ، وبين الدلالة اللغوية العجائبية التي تعيد اكتشاف اللغة والعالم .

والقصيدة يجب أن تتحلى بصور فنية مُدهشة وعنيفة ، وهذه الصور تعطي القصيدة وزنها الخاص ، والموسيقى الذاتية الهائلة ، وجرعة الثورة المتدفقة . فالصورة هي التي تعطي الوزن وجوده وشرعيته ، أمّا الوزن فلا يعطي الصور الناقصة أي وجود أو مشروعية .

وقد أعطت الحفريات الشاملة في منجم اللغة كامل امتدادها ، على شكل أعاصير أبجدية متشعبة بالمشروع الوجداني الكلامي . وإذا أردنا أن نتجاوز الواقع الخيالي إلى مناطق الإحساس المتدفق ، لا بُد من طرح أسئلة إضافية على اتجاه البصيرة العاطفية الكامنة في لهب الشعر . وللإجابة على التساؤلات الوجودية التي تتكاثر في عنفوان المدى الجماعي، ينبغي صناعة مجتمع جديد ينتسب إلى جدال منطقي بناء .

والشَّعْرُ يَفْقِدُ مَعْنَاهُ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْقِيَمَةِ الْإِنْسَانِيَةِ لِلْإِنْسَانِ ، وَصَارَ يَحْفَرُ فِي مَحِيطَاتِ الزَّيْدِ وَالْعَدَمِيَّةِ . وَمِنْ هُنَا نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْحُلَّ الْأَكْثَرَ نَجَاعَةً لِإِعَادَةِ الشَّعْرِ إِلَى حَيَاةِ الْجَمَاهِيرِ ، هُوَ تَسْيِيسُ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ فِي النَّصِّ ، وَتَحْوِيلُ الْكَلِمَاتِ إِلَى جِيوشِ جَرَارَةٍ تَدَافِعُ عَنْ إِنْسَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَنْظُورٍ كَوْنِيٍّ شَامِلٍ ، وَتَوْجِيهِ دَفْعَةِ الْكَلِمَةِ بِاتِّجَاهِ مَنَاقِشَةِ قَضَايَا الْإِنْسَانِ الَّتِي تَمَسُّ وَجُودَهُ . وَبِالتَّالِي نَحْصُلُ عَلَى سَبِيكَةٍ لُغَوِيَّةٍ مُتِينَةٍ تَلْمَسُ جُرُوحَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ عَمُومًا ، وَالْإِنْسَانَ خُصُوصًا . وَإِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَسَوْفَ يَظَلُّ الشَّعْرُ خَاصَةً _ وَالْأَدَبُ عَمُومًا _ فِي وَادٍ ، وَالْإِنْسَانُ فِي وَادٍ .

*

الأطوار الفكرية لتاريخ النص الشعري

إِنَّ الْقَصِيدَةَ حَزْبٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ ، وَهَذَا الْحَزْبُ يَعْمَلُ جَاهِدًا لِصَنَاعَةِ مَجْتَمَعٍ حَيٍّ خَالٍ مِنْ حَالَاتِ الْإِنْتِحَارِ التَّدْرِيجِيِّ ، انْطِلَاقًا مِنْ مَرَاكِزِ صَنْعِ الرُّؤْيَا الشَّعْرِيَّةِ فِي الْأَفْقِ الْقَصَائِدِيِّ . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ الثَّوْرِيَّةُ لِمَجْتَمَعِ الْفَضِيلَةِ تَوَازُنٌ بَيْنَ مِيكَانِيكَاتِ الصُّورِ الشَّعْرِيَّةِ ، وَرُوحَانِيَّةِ الْأَبْعَادِ الْوُظُفِيَّةِ لِمَهْمَةِ الشَّاعِرِ . مِمَّا يُوْدِي إِلَى تَعْمِيقِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْوُجْدَانِيَّةِ كَكِتْلَةٍ جُغْرَافِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ ، تَبْعَثُ الْحَيَاةَ فِي خَرِيطَةِ النَّصِّ الشَّعْرِيِّ عِبْرَ تَنْوِيرِهِ وَجَعْلِهِ مُنَاوِنًا لِلرُّوتِينِ الْكَلِمَاتِيِّ . إِنَّهُ تَطْهِيرٌ وَجُودِيٌّ شَامِلٌ بُغْيَةً تَنْسِيقَ الْفَعَالِيَّاتِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى أَنْسَنَةِ الطَّبِيعَةِ الْمَادِيَّةِ ، وَإِضْفَاءِ صِفَاتِ الْكَائِنِ الْحَيِّ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ الْوَجْهَ الْآخَرَ لِلْإِنْسَانِ . وَبِمَا أَنَّ الشَّاعِرَ هُوَ إِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسَانِ كَانَ الْأَجْدَرُ بِحَمَلِ عِبَاءِ أَنْسَنَةِ الْعُنَاصِرِ ، وَاسْتِنْقَاقِ قِيَمِ الْجَمَالِ الْمُتَفَجِّرَةِ . وَفِي ضَوْءِ هَذِهِ الْوَلَادَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُتَوَالِيَّةِ ، تَتَجَذَّرُ الظُّوَاهِرُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ فِي قَلْبِ النِّظَامِ الْحَرَكِيِّ لِلنَّصِّ الشَّعْرِيِّ . وَهَذَا يَدْفَعُنَا دَفْعًا إِلَى تَحْلِيلِ السَّلُوكِيَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ ، بِاعْتِبَارِهَا تَشَكُّيًّا وَظُفِيًّا قَائِمًا عَلَى نَفْيِ التَّعَارُضِ بَيْنَ الدَّلَالَاتِ الْمُتَجَذِّرَةِ فِي الْجَسَدِ الْقَصَائِدِيِّ ، إِلَّا أَنَّ الدَّرَبَ إِلَى اجْتِمَاعِيَّةِ التَّحْلِيلِ الشَّبَكِيِّ لِلنِّظَامِ الْكَلَامِيِّ الْمُتَّأَلِّفِ لَيْسَ سَهْلًا الْبَتَّةَ ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ بِالدرَجَةِ الْأُولَى عَلَى كَسْرِ أُيْدِيُولُوجِيَّاتِ الرُّعْبِ

الذي يمنع العقل من التفكير والإبداع . ومن هنا نفهم حتمية النقاء الإنتاج السياسي مع البنية الاجتماعية ، من أجل توليد الصورة الشعرية المبتكرة . فالصورة هي التغيير السياسي الحر ، والصراع الأبجدي داخل تاريخ الشعر الكاسر للقولبة التقليدية ضمن متاهة استدعاء صور فنية تقليدية ومكررة .

ومن خلال تحليل سلطة المعنى القصائدي على الألفاظ اللغوية ، نجد أن الشعر علم اقتصاد جديد ، اقتصاد من نوع مختلف ، يتضمن كامل التنوعات العابرة لتجنيس الأنساق اللغوية التي فقدت لونها نتيجة كثرة الاستعمال . وليس كل تنوع قائم على تأريخ روح الفلسفة المنتشية باللغة الشعرية يلائم نمو تاريخ القصيدة الطبيعي ، لأن التأريخ (بالهمزة) يختلف عن التاريخ . فتأريخ الحالة الشعرية هو رصد تحولاتها ، أمّا التاريخ الشعري فهو المسار الذي تسلكه القصيدة أثناء أطوار نموها المختلفة . ومهما يكن من أمر ، فإن الفكر الشعري سيظل هو الابن الشرعي والوحيد للحالة الوجدانية العارمة المتدفقة في القلب والروح معاً . وعلى الرغم من أهمية الشعر كقوة مُحركة للاستعداد البشري ، إلا أن من الخطأ المريع رؤية العالم من خلال ثقب إبرة الشعر ، لأن المجتمع القصائدي هو الخيال الواقعي ، بينما المجتمع الإنساني المحسوس هو واقعية موغلة في تكريس العناصر المادية كحالة دنيوية مُعاشة . والخيال الواقعي لا أهمية له إذا لم يتم نقله إلى المجتمع البشري نقلاً متواصلًا ، من أجل ضمان انفتاح الوعي الفكري على الإسهامات النقدية للنظام الشعري .

إنّ فهم الأنساق السياسية للمدى الوجداني المندفع ، يجب أن يتم من خلال اعتبار المنهج الشعري ظاهرةً مستقلة ، تتمتع بقيمة الرفض لكل المناحي السلبية في الواقع المعاش . وتعميق ثقافة المجتمع يمر عبر جمعة الأدوار السلوكية للمعنى المرن . والاستقرار الوظيفي ليس بأكثر من حالة مؤقتة ، تُترك عندما تفقد القدرة على الإدهاش ، وعندئذ يُصار إلى معنى جديد مُدهش . ومبادئ القيم الجمالية ليست عبئاً على كاهل المنظومة الثقافية النصية ، لأن قيمة الجمال تمتلك في داخلها بذور الاستمرارية والتألق ، والتي تحمل كلّ تفاصيل المنظومة الشعرية .

أمّا هيمنة قطاعات لغوية تقليدية على وجهة النص الشعري ، فسوف يؤدي إلى وأد الجنين الشعري الفلسفي . وهذه التراكمات القاتلة تؤسس للانتحار التدريجي في الجسم الثقافي . لكنّ المزج بين الأطر الوجدانية واقتصاديات السياسة الأبجدية ، سوف يُخرج المجتمع اللفظي من هاجس الموت إلى جغرافيا حية عابرة للخرائط اللغوية المعقدة في قوالب الجمود والتقليد العبي .

وكلُّ نفي للجمود هو إثبات للانفجار المنظم في كتلة اللغويات الوجدانية . ومن أجل طرح تساؤلات تتحلى بالزخم الفكري غير المأزوم ، ينبغي توظيف الأنظمة السياسية في صميم النظام الشعري الفلسفي ، لكي تنبثق عن الأبعاد الوجدانية للتجربة الشعرية أشكالاً جديدة تُفكِّك الجوهر ، ولا تكتفي بالضرب على السطح ، بل تغوص في أعماق عِلْم اجتماع القصيدة ، الذي يُمثِّل تشريحاً للمضامين الحياتية المُفَعَّمة بالمفارقات والتناقضات الفَجَّة . واللغة الاجتماعية هي الصيغة الأكثر حداثةً للتعبير عن سياسة الشعر . والهدف الاستشراقي لشعرية الخصائص الإنسانية العليا ، يتمحور حول إيجاد انتماءات مجتمعية ، لها قدرةٌ كشفية فائقة ، وتستطيع الوصول إلى أقاصي الإحساس البشري بعناصر الطبيعة الداخلية والخارجية . ونحن في أمس الحاجة إلى صناعة قصيدة مُنتمية إلى إنسانية الإنسان ، تناقش مشاكل الفرد بعيداً عن الأنا العليا الوعظية المترقعة، وتعرض لمشكلات الكائنات الحية باعتبارها تشكيلاتٍ بصرية وسمعية في نظام طبيعي متنوع . وبالطبع فإن إنتاجات القوى الاقتصادية الأبجدية ، تركز إلى مقدار الثروة الموضوعية داخل الكلمة ، وهذا لا يلزم تحويل الكلام إلى بورصة أو سوق يطرح خيارى العرض والطلب. بل على العكس، فإن الكلام الشعري لا يدخل في نطاق التسلع (التحول إلى سلعة). والشعر هو المتحدث الرسمي باسم التاريخ الإنساني، والتاريخ لا يُباع ولا يُشترى .

زواج الخيال والواقع في القصيدة

إن السؤال المحوري الذي يطرح نفسه في عوالم القصيدة : أيها سابق على الآخر ، الخيال أم الواقع ؟. وقبل الإجابة عن هذا السؤال ، ينبغي فهم أبعاد مدلولات نظام القصيدة ، والاستناد إلى حقيقة أن القصيدة نص ثوري يعمل على عسكرة الكلام من منظور أدبي ، مع تجدير روحانية المعنى الشعري .

ولو عُدنا إلى السؤال السابق ، لوجدنا أن الجواب ينبع من كَوْن الخيال والواقع متكاملين، وكلاهما يؤثر في الآخر بصورة تبادلية غير عابثة. وهذا التأثير المتبادل يدفع منظومة القهر المتشظية في أنساق المجتمع الإنساني إلى التكسر على صخرة القصيدة. وهكذا نصل إلى حالة شعرية مُتفرعة عن حرية المعنى ، تحترم كينونة الإنسان وحياله الواقعي .

والتزاوج بين الخيال والواقع يُحوّل العناصر الاجتماعية الكبرى إلى مواد مصهورة في القصيدة الحاضنة للأحداث ذات العناصر الجمالية المدهشة ، وهذا لا ينفي دور عناصر الجمال المختبئة

في زوايا الأشياء البسيطة الهامشية. فالقصيدة هي القوة الشعورية الدافعة التي تجعل من الهامشي محوراً حياتياً رئيسياً. وكل إنجاز فكري عظيم مرجعه إلى خاطرة صغيرة. وهذه الحقيقة تتجلى في أفق القصيدة باعتبارها مصنعاً للأحلام.

واستناداً إلى حتمية انصهار الأنظمة الاجتماعية في الجسد القصائدي، نكتشف ذواتنا في الجنين الشعري غير الملوّث بالقيم المادية الاستهلاكية المغلقة. وهكذا تغدو الكتابة الشعرية تصحيحاً لمسار القطار الاجتماعي، ويتكسر الأدب بكل أشكاله كأسلوب حياة لا وسيلة للتسلية والإمتاع المجرد وملء وقت الفراغ. والفعل الكتابي مُعادِلٌ للوجود الإنساني الحر في عالم غارق في عبودية الإنسان للإنسان. وكلما تركزت الثقافة الشعرية كحلْم حياتي معاش، تعمّقت أنظمتها المعنى الفكري في الوجود الإنساني، ممّا يؤدي إلى تحويل التوهجات المعنوية إلى مُعادلات سيكولوجية كلامية، نكتشف من خلالها حتمية الصدام بين طبقات النص الشعري، والعناصر الاجتماعية المدجّنة.

والقصيدة هي المعركة الذهنية الخيالية الواقعية النهائية. وكلما أنعمنا النظر في تكريسات القهر والكبت ومتواليات الانهيار الإنساني المتكرر، وجدنا أن القصيدة هي القلعة الأخيرة، وشرعية المعنى التي تعطي الأنساق الحياتية أبعادها، وهذا غير مُستغرب، لأن الأفق الشعري هو وحدة الوجود الإنساني الذهني العاصف، التي توصلنا إلى السلام الداخلي، ومصالحة الإنسان مع نفسه. وهذا السلام المنتشر في الذات الإنسانية ينقل الومضة الشعرية من ردة الفعل إلى الفعل. وهذا من شأنه نفس ثقافات الخوف التي كرسها سلطة الموروث الاجتماعي في كل زمان ومكان. ومن هنا ندرك أبعاد الفكر القصائدي كمُرشد اجتماعي، يقف في وجه الهيمنة السلطوية في مجتمع الكراهية.

*

صدمة القصيدة هي طريق الحرية

إن المضامين الاجتماعية هي وجوه الحياة المتعددة داخل التَّسْع القصائدي المنظم . واستناداً إلى الإيقاع المعرفي في عنفوان القصيدة ، فإن حالة إنسانية صادمة تُولد في البيئة الشعرية ، وهذا الأفق الصادم ليس مقصوداً لذاته، وغير معنيٍّ بإحداث صدمة من أجل الصدمة ، وإنما من أجل إعادة الحياة في مجتمع الألفاظ والمعاني ، الذي يرفض الاعتراف بمشكلاته .

وتقاس طبيعة الصدمة في الحلم الشعري بمدى قدرتها على ضخ دم جديد في جسد النص الذي أنهكه التنظير العدمي فيما لا طائل منه . وانعكاسات الحالة الإنسانية على مرآة الكلام تقودنا إلى التفتيش بحماس عن القيم الاجتماعية الصاعقة المعبرة عن الحداثة الثورية وتفريعاتها ،

أي حادثة التجديد في الأسلوب اللغوي وابتكار الصور الفنية الجديدة، لا نسخ المشروع الغربي وتقليد الآخر خضوعاً لُعقدة الخواجة .

وكلما ازدادت سيطرة اللغة على الأفق الشعري الصادم ، اندلعت حركة الرؤية الفنية في المجتمع الإنساني ، والمجتمع الكلامي على السواء ، لأن أية ثورة لغوية لا يمكن عزلها عن النشاط الاجتماعي. وعلينا _ لتحقيق مستوى عالٍ من أنسنة البناءات الكلامية _ تدوين الشعور الإنساني كلغة حية في قلب المعرفة السياسية للمجتمع ، اعتماداً على الحقيقة الثابتة التي مفادها أن الإنسان كائن شعري ، وأن الشعيرة هي اللبنة الأولى في البناء الإنساني . وكل إنسان يمارس فعلاً حياتياً ذا معنى ، هو _ في الحقيقة _ يكتب قصيدة كاملة الملامح، لأن القصيدة هي مشروع الحياة ولا يمكن حصرها في نظم أبيات ، أو تنسيق كلمات .

ولا يمكن أن تقوم العلاقة التكاملية بين شعيرة الحياة وحياة الشعر، إلا من خلال تعميق الثقافة الإيجابية في المجتمع الإنساني المضطرب . وللتحرر من ثقل الهواجس الضاغطة على المسار الإنساني ، ينبغي تأسيس قصيدة كؤنية تصهر الأضداد المجتمعية ، لتجعل منها سبيكة متكاملة ذات هدف واحد ، ألا وهو تأريخ حالة الوعي القامع للقمع .

وإذا شَخَّصْنَا الحالة الثورية للمنحى الشعري الاجتماعي ، وجدنا أن المأزق الوجودي للفرد والجماعة لا يمكن تجاوزه إلا بتثوير الأدب ، وسلخه عن الاستهلاكية السلبية ، ليصير جزءاً من وجود الإنسان ، ومُعَادِلاً لَكَيْنُونته البشرية. والشعر هو صدمة المعرفة غير المدجَّنة ، وصدّامٌ يتفشى في كل أنماط التكاثر الطبيعي للأفكار المنتخبة الناضجة . وهذا يعني أن الثبات المرحلي في تضاريس القصيدة ، ليس سوى تاريخ مُؤقَّت لأحلام قادمة من دماء الحياة . والثورة الفكرية في النص تحوّل دون تفشي الروتين الكلامي في الأفق القصائدي . والجدير بالذكر أن القصيدة هي السد المنيع الذي يمنع تشظي الكبت السياسي في المجتمعات القمعية . وهذا يحافظ على توازن الفرد في البيئة المضطربة .

وهكذا تتحدد الوظيفة الفلسفية للقصيدة في كسر الحواجز النفسية والعقد المعرفية في الجسد الإنساني، من أجل تحرير الإنسان من ثقل المسؤولية الاجتماعية المتفاقمة . والحرية الفكرية لا يمكن أن تنجذر في مجتمع العبيد . وبدلاً من تعليم العبد أناشيد الحرية ، ينبغي تعليمه كيفية كسر قيوده أولاً . وهذا الهدف السامي من أهم أهداف الشعر بعيدة المدى .



القصيدة هي رُوح التنمية الاجتماعية

إن تكشف الدلالات الصاعقة في معمارية طبقات القصيدة، يقودنا إلى إنتاج اقتصاديات جديدة في الوعي الشعري. وهذه الاقتصاديات لا تمتُ لمبدأ الربح والخسارة بِصِلَة، لكنها تعني وضع المعنى في أقصى مداه ، ووضع اللفظ في البنية الفكرية الملائمة. فالشعر ليس بورصة أو سلعة في مَوْضع البيع والشراء ، وإنما هو مجتمع مُكثَّف له جانب اقتصادي تُشكِّله الانفعالات المعنوية .

وإذا تَكَرَّسَ الفِكرُ القصائدي كمجتمع إنساني وسياسي واقتصادي، فإن المنظور السيكلولوجي للوجهة الكلامية المترابطة سيصل إلى حالة من الوعي المعرفي الماورائي ، الذي يَسْتَشْرِفُ مُسْتَقْبَلَ البشرية ضمن منظومة من التوقعات الشعريّة ذات الطبيعة الفلسفية .

وهذا يشير إلى عمل القصيدة الدؤوب من أجل توليد نقد متواصل للصيغ الفكرية والقوالب الاجتماعية. والقيمة اللغوية في النصّ الشعري لا تؤمن بوجود قالب نهائي وحاسم في الرؤية الأدبية أو المجتمع الإنساني . والأدب يُعَيِّرُ جِلْدَهُ باستمرار عن طريق تنويع الولادات الوجدانية . وماهيّة تغيير الجِلد لا تعني الانسلاخ من قيم الهوية ، أو تبديل المواقف بشكل انتهازى ، أو نقل البندقية من كتف إلى كتف ، بل تعني القدرة على التجدد والانبعاث والخروج من حصار القيم المجتمعية الضاغطة على الفرد والجماعة .

والكلمة هي تكثيفٌ للجهات التي تتدفق في أحلام الناس كالأعاصير. ومن خلال هذا التعريف نُدرِك أبعادَ التاريخ الأدبي، وتحولاتِ جغرافيا النص الشعري ، حيث تتولد أبجديات مخيالية جديدة صاعدة من الأبجدية الأم . وهذه الأبجديات المخيالية تستمد قوتها من قدرتها على التكاثر والتوالد ، من أجل ترسيخ الرموز الشعرية كأشكال عابرة للتجنيس ، وكاسرة للقوالب الأدبية الجاهزة التي تُعيق تدفقَ الكلام ، وتُحيل القصيدة إلى روتين وظيفي مُفَرَّغ من قيمة التفجير . وهذا الاتجاه المعرفي يَتَكَيُّ على قوة المفاهيم ، وتفجُّرها ، ودَوْرها في إعادة رسم خارطة اللغة ، لتسهيل ولادة الجنين الشعري.

وفي هذا السياق ، تظهر أهمية اللغة بوصفها كائناً حياً في قلب الفلسفة الاجتماعية ، يَرفض الأشكال الاجتماعية التي تتَمُّ أدلجتها بصورة قامعة لحرية الإبداع . وهكذا تجد القصيدة نفسها في مواجهة العقل الخرافي للأشكال الاجتماعية السُلْطوية القمعية . وهذه المواجهة الشاملة نتيجة للعقلانية الراشدة التي تتصدى لأيديولوجيات الشُّهُوة المجنونة ، ممّا يؤدي إلى تصحيح القيمة المعنوية للبناء الكلامي ، وقَضُّ الاشتباك بين المستويات اللغوية للعوالم الأدبية . ولا يمكن بلوغ المستوى المخيالي الواقعي للفكر الإنساني، إلا عن طريق رسم سياسات انتخاب المعنى وتثوير اللفظ، حيث تتحول العواطفُ إلى قصائد، وتتحول القصائدُ إلى أنظمة اجتماعية تكبح التوحشَ البشري .

وتبني القصيدة كمنظومة حياتية ليس ترفاً اجتماعياً ، أو هوايةً لملء وقت الفراغ . فالقصيدة هي الضمانة الأكيدة لأنسنة التيارات الاجتماعية ، والاستثمارِ الفعال في الذات البشرية ، وتنمية

الأفكار المجتمعية ، وإتاحة الفرصة للإنسان كي يلتقي بإنسانيته في مجتمع إنساني يسوده العدل لا قانون الغاب . والتنمية الشاملة يقودها البشر لا الوحوش المختبئون خلف أقنعة البشر . وهذه هي فلسفة القصيدة روحياً ومادياً .

*

الأسئلة والأجوبة في الفكر القصائدي

إن قوة القصيدة نابعة من قدرتها على التساؤل ، ومواجهة التحديات المصيرية . ومن أهم الأسئلة الشعرية : كيف يمكن صناعة مخيال وظيفي قائم على امتداد رؤية الشاعر ؟ . وهذا السؤال المرگب ليس سهلاً على الإطلاق، فالشاعر رؤية. وهنا يظهر سؤال ولید غاية في الأهمية : كيف يمكن للرؤية الشعرية أن تصدر عن الشاعر الرؤية ؟ . فنقول باختصار إن التحولات التي

تضيء للشاعر طريقه الأدبي المتفرد هي ذاتها التي توفر له مناخاتٍ من العمل الدؤوب بُغية تكوين نماذج المعطى الواعي لحالات ماوراء الشُّعور . وهكذا نصل إلى مرحلة تدقيق الترابط المقصود بين الحياة الذهنية والخيال الواقعي المتكاثف على شكل رؤى تحفر جغرافية القصيدة في صوت الزمكان (الزمان _ المكان) . وفي مقابل التحولات الجذرية تظهر تضاريس جديدة للحالة الشعريّة بعيدة عن التميّط والأدلجة التي تحقن النصّ بفلسفات وافدة ومناهج دخيلة مرفوضة. وهي لا تعيق النمو الطبيعي للمشروع الأدبي البؤري فحسب ، بل تُسرطنه تمهيداً لوأده التدريجي المأساوي. وقد تنبثق من خلال المداوولات السابقة حالة معرفية أكثر أهمية ، وهي زوال الغيش العدمي في مسار الكلام كخطوة أولى لنقض علم اجتماع الرعب والضجر ، هذه الشائنة القائمة على سيادة طبقة ذهنية منكمشة على ذاتها، وتحكم في انتشار الضرورة الحتمية للتشوير النصي الأفقي والعمودي .

والتشوير الأفقي هو البنية التحتية للقصيدة (الحلم والمعنى) ، أمّا التشوير العمودي فهو البنية القويّة (تنقية أنظمة الحكم الاجتماعية من الوهم) . وهاتان البنيتان إنما تكونان داخل المنظور السيكلوجي للأداء الكلامي الصاعق ، من أجل حقن المعايير الاجتماعية بتكوينات نظامية تُزاج بين المدلول (الهدف) والدلالة (الوسيلة) .

والثقافة القائمة على تدعيم كينونة المعنى ، يجب أن تتحلّى بليونة صارمة تزاج بين نظرية المشروعات من جهة، وبين تحليل المعنى الشعري التغييري من جهة أخرى. والقدرة على تحويل النص إلى حياة خارج نطاق الحياة الواقعية ، لا تتأتى إلا بتكوين خطاب واضح المعالم والخصائص عن الحالة الذهنية المعاشة في القصيدة . ونحن لا نريد الانصياع لمُسلّمات افتراضية لا توجد إلا في الأذهان المرتبكة . والحالة الطبيعية المؤسسة على شرّعة احتلال الكلمة للكلمة هي هالة رخامية ، ينبغي صقلها بالغضب الثوري والحزن الموصل إلى الفرح ، لأن الحزن المنهجي جزء من سعادة المنحى الثوري في سوسيولوجيا النظرة الأدبية. وإذا لم نحاول تجذير المشهد الاجتماعي الذي يكشف بؤرة الثقافة المكوّنة من إنتاجية الدلالة وتوجيه المدلول ، فلن نحصل على ظروف ملائمة لولادة تشكيل بصري سمعي هادر يهزّ المجتمع الإنساني هزّاً يُوازن بين الرّفق والعنف .

إننا نبحث عن استدالات تُحيل الكم إلى أنواع متشظية ، وتتعامل مع النوع ككتلة كمّية تستشرف المستقبل بكل أبعاده ، ليس بوصفه سلعة ، وإنما بوصفه شكلاً لشرعية الاستمرارية

خارج هيمنة الأنساق السلبية التي تعمل على تحويل الإنسانية إلى صيغة كمية سلبية ضمن عملية تدجين منهجي. وسوف تتكرس الفلسفة اللغوية لدعم النظام الشرعي في دولة القصيدة من أجل ترسيخ معطيات الوعي ذي الامتدادات المعرفية المتفجرة . ومن غير السهل إنضاج المعرفة المكانية بدون الاستناد إلى معرفة زمانية وثابة. والطرائق الجديدة المستعملة في صياغة سياسة الشَّعر هي ذاتها المستعملة في قياس تشكيلات ممارسة الثقافة الهادفة إلى تأسيس الكلام كإنقلاب ضد الخديعة .

والشَّعرُ هو كتابة قصيدة عن القصيدة ، تلك المملكة المتناقس عليها ، والتي تظل محتفظةً بنفوذها رغم غياب فرسانها. تلك الخصوبة التي تسكن في الأبجدية . والكتابة محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. والسياق اللغوي لأبجدية النص الشعري يقتلع الجسدَ الإنساني الكلماتي من قبره. والإنسانُ كائن حي ، والقصيدة كائنٌ حي . وهذه الحياة المتبادلة تعطي امتداداً جغرافياً لتاريخ الفكر القصائدي. وفي الجنين الشَّعري حلمٌ ولاداتٍ متكررة ، وحيواتٌ متعاقبةٌ تزودنا بالأحاسيس اللازمة لاستقبال ما بين سطور النص الشعري . وهذه الأحاسيس مؤشر واضح على أن القصائد كُتلت بشرية مملوءة بالأعصاب . والكلماتُ تشعر مع بعضها وتتكاثر في وَحْدَةٍ فريدة. والإحساس هو القصيدة الأولية الخام والقاعدة الحاضنة للفعل ورد الفعل. وإن لم تشعر بالطريق كيف ستمشي فيه ؟ ، وإن لم يَشعرْ جِلْدُكَ بضوء الشمس فكيف ستنال الحرارة ؟. وثنائية (الفعل / رد الفعل) تعمل على تشريح المستوى التاريخي للشاعر الرؤية . وفي الطفولة تكون كلمات الشعراء ردة فعلٍ لشخصهم ، وفي حالة تقدمهم تصير الشخصُ صدىً لصوتِ الكلام . مما يدل على نفوذ الكلمة التي تنتشر في الفضاءاتِ وصاحبها جالسٌ في مكانه. وهذه النقطة مركزية في فهم أهمية الكلمة كأساس نظري للفعل ، بل هي الفعل بعينه. وهذه الإرهاصات قادت إلى إنهاء زمن استخدام الألفاظِ الجزلة والفخمة في المستويات الشعرية . وفي السابق كانت السطوة لاندفاع اللفظة، والآن غَدَت الصورة أبلغ. والصورة تركيبٌ يحتضن الكلمات في منظومة تجميعية . وهكذا تكاثفت الألفاظُ ودعمت الواحدة الأخرى لمصلحة الصورة الشَّعرية ، فحصلنا على ما يُشبه فريق عمل ليست البطولة فيه للبعض (المفردة) ، بل للكُل (الصورة) .

القصيدة والموازنة بين الغموض والوضوح

إن اللغة تُمثّل عاطفةً يوميةً مُعاشة تنبثق من تجارب المنظور الفكري للتحدي الإنساني ضد أيديولوجيات الوهم وثقافة الأساطير وصناعة الأصنام البشرية . وهذا التحدي لا يمكن أن يتكسر إلا بحدوث صدام بين الإنسان وذاته ، لأن هذا الصدام طَوَّرَ مهم لتشكل حالات الاندلاع الشعوري للفكرة ، وترجمة الأحاسيس الاجتماعية إلى لغة مرئية يفهمها العقل والجسد معاً . وهذه التكاملية التاريخية المتعلقة بمراحل تفسير دلالات المحاولات الشعرية لتثوير المجتمع، تُشكّل تضاريس الصراع الحتمي بين القصيدة ومؤسسات القمع ، مما يؤدي إلى توليد حالة انسجام لغوية مع توجهات المنظور المنطقي للطبيعة القصائدية ، وهكذا تتكسر خصائص الإشارات الرمزية في إطار التفاعل بين المفردات والمعاني ، وهذا يصنع الأشكال الجمالية للنص الشعري عبر إيجاد تكوينات حتمية لمجتمع الفضيلة الثورية .

ولا يمكن تثوير الإيقاع اللغوي في البنية الشعرية ، إلا بتحرير الأبجدية من سطوة الصور الفنية المستهلكة . والمضامين الواعية لا بد أن تتركز إلى رمزية التراكيب الفكرية المتوالدة، التي تتخذ من فاعلية الصور الإبداعية طَوَّراً تكوينياً للفنون اللغوية . ومن أجل تفادي تحول القصيدة إلى ساحة جدال بين السبب والنتيجة ، ينبغي تأسيس المصادر المعرفية الخيالية على الرمزية المغرقة في الواقع الملموس . والرمزية الشعرية في النص اللغوي المتدفق يجب أن تكون مثل شعرة معاوية ، أي إنها تدخل في الغموض دون الوصول إلى الطلاسم ، وتدخل في الوضوح دون الوصول إلى الابتذال ، وهذا التوازن كفيل بإحالة الفكر القصائدي إلى بنية متراسة تؤثر في الجماهير ، ولا تنحصر في النخبة . والأداء الفلسفي المتوازن في ديناميكية القصيدة يضمن ملازمة الشعور الإنساني في الأفق اللغوي دون تحويل النص الإبداعي إلى موعظة دينية أو خطاب سياسي .

إن حشد المعاني الشعرية الكبرى في زاوية لغوية ضيقة ، ووضع أبجدية الشعر في غير نصابها ، عمليتان خطيرتان لأنهما تؤديان إلى قتل الأحاسيس الإنسانية ، وإحالة الكائن الحي إلى قطعة رخام جامدة وغارقة في لعبة تزويق الكلام . وهذا يتعارض _ جملةً وتفصيلاً _ مع ماهية الشعرية القصائدية . فالقصيدة الحقيقية هي كائن حي لا يموت . وإذا اختلت الموازين اللغوية في القصيدة ، فإن القصيدة سَوْفَ تغرق ، وعندئذ سَوْفَ تَسْقُط اللغة الشعرية تحت حكم الموت اللغوي ، الذي يجعل النص الشعري لعبةً كلمائية مُزوّقة ، أو لغواً يتقمص الشكل الإبداعي .

القصيدة من ثورة اللغة إلى لغة الثورة

إن لغويات الحلم المتأصل في الجسد القصائدي تُمثّل معنىً جديداً لتكريس الذات كانعكاسٍ للصور المجتمعية وانقلابٍ عليها في آنٍ معاً. والإنسان ابن بيئته ، والقصيدة ابنة بيئتها . وكما أن النص الشعري نابع من الإطار الاجتماعي ، فهو أيضاً _ أي النص _ يصنع إطاره الاجتماعي الخاص المتمرد على نفوذ اللامنطق وأبعاد السُلطة القمعية ، ويصنع كذلك منطقته الفلسفي الذاتي تماماً كما يحفر النهرُ مجراه الخاص المتفرد .

وهذه الخصوصية الثورية _ لفظاً ومعنى _ تقودنا إلى وضع سياسة جديدة للمنظور الفلسفي للأدب غير الخاضع لأبجديات السُلطة السياسية . لذلك فإن القصيدة تبتكر أدباً متفرداً ضد الأدب المدجّن . وكلما اكتشفنا ثورية العناصر الاجتماعية الواعية في النص الشعري ، اكتشفنا حتمية الإنتاجات اللغوية القائمة بالأساس على مواجهة سُلطة الموروث السلبي ، الذي تم تأطيره كمُسلّمات بفعل التبني الاجتماعي له ، وليس بفعل مصداقيته وقوة منطقته .

وهذا الصّدأُ المصيري بين أبعاد المنظومات السُلطوية نابع من طبيعة طبقات النصّ الشعري ، فهذه الطبقات هي أشكال للرموز المعرفية على الصعيدين الاجتماعي والسياسي . وقوة الرمز في القصيدة تنكسر كقوة رفض لهيمنة المعطيات السلبية الجاهزة ، وقوالب التميّط ، والتلميع اللغوي المنفصل عن الدلالة المعرفية الحقيقية .

ومما لا شك فيه أن هذا الحراك الفكري في بنية الطبيعة اللغوية ، سيؤدي إلى التعامل مع اللغة الشعرية من منظور اجتماعي سياسي ، الأمر الذي يُعمّق الروح السياسية داخل اقتصاديات القصيدة . وهكذا تتولد عوالم ومعالم إبداعية جديدة في قلب التحولات الجيوسياسية لاجتماعيات النظام الثوري في اللغة المتجددة .

والقصيدة ليست نظاماً لغوياً صوتياً فَحَسْب ، بل هي نظام اجتماعي تثويري متكامل نتيجة حجم التفاعلات المعرفية الهادرة التي تحدث في الإطار الشعري لبنية النص . والتفاعل المزروع في أقاصي اللغة الحية قادر على الولوج في تعابير المراحل الوجودية للإنسان كافةً ، والتعبير عن كل المشاعر الجياشة داخل النّفس البشرية . وبالتالي فاللغة هي الثورة العظمى التي تقوم بثورتها دون انتظار قدوم الثائرين ، ودون أن تستأذن أحداً .

القصيدة والتحولات الاجتماعية

إن الشاعر يعيد اكتشاف ذاته بواسطة القصيدة، فهو يتنفس من خلالها، ويعيش ويموت فيها. وهذا العالم الجديد الذي يتشكل بواسطة النص الشعري يتيح للإنسان أن يلتقي بإنسانيته خارج نفوذ العزلة الاجتماعية التي تفرضها التكنولوجيا المعاصرة ذات الطبيعة المتوحشة .

ومن أجل تكريس المنظومة الشعرية كأفق جديد يكتشفنا ونكتشفه ، لا بد من تجدير التشخيص المبكر للحالة الفلسفية الخاصة بالدلالة اللغوية وربطها بالتأثير المعرفي الرمزي. وهذا من شأنه تفجير طاقات النص الشعري الذي يدفع المجتمع إلى توليد أبجديات اجتماعية جديدة نابعة من البعد الثقافي العميق لا السطحي، مما يؤدي إلى إنتاج حالة شعرية عمومية تصبح ظاهرة تاريخية منحوتة على جسد الأبجدية كوشم لا يمكن نزعها .

وكلما انتشرت الحالة الثقافية في تفاصيل النسخ الاجتماعي وصولاً إلى نخاع المجتمع، تكاثفت الأسئلة المحورية المطروحة على القصيدة ودورها في بلورة حياة إنسانية متمردة على الأنماط الاستهلاكية الخائفة. وهذا يؤدي _ بالضرورة _ إلى صناعة عقل جمعي قادر على تحرير الفرد من ذاته ، وتحرير الجماعة من هيمنة ميراث القمع بكافة أشكاله . ومن خلال هذه الصورة التحريرية يؤول الشكل العام للقصيدة إلى نسيج لغوي متماسك يحفر في الخيال من أجل تغيير الواقع ، ولا ينحصر في عوالم ذهنية هلامية .

والقصيدة تتحدى ظلال اللغة بجوهر اللغة ، وتعيد تشكيل أبجدياتنا الخاصة وفق إشارات اجتماعية وثيقة الصلة بالاتجاهات الثورية الأخلاقية للأدب غير المسيطر عليه من قبل مثقفي السلطة الاستبدادية .

وينبغي تعميم المنظور الفلسفي للنص القصائدي ، ودمجه في المسار العام للتاريخ الذي يُعاد اكتشافه من جديد . وهذه القراءة الثورية لأنساق الحياة ، ثقافة وتاريخاً ، ما هي إلا أداة تشريحية تبحث عن مصادر الخيال الوظيفي في اللغة الواقعية. الأمر الذي يقود إلى توليد نظام ثقافي متجانس يتعامل مع الأفق الشعري كلغة رمزية تهدم ثقافة التلقين (عملية اختراع المسلمات الوهمية) ، وتتبنى ثقافة الأسئلة (مساءلة الأنساق الاجتماعية ووضع الفرد والجماعة أمام التحديات المصرية).

والأثر المترتب على عملية صناعة الوعي بِقُطْبَيْهَا (الهدم/ البناء)، لا يمكن حصره في إطار إيجاد قواعد ثقافية تفسيرية للإشارات الاجتماعية الثابتة، لأن كل فرد هو مجتمع متحرك قائم بذاته، كامل الملامح والخصائص، ومُفَعَّم بالتحويلات العميقة نفيًا وإثباتًا. والمجتمع الفردي يعيش

في قلب المجتمع العام، وهذا التعايش النشط ذو الفاعلية الفلسفية يُعيد بناء جغرافيا الأسئلة والتغيرات الجذرية . وهكذا تتكسر عملية صناعة الوعي كمبدأ شمولي ملتصق بالفرد للكشف عن أبعاد التحولات الثقافية ، أفقياً وعمودياً ، زمنياً ومكانياً ، ذهنياً وواقعياً. وهذه التحولات هي التي تمنح الفرد صفة الكائن الحي، وتُكسب المجتمع إحساسه الوجودي. كما أن تحركات البعد الثقافي في الإطار الزمكاني (زواج الزمان والمكان)، تجعل القصيدة كائناً حياً مركزياً يصنع الأحداث ، وليس كياناً هامشياً يتفرج على الأحداث .

*

بوسطة النص الشعري

إن القوة الحقيقية في النسغ الشعري تتمثل في اكتشاف تفسيرات تاريخية للعلاقات الإنسانية في إطارها الروحي والمادي . وهذا الأفق التفسيري نابع من كَوْن النص الشعري تاريخاً جديداً للوجود بكل تراكيبه . والنص الشعري _ بما يملكه من سحر ونفوذ وسلطة _ قادر على تأريخ المشاعر الإنسانية وعلاقاتها بالواقع تمهيداً لصناعة نهضة بشرية منطقية لا تسقط ضحية صراع الأضداد الفكرية والأنساق المتضاربة للثقافة التلقينية المدجّنة (ثقافة البغاوات) التي تقول ما يُقال دون تمحيص .

ومن خلال هذا المنظور التمحيصي الذي يعتمد النص الشعري ، تتحول العلاقات الروتينية الوظيفية في المجتمع الميت إلى قفزات حضارية إبداعية تعيد الحياة إلى المجتمع . وهذه الممارسة المنطقية تشير إلى الدور المركزي الوجودي للثقافة الإبداعية ، وهو تحويل التجمعات البشرية المتآكلة إلى خلية نحل دؤوب .

وبما أن النص الشعري يحمل صفاتٍ ثورية مركزية ، فهو يتشكل في قلب الحياة الإنسانية لا الهامش ، وهذا يدفع باتجاه فهم حقيقي لطبيعة اللغة القصائدية وتحركاتها الأفقية والعمودية في المجتمع ، وتحريك الساكن عبر إلقاء الحجارة في الماء الراكد، وكشف المسكوت عنه ، وإشاعة ثقافة السؤال والبحث والنقد والنقض . وكلما التصقت القصيدة بأساس المجتمع البشري ، اتضحت مكانتها المحورية في تحريك الرأي العام وقيادة الجماهير فعلياً لا شعاراتياً . الأمر الذي يعيد للنص الإبداعي تألقه وأهميته في بناء العقل النقدي المنفتح الذي يتصدى للعقل الميكانيكي المحصور .

وبالتركيز على الحقائق الثقافية للأبجدية المناوئة لأيدولوجية البنى الاجتماعية المنحرفة ، نكتشف مزيداً من العوالم الذهنية التي تعمل جاهدة على إعادة تشكيل العالم وفق رؤية متحررة من سطوة تعاليم الخوف وسلطة المعنى المحتضر .

ولا يتأتى للقصيدة أن تُحرّر المجتمع إلا إذا تحرّرت من جُمودها وعُزلتها . لذلك على القصيدة أن تُغيّر جِلْدَها باستمرار ، أي أن تخرع آليات معرفية غير معهودة ، وتجدد في طبيعة الأفكار وأسلوب العرض . وهذا التغيير لا يعني _ بأية حالٍ من الأحوال _ التخلي عن المبادئ أو المتاجرة بالكلمة . ولا يمكن الإحساس بجدوى فعل الكتابة الشعرية ، إلا إذا تکرّس تاريخُ القصيدة كتاريخ للحياة الإنسانية بكل تشابكاتها . وهذا الأمرُ ضروري للغاية، وليس فعلاً ترفيهياً

أو ممارسةً روتينية زائدة عن الحاجة . إنه أمرٌ شديد المركزية ، وضمانةٌ حتمية لاستمرار الفلسفة الشعرية في تأدية دورها الحضاري ، وأنسنة القيم المتوحشة المتشظية في الذات البشرية .
والقصيدة ينبغي أن تواصل الحركة لكي تحافظ على توازنها ، وتوازن العناصر الاجتماعية من حَوْلها . فالأبجدية الشعرية مثل الدراجة (إذا توقفتْ سَقَطَتْ) . وهي مثل النار (إذا لم تجد ما تأكله ستأكل نفسها) ، وهي أيضاً كالسايح (إذا ارتبك غرق) . ومن خلال هذه الرؤية المركزية الشاملة، تتضح أهمية إمداد النص الشعري بالوقود اللازم للاستمرارية ، وحرّق المراحل ، وصولاً إلى آفاق جديدة للمجتمعات العاجزة عن تحديد وجهتها، والتي تسير في النفق بلا ضوء . ولا يمكن فتح الطريق المسدود ، واكتشاف الأفق الجديد ، إلا إذا حصلنا على بوصلة النص الشعري السحرية .

*

الكتابة الشعرية والبحث عن الأصل

إن الموروث القمعي المتغلغل في الأنساق الاجتماعية ليس نشاطاً يقينياً ، وإنما افتراضات وحشية تقتل نزعاً الأنسنة في جسد العملية الإبداعية . وفي هذا الجو الكئيب تتضح أهمية الكتابة الشعرية كوصفة علاجية لمشكلات المجتمع ، فحيثما يظهر الداء يظهر الدواء .

والعوالم الشعرية هي عملية استئصالية لميراث القمع الاجتماعي . وهذه العوالم تعمل على إعادة القطار الإنساني المنحرف إلى السكة الصحيحة . وعندما ينبثق المسار المتجانس للولادة الشعرية من رحم الفوضى المجتمعية، سنحصل _ بالتأكيد _ على عناصر أساسية تعيد اكتشاف الكائن الإنساني الحي داخل مستويات اللغة الحية. الأمر الذي يدفع باتجاه تنقية المجتمع من عقده وأمراضه وحياته الروتينية القاتلة .

ولا يمكن الحصول على نقاء اجتماعي متكامل، إلا عن طريق تأصيل العملية الشعرية الإبداعية في نخاع الحياة البشرية . والبنية القصائدية هي عملية جراحية تستأصل الورم الخبيث في الوجود الحياتي ، وفعلٌ انقلابي لا يستبدل القمع بالقمع ، وإنما يؤدي إلى تصالح الإنسان مع ذاته ومجتمعه ، وإعادة اكتشاف الأحلام الضائعة بشكل متمرد على سياقات الملل الوظيفي المتفشي في حياة البشر .

وقيمة الاكتشاف الشعري الحقيقية تتمثل في إعادة رؤية الأشياء والوقوف على أسرارها ولمعانها، والخروج من دائرة الاعتيادية. والفرد حينما يعتاد على الشيء يعجز عن رؤيته ببصيرته ، وإنما يراه بعيون ميتة خالية من التألق والانبهار . وهنا تبرز أهمية البصيرة الشعرية في فتح العيون لرؤية عوالم " الماوراء " . وهذا يتطلب التنقيش عن الإنسان المختفي خلف القناع ، والبحث عن المرأة وراء المكياج ، والتنقيب عن القصيدة الكامنة خلف القصيدة ، واكتشاف المجتمع البشري المختفي وراء المجاملات والدبلوماسية المصطنعة . والحقيقة _ على الدوام _ متمركزة في القلب لا المظاهر الشكلية . وبالتالي فإن القصيدة الحقيقية هي التي تُميز بين التلقائية والتكلف ، بين القلب والهيكلي الطيني ، بين الصورة والبرواز ، بين المحتوى والشكل ، بين الإنسان والمكياج .

وهذا الوجود الشعري المعتمد على فصل المكونات وتمييزها ، لا يرمي إلى تفتيت المجتمع وإغراقه في الشظايا الروحية والمادية ، وإنما يهدف إلى تشكيل الوجود الإنساني كحقيقة ثابتة ، وتكوين النص الشعري كوجود مركزي أصيل ، وليس طارئاً على اللغة أو دخيلاً عليها .

تحرر القصيدة هو تحرر المجتمع

إن الإشارات الرمزية في جسد القصيدة هي التي تحدد الوجهة العامة لإيقاع اللغة ، وتجعله عفويًا غير مصطنع . وكلما ازداد نقاء الخيال الشعري ، تحوَّلت العناصر الاجتماعية في القصيدة إلى متواليات تكاثرية تنقل الفكر الشعري من قيمة الجبر إلى قيمة الدم ، أي إن الكلمات تصبح كيانات من لحم ودم بعد تحررها من أسر الكيانات اللغوية الجامدة . وبالتالي فإن جغرافيا النص الشعري تُؤكِّد من جديد بصورة تنويرية وشكلٍ صاعق . مما يؤدي إلى تكاثر الصور الفنية وتحوُّلها إلى تاريخ جديد لسلطة الشعر .

وعلى الرغم من محاولات تغييب السلطة الشعرية لصالح السلوكيات المادية ، إلا أن الشعر لا يزال واقفًا على قدميه . وذلك لأن الكلمة هي سلطة المعنى الذي ينتشل المجتمع البشري من أنقاضه . وهكذا تتضح أهمية الإيقاع اللفظي والفعل الشعري في ترسيخ عملية (التطهُّر / التطهير) في البنية الإنسانية . ويمكن القول إن إيقاع الفعل الشعري يدفع المجتمع إلى التطهر من سلوكيات الوهم ، وشهوة الاستهلاك المادي الفج ، والروتين الوظيفي الحرج . ويدفع المجتمع — أيضاً — إلى تطهير الأنساق الحياتية من إشكاليات الحضارة المعاصرة وتناقضاتها . والكتابة القصائدية تبتثق لكسر إيقاع الحياة الرتيب ، وإعادة المعنى إلى أبجدية الواقع المعاش . وهذا يدفع باتجاه تحرير الفرد من قلقه الوجودي العميق . وكلما استمر الفرد في اكتشاف ذاته المتحررة من الارتباك ، أدرك أن تطهُّر المجتمع من الوهم هو تحرر الفرد من الخوف ، وأن تطهير الحياة من التناقض هو تحرير الفرد من الأضداد التي تسكنه . وهنا تتجلى أهمية قيمة (التطهر / التحرر — التطهير / التحرير) على المستوى الفردي والجماعي . وقد تؤثر السلوكيات الاجتماعية السلبية على بكاره الأبداعية الشعرية وطهارتها ، إلا أن الطبيعة الثورية للنص الإبداعي قادرة على تصحيح مسارها بنفسها ، والحفاظ على نقاء الأبداعية وخصوبتها . وتأثير النص القصائدي على المجتمع البشري هو الفعل الذي لا يساويه أي رد فعل . ومهما كان المجتمع البشري شرساً في تعامله مع الثقافة ، أو قاسياً في أحكامه على قيمة الشعر المحورية ، فهو لا يقدر على استئصال القصيدة أو إخفاء لمعانها ، لأن الشمس لا تُعطى بغربال . وكل حركة مجتمعية ضد منظومة القصيدة لا تعدو عن كونها تشويشاً ذا تأثير سطحي محدود . وحتى لو حُوصِرَ الشعرُ في زوايا الحركة الاجتماعية

وتم إقصاؤه ، فهو قادر على إعادة تشكيل ذاته داخل وخارج ذواته ، ومن ثمّ تشكيل البيئة المحيطة به .

الإنسان وثقافة الشعر

إن قوة القصيدة تتجلى في قدرتها على رسم خارطة التحولات الإنسانية بشكل بالغ التكثيف والرمزية ، وصناعة منظومة خيالية تؤوّل إلى حياة جديدة لا تخضع لقوانين الأمر الواقع . الأمر الذي ينقل العلاقات الاجتماعية من التشظي إلى التجمع ، ويحوّل الجماعة البشرية من التشتت إلى التلاحم . وهذا الأداء التوحيدي الذي تضطلع به القصيدة يؤدي إلى إنتاج مضامين تفسيرية جديدة لتاريخ النص الشعري ، وتكوين نسيج اجتماعي متماسك لمنظومة الخلاص الشعرية .

وكلما ازداد الوعي الإنساني بالأبعاد السلطوية للفعل الشعري ، تكرّس الجين الإبداعي كأداة خلاص . وهذا يبعث الحياة في النظم الاجتماعية والثقافية على السواء . ولا يمكن للمجتمع أن يتحرك بدون القيمة الإنسانية والقيمة الثقافية ، تماماً كالتائر الذي لا يقدر على الطيران بدون جناحين . ومن أجل توليد أنساق ثقافية بوسعها التعبير عن المضمون الجوهرى للحياة الاجتماعية ، لا بد من تنمية العنصر الحياتي المتمرد على ثقافة التّشيؤ (تحوّل الكينونة البشرية إلى شيء ، وتحول العلاقات الإنسانية إلى تيارات ميكانيكية خالية من المشاعر والقيم المطلقة) .

وإذا حافظنا على سُمُوّ الحس الوجداني للإنسان في ظل البيئة الاستهلاكية الخانقة ، فإننا سنحصل على مجتمعات حية تكون فيها النظم الثقافية مغامرةً مستمرة واكتشافاتٍ متعددة مناوئة للسياقات الحياتية الغارقة في الملل والروتين الوظيفي . والحياة العادية القاتلة معلومة البداية والنهاية سلفاً لأنها محصورة في نطاق ضيق ، أمّا الحياة الثقافية الإبداعية فهي تجدّد دائم في أفق مفتوح على كل الاحتمالات والمغامرات . وهذا الأفق خالداً لا يشيخ بسبب امتلاكه لسر الشباب الدائم الذي تمنحه القصيدة للنسج الاجتماعي والطبيعة البشرية .

ومن الجدير بالذكر أن خلود النص الشعري ينبع من إشراقات الرّوح التي تمضي في طريقها كمبادئ اجتماعية ذاتية تحفر في الرؤية العاطفية طوفاناً الكلمات . وهكذا يمكن تجاوز كافة المآزق الناتجة عن زواج القمع السياسي والانهايار الفكري . والشعر سلّطة قادرة على تفكيك العُقد النفسية للأفراد والجماعات، وكسر الحواجز التي تحول دون التّقاء الإنسان بإنسانيته .

وهذه العملية التثويرية هي إعادة إنتاج للمجتمع . والولادة الشعرية هي ولادة للمجتمع الإنساني ، والجنين الشعري هو المعنى الاجتماعي المعاش . وهذا الترابط الاجتماعي الثقافي يعكس وحدة المسار والمصير المتمركزة بين الإنسان وثقافة الشعر .

مراحل ولادة الإيقاع في القصيدة

مما لا شك فيه أن الفكر المتجسد في أبجدية الشعر ينبع من حرارة التعبير وانسياب المعاني . وكلما زادت حرارة التجربة ، ذابت الفروق بين الشعر والنثر . والشعر لا تحدده الأوزان الشعرية بقدر ما يحدده الخيال الواقعي الصاق . وهكذا تتركز حرارة الأداء التعبيري في قلب اللغة الرامية إلى كسر الرؤى الشعرية الركيكة، وتوليد إيقاع شعري متفجر في روح أبجدية النص .

وبما أن الكلمة سلطة ، فإن امتدادها سيكون بالغ التكثيف والانتشار والتأثير في أوصال المجتمع، مما يدفع باتجاه صناعة عناصر لغوية ثورية ، وسكها في عوالم الكتابة الشعرية . وفي واقع الأمر ، فإن الشاعر الرائي لا يكتب ، وإنما ينحت في جسد اللغة تاريخاً جديداً للإنسان وأحلامه . وهذا النحت المتواصل هو شرعية التفاعل بين الكلمة وطبيعة المجتمع الإنساني . والرموز اللغوية المنتشرة في عوالم القصيدة هي متواليات عاطفية تربط التدفق الذهني بالصور الجمالية . وهذا يؤدي إلى تكريس اللغة الشعرية كأبجدية ذات رؤية استقلالية . وكلما وسعت اللغة أحلامنا ، وسعنا مستوياتنا المعرفية بأبجدية ثورية جديدة لا تخلع الأبجدية الأم .

إن كثرة الولادات الشعرية المتوافقة مع صياغة المجتمع الإنساني الجديد، ستضمن ولادة سلسلة للإيقاع في طبيعة الكتابة الشعرية . وهذه الولادة بالغة الأهمية ، لأن الإيقاع المتشظي في رئة اللغة، هو العنصر الأشد تأثيراً على مسار القصيدة وتماسكها . وإذا استطاع الإيقاع الحفاظ على خط سيره دون انحراف فإن انقلاباً شاملاً سيحدث في أبجدية الشعر ، وينتج لغةً مُحلقة ولا نهائية . وهذا يشير إلى ماهية القصيدة باعتبارها مساحة غير محدودة ، ونصاً مفتوحاً على كل الاحتمالات.

والشعر الحقيقي لا يمكن حصره في نقطتي بداية ونهاية ، ولا يمكن إخضاعه لقواعد تفسير متشعبة أو مواقف مسبقة وساكنة . وذلك لأن الفكر الشعري دائم الحركة ، فهو الذي يصنع الحراك الاجتماعي على مستوى الشعور العاطفي للأفراد، وحركة الجماهير على أرض الواقع .

فالشعر هو تحليل متجدد للعناصر الجمالية ، ومحاولات حثيثة لاستنطاق الواقع الخيالي من أجل إعادة إنتاج النَّفس البشرية بشكل مندمج بالكلية مع التجربة الروحية الشَّاسعة .
إن كلَّ قراءة للقصيدة هي قصيدةٌ جديدة ، وإعادةُ اكتشاف الأحلام البشرية المقموعة بفعل ضغط النُّظم السياسية ، واستحضارُ الأحلام المؤجَّلة بفعل ضغط الحياة المادية . وهذه الولادات المتشعبة المتكاثرة تضمن استمرارَ العوالم الشعرية إلى ما لا نهاية .

والتاريخُ القصائدي مفتوحٌ وعابرٌ لحدود الزمن ، لأن عناصر الماضي والحاضر والمستقبل تنصهر في بؤنقة شعرية واحدة . فالقصيدة تختزع زمنها الخاص بها غير الخاضع لحركة الأيام، وتكتشف تاريخها الخصوصي غير الخاضع لإرادة المنتصرين ووسائل الإعلام ، وتصنع تضاريسها الخاصة غير الخاضعة للطبيعة الجغرافية . لذلك تتكرس القصيدة كعالمٍ استقلالي يتمتع بالاكْتفاء الذاتي .

والكتابةُ الشعرية هي توسيع للأفق الاجتماعي لئلا ينتحر في دائرة مغلقة ميتة في مهدها . وأخطرُ التحديات التي تواجه المجتمع الإنساني هو الموتُ في الحياة ، أي تحرك الأجسام البشرية في نطاق اجتماعي ضيق دون أشواق روحية . وهنا تتجلى أهمية القصيدة في بناء التفاعل الإنساني الوجداني مع الإنتاجات المعرفية للحضارة التي تنقذ الفردَ ولا تقضي عليه . ولا فائدة من الحضارة إذا تحوَّلت إلى عبء على الأفراد، وطاحونة تقضي على أحلامهم ، وتحاصرهم في الزاوية الضيقة .

وإذا أردنا كبح جماح الحضارة والحيلولة دون تحولها إلى وحش مفترس ، لا بد من حقنها بمنظومة التوازن التي تُوجِّه شهوةَ الجسد في المسار الصحيح ، وتحافظ على السُّمو الروحي دون خدش . ويمكن الاستفادة من القصيدة في هذه المهمة ، لأن القصيدة هي الحضارة التي تكسر عزلة الأفراد ، وتأخذ بأيديهم نحو عوالم جديدة لم يتم اكتشافها .

والمنظومة الشعرية الحقيقية ليست مادةً استهلاكيةً يتناولها الفردُ كحبة مُنومة ، ثم يغطس في سبات عميق . فالشعرُ شُعلة اليقظة الممتدة من جسد الشاعر المتَّحد بعناصر الطبيعة (التراب والعشب والبحيرات والجبال ... إلخ) ، وحتى جسد القصيدة المتَّحد بعناصر الأمل (الثورة والأحلام والذكريات ... إلخ) .

إذن ، نحن أمام حالة معرفية تتسم بالبناءات الديناميكية من أجل تشكيل المجتمع الشعري الواعي لمسار الفكر الإنساني وتكويناته. والفكرُ الشعري هو شرعية الأسئلة التنويرية دائمة القلق

الإبداعي الرامي إلى صناعة عالم أقل توحشاً، ودائمة البحث _ كذلك _ عن الذات الإنسانية في قلب المجتمعات . والقصيدة هي منظومة وجودية تكسر الحصارَ المفروض على المجتمعات ، والذي يُكرّس السياسةَ كلعبة للأغنياء . وكسرُ الحصار يؤدي إلى فتح الأفق الاجتماعي أمام الجميع ، من أجل الإسهام في بناء الحضارة الإنسانية ، وترك بصمة في تاريخ الوجود الكوني .

السلوك الاجتماعي للثقافة الشعرية

تُجسّد الأبدية الخيالية قوة الواقع في أقصى تمرده وتدفعه وانفعاله، لذا فمن الطبيعي أن تكون اللغة كائناً حياً يواصل النمو، وفكرةً محسوسة في تفاصيل الهوية الثقافية للفرد الجمعي . وما يدفعنا إلى رؤية أبعاد الهوية الإنسانية داخل هوية اللغة الشعرية ، هو الاستعداد البشري الفطري لتوليد شعور قائم على النظر من زوايا متعددة للتجربة اللغوية العاطفية . فالشعر لم يأتِ للتسلية أو ملء وقت الفراغ . إنه توهج الفكر الجمعي للمجتمعات ، ومرجعية الإحساس المعرفي الثائر المتمرد الصادم ، ليس من أجل الصدمة ، وإنما من أجل إيقاظ الناس من العدم ، وزرعهم في نخاع المجتمع القادر على النفي والإثبات ، والنقد ، والنقض . ولا يمكن للمجتمع أن يمتلك حريته إلا إذا انتقل الأفراد من عالم الوهم إلى عالم الحقيقة ، ومن منهجية رد الفعل إلى منهجية الفعل .

وإذا تكرست منهجية الفعل الإبداعي في أوصال المجتمع ، فإن نظاماً ثقافياً سينشأ بعيداً عن التنميط، ونسخ تجارب الآخرين، وهذا الأمر بالغ الأهمية. إذ إن ترديد المقولات الجاهزة ، وتثبيت الأوهام المتوارثة كمسلّمات ، والرضا بالأفكار المعلّبة التي اعتاد عليها الناس ، كل هذه العناصر من شأنها صناعة مجتمع يرتدي قناع الثقافة ، ويقتل الأدب باسم الأدب ، ويلغي وجود القصيدة باسم القصيدة . والمجتمع الحقيقي هو الذي يجرؤ على طرح الأسئلة والبحث عن إجابات حاسمة لا تلفيقية . وهذا المجتمع الحي والحر ليس عنده ما يخفيه أو يخجل منه . ومن خلال هذا المنظور يتحول المجتمع الإنساني الثقافي إلى أبجدية جديدة لها حروفها الخاصة ودلالاتها المتحركة في مدارات مفتوحة على الإبداع حيثما وجد . وهذا الأمر يُحتّم علينا ترسيخ ثقافة الحفريات في لغتنا الخصوصية لنحصل على أبجدية خاصة بكل فرد مِنّا ، من أجل تكوين

لغة ثقافية للمجتمع نابعة من حرية التفكير الذي يقود إلى حراك اجتماعي حقيقي تكون فيه الثقافة العمود الفقري ، والقصيدة هي مركز الشرارة الأبجدية التي تطمح إلى إنقاذ المجتمع لا ابتزازه ، لأن الشعر ليس صفقة تجارية أو ورقة ضغط ، بل هو طوق نجاة للفرد والجماعة . وهكذا ، فإن الحياة الثقافية المتشكّلة وفق أبعاد متمردة على القوالب الجامدة للقصيدة ، سوف تزدهر كلما شيدنا العمليات السيكلولوجية التي تقود فعل الكتابة نحو ابتكار نظم اجتماعية عصية على التدجين ، وتأسيس حقائق وجدانية تتعامل مع جغرافيا القصيدة ، تلك الجغرافيا المؤرخة بتواريخ الرفض الذي ينقل الجماعة البشرية من طور الكبت إلى طور الانطلاق الواعي .

معالم وظيفة القصيدة

إن القصيدة لا تستمد شرعية وجودها من عناصرها الجمالية فحسب ، فهي منظومة إنسانية متكاملة تعبر حدود الأبجدية اللغوية نحو تكوين أبجدية اجتماعية متماسكة تنقل المجتمع البشري من الانغلاق إلى الانفتاح ، ومن الإقصاء إلى الاحتضان ، ومن العنف إلى الحوار ، ومن القمع إلى الحرية . وهذا الدور الوجودي الهام التي تضطلع به القصيدة يعكس أهمية الإبداع في نهضة المجتمع ، والعلاقة الوثيقة بين الفنون الأدبية وبيئتها الاجتماعية . ولا فائدة من الأدب إذا ظل حبيساً في جبر الكتب والجرائد . ولا فائدة للفن من أجل الفن . وهذا يشير إلى ضرورة تثبيت الفكر الإبداعي في أوصال المجتمع لكي تختلط الثقافة بالطبيعة البشرية ، بحيث تصبح العلاقة بينهما تكاملية غير قابلة للانفصال . وعندئذ سوف ترسخ القيمة الفكرية كطوق نجاة للفرد والجماعة .

ومن أجل كسر عزلة النص الشعري وغربته المتفاقمة ، لا بد من إنهاء غربة الفرد روحياً ومكانياً . وهذا لا يتأتى إلا عن طريق اعتبار خصائص المجتمع البشري وحدات أولية لأبجدية الشعر اللغوية ، الأمر الذي يؤدي إلى بعث الحيوية في داخل الثقافة القصائدية . وكلما غاصت القصيدة في مشكلات الحياة اليومية وأزمات الإنسان ومعاناته ، ازداد تعلق الجمهور بالشعر واعتباره خط الدفاع الأول عنهم . وعندئذ تحصل الثقة المتبادلة بين الفكرة اللغوية والفكرة الاجتماعية . وهذه الثقة بالغة الأهمية ، لأنها زواج شرعي بين الشروة الإنسانية والسلطة الشعرية من أجل إنقاذ المجتمع لا سرقته . وإذا حافظنا على ديمومة هذا الزواج فإن المجتمع الإنساني سوف يعيد اكتشاف نفسه ، وترتيب أوراقه ، واستئصال نقاط ضعفه ، وتدعيم مراكز قوته . كما

أن القصيدة ستسعى إلى اكتشاف ملامحها العابرة للحدود، لأن القصيدة الحقيقية إنما تكون وراء القصيدة ، والمعنى الحقيقي إنما يكون بين السطور . ومن خلال هذا الحراك الثقافي والاجتماعي يتولد تاريخٌ جديد يوازن بين المعطيات الشعورية للفرد والحياة الاجتماعية الضاغطة، ولا يعتمد على نفي العناصر الإنسانية ، أو انتهاج سياسة الإقصاء . والقصيدة الحقيقية تسترجع تاريخَ العناصر المنبوذة ، لكي تعيد دمجه في السياق الطبيعي لحركة المجتمع، وتسترجع _ كذلك _ قيمَ الرفض التي تم إقصاؤها ، من أجل إعادة إنتاجها بما يضمن صناعة مجتمع الحوار وتعدد وجهات النظر الداعمة للحراك الشعبي الإيجابي. لذا فإن القصيدة _ باعتبارها منظومة إنقاذ عامة _ تعمل على توجيه كل الجداول في نهر واحد ، وإعادة القطار الإنساني إلى السكة . وهذه هي وظيفة القصيدة في قلب المجتمعات الحية .

الرؤية لمبرمج القصيدة

تتجلى أهمية القصيدة في كونها استثماراً في جسد اللغة الحي والحركة الطبيعية للتاريخ. وبالتالي فإن الكتابة الشعرية تخترع تاريخاً جديداً للعناصر . مما يدفع باتجاه تعميق الدلالة الواعية للبناء الاجتماعي الذي يسر أغوار المجتمع الذي يعيش فينا على شكل أفكار وقصائد وتجارب فلسفية وجدانية تأخذ بأيدينا نحو الضفة الأخرى للخلم ، حيث تقيم ثقافته الأسئلة مملكتها الكبرى .

ومن خلال ترسيخ الفكر الشعري كحالة معرفية عمومية ، فإن مبدأ التجاوز سوف يتجذر في الجسد القصائدي ، أي إن تدفق القصيدة السلس والعارم سيجعل تقنيات النص الشعري تتجاوز ذاتها نحو شكل ثقافي أكثر تأججاً . وهذه الشكل القصائدي الذي يلد نفسه باستمرار ضماناً حقيقية للخلود والديمومة، لأنه عملية تكاثر مستمرة لا تتوقف. والكتابة الشعرية هي خلايا فكرية مشتعلة تواصل لمعانها بفعل تراكمها وانقسامها . وهذا الانقسام لا يعني تشتت الفكر الشعري وضياعه ، وإنما يعني كثرة الولادات وتزايد الفروع التي تنتهي إلى أصل واحد (القصيدة) .

إن البنية الفكرية المرتبطة بتأثير القصيدة في الزمان والمكان نابعة من ثنائية (الحراك/ التحريك)، أي صناعة حراك اجتماعي فعّال وقادر على احتضان الجميع بلا إقصاء ، وتحريك الماء الراكد في المجتمع عبر كسر الجمود والملل الوظيفي. والمجتمع المشلول بحاجة إلى

الصدمة الكهربائية (القصيدة) التي تعيد الحياة إلى الخلايا الاجتماعية الميتة . وهنا تبرز أهمية الجرعات الشعرية في صقع الجسد المريض لإحيائه .

ومن خلال هذا الدور الثقافي الفعال في الإطار الاجتماعي ، تتضح أهمية الأبدية الشعرية التي تقاوم على كل الجبهات . فالشعر أبدياً تلد نفسها لتعيد الحياة إلى المجتمع ، وهذا الالتصاق الوثيق بالحياة يُعطي الشرعية لكل الأشكال الثقافية الطامحة إلى تحرير الجماعة البشرية من الخوف والوهم .

وكلما بحثنا عن أدوار اجتماعية للنص الشعري ، اكتشفنا نقاط القوة في كيان المجتمع . فكثير من المجتمعات تظن نفسها ضعيفة مع أنها عكس ذلك . وهنا يتجلى دور القصيدة في رؤية ما لا تراه العين المجردة . وبالتالي فإن النص الشعري _ في حقيقة الأمر _ عبارة عن مجهر يكشف لنا العناصر الماورائية . ممّا يقود إلى اكتشاف رموز جديدة لتاريخ الحلم الاجتماعي ، وتكوين تفسيرات جديدة للسلوك الشعري وارتباطه بالحلم الإنساني الطامح إلى التغيير .

انقلابات الكتابة الشعرية

إن الكتابة الشعرية تُوجّه الأبدية نحو تحطيم صخرة الهزيمة الجاثمة على صدور البشر ، والتي تمنعهم من اكتشاف ذواتهم ومجتمعاتهم . فالقصيدة أملٌ جديد لحياة فضلى تستند إلى قوة المجتمع ، الذي يحاول فكّ طلاسَم مآزقه الوجودي ، كي ينتقل من طور التبعة والهزائم الروحية والمادية إلى أطوار الحلم الذاتي والتنقيب المتواصل، التنقيب عن الإنسان وعواطفه، واكتشاف مدى أحلامه وتجذيرها بما يتلاءم مع رؤية الهوية الحضارية .

وكما أن الأفق الشعري يُسلّح الأبدية بالقيم الثورية النبيلة لمواجهة انكسارات الحلم ، فإن الأبدية تُسلّح المجتمع الإنساني بالعاطفة القادرة على مواجهة التحديات المصيرية . وعملية التسليح هذه من شأنها منع الذاكرة الإبداعية من التآكل ، وحماية المجتمع الإنساني من التحول إلى جثة مُحنطة . والفاعلية القصائدية هي الضمانة الأساسية لاستمرار الحركة الإنسانية بكل تأجج وتدفق وسلاسة . الأمر الذي يضخ الدم في شرايين المجتمع بشكل دائم ، لذا فإن الثقافة الشعرية تحرس الوجود البشري من الموت البطيء والسريع على السواء . والقصيدة _ بما تملكه من تقنيات إبداعية وآليات فكرية _ تبعث الخلود في أوصال المجتمع ، وتنقله من تحديات الغياب إلى عنفوان الحضور، ومن هواجس الانطفاء إلى فاعلية اللمعان. وفي ظل هذا الجو

الثقافي الحقيقي يتزايد الاعتراف بشرعية النشاط الحيوي الهادر لهذا الكائن الحي المتفوق (القصيدة) .

وكما أننا نستثمر في جسد القصيدة لنؤكد من جديد ، فإن القصيدة تستثمر فينا ليتعزز وجودها في الذاكرة البشرية تاريخاً للحلم المنبؤ، وجغرافيا للحالم المنفي. وبعبارة أخرى ، إن النص الشعري يخترع _ بصورة متواصلة _ أمكنة وأزمنة جديدة ، ويؤجج العناصر الرمزية للهوية الإبداعية لنلا نصيح جزءاً ماضوياً يرتدي قناع المستقبل . وكلما مضينا في سبيل تفعيل الوعي الإنساني بالعناصر الشعرية ، اكتشفنا القيمة الرمزية الماورائية للزمان والمكان .

والزمان الجديد الذي تبكره القصيدة ، يُعطي للوجود الخيالي بعداً واقعياً شديد التماس مع الحاجات الإنسانية . أمّا المكان الجديد الذي يُؤكد من رَحم القصيدة ، فيُعطي لبنية الثقافة العمومية زخماً حضارياً متفاعلاً مع الإنسانيات المتمردة . وهذا التشابك المتين بين عناصر المجتمع البشري ، يضع الثقافة في أقصى مداها الاجتماعي ، بحيث يتحول الفرد إلى صانع للأحداث وليس متفرجاً عليها ، وتتحول البنى الاجتماعية إلى خلايا نحل دؤوب .

الثقافة الشعرية والثورة الاجتماعية

إن اللغة الشعرية هي تاريخ الثورة وجغرافيا الأحلام التي تظل تطرح أسئلة المسار والمصير ، وتثبت الوعي بالمكتسبات الحضارية . ومن هنا تنبع أهمية الاتجاهات الشعرية الحيوية في تدعيم التفاعل اللغوي مع الأبعاد الاجتماعية للأبجدية الذهنية العائشة في الواقع الصاعق ، من أجل تحويل المجتمع الهامشي الذي فقد الثقة بنفسه _ بسبب ابتعاده عن مرجعية الهوية الحضارية المركزية _ إلى مجتمع مؤثر واثق بنفسه ، يثبُ قيمه الحضارية في كل الاتجاهات ، ضمن منهجية تصدير شامل للثقافة المعرفية الحقيقية ، ليس بهدف استنزاف الآخر حتى الرمق الأخير، وإنما بهدف انتشال الذات الكلية من الدوبان في الذوات الجزئية، ومنح الأمل للذين يفتقدونه، ومد يد العون للآخرين من أجل إنقاذهم معرفياً .

والتصور الذي تحمله الأبجدية الشعرية عن العالم ، ينطلق من الأبعاد الحضارية لهوية مركز المعنى، وهكذا نضمن تنويراً متواصلاً تفسيراً للمنحى الأخلاقي المتأجج . ولأن تكريس الذات الإنسانية وإعطاءها بعداً ثقافياً كلياً امتداداً لوجود القصيدة كطُور لا بد منه في تشكيل الوعي

المجتمعي، كان لزاماً تحويل الأنساق الاجتماعية السلبية إلى مدلولات وظيفية قادرة على تنقية بُنى الخيال الواقعي ، وتدعيم الذاتية الجماعية بأسس صلبة تأتي من المعرفة السببية للتفسير الأدبي الذي لا يكتفي بالنقد المجرد ، وإنما يُزَوج بين النقد التطبيقي والشك المنهجي ، ويتفاعل مع الوظيفة الاجتماعية لعناصر الطبيعة المحيطة بنا .

والتفاعل بين الثقافة القصصية والثقافة الاجتماعية ، يحول دون تحول النص إلى ماديات متراكمة موهلة في الرموز المبهمة التي تصل إلى حد الطلاسم . وتحول النص إلى أحجية مُشَفَّرة سيحشر الثقافة في خانة الشعوذة ، ويؤدي إلى تفكيك دور الثقافة المحوري في انتشال الفرد والجماعة من المأزق الوجودي التراكمي .

ومن أجل زيادة التصاق الجماهير بالبعد الثقافي الحياتي ، لا بد من تفعيل الإشارات الاجتماعية في جسد التطور الشعري . وفي هذه الحالة تنشأ علاقات مُصَاهرة بين المجتمع والثقافة ، ممّا يؤدي إلى الارتقاء بتاريخ الفرد بعيداً عن الترميط ، ورفع مكانة الجماعة فوق أسوار التدجين ، ورفع منطق القطيع الذي يُقاد ولا يقود .

بصيرة الفعل الشعري

تنجلي قوة الأبعاد الاجتماعية للقصيدة في التصاق القيمة الشعرية بالمفردات اليومية للإنسان العادي بصورة خالية من التعقيد أو الابتذال . وهذا الالتصاق الحتمي يجعل من العلاقات السيكلولوجية طريقاً لاكتشاف أعماق النص الشعري بشكل يتماهى مع البؤرة المركزية لمجتمع القصيدة .

واللغة هي أنوية متفجرة على الدوام دائمة البحث عن معنى ، ودائمة التشظي من أجل لجم الهستيريا الوحشية التي ترتع فيها مجتمعات كثيرة لا حُلم لها سوى اللاحلم . ومن هنا تبرز المهمة الثورية للشعر التي تُحوّل فعل الكتابة إلى تيار مناوئ للتوحش في العلاقات الإنسانية ، الذي يُغذّي الفقر والبطالة والجهل والكبت والتطرف .

والكتابة الشعرية تقضي على فكرة " الخوف من الحلم " المنتشرة في المجتمعات المقهورة . إذ إن أفضل طريقة للتخلص من الخوف اقتحامه ، وبذلك ينكسر حاجز الرعب إلى الأبد . وهذا يشير إلى أن الشعر رأسُ حربة في معركة الإنسان الطامح لإعادة اكتشاف إنسانيته في زحمة الأضداد ومتاهة الأسئلة .

ومما لا شك فيه أن التفاعلات السيكلولوجية المرتبطة بالفعل الشعري الإبداعي، تهدف إلى خنق الأساسات الفكرية للوهم الذي يحتل كثيراً من المجتمعات البشرية . وهكذا تغدو الكتابة الشعرية حياة جديدة ضد الخرافات التي تُروّجها الأنظمة القمعية بُغية إدخال الناس في حالة ذهنية تجريدية منقطعة عن الواقع، وبالتالي يتم ضمان بشر مُدَجَّنين لا يملكون أن يعترضوا حتى لو أرادوا ذلك .

وتتمثل الأهمية الفلسفية للفعل الشعري في القدرة على علاج الغمى المجازي المتكاثر في المجتمع، وحقن عيون الغميان بقوة البصيرة التي ترى ما وراء الطريق المسدود. وهذه هي نقطة قوة القصيدة في مواجهة الأنظمة السلطوية . فالاستبداد يُحوّل الناس إلى غميان ليسهل حُكْمهم واقتيادهم إلى الهاوية دون اعتراض ، أمّا الشعرُ فيفتح عيونَ الناس لكي يختاروا طريقهم بأنفسهم ويميّزوا الغث من السمين دون وصاية من أحد . ولا يمكن للفرد أن يجد كيانه وسلطته الاعتبارية اعتماداً على الخبز وحده. فالأشواق الروحية لها دور محوري في وضع القطار الإنساني على السكة لنلا يصطدم بالجدار . والقصيدة تتيح لنا اكتشاف أرواحنا ، لأنها الشكل الأدبي القادر على تعرية الواقع ، وتخليص النفس البشرية ممّا علّقَ بها من شوائب تحت ضغوطات الحياة .

معركة القصيدة

إن التأثير العام للشعر باعتباره صانعاً للتاريخ الشامل ، سوف يتواصل على شكل متواليات تكاثرية ، تهدم الدلالات الوهمية للعلاقات الاجتماعية ، وتبني الأفكار المركزية التي تصقل المنحى الفلسفي في الجسد القصائدي .

وهكذا تتركز أهمية النص من خلال منظور (الهدم / البناء) الذي يعيد الحيوية والحراك الاجتماعي لعوالم القصيدة ، وينقل الفرد من حالة الفراغ إلى ماهية الإبداع . مما يؤسس لحالات ولادة مستمرة ومتشظية في أوصال المجتمع الكلماتي والإنساني .

والمجتمع الثقافي لا توجد فيه حالات غُقم نهائياً . والولادات المستمرة في النص تعيد تعريف الزمان والمكان ، والألفاظ والمعاني ، وطبيعة البنى الفوقية والتحتية في الذات الأبجدية. لذلك نجد أن القصيدة تخترع مجتمعتها الخاص بها ، وتبتكر أبجديتها الذاتية التي يتم تعميمها في أنساق المجتمع البشري . وكل هذه العوامل تؤسس وعياً متحركاً في البنى الإنسانية والمجتمعية ، وتمنع تحوّل الجماعات البشرية إلى كيانات مُغلقة وجُزر معزولة . ومن خلال هذا

المنظور ندرك سبب حيوية المجتمع المثقف ، واستحالة تحوُّله إلى جثة هامدة . إذ إن ثورية القصيدة تقود _ بالضرورة _ إلى تشوير المجتمع وحراسته من الجمود . فالجمود هو المسمار الأول في نعش المجتمع ، ومقبرة الحضارات .

ولا تقف أهمية النص الشعري عند تحريك الماء الراكد ، أو إجراء تنفس اصطناعي للجماعة البشرية . بل تتعدى ذلك إلى تحريك المستويات العاطفية للإنسان ، من أجل نقل المجتمع من هوس اللامبالاة إلى قلب الأحداث ، والتعامل مع العناصر المحيطة بالذات الإنسانية دون خوف أو أفكار مُسبَّقة (حواجز نفسية) .

والإنسان الخائف هو كائن مشلول لا يقدر على صناعة الإبداع ، ومن هنا تصبح الكتابة ضد الخوف إحدى أركان القصيدة في معركتها الوجودية لتحرير الجزء والكُل في الإطار الاجتماعي . وكما أن القصيدة تُحرِّر المجتمع من الخوف ، فهي أيضاً تتحرر من القيود التي تفرضها السلطات الأبوية التي تعطي لنفسها حقَّ الوصاية على الأفكار والناس . ويقدر ما تُؤثِّر الكتابة الشعرية في مجتمعها الإنساني بقدر ما تتأثر بالعناصر الإنسانية . وبالتالي فليس غريباً أن تصبح القصيدة كائناً حياً ذا لحم ودم .

واعتماداً على النزعة القصائدية المتمردة التي تسعى للصدام المباشر مع أوهام الفرد وأمراض المجتمع ، يتم تأسيس الفكر الشعري الحقيقي الذي يُخفِّف العبء عن كاهل الإنسان ، ولا يصبح عبئاً جديداً . والفكر الشعري الحي والحر حربٌ مستمرة ضد العدم والفراغ . ومن خلال هذا البعد الفلسفي العميق ، تتضح هوية الشعر باعتباره صراعاً من أجل الإنسان . وأدوات هذا الصراع هم البشر أنفسهم . ولا مفر من المواجهة الشاملة مع مشاريع تدجين الجماعة البشرية ، وإعلان الحرب على الخرافة نسقاً وفكراً ومرجعيةً .

*

الفكر الانفلاحي في الممارسة الشعرية

لا يخفى أن الكتابة الشعرية هي طريق التحرر من ثقل العناصر المادية الضاغطة على الذاكرة البشرية . ومن هذا المنطلق فإن المنهجية الشعرية تصير حارساً لأحلام الإنسان، حيث تمنحه شرعيةً التواجد في هذا العالم وترك بصمته. لذا ، فليس غريباً أن يحتمي الإنسان بالشعر . فالشعرُ تكريسُ حلم الدفاع عن الكيان البشري ضد التوحش ، وتجذيرُ هوية المعنى الوظيفي في حياة الفرد والجماعة ، وترسيخُ حضارة الأبداعية الشاملة للفضاء الإبداعي الحتمي .

ولا يتأتى للشعر أن يقوم بهذه العملية الثورية ، إلا في ظل وجود إرادة تهدم مجتمع الأصنام ، وتبني مجتمع الأسئلة والنقد . وهكذا تتحقق معنى الثورية الأدبية التي تمهد لإعادة صناعة الحلم الإنساني الحاسم والنهائي عن طريق إسقاط حضارة الفوضى وحراسها .

ومشروعُ النص الشعري قائمة_بالأساس _ على حشد العناصر الاجتماعية ضد التشكيلات السطحية التي هي بمثابة حصيلة جدلية عابثة . والكتابةُ الإبداعية القصائدية هي محاولة مستمرة لرفع مستوى الذهنية التي تنقلب على كل الظواهر السلبية .

ومن الأهمية بمكان أن ندرك ماهية الفكر الانقلابي في فعل الكتابة على صعيد التغيرات الاجتماعية ، حيث البحث عن مجتمع جديد قادر على الوقوف على قدميه . وأيضاً على صعيد الطبيعة القصائدية ، حيث الصور اللغوية المتفجرة والدلالات النفسية الجمعية التي تعكس الانزياح الوجداني في الذات الشاعرة ، وثُبِتَت الطبيعة المتفردة للأبجدية المحلقة خارج الأطر المعرفية الناقصة التي ترتع في الجمود المستهلك .

ومن الواضح أن بنية النص الشعري الحي قادرة على التغير والتغير في ذاتها ومحيطها ، وإحداث انقلاب جذري في الفكر والممارسة ، وهذا مرجعه إلى عدم اكتفاء القصيدة بتوليد تقنيات جديدة ، بل أيضاً العناية بالصلاية الذهنية التي تعطي للدلالات اللغوية مدى أكثر اتساعاً ونفوذاً .

والدلالة اللغوية التي هي الحامل للفكرة والناقل للتحليل النفسي المجتمعي ، تتحقق وفق أطوار بنائية متغيرة بتغير الأشخاص والزمان والمكان . والموقف تجاه اللغة الحية هو اتصال منطقي مع العناصر المنحازة للجمال الروحي والمادي . وتعبيرنا عن الذات الإبداعية الكامنة فينا هو امتدادنا في جسد الرؤية العاطفية النابعة من القوة لا الضعف .

ويسبب التنوع الخلاق في البنى الفلسفية الملتصقة بوجودنا المادي ، أصبح للقصيدة سيطرة على توجهات المنحى اللغوي للاجتماعيات الأبجدية . ووفق هذا المبدأ ، كلما توغلنا في القصيدة اكتشفنا أبعاد ذواتنا الاجتماعية غير المنظورة ، وكلما توغلنا في ذواتنا اكتشفنا معانٍ شعرية لمعنى وجودنا الإنساني ، ضمن منظومة متكاملة من الانفجار اللغوي والتقدم الاجتماعي .

*

التجاوز والصراع من منظور الشعر

إن القصيدة تؤسس مشروعية وجودها وتواجدها وفق الصيغ الاجتماعية الباحثة عن أنساق اللغة الحية . وهكذا تندفق الصياغات المستشرفة للمستقبل اللغوي في شرايين الصور الشعرية التي تنقل الفرد من الجمود العاطفي إلى الثورة الوجدانية الشعورية. وكلما ازداد شعور الفرد بالجماعة، اتسع المنظور اللغوي لأشكال التعبير المركب. والسبب في ذلك يعود إلى كَوْن الجماعة هي الدائرة الواسعة المتميزة بالخصائص الذاتية التي تُساند هوية الفرد ، وتعمق انتماءه إلى المجتمع الذي يعيش فيه ، ويحلم بأن يُغيّره نحو الأفضل . وهذا الحلم بالتغيير عبارة عن محاولات جريئة لتفسير الحياة الديناميكية للمجتمع الإنساني .

والقصيدة لن تقف مكتوفة اليدين أمام حُلْم التغيير المجتمعي ، بل ستساهم في صياغة الأبعاد المعرفية للشعور الإنساني ، ونقله من الأطر المقموعة إلى التطبيق الواقعي . والقصيدة مرآة لا تكمن قوتها في ذاتها فَحَسْب ، بل أيضاً في قدرتها على امتصاص الصور وعكسها ، وتوليد رؤى جديدة تتمتع بالاستمرارية الفكرية، والتواصل التاريخي بلا قطيعة بين الأجيال . والجدير بالذكر أن

الفكر القصائدي يعيش في وجدان الناس وسلوكهم اليومي . وأيضاً، إن الناس يَرَوْنَ أنفسهم في القصيدة التي تحضن أحلامهم ولا تستخف بها . وعملية الاحتضان تمنح القصيدة القدرة على عكس جوهر الإنسان وظاهره، وصقلهما وفق شكل يعيد للمنظومة الاجتماعية ثقتها بنفسها . ويمكن القول إن قوة القصيدة لا تتمثل في هيكلها الذاتي المحدود فَحَسْب ، بل أيضاً في أبعادها الاجتماعية ، وإسقاطاتها الرمزية ، وشظاياها التي لا يمكن التنبؤ بمداها وتأثيرها . والنصُّ الشعري ذاكرة ضد النسيان والإقصاء . إنه نصُّ كيانٍ ووجودي يعمل على تخليد اللحظة الآنية، ونقلها إلى المستقبل الذي يتمتع بالديمومة، والحيوية، والقدرة على التجاوز وصهر المراحل. والقصيدة الحقيقية قادرة على تجاوز نفسها ، والتأسيس لمرحلة مابعد النص الشعري. وهذا لا يمكن أن يُصيح واقعاً عملياً، إلا بتجذير الأطروحات الرمزية كمنهجية فاعلة ، وأرضية خصبة للتنظير لمرحلة ماوراء الفعل القصائدي، أي ماوراء الحلم الاجتماعي. وهذا العمل الفكري الدؤوب القادر على التجاوز ينطلق من توليد أبجديات جديدة ذات جوانب روحية ومادية . وبواسطة تحديد المستويات المعرفية للمعنى ، يمكن استنباط كينونة مسارات الشعر المُدعَّم بالفهم الذاتي لمسار التاريخ ، وحتمية الاصطدام بين أجزائه . والصراع بين الحقيقة والوهم هو المعنى الحقيقي للوجود الشعري الإنساني .

القوة الدافعة للنص الشعري

إن عنفوان التحولات المجتمعية في عوالم القصيدة يدفع باتجاه مزيد من الانسجام بين جزئيات اللغة المتأججة . وأيضاً ، إن مفاهيم بناء المعنى الشعري تدفع باتجاه توليد تطبيقات إنسانية داعمة لتكامل الوعي بالذات ومحيطها . الأمر الذي ينقل النصَّ الشعري إلى العالمية ، ليس بالمعنى الجغرافي فَحَسْب ، بل أيضاً بالمعنى الفكري التثويري . وإن عالمية النص تستلزم أن يكون مستوى الوعي الفكري والعملي ضمن منهجية محددة السُّبل والأهداف ، لئلا تغرق الكتابة الشعرية في جدليات النفي والنفي المضاد، والتي تؤثر على مستويات الأبنية المعرفية في جسد المجتمع وكيان الأجدية .

والنواة المعرفية للقصيدة _ بكل امتدادها الجوهرى والشكلي _ ، تستمد شرعية وجودها واستمرارها من القدرة على طرح أسئلة مستقبلية دائمة البحث والنشطي. وبالطبع لا بد أن تكون الأسئلة طموحة تكشف أهمية الدلالات البشرية في التعامل مع العناصر الثورية للكلمة ذات

الجدور الاجتماعية المتمردة على القوالب الجاهزة ، التي تُروّجها أيديولوجيات القمع السياسي في المجتمعات المكبوتة. وبالتأكيد ، إن الأسئلة المركزية _ التي لا تستسلم _ هي القوة الدافعة للنص .

وكما أن احتكاك عظام الإنسان يُؤلّد الحركة ، فإن احتكاك القصيدة مع عناصر المجتمع الواقعية والخيالية يُؤلّد حركة أبجدية التغيير في أوصال الجماعة البشرية . وكما أن الاحتراق في محرك السيارة يُؤلّد الحركة ، فإن احتراق المستويات الشعورية في قلب القصيدة ، يُؤلّد حركة الثقافة الشعرية في مسارات الفكر الإنساني الطامح إلى التغيير، وانتشال المجتمع من مأزقه الوجودي الحاد . ووفق هذا المنظور يتجذر الاحتكاك والاحتراق كقوة دافعة للمجتمع ، تنطلق من كيان النص الشعري ، ولا يمكن إيقافها ، ولا يمكن رسم حدود لها ، لأن القوة الدافعة هي اشتعال متواصل ومنضبط ضد الانكماش والفوضى .

والنصُّ الشعري هو نقدُ النقد . إنه القوة التحليلية للتساؤلات المصيرية التي تتعامل مع الإنسان بوصفه صانعاً للأحلام، وحاملاً لمشعل الطموحات الإنسانية المندفعة . لكنَّ درب القصيدة نحو اكتشاف قوة التغيير الإنساني ليس مُعبداً بالورود . والمحاولاتُ الشعرية الرامية إلى تنقية العقل الجمعي والوجدان البشري الإبداعي من متواليات الفراغ، ستصطدم بالسلطات القمعية التي تُرغم الشعب على الرقص وفق إيقاع واحد (إيقاع السُّلطة الحاكمة) . وواجبنا تجاه هذا التحدي أن نوجد زخماً فكرياً مبنياً على ثورية اللغة الناقلة لتدفق الأحاسيس والرؤى . وهذه المحاولات ينبغي ألا تنحصر في دائرة رد الفعل، بل علينا نقلها إلى أنساق الرؤية الشاملة لمصير الرمزية الثورية الذي ينحت في القصيدة رؤية المعنى وآفاق اللفظة .

وهكذا تبرز الفلسفة الكامنة في الأفق الشعري كدليل جديد على قدرة الأسئلة المصيرية على توليد حيوات متجددة . ومن هذا المنطلق فإن الشاعر _ في حقيقة الأمر _ لا يموت ، وهو موجود عبر الحقب الزمنية المختلفة وفق مسار متواصل لا ثغرات فيه ، لأن نهاية جسد الشاعر هي بداية جديدة لروحه . وموئته _ بالمعنى المادي الظاهري _ يُعطي حياةً جديدة لقصيدته . فالشعرُ قادر على توحيد الزمان والمكان في كيان واحد ، وهذا الكيان يتحد مع الشاعر ليُكوّن كائناً حياً خالداً لا ينتهي ولا يفصل .

وسوف يتم تأسيس ثورة اجتماعية حقيقية من خلال توظيف الاستعدادات الفلسفية لفهم طبيعة الزمكان (الزمان / المكان) ، وعلاقته بالقصيدة القادرة على جعل الزمان مكاناً ، والمكان

زماناً . وذلك لأن القصيدة وعاء ضخم يتفجر فيه الزمان أو يقف ليحبس أنفاسه ، ويتحرك فيها المكان ليلاّمس طبيعة الإشارات الفلسفية لقوة الرمز المعبر عن كينونة الإنسان ، وأحلامه القريبة والبعيدة .

*

حكومة الثقافة

كل منظومة ثقافية هي — بالضرورة — نسقٌ ناقدٌ للانقياد المجتمعي الذي تعززه هيمنة المفاهيم السلطوية النابعة من أيديولوجية القهر الحاكم. وهذا النسق الناقد للسلبيات يعكس موقف الثقافة الداعم للإنسان المحاصر بالأزمات المعرفية والضعوطات المعيشية والأسئلة المصيرية . وحينما يتلاحم النسق الفكري لمنظومة الإنقاذ الاجتماعي مع موقف الأفق الثقافي من قضايا الإنسان ، فإن النتيجة هي تحرير الفرد من الخوف والملل والشعور بالهزيمة . وعملية التحرير تجعل الفرد يشعر بأهميته وجدوى وجوده ، وأنه ليس حجراً على رقعة شطرنج تتلاعب به الأيدي القادمة من الأعلى، أو دمية في مسرح للعرائس تحركها الأيدي المخفية وراء الستار . ولا يمكن للمجتمع أن ينهض إلا إذا تم تأسيسه على قواعد الثقافة والمعرفة الشاملة، وهذا لا يتأتى إلا في ظل وجود أفراد يملكون قرارهم وغير قابلين للتدجين . ومن هنا تنبع حتمية شعور الأفراد بكيانهم ودورهم

المحوري كخطوة أساسية لنقل تطبيقات العقل الجمعي إلى الواقع . والمشكلة الاجتماعية التي تحاصر المجتمع وثقافته ، تكمن في قناعة صناع القرار في الدول البوليسية بأن العقل المفكر يُشكّل خطراً على نظام الحكم ، وبالتالي يجب محاربة الإبداع بشتى الطرق . فالحُكم الاستبدادي لا يريد شعباً حياً ، بل يريد قطعاً من الأموات ، يُساق إلى الذبح دون اعتراض ، وذلك من أجل تفادي المعارضة والمساءلة والمحاسبة .

وفي ظل هذا التحدي الصادم ، يتضح دور الثقافة كرأس حربة في مقاومة المشاريع القمعية الرامية إلى إقصاء الشعب وعدم الاعتراف به . ولن يصل المجتمع إلى حالة التوازن العاطفي الراقي، والتطور الشامل في كل المجالات، والنهضة المعرفية المتفجرة ، وتوليد الأنساق التنموية المنعكسة على وقائع الحياة الاجتماعية بكل تشعباتها ، إلا إذا صارت الثقافة حكومة قائمة بذاتها تنتشل المجتمع من فخ التخلف والتبعية ، وترعرعه في فضاءات الحرية والازدهار . وتحول الثقافة من نظرية مجردة إلى جسم سياسي فاعل، هو الخطوة الأساسية لكسر عزلة الفرد والجماعة ، وصناعة دولة الحق والعدالة والتقدم . وكل دولة تبني وجودها على المادة وتُقضي الثقافة ستسقط _ لا محالة _ ، لأن الخواء الروحي هو العدو الأول للإنسان ، وهو _ أيضاً _ مقبرة الحضارات . ولا يمكن القضاء على الخواء الروحي بالترسانة العسكرية أو القوة الاقتصادية ، وإنما يُواجه بالقوة الثقافية المدعومة بالاستثمارات المالية . ومن هذا المنطلق ، يتضح أن الإنفاق على الثقافة ليس ترفاً أو إضاعة للوقت والمال . بل هو استثمار ضروري لمنع سقوط الإنسان ، ومنع انهيار الدولة .

الشعر وعسكرة المعنى

لا يمكن حصر النص الشعري في إطار جماليات اللغة فَحَسَب . فالهدف من فعل الكتابة هو توليد الأفكار المنهجية التي لا تكتفي بالتواجد على الأوراق والرُفوف ، وإنما تخرج لتغيير الواقع وطرائق فهمه ، واستيعاب مرجعيته السلوكية . وهذا يؤدي إلى تفعيل الأفق الرمزي الصادم في اللغة المتشظية كخطوة لا بد منها في سبيل توليد مجتمع يخرج من رجم القصيدة ، وتكوين قصيدة تحمل أحلام المجتمع .

وهذه العلاقة التبادلية تتيح الفرصة للقيم الاجتماعية الثقافية أن تتكاثر في بيئة حاضنة للإبداع دون عوائق . ومن الأهمية بمكان تنسيق امتدادات الرؤية الاجتماعية التي تصنع الكينونة الإبداعية

للفرد المُنتج. وبالتأكيد، إن المستوى الشعوري الثقافي لا يمكن أن يتفجر بدون حاضنة اجتماعية

وكلما كان المجتمع البشري ناضجاً بما فيه الكفاية لاحتضان الأفكار ، تجذرت أبجديات الفعل الثقافي في أوصال الحلم البشري ، بحيث يصبح من المستحيل فصل المجتمع ومؤسساته المركزية عن الثقافة ، أو فصل الثقافة عن الحياة الشخصية للأفراد .

وإمكانية التوفيق بين القوى الذهنية للأفق الاجتماعي وبين الواقع الرمزي للنص الشعري ممكنة إلى درجة كبيرة. وهذا التوفيق يظل عاملاً أساسياً من أجل صناعة جيل شعري يخترع المسارات الوجدانية في مركز القصيدة المولودة من ذاتها ، والمتكاثرة بفعل عنفوان أنويتها المعرفية المتشعبة في كل الجهات.

وهذا التكاثر الاستقطابي يُزود المجتمع البشري بأنساق رمزية جديدة قادرة على التعامل مع الفكر الشعري بوصفه مُعادلاً للحياة الإنسانية ، ومُعادلةً استشرافية لما وراء الجسد السجين في الأطر الاستهلاكية الضاغطة .

وإذا وجد الشعر بيئة حاضنة له، فإنه سيحمل أحلامها إلى مابعد الزمان والمكان. وهذه القدرة على التجاوز وإنتاج منظومة فكرية صاهرة للمراحل وعابرة للحدود ، لا يمكن أن تنكسر كنظام حياتي إلا عبر توظيف الفكر الثقافي في آليات صياغة الوجدان الإنساني . والفكر _ وحده _ هو القادر على الخروج من أسر المادة وحصار العناصر، والتحليق فوق الأسوار التي تخترعها السلطات السياسية والاجتماعية. وكلما نجحنا في توليد بيئة شعرية تستوعب الألفاظ والمعاني بشكل تكاملي لا مكان للتنافر فيه، حصلنا على نسغ صادم للمجتمع المشلول، وأفكار ثورية تصعق الفرد النائم، ليس من أجل قتله، بل من أجل إيقاظه . فالشعر ليس مادة للمتعة الاستهلاكية ، بل هو كينونة الانقلاب الشامل .

وكل الاشتعال القصائدي التي تهز المجتمع البشري هزاً عنيفاً ، تنبع من قيمة الرفض للانقياس في نسج الجماعة الإنسانية . ولأن المجتمع الواقعي قد وصل إلى حالة مريضة من الشلل ، فلا بد من أن تكون الصعقة الثقافية قوية، لكي تتناسب مع حالة الجمود العميق الذي يُعادل الموت . ومن هذا المنطلق يمكن فهم الشعر باعتباره شكلاً لعسكرة المعنى وتثوير الأبجدية



القصيدة تعيد الحياة إلى المجتمع

إن القصيدة تخترع خط سيرها الخاص اعتماداً على مبدأ توليد أبجديات جديدة قادرة على حمل الحلم البشري إلى المستقبل ، وصهر الأطر الزمنية في الفكر الاجتماعي العابر للمراحل . وهكذا تغدو الثقافة الشعرية لغةً جديدةً تبتكر مناهج إنسانية متميزة تعيد الفرد إلى ثقافته ، وتعيد ذاكرة الثقافة إلى المجتمع . الأمر الذي يجعل من المجتمع الإنساني بأكمله خليةً ثقافية متكاملة ونشطة ، وعملاً إبداعياً يشارك الجميع في صياغته .

والقصيدة هي مشروع جماعي يساهم الأفراد كلهم في صناعته . وهنا يتجلى المزج الفعال بين البعد الاجتماعي التثويري ومنظومة الخلاص الشعرية . وكلما قمنا بتوظيف المعالجة الواقعية للخيال القصائدي في تفاصيل الحياة الإنسانية للفرد والجماعة، حصلنا على مجتمع ذهني يوازي المجتمع المادي الحياتي ، وعندئذ تتكاثر الأبعاد الاجتماعية ، وينهار الجدار الفاصل بين الإنسان (الكائن المتحرك في العوالم المادية) وبين الشعر (الكائن المتحرك في العوالم الافتراضية) ، فتصير القصيدة مجتمعات متعددة ومتجانسة ذات تداخلات حاسمة مع كل الطبقات البشرية . وهذه التداخلات كفيلة بإخراج الشعور الجمعي من دائرة التسلسل والاستهلاكية الفجة ، وتحويله إلى بُنى إنسانية قادرة على منح الكائن الحي إحساساً متأججاً بالحياة في ظل الأنساق الميتة التي تحاصر المجتمع ، وشعوراً بالحياة في تفاصيل الطبيعة التي هي شكل آخر للقصيدة الحية . وهذه الحياة الهادرة هي البيئة الخصبة لاحتضان النص الشعري وضمان نموه بكل سلاسة . فالشعر لا يمكن أن يترعرع في مجتمع ميت ذي مشاعر مقتولة. لذا فإن المنظومة الشعرية تأخذ على عاتقها إعادة الحياة إلى المجتمع _ عبر تكثيف حرارة التعبير وتكريس صدق العاطفة _ من أجل ضمان استمرارية حياة القصيدة . وإذا أدركنا أبعاد الحياة الاجتماعية في جسد القصيدة ، فسوف ندرك أهمية النص باعتباره ذاكرةً وخزناً تاريخياً مذهلاً يوازن بين الأصالة والمعاصرة ، بين التراث والحداثة ، دون إقامة قطيعة بين الأطوار الزمنية ، لأن الشعر زمنٌ كلي عابر للحواجز الوهمية والحدود الاصطناعية بين الماضي والحاضر والمستقبل . كما أن الشعر عملية غزيلة للتراث الأدبي والتاريخ الحضاري . والشعر أشبه بالماء المقطر الخالي من الشوائب والمفعم بالنقاء . وهذا النقاء يعيد تشكيل خارطة المجتمع الإنساني على شكل قصيدة تختزل تواريخ المشاعر الحياتية ، ومعالِم وجوه البشر ، ومفاصل الزمكان (الزمان _ المكان) .

القصيدة : إلمار الخيال وترميم الذاكرة

لا يمكن حصر مهمة القصيدة في اكتشاف الجذور الاجتماعية لحركة التاريخ الإنساني ، لأن الفكر الشعري عبارة عن عنفوان متكامل ومتشظي يستحيل سجنه في قالب محدود. والقصيدة هي نظام كلي يرمي إلى تأريخ اللحظة الآنية على شكل رموز عابرة لمفاصل الزمن ، واختزال المعاني المركزية في حياتنا وفق منظومة مكثفة ذات صبغة عالمية ، لأن الشعر لغة عالمية قائمة

بذاتها _ مهما اختلفت لغات الكتابة وجنسيات الشعراء _ . وهذا الأفق القصائدي الكوني الذي يصهر الثقافات المختلفة في هوية جامعة ، يهزّ الحلم البشري بكل قوة لكي تتولد أنساق جذرية جديدة تتفرع على شكل أمكنة معرفية متجددة وأزمنة وجدانية دائمة الانبعاث .

والدخول إلى عوالم النص الشعري مغامرة غير طائشة . فهو ليس رحلة عبر الزمن فَحَسْب ، بل _ أيضاً _ اختراع لأزمنة جديدة تولد من حرارة التعبير الشعري الطامحة إلى إعادة إعمار الخيال البشري الذي يتكسر في أزمنة المجتمع المغلقة ، وإعادة ترميم الذاكرة الجمعية الغارقة في الأنماط العَرَضِيَّة دون اقتحام الجوهر . والنص المنبعث من لهب التجربة لا يقدر على التأثير في البيئة المحيطة، إلا إذا تمتع بالقدرة على إعمار الخيال وترميم الذاكرة . وسوى ذلك سينشغل النصُّ بالأشياء الطافية على السطح دون اكتشاف الأعماق .

والقصيدة ليس من وظائفها إعادة نسخ الواقع المادي المعاش على الورق ، وليس من وظائفها حبس المشاعر الإنسانية في حبر الكلمات ، أو إعادة إنتاج البشر بصورة ميكانيكية ، لأن إفراغ العناصر من المحتوى العاطفي سيكون مدمراً للمجتمع ومنظومته الشعرية على السواء .

والوظيفة الأساسية للقصيدة متشعبة ومستمدة من كَوْن الشَّاعر هو الناطق الرسمي باسم كائنات الطبيعة (الإنسان . الحيوان . النبات . الجماد) . وهو لا يمارس هذه المهمة بدافع الاستبداد أو مصادرة العناصر الأخرى، وإنما انطلاقاً من دَوْره الحياتي المحوري . فالشاعر هو الرائي الذي لا يفرض رؤيته على الأشياء ، بل يلغي الحواجز لكي تصبح الرؤية واضحة لجميع الأشياء .

*

نحو توليد معجم شعري خاص

لا يخفى أن النواة المركزية في النص الشعري تنبعث من قدرة الأبجدية على خلق أساسات واعية للصور الفنية الكاسرة للتنميط . والدلالة الشَّعرية لا يمكنها الحصول على الشرعية اللغوية والاجتماعية ، إلا إذا نجحت في إنشاء معجم خاص بها يعتمد على ابتكار عوالم فكرية متميزة ،

وتكوين صور ذهنية مُدهشة ، ورؤية الحياة الكامنة وراء الجدران العالية التي تفصل اللفظ عن المعنى ، وتحجب رؤية الحيات الموازية للحياة الإنسانية. وإن هدفَ هذا المعجم القصائدي هو توليد الدهشة والانبهار المتواصل، وتطويع ميكانيكا الكلمات المجردة ، وتحويل هذه الميكانيكا إلى تعابير حياتية متراكمة تُشكّل رصيلاً معرفياً مذهلاً على صعيد اللغة الشعرية واللغة المجتمعية .

وإذا نجح المعجم القصائدي في إطلاق شرارة الحياة وإتاحة الفرصة للحلم الاجتماعي أن يتكاثر في جسد القصيدة، فإن تحولات حاسمة ستظهر في علاقة النص الشعري بالمجتمع ، من أبرزها الحفاظ على النص كشعلة للتححرر ، ومنع تحوله إلى دولة بوليسية اعتماداً على سلطة المنظومة الثقافية ، كما أن المجتمع الإنساني سيغدو منظومةً ولادات مستمرة ، مما يبعث الحيوية في النسق المجتمعي، سياسةً وثقافةً . وهكذا تصير القصيدة مجتمعاً سياسياً ينطلق من المواجهة لا المساومة . وبالتالي نكتشف تجارب وجدانية شديدة التماس مع حياة الفرد العادي ، حيث تتقاطع هذه التجارب مع أحلام البشر المقموعة ومستقبلهم المصادر وحاضرهم المستلب . وهذا التماس الصاعق من شأنه توليد قيم إنسانية عليا ذات قدرة على التحرك في المحيط المادي .

وكلما ازدادت القدرة الشعرية على اكتشاف حيات جديدة في أوصال المجتمع المحاصر بالتحديات المصيرية ، انتشرت الدلالة اللغوية الوظيفية للقصيدة في ماهية السلوك المجتمعي ، فريداً وجماعياً . وإن كل الدلالات المعرفية التي ترمي إلى خلق مجتمع جديد حر ومناوئ للمجتمعات التقليدية المدجّنة والمحكوم عليه بالإقصاء والتهميش من قِبَل الأنظمة البوليسية ، هي أنوية لقصائد تنبعث من التحدي ، وتصعد من بين أنقاض الإنسان في الأوطان التي يُعامل فيها البشر كقطيع أغنام لا يملك الفرصة لمقاومة قاتله ، ولا الاعتراض عليه .

*

أهمية الرمز الشعري في صناعة الواقع

مهما حاولنا صياغة نزعة قصائدية ثورية فإن محاولتنا ستبوء بالفشل إن لم نُوظف الرموز الشعرية الإنسانية في طبقات القصيدة . وذلك لأن قيمة الرمز هي جينات الفعل الشعري ، والطاقة الحاملة للمشروع الاجتماعي الحيوي . كما أن الرمز — باعتباره وحدة معرفية متكاملة — هو الأقدر على حمل الموروث الذهني المتدفق للشعر وإحالاته إلى حياة واقعية. ووفق هذه الصيغة

فإن الرمز الشعري يحافظ على معنى الوجود الاجتماعي ، ويُنظّم الأفكار الثورية التي تبدو للوهلة الأولى متنافرة . وإذا ازدادت قدرة الرمز على الحركة في محيطات القصيدة ، وإحداث حراك لغوي حقيقي في أبجدية المجتمع المنظورة وغير المنظورة ، فإن النص الشعري سيغدو سلطاً منطقية تكسر الأنظمة المجتمعية المغلقة ، وتؤسس مشروع الانفتاح على كل العناصر ، حيث ينتقل الفكر الإنساني من الخلاص الفردي إلى الخلاص الجماعي . والقصيدة _ قبل أن تكون منظومة لغوية واجتماعية _ هي عملية استثمار في روح التاريخ وشرعية وجوده . والقصيدة _ ذاكرة وفلسفة وأبجدية _ هي مشروع جماعي يشارك في صياغته الجماهير على اختلاف مستوياتهم الفكرية .

وهذه المنظومة الاجتماعية من شأنها إحداث انقلاب جذري في طريقة تفكير الفرد المقموع ، وعندئذ سوف يتضح طريق الحرية ، فينتقل الفرد من قيود تحصيل لقمة العيش إلى عوالم الإبداع بشتى أشكاله ، والتحرر من الصور الاجتماعية السلبية التي تحشر الإنسان في زاوية السلعة والدوران في حلقة مفرغة . وعلى القصيدة أن تتخذ موقفاً حاسماً ونهائياً من أجل صياغة الحلم الإنساني ، وتأخذ المبادرة لإعادة بناء الكيان الإنساني وفق أسس متحررة من القيود السياسية والاقتصادية . والجدير بالذكر أن حلم تغيير الواقع لا يمكن إنجازه إلا عبر صناعة خيال افتراضي وابتكار رموز معرفية ذهنية تحتضن الحياة المنشودة ، ومن ثم يتم إنزال هذه الحياة الجديدة في العالم المحسوس . وكل ثورة إنما تبدأ في الذهن وتتبلور على شكل نموذج خيالي قبل أن تتكرس على أرض الواقع . تماماً كما تُصنع السفينة على اليابسة ثم يتم إنزالها إلى البحر .

وهكذا ، تتضح أهمية الرموز الذهنية في الفعل الشعري كمرحلة مفصلية ذات تماس مباشر مع الواقع المعاش . وليس الرمز الشعري رياضة ذهنية مجردة ، أو طوراً متماهياً مع العدمية والهלוسة . إن الرمز الشعري هو النواة الشرعية الأساسية للفعل الشعري الطامح إلى خلق أبجديات أدبية متميزة ، وتكوين مجتمعات بشرية جديدة تختار مسارها نحو آفاق لم يتم اكتشافها من قبل .

هندسة الخيال وإمادة بناء المجتمع

يمكن تعريف " هندسة الخيال " بأنها عملية ترتيب القيم الشعرية في الذهن من أجل إسقاطها على أرض الواقع لتغييره وحققه بالأمل . وإن هذه النزعة المنطقية لا بد أن تواكبها صياغة جديدة

لألفاظ القصيدة ومعانيها، تمهيداً لصياغة المجتمع البشري من منظور ممتلئ بالعنفوان ، وإعادة بناء الإنسان وترميم كيانه المتشظي بين القمع السياسي والكبت الاجتماعي . إن القصيدة تمتلك القدرة على تفعيل الموروث الخيالي إلى درجة التماهي مع الحياة المعاشة . وهكذا يُعاد اكتشاف الدلالات اللغوية لأنظمة المجتمع البشري ، فيصبح المجتمع قصيدة تكتبها الجماهير ، وتصبح القصيدة مجتمعاً متجانساً ومتقدماً .

وكل هذه الإرهاصات تدفع باتجاه توليد نص شعري ينتزع شرعية وجوده بوصفه حركة تحررية تنويرية في أرجاء المجتمع الإنساني . وقوة القصيدة تنبع من قدرتها على ملازمة الجرح المجتمعي برفق ، ووضع اليد عليه لعلاج . إذن ، نحن أمام حركة قصائدية تصحيحية للمسار الإنساني داخل البنية الاجتماعية ، وهذه الحركة لها دلالتها الواعية النابعة من الشرعية الثورية للنص الشعري الذي ينتشل الفرد الضحية من المأزق ، ولا يتاجر بعذاباته . ولا يكتفي النص الشعري بعملية الإنقاذ ، بل أيضاً يُخرج الفرد من زاوية " الضحايا " ليجعله كائناً متوازناً لا يُظلم ولا يُظلم . وهكذا تتجذر ماهية التوازن العاطفي والمادي في الذات الفردية والذات الجماعية .

ومن أهم نقاط قوة القصيدة _ في هذا السياق _ أنها تنتزع المجتمع من الجدلية الثنائية (الجلال/ الضحية). فالمجتمع البشري الذي تؤسسه الشرعية القصائدية هو مجتمع السادة لا العبيد، ولا يمكن للمجتمع أن يتقدم وهو مُكبّل بأغلال الكراهية والشطط الطبقي والتمييز العنصري .

وكل التغيرات الجذرية في البنية الاجتماعية هي نتاج طبيعي لحركة التاريخ الشعري ، الذي هو نتيجة حتمية للمبدأ الأساسي " هندسة الخيال " ، الذي يُشكّل النواة الأولى لعوالم بناء المجتمع ، سواءً كان شعرياً أم بشرياً . والفرد لم يُؤتِ القدرة على التخيل لكي يهرب من نفسه ويفرّ من مواجهة واقعه القاسي . فالخيال هو المختبر الحقيقي لصناعة النماذج الافتراضية قبل تطبيقها على أرض الواقع . وهذا يؤدي إلى توحيد النسيج الذهني والمنظومة الحياتية المحسوسة . الأمر الذي يدفع باتجاه تشييد القلعة الاجتماعية ، تحتياً وفوقياً ، فردياً وجماعياً .

أهمية القصيدة كجسر اجتماعي

لا يمكن للنص الشعري أن يصهر المراحل ويتجاوز الموانع الاجتماعية إلا إذا بُني على قاعدة ثقافية متينة . وهذه القاعدة تتكون من عنصرين : النقاط الملاحظة واصطياد اللحظة . وهذان

العصران يعملان على تجسيم البؤر الذهنية وتجسيدها واقعاً ملموساً . والنص الشعري رادار يرى ما لا يراه الناس ، يلتقط عناصر البيئة ويعيد إنتاجها. كما أنه يصطاد اللحظة الآنية وينقلها عبر الحقب التاريخية المختلفة متجاوزاً الجغرافيا. وهذا يشير إلى أن النص الشعري لا يترك الزمان والمكان يُمرّان دون امتصاصهما حتى الرمق الأخير، وإعادة صناعتهما على شكل قصيدة لا تعتمد على التجريد الخيالي المفرط في الذاتية، وإنما تعتمد على ذاكرة موروثة الحلم القابل للتحقق.

والقصيدة زمنٌ متميز لا يخضع لعقارب الساعة ، فالشعر له نظام توقيت خاص به أشبه بالنهر الذي يشق مجراه وفق رؤيته الخصوصية . وبالتالي فإن الشعر يغدو توجهاً للحلم المجتمعي في قلب الكابوس القامع ، ويغدو _ كذلك _ مرحلة انتقالية حاسمة ، تنقل المجتمع من استهلاكية الجسد المحاصر بالأوهام إلى صناعة المعنى الكوني الهادر ، وهكذا يتحرر الحلم والحالم من تبعية الأساطير التي ترتدي قناع الحضارة . وهنا تبرز ضرورة التصاق الحلم البشري بالبنية المعرفية من أجل تجميع شظايا الإنسان وترميم كيانه الممزق ، وإعادة التلاحم الحقيقي لا الشعراي إلى أوصال المجتمع المتنافر . ممّا يُكرّس الطبيعة الاجتماعية للقصيدة كنظام ثوري يحضن الباب والقشور معاً ، ويضع كلّ جزء في مساره ، ويعيد الأنوية الإنسانية إلى مداراتها. وهذا يساهم _ بشكل كبير _ في إنهاء حالة الشلل الكامنة في أوصال المجتمع الذي صار يُقاتل نفسه ، ويلهث وراء القطار العالمي دون أن يصل إليه . وعلى القصيدة أن تكون الجسر الرابط بين السلطة الشعبية والسلطة السياسية من أجل إحداث تغيير حقيقي في المجتمع . والعقبة الصادمة في هذا السياق هي أن كثيراً من الأفكار الاجتماعية تُنقل في متواليات عابثة تُعمّق حالة التشقق في روح الأشياء التي تنعكس شروخاً في ذاكرة الفرد التائه بين الأضداد ، والذي فقد القدرة على التخيل والإبداع ، وعجز عن تحديد نقطتي البداية والنهاية في طريقه. وبالطبع ، لن يذهب بعيداً من لا يعرف إلى أين هو ذاهب .

وهنا تظهر أهمية القصيدة في جسر الهوة بين الفرد وذاته ، والفرد ومجتمعه . وهذا التجسير ضروري للغاية لأنه يُنهي حالة الغربة التي يحياها الفرد في مجتمعه ، وينهي _ كذلك _ حالة العزلة التي يعيشها المجتمع في محيطه العالمي المفتوح على كل الاحتمالات والأزمات .

الدورّة الدموية لأبجدية الشعر

لا تنبع أهمية النص الشعري من كونه منطقاً ثقافياً واجتماعياً للحياة فَحَسَب ، فهو _ أيضاً _ مركزية الأسئلة الوجودية للطبيعة البشرية . كما أن قيمة النص تتجلى في كونه بوتقةً لصهر الهويات الثقافية المستحيلة والأقطاب الاجتماعية المتنافرة. أي إن القصيدة تُحوّل السلبي إلى إيجابي، وتجعل الحلم أكثر قرباً ، وتجعل المستقبل أقل جموحاً، وتصهر الأضداد المجتمعية لتعيد تشكيلها وفق صورة متألّفة لا تناقض فيها ولا تنافر . وعلى الرغم من ثورية النص الشعري إلا أنه يسير وفق منهجية توفيقية لا تلفيقية ، حيث إنه يُصَفّي المجتمع من بؤر التوتر ، ويؤسس النقاط المشتركة التي يلتقي عندها الجميع دون مُساومات أو ابتزاز .

والنص الشعري وسيلة لا غاية . والأطوار القصائدية المتوالدة في النص هي مرحلة انتقالية تتم فيها بلورة قيمة المدلولات اللغوية على شكل أبجديات ، بُغية صناعة لغة جديدة قادرة على استلهاهم كُليات وجزئيات المجتمع . وهذا الأمر يُعزّز الترابط المصري بين سياسة الثقافة وسياسة المجتمع . والجدير بالذكر أن العقلية الشعرية مثل الشجرة ، تمتص العناصر السامة وتُعطي أكسجين الحياة ، ومهما ضُربت بالحجارة فإنها تُقدّم الثمر . وهذه هي فلسفة العمل الثقافي _ عموماً _ في تعاطيه مع العلاقات الاجتماعية بكل طبقاتها وإفرازاتها .

والتعابير المركزية في الولادة الشعرية تتمحور حول بوصلة الانقلاب ، انقلاب القصيدة على ذاتها ، وذلك بتكوين متوالية الهدم والبناء في أبجدية الشعر بشكل متواصل ، حيث تهدم القصيدة نفسها وتعيد البناء من جديد بحثاً عن الشكل الحاسم والجوهر النهائي . وأيضاً انقلاب القصيدة على الأنماط السلبية في المجتمع والتي تتجذر بفعل الموروث الاعتيادي وليس بفعل المنطق والبرهان.

وبالتالي يمكن اعتبار القصيدة مُختبراً حيوياً ، ومنظومة دائمة القلق والبحث ، وصولاً إلى ذروة الحدث المحسوسة وغير المحسوسة. وهذه نقطة القوة التي تضمن للقصيدة أن تتأقلم مع الظروف القاسية والمتغيرة .

وبعبارة أخرى إن القصيدة تُغيّر جِلدها باستمرار ، بمعنى تجديد الآليات وتفعيل الابتكار وتأسيس الانبعاث، وليس بمعنى التخلي عن المبادئ أو الخداع. فالدورة الدموية لأبجدية الشعر دائمة التجدد والجريان ، لأن السكون هو الموت . وما دامت القصيدة قادرة على التحرك فهي تمتلك القوة والمبادرة ، أمّا إن توقفت عن الحركة فسوف تنتهي إلى غير رجعة .

البحث عن هوية القصيدة

إن الإشكالية الكبرى في الفكر الشعري المعاصر ، هي ابتعاد القصيدة عن النبض اليومي للإنسان ، والهروب من مواجهة الحاضر الصادم عن طريق استخدام رموز فلسفية موعلة في التجريد والرمزية بلا ضوابط، فأضحت القصيدة شيفرةً غير منطقية بحاجة إلى إيجاد حلول منطقية. فالكثيرون هربوا إلى أنماط قصائدية موازية للعدم ، وهذا يتجلى في اختيار مواضيع هلامية وفوضوية تحت ذريعة الحداثة وما بعد الحداثة .

وهذه الأنماط العابثة هي ردة فعل فظيعة لمتاهة الإنسان المعاصر في عالمه ذي الأنفاق المعقّدة والقيم المضادة للمعنى . فانعكس غيابُ المعنى في الواقع المادي الشرس على كثير من القصائد ، والتي أضحت نسقاً لفظياً بلا معنى . وهذا أدى إلى انكماش جماهير الشعر ، وانحسار دوره التاريخي في صناعة الأحداث وتخليدها .

وهكذا نجد أن العبارة الشهيرة " الشعر ديوان العرب " أضحت محل تساؤل وتشكيك في وقتنا المعاصر ، وهي التي ظلت طيلة قرون مُسلمة لا تقبل النقاش ، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق المأزق الذي تعيشه القصيدة العربية الراهنة ، والتي صارت رجع صدى للشعر الإنجليزي أو الفرنسي دون هوية مستقلة ومميّزة . لذا فإن الشعر العربي عليه _ قبل البحث عن جمهور _ أن يبحث عن هويته الشخصية النابعة من حضارته الذاتية . وهذه المسؤولية الكبرى تقع على عاتق الشعراء الحقيقيين الذي لم يَقَعُوا في فخ " عُقدة الخواجة " ، ولم يسقطوا ضحية فلسفة " المغلوب مُولَع بتقليد الغالب " .

والقصائد الهلامية التجريدية الملتصقة بالعبث هي محاولة مكشوفة للهروب من الاصطدام مع الواقع الضاغط ، والتهرب من الاستحقاقات الحياتية الفاعلة في معيشة الفرد . ومن هنا تنبع أهمية نقل القصيدة من موازاة العدم الفلسفي إلى أنوية فكرية تَرُجُ المجتمع رَجّاً ، ليس بهدف قتله بل إحيائه .

وبالتالي فإن تجذير الوعي الاجتماعي الشامل داخل أنسجة القصيدة ، هو طوق النجاة للشعر الذي يُمثّل آخر معاقل الحلم المؤمن بالقضايا الكبرى . وكلما التصقنا بالدلالة المنطقية للفضاء الشعري ، سيطرنا على اشتعالات الذات القصائدية المساهمة في صياغة كائن حي جديد ، وجدير بأن يُنسب إلى الحياة .

لذلك ينبغي صق الفرد والجماعة بكهرباء الشّع من أجل إخراج المجتمع البشري من غرفة العناية المركزة إلى شمس الحياة وليس تراب المقابر . ولا يخفى أن الأداء اللغوي يستمد طاقته الإبداعية من المجتمع الحي لا الميت . وإن إحياء الأموات الذين يتحركون في المجتمع بلا بوصلة ، من شأنه أن ينعكس على طبيعة القصيدة التي ستعود إلى الحياة من أجل استكمال دورها المحوري .

والقطار الشعري لا يتحرك إلا بالوقود المستمد من ثورة الناس _ المجازية والواقعية _ . وبالطبع ، فإن الأحياء _ وَخَدَهُم _ هم القادرون على الثورة والتغيير . وهكذا سيعود للشعر بريقه داخل الأنساق الاجتماعية والنظم الحضارية .

*

عنفوان القصيدة والعقل الشعري

إن عنفوان القصيدة ينال شرعيته اعتماداً على رؤية خصوصية للعوالم الفكرية ، التي هي امتداد للوجود البشري خارج أنطقة الاستغلال والتهميش . وأيضاً فإن العقل الشعري الحر ينحت في الجوهر الإنساني صورة الأمل الثوري النابع من منطق القوة لا منطق الاستسلام للجلاد . وكل التوهجات اللغوية النابعة من الثنائية المنطقية (عنفوان القصيدة / العقل الشعري) منحازة بطبيعتها_ للقوى الهادفة إلى صناعة تكوينات جديدة داخل النسخ الفلسفي للشعر . وهذا الأمر بمثابة انطلاق اجتماعية واعية تزاوج بين الدلالات الفلسفية والإشارات الشعرية ، مما يُنتج سلطة ثقافية تفتح الأبواب أمام المجتمع ولا تحشره في الزاوية . وهذه التجربة الحياتية الثرية ينبغي أن تنعكس في مرايا الشعر من أجل فهم الصور الفنية للإنتاج القصائدي ، واستيعاب حركة الجماعة البشرية على المستويين الذهني والواقعي. والنص الشعري هو الدليل الذي يعرف الطريق ، لذلك لا يلتفت أثناء سيره. كما أن النص الشعري هو الوريث الحقيقي للحلم الفاضح للسراب الذي تصنعه الحضارات الوهمية التي تقتل الحضارة باسم الحضارة .

وعلى الرغم من حتمية اصطدام السلطة الشعرية بالسلطات الأبوية القمعية ، إلا أن هذا الأمر سيزيد القصيدة توهجاً وقدرةً على الصمود والتغيير . فحريّ بنا أخذ أمر الشعر على محمل الجد ، والنظر إلى الفكر القصائدي على أنه صياغة لتاريخ جديد يؤكّد من رحم المعاناة الاجتماعية والمأزق المصيري للإنسان ، وحركة تصحيحية نابعة من هوية الثقافة والمعنى الإنساني .

وفي ظل الانبعاثات الشعرية المتواصلة ، سوف تتحول القصيدة من نص جمالي نخبوي إلى تشكيل ثقافي عمومي يحتوي على أركان العمل الإبداعي ، وآليات النشاط الاجتماعي ، وتقنيات توليد الأنساق المعرفية . وعندئذ ستُثبت القصيدة قدرتها على القيادة والتوجيه ، وتُقنع الآخرين بجودها ومركزية وجودها .

والقصيدة ليست وعاءاً للتكثيف اللغوي فَحَسْب ، فالقوة اللغوية وحدها لا تُقدّر على إنتاج نسخ قصائدي متماسك ، لذا لا بد من السعي إلى تجميع العوامل الاجتماعية المتشعبة في إطار

شعري مَرِن إذا أردنا نقل القصيدة من حالة الأنا التجريدية العقيمة إلى طَوْر الجماعة الواعية لتاريخها ومصيرها .

الشَّعر : صانع الحلم وحارس الشرعية

إن الشَّعرَ أزمَنُ مُدهِشةٌ تُؤلِّدُ فينا ونؤلِّدُ فيها ، وأمكنةٌ ساحرةٌ تمنحنا فرصة اكتشاف ذواتنا خارج الحدود . وهذا البناء المتميز على الصعيدين الزماني والمكاني يتواصل مع الطبيعة المتشظية للحلم الذي تصنعه البنية الاجتماعية للقصيدة . ولا يمكن حصر أهمية الحلم في قوالب ذهنية مُجرَّدة هاربة من الواقع القاسي ، لأن الحلم هو مشروعُ صناعة واقع أكثر جمالاً ، ومشروعيةٌ إنسانية عابرة للحواجز الاجتماعية المصطنعة . وفي واقع الأمر ، إن حُلْم الكتابة الشعرية يتجلى في كتابة الحلم ، وجعله أكثر قرباً إلى حواس الإنسان . وهذا العمليةُ الإبداعية تَهْزُ المنحى الوجودي للمجتمع ، ولا تُخدِّره لِيَسْهَل استغلاله وذبحه . مما يؤدي إلى إيقاظ الجوانب الإبداعية الكامنة في الذات البشرية، ووضع التاريخ البشري (الماضي / الحاضر / المستقبل) أمام ثقافة الأسئلة المصيرية.

والتعاملُ مع الماضي ينبغي أن يكون وفق فلسفة الغربة والتمحيص، وليس من منطلق التقديس والتبرير والمسلمات الجاهزة ، لأن الإنتاج البشري يَحتمل الخطأ والصواب . والتعاملُ مع الحاضر هو انخراط في أنساق متغيرة لها هويتها الشخصية المستقلة التي ينبغي أن لا تعيش على أمجاد الماضي ، وتكتفي بالتغني بالزمن الجميل السابق . أمَّا التعاملُ مع المستقبل فلا بد أن يمر عبر قيمة المغامرة لا المقامرة . وهنا يتجلى الفرق الجوهرى بين المجتمع القصائدي وبين المجتمع البشري المتآكل . فالمجتمعُ القصائدي يَبْنِي أُسُسَ مغامراته المحسوبة ويُنفِّذها على الأرض ، أمَّا المجتمع البشري المتآكل فيُقامِرُ بهويته ومصيره مختبئاً وراء قناع انكساراته .

والجدير بالذكر أن توليد الأسئلة والإجابة عنها ليست وظيفة القصيدة فَحَسْب ، بل وظيفة جميع الأنساق الثقافية المشغولة بأنسنة تاريخ الحضارة ، وتأريخ وجود الإنسان الحضاري . وهذا الجهد الجماعي سوف يمس تركيبة المعنى البشري والمعنى الثقافي على حَدِّ سواء . بحيث يتحول المعنى إلى نسيج وجداني للذاكرة الجمعية التي تحمي المجتمع من الانقراض . وهذا لا يتأتى إلا باعتماد الشَّعر كحارس لشرعية الجماعة البشرية وأحلامها .

وفي هذا السياق تبرز للشعر مهمتان عظيمتان لا يمكن لغير الشعر تنفيذهما ، الأولى : حماية الإنسان من الوحش الساكن في أعماقه ، والثانية : حماية المجتمع من المقامرة بمصير الحضارة .

أثر منظومة الشعر الثورية

لا يمكن إخفاء البعد الثوري في أبجدية الشعر الصادمة ، لأن القصيدة ذاكرةٌ مُقاتلة ترفض المساومة أو أنصاف الحلول ، وتعمل على تخليد اللحظة الزمنية التي يكتبها الكلام النابع من أبجدية الدم والبارود . وهكذا يتم الوصول إلى حالة صدامية مناوئة لهوية الوهم على كافة الأصعدة . الأمر الذي يكشف دور النص الشعري في تكوين النسيج الاجتماعي للثورة الخارجة من لهب الحقيقة . وفي هذا الزخم المتأجج تتلاحم المفردات الشعرية مع العلاقات الإنسانية في جسد واحد ، وما على القصيدة إلا رسم ملامح هذا الجسد وأبعاده المادية وأشواقه الروحية .

والجدير بالذكر أن فكر الثوير المنتشر في عوالم القصيدة لا يهدف إلى تمزيق المجتمع عبر عسكرة المنظومات الروحية ، وإنما يرمي إلى تجذير ماهية اكتشاف المعنى الإنساني في خضم الانفجار التكنولوجي ، وإخراج الإنسان من متاهته اليومية .

ولا يتأتى الحصول على منظومة شعرية ثورية إلا إذا امتلكتنا القدرة على صناعة خطاب خيالي مندمج مع الواقع حتى الرmq الأخير ، وهذا الاندماج هو طوق النجاة للإحساس الاجتماعي بالشعر ، كما أنه _ أي الاندماج _ سيؤدي إلى توليد أسئلة ذاتية غير ميكانيكية حول تقنيات بناء الخيال الواقعي ، مما يُنتج أبجديات شعرية تشتمل على أبعاد معرفية تقود الفكر الشعري التأسيلي إلى العالمية (عالمية اللفظ والمعنى / عالمية الدلالة / عالمية الرؤية) .

وهذا الحراك الشعري ذو الصبغة الاجتماعية الثورية ، من شأنه إضفاء الشرعية على عملية تزواج المحيط الإنساني مع الظواهر الفلسفية للنص . وبالتالي فإن النص سيجد نفسه في قلب الدوامة الاجتماعية . ونحن عندما نضع النص في مواجهة الأطوار المجتمعية السلبية ، إنما نضع الفرد في مواجهة المجتمع من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وليس زيادة المجتمع غرقاً . ومهما تلقى النص الشعري من ضربات في هذا الزخم الثوري ، فإنه لن يسقط على الأرض ، بل سيزداد قوة ، لأن الضربة التي لا تقتلك تُحييك .



التغير والتغيير في الأفق الشعري

تتركز قوة النص الشعري في قدرته على صياغة اتجاهات وجدانية للفرد والجماعة ، وربط دلالات اللغة مع تطلعات الفرد الحياتية. ومن هنا ينبثق التجانس بين لغويات القصيدة وأبجديات المعنى . ولا يمكن لهذا التجانس أن يستمر إلا إذا تركزت الحقيقة القصائدية كحاجة إنسانية توازن بين المجتمع القصائدي المتحول إلى كيانات بشرية مدمجة مع حرية الفكر الشعري ، وبين مركزية المجتمع الإنساني المتحول إلى وحدات بنائية أقل توحشاً . وهذا التوازن المنشود كفيل بنقل القصيدة من الورق إلى أرض الواقع ، وتكريس الأفكار كحالة شعورية مضادة للنسيان والتهميش والإلغاء.

إن الأفق الشعري هو حالة البقين في وسط نيران الشك ، وهذا اليقين هو القلعة الحصينة التي تمنع التردد والارتباك من اقتحام العالم الشعري . فالقصيدة _ مثل السباحة _ ستواصل مسيرتها ما دامت هادئة ، أما إذا حصل التردد أو الارتباك فسيكون الغرق هو المصيري الحتمي . وفي ظل هذه المعاني تكتسب القصيدة شرعية دورها الإنقاذي ، والذي يتمحور حول تخلص الشعر من كل الأعباء الوجودية العدمية . فقد أضحى الشعر _ بالنسبة للكثيرين _ عبئاً على كاهل المجتمع الثقافي بعد أن كان تأسيساً وجدانياً للمراحل الأخلاقية في حياة الفرد . وهذا الخلل في فهم طبيعة الشعر يدفعنا إلى البحث عن فهم جديد لوظيفة النسخ الكلامي المكثف الهادف إلى قلب أنظمة الأبجديات السلطوية التي اتخذت من اللغة مزرعةً للمعاني المشروخة والألفاظ المكسورة. وكلما اكتسب هذا الفهم الديمومة والانطلاق، اختفت حالة الصدام بين طبقات القصيدة المجتمعية. وهذا يعني الوصول إلى حالة التصالح بين الذات الشاعرة والنص الشعري . مما يُسهّل ابتكار عوالم شعرية جديدة تستمد شرعيتها من قدرة لغة النص على تجديد شبابها ، وتجديد آليات النسق الفكري . وبعبارة أخرى ، إن النص لا يُصبح شعرياً وشرعياً إلا إذا امتلك ثنائية (التغير / التغيير) .



القصيدَةُ سُلْطَةُ سِيَّاسِيَّة

إنَّ القصيدَةَ هِيَ سُلْطَةُ مَعْرِفِيَّةٍ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا ، تَسْتَمِدُّ شَرْعِيَّةَ وجودِهَا وتواجِدها من كَوْنِهَا قُوَّةٌ اجتماعِيَّةٌ شَدِيدَةُ الزَّخْمِ ذاتُ فاعليَّةٍ جَمْعِيَّةٍ تَوازَنُ بَيْنَ الصِّيغِ الجَمَالِيَّةِ للكَلِمَةِ . ومن هُنَا تَخْتَرَعُ القصيدَةُ سِيَّاسَتَهَا الخاصَّةَ حِيَالِ التَّعَامُلِ مَعَ الأشياءِ . ولِلأسَفِ فإنَّ مَفْهُومَ السِّيَّاسَةِ عِنْدَ الكَثِيرِينَ _ يَنْحَصِرُ فِي الدَّوْلَةِ والحُكُومَةِ ، وهذا غَيْرُ صَحِيحٍ البتَّةِ . فالسِّيَّاسَةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ الأشياءِ سواءَ كَانَتِ اجتماعِيَّةً أو اقْتِصادِيَّةً أو أدْبِيَّةً . إنَّهَا طَرِيقَةُ التَّعَامُلِ مَعَ فِلْسَافَةِ الأشياءِ والجَدْلِيَّاتِ والدَّلَالَاتِ . وهذا الدَّورُ المَرْكَزِيُّ لَا يُمْكِنُ لغيرِ الشَّعْرِ أَنْ يَلْعَبَهُ ، لأنَّ الشَّعْرَ _ وَحْدَهُ _ هُوَ الَّذِي يَرى ما وَرَاءَ الأشياءِ، وَيُوازَنُ بَيْنَ المَظْهَرِ والجَوْهَرِ، وَيَتَغَلَّغِلُ فِي أعْمَاقِ النَفْسِ البَشَرِيَّةِ بِكُلِّ سِلَاسَةٍ.

وَبِلا أدْنَى شَكٍّ فإنَّ تَكُونُ الظُّوَاهِرِ الثَّقَافِيَّةِ فِي أنْسَاقِ القصيدَةِ يَسْتَنِدُ إِلَى كَوْنِ القصيدَةِ نَصًّا سِيَّاسِيًّا لَا مَكَانَ فِيهِ لِلْمَتْعَةِ المَجْرُودَةِ. وهذه السِّيَّاسَةُ _ بِمَفْهُومِهَا العامِ _ جَعَلَتِ النِّصَّ الشَّعْرِيَّ يَتَقَنَّ التَّعَامُلَ مَعَ العَنَاصِرِ المَحيِطَةِ بِكُلِّ تَوازَنٍ ، وَيؤَسِّسُ نِظَامًا شَامِلًا لِعَلاَقَاتِ الإنسانِ فِي كُلِّ المَجالَاتِ . مِمَّا أَدَّى إِلَى تَوَلِيدِ تَرَائِبٍ إنْسانِيَّةٍ تُعْطِي لِلروحِ فِرْصَةَ الِاتِّقَاءِ مَعَ ذاتِهَا ، وَتَمْنَحُ الجِسمَ الاجتماعيَّ مَتْعَةً اكْتِشافَ ماهِيَّتِهِ خَارِجَ نِطاقِ المَفَاهِيمِ المَسْتَهْلَكَةِ .

وهذه الحِركَةُ الثَّقَافِيَّةُ النَشِيطَةُ تَضْمَنُ اسْتِمْرَارِيَّةَ نِمْوَ الجِسدِ القِصائِدِيِّ فِي ظِلِّ حَتْمِيَّةِ الصِّراعِ بَيْنَ الأَضْدَادِ . والأَبْجَدِيَّةُ الشَّعْرِيَّةُ قَادِرَةٌ عَلَى تَنْظِيمِ هذا الصِّراعِ وإِعادَةِ إِنْتاجِهِ لِفَظًا وَمَعْنَى، بِمَا يَحْفَظُ وَحْدَةَ الكِيانِ القِصائِدِيِّ فِي وَجْهِ الثَّقَافَةِ المَغْلَقَةِ لِلْمَجْتَمَعِ المَكْبُوتِ.

وَلَنْ يَكُونَ دَرْبُ القصيدَةِ سَهْلًا، إِذْ إِنَّ التَّماسُكُ الشَّعْرِيَّ فِي مَجْتَمَعِ تَصْنِيمِ الذَّوَاتِ سَوْفَ يُقَابِلُ بِمَعَارِضَةٍ شَرِسَةٍ مِنْ قَبْلِ ثِقَافَاتٍ " حِرَاسَةِ الوَهمِ " الَّتِي ابْتَكَرَتْهَا الأنْظِمَةُ القِمْعِيَّةُ (السِّيَّاسِيَّةُ والاجتماعِيَّةُ) بُغْيَةَ الحِفَافِ عَلَى الفَوْضَى الخِلَاقَةِ الَّتِي تَسْتَنْزِفُ الشَّعْبَ حَتَّى الرَّمَقِ الأَخِيرِ . لَكِنَّ

القدرة الفائقة للقصيدة على التحدي والصمود في وجه أقسى الأزمات الاستثنائية ، ستكون سلاحاً فعالاً لتجذير وجود الشعر في الظروف الصعبة . وسيظل التعويل _ دائماً _ على جهاز المناعة للقصيدة .

*

البعد الاجتماعي للتنوير الشعري

يتجلى الدور التنويري للقصيدة في طرح الأسئلة الصادمة على المجتمع المخدّر ، ليس من أجل تكثير الأسئلة وارتداء ثوب الثقافة ، وإنما من أجل الوصول إلى ذاكرة المعنى المنتشر في عنفوان اللفظ، والقضاء التام على ثقافة التلقين وظاهرة تفشي المسلّمات الوهمية. وحينما يتجذر السؤال الحر كوسيلة معرفية ، فإن الأبجديات الثائرة سوف تحتشد في كلمة واحدة . وهذا هو التكييف الدلالي الذي تؤسسه القصيدة بُغية إنهاء الجدل المستمر بين الجزء والكُل ، أو اللفظ والمعنى . واعتماداً على هذه الرؤية الشمولية ، تنال القصيدة أهميتها المركزية باعتبارها فلسفة الإنسان المنطقية في عوالم اللامنطق .

ولا يمكن للتنوير القصائدي أن يأخذ مداه إلا عن طريق سكب الطبيعة الوظيفية للتطور الاجتماعي في أنسجة تضاريس الذاكرة الإنسانية . مما يقود إلى أنسنة الطبيعة المادية للأشياء ، أي بعث الإحساس الإنساني في تفاصيل الزمان والمكان .

والتنوير لا يمكن أن ينشأ في المجتمعات المتوحشة ، لذا كان من الضروري تجذير البعد الإنساني في العناصر كخطوة أساسية من أجل توليد نهضة شعرية شاملة تستند إلى شرعية الوجود الاجتماعي الخالي من التوحش . ومن هنا نكتشف أهمية البيئة الحاضنة للإبداع الشعري في توفير الامتداد الفلسفي التنويري ، وحماية الفرد والجماعة من الفوضى ، ووأد النزعات الاجتماعية العنيفة المضادة لماهية الإنسان .

ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن يقف التنوير الشعري موقف المتفرج أو موقف الحياد ، فالطبيعة الكلامية للأفق القصائدي ذات خصائص ديناميكية تعيد بناء الكائن الحي ، وهندسة المساحات الشعورية في القوالب المجتمعية ، وصياغة المجتمع الاستهلاكي المادي العبي وفق

صور ثورية جديدة غير مُسَيَّطَر عليها من قِبَل التيارات الاستغلالية . وهذا الأفق الجديد لا يُؤكِّد إلا من المعاناة ، تماماً كالجنين الذي لا يأتي إلا بعد مخاض عسير .

*

الشعر صوت من لا صوت له

إن القصيدة تستمد شرعيتها من انحيازها إلى القيم الجمالية ، وقضايا المنسيين في ضجيج الحياة. لذا فإن الشَّعر هو صوت مَنْ لا صوت له. ولا معنى للشَّعر الرامي إلى التسلية وزخرفة الكلمات . فالفكر الشعري هو صناعةٌ الوعي الفكري المتفرع إلى وعي سياسي واجتماعي واقتصادي، وتحويلُ جبر الكلمات إلى ذاكرة مجتمعية حاضنة للتاريخ الإنساني ، وجعلُ الألفاظ والمعاني كائناتٍ من لحم ودم .

والفكر الشعري الحاسم هو محاولةٌ حثيثة لانتشال الفرد من ذاته، وإنقاذ المجتمع الذي ينكمش تدريجياً . وهذه الغاية السامية تُشكِّل تحدياً كبيراً للقصيدة التي ينبغي أن تخرج من دائرة التجريد المغلق والهلامية العدمية ، من أجل تكوين حكومة إنقاذٍ شعرية تساهم في نمو الوعي بأهمية السلوك الفكري في تغيير المجتمع ، وبعث الحياة في كل جوانبه . وهذا لا يتأتى إلا عبر تكوين نسق أدبي معرفي رافض لكل الظواهر السلبية . فالرفضُ هو قوةُ المُتخيِّل وذهنية المجتمع المتحول إلى مُقاتِل ضد الظلام .

ولا يمكن للأفق الشعري أن يتغلغل في نواة المجتمع المركزية ، إلا إذا استند إلى قوة التشكيلات الذهنية الخاصة بالعناصر الأدبية. ولا فائدة من الحلم الشعري إذا لم يتم تكريس تكاملية الصور الأدبية المُعبِّرة عن آلام الشعب وأحلامه .

والصُّورُ الأدبية هي سياسة لغوية تضبط كلَّ التدفقات الاجتماعية التي تنتخب قوة المعنى ووحدة اللفظة . وهكذا تغدو المعاني جسداً واحداً يُعبِّر عن التطورات الاجتماعية في القصيدة ، وتؤول الألفاظُ إلى غِرِبال يُصَفِّي المجتمع الإنساني من هزائمه ، ويُنقِّي القصيدة من عناصر التفكك والعزلة .

إن القصيدة الحية في المجتمع الحي تُعد خارطةً للسياسات المفصلية في الحياة المتفجرة ثورةً على الوهم . والمجتمعُ الفكري القصائدي يصنع عالمه الخاص الحقيقي لا الصوري ، والذي ينطلق من الحاضر إلى المستقبل المشرق لا المغموم .

*

القصيدة خط الدفع من الحضارة

إن القصيدة ليست متحفاً يرتاده القادرون على الدفع، وإنما هي عالم شعبي ونخبوي في آن معاً. والقصيدة سياسة منطقية تتمتع بالمشاعر الفياضة التي تزيد المجتمع قوةً لا ضعفاً . وكلما ازدادت أهمية القيمة الشعورية في الجماعة البشرية ، برز صوتُ الحياة في خصائص القصيدة ، واتضح الهوية البشرية في قلب الكلمات. الأمر الذي يزيد الأفق الشعري اتساعاً ، وقدرةً على الصمود في وجه الانتكاسات الاجتماعية . وعندئذ تتحرك الكلمات وفق بوصلة المعنى ، ويتركز المعنى في أقصى مدى الكلمات. وهذه العلاقة الثنائية هي الضمانة الأكيدة لكي يرى المجتمع صورته في القصيدة ، ويتزاوج صوتُ الوجود البشري مع صوت القصيدة .

ولا شك أن تمدد الفضاء الشعري في العلاقات الاجتماعية المتشابكة بين الفرد والجماعة والبيئة، من شأنه تأسيس نظام حياتي متمرد على الوهم ، لا يستسلم لإفرازات الحضارة المريضة ، ولا يقبل أن يوضع الإنسان على هامش الحياة . وكل المحاولات الحثيثة لبناء هذا النظام الحياتي إنما ترمي إلى توعية الفرد بأهميته المركزية في مجتمع الكائنات البشرية الحية ، وعوالم الكائنات الشعرية الحية .

والقصيدة لا يمكن أن تولد وتنمو إلا في محيط حي وحر ، لأن الحياة والحرية هما جناحا طائر الشعر ، وبدونهما سيتحول الشعر إلى جثة هامدة لن تستفيد من طوق النجاة ، ولا التنفس الاصطناعي . وإذا مات الشعر فإن الإنسان سيغدو ميتاً في الحياة ، تائهاً في دروبها بلا وجهة . والإنسانُ يكتشف ذاته في أعماق النص الشعري الذي يلعب _ باقتدار _ دور المرشد العارف بالطرق المتشعبة ، والقادر على تحديد أقصر الطرق الموصلة إلى الهدف .

والإنسان حينما يضع ثقته في النص الشعري ، فهو يراهن على المستقبل وفق بصيرة نافذة لا سذاجة عاطفية . فالشعر هو المُبصر بين العميان ، والقادر على الرؤية في الظلام بلا مناظير ليلية

والمجتمع حينما يعتبر القصيدة خط الدفاع الأول عن التاريخ والجغرافيا ، هو الذي سيربح في نهاية المطاف، فعندئذ يكون المجتمع قد حافظ على وجوده أمام الهويات الدخيلة، وطهر أجزاءه من التطرف والاستبداد ، وأرسى ثقافة الأسئلة والحوار بعيداً عن المعطيات الجاهزة ، والمسلمات الافتراضية ، وثقافة الجعجعة بلا طحن .

خطائص الشعر الأساسية

إن المعطيات الجاهزة غير المستندة إلى الرؤية المعرفية ، تُعتبر من أهم العقبات في طريق توليد القصيدة . وهذه المعطيات تقتل الروح الإبداعية في الأفق الشعري ، وتُقيّد المعاني بأغلال الألفاظ الجامدة . وعندئذ تعجز القصيدة عن الوصول إلى الجماعة البشرية ، والتأثير في مستويات الوعي الاجتماعي .

ولا ينبغي للحراك الاجتماعي أن يتخندق في القصيدة ، أو تنكمش القصيدة على هامش المجتمع، لأن الأفق الشعري يستمد معناه من التأثير المتبادل بين المجتمع الكلامي والمجتمع البشري. وعندئذ يتمكن الشعر من صناعة مجتمع منفتح لا يخاف من الشمس ، ولا يدفن رأسه في التراب كالنعامة .

ولا مفر من تلاقح الأفكار إذا أردنا تكوين جبهة شعرية تمتلك أدوات التغيير ، وقادرة على الانتقال من التنظير إلى التطبيق ، ومن الوجود الهامشي إلى الوجود الفعال. إذ إن تلاقح الأفكار من شأنه توليد أبجديات اجتماعية ثورية داخل الأبجدية الأم. ووفقاً لهذه الدلالة المعرفية نتمكن من تحديد فكرة التوازي بين البعد الواقعي المحاصر بالزمان والمكان ، وبين الأبعاد الخيالية المتجاوزة للتاريخ المحدود ، والجغرافيا المحصورة .

وهذا التوازي ضروري للغاية لكي يحدث التوازن الذي يعيد ترتيب البيت الداخلي للقصيدة. فالتوازي والتوازن يُحدّدان قواعد بناء النص الشعري وأصول تفسيره ، ويكوّنان الجنبين الشعري الكاسر للحصار ، والقادر على اختراع تدفقات المعنى الهادر ، وتلقائية اللفظ المندفَع .

والأفق الشعري يحتوي على نواة مركزية _ مثل منبع النهر _ ، فإذا تم تحديدها بدقة ، سيتم تحديد روافد النهر الشعري ، ومدى قدرة النص على التأثير والتأثير بكل سلاسة . وهذه النواة لا يمكن كشفها والتعامل معها إلا بتوليد تقنيات ثقافية مُبتكرة قادرة على ربط الأبعاد الاجتماعية والأنساق القصائدية ضمن مناخ جماهيري عام ، وليس نخبياً معزولاً عن الزمان والمكان . وفي ظل تفعيل هذه الأجواء الثقافية ، يمكن استيعاب مركزية الشعر الحضارية . والشعر _ في بعض الأحيان _ ينبغي أن يكون دواءً لا خُبراً . ومن هنا تتحدد خصائص الشعر الأساسية ، وهي : أن يكون الشعر على جرعات ، وتُعطى لجميع الناس بغض النظر عن مستواهم الروحي والمادي ، ويكون الهدف منها إعادة بناء الإنسان .

أبعاد مغامرة الكتابة الشعرية

تنبثق شرعية الولادة القصائدية من كَوْن الفعل الشعري مغامرة دائمة ، وتنقياً متواصلاً في منجم اللغة . وهذه المغامرة المدهشة تؤسس مبدأ الدافعية المعنوية في النص ، حيث تتأجج منظومة الألفاظ والمعاني وتنطلق اعتماداً على القدرات الذاتية ضمن تيار تثويري يهدف إلى بناء دولة القصيدة . ومن هنا تبرز تطبيقات لغوية متجانسة تساهم بشكل فعال في صياغة مجتمع الكلمات ، وتحويل الذاكرة الشعرية إلى ثقافة عمومية ذات تماس مباشر مع حياة الفرد والجماعة ، واحتضان الجنين الشعري الذي يُمثّل امتداداً للأبجدية الاجتماعية والأبجدية اللغوية . ومن خلال هذه المنظومة المتكاملة ، يتمكن الفعل اللغوي من اكتشاف أقصي الوجدان المجتمعي الذي تندلع فيه الأحاسيس ، وتسيل منه القيم الكلمائية . وهذا الأمر شديد الأهمية لأن الكلمة هي العنصر الأكثر فاعلية في تشكيل الوعي الجمعي . وكل المعاني الاجتماعية المؤسّسة على أبعاد الكلمة رمزياً وواقعياً ، إنما تُشكّل القاعدة الأساسية للحراك الإنساني . لذلك ليس من الغريب أن تضطلع المنظومة اللغوية الثورية بمهمة إيصال توهج الأبجدية الشعرية إلى عناصر المجتمع .

وهذه الحركة الإبداعية الدؤوبة من شأنها تكريس القصيدة كقومية قائمة بحد ذاتها ، والحيلولة دون تحول القصيدة إلى نزعة عاطفية مُجرّدة أو خطاب شعاراتي جامد ، وتنقية الرمز الشعري من أضداد الذاكرة المجتمعية . والرمز ينبغي أن يحافظ على حضوره الصادم وبهائه الصافي ، إذ إن

تعزية القصيدة من الرمز سيُحيلها إلى جثة هامة، لأن الكلمات عندئذ ستفقد سلطتها وسَطوتها
وشرعية وجودها وامتدادَ تواجدِها. كما أن صلابة الرمز الشعري عامل مهم للحفاظ على تماسك
القصيدة في معاركها المصيرية. وهذا الالتحام الثقافي ضروري لفهم طبيعة التكييف اللغوي في
عقل النَّص ، واستيعابِ الأساس الاجتماعي للفكر الشعري .

وفي هذا الازدحام اللغوي والزخم الإبداعي ، ينبغي تدكُّر أن القصيدة تحارب على جبهتين :
الأولى _ العلاقة السُّلطوية الملتبسة بين الذات الفردية والذات الجماعية ، والثانية _ تشابكات
العقل الجمعي الوظيفي الذي يتعامل مع اللغة على أنها أداة توصيل فقط وليس كائناً حياً متكاملًا.

*

القصيدة مشروع اجتماعي عام

إن الالتحام الشعري مع النسق الاجتماعي لا يُوفّر أرضيةً صلبة للنهضة الفكرية فَحَسْب ، بل
أيضاً يعمل على إخراج المجتمع من مأزق الإرباك اللغوي والارتباك الذهني . وهذا الالتحام امتدادٌ
للقدرة الأبجدية على إنتاج أبجديات موازية ذات ارتباط وثيق بالتحويلات الإنسانية العميقة الموزعة
بين النهضة الواقعية وإعمار الخيال.

وفي هذا الصدد نجد أن العلاقات الاجتماعية في نواة المجتمع القصائدي تتجسد بصورة
متناغمة مع الطبيعة الثورية للفكر الثقافي المحتوي على اجتماعيات الزمكان (الزمان _ المكان) .
وبالتالي فإن الاتجاهات الأفقية والعمودية في تطورات القصيدة ترسخ وفق مبادئ الانتخاب
الطبيعي للأفكار والخيالات المزروعة في قوالب الواقع المادي . وهذه العملية تؤدي إلى تثبيت
العناصر الاجتماعية المبدعة ، واستئصال نقاط الضعف في البنية الإنسانية ، وردم الهوة بين
النظرية الشعرية وتطبيقاتها الواقعية . وهكذا يَتَمَوَّضُ التفكير الثقافي الثائر في أقصى مدى ممكن

وعلى الرغم من سعي القصيدة الحثيث لصياغة مجتمع بشري متجانس ومتواصل روحياً ومادياً
عن طريق تأسيس تاريخ ثقافي يزاوج بين أزمنة الفكر الإنساني وأمكنته ، إلا أن القصيدة _وَحْدَهَا_
ليس بوسعها تحويل المجتمع الاستهلاكي المقهور إلى مجتمع إنتاجي حُر. فالفكر الشعري هو
الحاملُ لطاقة الاندفاع الإنساني ، وضابطُ إيقاع التشظي اللغوي ، لكن هذا الفكر بحاجة إلى

أدوات تطبيقية تنقل التطلعات الاجتماعية المشروعة من حيز التجريد الذهني الهلامي إلى ذاكرة الوجود المحسوس .

وهذا التحدي يفرض على النسق القصائدي أن ينقل عوالمه من الشخصي إلى الجمعي ، ومن الجزئي إلى الكلي . وبعبارة أخرى تحويل القصيدة إلى مشروع اجتماعي وثقافي عام يشترك فيه الجميع . فلا بد للشعب أن يقود المسار الثقافي بنفسه ، ويمارس هذه المغامرة بكل طاقاته ، ويكسر الأبراج العاجية التي تجعل الثقافة امتيازاً نخبياً وليس مشروعاً جماهيرياً . فالقصيدة لا بد أن يكتبها المجتمع الإنساني تحقيقاً لمفهوم تجذير هوية الحلم الثوري العمومي . وهذا لا يعني الانسلاخ عن قيمة الهويات الذاتية ، وإنما يعني تكوين تيار اجتماعي عريض يحضن القصيدة بكل أطوارها ، ويُطبّقها واقعاً ملموساً .

الشعر ومنظومة الأبيديات

إن القصيدة عالم واسع من الأبيديات المختصرة . والأفق الشعري يعمل على سكب الأبيديات في كلماتٍ شعرية ذات أبعاد شديدة التكثيف والرمزية . وهذه الفلسفة اللغوية من شأنها فتح آفاق جديدة تساهم في بلورة الحلم الاجتماعي على شكل ثقافة إنسانية كاسرة لعزلة المعنى في الأنساق المادية للمجتمع البشري المضطرب . وليس هناك وصفة سحرية لانتشال المجتمع من الانكسار والتشظي . لكن ما ينبغي فعله _ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه _ هو نقل المجتمع البشري المتآكل إلى عالم القصيدة . وهكذا تصير القصيدة مجتمعةً مُوازياً للحالة المجتمعية الإنسانية . وتتحول القصيدة إلى مُختَبَر ومُختَبَر في آنٍ معاً . وهذا الفكر دائم التجريب والحركة والبحث . كما أن هذا الفكر ينقل الأنساق الشعرية المحلقة إلى المجتمع البشري المخنوق لكسر عزلته ، وتطهيره من التوحش ، وحقنه بالأمل . وضمن هذه العملية تتم إعادة هندسة المجتمع ، وولادة الجنين الإنساني من جديد . وكلما صنعنا ضوءاً جديداً في آخر نفق الكلمة ، أنتجنا أبعاداً جديدة ذات معايير اجتماعية تُطوّر الأنساق الوجدانية للعمق البشري . وهكذا تبرز أهمية الخصائص اللغوية في التوفيق بين سياسة البناء الاجتماعي وسياسة الشعر . وهذا التوفيق ضروري للغاية ، لأنه يُعمّق البعد الثقافي داخل أحاسيس الكائن الحي . وبدون التزاوج بين الثقافة والإحساس الإنساني، سوف تغدو أبعادية الشعر كومةً أنقاض غارقة في التجريد العقيم .

إن الأفكار الثقافية تنبع من طبيعة اللغة . كما أن القصائد تحولات أدبية واجتماعية تستند إلى إرادة الإنسان الذي يصنع التطورات التاريخية ، ويناضل في سبيل الوصول إلى قدرات فلسفية مؤثرة في الزمان والمكان . والجدير بالذكر أن السلوكيات القصائدية لا تخضع للتطورات التاريخية بقدر ما تخضع للتطور المعرفي للشاعر الذي يفرض على التاريخ وجهة نظره .

وفي ظل هذه التشابكات المعرفية ، يتضح أن النشاط الإنساني ما هو إلا رؤية شمولية تستشرف آفاقاً جديدة للبناء الشعري ، حيث يتم تشييد الأفكار الإنسانية ، وإعادة بناء مستويات الوعي الشامل على صعيد البنية التحتية للأبجدية والبنية القوقية اللغوية . وبالتالي فإن نسقاً اجتماعياً جديداً سيظهر معتمداً على المعطيات اللغوية للنص الشعري . الأمر الذي يؤدي إلى نقل النواة الفكرية الإنسانية إلى مرحلة العقل الجمعي . وهذه النقلة الحيوية لا يمكن أن تتم إلا في ظل وجود جسر قصائدي يربط بين المرحلتين (النواة الفكرية / العقل الجمعي) .

تحيات في طريق القصيدة

إن القيم الثورية التي تؤسسها القصيدة ، من شأنها إخراج الحلم البشري من زوايا العتمة إلى قلب النور ، عبر توليد ثقافة الأسئلة التي تُنقي رموزَ الذاكرة من الشظايا الفكرية المتوارثة . مما يؤدي إلى إعادة إنتاج القوة الشعورية داخل الكيان الشعري ، وتفجير الطاقة الرمزية في الأبجدية المعرفية المتحولة إلى نُظم اجتماعية تخلص من التوحش ، وتظهر على شكل جرعات لغوية تنتشر في الأفق القصائدي . وهذا التكثيف المركب يُعتبر تاريخاً جديداً لمراحل الحياة الاجتماعية بكل نجاحاتها وإخفاقاتها ، وتأسيساً للكيان الإنساني الذي تعاد صياغته من جديد .

وهذا العالم الجديد الذي تبنيه القصيدة ضروري للغاية من أجل كسر القوالب الجاهزة ، وتحطيم السلوكيات الثقافية النمطية المضادة للإبداع والتجديد ومنظومة الأسئلة المتحررة من سطوة التقليد .

والمشكلة الفكرية التي تعترض طريق القصيدة تكمن في تفشي العوالم الوهمية التي تفرزها الأنساق المستبدة الحارسة لتاريخ الظلم الاجتماعي ، وهذا يؤدي إلى تجذر الأزمات الإنسانية ، وانتشار الفراغ الشامل في الأحاسيس البشرية ، وبالتالي تصبح الثقافة الشعرية في المجتمع الذي تم اختطافه من قبل الأوهام السلطوية ترفاً زائداً عن الحاجة ، وتجميعاً لفظياً مختلطاً يخلو من

المعنى التطبيقي . وعندئذ تعجز القصيدة _ بسبب الضغط الاجتماعي السلبي _ عن تحليل الأنساق الإنسانية الحاملة ، وربط مسارات التاريخ بقيمة الهوية الإنسانية ، وتوليد أساس منطقي للفعل المجتمعي العمومي .

وهذا الحصار الخانق الذي يُقيّد حركة اللغة الشعرية يتطلب _ من أجل كسره _ أن تتفوق القصيدة على ذاتها . وهذه الخطوة الصاهرة للمراحل لا يمكن تطبيقها إلا عن طريق تكوين سلوكيات معرفية جديدة لا تكتفي بوصف الحراك الاجتماعي داخل أنظمة الشعر ، أو تشخيص الامتداد الشعري في الحياة الإنسانية، بل أيضاً تساهم في صناعة المجتمع الحاضن لأشكال الإبداع، والمنضوي تحت راية الأبجدية المتفجرة القادرة على منح الجماعة البشرية الخلود العابر للزمان والمكان .

*

جمرة القصيدة وصناعة العالم النقبي

إن مركزية الوجود الشعري تنطلق من حتمية تلافح المكونات الفلسفية في طبقات النص . وهذا التلافح عبارة عن تاريخ وجداني للحلم الاجتماعي الذي يزداد توهجاً ، كلما استبطننا الملامح الثورية من أنقاض الوجود البشري، وجعلنا من الذاكرة الإبداعية فرصة لبناء قصيدة مضادة لانتهيار الإنسان وانكسار الحضارة. والقصيدة هي المرجعية الحاضنة لديمومة الحلم الإنساني ، والمحتوية على تاريخ التجارب الذهنية والواقعية للأنساق البشرية كلها . وهذا ما يجعل الأبجدية الشعرية حيوات متكررة في نظام ثقافي يصقل البناء الداخلي للعاطفة الجمعية .

ولا بد للأبجدية الشعرية من وجود ذهني يكفل لها تخطي العقبات المادية ، ولا بد لها من وجود واقعي يكفل لها حق التعبير عن الألم الإنساني والأمل في التغيير نحو الأفضل ، وإعادة هندسة الذاكرة الإنسانية شعرياً لتصير نموذجاً راقياً على تماس وثيق بالكائنات الحية ، والعناصر الطبيعية الجمالية . وبالتالي تصبح المزاي الجوهرية للعالم القصائدي أغنية على شفاه الطبيعة الحية ، ويتحرر الإنسان من دائرة الميكانيكا الآلية التي حوّلتها إلى شيء مادي بحت .

والإشكالية الكبرى السائدة في المجتمعات المعاصرة هي تكثيف النزعة المادية (الموحشة / المتوحشة) التي تعزل الإنسان عن الوجود الحياتي الكلي والجزئي، وتغرقه في مستنقع التشيؤ (حيث يغدو الإنسان شيئاً ميكانيكياً وتصير عواطفه عبارة عن ارتدادات مادية فاقدة لوحدة

الشعور وتكاملية الإحساس) . وفي ظل هذه الهجمة الشرسة ليس غريباً أن يسقط الفرد في مصيدة التسلع ، أي إنه يتحول إلى سلعة في مجال العرض والطلب ، والبيع والشراء .

ومن أجل تجاوز هذه التحديات المتكاثرة ، ينبغي إعادة تشكيل المجتمع الكؤني الغارق في الكراهية وجدلية ردة الفعل وفورة الغضب. والقصيدة إذ تصنع زمانها ومكانها شديدي الخصوصية، فإنها تصنع مجتمعاً مبنياً على الثورة الأخلاقية الإنسانية بعيداً عن الإملاءات الداخلية والخارجية .

وعلى الرغم من الإخفاقات التي قد يتعرض لها حامل الأبدية الشعرية في طريقه نحو التحرر والتحرير ، إلا أنه سيظل _ لأنه محكوم بالأمل _ قابضاً على جمرة القصيدة من أجل تحويل انكسارات المجتمع إلى أنوية بنائية تساهم في صناعة غد أفضل . وهذا المعنى الثوري لن يظل حبيس النظريات الفلسفية في الكتب، بل سينتقل إلى حيز الوجود البشري، والتطبيقات اليومية الفاعلة . فالإنسان لا يملك خياراً آخر . فإما أن يصنع العالم النقي أو يصنع العالم النقي ! .

فلسفة الهدم من منظور الشعر

إن النسق الإنساني إذا أراد التحرر من هيمنة الاستبداد (السياسي والاجتماعي والفكري) ، فعليه ترسيخ منظومة (النقد / النقض) في أجزاء البناء الثقافي ، وذلك من أجل اختبار النماذج الاجتماعية المتكاثرة ، وتشبيد حالة التجانس بين الأفكار وعلاقتها بالطبيعة الزمانية والمكانية .

ولا يمكن لحالة التجانس أن تصير واقعاً ملموساً إلا إذا قامت أبجدية الشعر بسبر أغوار الإنسان ، وإخراجه من حالة اللامبالاة إلى التفاعل الإيجابي مع العناصر . والتحدي الأساسي في هذا السياق يتجلى في وجود مجتمعات عديدة تجنح إلى تقديس ما ليس مقدساً ، مثل شخصية الحاكم، والذوات البشرية المتنفذة ، والعادات الاجتماعية ذات الطابع السلبي . وبالتالي تنشأ منظومة فكرية متوارثة من المسلمات المحصنة ضد النقد .

ووظيفة الشعر هي غربة الموروث ، وتمييز مكوّناته ، بحيث تنكسر نقاط القوة ، ويتم استئصال نقاط الضعف . فالشعر ليس نظاماً هداماً فوضوياً يرفض كلّ شيء، بل هو أسلوب حياة عقلائي وبنّاء ، وهذا لا يتعارض مع أهمية الهدم _ في بعض الأحيان _ من أجل بناء العناصر الاجتماعية على قواعد صلبة .

وفلسفة الهدم في منظومة الشَّعر لا تنطلق من شهوة الانتقام والمزاجية الطائشة والإقصاء الشامل، وإنما تنطلق من حتمية تفاعل البنية الثقافية الدلالية مع المجتمع الرمزي للقصيدة . وبعبارة أخرى ، إن اندماج ثقافة المجتمع وعوالم القصيدة هو الذي يُحدِّد تضاريس المأزق الوجودي التي ينبغي هدمها لفتح الطريق أمام الكتابة الشعرية كي تحرِّر المجتمعات البشرية من الخوف . ولا يمكن للعقل البشري أن يُبدع في أجواء الخوف ، ولا يمكن للشَّعر أن يتولى القيادة في بيئة الخرافات .

وهكذا نجد أن الشَّعر ليس تياراً مُوازياً للواقع فَحَسْب ، بل هو حياة كاملة تنتشل الفرد من الانهيار الجزئي والكلي لتضعه في مُواجهة العالم كله من أجل إنقاذه لا الانتقام منه . وعندئذ تصبح القصيدة هي المتحدث الرسمي باسم الإنسان في مواجهة سُلطة الأوهام . والكتابة الشعرية ليست تسليّة أو متعةً عابرة أو أحاسيس فترة المراهقة ، بل هي ثورة شاملة نابعة من مُسلمة لا تُناقش ، ألا وهي أن الثقافة حربٌ مفتوحة وأبدية ضد الوهم ، والقصيدة هي جبهة القتال الأساسية ، والمُعقل الرسمي للثورة الإنسانية .

أعضاء الجسم القصائدي الحي

إن الذين يعيشون في الفراغ التاريخي يعتبرون الشَّعر لعبةً أُلغاز ، وكومةً من الأحجيات اللامنتطقية . وهذه النظرة القاصرة نتيجة متوقعة لتراجع دور الشَّعر في صياغة الوجدان العمومي ، وانسحابه من مركزية الحياة العامة . وهذا التراجع المُساوي يفرض على صناع النسق الثقافي أن يعملوا بجد بُغية إعادة القصيدة إلى المجتمع ، وإعادة المجتمع إلى القصيدة .

وهذا الحلم يمكن تحقيقه اعتماداً على القوة الكامنة في النظام الشعري ، فالشَّعر هو تاريخ الانطلاقة المعرفية ذات المقومات القادرة على مجابهة التحديات . ومن أجل حماية شعلة الانطلاقة المعرفية من الانطفاء ينبغي أن تكون القصيدة حُلماً نكتبه ويكتبنا ، ويُعبّر عن ثقافة التغيير التي تلغي الحسابات الشخصية ، والتزعات الفوضوية الشاذة عن المسار الحضاري .

وعلى الشاعر أخذ زمام المبادرة ، وعدم انتظار صفات سحرية وجاهزة من المجتمع . ومن غير المقبول أن يترك الشاعر الآخرين لكي يحملوا نيابةً عنه ويكتفي بالمشاهدة . فالطريق هو الشَّاعر ، والشاعر هو الطريق . وأيضاً ، إن الشَّاعر هو الذي سيمشي في الطريق .

وكلما تعاظم دُورُ الشاعر في الأطر المجتمعية ، ازدادت أهمية الشعور الجمعي النابع من كينونة اللغة . وعندئذ تتحول اللغة الشعرية _ مع نضج التجربة الإبداعية _ إلى بنية اجتماعية متماسكة ترى الحاضرَ بعيون المستقبل .

ويؤول العقلُ الرمزي في القصيدة إلى فضاء إنساني يقوّي علاقتنا الشعورية مع الأبجديات الموازية للأبجدية الأم ، وتصبح الثقافة مشروعاً مصيرياً يستشرف مستقبل الكلمات ، ومداها الشاسع ، سواءً كان منظوراً أو غير منظور .

والتحولات النسقية في طبيعة اللغة تكسر قيود المجتمع المكبوت. الأمر الذي يُحوّل اللغة من وسيلة بنائية إلى متنقّس حالم يحتضن أنوية الوجود البشري . واستناداً إلى هذه المنظومة المتكاملة يتم تنوير الأبجدية المرئية والرائية .

والقصيدة هي المحرك الرئيسي للأبجدية الذهنية التي تعطي للحياة نكهتها ، وتمنح الكلمة مدى آخر يناقش العلاقات الإنسانية ومدى ارتباطها بسلوك العاطفة الشعرية . كما أن ارتباط أنسجة الأبجدية بالامتداد الإنساني _ زمنياً ومكانياً _ هو التجسيد الحقيقي لروح الحداثة الشعرية الماورائية (التي تنظر إلى الجوهر الداخلي للفرد والجماعة) .

إذن ، نحن نُشيد قلعةً كلماتية على أساس الوعي الأبجدي الذي يُجسد الهوية الشاعرة بذاتها وبالعناصر حَوْلها. وهذا يجعلنا نستمد قوتنا اللغوية من وعي الأنا بالذات والجماعة، ووعي الجماعة بالعقل الفردي الجمعي. وإذا تجذرت السُلطة الشعرية واقعاً ورمزاً ، فإن جسد اللغة سيغدو وعاءً جامعاً لأجزاء الوعي الإنساني ، مما يؤدي إلى تشكيل الجسم القصائدي الحي .

*

حركة الشعر ضد الفراغ

إن التاريخ الوجداني للفكر الشعري يتحدد وفق المفاهيم الإنسانية النابعة من الثقافة الاجتماعية. وهذا الارتباط الحتمي والمصيري بين الفكر الشعري والبعد الاجتماعي يؤسس منظومة مفاهيم جديدة تؤدي إلى تشوير اللفظ والمعنى وصهرهما في النظام القصائدي ، مما يجعل الفكر الشعري كتلة متماسكة خالية من الفراغات . فالشعر ينتزع شرعية وجوده واستمراريته من صهر المراحل واختصار الأزمنة وحرق المسافات ، وهذه العمليات المتضافرة لا تسمح بظهور فراغات في الفكر الشعري أو مناطق معزولة ، إذ إن كثافة الولادات الشعرية تجعل القصيدة نهراً متدفقاً سريع الجريان ، وعندئذ يتحول التيار الشعري إلى طاقة تعيد تشكيل الامتداد الثقافي في جسد المجتمع وزوجه .

وكلُّ فراغٍ ناشئٍ عن انهيار العلاقات الإنسانية ، وغربة الفرد في محيطه الاجتماعي ، وغربة المجتمع في نفسية الفرد ، فإن القصيدة ستقوم بملئه لأنها النسق الثقافي القادر على ملء الأمكنة باشتعالات الأزمنة ، وردم فجوات الأزمنة بالحضور المكاني المتأجج .

وانهاء حالة الفراغ في العاطفة الإنسانية والبنية الاجتماعية ليس رفاهيةً أو تضييعاً للوقت . فلا بد من إنهاء الفراغ لكي يتم بناء العالم الشعري وفق مراحل لغوية متطورة ذات شعور واقعي ووعي سوسولوجي . وهكذا تنكسر أهمية المُنْتَج اللغوي الرمزي كأبجدية معرفية تطلع من توهج اللفظة ومركزية المعنى ، ويتحقق التوازن في الجسم القصائدي بين ميكانيكا الشعر وروحانيته .

وهذا التوازن سيصنع السلام الداخلي في الجسم القصائدي ، فتصبح القصيدة في وئام مع ذاتها ، وفي حالة حربٍ مع العوالم الخرافية المصبوغة بهالة المسلمات . كما أن هذا التوازن سيُجَنَّب النظام الثقافي الدخول في متاهة الأضداد ، وماهية الصراع العبي (الصراع في القصيدة / الصراع على القصيدة) .

وبالتالي فإن المنظور المعرفي المتمركز في بنية الثقافة وتفصيل المجتمع ، سيغدو فكراً جمعياً يضمن وحدة الجسد القصائدي وعدم تمزقه . وفي نفس الوقت ستصير فلسفة الأنشطة الاجتماعية شعوراً جمعياً حاضناً للنظام الشعري ذي الصبغة الثورية التي تُشَيِّد المعنى وتهدم الفوضى . وعندئذ يتحرك المجتمع ضمن الجسد اللغوي الواحد ، وتسكن روح اللغة في جسم المجتمع الإنساني .

فضاءات الرمزية الشعرية

إن النظم الشعرية ترسم خارطة " ما وراء النص " ، وتحتضن البؤر الفكرية للتاريخ الذهني الذي تصنعه المكونات الاجتماعية . وهذه العملية المزدوجة تؤسس عوالم جديدة من الرمزية الشعرية الهادفة إلى البناء لا الهدم . والرمزية هي الأساس الفلسفي للشعر بسبب احتوائها على شحنات المعنى الصاعقة التي تتمتع بقوة الوخز العاطفي ليس من أجل القتل، بل من أجل الإيقاظ، تماماً كما يفعل الطبيب الذي يستعمل الصدمات الكهربائية بحق مرضاه ، إذ إنه لا يفعل ذلك لأنه يكرههم ، بل لأنه يحبهم ويريد إنقاذهم . وهذا بالضبط ما تقوم به الرمزية الشعرية المتدفقة في جسد القصيدة وجسد المجتمع .

والرمز الشعري ليس مجالاً للترفيه والعبث ، واستعراض العضلات اللغوية أمام الناس . إنما هو حركة فكرية انقلابية تدمج العوامل التاريخية بجغرافية القصيدة ، وبالتالي تصبح تضاريس القصيدة هي تاريخ حلم الشاعر ، والشيفرة الوراثية التي تحمل خصائص المجتمع الإنساني وتنقله عبر الحقب الزمنية ، وتحافظ على هويته أمام التغيرات الروحية والمادية. لذا فإن الفعل الرمزي لا يمكن المساومة عليه ، أو محاصرته في زاوية العرض والطلب ، لأن هذا الفعل _ بما يحمله من قوة ثورية _ كاسر للحصار ، ومتمرد على الأبعاد الأسطورية التي تنتجها السلطة القمعية لتكريس نفوذها ، سواءً كانت سلطة سياسية أو اجتماعية أو ثقافية .

والجدير بالذكر أن الفعل الرمزي في القصيدة له دور فعال في توليد الفعل السياسي . كما أن سياسة الثقافة من شأنها تكوين ثقافة السياسة ونشرها في أوصال المجتمع أفقياً وعمودياً . وهذا التلازم المصيري بين فضاء الفعل الثقافي ومسار الفعل السياسي ، سيؤدي إلى تنظيم مراكز القوى الاجتماعية وتسخيرها من أجل بناء الشخصية الإنسانية لا طمسها . وهنا تبرز أهمية القصيدة في حفظ وحدة الشعور الإنساني ، والحيلولة دون تمزقه في ظل التغيرات الجذرية التي تهز " التربة الفكرية " دون أن تقتل البذور .

وستظل الرمزية الشعرية منبعاً للدهشة والتجديد ، وسوراً يمنع وصول الاعتيادية إلى القصيدة ، لأن الاعتيادية هي موت الشعر والشاعر .

القصيدة وصناعة المستقبل

لا يمكن اعتبار القصيدة نظاماً لغوياً مُغلقاً يخلو من الأبعاد السياسية والاجتماعية . فاللغة الشعرية هي وعاء حاضن لأبعاد المجتمع الأفقية والعمودية ، الذهنية والواقعية . وهذه الحقيقة تشير إلى مدى تغلغل الفكر الشعري في النسيج الاجتماعي ، وتحول القصيدة إلى قومية قائمة بذاتها ، ذات خصائص متميزة ، وامتدادات شعورية متفردة .

ومن خلال هذا المنظور يتضح دور النص الشعري في تعميق فرص الالتقاء بين الأضداد ، وتجميع العناصر الاجتماعية المتنافرة من أجل بناء مجتمع متنوع ومتجانس . وهكذا تبرز الوظيفة الشعرية باعتبارها كشفاً للأقنعة ، ومشروع تعرية للأوهام المتجذرة في البنية المجتمعية . ولا يمكن للمجتمع الإنساني أن يتجذر في القيم الحضارية في ظل وجود الأقنعة والأوهام ، ولا بد من تطهير

النسق الاجتماعي من نقاط الضعف قبل الانطلاق نحو المستقبل . وهذه المهمة المصيرية لن تنجح بدون مشروع ثقافي مندمج مع حياة الإنسان وتطلعاته .

وإذا تجذرت الثقافة كجوهر للحياة الإنسانية ، فإن المستقبل يصبح ذا تماس مباشر مع حياة الفرد والجماعة ، وليس حُلماً بعيد المنال أو شعاراً رومانسياً في الهواء . وهنا تظهر ضرورة نقل الفرد من الحالة الاعتيادية إلى الأفق الثوري ، وذلك من أجل إضفاء المعنى والشرعية على الحلم الإنساني وسُبل تحقيقه . وبالتالي لا مفر من جعل القصيدة شبكةً متشعبة تصل بين العوامل السيكلوجية للكيانات البشرية .

وبالإضافة إلى كَوْن القصيدة حلقة وصل بين الإنسان وإنسانيته ، فإنها _ أي القصيدة _ حكومة موالية للمعنى، تتفاعل فيها كل الأبجديات السياسية والاقتصادية، السُّكونية والديناميكية . وهذه التفاعلات تشكّل خطوةً أولى في درب التحرير المعنوي، أي تحرير المعنى من ثقل الألفاظ . ومع هذا ، ينبغي حشدُ المعاني الصارخة في اللفظة للوصول إلى مرحلة تثوير المعنى .

ولا يخفى أن المفاهيم الثورية الطامحة إلى تنمية ثقافة المجتمع ومجتمع الثقافة ، تحتاج إلى تنظيم دقيق لئلا يسقط المجتمع في الفوضى والارتجال . وكل نسق حضاري لا يعرف نقطتي البداية والنهاية سوف ينهار سريعاً . وكل مجتمع لا يعرف مساره ومصيره سوف يضيع في الطرق المتشعبة . ولا يذهب بعيداً مَنْ لا يعرف إلى أين هو ذاهب . ومن هنا تبرز أهمية العالم الشعري الافتراضي في تحديد اتجاهات العالم البشري الواقعي ومنحه البوصلة ودقة القيادة .

الحرب الشعرية على الوهم

كل الأفكار الاجتماعية هي نتاج لمركزية الفعل اللغوي، وموقعه الراسخ على خريطة المعنى ، وهذا الحقيقة المعرفية تساهم في إدراك الطبيعة التاريخية للمجتمع ، وتوفّر الشرعية الأخلاقية لحرب القصيدة ضد الأوهام المتكاثرة . ولا يمكن للمجتمع الإنساني أن يتحرك بحرية وإبداع إلا إذا أعلن الحرب على القيم السلبية . وهذا الجو الثوري غير الفوضوي يُحوّل القصيدة إلى جبهة قتال متقدمة وخندق أمامي في مواجهة الخرافة بكل أقنعتها . وهذا لا يعني بحال من الأحوال قتل الإنسان ، وتدمير المجتمع ، وسحق المنجزات الحضارية ، ونشر العنف الدامي . فالحرب التي تشنها القصيدة على الوهم المتشظي إنما ترمي إلى تطهير النسق الاجتماعي من الفكر الدموي

الاستئصالي على الصعيدين الذهني والتطبيقي . فالشعر يقتل الشر في الإنسان ولا يقتل الإنسان ، ويعيد للذاكرة الإنسانية صيغة الحلم الذي كان مندثراً .

وهكذا فإن تصادم الشعر مع الأنساق الاجتماعية السلبية أمر حتمي لا مفر منه . والواقع الإنساني الهش لا يمكن تغييره بالمجاملات أو الهروب منه . وإنما يتم تغييره بمواجهته عبر تحويل الفكر إلى تطبيقات عملية، وإخراج الأبعاد الشعرية من دائرة الذهنية إلى امتدادات الحياة المعاشة.

والقصيدة التي تتحدى الحياة الركيكة للفرد والجماعة ، ليست تياراً لغوياً لقيطاً أو دخيلاً . إن القصيدة منظومة لغوية متكاملة معجونة بالقضايا الاجتماعية، جاءت من صميم الحياة الإنسانية، ونبتت من انتصارات الشعب وانكساراته . وبالتالي ، فإن أجزاء النص الشعري هي كائنات حية مندمجة بالكامل مع أحلام الإنسان ، ومُتَّحدة معه بشكل عضوي لا انفصال فيه .

وقد كانت الصيغة القصائدية حركة تاريخية دائرية مغلقة ، إلا أن تبني الفكر الشعري للهموم الاجتماعية وقضايا المصير الإنساني المشترك ساهم في فك عزلة الخيال عن الواقعية . فلم تعد القضية صراعاً بين الشعر والنثر، بل أضحت صراعاً بين الحقيقة والوهم . ولم يعد الفكر القصائدي محصوراً في الأوزان الشعرية، بل امتد إلى الأوزان الاجتماعية والفلسفية (القضايا المصيرية) .

ولا فائدة من قصيدة تقدّس الأوزان الشعرية ولا تقيم وزناً للإنسان وأحلامه . وإن القصيدة لا تنال شرعيتها من تقسيمات لغوية _ رغم احترامنا للأوزان الشعرية _ ، وإنما تنال شرعيتها من اندماجها بالإنسان ، والقدرة على التعبير عن نقاط قوته وضعفه .

الوعي ووجود القصيدة

إن الوعي الذي تؤسسه القصيدة ليس إجراءً وقتياً أو خُلماً غير قابل للتحقيق . فهذا الوعي المتجذر هو مركز العقل الاجتماعي الذي يسيطر على عوالم النص من أجل حقن المجتمع البشري بالأمل ، وحقن المجتمع الثقافي بالثورة . وهذه العملية كفيلة بتحويل الأنساق الاجتماعية إلى فكر ثقافي يعيد كل البعد عن التقليد والتبعية .

وكلما انتشر الوعي في السياق البشري علا صوت الأبدية الشعرية . وهذا يدل _ بلا شك _ على العلاقة المصيرية بين اللغة ومحيطها الاجتماعي . فاللغة هي الشكل الأسمى للوعي

الاجتماعي ، كما أن الوعي هو اللغة القادرة على حشد المعاني الصارخة في اللفظة الواحدة ، ونقل الإنسان من الهامش إلى المضمون ، ومن اللامبالاة إلى صناعة الفعل ، ومن عبودية لقمة العيش إلى حرية الكلمة والفعل والتطبيق .

ولا يمكن للأبجدية الشعرية أن تؤثر في بيئتها الإنسانية إلا عبر تكريس اللغة كمنظومة متمردة فكرية قادرة على استيعاب التغيرات الاجتماعية الممتدة أفقياً وعمودياً . ووفق هذه الرؤية ينبغي تمهيد الطريق أمام الأبجدية الشعرية لتصنع الزمن الجديد الحاضن للخيال والواقع . فالمجتمع الفاضل المنشود لا يمكن أن يصدر إلا عن أنساق ثقافية متمردة تتحلى بقيمة الرفض البناء لا العبي .

والرفض المنهجي _ الذي يبنى ولا يهدم _ يمتلك أدواته في تجديد الخطاب القصائدي ، ومنحه القدرة على تلمس المحتوى الديناميكي للحلم الجمعي . وهذه الحركة المعرفية الشاملة تقضي على أي ارتباك لغوي قد يظهر في ثورة بركان الأبجدية الشاعرة ، وتعيد تشكيل الفلسفة الاجتماعية الخارجة على قانون التمييط ضمن علاقات إنتاجية هادفة إلى إعادة صناعة الإنسان والمجتمع .

وهذا يؤدي إلى تفجير المواهب المختبئة في الإنسان ، ونقل النظام السياسي الكامن في الداخل الشعري إلى الأفق المجتمعي المعاش . والقصيدة يجب أن تخرج إلى حيز الوجود عن طريق إثبات هويتها الذاتية ، وترسيخ الوجود هو دليل التواجد الفاعل . ولن تقدر القصيدة على الخروج من عنق الزجاج ، إلا إذا أثبتت الوجود العاطفي للإنسان ومستقبله الحالم .

*

فلسفة القصيدة والعاطفة الإنسانية

لا يمكن للبعد الثقافي أن يتكرس على أرض الواقع ، إلا إذا قمنا بتطوير اللغة الشعرية وحقنها بالتطبيقات الإنسانية ذات التماس المباشر مع الحياة الاجتماعية . والإنسان لن يعتبر القصيدة جزءاً من فلسفة وجوده إلا إذا كانت القصيدة تعبيراً حقيقياً عن هوية الإنسان ومساره الحياتي . ومن أجل إحداث هذه النقلة الفكرية الهائلة ، ينبغي التعامل مع الأبجدية الشعرية على أنها تركيب

اجتماعي مقترن بالنمو العاطفي للإنسان الذي يُفترض به أن يُطهّر نفسه من إفرازات السراب الفكري والأوهام الاجتماعية . وهذا التطهير هو الفلسفة الأساسية للقصيدة التي نكتبها وتكتبنا .

وعلى القصيدة _ إذا أرادت قيادة المشروع الثقافي المجتمعي _ أن تصحّح المفاهيم المغلوطة في الأذهان . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن لفظة " العاطفة " قد اقترنت في أذهان الناس بالضعف والاستسلام . والمشروع الشعري بأكمله قائم على العاطفة ، لذا فمن الأهمية بمكان ألا تكتفي القصيدة ببناء فلسفتها الخصوصية . فلا بد أن تخرج القصيدة من شرنقتها ، وتبني نظاماً فكرياً جديداً يوازن بين الروح والمادة ، من أجل الانقلاب على النظم الاجتماعية الاستهلاكية التي تستنزف المشاعر وتقتل العواطف . وهنا يتجلى الدور الاجتماعي للقصيدة التي يجب عليها التزول من بُرجها العاجي إلى أرض الواقع لانتشال الواقع ورفعها إلى عوالم أكثر إشراقاً . فالشعر هو مشروع اجتماعي عام يشمل الأنا والآخر استناداً إلى الرابطة البشرية ، ووحدة المصير الإنساني في هذا العالم المضطرب .

والعاطفة التي تصوغها القصيدة ليست دليل ضعف أو هروباً من الواقع ، وإنما هي إحياء للضمير الاجتماعي _ بصيغته الفردية والجماعية _ ، وتجميع لشظايا الإنسان الممزق في المجتمع العالمي المتوحش .

وكلُّ الشاعر _ التي تؤسسها القصيدة _ تتسم بعمقها المجتمعي ، وقوتها اللغوية النظامية المتمركزة حول جوهر الإنسان، ومركزية وجوده في أنساق الحياة المعاشة . والأبجدية الشعرية تذكر الأبجدية الاجتماعية بأنها النواة المركزية للفكر الإنساني ، وأنها ليست هامشية في صفحة التاريخ . فالأبجدية الاجتماعية ليست عرضاً بل جوهرًا . فالعرض زائل، لكن الجوهر ثابت . والعرض لا يدوم زمانين ، أمّا الجوهر فيدوم رغم تعاقب الأزمنة واختلاف تضاريس الأمكنة . ومن هنا تنبع قوة فلسفة القصيدة الحاملة لهموم المجتمع .

التحويلات المصيرية في عالم الشعر

لا يمكن معرفة الخصائص الاجتماعية للظاهرة الشعرية ، إلا عن طريق تحليل الدلالات الفلسفية المتجسدة في القصيدة ، وتوفير بيئة خصبة لنمو الأفكار المتماهية مع الخطاب اللغوي في نخاع الأبجدية الرمزية . فالتحليل العقلائي والبيئة الحاضنة للإبداع هما ركيزتا الثورية الثقافية .

ونحن حينما نمارس فعل الكتابة الشعرية ، لا نغرق في ترف اجتماعي أو هوية لملء وقت الفراغ ، وإنما نزرع عناصر الدلالة الشعرية في بنية المجتمع ليتسنى لنا الحفاظ على هوية المعنى بكافة أبعادها ، وتأسيس علاقة مصيرية بين الأدب والناس تمتاز بالديمومة . وفي هذا السياق سوف تبرز أهمية الأفق الشعري بوصفه حاملاً للطموح البشري ، وذاكرة خالدة تكافح النسيان والاندثار . الأمر الذي يجعل من الثقافة الشعرية نظاماً اجتماعياً محسوساً وعابراً للحدود النفسية والجغرافية .

وكلما ازداد وهج القصيدة في البنى الواقعية ، ازدادت فاعلية الممارسات الاجتماعية ، لأن العلاقة بين الأبجدية الشعرية والأبجدية البشرية علاقة تكاملية لا انفصام فيها . وهذه العلاقة المحورية لا يمكن أن تستمر بدون وعي ثقافي تسلسلي قادر على التعبير عن أنظمة بناء القصيدة باعتبارها معماراً فنياً قائماً بذاته ، وأنظمة بناء المجتمع الواقعي بوصفه نظاماً حياتياً ذا امتدادات في تفاصيل الشعور الإنساني . وهذان المساران المتقاطعان (القصيدة / المجتمع الواقعي) كفيلا بتحقيق أهداف الحراك الشعري ، وهي : الحشد المعنوي المكثف ، والوضوح الرمزي الواعي ، وتطوير مستويات اللغة الحاملة ، وتحويل أبجدية الهمس إلى واقع مسموع .

وهذه التحولات المصيرية سوف تحمي الفكر الشعري من الانزلاق نحو الفلسفات اللغوية المبهمة التي تسلب أفلاك القصيدة قوة دورانها وسعة مداها . وفي نفس الوقت سوف تحمي الفكر الاجتماعي من العزلة والهشاشة . وبالتالي فإن الجسد القصائدي سيكتسب بعداً تثويرياً حاسماً وصادماً ، وينمو في قلب المجتمع الإنساني ، وعندئذ تزول غربة اللغة في محيطها الاجتماعي ، وتختفي غزلة المجتمع من العالم الشعري .

*

نعم نظام شعري عالمي جديد

إن عبقرية القصيدة تتجلى في ابتكار نظام اجتماعي نقي وواقعي لا يمكن حصره في نطاق الكلمات ، وتحويل الأبجدية اللغوية الوجدانية إلى منظومة حياتية كاسرة للأنماط المستهلكة .

وهذه العبقرية ليست وليدة الصدفة ، بل هي نتاج منطقي للفعل الشعري الذي يتحرر من ثقل الأزمات الوجودية، ويُحرر الأطر الاجتماعية من هواجس الفوضى الإنسانية . ووفق هذه المعادلة الثقافية (التحرر / التحرير) تصبح البنية الشعرية والمنظومة الاجتماعية وجهين لعملة واحدة اسمها الحرية.

ولا يمكن للمجتمع البشري أن ينهض إلا إذا وُضع ثقته الكاملة في القصيدة ، لأنها ضمير المجتمع ، وشعلة الفكر الإنساني ، والرُبانُ القادر على استشراف المستقبل وتوجيه دفة السفينة . وإذا كان الاقتصاد هو العمود الفقري للمجتمعات، فإن الثقافة الشعرية هي روح المجتمعات وقلبها النابض .

وحينما يتغلغل الوعي الشعري في حياة الجماعة البشرية ، فإن الأفراد سيملكون القدرة على رؤية ما وراء العالم المادي المحصور في النزعات الاستهلاكية ، وعندئذ تؤول أنساق الأبجدية الشعرية إلى آفاق معرفية قابلة للحياة والتطبيق ، ويولد نظام شعري عالمي يدرس تاريخ الوجود البشري على أنه قصائد لم تُكتب بعد ، وعلى المجتمع الإنساني أن يكتبها لتصير اللغة كائناً حياً يعيش معنا نحاورة ويحاورنا .

وهذا النظام الشعري يُمثل منهجاً واضحاً في فهم الثقافة المجتمعية الواقعية، لكنه_أي المنهج _ لا يصبح متكاملاً وراسخاً إلا عن طريق تجميع عناصر الجنين الشعري، الأمر الذي يؤدي إلى تركيب حضارة لغوية قائمة على النص بدلاً من تصنيف الذات الشاعرة (تحويلها إلى صنم فوق مستوى النقد). إذ إن تصنيف ذوات الأشخاص يُضفي الشرعية على كلامهم ، ويجعله مُسلّماتٍ غير قابلة للنقاش ، وهذا يتعارض _ جُملةً وتفصيلاً _ مع فلسفة القصيدة ، لأن القصيدة هي غُرْبَال يستمد شرعيته من قدرته على التمييز والنقد والنقض والمساءلة .

*

الأساس الفكري للشعر

لا يمكن للشعر أن يجد حاضنةً شعبية إلا إذا نجح في إحداث تغيير اجتماعي حاسم ، وبناء علاقات متوازنة ومنطقية بين الرؤية والرأي ، والقصيدة والشاعر . وهذه المهمة المصيرية من شأنها إحياء الإنسان داخل الإنسان ، وإعادة الحياة إلى الأنساق الاجتماعية الميتة. والشعر قد وجد أمامه عالماً مكسوراً يعج بالموتى الذين لا يعرفون أنهم موتى ، وعلى الشعر أن يحييهم جميعاً عن طريق الصعق بكهرباء الكلمة . وهذا الصعق اللغوي يحيي ولا يقتل . ووفق هذه الرؤية ، تكون عملية الإحياء (إحياء الفرد / إحياء النظم الاجتماعية) هي الأساس الفكري للشعر.

إن القصيدة _ ذلك المجتمع المتأجج _ لا تعتمد التدرج في فلسفتها ، لأنها نص زمكاني (زماني مكاني) عابر للتجنيس الزمني ، وعابر للحدود الجغرافية. فبداية القصيدة قوية تماماً مثل وسطها ومثل نهايتها، فالتدرج صفة تقتل روح القصيدة وتحولها إلى موعظة. والقصيدة أيضاً لا تتنازل أبداً، فهي تُقاتل على كل الجبهات دون أن يصيبها الإعياء ، بعكس الإنسان الذي هو كيان محدود من لحم ودم ، يتعب ويرتاح . والقصيدة لا تتعب ولا ترتاح بسبب قوتها الرمزية المستمدة من العقل الجمعي لعناصر الطبيعة . وهكذا تبرز الفوارق الجذرية بين مجتمع القصيدة والمجتمع البشري . كما تبرز أهمية الصور الفنية الشعرية الحاملة لروح التغيير والصعق اللغوي ، والتي تهدف إلى حقن الفرد بالقيم الإنسانية التنويرية ليظل سداً منيعاً أمام المخططات الرامية إلى قتل الإنسان في الإنسان.

والجدير بالذكر أن الكتابة الشعرية ترمي إلى إحداث ثورة فكرية في العالم كله، وقبل ذلك إحداث ثورة أخلاقية في الشخصية البشرية المضمحلة . والثورات الفكرية لا يمكن أن تنفصل عن الثورات الأخلاقية _ مهما اختلفت الأشكال _ .

والقصيدة بوصفها عقلاً جمعياً ترفض الوقوف على الحياد والغرق في التجريد الفج. والمسؤولية الأدبية التي تضطلع بها الكلمة تحتّم على كل تفاصيل الأبداعية الشعرية أن تخرج من دائرة الاستقطاب الوجداني السلبي ، وتدخل في صميم مشكلات الناس وأزمات المجتمع . والكتابة الشعرية باعتبارها فعل التحدي وأساس عملية التغيير ، تقاوم كل الانحرافات الذاتية والجماعية من أجل إعادة صناعة الفرد وهندسة المجتمع . ونحن هنا لا ندعو إلى الفوضى والعشية ، وإنما ندعو إلى تشييد الذات الإنسانية والكيان الاجتماعي اعتماداً على الفكر التنويري القابل للتطبيق ، وليس اعتماداً على فورة الغضب والحماسة الفوضوية التي تصير تهوراً لا تحمد عاقبته.

الفعل الشعري والتنمية الاجتماعية

إن الفعل الشعري يضبط إيقاع العناصر الاجتماعية المتغيرة ، وينقل الأجدية المعرفية إلى قلب المجتمع . ممّا يؤدي إلى تعزيز نفوذ الكلمة حتى تصير امتداداً لوجود الإنسان ، ومُعادلةً للنمو الثقافي أفقياً وعمودياً . والكلمة هي رئة المجتمع، والعالم الموازي للشعور الإنساني ، وروح الأجدية التي نكتبها وتكتبنا . وشرعُ الكلمة تكمن في قدرتها على تزويد الحراك الاجتماعي بالطاقة الفكرية، وضمان استمرارية بناء الإنسان على قاعدة الإبداع الثقافي ، وترسيخ الرؤية القادرة على التجرد والتجريد . وكلما التصقت الكلمة بالمصير الإنساني واقعاً وحُلماً ، اندفعت الكثافة اللغوية في أقاصي المعاني الاجتماعية . وعندئذ تتولد أجديات تكسر حواجز الصمت ، وتقتل الخوف في الإنسان .

وعندما يزرع الفعل الشعري الكلمة في نخاع المجتمع ، فإن تقنيات القصيدة سوف تؤول إلى حركة اجتماعية نشطة تعيد الاعتبار لكيونة الفرد وتنقله من الهامش إلى قلب الأحداث. وذلك لأن القصيدة هي انقلاب عقلائي لا فوضوي ، يتجسّد في التفاصيل الاجتماعية على شكل حالة معرفية دائمة الحركة والانتشار . وبذلك يصبح الفرد هو الخندق الأول في مواجهة القيم السلبية التي تكرّسها السُلطات القمعية ، سواء كانت سياسية أم اجتماعية .

والمشكلة التي تُواجه النسق الشعري ، هي سيطرة الفوضى الخلاقة على القيم البشرية السلوكية . فصار للمركب أكثر من دفة ، وأكثر من رِئان . وهذا الأداء الهستيري يظهر _ على الدوام _ في مجتمعات انهيار الذاكرة وانكسار الحلم .

وفي وضع كارثي كهذا ، لن تكون مهمة القصيدة سهلة في إعادة بلورة الوعي العام وتحذير القيمة الإنسانية. لكنّ القصيدة لا يمكن أن ترفع الراية البيضاء أو تهرب من المواجهة ، فهي تمتلك المقوّمات الذاتية ، والتصميم على إدخال المجتمع في قلب التنمية الحقيقية لا الشعاراتية، وعندئذ يدرك المجتمع كينونته الذاتية ، وكينونة العناصر المحيطة به .

*

دور الأبجدية الثقافية في المجتمع

إن المشروع اللغوي لصناعة مجتمع الفكر التنويري، هو مشروع تراكمي يتطلب تضافر جهود الأفراد والمؤسسات . وهذا المشروع ليس ديكوراً تجميلاً . بل هو تأسيس منهجي لمستقبل الوجود الإنساني ، مبني على معطيات منطقية تطرح الأسئلة على المجتمع من أجل إعادته إلى الحياة، ووضعه أمام التحديات المصيرية المتمثلة في تحرير الأبجدية الثقافية من الخرافات ، وتحرير النص الإبداعي من أيديولوجيات القهر والكبت، وتحرير الإنسان من ثقل الهواجس والخوف من المستقبل المجهول .

والأبجدية الثقافية _ باعتبارها طوق نجاة للنساق الاجتماعية _ تمثل السور الأخير الذي يحمي هوية الكيان الاجتماعي ، وشخصية الفرد المستقلة ، وهوية الجماعة الإنسانية . كما أن الأبجدية الثقافية هي معقل الحضارة الأخير ، وسقوطه يعني سقوط شرعية الوجود الإنساني ، أي سقوط المعنى وانتحار اللفظ ، وعندئذ تختفي اللغة الحاملة للتراث الفكري المتراكم ، والحاضنة للمخزون الشعوري للفرد والجماعة عبر الحقب المتعاقبة. ولا يمكن للإنسان _ مهما بلغت قوته _ أن تقوم له قائمة بدون اللغة القادرة على منح الشرعية وسلبها . ولا يمكن للحضارة _ مهما امتلكت أدوات التقدم التكنولوجي _ أن تنال الاحترام بدون الثقافة والإبداع الفكري .

إن الإنسان الحقيقي هو مؤسسة ثقافية قائمة بذاتها ، تعمل من أجل تكريس سيادة الفكر التنويري على كافة المكونات الفلسفية في البيئة الاجتماعية . وإذا عاشت الثقافة مع الفرد ، فإن الفرد سيعيش معها ليؤسس عالماً جديداً يزواج بين العناصر المعرفية في النصوص الإبداعية وبين إفرازات الواقع المعاش . وهذا التزاوج هو الضمير الواعي الذي يحدث ثورة في العقول من أجل فهم أفضل للبناء الإنساني والبناء الفكري ، واكتشاف الهوية الحقيقية لوجود الإنسان ومساره ومصيره .



انتفاضة الفكر الشعري

لا مفر من حتمية تلاقح المكونات الواقعية والعناصر الذهنية في روح القصيدة ، لأن القصيدة هي مجتمع قائم بذاته . وكلُّ مجتمع حي له جناحان : الواقع والذهن . وإذا أردنا استلهاً التجربة الشعرية في حياتنا العملية فلا بد من دمج الروح والمادة معاً من أجل الحصول على سبيكة ثقافية قادرة على إخراج الفرد من متاهة الفكر المجرد الزائف إلى الوجود الحقيقي للحلم الجمعي . وعندئذ سوف تتحرر القصيدة من مزاجية العناصر الاجتماعية ، ويتحرر الشاعر من فوضى التاريخ المضطرب ، مما يؤدي إلى انتفاضة الفكر الشعري وانعتاقه من ثقل اللحظة الراهنة ، ووطأة العناصر اللغوية المتكررة .

إن حيوية القصيدة مستمدة من قدرة الأبجديات الشعرية المتكاثرة داخل النص على إنتاج حركة اجتماعية معرفية غير محصورة زمنياً ومكانياً . وهذه الحركة المفعمة بالأسئلة المصيرية تندمج مع قواعد التأصيل الفلسفي للشعر ، وبالتالي تتأسس عوالم تأويلية جديدة نابعة من هوية اللغة ، وذاكرة الحراك الاجتماعي . الأمر الذي يؤدي إلى توليد هويات شعرية جديدة في قلب الصور الفنية الحاملة لتاريخ الجماعة البشرية، وتوليد آليات ثقافية تدرس تطور مجتمع القصيدة والقفزات النوعية النابعة من أبجديات الفلسفة الشعرية ولغويات المنهج الاجتماعي .

وإذا وجدت الآليات الثقافية بيئة خصبة ، فإن معايير التصور الشعري والتصوير الفني سوف تتحسن إلى الأفضل، وتتجذر كتقنيات معرفية متماهية مع ذاتية التجربة الشعرية وحرارة التعبير اللغوي ، ولا تكتفي بالتنظير من الأبراج العاجية ، بل تختلط بنبض الشارع ، وإحساس الشاعر ، وتكاملية المشروع الأدبي الكلي بعيداً قوالب اللغة القصائدية المستهلكة .

*

القصيدة ترفض التهميش

إن القصيدة الحقيقية تنبع من عمق التجربة الداخلية للمجتمع الذي ينمو في وعينا اللغوي . وهذا النمو يعيد إنتاج الذاكرة الإنسانية ، وبناء أحاسيس الجماعة البشرية على قاعدة صلبة نابعة التكثيف اللغوي والفاعلية الشعرية ، مما يضمن استمرارية تلاحم القوة المجتمعية مع القوة الثقافية. الأمر الذي يقود إلى توليد قصيدة محلقة في الخيال ومعجونة بالواقع ، بلا تناقض أو تنافر .

والمدى الواسع الذي تتحرك فيه القصيدة يُحتم عليها أن تختلط بوجوه الناس ومشاعرهم وأزماتهم . ولا يمكن للوعي الشعري أن يقف على الحياد ، لأن النص المحايد هو ركام لغوي ميت ومحجوب عن تداعيات الفعل الاجتماعي ، ويؤدي إلى انهيار الجسم الشعري بأكمله ، وانكسار المشروع الثقافي. لذلك لا يمكن القبول بقصيدة تولد في الهامش وتموت في الهامش، لأن هذا الأمر يتعارض بالكلية مع فلسفة الشعر الطامح إلى تأريخ مفاصل الوجود الإنساني في عالم حافل بالمعاني واللغويات والوجدانيات .

إن القوة الشعرية هي امتداد للتمرد المنهجي لا الفوضوي، وبالتالي فإن البنية الفكرية للقصيدة ترفض التهميش _ جُملةً وتفصيلاً _ . فالتهميشُ يسلب شرعية الوجود القصائدي ويُحيله إلى ظاهرة صوتية عاجزة عن التأثير في البيئة المعرفية . كما أن قوة القصيدة كامنة في مشروعية الرفض، أي قدرتها على قول : ((لا)) في الوقت الذي يخاف فيه الآخرون من قول : ((لا)) . وهكذا تحرق القصيدة الملهية الحيات القتال ، وتصنع بوصلتها الخاصة التي ترشد الكائن الحي إلى كيانه العاطفي والمادي . وبالتالي فإن الوهج سيَدُبُّ في الأنساق الثقافية بِرُمَّتْها لينقلها من طَور التعبير الاجتماعي المرتجف إلى طَور الثقة المطلقة بالهوية الشعرية ومكوّناتها الاجتماعية .



الشرعية الاجتماعية للشعر

إن الشرعية الاجتماعية للشعر مستمدة من قدرة القصيدة على صناعة الأبيديات التي تخاطب الروح والعقل معاً ، واحتضان كافة التراكيب الاجتماعية المتنافرة من أجل إقامة المجتمع الراقي القائم على محاربة الفقر الروحي قبل الفقر المادي . وهذا الأداء الاجتماعي الحالم يمثل انطلاقة واقعية قابلة للتطبيق ، وإنتاج فلسفة ثقافية نابعة من اللغة بوصفها مُعادلَةً للكيان البشري وشرعية وجوده .

والقصيدة معنية _ في هذا الصدد _ بممارسة الوعي الشامل وتعميمه على أنساق الجماعة البشرية من أجل تكوين خطاب سياسي حاض للثقافة ولا يتاجر بها . فلا بد للسياسة والثقافة أن تنطلقا من منظور إنساني لتحقيق أحلام الشعب ، وليس تخدير الشعب أو اللعب بعواطفه . ومن شأن القصيدة _ المبنية على أسس الوعي _ أن تقود خطة تغيير شاملة لاستكشاف أعماق اللغة الرمزية ، والتنقيب عن منابع الفكر الاجتماعي التي تمنح الفرد الشعور والدافعية ، والقدرة على الحركة التنموية لا الشعاراتية المجردة ، وتفعيل الحراك الاجتماعي ، وتحريك الماء الراكد بإثارة الأسئلة وطرح القضايا الحساسة بلا تحايل أو مُجاملة .

وهذه المنظومة المتكاملة ستؤدي إلى زراعة الحلم الاجتماعي في أنساق الشعر ، التي تقدّم مشروع الخلاص الفلسفي للكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان . وعندئذ يصبح من المستحيل فصل النمو الأبجدي عن النمو الشعوري للإنسان ، وهذا الالتصاق المصيري من شأنه وضع النص في أقصى مداه ، ووضع الكلمة في أقصى مدى الأبجدية ، فتتم الانطلاقة الفاعلة نحو تجذير الرؤية الفكرية للمجتمع اللغوي ، وتكريس الرؤية الرمزية للمجتمع البشري .



القصيدة خارطة جديدة للعالم

إن النسيج القصائدي هو التجسيد المنطقي للإحساس البشري القادر على صياغة خطاب ثقافي تحليلي يمتلك القابلية للنمو في الجسد الاجتماعي ، والوجود العاطفي للإنسان. وكلما انتقلت القصيدة من عزلتها إلى مركز الحدث ، اندمج البعد المجتمعي مع البعد الشعري في بؤرة النص ، وهذا يسمح بإنشاء قيم ثقافية حيوية تضع العالم الشعري في قلب العالم الواقعي . وهنا تتجلى عبقرية المكان (المحسوس وغير المحسوس) الذي يسكن فينا كما نسكن فيه . ومهما اختلفت الأبعاد المكانية باختلاف الأزمنة وتعاقبها ، فإن القصيدة ستظل هي المكان الأثير الذي يُولد فيه الشاعر ويموت فيه .

وليست الفلسفة الهلامية هي التي تصنع " المكان " في النص الشعري ، وإنما تصنعه البنية اللغوية للخطاب الاجتماعي ، الأمر الذي يقود _ حتماً _ إلى تدفق الوعي الأبجدي نحو المعنى الاجتماعي ، وبالتالي تنتقل الصيغ الأبجدية من عالم التجريد إلى رمزية اللغة التي تعيد هندسة الأبعاد المجتمعية الآيلة للسقوط، مما يتيح الفرصة للثقافة أن تتواجد في صميم الشعور الإنساني، وتضاريس ذاكرة الجماعة البشرية .

ومع تكاثر المتواليات الرمزية الحاملة لشيفرة الإبداع الثقافي ، تزداد أطوار هندسة الألفاظ ووحد المعاني القابضة على جمرة النظم الاجتماعية ، فتنشأ مصطلحات لغوية جديدة محملة بالفكر الإبداعي لا التلقيني. وهذا التأسيس المنهجي يغرس حالة الوعي العمومي في المجتمع ليحدث التغيير الإيجابي . وهذا التغيير لن يكون سوى شكل جديد للأبجدية الشعرية التي نفكر بواسطتها ، وتضعنا على خارطة التحولات الاجتماعية العالمية .

*

تحول القصيدة إلى سلوك اجتماعي

لا يمكن الحصول على الطاقة الشعرية إلا عن طريق التنقيب في اللغة الرمزية الموازية للمشروع الثقافي الجمعي، والوصول إلى أقاصي اللغة من أجل اكتشاف العوالم الكامنة وراء اللفظ والمعنى . وهذه العملية الاكتشافية توفر الأساس الفلسفي لحياة القصيدة وتحولاتها، والديمومة الحيوية للثقافة. مما يؤدي إلى وضع الرموز الشعرية في سياق الوضوح الاجتماعي فتحدث الإسقاطات على الواقع، ويمتزج الواقع بالخيال ، وهذا يدفع باتجاه تغيير الواقع إلى الأفضل ، وتحويل الخيال إلى منظومة إبداعية قابلة للتطبيق تحل مشكلات المجتمع ، وترسم السياسات الناجعة على كافة الأصعدة .

ولا يكفي أن تقوم القصيدة بترجمة المعاني الاجتماعية إلى صور فنية ، والغوص في أعماق اللغة الشعرية ، والتنقيب في أبجديات الفكر الثقافي ، والقيام بحفريات في جسد الرموز الإنسانية ، بل عليها أيضاً _ أي القصيدة _ أن تتواصل مع الواقع وتعجنه بالأفكار الواعية ، ولا تقيم قطيعة مع العالم المادي. وهكذا يتحول الفكر الشعري إلى مشروع جماعي تساهم الجماهير في كتابته ونشره، وجعله مشروع خلاص عابراً للزمان والمكان . وهذا يمنح القصيدة شرعية التجاوز ، والقدرة على صناعة التاريخ الإبداعي الخاص الذي يصب في تاريخ البشرية العام . وبالتالي تتجذر عملية صهر المراحل كنواة أساسية في الحياة الثقافية والاجتماعية ، فتؤكد الحقيقة الشعرية التي تواصل النمو في مناخات المعرفة والتقدم .

وهذا الحراك الإبداعي الدؤوب يؤدي إلى تدعيم المنظور الشعري ، وإحالة البعد العاطفي في القصيدة إلى تطبيقات اجتماعية ، فتصبح حركة الألفاظ والمعاني سلوكاً إنسانياً محسوساً ، ويتحول الرمز الشعري إلى كيانات بشرية . لذا ليس من الغريب اعتبار القصيدة كائناً حياً كاملاً الحياة انتزع حرته بنفسه ، فأصبح _ أيضاً _ كامل السيادة .

*

عَوَالِمُ الْقَصِيدَةِ وَالْمَجْتَمَعُ الْإِنْسَانِي

القصيدة هي مشروع تنموي لا يهدف إلى التعبير عن الأشياء فَحَسْب ، بل أيضاً الدخول إلى حقيقة المجتمع الإنساني. وهذه النظرة من شأنها مزج المضامين الثقافية مع السلوك الاجتماعي ، والمزاوجة بين طبيعة المعرفة الإنسانية ومركزية اللغة الشعرية المحركة لمشاعر الناس . وهذا الارتباط الوثيق بين القيم الثقافية والقيم الاجتماعية سيؤدي إلى صناعة عالم محسوس مواز للعالم الشعري الحالم .

وكلما ازدادت التداخيلات الشعرية ، تكاثرت العوالم المحسوسة وغير المحسوسة . وهنا يظهر دور القصيدة المحوري في التوفيق بين الأضداد، وصهر التناقضات الناشئة في بوتقة واحدة للوصول إلى أرضية مشتركة تجمع بين النص الشعري والفكر الاجتماعي . لذلك فإن القصيدة تقف سداً منيعاً في وجه الفوضى ، والإحباطات الحياتية، والاستنزاف العاطفي . وبالتالي فليس غريباً أن تصبح اللغة الشعرية هي ضابط الإيقاع في مجتمع القصيدة ومجتمع الإنسان على حد سواء .

وبما أن العلاقة بين القصيدة والمجتمع الإنساني تبادلية وتكاملية ، فإن الواقع المعاش يساهم في تخليص القصيدة من الهوامش الزائدة التي تصبح عبئاً على قلب الكلمات النابض . مما يؤدي إلى الحصول على لغة شعرية عالية التكثيف تماماً كالماء المقطر .

والمشكلة الحقيقية التي تواجه بنية العالم الشعري ، هي وجود قصائد كثيرة مُحَمَّلة بشوائب فكرية يتم تقديمها كمسلّمات ، فصارت القصيدة في كثير من الأحيان بُوقاً إعلامياً ، وسلعةً يراود ترويجها بكل السبل الممكنة. وهذا يقتل الإحساس الشعري، ويجعل من الفكر الشعري قيمةً مُتَبَدِّلَةً خالية من المضمون والإيقاع الصادق ، ويهدم كل العناصر الخيالية والواقعية . لذلك ينبغي أن تحافظ القصيدة على اسمها وسلطانها ولمعانها وأبجديتها الخصوصية ، فهذه هي الضمانة

الوحيدة لتكريس القصيدة ككائن حي حالم وواقعي ، يحشد عنفوان اللغة في الحلم الاجتماعي ، وينشر فلسفة الحلم بغدٍ أفضل .

*

القصيدة والتاريخ الجديد

إن الحلم القصائدي لا يمكن أن ينتشر في المجتمع بدون الصور الفنية الرمزية البناءة، وهذه الصور هي النظام الذي يجسّد الشعور الوجداني العام ، ويحمل التصورات الاجتماعية التي تعيد اكتشاف أبجدية الثقافة والدلالات الإنسانية العميقة . وهذا لا يعني تحول القصيدة إلى عملية نسخ للعلاقات الاجتماعية . فالقصيدة هي منظومة متفردة تصنع تاريخها الشخصي ، وتولد أزميتها وأمكنيتها دون ضغط من أحد . وبذلك تكون الأبجدية الشعرية معياراً إنسانياً جديداً متحرراً من ردود الأفعال ، لأنه هو الفعل الحقيقي المتنوع لا التابع .

والمجال الحيوي لنظام القصيدة هو وجوه الناس. فهذا النظام المتميز يصنع تاريخاً جديداً للبشر، فهو ينقلهم من فوضى النمط الاستهلاكي إلى فضاءات إبداعية تزرع دهشة الحياة في الواقع المادي الضيق ، وتنشر لذّة الوجود الإنساني في العلاقات الاجتماعية ، وتكتشف رمزية العناصر الحياتية . وبالتالي يتم تأريخ الواقع المعاش ضمن أبجديات الرؤية الشعرية التي تبحث عن عوالم الماضي في الحاضر ، وتفتش عن ذاكرة المستقبل في الحاضر أيضاً ، وهكذا يصير الحاضر زمناً قصائدياً ، وتاريخاً كاملاً لا حدود له ، وتدخل القصيدة إلى عوالمها وفق سياق معرفي محدّد المسار والهدف ، مما يقضي على فوضى الأداء العاطفي التي تظهر أحياناً في التقنية الشعرية .

وكلّ هذه التراكيب المعرفية تساهم في إقناع المجتمع بأن القصيدة ليست ترفاً زائداً ، أو هلوسات عائشة في عالم الفوضى . وعندما يقتنع المتلقّي بأن القصيدة جزء لا يتجزأ من شرعية وجوده الروحي والمادي ، نكون قد نجحنا في جعل القصيدة ذاكرةً حية لجميع الناس ، ومشروعاً إنسانياً عاماً يُحرّر الفكر الاجتماعي من ميراث القمع بكافة أشكاله .



النص الشعري ورفض الحياد

إن النص الشعري ليس هروباً من الواقع ، وإنما هو إعادة صناعة الواقع وفق منظور إبداعي لا مكان فيه للوهم. مما يؤدي إلى تجذير قيم السلوك الرمزي من أجل تأكيد الحس الاجتماعي ، ونشر الزخم الشعري المحاط بالكينونة البشرية . وهذا الاندماج المصيري بين الزخم الشعري والوجود الإنساني مهم جداً لفهم طبيعة اللغة والغوص في عوالمها الرمزية، وإدراك تفاصيل العلاقة بين الأبجدية اللغوية الشعرية والسلوك الاجتماعي العام . وهذا الترابط الضروري إنما يكتسب مصداقيته من قدرة القصيدة على رفض أنصاف الحلول. فالقصيدة لا تسام ، ولا تراهن إلا على نفسها ، ولا تبني سياستها وراء الأبواب المغلقة . وهذا ما يجعل القصيدة مجتمعاً حراً لا يمكن إخضاعه أو احتلاله .

وهذه القوة الشعرية العارمة ينبغي الاستفادة منها في بناء أداء اجتماعي ثقافي متماسك . إذ إن تلاحم الوعي الاجتماعي مع الأفق الثقافي من شأنه تقديم حلول جذرية لمشكلات الإنسان ، والحفر عميقاً في مركز النواة الحياتية بغيّة استخراج مجتمع جديد متفاعل مع المسار والمصير ، ولا يقف متفرجاً على الأحداث . فالمجتمع البشري _ مثل المجتمع القصائدي _ لا يمكن أن يكون محايداً . فالانقلاب اللغوي لا حياد فيه ، كما أن المجتمع الشعري لا يحصل على اعتراف العناصر الحياتية إلا برفض الحياد، ومن ثم اقتحام معركة الإنسان ضد خوفه، ومعركة المجتمع ضد إقصائه .

وهكذا تتم ولادة المجتمع البشري من رَحْم القصيدة ، فيتحول المجتمع إلى قصيدة قائمة بذاتها تقاقل على كل الجبهات. وهذا الحراك الاجتماعي يُبرز دور الكلمة الحية في توجيه الجماهير، ودور الجماهير الحية في صناعة الكلمة بعيداً عن الإملاءات (الداخلية والخارجية) .

*

القصيدة ثنائية القطب

إن القصيدة هي المختبر الحقيقي لتوظيف الشعور عاطفياً ورمزياً وواقعياً . والشعور يظل قناعاً للأوهام حتى يلزمه تركيب فلسفي حقيقي بعيد عن الشكلية . وهذا التركيب الفلسفي لا يمكن توليده إلا من خلال تفاصيل الأبجدية الشعرية . ومن خلال هذا الترابط المصيري ، يتكون نسيج معرفي يُخرج الفكر الاجتماعي من تكتلات المعاني الذهنية الجاهزة إلى فضاءات الكل الجمعي (المجتمع الإنساني) . وبعبارة أخرى، تتحول الأنا الذاتية الجزئية (شخصية الفرد) إلى كيان عام كُلي (شخصية المجتمع) ، وهكذا تتحول القصيدة إلى عالم ثنائي القطب ، وتصبح النظم الرمزية الهادفة إلى فهم طبيعة الحراك اللغوي طريقاً للالتقاء مع التوهج الشعري ، الأمر الذي يجعل ماضي القصيدة وحاضرها مستقبلاً للأبعاد اللغوية عالية التجانس . وهذا التحول الزمني باتجاه المستقبل هو الذي يُبقي على حيوية النص واستمراره خارج أنطقة اللحظة الراهنة. وهنا يظهر الاختلاف الجوهرى بين القصيدة الحية العابرة للتجنيس والأطر الزمنية ، وبين الحياة الاستهلاكية الآنية التي تصير جزءاً من الذكريات بعد انقضاء الحدث .

وكلما توغلنا في التفاعلات الحيوية لمضامين الشعر، توصلنا إلى فهم البناء الشبكي للقصيدة ، مما يقودنا إلى وضع الخصائص العامة لمفهوم الثنائية القطبية في الأفق الشعري. واللافت أن

القصيدة تتكون من ثنائيات متعددة، مثل: الفرد / المجتمع، اللفظ / المعنى، الواقع / المجاز... إلخ .

وهذا الزخمُ الفكري ينتشل الحلمَ الشعري من عنق الزجاجة ، ويؤسس علاقات اجتماعية متوافقة مع نظام القصيدة باعتبارها مجتمعاً متكاملًا موازياً للحالة البشرية العامة . وبالتالي تبرز معايير منطقية للإحساس القصائدي، تعتمد على شفافية اللغة، وقدرتها على حمل الأحلام البشرية، وتوجيهها نحو ترسيخ السلوك العاطفي الإيجابي لا السلبي . وهذا السلوكُ الفاعل من شأنه أن يقود الأبدية الشعرية نحو عوالم أكثر انفتاحاً على الحياة الاجتماعية ، وشرعية مكانها ومكانتها .

*

أهمية اللغة الشعرية

إن اللغة الشعرية اكتشافٌ متواصل لعوالم الإنسان الداخلية ، وتنقيبٌ دائم عن المعنى . وهذه اللغةُ المتفردة لها طبيعة خاصة تنفس من خلال الحلم الإنساني ، كما يتنفس الإنسان من خلالها . وبما أن القصيدة نظام لغوي كوني ينظر إلى الثقافة على أنها حضارة لا بديل عنها، ومُتَنَسِّس لعناصر الطبيعة ، كان لزماً على النص أن يُفَعِّل القيم الإيجابية في المجتمع ، ويحرس الواقع المعاش من التآكل، ويؤسس في تفاصيل الحياة المادية رموزاً لغوية قادرة على حمل إيقاع الروح، وتوهج الحلم. فاللغة هي كينونة الفرد ، وهوية المجتمع ، والتكوين المنطقي القادر على صياغة الأحلام ، وبناء الدلالة المعرفية الفاعلة في المنظومة الحياتية بكل تفاصيلها .

ولا يمكن اعتبار اللغة الشعرية جزءاً هامشياً في تاريخ الوجود الإنساني ، لأنها تاريخٌ متجدد قائم بذاته ، ويتمتع بشرعية ذاتية ، واستقلال معرفي لا ينتظر اعترافاً خارجياً . وهذا يشير إلى أن اللغة الشعرية تتميز باكتفاء ذاتي قادر على تكوين البنى الاجتماعية والثقافية داخلياً وخارجياً ، أي داخل المستوى الرمزي للكيان القصائدي ، وخارج الأطر الواقعية المحصورة بالزمان والمكان .

واللغة لا تكتفي بالتواجد في الواقع المحسوس الذي يعيشه الناس ، بل أيضاً تُحوّل الحلم إلى واقع جديد يسير جنباً إلى جنب مع حياة الفرد والجماعة . وفي هذا إشارة واضحة إلى أن تكوين العالم الشعري ضرورة ملحة لإنقاذ العالم الذي نعيش فيه ، وليس ترفاً أو جرعة تخديرية . والقصيدة هي المحرك الرمزي الوجداني لأنساق المجتمع ، وهي الضمانة الأكيدة لتشييد التجانس الإنساني كوحدة سلوكية مقاومة لاغتراب الفرد في متاهة الواقع الضاغط ، واغتراب الجماعة في تحديات الهوية الذاتية .

*

القصيدة مشروع استثماري

إن القصيدة استثمار حقيقي في بنية التاريخ ، تاريخ الروح والمادة . وهذا الاستثمار الحيوي له علاقة وثيقة بالنظام اللغوي الشعري المنتشر في أوصال المجتمع ، والذي يحدّد تضاريس النص ورموزه الحاملة لتاريخ الجماعة البشرية ، وعلاقاتها الحياتية المتشابكة . ووفق هذا المنظور لم تعد القصيدة نسقاً لغوياً جمالياً فحسب ، بل أيضاً أضحت طوق نجاة حقيقياً ، وركيزة في الفعل الاجتماعي ، سواء كان فردياً أم جماعياً .

وكلما تعمّق الفكرُ القصائدي في أبجدية الجماعة البشرية ، ازدادت قدرة النص الشعري على تفسير التراكيب الفكرية الحاملة للفعل الثقافي والفعل الاجتماعي . فالشعرُ _ أولاً وأخيراً _ سلوكٌ ذهني يُحال إلى قيم واقعية تتجمع على شكل أنوية فلسفية تعيد اكتشاف روح المجتمع وجسده . وهذا الأمر يجعل الطاقة الشعرية الرمزية قادرة على اكتشاف ما وراء المجتمع الشعري ، وما وراء المجتمع الإنساني . ومن هنا تنبع شرعية النص الشعري الذي يلقي حجراً في الماء الراكد .

وهذه الحركة الشعرية الدؤوبة تساهم في فهم التاريخ القصائدي غير المحدود بالزمان والمكان. الأمر الذي يزيد من توهج جماليات اللغة ، ويدفع باتجاه صناعة نهضة مجتمعية حقيقية لا صورية . وعندئذ تتطور العلاقات الاجتماعية مع اللغة الشعرية العابرة للحدود ، وترتفع حرارة التجربة الإبداعية المعادلة للعلاقات اللغوية الاجتماعية .

وعلى الرغم من صعوبة تحقيق هذا الحلم ، إلا أنه في دائرة الممكن ، وفي تناول اليد . لكنه بحاجة إلى حفريات متواصلة في منجم اللغة لإنتاج أشكال ثقافية متميزة ، وصُور اجتماعية ديناميكية متأججة في القصيدة الحية .

*

دور القصيدة في بناء الإنسان

إن البنية الاجتماعية في جسد القصيدة تنطلق من إيقاع الوجود البشري المحتوي على العواطف والأحلام ، والذي يترجم النشاط اللغوي إلى وهج شعري ذي صبغة معرفية . وهذا لا يعني تحول القصيدة إلى وعظ وإرشاد ، بل يعني تحول القصيدة من الإطار الأبجدي المحدود إلى تفاصيل الجوهر الإنساني بكل صراعاته ، وانتقال الثقافة اللغوية من الحالة الجمالية الضيقة إلى الصيغة النهائية الحاسمة للفعل الاجتماعي الذي يُحدّد التفاعلات الوجدانية ، ويُكوّن حلولاً جذرية لأزمة الإنسان المتممي إلى عالم محصور في التناقضات ، ومحاصر في الهويات المعرفية المتضاربة .

والإشكالية الصادمة في النسق البشري العام ، هي تحوّل الفرد إلى آلة قامعة ومقموعة في نفس الوقت. وهذا التحدي الفلسفي يتطلب إيجاد أبعاد جوهرية للقصيدة ، بحيث تصبح اللغة

الشعرية هي التاريخ الحقيقي للإنسان، والقوة الدافعة لأحلامه، ورصيده الفعلي من المشاعر والذكريات .

وهكذا تصبح القصيدة لافتة رئيسية على طريق تحولات الفكر الإنساني، ووطناً دافئاً في المجتمعات العائشة في غربة الروح والجسد . ووفق هذا المنظور فإن قوة القصيدة ستتحول إلى قوة اجتماعية ناقدة تستمد شرعيتها من توهج الفكر الشعري، واحترام الشاعر لكيونته الأدبية، ورمزية لغته ، ورمزية ذاته بعيداً عن تصنيف ذات الشاعر وقصيدته (أي جعلهما صَنَمَيْن لا يقبلان النقد). وبذلك نكون قد أنشأنا مجتمعاً قادراً على طرح الأسئلة ، والإجابة عنها دون خوف أو تحايل .

والقصيدة تتيح للإنسان فرصة ذهبية كي يقف أمام مرآة ذاته، ويعترف أمامها بنقاط ضعفه . وفي نفس الوقت فإن القصيدة تمنح الإنسان القدرة على تحويل نقاط ضعفه إلى نقاط قوة ، لأن اللغة الشعرية _ بالأساس _ هي سلاحٌ يستخدمه الإنسان لقهر خوفه وضعفه ، وليست رايةً استسلام. وسوف تظل هذه اللغة المتفردة بناءً اجتماعياً رمزياً يحتضن التكوين الفلسفي للخطاب الشعري العابر للحدود .

*

القصيدة وفلسفة النقد الذاتي

إن القصيدة لا تقوم بالتنقيب عن الحقائق الاجتماعية للوجود البشري والتعبير عنها بشكل رمزي فَحَسْب ، بل أيضاً تقوم بالتنقيب عن أبعاد السُّلطة الشعرية ، وإجراء عملية نقد ذاتي . فالقصيدة الحية _ قبل أن تكون نقداً للقيم السلبية في المجتمع _ هي نقد لذاتية اللغة الشاعرة وتفاصيلها الاجتماعية . وهذه الفلسفة الشعرية تُعتبر ركناً أساسياً في الفعل اللغوي الذي يبدأ من الأنا الشاعرة ثم يمتد إلى البيئة الاجتماعية أفقياً وعمودياً .

وكلما تعمّقت هذه الفلسفة داخل الأنساق الشعرية ، ازدادت قدرة التحولات الثقافية على صياغة خطاب اجتماعي متماسك ومتجانس . وهذا الالتحام المصيري بين الثقافة والمجتمع يمنح

التكثيف القصائدي شرعية وجوده ، وماهية مساره . والجدير بالذكر أن الآفاق الاجتماعية توسّع حدود القصيدة بقدر ما توسّع القصيدة أبعاد الأبداعية اللغوية ورموزها . ومن خلال هذه العلاقة المتشابكة يتضح لنا أن الفلسفة الاجتماعية هي المحتوى الشعري الرمزي ، والوعاء المستوعب لأنظمة التغيرات في مناخ القصيدة .

وفي هذا الخضم اللغوي والزخم المعرفي، تبرز أهمية توليد تجارب إنسانية متحررة من الخوف. وهذه هي الطريقة الوحيدة لصناعة مجتمع القصيدة الديناميكي . وإذا وصلت الاشتعالات القصائدية إلى ذروة المواجهة مع الوهم والخوف ، واعتلت قمة الحرارة التعبيرية ، فإن الأداء الشعري سوف يملك الطاقة الاجتماعية اللازمة لكسر القوالب الجامدة، وصناعة امتداد اجتماعي لحالة المعرفة اللغوية العامة .

*

دور الشعر في صناعة التجانس

إن الأفكار الناشئة من لغويات القصيدة التي تولد باستمرار ، هي أنوية ضوئية تنتشر في الجسد المجتمعي المتحد بالأنساق الثقافية . وهذا الاتحاد المصيري يعطي للأبداعية مداها ، ويمنح اللغة الشعرية الخاصة أفقاً أكثر تمرداً ، ويؤسس في ضمير الشاعر حيوات متوالية لا يطرأ عليها الذبول أو الانطفاء .

والنص الشعري عبارة عن احتراقات لذيذة تسيطر على تفاصيل الواقع ، وتدفع الأنساق الاجتماعية الميتة إلى الحياة ، وهكذا تخرج الحياة من رحم الموت ، وتنبثق المشاريع الإنسانية الكبرى من أصغر الأفكار . لذلك يبقى الشعر حياً على الدوام ، ويزداد انفتاحاً على عوالم الوجود

البشري بكل تقاطعاته على الرغم من كل التناقضات الاجتماعية الحادة . وذلك لأن الشعر ينقي المجتمع البشري من انكساراته ، ويوجد نظاماً حياتياً متجانساً من الأضداد . والأضداد الاجتماعية تصير في النسق الشعري حالة للتنوع والتكامل لا التعارض والاضطراب . والشعر قادرٌ على صهر السلوكيات الاجتماعية المتنافرة في بؤتقة الخلاص المتجانس (خلاص الفرد والجماعة) ، وعندئذ تنبت القصيدة المركزية التي تُشكّل نموذجاً للمجتمع البشري ، وضوءاً هادياً لا يمكن إطفائه .

والشاعر الحقيقي لا يكون إلا أبجديّة متحركة كاملة الملامح المنطقية والمابعدية ، لأنه ينظر إلى مكونات الحياة بوصفها لغةً شعرية قائمة بذاتها ، وذاكرةً حية تستوعب تاريخ الإنسان وعواطفه وسلوكه ، وتستمد مركزية وجودها في المجتمع المادي المغلق من الطبيعة المدهشة المحيطة بنا ، حيث يتم التفاعل بين الذاكرة المجتمعية والطبيعة المشرقة بكل سلاسة وتوازن .

وبالتالي تصبح الذاكرة المجتمعية هي التعبير الفلسفي القصائدي الرمزي (الحامل) الذي يحمل تفاصيل الطبيعة المشرقة (المحمول) .

*

القصيدة مملكة الرمز

إن ظاهرة المد الرمزي في القصيدة هي الأساس العقلاني لتيار الوعي . وكلما أخضعنا هذه الظاهرة للنظام الشعري الثوري ، اكتشفنا ملامح جديدة في تراكيب الأبجدية الخاصة بالأنساق الاجتماعية . وهذا الفكر (الثقافي / الاجتماعي) إنما ينال شرعيةً امتداده الزمني من حتمية انقلاب الجذور القصائدية على ذاتها . فهذا الانقلاب هو الوقود الذي يُغذي قطار السلوك الإنساني ، ويدفع به في اتجاه الانبعاث المتجدد : انبعاث الإنسان من أزmate المتكررة ، وانبعاث القصيدة من حركة التاريخ ، حيث تخرج القصيدة من موت المصطلحات المستهلكة إلى ولادة المصطلحات الثورية الجديدة .

والمنظومة الفكرية المبنية على قاعدة الثقافة _ حَسَبَ منظور وحدة السلوك الإنساني ولغويات الشعور اللفظي _ هي اجتماعيات أبجدية رمزية تُنهي العزلة المفروضة على الشعر ، وتجعله ذا علاقة وطيدة بحياة الناس . وهذا لا يعني تخفيف تركيز الرؤية الشعرية ، بل يعني تلمُّس مشاكل الناس وأحلامهم المقموعة ومستقبلهم المصادِر ، وإيجاد حلول تنتشلهم من وحل الشقاء ، وهذه النقطة الجوهرية يجب ألا تغيب عن القصيدة الجديدة التي ينبغي السعي لتكوينها وتعميمها .

ومن الأهمية بمكان تمهيد الطريق أمام الوعي الثقافي لكي تتمكن القصيدة من إنجاز مشروعها الرامي إلى توليد مجتمع داخل النص اللفظي الرمزي . وبالطبع فإن المجتمع القصائدي هو مجتمع مُقَطَّر شديد النقاء ، وهذا النقاء هو حجر الزاوية في عملية تلاقح الحيوانات الإنسانية ، وتعميق الدلالات النصية في وحدة الأبجدية المركزية ، مما يؤدي _ بالضرورة _ إلى استشراف المستقبل بعيون مفتوحة على الأمل المضاد للوهم . الأمل المنطقي الذي يعيد بلورة الأنساق اللفظية ، بما يضمن التوفيق بين آفاق المعنى ودلالات الألفاظ . وهذا التوفيق المصيري يُعتبر أساسياً لفهم طبيعة التحولات الاجتماعية القصائدية .

*

المجتمع الشعري والمجتمع الإنساني

لا يمكن للتجربة الشعرية أن تتحرر من القوالب الجاهزة ، إلا عن طريق دمج المضامين الشعرية بالفلسفة الاجتماعية . والمجتمع الإنساني هو المخزون الإستراتيجي الذي يدعم حركة القصيدة ، ويعزّز انطلاقها نحو تعرية الوهم من أقنعتة . وبالتالي تتحول القصيدة إلى بُنية ثقافية تحمل في رموزها حركة نقدية شديدة الخصوصية والتمازج مع الإنسان باعتباره مركزاً لهذا الوجود . وهذا التحول المصيري يضمن استمرار الحياة اللغوية، وتدفع أبجدية الشاعر في نخاع القصيدة. مما يؤدي إلى تفعيل وظيفة الكلمة ، وإخراجها من البرواز الجمالي المجرد إلى الفاعلية

الاجتماعية التطبيقية . وعندئذ يصبح جسد القصيدة تجسيدا لأحلام الناس ، ومشروعاً شعبياً بعيداً عن الابتذال أو المساومات .

وإذا انتقلت الثقافة من الحاضنة الفكرية إلى الحاضنة الشعبية ، فإن سيادة القصيدة على الأنساق الاجتماعية ، وسيادة المجتمع على الرموز اللغوية ، سوف تصبحان منظومةً واحدة ومنسجمة. الأمر الذي يمنع نشوء كيانات مجتمعية متنافرة في القصيدة . وهذا التجانس الطوعي لا القسري ، هو الضمانة الأكيدة لتكثيف الصيغ اللغوية وجمعها على هدف واحد رغم التنوع الطبيعي والحيوي في الأساليب . وهنا تبرز أهمية وحدة المصير وتنوع المسارات . وبعبارة أخرى ، كل الطرقات الشعرية تؤدي إلى بنية اجتماعية متماسكة غير قابلة للانقسام .

وهكذا يتزاحم البعد الثقافي والأفق الاجتماعي وفق صيغة " لا غالب ولا مغلوب " . فالقصيدة تصنع مجتمعاً من الأنداد لا مجتمعاً من السادة والعبيد، كما أنها تُحيل الهامش إلى مركز، والحلم المكبوت إلى طاقة خلاقية ، والسجن الحياتي إلى فضاء إبداعي . فيشعر الجميع بجدوى وجوده ، وأهميته المركزية في الحياة ، ويتولد زخم إبداعي حاضن لمشاعر الفرد ومصلحة الجماعة على حد سواء .

*

التقليد والإبداع في النظام الشعري

إن المجتمع اللغوي يقدر الحلم البشري باعتباره امتداداً للمعرفة الاجتماعية الرمزية، وتطبيقاتها في عقول البشر وأجسادهم . وهذه التطبيقات تتلاقح مع السلوك الشعري الذي يُعتبر القلب النابض في المجتمع اللغوي . كما أن القصيدة تتزاحم مع ذاتها بوصفها مجتمعاً يتحد فيه القطبان المذكر والمؤنث ، ومنظومةً فكرية تأخذ على عاتقها تشكيل جبهة بصرية ضوئية قادرة على الرفض والتغيير ، وقادرة _ كذلك _ على صناعة نصوص لغوية تصعق الضمير المغيب لإيقاظه .

وهذه الحركة المعرفية النشطة تولّد مجتمعاتٍ حية نابعة من الرموز الأبجدية والحقائق اللغوية ، وقادرة على مدّ الجسور بين الأنا والأنا من جهة ، وبين الأنا والآخر من جهة أخرى . مما يدفع باتجاه تأسيس مجتمع كلماتي يمتلك رؤيته الخاصة ، وأبعاده الثقافية ، وفلسفته الاجتماعية .

وقد تتصادم بعض الأفكار في جسد القصيدة بسبب ديناميكية الرؤية الشعرية ، وثورية الصور الفنية ، وتعدد الأساليب الأدبية ، وضخامة الأحداث الاجتماعية المحصورة ضمن قوالب فكرية ضيقة . والعلاجُ الفعال لهذه المعضلة هو تخفيف الاحتقان المعرفي في البنية الشعرية عن طريق بناء علاقة متوازنة بين اللفظ والمعنى . وهذا لا يعني تجريد النص من قيمته الروحية ، وتحويله إلى إيقاع مادي جامد . وإنما يعني تنقية اللفظة من الشوائب الزائدة لكي تصبح لفظة مُقَطَّرَة يمكن وضعها في أقصى مدى الكلام ، وأيضاً تحرير المعنى من ثقل الهواجس لكي يصبح معنىً نقيّاً قادراً على الانطلاق والتأثير في محيطه الاجتماعي .

وهذه الحركة التصحيحية في النظام الشعري شديدة الأهمية ، لأنها تكشف لنا الفرق الجوهرية بين الشاعر المقلّد والشاعر المبدع . فالشاعرُ المقلّد يكتب التاريخَ الوجداني للقصيدة بعقلية المؤرّخ ، وهذا خطأ فظيع لأن المؤرّخ مُطالب بأن يكتب التاريخ كما هو ، لا أن يكتب التاريخ المتصوّر في ذهنه . أمّا الشاعرُ المبدع فهو يكتب التاريخَ القصائدي من وجهة نظر رمزية تكثيفية للأبعاد الخيالية الواقعية .

فالإبداعُ هو رؤية رمزية ، وثورةٌ على الواقع المعاش ، وواقعٌ جديد متلاحم مع العقل الجمعي لرمزية اللغة ، وليس إعادة إنتاج الماضي بصورة حدائية .

*

قواعد البناء الشعري

ليست وظيفة الشاعر أن ينسخ المجتمع ويسكبه كما هو في دماء قصيدته . فالقصيدة هي مجتمع رمزي ضد الوهم الاستهلاكي الذي يصنعه البشر أثناء حياتهم المادية المجبولة بالانكسار ، واللهات وراء السراب .

إن القصيدة هي النقاء المُقَطَّر ، والمعركة المنتصرة دوماً ، تقود المجتمع البشري ولا يقودها المجتمع البشري . واحتمالُ الخسارة في القصيدة هو صفر بلا نقاش . فالكتابةُ الشعريةُ هويةٌ مستقلة عن الإطار القومي للفرد ، وهويةٌ متمردة على مسار الكبت للجماعة البشرية . وكل حرف

في الأبجدية الشعريّة معنيّ بالمحافظة على الهوية المعرفية المتفردة للأنا الداخلية (الجزء) ،
والأنا الخارجية (الكل) .

وإذا تكامل الجزء والكل في منظومة اجتماعية متجانسة ، فإن القصيدة ستغدو جزءاً أصيلاً
من الوجود الإنساني، وشريعةً للرمزية الخيالية. وهذه الغاية تحتاج _ فضلاً عن تكامل الجزء والكل
_ إلى زراعة الحلم في الصور الشعرية المتماهية مع ولادة مجتمع كلماتي جديد . مما يؤدي إلى
تحول النص الشعري إلى تاريخ إنساني شديد التكثيف، وتحول الفكر الشعري إلى وثيقة اجتماعية
ناضجة يتم احتضانها من قبل الأنساق الثقافية في المجتمع الإنساني . وهكذا نضمن استمرارية
الزخم الإبداعي الثوري .

وبالقدر الذي نُكوّن فيه القصيدة ، تُكوّن القصيدة اجتماعياً ووجدانياً . فالكلمات تمتلك قوةً
معرفية ذاتية ، وإحساساً قائماً بذاته . وهذان السلاحان (القوة والإحساس) يدفعان باتجاه توليد
وعي شعري متميز يؤمن بحتمية تلاقي الأفكار، واختلاط الأنساق الاجتماعية . وبالتالي تتجذر
ماهية الثقافة الشعرية في الذهن الفردي ، والعقل الجمعي . وتنتقل الأفكار من الإطار الهلامي إلى
الفاعلية الاجتماعية المحسوسة . وعندئذ تعود الثقافة الشعرية إلى وظيفتها المركزية ، وهي تقطير
حلم الإنسان ، وتعبئته في الألفاظ المتفردة ، والمعاني المدهشة .

والقصيدة إذا فقدت عنصر الإدهاش ماتت . لذلك ينبغي أن تكون القصيدة _ إذا أرادت
الخلود _ حملة استكشافية متواصلة ، تستكشف العوالم الجديدة ، وتخترع رموزاً معرفية شديدة
الإبهار ، وتفك شيفرة الحلم الاجتماعي المتشعب . وعندئذ سوف ترسخ وحدة الشعور
المجمعي لفظياً ومعنوياً .

تحول المادة الشعرية إلى طاقة

تتجلى أهمية القصيدة في قدرتها على تحويل الصيغ الشعرية إلى أنظمة اجتماعية ، تنتقد
الإيقاع الكلماتي في النص ، وتنتقد السلوك البشري في المجتمع. وهذا النقد البناء يُشكّل العقل
القصائدي الذي يسيطر على مُدخلات النص ومُخرجاته ، ويصنع حالة من التوازن الفعال بين
الثنائيات المركزية في الوعي الثقافي مثل : (المجتمع الشعري / المجتمع البشري) ، (الألفاظ /
المعاني) ، (الرائي "الشاعر" / الرؤية " النص الشعري ") ، (الإحساس النفسي " السيكولوجي
" / الإحساس الاجتماعي " السوسيولوجي ") . وهذه الثنائيات ذات أهمية بالغة في الفكر

الإبداعي ، لأنه تمثّل حلقة الوصل بين جناحي القصيدة : نظام المسارات الشعرية المتشظية ، ونظام النقد الخاص بتداخل هذه المسارات .

إن القصيدة تتمتع بالاكتمال الذاتي ، لذلك تتزاوج مع ذاتها . وهذا يجعلها نصاً إبداعياً متجاوزاً ، وقادراً على فرز حركة نقدية خاصة به . لذلك يمكن القول إن القصيدة هي نص إبداعي ونص نقدي في آنٍ معاً . وبعبارة أخرى ، إن الشاعر يمارس النقد بحذافيره أثناء كتابته للقصيدة . وهذان القطبان المتحدان (النص / النقد) يقودان إلى إنتاج حركة معرفية دؤوبة تكشف الدلالات التاريخية لجغرافية الأبجدية الشعرية ، وتبرز ملامح اللغة الرمزية السارية _ كالكهرباء _ في جسد الثقافة . وهكذا تنكسر القصيدة كمشروع للخلاص اللغوي والفاعلية الاجتماعية على حدّ سواء . وفي ضوء هذا المشروع الخلاصي ، تتحدد المضامين الذاتية لقوة المصير الإنساني ، وعنفوان الرموز القصائدية . مما يؤدي إلى توليد آفاق جديدة لفهم الثورة الكلمائية والحراك الاجتماعي .

ولا يمكن استيعاب حركة القصيدة في المجتمع البشري ، أو حركة البشر في الأبجدية الشعرية ، إلا من خلال انتقال الكلام من طبقة المعنى إلى طبقة الرمز ، لأن الرمز هو الطاقة الشعرية الحاضنة للحلم الكوني ، والحاملة للرؤية المابعدية التي لا يمكن حصرها في القوالب الجامدة . ولا بد من تحرير الكلام من مداره المحاصر ، لكي يمتلك الكلام الطاقة الرمزية الهائلة ، ويتواجد في أقصى مداه ، فتتحول المادة الشعرية إلى طاقة . وبالتالي تصبح القصيدة هي العالم الموازي ، والحياة الجديدة التي ينصهر فيها الزمان والمكان .

القصيدة والرؤية والرأي

إن قوة القصيدة تنبع من عوالمها الداخلية العميقة . وهذه العوالم يمكن اعتبارها قصيدة داخل القصيدة ، وثورة جوانية تجعل النزعة الفلسفية للمكوّنات العقلانية أكثر سلاسة وانسيابية ، وتصيغ العناصر المادية بالامتدادات الروحية الرشيدة . وبالتالي تتأسس مبادئ ترشيد استهلاك القوة الرمزية ، مما يؤدي إلى تفعيل الصيغ المعنوية للتعامل مع المجتمع الكلماتي باعتباره حياة متكاملة ذات سيادة مكانية على الألفاظ والمعاني ، وليس آلة لتفريخ الأفكار الرمزية المتصادمة أو التراكيب المخنوقة في قوالب الفوضى .

وهذا المنظور ينسجم مع الأبجدية الثورية بوصفها مبدأ استشرافياً للشعور الوجداني المكبوت ، وجغرافيا جديدة للفكر الشعري . واستناداً إلى هذا الحراك المعرفي المتميز ، تصبح القصيدة هي الممثل الشرعي والوحيد للخيال الرمزي ، والأبجدية اللغوية المشفرة . وتكمن أهمية هذا الحراك المعرفي في قدرته على تجاوز الأنماط الجاهزة ، وكسر القوالب الجدلية المُعدّة سلفاً، وطرح الأسئلة المصيرية حول مدى نجاح التفاعل بين الرؤية والرأي ، وأيهما السابق على الآخر .

وعلى الرغم من ضرورة طرح الأسئلة المصيرية وإيجاد أجوبة منطقية ، إلا أنه من الخطورة بمكان أن نشغل بالأسئلة من أجل الأسئلة . فالسؤال وسيلة وليس هدفاً . والجدال الإيجابي طريق وليس غايةً .

إن العلاقة بين الرؤية والرأي تبادلية . فالرؤية هي الزمكان الاستعدادي لاحتضان الفكر الرائي . أمّا الرائي فهو الكاشف عن أنساق التفتيت الاجتماعي للرؤية . وهذا الترابط المتبادل ينشأ بشكل متزامن مع الفعل الشعري . ولحظة النشوء هي لحظة انبثاق الشرارة الإبداعية كحالة اختزالية تكثيفية للاعتبارات الشعرية الذاتية تمهيداً لاجتياح المجتمع ذهنياً .

*

وَحدة الجسد القصائدي

إن القصيدة هي حالة الصراع بين ثورة اللغة ولغة الثورة . وهذه الحالة تستند إلى فلسفة غامضة لا مُبَهمة ، لأن الشعر _بطبيعته_ لغة مُشفرة . والفلسفة الغامضة واللغة المشفرة هما الجناحان اللذان يطير بهما المشروع القصائدي . إنهما عمودا الارتكاز اللذان تقف عليهما شرعية الثقافة الشعرية . وإذا تجذرت هذه الشرعية في النسيج الاجتماعي ، فإن المعاني سوف تتفجر بصورة ديناميكية ، والألفاظ سوف تتأجج بشكل ثوري . وعندئذ ستندلع الصور الفنية التي لا يمكن تأطيرها داخل قالب محصور . وهذا الحراك الثقافي مرجعه إلى التكثيف اللغوي الذي

يجتاح ذاتية الشاعر الرائي ، ويقتحم الرؤية الفلسفية للمجموع الإنساني الكلماتي، ويهاجم السليبات المجتمعية القائمة على أرض الواقع .

ولأن القصيدة تقايل على أكثر من جبهة ، استحققت نيل شرعية الخروج على القيم الواهمة السجينة داخل الأطر الفوضوية. والتأطير ينبغي أن يكون منهجياً يعتمد على الموازنة بين الأسلوب الصانع والكلمات الشاعرة . وفي كل طبقة شعرية تندفق أسس تجريبية كقوة ذاتية حركية قادرة على صناعة حراك اجتماعي كلماتي كاسر للقوالب الجاهزة ، وهدم الأسوار العازلة التي تقطع أوصال جسد القصيدة ، وتمزق التدفق الشعري .

ووحدة الجسد القصائدي أمر حتمي ومصيري . فالقصيدة ينبغي أن تكون مفتوحة على كامل مساحتها . وهذا لا يتأتى إلا بمنع إقامة حواجز في النص الشعري ، وذلك من أجل الحفاظ على تماسك النسيج الشعري ، والحيولة دون تفكك النص وفقدانه السيادة على كامل أجزائه .

ومن الخصائص الرئيسية للقصيدة انفتاحها على كل تفاصيلها ، ووجود جزئياتها على مساحة متصلة كاملة السيادة. وهذه السيادة يجب أن تضم التاريخ الرمزي للثقافة الشعرية ، والجغرافيا الكلماتية للفكر الاجتماعي .

وهذا الفكر الثقافي المركزي _ بكل أركانه _ يتولد من أجزاء المجتمع البشري ، ويرمي إلى تكريس واقعية الفعل الاجتماعي الذي يُثبت الحقائق الشعرية الاجتماعية كمنظومة حياتية . وعلى الرغم من تعدد البناءات المعرفية ، وتشابك خيوط المجتمع الشعري والمجتمع البشري ، إلا أن الفوضى لا يمكن أن تتسلل إلى هذه الحركة الإبداعية ، لأن التلاقح بين الأفكار الشعرية والأفكار الاجتماعية سيظل خاضعاً للأبجدية اللفظية ذات الامتداد المعنوي.

الكتابة الشعرية فيزيائياً وكيميائياً

يكشف المجتمع البشري في القصيدة زماناً جديداً للأبجدية الشعرية ، ويكتشف كذلك مكاناً جديداً لوحدة المعرفة اللفظية والمعنوية . وكل جزء من اللغة القصائدية هو انقلاب واكتشاف في آنٍ معاً . انقلابٌ على المفاهيم النظرية للعقلنة الوهمية الخارجة عن القدرات الاستعدادية للفرد ، واكتشافٌ للزمان الجديد المحتوي على آمال الفرد خارج نطاق نفوذ القمع السياسي ، والضغط الاجتماعي ، والانهايار الجنسي للعاطفة .

وإذا تحرر المجتمع الشعري والمجتمع البشري من ضغط الأساطير الاجتماعية ، فإن الرؤية اللغوي سوف تتسع ، وتضع الاتجاه الماورائي الاستكشافي لأعماق الرمز في تفاصيل البنى الاجتماعية . وكلما توغلنا في المجتمع اكتشفنا قصيدةً جديدةً تكتبنا ، وتنتظر أن نكتبها . ففعلُ الكتابة هو الممارسة الحرة والحية للتبادل الفكري بين النص وصانع النص.

إن فعل الكتابة الشعرية فعلٌ ثنائي القطب ، قطبٌ فيزيائي وقطبٌ كيميائي ، والعلاقة بينهما تزامنية وليست تعاقبية . ويمكن القول إن فيزياء القصيدة عبارة عن القوى الحركية الناتجة عن ثنائية الفعل ورد الفعل، في حين أن كيمياء القصيدة هي قوة الاحتراق الداخلي ، حيث تُصهر اللغة الشعرية في خندق القصيدة ، لتتولد تيارات تقوم بتنقية المغزى الاجتماعي للقوة اللفظية المعنوية . وهذه الثنائية التزامنية تجعل القصيدة مضغوطة ومحمّلة بما يفوق طاقتها ، وذلك من أجل توسيع الأفكار داخلياً وخارجياً ، وإعادة إعمار القوة الرمزية للمجتمع (الشعري _ البشري) ، وبالتالي نحصل على انفجارات متوالية نستقطبها لإعادة هندسة المجتمع البشري المبتعد عن مركزية النواة الشاعرة . مع الانتباه إلى أن النواة الفلسفية للقصيدة تستل شرعية امتدادها التاريخي في جسد الشعب من حتمية انتصار الحقيقة على الأسطورة .

*

سلوكُ القصيدة والانتخابُ الطبيعي

إن المعرفة الرمزية في القصيدة تُكتسب من الظواهر العقلية المركزية ، وهذه الظواهر تُؤول إلى قيم ذاتية تبعث الإحساس والإيقاع والتوقيت في الدفء الشعري الحالم . وفي ظل هذا الزخم الفكري ، تتحول بُنية العلاقات القصائدية إلى امتداد للمعاني الراسخة في السلوك الوجداني للأداء اللغوي البشري .

وإذا استطعنا التوفيق بين سلوك القصيدة (الظاهري / الباطني) والمعاني اللغوية الهادرة ، فإن حالةً من الوعي الذاتي ستنشأ في النص الشعري ، وعندئذ يُدرك النصُّ حدوده المنظورة وغير

المنظورة ، وجسد الفضاءات التي يتحرك فيها اللفظ والمعنى . وهذا الإدراك العقلاني يُمثّل المعيارية النقية التي تحكم للفكر الشعري أو تحكم عليه .

ولن تترسخ المعيارية النقية في أنساق المجتمع (الشعري / البشري) ، إلا إذا تم استخراج المعنى الاجتماعي من رحم التفريغ التاريخي لتضاريس القصيدة ، وتركيب تاريخ المجتمع البشري على منحنيات الرمز الإشاراتي . ويمكن اعتبار هذه العملية الفكرية ولادة مُزدوجة ، تنقل القصيدة من الذهنية التجريدية الضحلة إلى نظريات الالتصاق مع الواقع دون أن تنازل عن وحدة الجغرافيا الذهنية التي تستثمر نماذج الحقيقة الاجتماعية الكلية في تاريخ الإنسان وأحلامه . وهذا يدفع الفكر الثقافي بقوة إلى تبني عمليات تفريخ الحلم ، وتوزيعه على مستويات الدلالة اللفظية للمعنى ، مما يؤدي إلى بناء تفاعل اجتماعي على الصعيدين الفردي والجماعي .

وكلما اشتدت حرارة التعبير الشعري ، ازدادت كثافة التفاعل الاجتماعي . الأمر الذي يدفع باتجاه تشييد الكتل المعنوية المعجونة بالنظام الاستشراقي في القصيدة ، ومنح الأبدية القدرة على تذويب الألفاظ في بحر المعاني ، وجعل المعاني أوعية زجاجية حاضنة للألفاظ . وهذه نقطة غاية في الأهمية ، لأنها تمكّن اللغة الكامنة بين السطور من تفادي الإشكاليات الرمزية ، والمشكلات الثقافية . وعندئذٍ ، تتحرر اللغة من قوالبها الجامدة ، وتجعل المجتمع البشري ينظر إلى القصيدة بوصفها أنوية انقلابية متصارعة فيما بينها ضمن دافعية الانتخاب الطبيعي . حيث البقاء للكلمة القوية ، والمعنى الإبداعي المتفجر .

الاشعور والشعور في عالم القصيدة

إن المجتمع الشعري ينظر إلى المجتمع البشري على أنه قصيدة متكاملة ، ونص فلسفي مستقبلي يطمح إلى كسر القوالب المجتمعية الجامدة ، وزرع الوحدة الاجتماعية داخل نخاع الشعور البشري الجماعي ، وتكوين سياق لغوي يحتضن اللفظ والمعنى اللذين يؤلّدان في نفس اللحظة ، حيث يلعبان في ذهنية الحلم الواقعي الذي يصير فيه الزمان مكاناً ، والمكان زماناً . وهذا التلاحم التبادلي يختزل كلّ التجاذبات والأضداد . مما يقود إلى ترسيخ منهجية التفاعلات اللغوية ، أي تفاعل اللغة المجتمعية مع الواقع وترميزه (تحويله إلى رموز) ، وتفاعل

اللغة الشعرية مع الأبعاد الفلسفية للجماعة البشرية، وتفاعل اللغة الرمزية مع إفرازات شعرية النص . وهذه التفاعلات تُعتبر أساس تيار الوعي الداخلي الذي يسري في البنى الميكانيكية لمجتمع الرمز بشكل متزامن مع ولادة التجربة الشعرية . وهنا تظهر حقيقة لا مفر منها ، وهي أن القصيدة طاقة اللاشعور المتحولة إلى واقعية الشعور المنضبط ، والعقلنة المجتمعية (جعل العلاقات الاجتماعية عقلانية لا مكان فيها للصدفة) .

وهذه الثنائية المركزية (اللاشعور / الشعور) تُعتبر انفجاراً أبجدياً ، وتفجيراً لغوياً ، بسبب انبعاث طاقة شعرية هائلة تُغرق الذاتية الشعرية في عوالم لا نهائية من الشعور الإنساني المتمرد ، والدافعية الاجتماعية الثورية .

والنصُّ الشعري يحدث في جَوْفه عملية احتراق داخلي ينتج عنها إطارات فكرية جزئية وكُلّية . ومهمة الشاعر الرائي هي تجميع أكبر قُدْر ممكن من هذه الانبعاثات المنفلتة في هذا المدى التفسيري للبناء الإنساني، مما يَسمح بتطوير التيارات التعبيرية لعقل القصيدة في مساحات التجسيد الاجتماعي . وبعبارة أخرى ، يَسمح بتحول النص الشعري إلى جسد اجتماعي ، وتحول الفلسفة النظرية إلى تطبيق واعٍ ومحسوس .

*

تطبيقات مُعادلة الوجود الشعري

كلما ازداد التفاعل بين الثقافة الشعرية وفلسفة البؤر الإنسانية ، ازداد رسوخُ القصيدة في البيئة الاجتماعية ، حتى تصبح القصيدة قُطباً مُعادلاً لوجود الشاعر الرائي . وعندئذ نحصل على المعادلة (تواجد القصيدة = وجود الشاعر) ، وتصبح الشعرية اللغوية شرعيةً لوجود الإنسانية في الإنسان .

وإذا أدركنا الأساسَ الفكري للقيم المتبادلة (التواجد _ الوجود / الشعرية _ الشرعية) ، فإننا سندرك الإشارات القصائدية التي تحفر أبعادها في كَيْنونة اللغة ، وتزرع اتصالَ الحيات

التأغرافية (التاريخية _ الجغرافية) في منطقة الإحساس الأبجدي . وبالتالي يتحول الفرد إلى لغة خصوصية متمركزة بين التأسيس الوجداني للشعر ، وتجسيم المشاعر النفسية المنبثقة عن أبجدية الرمز. مما يُمكن رمزية النقاء الاجتماعي من إنهاء حالة التنافر بين القطب الثقافي والقطب المجتمعي، وبدء مرحلة معرفية جديدة تكون فيها السيادة لفلسفة النص القادرة على جمع الرائي والرؤية في سياق واحد يقبل التنوع ، ويرفض الانفصام .

وهكذا يؤول الشعر إلى تشكيل إنساني حتمي قادر على الانبعاث والتجدد ، رغم كل الأزمات الوجودية ، والتحديات المعرفية . وليست القصيدة طبقات لغوية منفية من سلوك الشعور الإنساني . فالقصيدة حدث فكري تضع المخيال في قلب الواقع ، وتضع الواقع في رئة المخيال .

ومن هنا تنبع أهمية وجود اللغة داخل النسق الشعوري ، كما تنبع حقيقة أن الشعور سابق على اللغة اللفظية المنظمة . فالشعور هو الصورة ، واللغة هي المرأة . ولا يخفى أن الصورة هي الأصل (الفعل والفاعلية) ، والمرأة هي الفرع (ردة الفعل والمفعولية) .

لكن هذه العملية (الأصل / الفرع) لا تكتمل إلا بوجود مسار تفاعلي يضمن نقل الصورة وانعكاسها بكل سلاسة . وهذا المسار الضروري لن يصبح حقيقة ماثلة ، إلا إذا عرّفنا اللغة كقوة فلسفية وجدانية ذات كينونة إنسانية حيّة .

والفلسفة هي الوسط الناقل للصّور الروحية والمادية . إنها _ أي الفلسفة _ تيار سلوكي واع لا يتأثر باختلاف المناخات أو غيبش الرؤية . وأيضاً ، إن اللغة الشعرية موجودة ومتواجدة في الأنساق الروحية والمادية ، سواء تم التعبير عنها أم لا . وهذا هو القانون العام لفهم ذاتية الممارسة الإنسانية للشعر .

وهذه الفلسفة الخلاصية تقودنا إلى ثلاثة مبادئ مركزية : الأول _ الشعور واللغة يؤكّدان ضمن تركيبة التاريخ في قلب مستويات الوعي القصائدي . والثاني _ التعبير عن مشاعر الكينونة المصيرية للتشكيل الإنساني لا يصنع لغة مستقلة عن الطبيعة الإنتاجية للممارسة الأبجدية . والثالث _ لا توجد لغة تسبح في الفراغ ، فاللغة هي كائن حي مرتبط عضوياً بالزمان والمكان .

*

ماهية التحولات في العوالم الشعرية

اللغة الشعرية هي قوة موجودة وقائمة بذاتها سواء تم التعبير عنها أم لا . والشاعر هو شاعرٌ قبل أن يكتب الشعرَ ، لأن الوجود سابق على التواجد . أي إن وجود البذرة الخفية سابق على وجود الشجرة الظاهرة. والبذرة الشعرية تمتلك شرعية وجودها حتى لو لم تظهر في حيز الوجود ، تماماً كالجنين الموجود في بطن أمه ، فهو يمتلك شرعية وجوده حتى لو لم يظهر للعلن ويأخذ

مكانه تحت الشمس . وهذه الأفكار المركزية شديدة الأهمية في عالم الفكر الشعري، لأنها بمثابة أعمدة البناء .

وكما أن البناء لا يمكن أن يقوم بدون أعمدة ، فإن القصيدة لا يمكن أن تقوم بدون قواعد فلسفية راسخة . فالأساس المتين هو الذي يمنح الثقة لباقي العناصر ذات الطبيعة الفوقية . وعليه ، يصير الحلم الشعري بحد ذاته انقلاباً وجودياً حاسماً في البنى التاريخية للشعور الإنساني ، ولغويات النص .

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن القصيدة _ أولاً وأخيراً _ هي جسدٌ حي لا يموت ، ويملك القدرة على التجسّد والتجسيد . وهذان القطبان (التجسد " الفعل " / التجسيد " التفعيل ") يضمنان تحولَ الأنساق اللغوية إلى أنساق اجتماعية واقعية ذات فاعلية محورية ، كما يضمنان تحويلَ الشكل الشعري المتنوع إلى أشكال إنسانية لا نهائية تملك مزايا الخلاص والتخليص . خلاص الفرد والجماعة عن طريق تخليص الفرد من ضغط الجماعة ، وتخليص الجماعة من انتقادات الفرد .

وكل هذه الفعاليات الفكرية تُفرز نتائج أساسية تصبح _ فيما بعد _ مُسلّماتٍ بفعل شرعية المضمون الذاتي للفكرة ، وشرعية الأمر الواقع . فيصبح الحلم هو الحالم ، والفعل هو الفاعل ، والقصيدة هي الشاعر . ويصبح الشاعرُ كُلُّ شيءٍ سواه . وهذه الأبنية الاجتماعية للرمزية الحاملة تتداخل مع المنظور الذي يصهر امتدادات الحلم في طبقات القصيدة التفاعلية . وبالطبع ، فهذه عملية لا تنتهي ، لأن القصيدة هي عملية حفر متواصلة ، وتنقيب لا ينتهي .

إننا نحفر مَوْتَنَا في عظام القصيدة ، لنحصل على الحياة المقطّرة مخيالاً وواقعياً ، والتي تمنحنا الخلود ، ونحفر خنادق أحزاننا في رياح اللغة لنتنزع الضوء من أشد اللحظات ظلاماً .

*

النظام الشعري وثنويّة اللغة

كل لغة اجتماعية هي نظام شعري غامض يتضح أثناء عملية التنقيب في منجم الرموز الإنسانية . ولا تقف عملية التنقيب عند الظواهر المعرفية ، وإنما تمتد إلى اكتشاف كينونة الشعور ، وأطوار الفكر الثقافي . الأمر الذي يُمهّد الطريق أمام لغويات الأداء الاجتماعي كي تنتشر في الجسد

الشعري ، وتكسر الحصارَ المفروض على التفسير الزمكاني للأبجدية الوجدانية . مما يمنحنا فرصة حقيقية لبناء تصور جديد لثورية اللغة ، وتكوين مفاهيم ذاتية للكُمون الشعوري في وجدانية النص .

إن النص الشعري هو التشابك المعرفي للنصوص. وكلُّ صوتٍ هو _بالضرورة_ صدى قديم ، وكلُّ حركة هي تلبية لنداء قديم ينبعث فينا على شكل إشراقاتٍ لغوية عابرة للزمان. والكتابة الإبداعية هي تجسيد لغوي مُقتبس من كَيْنونة الرائي ، واندلاع الرؤية الجوانية المتمردة على انهيارات العقل السُّلطوي الذي تُمثله المجتمعات المقموعة القامعة .

وعلى الرغم من كَوْن النص عملاً جماعياً يشترك كل الناس في كتابته، وما على الشاعر الرائي إلا تدوينه، إلا أن الشَّخصنة _ باعتبارها أحادية المدلول وسياسةً للتكوُّن العقلاني للأبجدية _ لها وزنها الذي لا يمكن تهْميشه ، وذلك راجع إلى عدم إمكانية تجاوز الفردية الشعْرية في مشروع بناء الكل. فالجزء _ مهما كان صغيراً _ لا نستطيع تجاوزه ، لأن صَرْحَ المعقولات الزمكانية الوجدانية الكلية لا يقوم إلا على الجزء باعتباره النواة المركزية ، والمنبع الحقيقي للأمواج الفكرية .

وإذا تضافر الجزء والكل ضمن منظومة تكاملية متألّفة ، فإن عقلَ القصيدة الرائي سينجح في تشييد التلاحم الوظيفي للأبجدية المتكوّنة من شظايا روح النص، والمبنية على تطبيقات المنحى الرمزي التصاعدي ، مما يؤدي إلى إحداث انقلاب جذري في المضامين اللغوية . وبالطبع ، فهذا الانقلاب يحمل في جَوْفه تجديداً لجغرافية النص الحتمي ، وبوصلة وجودية تشير إلى اتجاهات الأنسنة الثويرية .

*

الغربة كنظام سلوكي شعري

يمكن اعتبار القصيدة فعلاً تكوينياً ملتصقاً بأبجديات الغربة ، غربة الحلم عن الجسد المحاصر بالعقلية السلطوية القامعة. وهذه الغربة لها تأثير كبير على الأنساق الشعرية ، إذ إنها تحوّل الفاعلية الواقعية إلى مجاز رمزي ، وتُحيل الحلم الشعوري إلى جسد لغوي نابض بالحياة .

كما أن الشاعر _ بالأساس _ يعاني من غربة مزدوجة، فهو غريب عن ذاته، وغريب عن مجتمعه . إنه يغوص في ذاته لكنه يزداد جهلاً بها، وكلما اقترب منها ابتعد عنها، ويسبح في مجتمعه لكنه يظل غريباً عنه ، لأنه يسبح ضد التيار ، ويُغرّد خارج السرب .

وهذه الغربة المتشظية تساهم _ بشكل فعال _ في اكتشاف ميكانيكا النص الشعري ، وكيمياء الحراك الاجتماعي اللغوي . وهذا لا يتعارض مع كَوْن النص يختار شرعية وجوده من اللغة العابرة للتجنيس الحالم الحقيقي ، ويختار شرعية جنسه من اللاجنسية الأدبية .

وهكذا يصبح الأسلوب الشعريُّ الفاعلُ هو الأسلوب ، وهويّة القصيدة الحقيقية هي اللاهوية . وتصبح اللغة في هذا التوهج الشاسع عَصِيَّةً على التصنيف والحصص ، مما يؤدي إلى تحول النظم اللغوية من كميات محدودة إلى أيقونات رمزية لانهائية ، وهذا يدفع باتجاه تطوير المنحى الشعوري في لغويات النص الداخلية . وهذه اللغويات يمكن رصدها بواسطة بؤرة القصيدة ، وبوصلة النسق الشعري .

والقصيدة هي مكان غامض لزمانٍ ثوري يُؤلّد من توهجات اللغة. واعتماداً على هذا المنظور، يتم تكييف الجسد الشعري (الداخلي والخارجي) مع عقلانية الوجود الإنساني، ومركزية تاريخه ، فالإنسان _ أولاً وأخيراً _ هو تاريخٌ يدور حَوْلَ نفسه لإعادة صناعة نفسه بما يتوافق مع اتجاه الحركة اللغوية الأفقية (الواقعية) ، والعمودية (الخيالية) . وبالتالي ، يتم بناء خارطة الحلم الإنساني المصيري كتفاعلات رمزية مندمجة بالكلية مع التجربة الجوانية للفرد والجماعة .

*

الرمز الشعري وحركات القصيدة

لا بد من استنباط حركة جديدة تُفسّر القدراتِ الذهنية للحراك الشعري الأبيدي. وهذا الاستنباط لا يعني إخضاع قوانين الحركة العاطفية لطبيعة خصائص المسار اللغوي. وإنما يعني نحت قيم السلوك القصائدي في البنية الاجتماعية ، وذلك من أجل الوصول إلى ثورة لغوية تُعبّر عن المدلول الشعري للكينونة الرمزية الخاصة بنواة الأبيدية .

وكلما سلطنا بؤرة الشعر على المحيطات الفكرية ، اكتشفنا أشكالاً جديدة لأبيديات تولّد من توهجات النصّ المركزية. وهذا الفتحة اللغوي يجب أن يتماهى مع توليد لغات مخيالية جديدة موازية للحلم المجتمعي المقموع ، بُغية حماية الرمز الشعري من هواجس الاختراق ، والإيهام السلبي ، والإيهام المروغ . ولا بد من حماية الرمز الشعري إذا أردنا بناء منظومة قصائدية اجتماعية متماسكة . فالرمز الشعري هو البوصلة المسيطرة على الحركات المتشعبة للقصيدة ، خصوصاً أن القصيدة تتحرك في عوالم شديدة الاضطراب، وبالغة التعقيد ، ومتشابكة إلى حد التماهي .

والقصيدة تستمد قوتها من امتزاج التاريخ بالجغرافيا، وهذا الامتزاج يتّصف بالعنف لأنه يعتمد على حركة التيارات الاجتماعية المعقّدة ، والتي تولّد حركتها زلزلاً فكرياً هائلاً يؤثر في كل طبقات المجتمع الشعري والمجتمع البشري. لذلك ليس غريباً أن تنبثق القصيدة من احتضار الزمكان، وتكون القوة الشعرية نابعةً من إشكاليات الانطفاء (الموت) والانبعاث (الحياة) .

ولا يمكن أن تتجذر القصيدة كنسق إنساني خلاصي ، إلا إذا أحاطت الكينونة المعرفية بأحاسيس الضمير الاجتماعي الجمعي . وإذا كانت هذه الأحاسيس ذات بنية رمزية صلبة ، فإن الدلالة اللفظية على وحدة المعنى الشعوري ستصل إلى أنوية المعرفة ، وتساهم في بناء الصلابة الذهنية للنظام الشعري المتشابك مع الأنساق الاجتماعية ، وربطه بلحظة ولادة اللغة الشعرية المتفرّدة . وبالتالي ، يمتد الشعور الرمزي إلى أبنية ماورائية القصيدة ، فتصبح الظواهر السلوكية الشعرية سلوكاً بشرياً حقيقياً لا صورياً. وهكذا يصير الإنسان والقصيدة جسمين يدوران في مدار التوهج اللغوي المتحرر من جاذبية الأضداد .

*

القصيدة وحماية الصفة الثورية

إن وَحدة الجوهر الشعري هي منهجية متجانسة ، تتكون من اتجاهات سيكولوجية شديدة الحساسية تجاه قيم التحولات الجذرية في المجتمع البشري . وهذه التحولات تمثل العمود الفقري للنواة الحسية للشعر الرمزي ، وتجسّد الاتجاه العام للعلاقات السلوكية المنبعثة من أعماق القصيدة النائرة على ذاتها ومحيطها .

وسياسة القصيدة الاستشراعية الحاملة بتغيير الذات والمحيط ، لا تقف عند تفسير طبقات الرؤية العاطفية اللفظية ، بل تمتد إلى تشخيص قيمة المشاعر الإنسانية . وكلّ قصيدة تقف في منتصف الطريق ستتحرّر قطعاً ، فالطريق الشعري لا يحتمل أنصاف الحلول ، ولا يقبل بالتنازلات . فالشعر ضوء باهر ، لا يُسمح بمحاولة إيقافه ، وإذا تم إيقافه فسوف يتشظى ، ويفقد شرعية وجوده تماماً ، ويتحول إلى شوائب منبوذة .

وأية محاولة لإيقاف عملية ولادة القصيدة ، تشكّل تهديداً حقيقياً لحياة الجنين الشعري . واعتماداً على هذا المنظور ، يتم تأصيل التشوير الرمزي الخاص بمكوّنات الثقافة المركزية ، ويتم توليد منوال شعري متدفق بلا انقطاع ، يعتمد على رُوح المعنى ، وصيغ الكل الثقافي الإبداعي غير القابل للتجزئة .

ولا بد من إدراك حقيقة أن القصيدة ثورية بطّبعها ، لكنّ الانهيارات الاجتماعية المتلاحقة والمؤذّلة بشكل سياسي قمعي ، تعمل جاهدة لتجريد القصيدة من صفة الثورية ، وتعزّي السياق الشعري في المجتمع البشري ، وذلك من أجل تحويل الثورة الشعرية إلى نمط استهلاكي شهواني ، ومن ثمّ إخراجها من النسق التاريخي . وإذا نجحت هذه العملية القاتلة " التّدجين " ، فستموت القصيدة وتتفجر إلى جزيئات عبثية ، مما يجعل القصيدة (المعرفة الإنسانية ذات الطابع الرمزي المكتف) شكلاً للوهم ، وتاريخاً معزولاً عن حركة التاريخ العام .

وفي هذا الزخم الصّراعي ، لا مفر من وضع القصيدة في أقصى مداها ، وإتاحة المجال لها لكي تعمّق اتجاهات الفكر الإبداعي في جغرافية اللغة الاجتماعية المسيطرة على حركة الفرد والجماعة .

*

اللغات الذهنية وتأريخ الشعر

لا بد من تغيير وسائل إنتاج الذاتية الشعرية للحصول على ثقافة جماعية مُنتخبة تحكم رؤية المراحل الشعرية روحياً وجسدياً، مما يؤدي إلى تكوين أنساق الهدم والبناء . هدم المدلول اللغوي المفرط في العدمية والتجريد الأعمى ، وبناء تضاريس أشواق اللغة المقطّرة ، والمنقوعة في ماء الثورة الدائمة . واللغة الشعرية هي رمزية الأمكنة الإبداعية ، وتنوع الأزمنة خارج أنساق الثقافات التقليدية . وإذا أردنا تكوين حُلم اجتماعي متمرد على النمطية الاستهلاكية ، فلا بد أن نؤرخ للشعر باللغات الذهنية (الرموز الخيالية المسيطرة على الواقع) القادمة من الحد الفاصل بين ثورة الروح السابحة ضد التيار ، وبين وجدانيات الألم الثوري الصاعق .

واللغات الذهنية هي إيقاعات فكرية طموحة ، وتنظير فلسفي للظواهر الاجتماعية الوظيفية ، وأنظمة ثقافية متجسدة في الصياغات المتعددة للفكر الشعري ، وحُلم بالثورة على مجتمع الكراهية المبني على الإقصاء، والشطط الطبقي، والتمييز العنصري. وهكذا تتكسر اللغات الذهنية كحركة تصحيحية تدفع القصيدة إلى رفض المتاجرة بأمكنة الزمان الشعري . فالقصيدة لا تُساوم ولا تُهادن مُطلقاً . وهذا مرجعه إلى تمركز الشعر كمجتمع مثالي ذهني على علاقة وثيقة بالتنظيم العقلاني للفاعلية اللغوية المناوئة لسياسة الترقيع ، وأنصاف الحلول .

إن الشعر _ باعتباره فعلاً اجتماعياً مبنياً على التأسيس اللفظي لعوالم المعنى _ هو الدلالة الكونية المصيرية التي تؤسس الحراك الفلسفي لطبيعة اللغة الرمزية . والشعر هو الإشارة المعرفية التي تنطلق نحو أمكنة جمالية لم تُكتشف من قبل. ومن خلال هذا المنظور، يمكن استيعاب معالم البنية الوجدانية للشعر (الكلام الذي لا يُشبه الكلام) .

ومن هنا، فإن الشاعر يكتشف لغته الخصوصية بعيداً عن اللغة الأم التي يتحدثها الجميع ، وهذا لا يعني أنه يحتقر اللغة الأم أو يرفضها أو يتعالى عليها، بل على العكس ، فالشاعر يبنى عالماً موازياً للقدرة المعرفية للأبجدية الأم ، وينتقل من صيغ الواقع الأحادي إلى تفريعات المنحى الخيالي لاجتماعيات الذهن .

*

حركة التصحيح الشعرية

لا بد من إتاحة الفرصة لمعمارية القصيدة كي تقود حركة التصحيح في اللغة الخصوصية ، باعتبار أن الشعر هو الأقدر على ترسيخ الوجود العقلاني لديناميكية الأبجدية . وعندما تكتمل حركة التصحيح فإن وعياً إنسانياً سيُشرق على تضاريس القصيدة ، ويُفسّر الإدراك الحقيقي لقيمة الشعور اللغوي . وهذا الوعي الإنساني ملتصقٌ بفكرة الانقلاب ، انقلاب القصيدة على ذاتها لكي تجد ذاتها ، وانقلاب الفرد على نفسه لكي يجد نفسه . وفي ضوء هذه الثنائية الانقلابية ، يمكن صياغة معايير ثقافية تحدّد مستويات البناء الشعري الطبقي ، ودلالات الوعي المتمركزة في طبقات اللغة .

والقصيدة هي زمكان خارج الزمكان ، تمتاز بالقدرة على تطويع الوجدان الأبجدي . وعلى أية حال ، فإن تطويع الوجدان الأبجدي لا يتأتى إلا باستخدام نصوص مشاعرية قادرة على قلب نظام الحكم القصائدي ، وتشكيل حكومة ألفاظ معنوية تُدير الصراع بين إشكاليات التنافر المعرفي ، وسلوكيات الوعي بكينونة اللغة الشعرية .

إن الأحاسيس الشعرية للسلوك الاجتماعي تدعو إلى التفاؤل بإمكانية أن تقود القصيدة مجتمعاً كلمائياً ذهنياً قادراً على المواجهة والصمود والتفوق . فاللغة حقيقةً منطقية لرموز تُؤكّد من تلقائية الحلم ، وشرعية المعنى الإنساني العام . وضمن هذا السياق يتم التواصل بين اللغة (الرؤية) والشاعر (الرائي) .

ومن الأهمية بمكان ، تمكين الإنتاج اللغوي القصائدي من الوصول إلى أقاصي المفردة ، والتمركز في قلب العلاقات الوظيفية للدلالة التشفيرية الراسخة في كينونة الشعر . وهذه العملية تؤدي إلى تأسيس قيمة الحلم الاستشراقي . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الوجود اللغوي في طبقات اجتماعيات القصيدة ، ينتزع حُلْمه الشرعي من الطبيعة الشعرية للرموز الخيالية القابلة للتطبيق العملي .



الفعل الشعري والفاعلية الشاعرية

لا بد من زراعة الأبداعية الشعرية في نخاع أفكارنا ، وإعادة هندسة ذواتنا بما ينسجم مع اللغة الخصوصية الجديدة العابرة لتجنيس التفاعلات الرمزية . وهاتان العمليتان تقودان إلى صناعة التاريخ المصري المشترك بين الشعر (معادلة الوجود الإنساني داخل لغويات الحلم) ، وبين المجتمع البشري (تصورات الزمكان المحاصر بالأيديولوجية البوليسية) . وفي ضوء هذا الزخم التفاعلي الذي يصهر الأمكنة الشعرية في قلب المعطى الزماني ، تبرز قيمة التفاعلية الفكرية الخلاقة المؤدية إلى دمج جزئيات المعنى مع ديمومة الوجدان المتمرد على الانهيارات المجتمعية . واعتماداً على هذا الأداء اللغوي الاجتماعي، تحصل القصيدة على استقلالها ، وتحتفل بشرعية وجودها بشكل محوري في كافة مفاصل الحياة الاجتماعية للأبداعية الكلمائية المشيرة إلى الحلم الشعري.

ولا يمكن للقصيدة أن تنمو إلا إذا تمتعت بخصائص معرفية قائمة بذاتها ، وهذه الخصائص ينبغي أن توازن بين الفرد الجزئي (إمكانية اللفظة الحلم) والمجتمع الكلي (جدلية الأمكنة الوجدانية للزمان المغيب) . وعلى القصيدة أن تدرك أنها تتحرك في محيط من الأشباح ، والقيم المنهارة المنبثقة عن إنتاجات الكينونة الشاعرية ضمن الأنانية اللحظية . لذلك يجب أن تكون القصيدة كيانه ثابتاً ووعياً ديناميكياً في آنٍ معاً . ولا نعني بالثبات أن تتوقع القصيدة على ذاتها ، وإنما نعني الإصرار على التجديد ، والثبات على مبدأ تداول المعطى المعنوي الملتصق بالرمز الشعري .

إن الفعل الشعري والفاعلية الشاعرية نظامان سلوكيان متزامنان لا متعاقبان ، وهذا يعني وجود سيروية لغوية شديدة التناسق تدمج الفعل مع الفاعل، فيصير الفعل الشعوري فاعلاً ثقافياً ، ويصير الفاعل الشعوري فاعلاً ثقافياً . وتتجلى أهمية هذه العملية التبادلية في قدرتها على إخفاء الثغرات الشعرية في جدار اللغة الخصوصية بشكل جزئي . وإذا أردنا إخفاء الثغرات الشعرية بشكل كامل ، فلا بد من تنوير المعنى ، وصيغ القصيدة بالطابع الثوري ، من أجل التغلب على الملل الكلماتي الذي يكسر صوت الأبداعية ، ويهشم عنقوانها .

فهرس

مقدمة..... ٥

أولاً : النظام الاجتماعي في القصيدة [٩]

تمهيد.....	١٠
١ _ الرؤية الثورية في السياق القصائدي.....	٢٠
٢ _ المضمون الاجتماعي لسياسة الشعر.....	٣٦
٣ _ أنسنة هوية الصناعة الشعرية.....	٤٩
٤ _ القصيدة سُلطة سياسية.....	٦٦
٥ _ تعدد عوالم النص المنظورة وغير المنظورة.....	٧٥
٦ _ صياغة القوة الفلسفية للقصيدة.....	٩٢

ثانياً : المآزق الاجتماعي للثقافة [١١٣]

تمهيد.....	١١٤
١ _ التعريفات المنهجية للثقافة.....	١٢٠
٢ _ التطبيقات اللغوية لمفهوم المغايرة.....	١٣٤
٣ _ أبعاد عملية التحرير المجتمعي.....	١٥٠
٤ _ التعامل مع الذاكرة.....	١٧١
٥ _ التعامل مع التحديات الرمزية والواقعية.....	١٨٨
٦ _ ملامح تاريخ المعقولات الثقافية.....	٢٠٩
٧ _ الموجب والسالب في الوعي الثقافي.....	٢٣٢
٨ _ لغويات النظم الثقافية.....	٢٦١
٩ _ دور الثقافة في صناعة البنى المعرفية.....	٢٨٣
١٠ _ الثقافة كثورة رمزية وأبجدية اجتماعية.....	٢٩٣

ثالثاً : كلام في فلسفة الشعر [٣٠١]

٣٠٢	تمهيد.....
٣٠٣	علم اجتماع القصيدة.....
٣٠٥	سوسيولوجيا الوحدة المكانية للنص.....
٣٠٧	السياسة الشعرية والسياسة الاجتماعية.....
٣٠٩	القصيدة بين سياسة البناء الشعري والحضور الثقافي.....
٣١١	جسد اللغة هو ذاكرة القصيدة.....
٣١٣	الأطوار الفكرية لتاريخ النص الشعري.....
٣١٥	زواج الخيال والواقع في القصيدة.....
٣١٧	صدمة القصيدة هي طريق الحرية.....
٣١٩	القصيدة هي روح التنمية الاجتماعية.....
٣٢١	الأسئلة والأجوبة في الفكر القصائدي.....
٣٢٣	القصيدة والموازنة بين الغموض والوضوح.....
٣٢٤	القصيدة من ثورة اللغة إلى لغة الثورة.....
٣٢٥	القصيدة والتحويلات الاجتماعية.....
٣٢٧	بوصلية النص الشعري.....
٣٢٩	الكتابة الشعرية والبحث عن الأصل.....
٣٣٠	تحرر القصيدة هو تحرر المجتمع.....
٣٣١	الإنسان وثقافة الشعر.....
٣٣٢	مراحل ولادة الإيقاع في القصيدة.....
٣٣٤	السلوك الاجتماعي للثقافة الشعرية.....
٣٣٥	معالم وظيفة القصيدة.....
٣٣٦	الرؤية عبر مجهر القصيدة.....
٣٣٧	انقلابات الكتابة الشعرية.....
٣٣٨	الثقافة الشعرية والثورة الاجتماعية.....

٣٣٩.....	بصيرة الفعل الشعري.....
٣٤٠.....	معركة القصيدة.....
٣٤٢.....	الفكر الانقلابي في الممارسة الشعرية.....
٣٤٤.....	التجاوز والصراع من منظور الشعر.....
٣٤٥.....	القوة الدافعة للنص الشعري.....
٣٤٧.....	حكومة الثقافة.....
٣٤٨.....	الشعر وعسكرة المعنى.....
٣٥٠.....	القصيدة تعيد الحياة إلى المجتمع.....
٣٥١.....	القصيدة : إعمار الخيال وترميم الذاكرة.....
٣٥٢.....	نحو توليد معجم شعري خاص.....
٣٥٣.....	أهمية الرمز الشعري في صناعة الواقع.....
٣٥٤.....	هندسة الخيال وإعادة بناء المجتمع.....
٣٥٥.....	أهمية القصيدة كجسر اجتماعي.....
٣٥٦.....	الدورة الدموية لأبجدية الشعر.....
٣٥٧.....	البحث عن هوية القصيدة.....
٣٥٩.....	عنفوان القصيدة والعقل الشعري.....
٣٦٠.....	الشعر : صانع الحلم وحارس الشرعية.....
٣٦١.....	أثر منظومة الشعر الثورية.....
٣٦٢.....	التغير والتغير في الأفق الشعري.....
٣٦٣.....	القصيدة سُلطة سياسية.....
٣٦٤.....	البعد الاجتماعي للتنوير الشعري.....
٣٦٥.....	الشعر صوت من لا صوت له.....
٣٦٦.....	القصيدة خط الدفاع عن الحضارة.....
٣٦٧.....	خصائص الشعر الأساسية.....
٣٦٨.....	أبعاد مغامرة الكتابة الشعرية.....
٣٦٩.....	القصيدة مشروع اجتماعي عام.....

الشعر ومنظومة الأبجديات.....	٣٧٠
تحديات في طريق القصيدة.....	٣٧١
جمرة القصيدة وصناعة العالم النقي.....	٣٧٢
فلسفة الهدم من منظور الشعر.....	٣٧٣
أعضاء الجسم القصائدي الحي.....	٣٧٤
حركة الشعر ضد الفراغ.....	٣٧٦
فضاءات الرمزية الشعرية.....	٣٧٧
القصيدة وصناعة المستقبل.....	٣٧٨
الحرب الشعرية على الوهم.....	٣٧٩
الوعي ووجود القصيدة.....	٣٨٠
فلسفة القصيدة والعاطفة الإنسانية.....	٣٨١
التحولات المصيرية في عالم الشعر.....	٣٨٢
نحو نظام شعري عالمي جديد.....	٣٨٣
الأساس الفكري للشعر.....	٣٨٤
الفعل الشعري والتنمية الاجتماعية.....	٣٨٥
دور الأبجدية الثقافية في المجتمع.....	٣٨٦
انتفاضة الفكر الشعري.....	٣٨٧
القصيدة ترفض التهميش.....	٣٨٨
الشرعية الاجتماعية للشعر.....	٣٨٩
القصيدة خارطة جديدة للعالم.....	٣٩٠
تحول القصيدة إلى سلوك اجتماعي.....	٣٩١
عوالم القصيدة والمجتمع الإنساني.....	٣٩٢
القصيدة والتاريخ الجديد.....	٣٩٣
النص الشعري ورفض الحياد.....	٣٩٤
القصيدة ثنائية القطب.....	٣٩٥
أهمية اللغة الشعرية.....	٣٩٦

٣٩٧.....	القصيدة مشروع استثماري.....
٣٩٨.....	دور القصيدة في بناء الإنسان.....
٣٩٩.....	القصيدة وفلسفة النقد الذاتي.....
٤٠٠.....	دور الشعر في صناعة التجانس.....
٤٠١.....	القصيدة مملكة الرمز.....
٤٠٢.....	المجتمع الشعري والمجتمع الإنساني.....
٤٠٣.....	التقليد والإبداع في النظام الشعري.....
٤٠٤.....	قواعد البناء الشعري.....
٤٠٥.....	تحول المادة الشعرية إلى طاقة.....
٤٠٦.....	القصيدة والرؤية والرأي.....
٤٠٧.....	وحدة الجسد القصائدي.....
٤٠٨.....	الكتابة الشعرية فيزيائياً وكيميائياً.....
٤٠٩.....	سلوك القصيدة والانتخاب الطبيعي.....
٤١٠.....	اللاشعور والشعور في عالم القصيدة.....
٤١١.....	تطبيقات معادلة الوجود الشعري.....
٤١٣.....	ماهية التحولات في العوالم الشعرية.....
٤١٤.....	النظام الشعري ونُورِية اللغة.....
٤١٥.....	الغربة كنظام سلوكي شعري.....
٤١٦.....	الرمز الشعري وحركات القصيدة.....
٤١٧.....	القصيدة وحماية الصفة الثورية.....
٤١٨.....	اللغات الذهنية وتأريخ الشعر.....
٤١٩.....	حركة التصحيح الشعرية.....
٤٢٠.....	الفعل الشعري والفاعلية الشاعرية.....
٤٢١.....	صدر للمؤلف.....
٤٢٢.....	فهرس.....